دراسات تاريخية

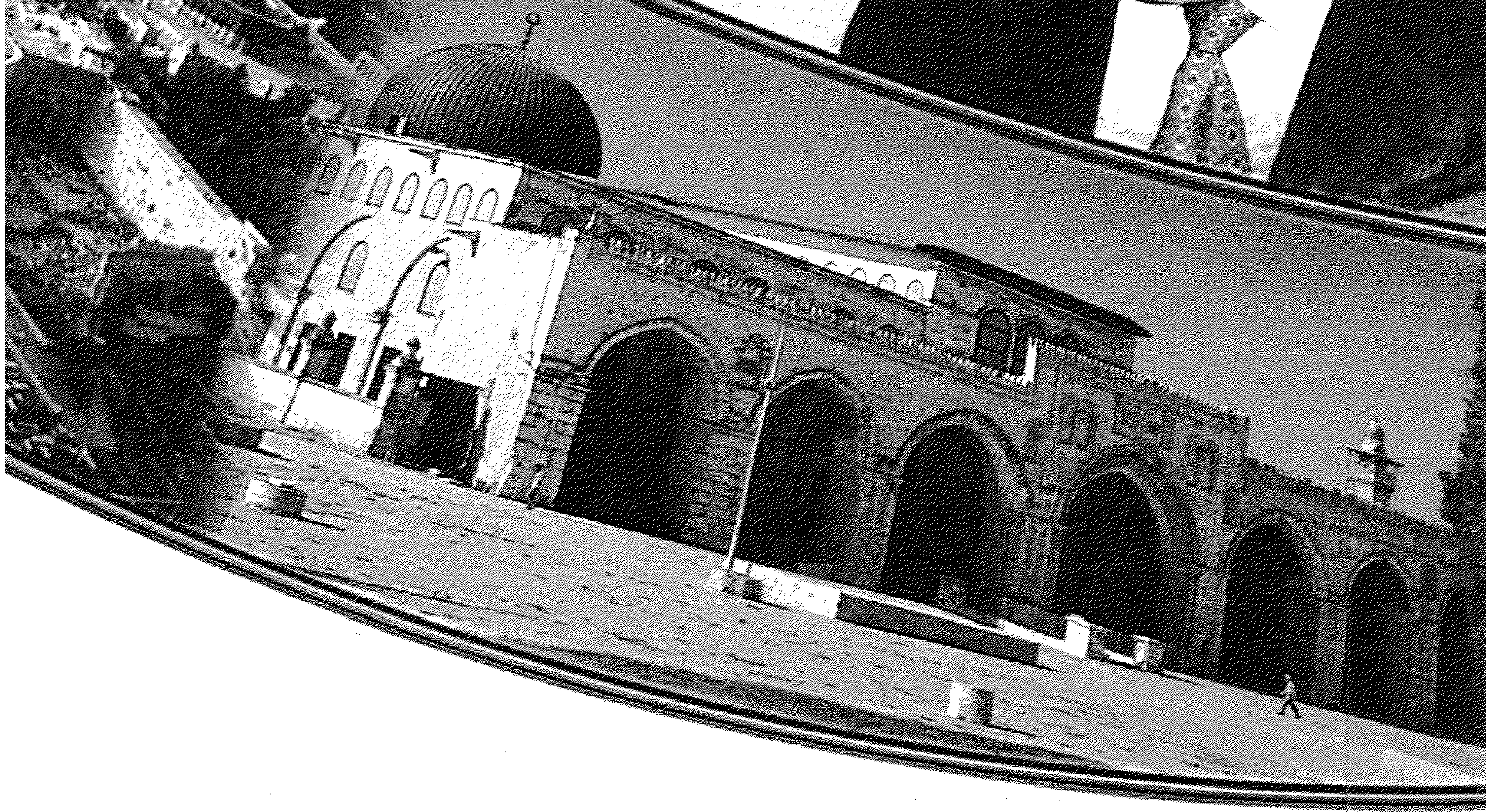
مهداة إلى

الأستاذ الدكتور

عادل حسن غنيم

رائد الدراسات الفلسطينية المعاصرة





تحرير

جمال محمود حجر

عميد كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

٢٠٠٥

المشاركون في هذا الكتاب

أحمد الشربيني
أحمد جلال
أحمد زكريا الشلق
جمال زكريا قاسم
جمال محمود حجر
رءوف عباس حامد
السيد حسن عباس
عادل حسن غنيم
عبادة كحيلة
عبد الباري إبراهيم درة
عبد الله عبد الرازق
عبد المنعم الجميعي
علاء الدين كفافي
علي السيد علي
علية حنفي
فاروق عثمان أباظة
كرم الصاوي باز
كمال عرفات نبهان
ماجدة النويعمي
ماهر عطيه شعبان
محمد السعيد جمال الدين
محمد السعيد عبد المؤمن
محمد عادل غنيم
محمد مؤنس عوض
محمد محمود الديب
محمد يوسف عدس
محمود إسماعيل
مصطفي كمال عبد العليم
نجلاء عادل غنيم
نجوى كمال كيرة
نوال مختار خليل
هارون عبد العزيز الجمل
يحيي محمد محمود

دراسات تاريخية



مهداة إلى
الأستاذ الدكتور
عادل حسن غنيم
رائد الدراسات الفلسطينية المعاصرة

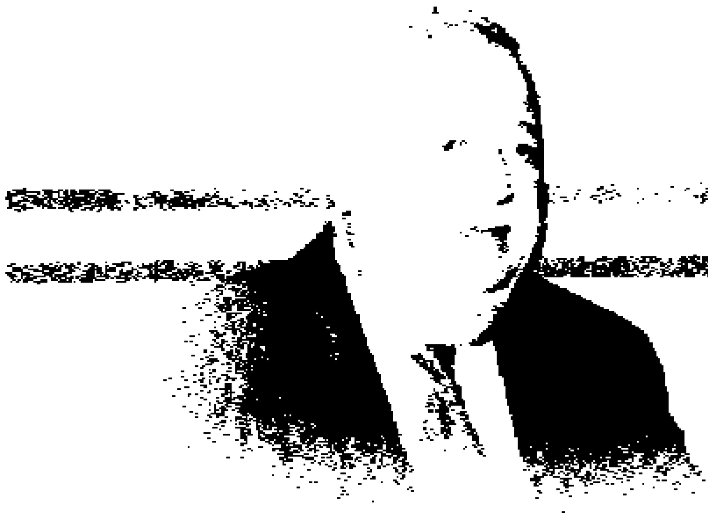
تحرير
جمال محمود حجر
عميد كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

٢٠٠٥

رقم الإيـداع بدار الكتب المصرية ٢٢٠٤٩ لسنة ٢٠٠٥




بسم الله الرحمن الرحيم



مقدمة المحرر

حين يكرس باحث دؤوب جل حياته العلمية منذ مطلع الستينيات من القرن الماضي إلى الآن (٢٠٠٥) لخدمة تاريخ القضية الفلسطينية (قضية العرب الأولى)، وحين يصل إنتاجه الفكري حول هذه القضية خمسين عنواناً ما بين مقال وكتاب، فإن ذلك وحده سبب كاف لتكريم مسيرة الأستاذ الدكتور عادل حسن غنيم، رائد الدراسات الفلسطينية الحديثة.

والتكريم عملية إنسانية اجتماعية وثقافية معروفة لدي كافة الأوساط الاجتماعية والثقافية، ولكنها تتفاوت بين تلك الأوساط في المضمون والدلالة والرمز، كما أنها تتفاوت في موعد تقدير المكرم والاعتراف بفضله، وقد ألِف المجتمع تكريم الشخص بعد وفاته، إقراراً بفضله، وتخليداً لاسمه،وإيثاراً للسلامة من أي نقد اجتماعي. وهذا الموقف على وجاهته يفوّت الفرصة على المكرَّم نفسه أن يستشعر تقدير المجتمع لإنجازاته التي أفنى فيها عمره، وهذا في تقديري ظلم بينٌ، لأن كلاً منا يريد أن يقف على حقيقة الدور الذي أداه في حياته، وهو دور يؤديه كل منا مرة واحدة، وخاصة أولئك المخلصين المتفانين في أعمالهم الذين يجب أن نتخذ منهم قدوة للأجيال.

ومع تقديري لوجاهة رؤية هذه المدرسة، فإن تكريم المرء في حياته، كلما لاحت الفرصة لذلك، يعتبر دافعاً لتجديد حياتنا، وتجديد واقعنا، وبعث الأمل في الاستمرار والتواصل بين الأجيال، وهو ما دفعني إلى تبني هذا الاتجاه البناء.

ولم يكن توجيه الدعوة إلى الزملاء والأصدقاء لتكريم الأستاذ الدكتور عادل حسن غنيم إلا تقديراً لرجل عرفته عن قرب.

الحق أن معرفتي بعادل غنيم لم تكن معرفة عميقة في بداية الأمر، إذ لم تتجاوز لقاءات عابرة أو قراءة شئ من إنتاجه الفكري حول القضية الفلسطينية، إلى أن كان يوم ٣أكتوبر ١٩٨٥، حين وصلت إلى دولة قطر معاراً إلى جامعتها.

وفي فندق شيراتون الدوحة كان عادل غنيم وأعضاء هيئة التدريس بقسم التاريخ في استقبالي قادماً جديداً منضماً إلى فريق العمل بالقسم، وعلى أرض الدوحة عرفت عادل غنيم.

كان عادل قد سبقني إلى جامعة قطر في عام ١٩٧٩، حين كانت الجامعة في مرحلة التأسيس. وكان قد استن هو وزملاؤه الرواد الأوائل إلى الجامعة تقليد استقبال كل قادم جديد إلى الجامعة، وتقديم كافة التسهيلات له بحيث لا يستشعر القادم غربة المكان أو الزمان أو الثقافة. في هذا اللقاء الأول ترك الزملاء الجدد بصمة رائعة لا تزال راسخة في الوجدان. بدا لي عادل في هذا اللقاء الأول قوى الشخصية، قائد جماعة، عذب الحديث، عف اللسان، متواضع. عرفت بعد عشرين عاماً أن هذه كانت صفات أبيه.

ودارت عجلة الحياة في قطر لمدة خمس سنوات بصحبة عادل غنيم، كنت أنظر إليه وقتها- ولازلت- على أنه الأخ الأكبر، الذي تتعمق صلتي به يوماً بعد يوم. وتبينت لي خلالها قيم الرجل وإنسانيته الراقية، وشخصيته النبيلة، وكرمه الحاتمي، وإحساسه الجميل بالحياة، وإضفاؤه ذلك الإحساس على من حوله، ورضاه بما قسم الله، وحرصه على أن يعمل بلا كلل أو ملل ما دام قادراً على العمل.

كل هذا جعل الرجل قريباً إلى نفسي، فاسترحت إليه، وتشاورت معه في كثير من القضايا العلمية والحياتية، فلمست فيه صدق المشورة، وتنامت علاقاتنا، وامتد تواصلنا بعد خبرة السنوات الخمس التي تأكد لي فيها أن الرجل كان حامياً للقيم، التي قد يقفز البعض عليها حماية للمصالح. وكانت خصال عادل تلك من أكثر ما شدني إلى هذا الرجل، الذي لا يخشى في الحق لومة لائم، وهي خصال لا تزال تلازمه إلى اليوم، في زمن نظن أن الفضائل فيه قد توارت، وأن القيم الإنسانية الأصيلة قد انزوت، وأن قيماً مدسوسة بدأت تتخر



في عظام المجتمع، فقلبت الأوضاع رأسا على عقب، حتى فقدنا التوازن بغياب كل جميل عن حياتنا، وبدت حياتنا صحراء جليدية.

وبعد عشرين عاماً من التواصل مع عادل غنيم (١٩٨٥) وإلى وقت كتابة هذه السطور (٢٠٠٥) تبين لي أن أصول قيم الرجل تعود إلى البيئة الاجتماعية والثقافية التي نشأ فيها. فأبوه كان نقابياً بارزاً من رواد التعليم في قرية نشا بمحافظة الدقهلية، وكان شاعراً يتمتع بحس أدبي مرهف، وكان جده لأمه من علماء الدين.

ترسخت قيم القرية الأصيلة عند عادل بوضوح لا شبهة فيه، ومنذ البداية رصد أبوه فيه "شعوراً مبكراً بالرجولة والمسئولية متوجاً بالتدين والاستقامة" وسجل له ذلك في دفتر ذكرياته في أبريل ١٩٤٩، وكان لا يزال بالمرحلة الثانوية. ولم يكن الرجل منحازاً لابنه، وإن كان الانحياز في هذه الحال أمراً طبيعياً، لأن ناظر مدرسة طلخا الثانوية خط بقلمه في دفتر ذكريات عادل في أكتوبر ١٩٤٨ "يكفيه (عادل) ما يمتاز به من خلق ووداعة ورجاحة رأي". وهي صفات تلازم عادل إلى اليوم. ولكن ناظر المدرسة وضع نبوءته بشأن مستقبل عادل في نفس الكلمة حين اعتبره "مثلاً طيباً لمن تعتز بهم البلاد في مستقبلها".

لم تكن الانطباعات السابقة عن الشاب عادل غنيم انطباعات فردية، وإنما كانت إجماعاً من كل الذين درس عادل على أيديهم، فقد خطها بيده عبد الرحمن راضي مدرس أول اللغة العربية في أبريل ١٩٤٩، وصاغها بكلمات أخرى حسين صالح ناظر المدرسة في أبريل ١٩٥٠، وعددها أحمد درويش ناظر المدرسة في أبريل ١٩٥١، وعبد العظيم عطية على المدرس بالمدرسة في مارس ١٩٥٢، ومصطفي كامل ناظر المدرسة في مارس ١٩٥٣.

هكذا يحمل دفتر ذكريات عادل كثيراً من الانطباعات الإيجابية عن الرجل بخط أصحابها، كلها تبشر بأن "ذكراه ستخلد في سجل عظماء الرجال" أو هكذا سجل له أبوه حين كان يستشرف مستقبل ابنه في ١٣أبريل ١٩٤٩. ولم أكن أعرف ذلك كله عندما تزاملت مع عادل في الدوحة، ولا حتى بعد العودة إلى الوطن، ولكنني وقفت عليه حين كان من الضروري أن أخط كلمات هذه المقدمة بموضوعية وقناعة عقلية لا يغيبها حبي للرجل، الذي اتفق كل من أعرفهم على احترامه وتقديره.

أعادت إليّ هذه القناعة العقلية شيئاً من التوازن المفقود بسبب انتشار القيم المدسوسة في مجتمعنا المعاصر، وأعطت الأمل في أن الدنيا لا تزال بخير، وأننا يمكن أن نبني على بقايا قيم الزمن الجميل، وأن نعظم حامليها، وأن نذكر أنفسنا بما كان لدينا ثم فقد منا في زحام إيقاع الحياة المعاصرة. وراودتني في هذا الاتجاه فكرة تكريم مسيرة الرجل العلمية بصفته حاملاً للقيم وحامياً لها، فكانت فكرة إصدار هذا الكتاب التكريمي.

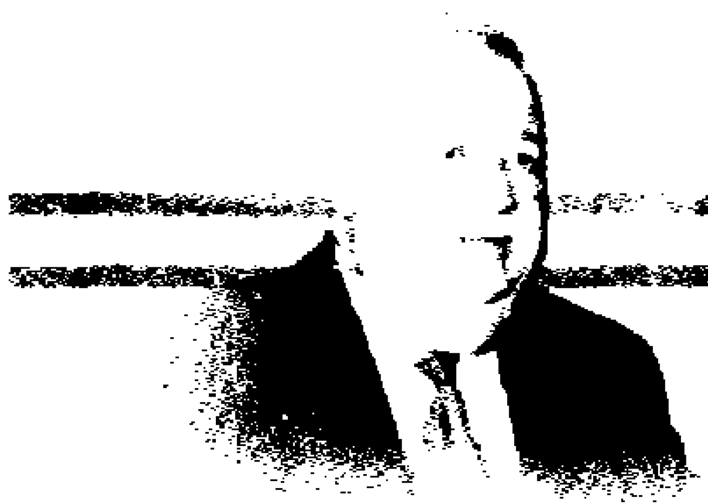
وفي مناسبة بلوغ عادل غنيم سن السبعين، بارك الله في عمره، طيرت دعوات إلى زملاء الرجل وتلاميذه ومحبيه للمشاركة في إعداد الكتاب، تاركاً لكل مدعو أن يكتب ما يشاء عن الرجل وعلمه، أو عن مجال اهتمامه الأكاديمي (فلسطين). وكانت المفاجأة سيل متدفق من الانطباعات الشخصية الحميمة والبحوث العلمية الرصينة، التي تكشف عن حظ وافر من الحب والتقدير والاحترام للرجل، وتكشف عما تكنه النفس البشرية من فضائل، عادت تنبت من جديد في صحراء جليدية كونتها عوامل الحداثة وانعكاساتها السلبية على أوضاعنا الاجتماعية، حتى ظننا- وبعض الظن إثم- أن المستويات الراقية من العلاقات الإنسانية قد ماتت.

وأمام فيض من البحوث والمقالات والانطباعات فرض منهج إعداد الكتاب نفسه؛ فحين حرر الزملاء مقالات عن سيرة المكرم وأعماله، جاء الكتاب على شاكلة ما أعده مكرمو العقاد، وحين حرروا بحوثاً علمية متخصصة جاء الكتاب على شاكلة ما أعده مكرمو طه حسين. وعلى هذا النحو جمع منهج الكتاب بين الحسنيين.

وتشكل مشاركات الزملاء الأفاضل تنوعاً رائعاً من الكتابة التاريخية في فروع التاريخ المختلفة، مما يؤكد على تنوع العلاقات بين المكرم وزملائه وتلاميذه ومحبيه، لذا وجب تقديم الشكر الجزيل الذي يليق بمقام كل هؤلاء.

كما أتوجه بالشكر لكل من السيد/ عبد الفتاح الحضري على جهوده المخلصة في إخراج الكتاب، والآنسة شيرين لطفي على متابعتها الدؤوب لكل ما يتعلق بإنجاز الكتاب في مختلف مراحله.

جمال محمود حجر



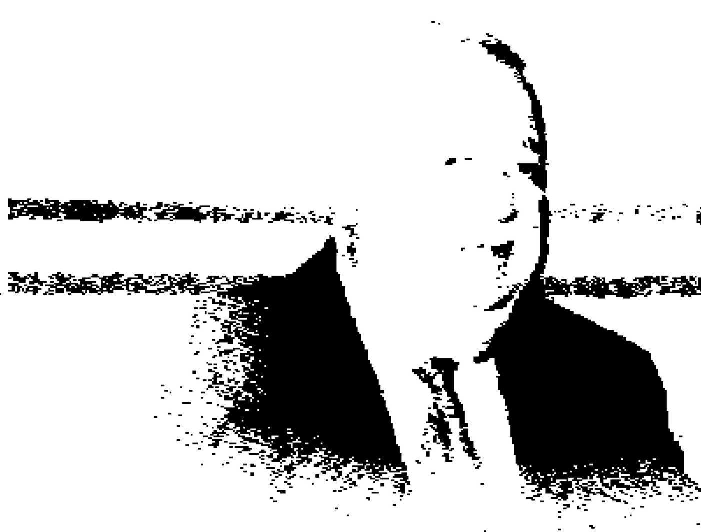
المحتويات

المحـور الثانــي
في التاريخ القديم والوسيط

المحور الثالث
في التاريخ الحديث والمعاصر

المحـور الرابع
دراسات متنوعـة

المحور الأول
حول المكرم



ذكريـــــات من حياتي

بقلم

أ.د. عادل حسن غنيم

ذكريات الطفولة والصبا :

ولدت في قرية نشا مركز طلخا محافظة الغربية ـ الدقهلية الآن ـ في فجر ٢٦ مارس ١٩٣٤م من أسرة متوسطة الحال، فالوالد ـ رحمة الله عليه ـ كان معلمًا بالمرحلة الأولية، وكان قد وصل في تعليمه حتى السنة الثانية الثانوية بمدرسة طنطا الثانوية، فلما توفي والده ترك المدرسة ليعول إخوته خاصة أنه كان أكبرهم، وتفرغ بعض الوقت لزراعة الأفدنة الثلاث التي تركها لهم الوالد، وعندما أتيح له فرصة في بداية العشرينيات من القرن العشرين للعمل مدرسًا لم يضيع هذه الفرصة، لكنه ظل لبعض الوقت يتابع زراعة الأرض مستعينًا ببعض الأقارب.

وكان الوالد مهيب الطلعة قوي الشخصية، جذاب الحديث، وكان صادقًا شجاعًا لا يخاف في الحق لومة لائم، وكم كلفه ذلك كثيرًا من المتاعب والمشكلات، كما كان وفديًا متحمسًا حتى أنه نقل في عام واحد خلال حكم صدقي باشا ثلاث مرات. ما أن يستقر في إحدى القرى حتى يصدر قرار بنقله إلى قرية أخرى، وعندما نقل إلى القرية الثالثة وأراد أن تستقر أموره أرسل تلغرافا مطولاً إلى صدقي باشا زاعمًا أن القرية ليس بها سكن مناسب أو مياه صالحة للشرب ورجاه أن ينقله إلى قرية أخرى، فأشر صدقي باشا على البرقية " يبقى بها ". ولذلك فقد كان الوالد يردد عندما يتذكر هذه الواقعة " لقد كان صدقي باشا عقلية جبارة، لكني ضحكت عليه ".

وكان الوالد يتمتع بحس أدبي مرهف، فقد كان شاعرًا من شعراء محافظته، وكان يشارك في إلقاء القصائد في المناسبات الدينية والوطنية المختلفة، وكتب

مسرحية شعرية عن ثورة ١٩١٩م، وقد قمت بجمع الكثير من قصائده، وأنوي إن شاء الله طبعها في ديوان باسمه تخليدًا لذكراه، خاصة وقد قام المثقفون من أهل القرية بإنشاء مدرسة باسمه " مدرسة حسن غنيم الإعدادية بنشا " باعتباره من أوائل المعلمين الذين خرجوا من القرية، وكان له دور بارز في حياة أهل قريته وتعليم أبنائهم.

وكان الوالد محبًا للتاريخ، وكثيرًا ما كان يحدثني عن أدوار القادة والزعماء، وكان سعد زغلول هو الشخصية الأثيرة إلى نفسه، ولذلك فقد كان حبي لدراسة التاريخ راجعًا بالدرجة الأولى إلى تلك الأحاديث الكثيرة التي كان يقصها علينا عندما نجلس حوله في المساء نستمع إليه في شوق واهتمام، وقد أسهمت الظروف فيما بعد في دعم هذا الاتجاه.

وكان الوالد نقابيًا بارزًا فقد أسهم في إنشاء فرع لنقابة المعلمين بمدينتي طلخا والمنصورة، كما وصل نقابيًا إلى أعلى تشكيل نقابي للمعلمين في مصر وهو مجلس نقابة المعلمين الذي كان يرأسه كمال الدين حسين عضو مجلس قيادة الثورة خلال الخمسينيات من القرن العشرين.

وكان تأثري خلال الطفولة والصبا إلى جانب الوالد بالوالدة ـ رحمة الله عليها ـ فقد كانت طيبة ومتسامحة تحرص على أداء صلواتها الخمس في أوقاتها، وتستيقظ بانتظام لصلاة الفجر، وتحسن معاملة الناس خاصة الجيران الذين كانت زوجاتهم يلجأن إليها لاستشارتها في مشكلاتهن، فقد كانت محبة للخير، مسارعة إلى نجدة الملهوف والمحتاج.

وإلى جانب الوالد والوالدة، فقد كان هناك تأثير ديني عليّ من ناحية جدي لأمي الشيخ أبو المجد رجب الذي كان من علماء الدين، والذي كان خليفة لمولد " القصبية " الذي ما زال يقام في القرية حتى الآن، حيث كان يصحبني معه خلال تواجدي في الإجازة الصيفية لأداء الصلوات المنتظمة بالمسجد.

وقد رزق الله الأسرة بعشرة أبناء أربعة بنات وستة أولاد، انتقل ثلاثة منهم إلى رحمة الله، وكان ترتيبي الثاني بين الأبناء لكن كنت الأول بين الأولاد، ومن هنا كنت أعامل معاملة خاصة، حيث كان هناك حجرة لي وحدي من الصغر، وكان كل أفراد الأسرة يسارع بتلبية احتياجاتي، وحظيت برعاية الوالد حتى أنه كان يقول لي بين وقت وآخر " لقد صنعتك على عيني ".

وقد قضيت طفولتي وصباي في عدة قرى حيث كان يعمل الوالد، فإضافة إلى القرية الأصلية " نشا " عشنا سنوات في بسيون وكوم الحجنة ودميرة ونبروه وطلخا، ولا يذكر الإنسان في معظم هذه القرى سوى أيام اللعب في الشارع، وتلك المناسبات الدينية التي كان يحتفل بها الوالد في المنزل مثل المولد النبوي، لكن حدث في بلدة " نبروه " أمر هام لي كان له تأثيره في حياتي.

فإضافة إلى المدرسة الأولية التي كنت أدرس بها والتي كانت تنتهي بالسنة السادسة، أخبرني الوالد أنه يتمنى أن يدرس أحد أولاده بالأزهر الشريف، لكن الأمر يستلزم أولا حفظ القرآن الكريم، وأنه قد وقع عليه اختياري لهذه الدراسة، وأن عليَّ أن أبدأ في حفظ القرآن الكريم بمكتب الشيخ محمد أبو يوسف عصر كل يوم إذا أردت الاستمرار صباحًا في المدرسة، ولم يكن أمامي سوى القبول بتوجيهات الوالد بغض النظر عن عدم ارتياحي لهذه الدراسة المستمرة حتى المساء.

وأقبلت على الكتَّاب أحفظ يوميًا من كتاب الله ما شاء لي أن أحفظ إلى أن تمكنت من حفظ أربعة عشر جزءًا في سن التاسعة والعاشرة، وكان لها تأثير كبير في نفسي، ظل يلازمني حتى اليوم، فقد أصبحت لغتي العربية جيدة، كما أن القرآن الكريم لم يكن مجرد آيات تحفظ لكنه كان سلوكًا يمشي على الأرض - بقدر المستطاع - وظلت معاني الحق والعدل والشورى والمساواة ينابيع أسترشد بها، وأفكارًا أحاول التفاعل معها والسير على هديها.

ولاشك أن الشيخ محمد أبو يوسف صاحب أشهر الكتاتيب في نبروه قد ساعدني على حفظ تلك الأجزاء، فرغم ما عرف عنه من شدة وصرامة خاصة وأن العصا الطويلة أو المقرعة لم تكن تفارق يديه، لكنه كان يحسن معاملتي ربما بحكم جيرته لأسرتي، لكني رغم ذلك كنت أهاب شخصيته وأخشى أن أضرب بتلك العصا التي يحملها، والتي كان مجرد ضرب زملائي بها يسبب لي شيئًا من الخوف.

وحدث خلال تلك الفترة شيء كان له دور في تغيير مسار حياتي، فقد أدرك الوالد أن الأولاد يكبرون وأنه يحسن تعليمهم وأن الانتقال إلى مدينة طلخا ـ المواجهة لمدينة المنصورة ـ سوف ييسر أمر تعليم الأولاد نظرًا لوجود مدرسة ابتدائية ومدرسة ثانوية بها، من هنا كان سعيه حثيثًا إلى الانتقال إلى طلخا مكتفيًا بوظيفة مدرس رغم أن النظارة جاءته مرات عديدة فاعتذر عن عدم قبولها حرصًا على حسن تعليم أولاده، وها هو يعبر في إحدى قصائده عن تمنياته بالنقل إلى طلخا فيقول :

بالنقـــــل طلخـــــا ربنـــــا   ســـــهل قريبًـــــا يـــــا قـــــدير
حســـن ينـــــادي داعيـــــا   يـــــا رب أنقـــــذ يـــــا خبيـــــــــر

لكن هذا النقل لم يترتب عليه عدول الوالد عن فكرة دراسة أحد أولاده بالأزهر الشريف، فليس بالضرورة أن يكون عادل، حيث وقع اختيار الوالد على "محمد" آخر الأبناء الذي درس بالتعليم الأزهري حتى الثانوية الأزهرية، وكان يلقي خطب الجمعة منذ شبابه، لكن الله توفاه في حادث قطار سقط منه نتيجة الزحام الشديد.

نقلت الأسرة من نبروه إلى طلخا عام ١٩٤٥م، وكان النقل فاتحة خير على الجميع حيث بدأ الأولاد يتعلمون، فالتحقت الأخت الكبرى بمدرسة المعلمات بالمنصورة، والتحقتُ بالسنة الثانية بطلخا الابتدائية بعد اجتيازي لامتحان القبول حيث حصلت على الشهادة الابتدائية عام ١٩٤٨م، وكنت خلال أيام الامتحان

أتابع بشغف أخبار حرب ١٩٤٨م وما أذيع عن انتصارات حققها الجيش المصري في تلك الحرب حتى أنه اقترب من تل أبيب، ولم أكن أتصور ساعتها أن قضية فلسطين سوف تصبح شاغلي الرئيسي بعد تخرجي من الجامعة حتى اليوم، أي لفترة تجاوزت الأربعين عامًا من الزمان.

وخلال المرحلة الابتدائية كنت طالبًا عاديًا أنجح في كل عام لكني لم أكن متفوقًا حيث كان الحساب والرسم يمثلان مشكلة بالنسبة لي، مما جعل الوالد يحضر لي مدرسًا من أصدقائه في كل من المادتين لعدة أشهر.

والتحقت بمدرسة طلخا الثانوية حيث لم يكن هناك نظام المدرسة الإعدادية بعد، وبدأت مواهبي تتفتح في تلك الفترة حيث كنت الأول على فصلي طوال السنوات الثلاث الأولى من المدرسة الثانوية، ولا أعرف سببًا حقيقيًا لهذا التفوق المفاجئ بعد أن كنت طالبًا عاديًا في المرحلة الابتدائية، كما أني خلال المرحلة التالية في مرحلة الثقافة والتوجيهية عدت لأصبح طالبًا عاديًا، ولعل السبب الرئيسي في ذلك يرجع إلى بداية اهتمامي بالسياسة خلال الأعوام ١٩٥١م، ١٩٥٢م، ١٩٥٣م، فقد أصبحت من زعماء المدرسة الذين ينتظر الطلاب خطبهم وتعليقاتهم عن أحداث الوطن، ولعل الكثيرين سوف يتعجبون : هل من المعقول أن هذا الإنسان الهادئ كان يُحمل على الأعناق ويقود المظاهرات في مرحلة التوجيهية ؟

وأذكر في نهاية المرحلة الثانوية أني كنت أتقاضى من الوالد مصروفًا شخصيًا في كل شهر يبلغ الخمسين قرشًا، وكنت بهذا المبلغ الضئيل أشاهد أسبوعيًا الفيلم الذي يعرض للمرة الأولى بسينما عدن بالمنصورة بتكلفة شهرية تبلغ عشرة قروش، كما كنت أستعير مرة على الأقل في كل أسبوع من مكتبة خاصة بميدان المحطة بمدينة المنصورة أحد الكتب التاريخية(أي في حدود خمسة قروش) فكان يبقى معي خمسة وثلاثون قرشًا كانت كافية لشراء الترمس والحلبة وأكواز الذرة ونحن نمشي عصرًا على شاطئ النيل سواء بطلخا أو

المنصورة حيث كنا نقطع هذه المسافة عدة مرات حيث نعود بعدها إلى المنزل للراحة والنوم، وكثيرًا ما كنت أدخر من هذا المبلغ عدة قروش أعطي منها للإخوة الصغار.

وخلال تلك الفترة تفتحت نفسي للقراءة وبدأت عقليتي الثقافية في التكون، ولعلي في تلك السنوات وما بعدها قد قرأت عددًا من أمهات الكتب، والتهمت كثيرًا من كتابات المنفلوطي، ومصطفى صادق الرافعي، وعبقريات العقاد، وكتاب " محمد " لمحمد حسين هيكل، والأيام وعلى هامش السيرة لطه حسين، وحفظت الكثير من شعر المتنبي، وأحمد شوقي، وحافظ إبراهيم، وتابعت كتابات محمد مندور في صوت الأمة، وأحمد أبو الفتح في المصري، وأبو الخير نجيب في الجمهور المصري، ومحمد التابعي في أخبار اليوم.

ذكريات الشباب والجامعة :

لعل من المناسب أن نعتبر مرحلة الشباب والجامعة مرحلة واحدة متصلة ففيهما يتضح النشاط والحماس والإرادة، وقد بدأت هذه المرحلة بعد حصولي على شهادة " الثقافة" وهي السنة الرابعة من المرحلة الثانوية، ففي أواخر عام ١٩٥١م ألغت حكومة الوفد معاهدة ١٩٣٦م، وحدثت معارك القناة ضد القوات البريطانية، وكانت الروح الوطنية في أقوى صورها.

وكان هناك دعوة عامة للجهاد، وأقبل الكثيرون على التدريب العسكري استعدادًا للمشاركة في النضال، وبحثنا عن أي معسكر في مدينة المنصورة فعلمنا أن هناك معسكرًا في جزيرة بالنيل مواجهة للمدينة، فذهبنا إلى هناك أنا وعدد من أصدقائي حيث انضممنا إلى التدريب الذي كان يشرف عليه مدرس بالأزهر بالمنصورة هو "صلاح الشربيني" إلى أن انتهينا منه وأصبح من حقنا أن نتطوع.

تداولت مع ثلاثة من أصدقائي في الأمر فقررنا السفر إلى الإسماعيلية للانضمام إلى معسكرات الفدائيين على أن يترك كل منا رسالة لوالده يخطره

بالأمر، وسافرنا فعلاً إلى الإسماعيلية حيث انضممنا إلى أحد مراكز التطوع، وظللنا ثلاثة أيام نستمع إلى بعض المحاضرات عن طبيعة المعسكرات الإنجليزية بالقناة وأفضل الوسائل لاقتحامها، والعمليات المحدودة التي يمكن أن نقوم بها في البداية.

وفوجئنا في اليوم الرابع بمن يسأل عني وأصدقائي لمقابلة الشيخ محمد فرغلي الذي كان أحد المشرفين على معارك القناة، وكانت المرة الأولى التي نراه فيها حيث أخطرنا أن ثلاثة من آبائنا حضروا إلى الإسماعيلية بحثًا عنا إلى أن اهتدوا إلى مقابلة الشيخ فرغلي الذي وعدهم بمحاولة إقناعنا بالعودة لحاجة الآباء لنا، وحاولنا الاعتذار لكنه أوضح لنا أننا مازلنا في حاجة إلى مزيد من التدريب العسكري وأن الفرصة للمشاركة في المعارك قادمة إن شاء الله، وبناء على ذلك فقد عدنا إلى بلادنا.

ومع أنه لم يتح لنا فرصة للمشاركة في العمليات العسكرية لكننا شاركنا في بعض الأعمال مثل نقل الأسلحة من مكان إلى آخر، وحاولنا الاستفادة من خبرة من التقينا بهم هناك، وأذكر ممن تقابلنا معهم عمر شاهين، وعادل غانم، واللذين كان لهما شرف الشهادة فيما بعد.

بعد أن حصلت على شهادة الثقافة عام ١٩٥١م انتقلت إلى الشهادة التوجيهية المعادلة للثانوية العامة الآن، وكان عليَّ أن أحدد التخصص العلمي الذي أريده، فكنت ميالاً إلى التخصص الأدبي بحكم ميولي أولاً ثم لرغبتي في دراسة القانون أو التاريخ، لكن والدي ـ رحمة الله عليه ـ فضل أن أتجه إلى التخصص العلمي أولاً، لأن هذا التخصص كان يسمح للطالب بالالتحاق بمعظم كليات الجامعة في ذلك الوقت، وثانيًا لأن قريبًا لنا وهو المرحوم أ.د. أحمد حافظ موسى (ابن خالة الوالد) كان أستاذًا للأمراض المتوطنة بكلية الطب بجامعة القاهرة وحصل قبل وفاته على جائزة الدولة التقديرية في الطب، وقيل إنه كان مرشحًا لجائزة نوبل لأبحاثه العلمية المتميزة في تخصصه، وهو الذي أنشأ فيما

أعلم معهد بلهارس الذي مازال قائمًا حتى الآن، كان ـ رحمة الله عليه ـ يريد أن يتبناني في مجال الطب حتى أخلفه في هذا التخصص نظرًا لعدم إنجابه أطفالاً وقد عبر عن ذلك صراحة في الأوتوجراف الخاص بي، لكني مع تقديري لذلك كله لم أكن راغبًا في دراسة الطب نظرًا لميولي العلمية الواضحة للتخصص الأدبي، لكن الوالد ظل أيامًا يقنعني بغير ذلك، ولم أكن يومها أملك حق التمسك بوجهة نظري، فما يقوله الوالد أمر يقرب من التقديس، ولم أكن مستعدًا لإغضابه، وبناء على ذلك سجلت نفسي في القسم العلمي، وظللت أسابيع أحاول التأقلم مع هذا التخصص دون جدوى، فتركت أمري لله، ولم أكن عندئذ ـ حتى لو أردت ـ أملك تغيير التخصص بعد أن مضى من الوقت نصف العام وقاربنا على ملء استمارات " التوجيهية ". وقد ترتب على ما حدث ضياع عامين من عمري : فقد ضاع العام الأول نتيجة عدم دخولي للامتحان في السنة الأولى لعدم الاستعداد، وفي السنة الثانية ضغطت على نفسي للإعادة في التخصص العلمي حتى أرضي الوالد، وفعلاً حصلت على ما يزيد على ٦١% بقليل في عام ١٩٥٣م في الوقت الذي كانت كلية الطب تقبل من حصل على أقل من ٦٣%. وكان مكتب التنسيق قد بدأ أعماله في ذلك العام فتم ترشيحي لكلية الزراعة بشبين الكوم نظرًا لحصولي على أعلى مجموع رشح لكلية الزراعة التي كانت تابعة يومها لجامعة عين شمس.

حاولت تقبل علوم الكلية فلم أستطع، حاولت نقل قيدي إلى كلية الآداب أو الحقوق فلم أستطع، وقضيت عامًا ضائعًا آخر، فلم أكن مستعدًا للاستمرار في دراسة الزراعة رغم أنفي لقناعتي بأني لن أكون ناجحًا في عملي كمهندس زراعي، فشغلت خلال ذلك العام بأمرين : الأول هو النشاط الاجتماعي والسياسي بالكلية، والثاني هو القراءة ومحاولة زيادة رصيدي الثقافي حيث كان ذلك العام من أكثر الأعوام ثقافة دينية، حيث قرأت خلاله الكثير مما كتبه أبو حامد الغزالي، ومحمد عبده، وحسن البنا، وأبو الأعلى المودودي، ومحمد

الغزالي، ومحمد أبو زهرة، والبهي الخولي، وسيد سابق، وسيد قطب، وخالد محمد خالد وغيرهم.

ومع انتهاء العام وعدم توفيقي في معظم المواد وفصلي من الكلية، سحبت أوراقي من كلية الزراعة، حيث تقرر في ذلك الوقت نقلها إلى سراي القبة بالقاهرة، وذهبت إلى أ.د. أحمد فؤاد الأهواني أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة - وكان صديقًا قديمًا لوالدي - راجيًا إياه أن يساعدني على الالتحاق بقسم التاريخ بكلية الآداب جامعة القاهرة، وقد اهتم الرجل بالأمر حيث قابلته بالكلية وقدم الأوراق بنفسه إلى قسم التاريخ بالكلية منتسبًا، وكانت اللائحة التنفيذية للجامعة تسمح بذلك، وحمدت الله أن تحققت أمنيتي أخيرًا حيث التحقت بالتخصص الذي أريده.

وحرصًا منى على الاستفادة من هذه التجربة القاسية التي تعرضت عليها فقد حاولت فيما بعد مع أولادي أن أتركهم يختارون ما يريدونه من تخصص، فقد كان مجموع محمد يؤهله للقبول بكلية الهندسة جامعة قطر، لكنه فضل الالتحاق بكلية التجارة جامعة عين شمس، وكنت أود أن تدرس نجلاء علم النفس لكنها فضلت الالتحاق بقسم اللغة الإنجليزية بكلية التربية.

وكانت المرة الأولى التي أفكر فيها في العمل، أولاً حتى أتحمل المسئولية، ثانيًا حتى أخفف عن الوالد بعض أعبائه، فقد كان باقي الأخوة قد وصلوا إلى المرحلتين الثانوية والإعدادية، لكن هناك بطالة كبيرة في منتصف الخمسينيات من القرن الماضي، فلم أجد عملاً مناسبًا بالتوجيهية، كما أن الوالد رفض الفكرة رفضًا باتًا وأصر على أن أتفرغ لدراستي، وأخبرني صراحة أنه المسئول عن ضياع عامين من عمري وأن الخير فيما اختاره الله.

قضيت أربع سنوات في قسم التاريخ، سنة واحدة منتسبًا، والسنوات الثلاث الأخرى نظاميًا، وكانت أعداد دفعتي تزيد على الأربعمائة طالب، وكانت العلاقات الاجتماعية محدودة بالنسبة للوضع الراهن، وكان هناك نشاط ثقافي

محدود، من هنا فكرت وبعض الأصدقاء في إصدار مجلة حائط باسم " الأيام " صدرت في السنتين الثالثة والرابعة، وكانت في رأي الكثيرين أهم صحيفة حائط في كلية الآداب في تلك الفترة.

كان يشرف عليها الدكتور محمد أنيس ويرأس تحريرها عبدالعظيم رمضان وعادل غنيم، وكان بها عشرة محررون، قُدر لمعظمهم أن يكون أستاذًا بالجامعة وأحدهم أن يكون رئيسًا للجامعة، أما من أصبح رئيسًا للجامعة فهو عبدالباري الشيخ درة رئيس جامعة الإسراء بعَمان بالمملكة الأردنية الهاشمية الذي أسعدتني صداقته حتّى اليوم، وأما المحررون فكان منهم محمد ابراهيم أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة قابوس، وعبدالعظيم خطاب الأستاذ بالجامعات السعودية، وسمير طه أستاذ التاريخ الحديث بجامعة أسيوط، ومحمود عثمان السفير بوزارة الخارجية المصرية فيما بعد، وعبدالكريم سليم مدير تحرير جريدة الجمهورية فيما بعد، وجلال السيد الكاتب بجريدة الجمهورية فيما بعد، كما كان للمجلة رسام أصبح فيما بعد مديرًا لمسرح العرائس.

وكان من أبرز أنشطة الصحيفة عمل مفاجآت صحفية في كل عدد، فكان ممن تحدثت الصحيفة معهم : عبدالعزيز بوتفليقة وزير خارجية الجزائر في ذلك الوقت، والمؤرخ الكبير محمد شفيق غربال، والكاتب الكبير إحسان عبدالقدوس.

وقد كان أملي عندما انتقلت إلى السنة الثالثة بقسم التاريخ أن أتخصص بعد تخرجي في التاريخ الإسلامي خاصة وقد ازدادت ثقافتي الدينية خلال وجودي بكلية الزراعة، لكن في العام الرابع بهرتني شخصية محمد أنيس أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر، فقررت تغيير اتجاهي نحو تخصص أستاذي الذي ربطتني به صداقة من نوع خاص منذ كنت طالبًا استمرت قوية حتى وفاته.

ولم أكن أكتفي بالمحاضرات في قسم التاريخ، فكثيرًا ما ذهبت إلى قسم اللغة العربية للاستماع إلى الدكتور طه حسين، أو إلى قسم الجغرافيا للاستماع إلى الدكتور جمال حمدان الذي كان عائدًا منذ سنوات من بعثته، وإلى قسم

الجغرافيا تعرفت على صديق عزيز بين الطلاب استمرت علاقتي الطيبة به حتى الآن، وهو الدكتور محمد محمود الديب أستاذ الجغرافيا الآن بكلية الآداب جامعة عين شمس.

ومن أبرز طلاب قسم التاريخ الذين تعرفت عليهم في مرحلة الدراسة رغم أن علاقتنا وقتها لم تتعمق الروائي بهاء طاهر والكاتب محفوظ عبدالرحمن وإن كانت العلاقات قد تجددت في وقت متأخر من العمر.

ومن الأساتذة الذين تأثرت بعلمهم وخلقهم في قسم التاريخ الدكتور محمد فؤاد شكري أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر، والذي كان نموذجًا للأستاذ الجامعي سواء في تعمقه في تخصصه أو في احترامه لوقت المحاضرة، أو في شجاعته في إبداء آرائه دون مجاملة أو تملق لأحد، وكان من حسن حظي أن أقترب منه خلال مرضه الأخير حيث كنت أقوم أثناء دراستي بالسنة التمهيدية للماجستير بتوصيل مرتبه شهريًا، فرأيت عالمًا كبيرًا لا يستطيع تدبير احتياجاته من الأدوية والعلاج، وعندما تنبهت الجامعة في النهاية إلى تدهور حالته قررت صرف مبلغ مناسب له للعلاج، لكن الرجل لاقى ربه قبل صرف الشيك، فألغت الجامعة المساهمة بدلاً من إرسالها لأسرته.

ولعل أهم مرجع عربي قرأته خلال مرحلة الدراسة الجامعية وتأثرت كثيرًا بصدقه وموضوعيته وتحري الأمانة والدقة فيما يكتب هو كتاب " عجائب الآثار في التراجم والأخبار " للمؤرخ الكبير عبدالرحمن الجبرتي الذي قدر له أن يشهد الحملة الفرنسية على مصر في عام ١٧٩٨م والسنوات الأولى من حكم محمد علي، أي أنه أرخ لمرحلة التحول السياسي والاجتماعي التي شهدتها مصر خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر والربع الأول من القرن التاسع عشر. فلقد نبهنا أستاذنا الدكتور محمد أنيس إلى أهمية هذا الكتاب، ولم يكتف بدعوة طلابه إلى قراءته بل كان يسأل بين وقت وآخر عما قرأناه للجبرتي سواء هذا المرجع الهام أو الكتاب الآخر الذي ألفه الجبرتي بعد خروج الحملة الفرنسية

من مصر وهو " مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس ". ولعل إقبالي على الاهتمام بكتابات الجبرتي في مرحلة الدراسة كان من العوامل التي قربتني من أستاذي الدكتور محمد أنيس، ثم زاد إشرافه على مجلة الحائط من هذه العلاقة، ثم تدعمت تلك العلاقة خلال إشرافه على رسالتي لدرجتي الماجستير والدكتوراه، وكانت نموذجًا لعلاقة الأستاذ بالطالب.

تخرجت من كلية الآداب بجامعة القاهرة في مايو ١٩٥٨م، وكان عليّ أن أقضي فترة التجنيد قبل أن يتاح لي فرصة العمل أو متابعة الدراسات العليا.

ذكريات التجنيد والدراسات العليا والعمل بالجامعة:

أديت الخدمة العسكرية خلال الفترة من أكتوبر ١٩٥٨م حتى يناير ١٩٦٠م حيث ألحقت بسلاح المشاة، وتنقلت بين المعادي ومصر الجديدة وسيناء، وازداد تعودي على الحياة الشاقة والاعتماد على النفس والالتزام الدقيق بالتعليمات والنظم العسكرية .

ومن الطرائف التي لا أنساها أنه في الليلة الأولى التي قضيتها بالمعادي وكنا متعبين من جراء التنقل وتوزيعنا على السرايا والفصائل المختلفة، وعندما خلدنا إلى النوم استعدادًا للاستيقاظ المبكر لبدء التدريب مر الشاويش المسئول من الخارج دون أن نعرف شخصيته وطلب من بعض الجنود الذين يتحدثون في الخيمة التوقف عن الكلام، لكن أحد الجنود رد عليه بطريقة غير مناسبة، فأمر الشاويش كل من بالخيمة بالتجمع خارجها وأعطانا طابورا لمدة ساعة حتى نعترف باسم الجندي الذي رد على الشاويش، لكن الجميع صمتوا ولم يعترف أحد منهم بما فعل، وصمم الشاويش على الاعتراف وإلا حولنا جميعًا - وكنا عشرة - إلى المكتب في الصباح كي يحاسبنا الضابط النوبتجي على ما حدث منا، عندئذ طلبت الحديث وأخطرت الشاويش أنني الذي رددت عليه بالكلمة التي أغضبته، فأمر الجميع بالانصراف ما عداي، وقال لي ماذا أفعل معك وكيف أعاقبك وأنت في اليوم الأول من التجنيد، فقلت للشاويش أنني لم أنطق بهذه

الكلمة، لكني قلت ذلك حتى أعاقب وحدي بدلاً من عقاب زملائي، فأعجبت الفكرة الشاويش الذي قرر تعييني على الفور حكمدارًا للخيمة.

وكان من الإيجابيات التي لا أنساها خلال فترة التجنيد أن المسئولين بالكتيبة التي ننتسب إليها كانوا يحاولون الاستفادة من الحاصلين على المؤهلات الجامعية كل في تخصصه، فاخترت أن ألقي على زملائي بعض محاضرات في التاريخ العربي نالت تقدير قائد اللواء الذي أصبح فيما بعد قائدًا للكلية الحربية.

وقد حاولت خلال التجنيد بدء الدراسات العليا بمعهد الدراسات العربية العالية، لكن ظروف التجنيد حالت بيني وبين الانتظام في المحاضرات، فأرجأت ذلك لحين انتهاء التجنيد، لكن كان من حسن حظي أن أتتلمذ لعدة محاضرات على شيخ المؤرخين المصريين محمد شفيق غربال الذي كان يتمتع بثقافة تاريخية عريضة، والذي كان يميل إلى تحليل التاريخ وتفسيره دون التوقف كثيرًا عند أحداثه التفصيلية.

وعندما تحسنت ظروف التجنيد بعد ذلك وأصبحت أخرج مساء كل يوم بدأت أشغل نفسي بالقراءة. ولما كانت ثورة تموز ١٩٥٨م بالعراق قد حدثت قبيل تجنيدي بعدة أشهر، استثمرت وقت الفراغ في كتابة بحث بعنوان " تطور الحركة الوطنية في العراق " أرسلته إلى مصلحة الاستعلامات التي كانت تشجع الشباب على التأليف في ذلك الوقت، ففوجئت بعد انتهاء فترة تجنيدي بالكتاب منشورًا في سلسلة " كتب قومية " (الكتاب ٦٦) حيث مُنحت مكافأة على ذلك قدرها عشرة جنيهات، وكم كانت سعادتي بالغة بصدور أول كتاب منشور لي وأنا لم أجد بعد عملاً ارتزق منه.

وشجعتني تلك التجربة الناجحة على تكرارها، فأعددت بحثًا آخر بعد تخرجي بعنوان" قضية اللاجئين "نشرته الدار القومية للطباعة والنشر عام ١٩٦٢م، وكان أول كتاب ينشر في سلسلة " كتب قومية " باستخدام الهوامش في الحاشية، وارتفعت المكافأة هذه المرة لتصل إلى ثلاثين جنيهًا.

وحاولت بعد انتهاء فترة تجنيدي البحث عن عمل مناسب لكن البطالة كانت سائدة والوظائف شبه مغلقة، ولم يكن قد أنشئ بعد جهاز تشغيل الخريجين، فقضيت عدة أشهر من عام ١٩٦٠م أتدرب في مجلة روزاليوسف لقاء عدة جنيهات في كل شهر لكني ظللت أبحث عن وظيفة تحقق لي الاستقرار حتى أبدأ الدراسات العليا التي كانت أملاً من آمالي، إلى أن أعلنت جامعة عين شمس عن وظيفة مساعد إداري لخريجي الآداب والحقوق والتجارة فتقدمت للمسابقة بعد أن دفعت سيدة مسيحية وأم أحد أصدقائي جنيهًا لي وآخر لابنها كرسم دخول الامتحان، لم أكن أملك هذا الجنيه للتقدم للمسابقة حيث كنت أجد غضاضة في ذلك الوقت في طلب مزيد من الأموال من الوالد خاصة أن هناك غيري من الأبناء الذين يحتاجون إلى الرعاية والاهتمام.

وبعد إجراء امتحانات تحريرية وشفهية كان ترتيبي الأول في تلك المسابقة حيث ألحقت بالمكتبة المركزية للجامعة، وظللت أعمل بها كأمين للمكتبة حوالي ست سنوات، حيث توفر لي جو مناسب للدراسات العليا التي التحقت بها عام ١٩٦١م، حيث سجلت رسالتي للماجستير عام ١٩٦٢م في موضوع " الحركة الوطنية الفلسطينية من ١٩١٧م حتى ١٩٣٦م ".

وقد تمكنت من الحصول على منحة تفرغ من المجلس الأعلى للفنون والآداب عام ١٩٦٣م لمدة عام ثم جددت لعام ثان تمكنت خلالها من جمع المادة العلمية للرسالة حيث ظللت عامًا كاملاً أصعد يوميًا إلى دار المحفوظات بالقلعة حيث قمت بعملية مسح للصحف الفلسطينية سواء المجلدة منها أو غير المجلدة والتي أمدتني بمادة غزيرة عن الحركة الوطنية خلال الفترة موضع الرسالة، أما العام الثاني فقد عملت في الوثائق البريطانية والمراجع الأجنبية والعربية، وبدأت في كتابة الرسالة قبل نهاية العام الثاني وكنت في حاجة إلى عام على الأكثر للانتهاء من كتابة الرسالة، لكنني للأسف تأخرت خمس سنوات حيث ناقشت رسالة الماجستير صيف ١٩٧٠م نتيجة لانشغالي في الجامعة بأعمال إدارية

وسياسية فرضت عليّ فرضًا ولم أسع إليها كما أني لم أكن أملك رفضها، ولم أكن أتصور أن تشغلني بدرجة كبيرة وتُوقف كتابة الرسالة، فخلال عامي ١٩٧٦م، ١٩٧٧م تم تعييني مقررًا مساعدًا للجماعة القيادية بالاتحاد الاشتراكي بإدارة الجامعة، حيث تفرغت لهذا العمل الذي كان يأخذ كل وقتي، وقبيل حرب ١٩٦٧م صدر قرار بإشرافي على أعمال التطوع بالجامعة، ولم يمض وقت طويل حتى عُينت مديرًا لمكتب الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبدالكريم وكيل الجامعة لشئون الطلاب ومقرر لجنة قطاع الدراسات الإنسانية بالمجلس الأعلى للجامعات والتي كانت تقوم بنشاط كبير وتضم عددًا من الأقطاب والرواد في مجال الدراسات الإنسانية والاجتماعية، كما كان ينبثق منها لجان متعددة. وكان أ.د. يحيى هويدي مقرر هذه اللجنة، ومنذ عملت مع أستاذنا الدكتور عزت بدأت في تحمل مسئولية كتابة محاضر اللجنة التي كان الكثير من محاضر جلساتها يتجاوز العشر صفحات وقد يصل إلى عشرين صفحة، والتي كانت تتناول الكثير من قضايا التعليم الجامعي، والتي تعتبر محاضر جلساتها في رأيي وثيقة من وثائق التعليم الجامعي المعاصر في مصر.

وعندما عُين الدكتور عزت عبدالكريم رئيسًا للجامعة خلال عام ١٩٦٨م نقلت مديرًا لمكتبة، وبعد إحالته إلى المعاش عام ١٩٦٩م عملت مديرًا لمكتب أ.د. صلاح الدين يوسف قطب حتى عام ١٩٧١م، ثم مديرًا لمكتب أ.د. إسماعيل غانم حتى صيف ١٩٧٣م حيث عينت مدرسًا مساعدًا بقسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة عين شمس.

وتنفست الصعداء حيث بدأت أتفرغ للعمل في رسالة الدكتوراه رغم قيامي بتدريس أحد المقررات لكن لم يمض عام حتى جاءتني برقية من الدكتور إسماعيل غانم وزير التعليم العالي لمقابلته بشكل عاجل في الإسكندرية حيث عرض عليّ الإشراف على مكتبه لمدة عام على الأقل، ولما أوضحت له صعوبة موقفي قال لي في حسم لا يخلو من مودة " إنني أحتاجك معي بشكل قوي، وإذا

لم توافق فسوف أضطر إلى إصدار قرار بتكليفك ". ولم أمانع بطبيعة الحال حيث أني كنت أحمل لهذا العالم الجليل احترامًا وإعجابًا كبيرين، وفي تقديري أنه من أفضل الشخصيات التي تولت قيادة جامعة عين شمس، ولعل الظروف تسمح بكتابة مقال عن هذا الرائد الكبير.

بقيت مع الدكتور إسماعيل غانم حوالي العام من منتصف ١٩٦٤م حتى منتصف ١٩٦٥م، ورغم كوني كنت مدرسًا مساعدًا لكنه أصدر قرارًا بمنحي سلطة رئيس المصلحة أو وكيل الوزارة حتى أستطيع القيام بعملي على الوجه المطلوب، ولعلها المرة الأولى والأخيرة التي يتولى الإشراف فيها على مكتب وزير التعليم العالي مدرس مساعد بإحدى الكليات الجامعية. وقد قمت بأعمال كثيرة هامة خلال تواجدي بمكتب الوزير لعل أهمها أني نجحت في وضع كل العاملين بالمكتب في خدمة الناس والمترددين على المكتب دون انتظار حتى لكلمة شكر.

عدت إلى قسم التاريخ بكليتي في صيف ١٩٧٥م حيث انتهيت خلال عام من إعداد رسالتي للدكتوراه التي نوقشت في صيف ١٩٧٦م، وكان موضوعها "الحركة الوطنية الفلسطينية من ثورة ١٩٣٦م حتى قيام الحرب العالمية الثانية " والتي استمر إعدادها خمس سنوات.

ومنذ تعييني عضوًا بهيئة التدريس بقسم التاريخ بكلية الآداب جامعة عين شمس في أكتوبر ١٩٧٦م تعاونت مع زملائي بالقسم للقيام بمسئولياتي الجامعية سواء بالتدريس أو النشاط الجامعي، فمنذ العام الأول لتعييني قمت بتدريس ثلاث مقررات للسنة الرابعة ومقرر بالسنة التمهيدية للماجستير، وأشرفت خلال عمادة أ.د. جمال زكريا قاسم على إنشاء أول مكتب تنسيق خاص بالكلية يقوم بتوزيع الطلاب على الأقسام بناء على اختيارهم، وكنت رائدًا لأسرة عز الدين القسام عامي ٧٨، ١٩٧٩م والتي كان لها نشاط ثقافي كبير، وقمت بإجراء عدة بحوث علمية، كما رشحت نفسي عضوًا بمجلس إدارة الجمعية المصرية للدراسات

التاريخية عام ١٩٧٧م، وكانت مفاجأة سارة حصولي على أعلى الأصوات في تلك الانتخابات.

في ذلك الوقت كان محمد ونجلاء قد كبرا والتحقا بمدارس أجنبية وأصبح محمد في الإعدادية ونجلاء في الابتدائية، وكانت مصاريفهما ترهق كاهلي فقد كان مرتبي لا يتجاوز المائة جنيه شهريًا، وكنت أستخدم المترو - رغم الزحام - للوصول إلى الجامعة لإلقاء محاضراتي، وكان من الطبيعي أن أفكر في الإعارة إلى إحدى البلاد العربية، لكن دون سعي مني جاءت إلى الجامعة رسالة من د. محمد إبراهيم كاظم الذي كان مديرًا لجامعة قطر يطلبني للإعارة للجامعة ابتداء من العام الجامعي ١٩٨٠/٧٩م فرحبت على الفور خاصة وأنه كان يربطني علاقة طيبة مع د. كاظم، لكنه طلب مني إضافة إلى المساهمة في التدريس أن أساعده في تنظيم شئون الجامعة، فوعدت بذلك وقد كان.

ذكريات الإعارة إلى قطر :

سافرت مع أسرتي إلى دولة قطر في سبتمبر ١٩٧٩م معارًا من جامعة عين شمس، ولم أكن أنوي الاستمرار في قطر أكثر من الست سنوات التي يسمح بها القانون، وحتى تكون نجلاء قد حصلت على الثانوية العامة، لكن الرياح تأتي أحيانًا بما لا تشتهي السفن، فعندما طلبت تجديد العام السادس لم توافق الجامعة في حينه، وقد كنت في حاجة ماسة إلى التجديد نظرًا لأن الدراسة للابنة تختلف في الثانوية العامة في قطر عنها في مصر، في ذلك الوقت عرضت عليَّ الجامعة تجديد عقدي كل أربع سنوات بدلاً من التجديد السنوي، وعندما فقدت الأمل في استجابة جامعة عين شمس للتجديد وأنهت الجامعة خدمتي اضطررت إلى قبول عرض جامعة قطر بعد أن استأذنت الجامعة أمير البلاد الرئيس الأعلى للجامعة للموافقة على العقد المقترح لعدد محدود من أساتذة الجامعة.

وقد بدأت الدراسة في جامعة قطر عام ١٩٧٧م بكليات التربية، والانسانيات والعلوم الاجتماعية، والعلوم، والشريعة والدراسات الإسلامية، لكن الدراسة في كليتي التربية للبنين والبنات كانت قد بدأت منذ العام الجامعي ١٩٧٤/٧٣م، ثم ضمت الجامعة كلية الهندسة عام ١٩٨٠م، وكلية الإدارة والاقتصاد عام ١٩٨٥م، والكلية التكنولوجية عام ١٩٩١م.

وكان الدكتور محمد إبراهيم كاظم ـ رحمه الله ـ شخصية تربوية بارزة، تتمتع بكفاءة عالية وقدرات عقلية نادرة تؤهله لإنشاء جامعة عربية على أفضل مستوى ممكن، كما كان الرجل قادرًا على حسن اختيار مساعديه وأساتذة الجامعة.

وشُغلت بالتدريس منذ بداية العام، ونظرًا للفصل بين البنين والبنات، فقد كنا نُدرس المحاضرة هنا، ثم ندرسها مرة أخرى للبنات، وكانت هناك تقاليد للجامعة يحافظ عليها أعضاء هيئة التدريس، ويتواصى بها كبار المسئولين.

وبعد حوالي شهر من وصولي للجامعة فاتحني الدكتور محمد إبراهيم كاظم أنه يريد أن يكون مكتبًا فنيًا من أعضاء هيئة التدريس تكون مهمته دراسة الموضوعات المتعلقة بتطوير الجامعة، وأن يريدني عضوًا في هذا المكتب فرحبت، ولم يلبث أن أصدر قرارًا بتشكيل المكتب الذي كان مقرره الدكتور عبدالله الكبيسي واحدًا من أفضل رجالات قطر والذي أصبح فيما بعد المدير الثاني للجامعة، وضم المكتب في عضويته في بداية تشكيله الدكتور عبدالعزيز البيومي أحد الأساتذة الذين يتمتعون بخبرة جامعية كبيرة، والدكتورة جهينة سلطان العيسى إحدى الرائدات القطريات البارزات، والدكتورة لطيفة إبراهيم الحوطي تلك السيدة التي كانت تتميز بالخبرة والموضوعية والشجاعة، ثم عادل غنيم. وقد ضم المكتب فيما بعد عددًا من الأعضاء الذين أسهموا مع زملائهم في نشاط المكتب مثل عبدالرحمن الإبراهيم أول أمين عام للجامعة ونائب المدير للشئون الأكاديمية فيما بعد.

وقد تحمل هذا المكتب منذ نشأته عام ١٩٧٩م حتى انتهاء مهمته عام ١٩٩٧م مسئولية التطوير الجامعي بأمانة وإخلاص والتزام، وأخذ على عاتقه دراسة كل ما يتعلق بالحرم الجامعي الجديد من مبان وأجهزة ومختبرات وقاعات دراسية وغيرها، وقد صدر فيما بعد عام ١٩٩٣م كتاب تذكاري للمكتب تحدث بالتفصيل عن نشأته ودوره وإنشاءاته.

وكان هناك بالجامعة أربعة مراكز منها مركز الوثائق والدراسات الإنسانية والذي كان يضم وحدة بحوث التاريخ والوثائق والتي أصبحت رئيسًا لها من عام ١٩٨١م حتى انتهاء عملي بالجامعة عام ١٩٩٧م، وكانت الوحدة تضم في عضويتها على الدوام. عددًا من خيرة أعضاء هيئة التدريس بالجامعة، كما أصدرت الوحدة ستة بحوث هامة.

وكان هناك سمنار للجامعة وسمنار لكل كلية، وقد أسهمت خلال وجودي في قطر بسمنارين في الكلية : الأول عن " الشعر على ضوء التاريخ الفلسطيني المعاصر "، والثاني عن " الحركات الجهادية في حرب ١٩٤٨م ".

كما أسهمت في سمنار الجامعة بدراسة عن الجامعة العربية، كما شاركت بخمسة أبحاث في حولية الكلية، وبحث في مجلة مركز الوثائق ١٩٩٣م، وندوة نظمها المركز، كما شاركت في الندوة العلمية العالمية الرابعة لمركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة (مارس ١٩٨١م).

وقد مثلت دولة قطر في مؤتمر بالنمسا في نوفمبر عام ١٩٨٠م حول "المشكلة الفلسطينية من وجهة نظر القانون الدولي"، وقد شاركني في المؤتمر شاب قطري قانوني، وحدث نتيجة ظرف خاص أن قُتل هذا الشاب في فيينا، فأذاعت بعض وكالات الأنباء أن أحد مندوبي دولة قطر في المؤتمر قد قُتل، وظن زملائي في جامعة قطر أنني المقصود بهذا الخبر، واهتمت الصحف النمسوية بالموضوع خشية أن يكون هناك دافع سياسي وراء الحادث، وخطر لي أن أتصل تليفونيًا بالأسرة في الدوحة خشية أن يكون قد تسرب إليهم شيء

خاطئ، فبكت زوجتي عند سماع صوتي وسألتني عما إذا كنت بخير من عدمه، ولما أكدت لها أنني بخير وأن ما حدث كان لزميلي - رحمة الله عليه - أخبرتني أن الشقة ممتلئة بزوجات الأساتذة للسؤال عني، ولم يكن أحد منهم يعلم بوجود زميل قطري معي في المؤتمر، وكان من أصعب المواقف على نفسي أن أتسلم حاجيات زميلي من السفارة القطرية في النمسا لتوصيلها إلى أهله، وظللت فترة غير قصيرة بعد هذا الحادث متأثرًا مما حدث.

وقد قدر لي أن أقوم بالتدريس لآلاف من القطريين والقطريات خلال تواجدي في قطر، وربما لا يخلو بيت قطري من أحد طلابي أو طالباتي. كما شاركت في الإشراف على رسالة لدرجة الدكتوراه لأحد أبناء قطر أصبح فيما بعد عضوًا بهيئة التدريس بقسم التاريخ وهو يوسف العبدالله. وقمت خلال وجودي في قطر بالتدريس لعدد من الطلاب أصبحوا أعضاء بهيئة التدريس بالقسم أذكرهم على سبيل الاعتزاز بهم : سيف المريخي، عبدالقادر القحطاني، موزة الجابر، شيخة الخليفي، ومنى سحيم آل ثاني.

وإضافة إلى ذلك كان لي نشاط اجتماعي خارج الجامعة، فقد شاركت في عدد من المحاضرات والندوات في عدد من الأندية القطرية، وسجلت أحاديث مختلفة للإذاعة القطرية.

وخلال العام الأخير من وجودي بقطر (١٩٩٧/٩٦م) تم تعييني رئيسًا لقسم التاريخ، فاعتبرت ذلك تكريمًا من الجامعة لي، وحاولت خلال ذلك العام ترسيخ التقاليد الجامعية الأصيلة في القسم، وتوفير مناخ ديموقراطي في إدارة شئونه والارتقاء بمستوى الدراسة إلى أفضل وضع ممكن.

وأحسست خلال ذلك العام أنه قد آن الأوان للطير المهاجر أن يعود إلى عشه، فقدمت استقالتي منذ بداية العام، وحاول العميد إقناعي بالاستمرار عامًا آخر تنفيذًا لقرار مدير الجامعة، لكني شكرته ورجوته أن يرفع الاستقالة إلى السلطات العليا، ولن أنسى ما حييت للدكتور إبراهيم صالح النعيمي مدير

الجامعة حينذاك لطفه وكرمه، ليس فقط لتزكيتي لرئاسة القسم، بل أيضًا لإرجائه الاستقالة بعض الوقت حتى أعيد النظر في الأمر، لكني أكدت له رغبتي النهائية، فوافق مع تسجيله كتابة على الاستقالة تمنياته لي بالتوفيق في المرحلة المقبلة.

لقد كرمتني الجامعة قبل سفري تكريمًا لم أكن أتوقعه، فقد أقام الأصدقاء والزملاء والمسئولون بالجامعة والمكتب الفني ستة عشر حفلاً لتكريمي، وعبر الكثيرون في كلماتهم عن تقديرهم للدور المتواضع الذي قمت به، وغادرت قطر وأنا أحمل لهذا البلد الكريم كل حب واعتزاز، ولأبناء هذا البلد أطيب الأمنيات والدعوات.

ذكريات الأستاذ غير المتفرغ :

عدت نهائيًا من دولة قطر في شهر يونيه ١٩٩٧م بعد أن شحنت حاجياتي وكتبي بحرًا إلى الإسكندرية، حيث تسلمت تلك الحاجيات بعد مرور شهر تقريبًا بعد رحلة عناء ومعاناة بميناء الإسكندرية ظللت بعدها مريضًا عدة أسابيع.

ولم ألبث أن تلقيت مع زملائي بقسم التاريخ بآداب عين شمس دعوة للانضمام إلى القسم كأستاذ غير متفرغ، فرحبت شاكرا ومقدرًا، وتم تعييني في تلك الوظيفة في سبتمبر ١٩٩٧م، حيث تم التجديد لي ثلاث مرات.

شاركت مدة عامين أو ثلاثة في التدريس لطلاب السنة الرابعة بقسم التاريخ والسنة التمهيدية للماجستير، لكني لم ألبس طبقًا للقواعد الجديدة التي صدرت أن تفرغت تمامًا للإشراف على الطلاب المسجلين لدرجتي الماجستير والدكتوراه، فعزمت على تكوين مدرسة تهتم بتاريخ فلسطين الحديث والمعاصر، وقد ظهرت بوادرها في طالبين حصل أولهما وهو أحمد حامد السيد عليّ درجة الدكتوراه في موضوع " حزب الوفد وقضية فلسطينية ١٩٢٢-١٩٥٣م " وحصل الثاني وهو رشاد رمضان عبدالسلام عليّ درجة الماجستير في موضوع " النشاط اليهودي في مصر من ١٨٩٧م حتى ١٩٢٢م "، وهناك الآن خمسة عشر طالبًا

مسجلين لدرجة الماجستير معظمهم عن تاريخ فلسطين الحديث والمعاصر، وقد انتهى ثلاثة منهم من إعداد بحوثهم تمهيدًا لمناقشتهم، وبذلك يكون هناك أمل في تكوين جيل من الباحثين والدارسين المتخصصين في تاريخ فلسطين.

وبخلاف الطلاب الذين أشرف على رسائلهم فقد شاركت منذ عودتي من قطر في مناقشة خمس رسائل دكتوراه وعشر رسائل ماجستير، كما قمت بتقييم الإنتاج العلمي المقدم للحصول على درجة الأستاذية لأحد الأساتذة المساعدين بجامعة اليرموك بالمملكة الأردنية الهاشمية، وشاركت في ندوة بالمملكة المتحدة بدعوة من مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي ـ والتي كان يديرها في ذلك الوقت الدكتور كمال عرفات ـ بمناسبة مرور مائة عام على ظهور مجلة " المنار " التي أصدرها الشيخ محمد رشيد رضا في مصر.

وإضافة إلى نشاطي في الكلية، فقد قام المرحوم الدكتور رأفت عبد الحميد ـ رحمة الله عليه ـ عندما عُين مديرًا لمركز بحوث الشرق الأوسط بإنشاء شعبة للدراسات التاريخية بالمركز حيث تم تعييني رئيسًا لها، وبذلك أخذ المركز جزءًا من نشاطي العلمي والثقافي.

وقد أسعدني كثيرًا العودة إلى المساهمة في نشاط الجمعية المصرية للدراسات التاريخية حيث انضممت منذ عودتي من قطر إلى عضوية مجلس إدارة الجمعية التي تشهد منذ تولي الدكتور رؤوف عباس رآستها نشاطًا تاريخيًا ومكتبيًا متميزًا، فإضافة إلى النشاط الثقافي الدوري للجمعية، فهناك الآن عدة سمنارات تمارس نشاطها طوال العام : سمنار التاريخ العثماني، وسمنار التاريخ اليوناني والروماني، وسمنار التاريخ الإسلامي والوسيط، وسمنار التاريخ الحديث والمعاصر، وفضلاً عن ذلك فقد تم ربط الجمعية بشبكة الإنترنت، كما يتم حاليًا ميكنة المكتبة وربطها بشبكة الكمبيوتر.

وإضافة إلى تلك الأنشطة العلمية والثقافية أشارك ببعض المحاضرات في المراكز والأندية الثقافية المختلفة وبعض الجامعات، كما أكتب بين الحين

والآخر مقالا في جريدة الأهرام، أو في مجلة الهلال، أو مجلة " القدس "، أو مجلة "سطور"، أو مجلة " شئون الشرق الأوسط ".

ولاشك أن المرحلة الراهنة تمثل قمة العطاء العلمي لي، فخلال السنوات السبع الأخيرة قدمت للمكتبة العربية كتابين هما "حائط البراق أم حائط المبكى"، و" الدولة التيمورية الإسلامية في الهند "، كما قمت بنشر ثلاثة عشر بحثا في حوليات علمية.

وبعد، فما الذي يريده الإنسان أكثر من ذلك بعد أن تجاوز السبعين من عمره ؟ وهل أنا راض عما أنجزته خلال تلك العقود ؟ لا أخفي أني غير راض تماما عن نفسي وعن إنجازاتي، فقد كنت أتمنى مزيدا من العطاء والإنتاج العلمي، لكن لعل طلابي يتابعون هذه الرسالة ويكملون ما لم أستطع إنجازه.

وفي الختام فإني آمل فيما بقى لي من العمر أن يوفقني الله لمتابعة خدمة التاريخ الفلسطيني الحديث والمعاصر بالتأريخ لبعض الموضوعات التي لم تأخذ حقها من الدراسة، ومتابعة الإشراف على طلبة الدكتوراه والماجستير، والمساهمة في أنشطة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية بقدر ما تسعني الطاقة، كما آمل على المستوى العربي والإسلامي أن تتحرر فلسطين وتقام الدولة العربية فيها وعاصمتها القدس الشريف، وأن تتوحد كلمة العرب والمسلمين حتى يصدق فيهم قول الحق تبارك وتعالي :

[كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاس] صدق الله العظيم.

عــــــادل غنيــــم

رفـــيـق العمــر

بقلم
نوال مختار خليل

إلى رفيق عمري وتوأم روحي

إلى زوجي الحبيب عادل غنيم

بماذا أبدأ كلمتي عن عادل ؟ هل أبدأ من شخصيته كإنسان، أم كصديق، أم كمؤرخ.

شاء الله أن يربط بيننا برباط مقدس عام ١٩٦٥م ومنذ ذلك الوقت ونحن نعيش عيشة سعيدة هنيئة أنجبنا خلالها الابن محمد والابنة نجلاء، حفظهما الله من كل سوء، ونحمد الله أن جعلهما قرة أعين لنا، إن عادل غنيم هو الزوج الوفي المخلص والوالد الحنون الذي لم يتوان في يوم من الأيام أن يتخلى عن رعيته مهما بذل من جهد ومال، فهو المعطاء الكريم الذي لا يبخل على أسرته ولا على الإخوة والأهل والأقارب مهما كانت الظروف، فهو يكرم الضيف ويعين الضعيف ويسأل عن المريض، ولعل ذلك يرجع إلى أن عادل قد أحيط من صغره بحنان وحب والديه له فامتلأ قلبه بالحنان والحب لكل من حوله أو من يصادفه في حياته الأسرية والعملية .

عادل غنيم هو الرجل الذي تمنيته بكل ما في هذه الكلمة من معانٍ جميلة سامية ومشاعر طيبة صادقة تظهر دائمًا على وجهه البسام وسلوكياته المثالية ... إنه منذ أن تزوجته وهو لا يخشى في الحق لومة لائم .. يقول الحق في كل مكان يتواجد فيه .. في البيت، في العمل، مع الأقارب، مع تلاميذه، مع زملائه، وحتى مع رؤسائه، يقول الحق ولا يخشى إلا الله .. وقد تعلمنا منه الكثير، وعلى سبيل المثال أنه أثناء عملي كانت هناك أمور لا تعجبني

فاستشرته : هل أواجه هؤلاء الأفراد بحقيقة تقصيرهم في العمل رغم أن كبار المسئولين يساندونهم ؟ فوافقني على قول الحق، ونبهني إلى أن هذه الصراحة ستلحق بي الضرر من رؤسائي ولكنه سيكون عونًا لي على مجابهة هؤلاء المسئولين، وقد كان. فما توقعه عادل حدث فقررت أن أترك العمل بعد موافقته ومؤازرته لي في تلك المحنة (رغم ظروفنا العادية في تلك الوقت) لكن الله وفقنا في النهاية، حيث تم معاقبة هؤلاء المسئولين.

وأما عادل كإنسان فمنذ أن مرضت من عشرين عامًا وهو لا يتوانى عن رعايتي وسرعة ما يتطلبه المرض من نفقات مهما كلفه الأمر، ليس من الناحية المادية فقط .. ولكن بالمشاعر الطيبة التي تنبع من أحاسيسه النبيلة في أي أزمة من الأزمات التي أمر بها ليلاً أو نهارًا، ولا أنكر أن عطفه وحنانه عليّ يخفف عني الكثير وهذا من فضل ربي عليّ وأدعو الله دائمًا في كل وقت أن يحفظه ويبارك فيه وفي كل أعماله، فهو حسنة الدنيا والآخرة إنشاء الله، فقد كان له الفضل أن ينمي عندي النزعة الدينية وحب الإطلاع في الكتب الدينية التي يمدني بها بين الحين والآخر. فجزاه الله عني خير الجزاء.

أما عن شخصيته كمؤرخ فمنذ عرفته والدراسة والبحث والانشغال بهموم الأمة والوطن هي شاغله الشاغل في حله وترحاله، في مقالاته ومحاضراته، حتى في حياته وأحاديثه اليومية، وجلساته مع الأقارب .. هذه هي حياته وأنا ولله الحمد من ورائه أسانده وأتعايش معه في كل خطوة من خطوات حياته .. أفرح لفرحه وأحزن لحزنه وانشغل مع انشغاله .. ولا يرتاح لي بال إلا إذا رأيته سعيدًا مطمئن القلب، مرتاح الضمير مع كل كلمة يكتبها أو محاضرة يحاضرها، وأسعد بمحبة الناس لخلقه العظيم، وعلمه الغزير، وأخوته الصادقة، وأبوته لتلاميذه وأبنائه وأحفاده.

وفي ختام كلامي أذكر آية وحديثًا ينطبقان عليه :

[مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ ...] صدق الله العظيم.

وأما الحديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

[أقربكم إلي مجلسًا يوم القيامة أحسنكم خلقًا] صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

كلمـــات

من ابـــن محب لوالده

بقلم

محمد عادل غنيم

من الصعب أن تعبر بعض الكلمات البسيطة عن مشاعر كبيرة تجاه إنسان عظيم، ولكني أحمد الله أن أتيحت لي الفرصة لإرسال باقة من الحب تلفها كلمات من التقدير والإعجاب لوالدي الفاضل الدكتور عادل حسن غنيم، فوالدي هو مثلي الأعلى في هذه الحياة وهو بالنسبة لي ليس بمثابة أب يشملني بالحب والرعاية وأحيا برضائه الكامل ويدعمني بكثير من عوامل الثقة والاعتزاز بالنفس والشعور بالمسئولية، ولكنه يمثل لي أيضًا الأخ الحبيب الذي يحافظ على مشاعري ويقف بجانبي في المواقف الصعبة، وهو أيضًا الصديق الذي يشاركني أسراري وأسعد معه بقضاء أجمل الأوقات، وقد رأيت في والدي نموذجًا للإنسان المسلم الصحيح الذي تتبع تصرفاته وأفعاله من تعاليم الدين ومبادئه، وهي في رأيي من أعظم صفاته الشخصية.

وقد رباني والدي الحبيبان على تعاليم الإسلام والاهتمام بالرياضة وقول الحق وحب الخير للجميع وبر الأهل والأقارب، وكانا حريصين على توجيهي في جميع أموري الشخصية مع إعطائي حرية كاملة في اتخاذ قراراتي بنفسي مهما كانت مخالفة لرغبتهما الشخصية، وأتذكر بأن الوالد كان يرغب أن أكون مهندسًا، ورغما عن أني حصلت على مجموع في الثانوية العامة يتيح لي دخول كلية الهندسة إلا أني فضلت دخول كلية التجارة أو الشرطة، وقد ذهب معي لتقديم أوراقي إلى كلية الشرطة حتى يشجعني - رغمًا عن اختياري لكلية غير التي تمناها لي - وفي الوقت الراهن أحاول دائمًا وبصعوبة شديدة أن أتبع نفس النهج مع أولادي.

وكنت دائمًا وأنا صغير أسمع جدي رحمه الله يقول لوالدي " إنك يا عادل منا ومش منا " وكنت أتعجب من هذه المقولة ولا أفهمها وظللت أرددها دون أن أعلم معناها، وعندما كبرت عرفت قصد جدي فكان يقصد بأنه منا لأنه يتمتع بصفات البشر يفرح ويحزن ويغضب ولكنه في نفس الوقت يتحلى بصفات ملائكية.

ويتمتع والدي الحبيب بخفة ظل غير عادية، وتتجلى عندما نقوم بزيارة المنصورة مسقط رأسه مع عمي العزيز عفيف غنيم حيث أسعد بتعليقاته وقفشاته الجميلة عن ذكريات زمان، وأتذكر بأنه أثناء استعدادي للزواج كان والدي الحبيب يدعمني بكل إمكانياته المالية نظرًا لزواجي في سن مبكرة، وفي بعض الأحيان كنت أطلب منه احتياجاتي المالية ونحن نسبح قرب جزيرة بالإسكندرية اعتمادًا على قدرتي الجيدة في السباحة والغوص وعدم إتقانه لهما، وفي إحدى المرات بعد زواجي ونحن في منتصف البحر طلبت منه شراء سيارة جديدة فأجابني بأنه لا يرغب في العودة للشاطئ وأنه يفضل قراءة الشهادة عن الاستجابة لمطلبي.

وهو مناضل كبير بكتاباته الجميلة وأفكاره الجريئة، وأتذكر أنه عندما ذهب لحضور مؤتمر في العراق ممثلاً لجامعة قطر عام ١٩٨١م وكانت الحرب بين العراق وإيران في بدايتها، حدث أن العراق في ذلك الوقت كان محتلاً مساحات شاسعة من إيران، وكان من ضمن كلمته التي ألقاها في المؤتمر بأن هذه الحرب لن يكون فيها منتصر أو مهزوم وأنها سوف تستمر لسنوات طويلة نتيجة لأطماع القوى الكبرى في المنطقة، وهو ما أثار معظم الحاضرين في المؤتمر من حزب البعث، ونصحه أحد الأصدقاء بالعودة في أقرب فرصة ممكنة ولكنه فضل استكمال المؤتمر.

ومن ضمن آرائه الجريئة ـ والتي اختلف عليها بعض علماء المسلمين ـ وجهة نظره حول موضوع العمليات الاستشهادية في فلسطين، يرى أبي عادل غنيم أنه من حق الفلسطينيين الدفاع عن أراضيهم بأي وسيلة ممكنة حتى ولو

كانت من خلال العمليات الاستشهادية بشرط أن تكون داخل الأراضي الفلسطينية فقط ولا تتعداها إلى أراضي دول أخرى، ولا فرق بين مدني أو عسكري إسرائيلي لأن الشعب الإسرائيلي يُعتبر كجيش احتياطي بجميع طوائفه، وأخيرًا لأن الشعب الفلسطيني لا تتوافر له الأسلحة الكافية التي يدافع بها عن وطنه.

ويحضرني رأيه عن القضية الفلسطينية ضمن كتابه " الدولة اليهودية " ما قاله في مقدمة الكتاب بأنه إذا كان هرتسل الذي يفتقد إلى الحق والعدل في إقامة دولته مستخدمًا كل قدراته الذهنية والنفسية وخبراته الصحفية والقانونية من أجل خلق دولة لا وجود لها، فهل تعجز الأمة - صاحبة الحق - والتي قدمت للبشرية عشرات من المفكرين أن يخرج من بينها مفكر يكتب لأمته عن الدولة العربية المرتقبة، وكيف السبيل إلى يقظة الأمة وتجاوز خلافاتها وتوحيد صفوفها وتحقيق عوامل نهضتها . ثم يتساءل أخيرًا : هل من العسير على النخبة المثقفة أن تقدم لأمتنا العربية مشروعًا حضاريًا متكاملاً لحاضرها ومستقبلها ؟ وكأنه وضع بهذه الكلمات الموجزة حجر الأساس لهذا المشروع.

وهناك الكثير من المعلومات التاريخية الخاطئة التي يرددها العامة والمثقفون لكنها لا ترتبط بالحقيقة في شيء، ويحاول د.عادل غنيم أن يصحح هذه المعلومات التاريخية كمؤرخ عربي مسلم، فهو يؤكد بأن مصر لم تخسر حرب ٤٨ بسبب الأسلحة الفاسدة كما هو شائع لأن هذه الأسلحة اشتريت بالفعل ولكنها لم تستخدم في الحرب طبقًا للوثائق المصرية، بالإضافة إلى محاولاته العديدة لتصحيح مزاعم اليهود في تسمية حائط البراق باسم حائط المبكى، والذي تردده بعض وسائل الإعلام العربية والعالمية، وذلك من خلال الندوات والمقالات الصحفية وأخيرًا إصدار كتاب بعنوان " حائط البراق أم حائط المبكى" والذي أثبت من خلاله الأصول الدينية والتاريخية لهذا الاسم.

وقد استخدم العقل والمنطق في كثير من تحليلاته التاريخية لاستنباط النتائج المختلفة، كما حدث في تفنيده لمزاعم اليهود حول بقايا هيكل سليمان وفيما إذا كانت موجودة تحت المسجد الأقصى أم لا، فقد أوضح د عادل غنيم أن المسجد قد بنى قبل ظهور سيدنا سليمان - عليه السلام - بأكثر من ألف عام، وأن المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله والذي تردد عليه وعاش من حوله عدد من الأنبياء منهم زكريا ويحيى - عليهما السلام - والذي صلى فيه سيدنا محمد - عليه الصلاة والسلام - إماما بالأنبياء ليس معقولاً أن يكون تحته أثر من آثار الأنبياء سواء كان لسيدنا سليمان أو لغيره من الأنبياء، وأنه سبق في علم الله أن يكون المسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين عند المسلمين، وإن مكانًا بهذه المنزلة لا يمكن أن يكون محلاً لصراع أو خلاف أو ادعاء، وأنه ورد في المصادر التاريخية المختلفة إشارات إلى بناء الهيكل وهدمه عدة مرات لكن لم يرد إشارة واحدة إلى هدم المسجد الأقصى، وأخيرًا أنه رغم قيام سلطات الاحتلال الإسرائيلية بالحفر في مناطق متعددة أسفل الحرم القدسي منذ ١٩٦٧م حتى وقتنا هذا، فإنها لم تجد إشارة أو دليلاً ولو محدودًا لوجود هيكل سليمان تحت المسجد الأقصى.

إنني أنتهز هذه المناسبة السعيدة بشأن إصدار كتاب تذكاري للوالد كي أعبر له في كلمات قليلة عن كل معاني التقدير والحب والدعاء إلى الله أن يبارك لنا فيه وأن يمتعه بالصحة والسعادة والهناء.

والـدي عـــادل غنيم

نبـع الحنان المتـدفق

بقلم

نجلاء عادل غنيم

جاءتني الفرصة لأشارك مع الأساتذة الكبار زملاء والدي وتلاميذه الأفاضل في الكتابة عنه بمناسبة مرور سبعين عامًا على مولده، لم يدعني أحد للكتابة، وإنما أنا التي أسرعت بشغف كي أكتب عن والدي الغالي لأعبر عن مدى حبي وتقديري له ولأقدم تحية وفاء وعرفان ومحبة لشخصه الكريم، وأشكر الأستاذ الدكتور جمال حجر على فكرته الرائعة للاحتفال بوالدي بهذا الكتاب، وجزاه الله خيرًا عن هذا التكريم.

وإني سعيدة بفرصة الكتابة عن والدي وشخصه الكريم من خلال تربيته وعلاقته بنا، ولست سعيدة فقط بل فخورة أنه والدي الإنسان الحنون لأبنائه وأحفاده وأقاربه، وأستاذ ومربي فاضل، وناصح أمين لتلاميذه، وصديق مخلص لأصدقائه ومعارفه.

فوالدي هو الذي زرع فينا أسمى الخصال من المحبة والعطاء والتسامح والإيمان والكرم، ومازال القدوة التي يحتذى بها في المجال الاجتماعي والعلمي، وإني فخورة بوالدي الذي علم أجيالاً وأجيالاً على مر السنين، وأرى دائمًا ولاءهم وعرفانهم له مصحوبًا بالحب والسعادة.

إن والدي الذي نقش في نفوسنا أحلى المعاني السامية والأخلاق الكريمة يعجز لساني عن التعبير عن مدى الحب الذي أكنه له. ولعل سطوري لا تفيه حقه، إنما هي مشاعر تجاه مشاعره الفياضة التي غمرتنا خلال تلك السنين.

فكما اسمه عادل فهو عادلٌ في كل ما يفعله تجاه أسرته وأصدقائه الأساتذة وتلاميذه. وعادلٌ في حياته بين الناس، وعادلٌ في أحكامه وتقديراته وأعماله.

وسعادتي الشخصية عندما يكون راضيًا عني وأستطيع أن أسعد قلبه أو أدخل البسمة على وجهه المنير الباسم، الذي أتفاءل به دائمًا.

كان جدي - رحمه الله - المربي الفاضل الأستاذ " حسن غنيم " يقول لوالدي " لقد صنعتك على عيني " وبالفعل والدي ذلك الإنسان المثابر الخلوق المليء بالإيمان العميق، والابن البار، والزوج الصالح، والأخ الكريم، والمربي العادل الناصح، والجد الحنون، والمسلم الصادق بلسانه وأقواله وأفعاله، والصديق الوفي المخلص، والجار الخير، هو الإنسان الذي يشارك الجميع في أحلى الأوقات وأحلك الأزمات.

فوالدنا الكريم هو قدوتنا، وهو نبراس لنا في حياتنا نستفيد من نصائحه المفيدة، وتوجيهاته الصائبة، ونظراته الثاقبة، وشفافيته المتناهية.

ومن أهم الصفات التي زرعها بعمق فيّ هو والوالدة الغالية، حب الله وطاعته والمواظبة على أداء الصلوات وقراءة القرآن، ومراقبة الله في كل ما نفعله ونقوله.

ومن أهم الصفات الحميدة أيضًا التي زرعها أبي فينا، الرضا .. الرضا في السراء والضراء، رضا النفس بما قسم الله لها، والرضا الحقيقي بنعمته التي أنعمها علينا، سواء زادت تلك النعم أو قلت.

إن فضل أبي عليّ في أشياء كثيرة من أهمها اختياره لتعليمي في أرقى مدارس اللغات خلال المرحلة الابتدائية، ورغم محدودية الدخل في أول حياته، لكن حبه لنا وحرصه على توفير أفضل الفرص التعليمية لأولاده كان شاغله الشاغل.

إن أبي من حبه لطلب ونقل العلم ذكرني بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن فضل الخروج لطلب العلم، قال صلى الله عليه وسلم " إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما صنع، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد

كفضل القمر على سائر الكواكب، وأن العلماء ورثة الأنبياء، وأن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، إنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر " رواه أحمد والترمذي وابن ماجه.

وكلما تذكرت هذا الحديث شعرت بمدى مكانة أبي الذي لا يتهاون في قول كلمة حق دون النظر إلى أية عواقب، ويتوكل على الله دائمًا فيما يقول وفيما يفعل، ويسعى دائمًا في نقل علمه بأمانة وصدق وموضوعية.

وكم أنا فخورة بتوجيهات والدي، ورغم أني تزوجت وأصبحت أمًا إلا أني مازلت أتعلم منه، وأدعو الله أن يكون بين أحفاده السبعة من يسعى كجده لطلب العلم ونقله بأمانة العالم.

لقد علمني أن حب القراءة، وشجعني على الكتابة وإرسال إنتاجي إلى المجلات المختلفة، ووفر في مكتبتي كثيرًا من الكتب المتنوعة: سير ذاتية، وكتب دينية وتاريخية، وكان من أحلى ما حببني فيه الشعر خاصة شعر أحمد شوقي، وحافظ إبراهيم، وما أحلى شعرهما عندما أسمع والدي ينطقه بلغته العربية الرائعة، وكنت أتمنى أن أكون شاعرة حتى أمدح أبي بما يستحق، فكلما كتبت عنه أجد الكلام مناسبًا والحديث مرسلاً عن صفاته وأفضاله وأخلاقه، ولو تركت نفسي لكتبت كلامًا كثيرًا عن أبي الغالي.

إن حبه الذي يروي نفسي حب متدفق. حب ملئ بالحنان والمودة. لقد كان والدي دائمًا يدعو لي بالزوج الصالح الذي يسعدني، واستجاب الله دعوة أبي وأمي ورزقني بفضل الله ودعوتهما بزوجي المهندس طارق كمال علي، نعم الزوج الصالح والأب الحنون ورزقني ببناتي الحبيبات، سلمى، وسارة، وإيمان.

وما أحلى رضا الوالدين وما أحلى أن تستجاب دعوتهما، وإذا كنت موفقة وسعيدة في حياتي فبفضل الله ودعوتهما التي تحفظني وتحميني من كل مكروه.

حفظهما الله لي وبارك لي فيهما وجعلني قادرة على برهما دائمًا وإسعادهما إلى آخر العمر - إن شاء الله -.

لم استطع أن أختم مقالتي عن والدي دون أن أتكلم عن توأم روحه ورفيقة حياته، والدتي " نوال مختار " تلك الإنسانة المؤمنة الودودة التي شاركته في تربيتنا وزرعت معه أحلى المعاني في نفوسنا، تلك الأم المثالية التي يجب أن أشكرها على موافقتها أن يكون أبي شريكاً لها في حياتها، وأشكر أبي لاختياره أمًا حنونة لتكون رفيقة وزوجة صالحة، فهما بالفعل زينة حياتنا وبركتنا ونور طريقنا في هذه الدنيا، إنهما نعم الوالدين، وصدق من قال وراء كل رجل عظيم امرأة عظيمة مثله.

أمد الله في عمرك وصحتك وعافيتك يا أعز وأغلى الأحباب، وزاد من علمك، وثبتك دائمًا على قول الحق.

ولك حبي وتقديري واعتزازي.



عادل حسن غنيم : صديقاً ... مؤرخاً

أ.د.عبد الباري إبراهيم درة
رئيس جامعة الأسراء الخاصة
عمـــان – الأردن

ما أكثر الاخوان حين تعدهم وما أقل الأصدقاء الأوفياء الخلص. هي صداقة امتدت بيني وبين أخي عادل منذ نصف قرن، منذ أن كنا طلاباً معاً بقسم التاريخ بكلية الآداب جامعة القاهرة (١٩٥٤- ١٩٥٨). هو من مصر ارض الكنانة من طلخا وأنا من الأردن من الخليل. جمع بين قلبينا حبل متصل من الألفة والود والمحبة والاحترام.

تخرجنا من قسم التاريخ مشروعيْ مؤرخينْ وكان يرعانا رعاية خاصة الأستاذ والصديق المرحوم الدكتور محمد أحمد أنيس الأستاذ بقسم التاريخ.

لم يكن محمد أنيس مجرد عضو هيئة تدريس يمر بك وتمر به ثم ينسى كل من الأستاذ والتلميذ بعضهما بعضاً. كان صديقاً، باحثاً، وطنياً، غيوراً، مؤرخاً ناقداً، وفوق ذلك كله وقبله وبعده أباً روحياً. كثيراً ما التقينا في بيته بالدقي مجموعة من الطلاب والساسة والمفكرين والصحفيين، حديثهم الوطن العربي وهمومه ومشكلاته وكيف السبيل لمواجهة التحديات. وبفضل تشجيع الدكتور أنيس وتوجيهه عكف عادل على دراسة الحركة الوطنية الفلسطينية وأنا على دراسة تطور اهتمام مصر بالقضية الفلسطينية منذ عام ١٩٣٦ حتى عام ١٩٤٨. أما عادل فاستمر في دراساته وأبحاثه في الحركة الوطنية الفلسطينية حتى أضحى عضو هيئة التدريس بقسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة عين شمس ثم أستاذاً ورئيساً لوحدة بحوث التاريخ والوثائق بجامعة قطر ثم مؤرخاً يشار إليه بالبنان في مصر والعالم العربي.

أما أنا فقد سرت شوطاً في دراسة تطور اهتمام مصر بالقضية الفلسطينية وكنت في كل صيف اشد الرحال إلى مصر لالتقي بالصديقين العزيزين عادل ومحمد أنيس، اشبع روحي من ودهما ورعايتهما وعلمهما. ثم تغير المسار وسافرت إلى الولايات المتحدة لأحصل على الماجستير في التربية في منتصف الستينات من جامعة انديانا ثم الماجستير والدكتوراه في الإدارة في منتصف السبعينات من جامعة جنوب كاليفورنيا.

ورغم لختلاف مسيرتي ومسيرة "عادل" العلمية والمهنية، هو في التاريخ وأنا في التربية والإدارة إلا ان صلاتنا لم تتقطع منذ أن عرف بعضنا بعضاً في أوائل الخمسينات من القرن الماضي إلى أوائل هذا القرن... القرن الحادي والعشرين.

كانت صداقة يزينها الوفاء والود والمفاتحة والطموح والآمال. ولقد قوّى من أواصر هذه الصداقة انني كثيراً ما كنت أزور عادل في بيته في طلخا، وكنا نقضي هناك أياماً جميلة في ريف طلخا والمنصورة وبرعانا والده المرحوم الأستاذ حسن المربي الكبير ووالدته العطوفة رحمها الله. وهناك وفي القاهرة عرفت أفراد أسرته بنين وبنات . ولقد أعجبني في هذه الأسرة ودها ولطفها وكرمها ووطنيتها وثقافتها.

في منتصف الستينات من القرن المنصرم انتقل مقر عملي من مفتش للاجتماعيات (التاريخ والجغرافيا وعلم الاجتماع والفلسفة) بوزارة التربية والتعليم الأردنية إلى ملحق ثقافي بالسفارة الأردنية بالقاهرة. كانت سنو عملي في القاهرة ملحقاً ثقافياً من أغنى سنوات عملي وخبرتي، ثقافياً وسياسياً وفنياً: لقد شربت روح قاهرة الستينات حيث الزخم الوطني والقومي الذي قاده جمال عبدالناصر رحمه الله، وحيث الحركة الفنية والثقافية الزاهرة، نشراً وندوات ومسرحاً، وصحفاً ومجلات، في الخمسينات كنا نختلف إلى سور الأزبكية نلتقط كتب التاريخ والتراث بأبخس الأسعار، وفي الستينات كنا نتسكع في شوارع

القاهرة حيث رصيف المعلم مدبولي بميدان سليمان باشا، وحيث المسرح القومي والمسرح العائم والمسرح الحر، وحيث ليالي وسهرات أم كلثوم ومحمد عبدالوهاب ونجاة الصغيرة وفايده كامل. ولم يعكر صفو هذه الأيام إلا حرب الأيام الستة أو بالأحرى الساعات الستة عام ١٩٦٧، وعلى أثرها سقطت سيناء والضفة الغربية بما فيها مدينتي الخليل والجولان بأيدي العدو الصهيوني. ويشهد الله انها كانت ضربة قاسية لا يزال الوطن العربي يعاني منها إلى الآن، ولا أزال أشعر بقشعريرة عندما أعود إلى ساعاتها السود.

وينتقل الأخ الصديق عادل إلى جامعة قطر أستاذاً للتاريخ ورئيساً لوحدة التاريخ والوثائق بمركز الوثائق والدراسات الإنسانية بجامعة قطر، وعضواً بمجلس إدارة المركز، وهناك عكف على البحث والتأليف والتدريس في تاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية والموضوعات ذات الصلة ولم تنقطع صلتي به أثناء وجوده في قطر. فكثيراً ما كنت أزوره في بيته عندما أزور قطر، وكان هو هو لم يتغير: رقة في الشمائل وحرص على معرفة أحوالي وأحوال الأصدقاء المشتركين في الأردن وفي مصر، ومعرفة واسعة بأحوال الوطن العربي وما يعتمل فيه من أحداث، ويزين ذلك كله خفة دم عهدتها فيه منذ أن تعارفنا قبل ما يقرب من نصف القرن.

وكم كانت خيبة أملي كبيرة عندما زرت قطر، في شهر اكتوبر عام ٢٠٠٣، ممثلاً لجامعة الإسراء الخاصة في مجلس اتحاد الجامعات العربية الذي عقد هناك، وسألت عنه في جامعة قطر فقالوا انه أنهى تعاقده مع جامعة قطر وعاد إلى أرض الكنانة وحصلت على هاتفه المنزلي وهاتفته، فكان على الطرف الآخر من الهاتف هو هو: عذوبة ورقة وخفة دم، وقلت له انني قادم إلى القاهرة في ابريل عام ٢٠٠٤ لالقى بحثاً في الإدارة في مؤتمر اقليمي دولي ينظمه الخبراء العرب في الهندسة والإدارة (ومقرهم في القاهرة) والاتحاد

الدولي لمنظمات التدريب والتنمية (ومقره جنيف) واعمل عضو مجلس إدارة فيه وسأكون الرئيس المنتخب له لمدة عامين اعتباراً من يناير ٢٠٠٥.

والتقينا وكان لقاء حاراً تذاكرنا فيه الأيام الجميلة التي قضيناها وطفنا في الحديث: الماضي والحاضر والمستقبل، وعلمت انه نائب رئيس الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، وعرضت عليه أن أكون عضواً بها بصفتي دارساً للتاريخ ومهتماً به فرحب بذلك.

وقد أعلمني ان أصدقاءه وتلامذته سيصدرون كتاباً تذكارياً تقديراً لمساهماته المتميزة في معالجة قضايا تاريخ فلسطين الحديث والمعاصر، وبمناسبة بلوغه سن السبعين ، فأبديت رغبتي في أن أكتب ورقة في ذلك الكتاب وفاء لصداقتنا وتسجيلاً لعلاقتي الروحية به، وتقديراً لأستاذيته. شيئان ميزا لقاءنا الأخير: تسكعنا في شوارع القاهرة كما كنا نفعل ونحن طلاب ومررنا على عدد من المكتبات وكأننا نريد أن نثبت اننا لا زلنا شباباً. وشيء آخر الحزن الذي غلف حديثنا عندما ذكر لي وفاة صديق مشترك وصهر له وهو المرحوم الأستاذ عبدالكريم سليم، خريج قسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة القاهرة، ونائب رئيس تحرير جريدة الجمهورية، فرحمة الله عليه وأسكنه فسيح جنانه.

هذا غيض من فيض عن عادل غنيم الصديق: معرفة وصداقة وتواصل استمرت نصف قرن. عنوانها الوفاء والمودة والإعزاز والتقدير والاحترام والرغبة الجامحة في اللقاء والحديث وطرح القضايا الوطنية والقومية والدولية والتطلع إلى حياة أفضل لشعوبنا وأمتنا.

وهذا يسلمني للحديث عن عادل غنيم ... مؤرخاً.

كنت ألمس بذرة عادل المؤرخ منذ أن عرفته في قسم التاريخ بكلية الآداب في الخمسينات من القرن المنصرم. لقد تتلمذنا على أيدي عمالقة من المؤرخين والأساتذة في تلك الفترة. منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر. ولا تزال الذاكرة تحمل ذكريات جميلة عنهم: حسين مؤنس ومحمد جمال الدين سرور

وأحمد دراج وحسن محمود (التاريخ الإسلامي) وزكي علي وأحمد فخري وعبد اللطيف أحمد علي (التاريخ القديم) ومحمد مصطفى زيادة والسيد الباز العريني وسعيد عبدالفتاح عاشور (التاريخ الوسيط) ومحمد فؤاد شكري ومحمد أنيس (التاريخ الحديث).

ولا شك ان كلاً منهم أثر فينا بشخصيته ومنهجيته، وقد اتبع كل منهم سنة حميدة في انه كان يكلفنا بتقديم بحوث. ومن خلال التتلمذ على أيادي أولئك الأساتذة الكبار واعداد الأبحاث والاستعانة بالمراجع العديدة تبلورت شخصيتنا.

وقد بلور شخصيتنا أيضاً اشتراكنا في الرحلات العلمية التي نظمها قسم التاريخ لزيارة محافظات مصر وآثارها التاريخية. وتوج ذلك كله إصدارنا لمجلة حائط في قسم التاريخ أجرينا على صفحاتها مقابلات مع أساتذة القسم والعميد ومفكرين وساسة لا أزال أذكر منهم المرحوم الأستاذ إحسان عبد القدوس رئيس تحرير مجلة روزا اليوسف وعبدالعزيز بوتفليقة، وزير خارجية الجزائر آنذاك.

ونتخرج من قسم التاريخ عادل وأنا، طالباً ماجستير في التاريخ، وكما ذكرت آنفا، تحت إشراف أستاذنا الكبير محمد أنيس رحمه الله، ويمضي عادل في إنهاء الماجستير والدكتوراه في تاريخ فلسطين الحديث والمعاصر. أما أنا، وكما أسلفت، فإن الحياة والعمل أخذاني عن إتمام رسالة الماجستير فاتجهت إلى دراسة التربية والإدارة كما ذكرت ولا أزال أتعامل معهما بحثاً وتأليفاً وممارسة.

إن صلتي بالتاريخ لم تنقطع منذ أن تخرجت من قسم التاريخ فلقد درّست التاريخ في المدارس الثانوية ومعاهد المعلمين في الإدارة، وألفت الكتب المدرسية في التاريخ الإسلامي والحديث في الأردن وسلطنة عُمان. ولقد وجدت صلة قوية بين التاريخ والإدارة، فالإدارة حقل دراسة عرفت بداياته في أوائل القرن العشرين، وظهرت فيه مدارس وحركات كانت نتاج ظروف تاريخية وموضوعية أحاطت بكل مدرسة؛ والسياق التاريخي لكل مدرسة أو حركة يفسّر

بوضوح كثيراً من أفكارها ومفاهيمها. والإدارة من جهة أخرى تدرس المنظمات والمؤسسات: قوتها وضعفها، ازدهارها وسقوطها، أداءها الضعيف وأداءها المتميز، أثر القادة والمديرين والموارد البشرية فيها ارتفاعاً وهبوطاً. أليست المجتمعات الماضية والحاضرة هي منظمات ومؤسسات أكبر؟ ولقد وجدت تشابهاً كبيراً بين ارتفاع المجتمعات والحضارات وسقوطها وبين ارتفاع وسقوط المؤسسات والمنظمات.

ولعل هذا هو الذي حدا بأستاذ الإدارة المعروف في جامعة منسوتا بالولايات المتحدة، لارى ل. كمنجز (Larry L. Cumnings) إلى تقديم نصائحه لمديري الشركات الذين يريدون أن ينجحوا ويتميزوا في إدارتهم: أن يدرسوا التاريخ. فلقد قال في مقابلة له ان على المديرين أن ينظروا إلى التاريخ نظرة استراتيجية عليا: فيتعرفون على العوامل والقوى التي اهتمت أو لم تهتم بها الشعوب والقادة، وما نقاط القوة الضعف في حياتهم، وكيف كان يمكن تجنب نقاط الضعف والقوة وتعظيم نقاط القوة. نعم ما أجملها من نصائح!

بهذه الخلفية العلمية أتناول الأخ الأستاذ الدكتور عادل غنيم... مؤرخاً. إن ملامح عادل غنيم المؤرخ تتمثل فيما يلي:

١- إن صلته الوثيقة بأستاذنا المرحوم محمد أنيس أثرت فيه تأثيراً كبيراً. فلقد كان المرحوم الدكتور أنيس يبتعد بعداً كبيراً عن السرد والوصف، كان يحرص باستمرار على المحاكمة العقلية الناقدة والتحليل العلمي الرصين، فإن ما يهمه هو إبراز الاتجاهات العامة التي تحكم حركة التاريخ . فعادل غنيم من هذه الناحية تلميذ وفيٌ لأستاذه محمد أنيس.

٢- لقد أصدر الدكتور عادل غنيم خمسة عشر كتاباً وأجرى أربعة وثلاثين بحثاً غالبيتها عن فلسطين. لقد تناول تاريخ فلسطين الحديث المعاصر والحركة الوطنية الفلسطينية. إن اهتمامه بالحركة الوطنية الفلسطينية هو

تجسيد للمدرسة التاريخية الحديثة التي تهتم بالشعوب وأحوالها، والبعد عن تناول حياة الملوك والحكام والزعماء والساسة وسيرهم . ولا أدل على ذلك من كتابه المعنون: " **القوى الاجتماعية في فلسطين فيما بين الحربين العالميتين** ". فلقد تناول حياة الفلاحين والبدو والعمال وكذلك البورجوازية الصغيرة والبورجوازية الكبيرة. وهذه في الواقع موضوعات يندر التطرق إليها، كما ان قلة من المؤرخين القدامى والمحدثين- وفي حدود علمي- قد اهتموا بهذا الجانب. ولعل من المؤرخين القدامى الذين أولوا الموضوع اهتمامهم المقريزي في خططه وابن خلدون في مقدمته، ومن المحدثين الدكتور عبدالعزيز الدوري رئيس جامعة بغداد سابقاً وأستاذ التاريخ بالجامعة الأردنية حالياً، أطال الله في عمره. [١]

٣- تتميز منهجية الدكتور عادل غنيم التاريخية بحرصه على الاعتماد على المصادر الأولية واستشارة المراجع الثانوية، فنراه يدرس الوثائق والصحف والمجلات الصادرة في الفترة التي يؤرخ لها وكذلك مذكرات الساسة والكتاب الفلسطينيين الذين تصدوا للكتابة عن فلسطين مثل عوني عبدالهادي ومحمد عزت دروزة وأكرم زعيتر، رحمهم الله جميعاً. ثم لا ينسى بعد ذلك قراءة ما كتب عن الحدث مما يساعد على إضاءة جوانب من الحدث أو الحركة التي يتناولها بالبحث والتمحيص.

٤- الحرص على توظيف دراسة التاريخ الحديث والمعاصر لنهوض الأمة والوطن. إن المدرسة الوظيفية في التاريخ لا تدرس التاريخ من أجل دراسة التاريخ، بل تدرسه لتلقي ضوءاً على الحاضر ولاستشراف المستقبل. وهذا ما فعله مؤرخنا الكبير. إن قراءتنا لدراساته والاستماع إلى محاضراته وتحليلاته تعتبر هادياً ودليلاً للعمل. فليس ثمة طريق

أسلم من طريق الدراسة المتعمقة للأحداث، والاعتماد على الشعوب والقوى الاجتماعية الفاعلة، والإفادة من التحالفات والقوى العربية والإسلامية والعالمية والصديقة، والإيمان بالحق، والمصابرة والمجاهدة، وهي كلها أدوات للصمود والمقاومة لعدو نجح في معركته في اقتناص فلسطين في القرن الماضي، ولكن الحق يعلو ولا يعلا عليه، والباطل زاهق، مهما طغا وتجبر، والنصر دوما للشعوب المناضلة المكافحة.

لقد أسعدني كثيراً أن أكتب هذه الكلمات عن أخي: عادل حسن غنيم: صديقاً ومؤرخاً، متمنياً له مزيداً من العطاء والانتاج العلمي الرفيع، مهنئاً إياه بإنجازاته الكبيرة مؤرخاً شارف السبعين، له أصدقاء وتلامذة ومريدون، صاحب مدرسة واضحة في التأريخ، متمنياً له الصحة والسعادة وطول العمر، والله يرعاه ويحفظه، إنه سميع مجيب.



الأستاذ الدكتور عـــــادل غنيـم :

نـهر العطاء المتـجدد

أ.د. محمد مؤنس عوض

أستاذ بكلية الآداب – جامعة عين شمس

في هذا المقال الموجز؛ أقدم للقارئ العربي في كل مكان لمحة عن إنسانيات أ.د.عادل غنيم أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بكلية الآداب - جامعة عين شمس بعد أن خبرت الرجل على مدى ربع قرن من الزمان، حيث تشرفت دفعة عام ١٩٧٨م بأن دَرَّس لها ذلك المؤرخ الكبير.

وواقع الأمر؛ يصعب على المرء الكتابة بموضوعية عن أستاذنا الفاضل أ.د. عادل غنيم فكاتب هذه السطور ينحاز له "بالفطرة" بعد أن "عاصره" وأدرك ما احتوته شخصيته من عطاء متدفق يصعب توافره في العشرات من أساتذة الجامعات في زماننا هذا، الذي جفت فيه ينابيع العطاء إلا ما ندر، وشحت فيه عزائم الرجال المعطاءة إلا أقل القليل.

وهكذا؛ فعلى مدى ربع قرن من الزمان، لم أجد في ذلك المؤرخ البارز إلا كل عطف وتشجيع. والحقيقة؛ أنه كان يقوم بدور تربوي و"دبلوماسي" بارع لتلاميذه في قسم التاريخ، وامتلك مقدرة فذة على معاونة الطلاب على اكتشاف أنفسهم واستنطاق مكامن الإبداع في ذواتهم، وكل ذلك من خلال رؤية مستقبلية تستشرف القادم من الأعوام، وكأنه يقوم باستكشاف من يصلح ليكون مؤرخًا متميزًا يخدم تراث أرض الكنانة التي كانت وما تزال وستظل حبلى بالأبناء المخلصين الذين يضعون قلمهم الصادق الأبى رهن إشارتها وكذلك أرواحهم المستشهدة في سبيلها.

ولا مراء؛ أن عام ١٩٧٨م كان العام الفارق في حياتي وحياة كوكبـــــة من

الزملاء الذين اتخذوا من الكتابة التاريخية قدرًا ومصيرًا، فهم تلك الدفعة التي أضاء لها أ.د. عادل غنيم الطريق وعلم أبناءها كيفية أن يتعامل "الإنسان" مع "الإنسان الآخر" وصولاً إلى غرس القدوة في نفسه. وكان الطلاب بالفعل في أشد حالات التشوق لتلك القدوة غير المتناقضة بين أقوالها وأفعالها، فكان ذلك المؤرخ"العادل" الذي "غنمت" دفعتنا من ورائه أفضل وأرقى المكاسب الروحية والعلمية التي لا تزال متدفقة في ثنايا الذاكرة فتوقظها وتجعلها تعيش اللحظة تلو الأخرى بتلذذ عجيب وحب أعجب، هكذا فعل فينا ذلك "الرجل الفريد" الذي قابلنا في عام ختامي فكنا بالفعل معه على موعد وأي موعد.

وعلى مدى ربع قرن من الزمان؛ لم أجد أستاذي إلا راهبًا للقضية الفلسطينية وتاريخها الحافل بمؤامرات الأعداء والأصدقاء على حد سواء، ودماء الشهداء هنا وهناك، ونذر أستاذي نفسه لخدمة تاريخ تلك القضية، وكان سلاحه في ذلك الصبر، والجلد، والدقة، والأمانة العلمية، وتجنب الأضواء الإعلامية لإدراكه أنه يكتب لا لمصلحة شخصية قصيرة المدى، وإنما يكتب التاريخ للتاريخ، وعلى الرغم من أن زملاءه الآخرين انصرفوا إلى تناول موضوعات أخرى من التاريخ الحديث والمعاصر؛ إلا أنه أبى إلا أن يكون الابن البار لقضية العرب بالأمس واليوم وغدًا، فقدم للمكتبة العربية أفضل دراسة أكاديمية مصرية عن تطور الحركة الوطنية الفلسطينية على مدى المرحلة من ١٩١٧ حتى ١٩٣٩م. ولا ريب في أن الراحل الكبير أ.د. محمد أنيس نجح بالفعل في أن يجعل من تلاميذه في جامعة القاهرة كوكبة فريدة في تناول موضوعات بعينها في التاريخ الحديث والمعاصر، وبذلك كان متوازيًا مع دور الرائد الكبير أ.د. أحمد عزت عبدالكريم في جامعة عين شمس التي أتشرف بالانتساب إليها. وهكذا؛ حمل المؤرخان الراحلان على كاهلهما شرف تأسيس المدرسة التاريخية المصرية للتاريخ الحديث والمعاصر في النصف الثاني من القرن العشرين؛ مع عدم إغفال جهود متواصلة من جانب تلاميذهما بعد ذلك.

ولا نزاع؛ في أن أ.د. عادل غنيم خرج من عباءة أ.د. محمد أنيس إلا أنه حرص الحرص أجمعه على ألا يكون صوتًا علميًا مكررًا من أستاذه، بل صارت له شخصيته العلمية والإنسانية الخاصة به، وهنا سر حيوية ذلك المؤرخ الذي تشرفت بالتتلمذ على يديه، وهكذا، وجدت القضية الفلسطينية وتاريخها المؤرخ الراهب العاكف على دراستها الذي انفق عشرات الأعوام من أجل تجلية صفحاتها الناصعة في مقاومة الاحتلال والتآمر الدولي في صورة أستاذي عادل غنيم.

وأود أن أوضح للقارئ العربي؛ أن ذلك المؤرخ اعتمد على أسلوب "الدبلوماسية الهادفة" من أجل تحقيق أهدافه التي لم تنفصل أبدًا عن أهداف مصر معشوقتنا الكبرى، وكان كاتب هذه السطور في العشرينيات من العمر، لا يدري عن جوانب الحياة الجامعية العلمية إلا أقل قليل، فأخذ بيدي أستاذي لكي أصل إلى بر الأمان مسلحًا بنفس أسلحته الحضارية، وهو ما لم أجده إلا في القليل النادر من أساتذتي الذين تشرفت بالتتلمذ على أيديهم.

والآن؛ بعد أن انصرفت الأعوام مهرولة، انقضت السنون كالطائر المحلق ألاحظ أن أ.د. عادل غنيم كان بلا مبالغة هدية السماء لأبناء جيلي، وحتى بعد أن انصرف إلى "قطر" كي يعلم أبناءها هناك، ظل متواصلاً مع أبنائه في قسم التاريخ، وأذكر الآن أسماء عدد من أبنائه ممن تتلمذ على يديه في دفعة عام ١٩٧٨م: هناك د. زينب توفيق، د. ناهد الحمصاني، د. أحمد الدماصي، د. كرم الصاوي، د. محمود كامل، وكاتب هذه السطور.

انظر أيها القارئ كيف أثمر غرس أستاذي أشجارًا باسقة تخدم أرض الكنانة بأقلامها وتبرز تاريخها المشرق.

وكثيرًا ما تساءلت في قرارة نفسي ما السبب في أن أ.د. عادل غنيم امتلك مقدرة عجيبة على تبني تلاميذه والعطف عليهم ثم توجيههم صوب الدراسات العليا سواء كانت في مجال التاريخ القديم أو الوسيط أو الحديث. وأتصور أن

عصاميته وكفاحه الوثاب كان وراء ذلك كله، ثم المعاناة التي واجهها على مدى أعوام عمره أراد ألا ينقلها للآخرين، وهكذا يفعل عظماء الرجال، أما من أراد أن "يصدر" آلامه لقطاع من صغار الباحثين فلم أجد فيهم إلا ضحايا لقتلة آخرين، وأين هم من أستاذي الذي كان دائمًا يزرع ولا يحصد إلا الدعاء له بالصحة والعافية والسعادة، واستجاب الله تعالى لدعاء محبيه في كل مكان، فأصدر الدراسات التاريخية الرصينة، ورزقه الله تبارك وتعالى "بمحمد" و"تجلاء" ورأى أحفاده الصغار شموعًا مضيئة، وشاهد حب تلاميذه وهم يكتبون الكلمات تلو الكلمات في عيد ميلاده السبعين الذي يوافق يوم ٢٦ مارس من عام ٢٠٠٤م. أمد الله تعالى في عمره.

ودائمًا وأبدًا يرتبط أ.د. عادل غنيم في ذهني بمؤرخ راحل فذ هو أ.د. علي الغمراوي أستاذ العصور الوسطى بكلية الآداب ـ جامعة عين شمس سابقًا، فقد كان الأول حلقة الاتصال بيني وبين أستاذي الراحل، وعندما تلبدت الغيوم قام فارس الدبلوماسية الهادئة بدوره الذي لا ينسى، وكان أ.د. الغمراوي يصفه بأنه "معشوق الجماهير" من فرط حب الناس له لخلقه الرفيع وتواضعه الجم وعلمه الذي لم يختلف عليه أحد.

ولا أود من القراء الأعزاء اتهامي بأني أسير كاريزمية الرجل العالم الكبير، وواقع الأمر؛ أن من عاصره عن قرب يدرك تمامًا كم كان وما زال وسيظل نهرًا متدفقًا بالعطاء، رفض مبدأ "أنا ومن بعدي الطوفان" الذي وجدته لدى العديدين، وارتضى بأقل القليل من الأضواء، وسامح من ظلمه، وظل ممسكًا في يديه بشعلة العلم تضئ الطريق لكل من ارتاده، ولم يتنازل عن مبادئه الدينية في وقت رأيت في بعض زملائه من ارتدى ثياب العلمانية وسخر صراحة من كل ما اتصل بالدين، فخسر الدنيا والآخرة، ولم يترك إلا ذكريات سوداء تتبرأ منه.

بعد تلك الرحلة الورقية القصيرة السابقة، أخلص إلى لب الموضوع وقلب القضية، فمثلما "المنصورة" جوهرة النيل في دلتا مصر تحتضن ذلك النهر

الخالد، أوهو يحتضنها، فقد أنجبت لنا نهرًا للعطاء المتدفق الذي ما جف يومًا في صورة ابنها البار أ.د.عادل غنيم، وما كاتب هذه السطور وزملائه إلا نهيرات صغيرة تفرعن من النهر الأصلي ذلك المؤرخ الإنسان النادر التكرار المتفرد بخلق وعلم رفيعين.



خاطرة حول العالم الكبير
الأستاذ الدكتور عادل حسن غنيم

د. هارون عبد العزيز الجمل
مدرس القانون العام بجامعة قطر

أخي وصديقي الدكتور عادل غنيم يُعرف بين محبيه وأصدقائه بأنه ظاهرة غير مكررة، بما يفيض به من القيم، وما يفاض عليه من المواهب، وما يفسح له الله تعالى من الوقت، والمَدد، فيترقرق إنتاجه سلساً عذباً، رابياً متلاحقاً في قوة، بين منطوق، ومكتوب، بتلاحق فيذكرنا بأعلام السلف الصالح ويطمئننا على المستقبل، ويعطي للناس مثلاً حياً في الأصالة والمعرفة والصلة بالله، والغيرة على محارمه، في دراسته للتاريخ والعلم والرؤية المستقبلية.

إن إخائي بالدكتور عادل غنيم من نوع فريد، وأنا أشعر على الدوام بأن الزمن انطوى على ما يزيد عن ٤٥ عاماً ما بين آخر القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين، وانطوت كذلك أمكنة وامتزجت كلها في وحدة شاملة تؤكد أن قلبينا يتناجيان في حرارة ويتواصيان في لهفة كما كانت قبل ٤٥ عاماً مضت يوم أن تعارفنا وتلاقينا في رحاب جامعة عين شمس بالقاهرة عام ١٩٦١ وجامعة قطر بالدوحة نهاية عام ١٩٨١. ثم بما تحمله هذه القلوب نكتفي ونشتفي، إلى أن تجمعنا الصدفة، أو القصد مرة أخرى وعندها أعود فأحس كأننا لم نفترق!!

أقول ذلك في صديق وفي، يندر وجود مثله في خلقه العظيم، يرى العلم رسالة وكرامة وقناعة، لا وسيلة وصناعة أو بضاعة. وقد أدى واجبه كأستاذ جامعي أكاديمي وباحث مقتدر سواء في جامعة عين شمس أو جامعة قطر فقام ببذر بذور العلم في الرؤوس، كما قام أيضاً بغرس حب العلم في أعماق النفوس.

فكان موفقاً في تبليغ رسالته، وهل هناك ما هو أسمى – بعد رسالة الرسل – من رسالة رجال العلم والتعليم في هذا الوجود؟ وهل هناك – في هذا العصر – من هم أجدر من العاملين المخلصين منهم بالاعتراف والتقدير والذكرى الخالدة لتكريم مسيرتهم العلمية.

وأشعر في الحقيقة أن الاهتمام البالغ والدور البارز الذي قام به الدكتور عادل غنيم مفكراً ومؤرخاً في مناصرة القضية الفلسطينية في بحوثه ومؤلفاته ورسالته لدرجة الدكتوراه ، وإسهاماته المتنوعة الموضوعية والبحثية المستندة إلى استخدام الوثائق في سلسلة متصلة الحلقات حول الحركة الوطنية الفلسطينية مشفوعة برؤية مستقبلية منذ أكثر من ٣٥ عاماً وإبرازه أنه لن يكون سلام في منطقة الشرق الأوسط ما لم تصحح الأخطاء التي اقترفتها الصهيونية في أواخر القرن التاسع عشر في فلسطين، ورفع المظالم عن كاهل شعبها وتطبيق مبادئ العدل والقانون وقرارات الأمم المتحدة، مؤكداً مجدداً أن العلم لا يعرف رجاله له لوناً، كما لا يعرف في رجاله المخلصين تلوناً.

وظل الدكتور عادل غنيم وسيظل ما بقي الزمن رجل العلم الكبير والمفكر والمؤرخ الباحث من أبرز المتخصصين الأكاديميين في القضية الفلسطينية. وقد قام – فيما أعلم – بجهد صادق بالمشاركة مع الصديق الأستاذ محمد عدس بترجمة والتعليق على كتاب الدولة اليهودية لـ"هيرتسل" التي بدأت تأخذ شكلها التنظيمي في المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة بال بسويسرا عام ١٨٩٧ الذي تقرر فيه –ضمن ما تقرر– إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين ..

وعرفت الدكتور عادل غنيم قيمة علمية وعقلية وخلقية، وإنسانية تهتز بالحياة، وتنفعل بالعلم، والأصالة والمعرفة، والصلة بالله ... وقد كان يستمر في الكتابة حتى يشعر بالإعياء أخذاً بحديث رسول الله (ص) "من أمسى كالا من عمل يده أمسى مغفوراً له" .

أقول ذلك بمناسبة دعوة كريمة تلقيتها من رجل من أفاضل رجالات العلم البارزين الأستاذ الدكتور جمال محمود حجر بجامعة الأسكندرية لمشاركتي بموضوع في الكتاب الذي اعتزم إصداره تكريماً للمسيرة العلمية والمساهمة المتميزة للدكتور عادل غنيم في معالجة تاريخ فلسطين الحديث والمعاصر ، وبمناسبة بلوغ سيادته – أطال الله في عمره – سن السبعين .

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، فأبحاث الدكتور عادل غنيم تمنح القارئ زبداً نقياً ودسماً من العلم ، والمعرفة ، والتاريخ ، والتحقيق، والاستدلال، والإيمان ، والإشراق . وتعطيه في مثل ضوء الشمس بهاءً ونقاءً ، وسمواً وخلوداً . وتكشف الكثير من استصحاب الدكتور عادل غنيم الحكمة والفطرة السليمة والقدرة الفكرية .

ولعل خير ما أختتم به هذه الخاطرة أن أشير إلى ما يروى عن الخليفة هارون الرشيد إذ بعث إلى الإمام مالك يطلب إليه أن يأتي للتدريس لأبنائه في بيته فردّ عليه الإمام مالك يقول : "يا أمير المؤمنين ، إن العلم لا يأتي ، وإنما يؤتى إليه" . اللهم رحمتك على الإمام مالك ، وعونك للدكتور عادل غنيم ولكل أستاذ جامعي ، يرى العلم رسالة وكرامة وقناعة ، لا وسيلة وصناعة أو بضاعة إنك أنت الموفق ، إنك أنت المعين .

رضي الله عن أخي وصديقي الدكتور عادل غنيم ،

وزاده مما يحب ويرضى ، ونفعني بحبه وإخائه في الله تعالى .

الأستاذ الدكتور عادل غنيم

مـــؤرخ القضيـــة الفلسطينية

مقالة ببليوجرافية وقياسات ببليومترية

لإنتاجـــه الفكـــري من ١٩٦٠- ٢٠٠٤م

أ.د. كمـــال عرفات نبهـــان

أستاذ علم المعلومات والمكتبات

أمين عام مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي – لندن (سابقا)

الوكيل السابق لكلية العلوم الاجتماعية جامعة ٦ أكتوبر

رئيس مركز دراسات المعلومات والنصوص العربية

فهرس المحتويات

القسم الأول

الهدف والمنهج في هذه الدراسة

العلماء وضمير الأمة :

كان من أهم ما يميز الحضارة العربية والإسلامية الاهتمام بتراجم الأشخاص، ولعل من الممكن إذا بحث العقل عن أسرار عظمة الحضارة العربية والإسلامية أن يهتدي إلى واحد من أهم عناصر التقدم الإنساني وهو الوعي بقيمة الإنسان الفرد حينما يبدع ويخلص لهدف إنساني أو أخلاقي أو علمي،و كلها أهداف تنبع منه، وتصب في تيار واحد هو الحضارة وكرامة الإنسان، وهذا ما تحقق وتجلى في هذا التراث الهائل من التراجم والسير وبرامج الشيوخ في التراث العربي التراجمي والببليوجرافي.

ومن أهم ما نصنعه عندما نؤرخ لعالم من العلماء أن نتأمل كتاباته ومؤلفاته، وأن نقرأها بإمعان وتمهل، ويكتمل هذا بمعرفة العالم نفسه والحديث معه والاقتراب من وجدانه ومشاعره وشمائله وفضائله.

ولقد جادت الأيام على كاتب هذه السطور بمعرفة الأستاذ الدكتور عادل غنيم، فرأيت من فضائله وإبداعه العلمي والإنساني ما يستحق أن يؤرخ له وأن يكتب عنه، وحانت الفرصة لكي أنضم إلى كتيبة من العلماء الذين تداعوا إلى إصدار كتاب تذكاري لتكريم الأستاذ الدكتور عادل غنيم، والتكريم مصدره الكرامة والكرم، وهي مصادر لأروع ما تحتويه النفس البشرية في صفاتها ومودتها ودفئها، وما أروع أن نجد هذه الأزهار تنبت في فضائنا وفي عصر يظن فيه بأن هذه الفضائل قد ذهبت في أبعاد الفضاء بردًا، ونحن نعيش في فترة من فقدان التوازن وتبدد الوعي الجمالي لهذه الأمة، وإن كان الوعي الفردي لدى صفوة من أبناء هذا الزمان لا يزال قويًا مقاومًا مستمرًا، في إصرار على عودة المجتمع السوي والعقل المبدع والوعي الجماعي.

وليس تزيدًا في القول أن أقول أن الأمة العربية - بأغنيائها وفقرائها، وما أبعد المسافة بين هؤلاء وأولئك - هذه الأمة - ولفترة من الزمان تمتد أو تقصر حسب مقادير مقدرة عند خالقها - أمة فاقدة الوعي والذاكرة، مسلوبة الإرادة، وفي حالة نكوص نفسي وحضاري واجتماعي وعلمي، تتلقى الضربات من فسادها والداء المزمن في داخلها، ومن أعدائها في الخارج، وقد اجتمع عليها الكيد من داخلها ومن خارجها، ومن بعض أبنائها الذين قفزوا إلى مقاعد النخب المسيطرة في غفلة من الزمن وخارج قوانين الحركة والتوازن في الكون والحياة، وعندما تستيقظ هذه الأمة، رغم كل ما يراد بها ويخطط لها، فإنها سوف تجد في رصيدها سجلاً لكثير من أبنائها العظام من العلماء والمبدعين المكافحين والمخلصين، الذين أخلصوا لكرامة العلم وشرف الكلمة، وكتبوا وصبروا واستمروا في البحث والتأليف، ولم تصغر نفوسهم وراء زيف المناصب الزائلة ولا معية الحاشية المنافقة ومثقفي السلطة في أدنى سلم الكائنات.

وسوف تعجب هذه الأمة أن هؤلاء المخلصين من علمائها استطاعوا العيش ذات يوم كما تعيش الطيور والأسماك التي تعرف أن رازقها هو خالقها، وسوف تندم هذه الأمة أشد الندم على أنها صبرت على سفهائها فألبست ثوب المهانة، وعلى أنها فرطت في حق علمائها العظام عدة مرات :

- مرة حينما لم تقرأ ما يكتبون لكي تجد طريقها إلى الخلاص والكرامة والتطور ونهاية السرداب المظلم.
- ومرة حينما أهملت إيجاد أجيال تتعلم من صناع الحضارة والكرامة هؤلاء قيمة العلم ومنهجه وصلابته.
- ومرة حينما سمحت لبعض الأقزام أن يعتلوا مقاعد العلماء.
- ومرات حينما نسيت أن تكرم الكرام من علمائها في حياتهم، وأعطت جوائزها لمثقفي السلطة ومهرجي البلاط ومحترفي الشللية وتبادل المنفعة في مستنقع البيروقراطية العربية التي أبطلت كل صحيح

وعطلت قوانين الحساب .. حتى لم يعد أحد يقرأ أخبار الجوائز العربية غالبًا إلا من باب الاطلاع على آخر ما أنجزه اللاعبون في هذا السيرك .. باستثناء فلتات نادرة يمررها هؤلاء ليحتموا وراء أسمائها.

- وما أكثر الجوائز التي كان من الضروري أن تنشئها الدول العربية الغنية ومتوسطة الغنى، والمؤسسات والمنظمات، التي كان يجب أن يكون لها عدة جوائز في كل فرع من فروع العلم والمعرفة والأدب لتكرم في كل شهر وليس في كل عام، علماء هذه الأمة وصناع حضارتها وحملة مستقبلها، الذين سهروا ويسهرون على أمنها وسلامتها، وصنعوا ما يشبه غرفة الإنعاش حتى يعود لها نبض الحياة وخلجات الوعي والعافية، لكي تعرف أين تنفق أموالها، وكيف تحترم فضائلها وقيمها، لكي تتكامل فيها عناصر التقدم والقوة والإبداع.

هذه الدراسة :

وهذه الدراسة هي مقالة ببليوجرافية عن الإنتاج الفكري للدكتور عادل غنيم، مع دراسة ببليومترية لهذا الإنتاج.

والمقصود بالمقالة الببليوجرافية هو قراءة كل ما كتبه مفكر أو عالم، قراءة متأنية، ثم عرض ما كتبه عرضًا تلخيصيًا مستوعبًا لأفكاره واجتهاداته، وما توصل إليه من نتائج وما يريد توصيله من رسائل إلى قرائه، وقد فعلت ذلك في القسم الثاني من هذه الدراسة، وهي معالجة " كيفية " للإنتاج الفكري للدكتور عادل غنيم.

ويحتوي القسم الثالث على دراسة ببليومترية Bibliometric، بمعنى الإحصاء الببليوجرافي، أو القياسي الكمي التحليلي للإنتاج الفكري للخروج لمعطيات إحصائية كمية تصف هذا الإنتاج وتبرز كثيرًا من خصائصه وعلاقاته الزمنية والعددية والموضوعية والوعائية والمكانية.

وقد احتوت الدراسة على سبعة جداول ببليومترية للإنتاج الفكري، للدكتور عادل، أرجو أن تكون قد نجحت في إظهار بعض من القيم والعناصر الإبداعية والعلاقات الموضوعية والزمانية والمكانية لهذا الإنتاج الفكري وبعض دلالاتها ومعانيها.

وعندما تتكامل الدراسة الكيفية والدراسة الكمية، يصبح هناك توازن لا تحققه التحليلات الإحصائية وحدها، بل إن الإحصاء وحده يضيع كثيرًا من القيم عند دراسة الإنتاج الفكري لعالم أو مفكر، ويتحقق التوازن المنشود بالجمع بين الدراسة الكيفية والدراسة الكمية وهو ما تهدف إليه هذه الدراسة.

ويمكن القول بأن هذه الأبحاث التاريخية للدكتور عادل غنيم، في القضية الفلسطينية، لا تقتصر نتائجها على فلسطين فحسب، بل هي تاريخ لمجموع الواقع العربي الذي لا يزال هشًا وهلاميًا بعد خروجه من سطوة الدولة العثمانية، وما أعقبه من استعمار مركب العناصر جسد كل أيديولوجيات العنصرية والنهب والقوة، وطبق كل أفكار مكيافيللي، وترك في بلادنا العربية تلامذة للشر هم أعتى وأكثر تدميرًا من الاستعمار بعد خروجه الظاهري من العالم العربي، وقد آثر االاستعمار التقليدي أن يعود بجيوشه في فلسطين، ولازال العرب لم يتوصلوا بعد إلى صيغة أو نظرية أو رؤية للماضي والحاضر والمستقبل في ظل كل هذه الأخطار، والمهم أن التاريخ يمثل طاقة معرفية لكل من يود تكوين منهجية ونظرية وآليات تطبيقية وبراجماتية وأيديولوجية معًا، للعمل السياسي من أجل إنقاذ فلسطين والبلاد العربية كلها، لأن تاريخ اليوم هو سياسة الأمس، وسياسة اليوم هي تاريخ الغد، ولابد للسياسي والمناضل أن يعرف التاريخ وأن يكون المؤرخون من صناع قراره وفكره وحركته، والتاريخ هو طاقة خلاقة في المجال السياسي ولننظر كيف حكم على نابليون وسقط هتلر لمجرد خطأ مدرسي بسيط ارتكباه بغزو روسيا !!

ويجب أن يفهم العرب كيف يعمل العقل الأوربي والفرع الصهيوني من هذا العقل، وأن يعرفوا خصائص الحضارة الأوربية بأبرع وأروع ما فيها، وأيضًا بأسوأ وأخبث ما فيها، وأن يفهم العرب أيضًا تركيبتهم العقلية العشائرية البدائية الشفهية التي لازالت تحركهم حتى ولو استخدموا الكمبيوتر والأقمار الصناعية، ولقد فهم الغرب العقلية العربية في أسوأ حالاتها، ورسموا خريطة لتلافيف العقل العربي وعرفوا نقاط ضعفه ونقاط قوته عندما كان يهزمهم ويوجعهم، ووضعوا أدلة للتصرف مع العرب في الحرب والتعذيب والتجارة والسياسة، ومن مسئولية علماء العرب وأوربا وأمريكا الشرفاء أن يستندوا إلى الأخلاق والتاريخ وكل علوم الإنسان لخلق وعي إنساني جديد يمنع كارثة التعصب والنهب والاستعمار والاستهانة بقتل الآلاف والملايين من فقراء العالم وإنكار صفة الإنسانية عن هؤلاء رغم إظهار الشاشات كثيرًا من مآسيهم وبكائهم ودمائهم.

ومع هذه الصرخات تمتد أيدي أغنياء العالم لتناول أشهى الطعام والشراب!! ولا منجاة لضمير الإنسانية إلا عن طريق العلم والعلماء والمفكرين الشرفاء.

ومن العار على كل مؤرخي أمريكا وأوربا أن ينطق بوش رئيس أمريكا بكلمة الحروب الصليبية، بعد كل هذه القرون !!

الإنتاج الفكري للأستاذ الدكتور عادل غنيم :

تفرغ الدكتور عادل غنيم في معظم إنتاجه الفكري العلمي لخدمة قضية أساسية ومحورية هي القضية الفلسطينية، إلى جانب التأليف في مجالات أخرى على مدى اثنين وأربعين عامًا منذ ١٩٦٠م وحتى الآن (يونية ٢٠٠٤م).

ففي عام ١٩٦٠م صدر له كتاب في سلسلة جماهيرية هي الدار القومية للطباعة والنشر بعنوان " تطور الحركة الوطنية في العراق " وكان قد أمضى سنوات تجنيده في الجيش المصري في سيناء وغزة، حيث شاهد عن قرب مأساة اللاجئين الفلسطينيين، ولذلك فإنه منذ عام ١٩٦٠م بدأ يؤلف ثاني كتاب له وهو " قضية اللاجئين "، وقد نشر عام ١٩٦٢م، كان ذلك متزامنًا مع بدء دراسته

للماجستير في موضوع القضية الفلسطينية، وتواصل اهتمامه بنفس الموضوع في رسالته للدكتوراه، تحت إشراف أستاذ للتاريخ المعاصر له مدرسة فكرية متميزة ومنهج علمي في التاريخ، وهو الأستاذ الدكتور محمد أنيس، وتوالت بحوث الدكتور عادل غنيم في هذا الميدان ما بين كتب ومقالات ومحاضرات وندوات، في كثير من العواصم والمدن العربية شملت القاهرة، والدوحة، والبصرة، وبيروت، والمنامة في البحرين، وكذلك الإسكندرية وسوهاج، وعلى مر السنين وتراكم الجهود، وصلت مؤلفاته حول القضية الفلسطينية وحدها خمسين عنوانًا، وأصبحت أعماله تشكل منظومة متكاملة تحيط بمعظم أوجه وأبعاد وأحداث هذه القضية، بل وأقول بثقة وموضوعية إنها تشكل في مجموعها موسوعة تاريخية متصلة الحلقات متكاملة الأوجه متعمقة المنهج في القضية الفلسطينية ومعظم ما يتصل بها من علاقات دولية وعربية، كما شملت المجتمع الفلسطيني الذي رسم ملامحه منذ الحكم العثماني كما درس كثيرًا مما كان غامضًا من أحوال الجيوش العربية والحروب مع العصابات الصهيونية التي كانت رأس حربة لمخططات استعمارية هائلة امتدت في التاريخ إلى عصر نابليون بونابرت، وأرخ وترجم لبعض الشخصيات الوطنية الفلسطينية ورصد الإنجازات والإخفاقات وجوانب القوة والضعف والتفكك والعشوائية والهشاشة في السياسة الغربية والعقل العربي في معظم مكوناته وأركانه المتداعية، وطبقات الجهل وبذور الخيانة من حكومات وجماعات وأفراد، إلى جانب البذل والفدائية والاستشهاد من شباب هذه الأمة من مصر وغيرها، بل ورصد جدلية الاقتراح والتناقض بين كل ذلك في حركة واحدة مختلطة ومحيرة ولكنها في نتيجتها النهائية باعثة على الحزن والأسى لضياع الجهود والتضحيات والشهداء وإهدار الإمكانية والتمكين للعدو من الأرض والمستقبل العربي سواء بالجهل أو بالإدعاء والفهلوة أو بالخيانة المؤكدة بالوثائق وشهادات التاريخ، ووصلت الخيانة إلى سياسيين وحكام وملوك.

ويلاحظ في مؤلفات الدكتور عادل غنيم أصالة المراجع والمصادر، والرجوع إلى الوثائق التاريخية الأصيلة والكتابات الأولية لمعاصري النضال الفلسطيني وشهوده وأبطاله، وكثير من هذه المصادر المكتوبة والحية يصعب على الباحث الوصول إليها إلا إذا تسلح بالصبر والمثابرة، بل وقد استخدم الباحث الشعر الفلسطيني لكي يستخلص منه الحقائق التاريخية النادرة التي لم ترد في أية مصادر أخرى، وكتب في هذا الموضوع دراسة مزدوجة الفائدة، فهي كتابة للتاريخ الفلسطيني المستمد من النصوص الشعرية لشعراء فلسطينيين كتبوها بصدق وتلقائية في ظروفها وسياقها التاريخي، وهي إسهام في منهج البحث التاريخي وفن استخدام المصادر الأدبية في كتابة التاريخ (وهي تتمثل في البحث رقم ٢٢ بالقائمة في نهاية هذا البحث).

ونلاحظ أن كل الإنتاج الفكري للدكتور عادل غنيم باللغة العربية، كما أن اختياره للموضوعات كان يتميز بالجدة والتفرد في كثير من الأحيان سواء بالمعالجة لأول مرة أو بالمعالجة مع الإضافة والرؤية الجديدة لما كتب فيه من قبل، وقد تميزت معالجته لموضوعاته بتعدد الإرتباطات والعلاقات البينية الخصبة التي تخرج بالكاتب عن ضيق الأفق والإنغلاق في التخصص، وتلوح في إنتاجه أطياف ودوائر متشابكة ومتصلة الحلقات خصوصًا في معالجته للقضية الفلسطينية، وذلك نتيجة للتمرس والخبرة والمعاناة، وهو ما يتوج المنهج عند الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية عمومًا، عندما يقف بتوازن وتمكن في نقطة بين التخصص العميق والموسوعية الواسعة الممتدة في الأفق.

ومن الطريف أن أذكر هدوء الدكتور عادل حينما علم بسرقة شخص لكتاب من كتبه وهو بعنوان: "حائط البراق أم حائط المبكى"، وقيام هذا الشخص بنشر هذا الكتاب في عاصمة عربية بنفس العنوان تقريبًا، وهو "حائط البراق وليس حائط المبكى"، واستطرد هذا الشخص بجرأة غريبة في الحديث عن اطلاعه على الوثائق التاريخية والمصادر لكي يؤلف كتابه المزعوم، وهو هدوء من

الدكتور عادل غنيم يحمل في طياته إلى جانب السمات الشخصية الهادئة والمتسامحة، رؤية لفساد القيم وضياع الحقوق في مجتمعنا، وتسليم من صاحب الحق بأن الأفضل له أن يسكت عن ضياعه لتوفير الجهد والعقل والعمر !!

وفي مؤلفاته في المجالات الأخرى نلاحظ ترابطًا غير خفي بينها، فهو عندما يكتب في مناهج البحث إنما يساند ويبلور خبرته التاريخية للقضية الفلسطينية، وكذلك عندما يكتب عن التاريخ المعاصر للعالم العربي بادئًا من نهايات التاريخ العثماني ثم تواريخ بلدان عربية متعددة، وكذلك عندما كتب عن التاريخ الحديث للهند والمغول وهو قطاع حيوي من تاريخ الأمة الإسلامية الوسيط والحديث، وإن تفككت الرؤية وضاعت المعالم مع غيبوبة الذاكرة العربية وموجة الجهالة والظلم والتخلف التي تعصف بهذه الأمة السكنية سواء وهي تمتلك المال بوفرة بلهاء أو وهي تغرق في أوحال الفقر في ورطة شنعاء. وكلاهما واقع متمازج ومتنافر معًا في الواقع العربي الحديث ومجتمعاته المريضة الغريبة، وكأن المستحيل يتحقق في هذا المزيج الغريب.

ونجد في فكر الدكتور عادل غنيم رؤى مستقبلية أعطي نموذجًا منها، حينما تنبأ بحسه التاريخي المرهف ومنهجه العلمي المستقيم، بمواقف بعض دول الخليج من الاحتمالات العسكرية للمواجهة مع إسرائيل، في بحثه رقم ١٧ بالقائمة، بعنوان " مستقبل الخليج العربي والقضية الفلسطينية ـ ١٩٨١م "، سواء بتقديره لمواقف بلدان الخليج المختلفة ذات الجيوش المبتدئة والسكان المحدودين والمواقع الجغرافية المجزأة، أو بتقديره لموقف العراق وإيران .. وذلك هو أخطر ما جاهر به المؤلف في هذا البحث، فقد كان في ندوة في البصرة في عصر الحاكم الشرقي صدام، ورأى أن هذين البلدين رغم قدرتهما البشرية والمالية والعسكرية الكبيرة، التي كانت تؤهلهما للقيام بدور فعّال في أي معركة حاسمة مع إسرائيل، فإنه لا يتوقع من أي منهما أن تؤدي هذا الدور المأمول لظروف الحرب القائمة حينئذ

بين العراق وإيران، مع توقع استنزافهما لفترة غير قصيرة، مع احتمالات تجدد الصراع بينهما حتى في حالة التوصل إلى اتفاق.

وقد أظهرت السنوات العشرة التالية لهذا البحث، مدى الدمار الذي لحق بكل من العراق وإيران، بسبب هذه الحرب العبثية الظالمة التي كانت أكبر خدمة لإسرائيل وأمريكا، كما انطوى التاريخ فيما بعد على توابع خطيرة بغزو العراق للكويت عام ١٩٩٠م، بغمزة خبيثة من أمريكا وغباء استبدادي من صدام، وحدث تدمير لكل مقومات العمل العربي التي كانت هشة في الأصل، واكتملت الصورة بحربين ضد العراق : الأولى عام ١٩٩١م، والثانية عام ٢٠٠٣م، باحتلال أمريكا للعراق وتدمير دولة عزيزة في الجسد العربي الجريح، واختفاء نظام صدام اختفاء مريبًا ومحيرًا !! وموت أبناء العراق بلا حساب بالأسلحة الذكية الأمريكية، الذي يستمر حتى الآن لأكثر من عام.

ومن طرائف هذا البحث أن د. عادل كان يلقيه في مؤتمر بجامعة البصرة، في أيام البعث وتمجيد حرب صدام ضد إيران والتي سميت بقسوة " بقادسية صدام" وهو تعبير يجافي الذوق والتاريخ معًا .. وتعرضت حياة الباحث يومها للخطر، مما دفع بعض المخلصين من العراقيين لإخراجه وتهريبه خارج العراق.

أما الكتابات عن د. عادل غنيم فهي رغم قلتها فإنني أعتبرها ظاهرة مشرقة، لأن العرف السائد الآن هو ألا يحب أحد أخاه، في هذا الإعصار النفسي والتاريخي الذي نمر به، ولذلك فإن ما كتب عنه وعرضته في القسم الثاني من هذا البحث في الأرقام (من ٦٤-٦٨) يعتبر رمزًا للمحبة والوفاء، نرجو أن يكبر مع الزمان ليصير قاعدة في حياتنا العلمية والاجتماعية.

تلك كلمات سمحت لنفسي بأن اكتبها كمقدمة وتمهيد لهذه الدراسة، التي تنتهي بقائمة ببليوجرافية للإنتاج الفكري للأستاذ الدكتور عادل غنيم، وفقه الله تعالى، وأمده بالصحة والعافية والعطاء العلمي المثمر والمبدع.

القسم الثاني

عرض وتلخيص لأهم أعمال أ.د. عادل غنيم

كان من المهم أن أعرض لأهم الأفكار والمعلومات والتحليلات التي كتبها د.عادل غنيم في أبحاثه ودراساته وكتبه، حتى لا يكون هذا البحث مجرد عرض رقمي وتحليلي لأعماله، وحتى يكون ذلك توثيقا وتأريخا ببليوجرافيا للإنتاج العلمي والفكري الرائع للأستاذ الدكتور عادل غنيم، وأرجو أن أكون وفقت في ذلك، مع ضخامة الإنتاج الفكري سواء ما كتبه أو ما كتب عنه، والذي وصل في مجموعه إلى ٦٨ عنوانًا، منها ٦٣ من تأليفه، وخمسة مما كتب عنه.

ملخص لكتب ومقالات أ.د. عادل غنيم

القضية الفلسطينية :

منذ عام ١٩٦٢م وحتى الآن، أي على مدى اثنين وأربعين عامًا، كرس أ.د. عادل غنيم جهده العلمي والفكري والأيديولوجي من أجل التأريخ لقضية فلسطين، ووصل إنتاجه الفكري في هذا الموضوع بالذات إلى خمسين عنوانًا، ما بين رسالة جامعية وكتاب ومقالة وبحث في مؤتمر أو ندوة علمية أو مقدمة لكتاب .. بينما وصل إنتاجه الفكري عمومًا إلى ٦٣ عنوانًا.

وقد قمت في هذه الدراسة الببليوجرافية التحليلية الإحصائية، بقراءة كل هذه الأعمال، وتلخيص أهم العناصر في كل منها، حتى يمكن عرضها عرضًا وافيًا، وهذا هو ما اعتقد أنه أساس للدراسة الببليوجرافية، حتى تأخذ خصائصها التوثيقية وتقدم صورة لجهد المؤلف وخلاصة أفكاره وترسم خريطة واضحة ومتكاملة لجهده ومدرسته الفكرية التي نضجت وأثمرت على مدى زمن لا يتكرر إلا قليلاً لدى الباحثين والعلماء، حيث يمثل الإنتاج الفكري في القضية الفلسطينية نسبة ٧٩,٤% من هذا الإنتاج.

وبعد التحليل الموضوعي لما كتب في القضية الفلسطينية في إنتاج د. عادل غنيم، وجدت من الملائم تقسيمه إلى خمسة موضوعات فرعية، وهي :

١- القضية الفلسطينية - البعد الإقليمي والدولي.
٢- المقاومة الفلسطينية (الحركات السياسية والعسكرية الفلسطينية لحماية فلسطين وأبعاد الصراع العربي الإسرائيلي).
٣- القدس.
٤- المجتمع الفلسطيني.
٥- مراحل تكوين ودعم إسرائيل.

كما قمت بتقسيم كل فرع من هذه الفروع إلى رتبة ثالثة تمثل تفريعًا أكثر دقة أو وجهًا من أوجه الموضوع، حسب مصطلحات التصنيف. (انظر القسم الثالث جدول ٣ بالبحث).

وهذا ما سوف يتضح عند عرض كل من هذه الموضوعات من الرتبة الثانية، والرتبة الثالثة فيما يلي.

أولاً : القضية الفلسطينية (البعد الإقليمي والدولي) :

يعالج د. عادل غنيم هذا الموضوع الفرعي في ١٣ عملاً من أعماله، يمكن عرضها فيما يلي :

- مصر والقضية الفلسطينية، وذلك في مقال بعنوان : " **مصر والقضية الفلسطينية من الحرب العالمية الأولى حتى حرب ١٩٤٨م** " (انظر رقم ٣٩ بالقائمة)، ويتضمن هذا المقال الأفكار والعناصر التالية :

حالة الثورات العربية في العشرينيات من القرن العشرين من أجل الاستقلال الوطني. انشغال مصر بقضيتها وعدم الانتباه لخطورة المشروع الصهيوني، بل ورفض شراء خط السكة الحديد بين القنطرة شرق وفلسطين بدعوى عدم جدواه اقتصاديًا. ومشاركة أحمد لطفي السيد في افتتاح الجامعة العبرية عام ١٩٢٥م بتكليف رسمي واستغلال الصهاينة لهذا الحضور، وكانت جريدة المقطم مثلاً تخفف من خطر إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين وتبشر العرب بخيرات اليهود وأموالهم لرخاء فلسطين.

ولكن مصر احتضنت قيادات المقاومة الفلسطينية واصطبغ الاهتمام بانتفاضة البراق ١٩٢٩/٨/١٥م بصبغة دينية.

- " **فلسطين في مجلس الوزراء المصري من ١٩٢٢ حتى انتفاضة البراق ١٩٢٩م** ". (الجزء الأول) (انظر رقم ٤٨ بالقائمة).

ويتحدث عن الوعي الكافي لدى الحكومة المصرية بحقيقة الصهيونية، وانشغال الحكومات المصرية بالقضية المصرية والاستقلال خلال العشرينيات مما أسهم في نقص الاهتمام بشئون القضايا العربية المختلفة.

- " **فلسطين في مجلس الوزراء المصري من ١٩٢٩-١٩٣٩م** " (الجزء الثاني) (انظر رقم ٥٠ بالقائمة).

ويستكمل تناول نفس الموضوعات في الشريحة الزمنية الموضحة وهي عشر سنوات من ١٩٢٩-١٩٣٩م.

- " **الدبلوماسية المصرية وقضية فلسطين عام ١٩٤٧-١٩٤٨ : دراسة وثائقية** " (كتاب في ١٤٣ صفحة) (انظر رقم ٢٤ بالقائمة).

من المهم أن أشير إلى ملاحظتين هامتين بخصوص هذه الدراسة :

أ- ندرة الدراسات التاريخية التي تقوم على الوثائق في الإنتاج الفكري العربي لأسباب كثيرة.

ب- ندرة الدراسات التي تناولت النشاط الدبلوماسي المصري أو تؤرخ للمؤسسة الدبلوماسية المصرية منذ كانت تسمى : ديوان التجارة والأمور الإفرنكية، ثم نظارة الخارجية، حتى أصبح اسمها وزارة الخارجية.

وتعتمد هذه الدراسة على عدد من وثائق وزارة الخارجية المصرية بهذه الفترة، وهي وثائق لم يسبق نشرها أو الاستفادة منها، وعلى وثائق الجامعة العربية ورئاسة مجلس الوزراء المصري، ومذكرات محمد حسين هيكل، وقد تضمن النشاط الدبلوماسي المصري برقيات ورسائل وتقارير حول قضية

فلسطين، وتعود أهمية النشاط الدبلوماسي في أيِّ مكان أو زمان إلى أنه البديل لحوار المدافع وتصادم الجيوش، وتتضمن الدراسة مواقف إيجابية لبعض رؤساء الحكومات المصرية من القضية، مثل مصطفى النحاس باشا (١٩٣٦-١٩٣٧م) ومحمد محمود (١٩٣٨م)، ورفض مصر لمشروع التقسيم، ومؤتمر لندن ١٩٣٩م، ومؤتمر فلسطين - لندن ١٩٤٦م، وتحذير الدكتور عبدالرازق السنهوري من خطورة الكيان الصهيوني على الدول العربية المجاورة.

- **من جهود مصر الدبلوماسية في عامي ١٩٤٧، ١٩٤٨م من أجل قضية فلسطين** (على ضوء وثائق وزارة الخارجية المصرية) (بحث في ٢٢ صفحة) (انظر رقم ٢٦ بالقائمة).

قامت مصر خلال عامي ١٩٤٧ و١٩٤٨م وهما العامان اللذان شهدا توصية الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين والحرب العربية الإسرائيلية الأولى - بجهد دبلوماسي مكثف من أجل القضية الفلسطينية.

وبعد أن كانت الدبلوماسية المصرية تتحرك في مرحلة ما قبل الحرب العالمية الثانية إما في إطار المباحثات الثنائية مع بريطانيا أو من خلال المداولات العربية، فإنها منذ عام ١٩٤٧م بدأت المبادرات على نطاق دولي كبير، وشمل النشاط الدبلوماسي الشامل مستويات عربية وإسلامية ودولية، وكانت تنطلق من ضرورة إنهاء الانتداب البريطاني في فلسطين وإعلان استقلالها ومعارضة تقسيمها أو تجزئتها، وبعد قيام الحرب العربية الإسرائيلية منع الاتصال مع الصهيونية أو وكلائهم.

شهدت مصر تعاطفًا مع موقفها من دول إسلامية وعربية، وعداء من أمريكا والاتحاد السوفيتي وأوربا الغربية والشرقية، ومراوغة من بريطانيا.

- **حزب الوفد المصري وقضية فلسطين :**

ونجد للدكتور عادل غنيم تقديمًا، ضمن كتاب: **"الوفد والقضية الفلسطينية"** للدكتور أحمد حامد السيد، وهو في الأصل رسالة دكتوراه تم نشرها،

والمقدمة من ص٥-٧ (انظر رقم ٣٣ بالقائمة).

ويتكلم د. غنيم عن حزب الوفد الذي تعلقت به غالبية الشعب المصري منذ تشكيله حتى ثورة ١٩٥٢م، وعن قضية فلسطين باعتبارها قضية العرب الأولى وكيف نجح الباحث في تتبع اهتمام حزب الوفد بالقضية الفلسطينية منذ العشرينيات، وأثبت د. أحمد حامد أن سعد زغلول بدأ يهتم بالقضايا العربية منذ عام ١٩٢٥م على عكس ما هو شائع من إعراض سعد زغلول عن القضايا العربية، كما كان لسعد زغلول موقف إيجابي من الثورة السورية، كما تتبع الباحث تنامي تيار العروبة لدى المثقفين المصريين، وعبر عن هذا التيار شعراء مثل حافظ إبراهيم وزكي أبو شادي وأحمد شوقي.

- " حرب أكتوبر والقضية الفلسطينية": في دراسة نادرة يتناول د. عادل غنيم العلاقة بين "حرب أكتوبر والقضية الفلسطينية، (في مقالة من ١٧ صفحة) (انظر رقم ١١ بالقائمة).

وقد استعرض المؤلف المواقف العربية المختلفة من قضية فلسطين - والمتخاذلة في معظمها - ثم أوضح أن هناك تغيرًا نوعيًا أحدثته حرب أكتوبر ١٩٧٣م بالنسبة للقضية وهو :

١- تحريك القضية بعد إصابتها بالجمود.
٢- بلورة موقف عربي من إنشاء دولة فلسطينية في غزة والضفة الغربية.
٣- إعطاء الشرعية لمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل وحيد للشعب الفلسطيني.
٤- عودة الأمل لعرب فلسطين بعد انتصار أكتوبر وانتفاضة نوفمبر ١٩٧٥م التي شملت كل فئات الشعب الفلسطيني.
٥- تراجع نسبة هجرة اليهود إلى إسرائيل.
٦- تأكيد الأمم المتحدة لحق اللاجئين في العودة إلى ديارهم واعتبار

الصهيونية من أشكال التمييز العنصري، وتغيير مواقف كثير من الدول والمنظمات من قضية فلسطين بما في ذلك أمريكا.

الفكر القومي والقضية :

- **مقالة بعنوان: "حركة التحرر الفلسطيني والفكر القومي العربي"** (انظر رقم ١٦ بالقائمة) وهي في ٤٢ صفحة.

ويتناول تحديد مفهوم القومية العربية من منظور تاريخي وسياسي، وخصائصها، ومجالات الاتفاق بين حركة التحرر الفلسطيني وآفاق الفكر القومي العربي وهو ربط منهجي صحيح بين الفكرتين، وقد أثبتت أحداث التاريخ التلازم بينهما وتعرضهما لمخطط واحد من القوى الاستعمارية والصهيونية.

الأمة العربية والقضية :

حول مواقف الدول العربية من القضية الفلسطينية بشكل عام، نجد من مؤلفات د. عادل غنيم، العناوين التالية :

- **" مستقبل الخليج العربي والقضية الفلسطينية "** (ندوة بجامعة البصرة، مارس ١٩٨١م) (انظر رقم ١٧ بالقائمة).

وهذه الدراسة هي دراسة مستقبلية نادرة في مجالها، من منظور استقرائي للتاريخ، ويلاحظ قارئها الآن كيف كانت الأحوال إلى عام ١٩٨١م وكيف نظر د. عادل غنيم إلى مستقبل الحرب والصراع بين العراق وإيران، وكان إبداؤه لرؤيته هذه مثار انزعاج من السلطة العراقية حينئذ، مما اضطر الباحث إلى سرعة مغادرة بغداد، وقد تغيرت معظم الحسابات الآن بعد حرب العراق على الكويت عام ١٩٩٠م، وتدخل أمريكا في العراق عام ١٩٩١م، واستمرار الحصار والضرب حتى تم غزوها للعراق عام ٢٠٠٣م، وتغيرت أيضًا موازين الصراع الأمريكي مع الاتحاد السوفيتي، وقد عالج الباحث مستقبل القضية الفلسطينية في ضوء الإمكانات المحتملة لبعض دول

الخليج حينئذ، وتناول العناصر التالية :

١- المواقف السياسية المستقبلية لبلدان الخليج تجاه القضية الفلسطينية.

٢- احتمالات وجود تحالف شيعي فلسطيني في بلدان الخليج العربي.

٣- الفلسطينيون في بلدان الخليج ومستقبل تلك البلدان.

٤- موقف بلدان الخليج بالنسبة للاحتمالات العسكرية مع إسرائيل.

٥- هل يسهم التحالف بين بلدان الخليج وبين أمريكا في حل عادل لقضية فلسطين ؟

- " القضية الفلسطينية في الصحافة القطرية "، ويمثل هذا البحث الفصل الرابع من كتاب (الصحافة القطرية والقضايا العربية / لمجموعة من المؤلفين، الدوحة، مركز الوثائق والدراسات الاجتماعية، جامعة قطر، ١٩٨٤م) (٤٢ صفحة) (انظر رقم ٢٠ بالقائمة).

شمل هذا البحث عينة من الصحف اليومية والأسبوعية والشهرية الصادرة في قطر، ويعالج فيه المؤلف مواقف الصحافة القطرية من القضية الفلسطينية، وناقش فيه ما يلي :

١- مدى اهتمام هذه الصحافة بالقضية الفلسطينية، ونوعية هذا الاهتمام.

٢- الملامح الإيجابية والسلبية للقضية في نظر الصحافة القطرية.

ويمتد نطاق هذا البحث لكي يشمل الأبعاد التالية : القضية الفلسطينية - تاريخ قطر - الصحافة القطرية.

- " القضية الفلسطينية .. دراسات معاصرة لبعض جوانبها "، القاهرة، دار الكتاب الجامعي، ١٩٨٢م، ٢٠٣ صفحة، (انظر رقم ١٩ بالقائمة).

يحتوي هذا الكتاب على خمس مقالات وأبحاث نشرها المؤلف متفرقة، وجمعها في ذلك الكتاب تحقيقا للإتاحة وتسهيلاً للوصول إليها، وهذه الأبحاث هي :

١- حركة التحرر الفلسطيني والفكر القومي العربي.

٢- الولايات المتحدة والقضية الفلسطينية خلال الحرب العالمية الثانية
٣- الوجود الفلسطيني في لبنان والأزمة اللبنانية.
٤- حرب أكتوبر والقضية الفلسطينية.
٥- مستقبل الخليج العربي والقضية الفلسطينية.

- **" الجامعة العربية والقضايا العربية خلال القرن العشرين "**، (انظر رقم ٤٢ بالقائمة).

ويتبادل إيجابيات الجامعة تجاه القضايا العربية وسلبياتها، ولماذا لم تقم الجامعة بدور أفضل في خدمة القضايا العربية، ومن ضمن هذه القضايا قضية فلسطين.

ثانيًا : المقاومة الفلسطينية (الحركات السياسية والعسكرية الفلسطينية لحماية فلسطين، وأبعاد الصراع العربي الإسرائيلي) :

يمثل هذا الموضوع الفرعي قطاعًا هامًا من مؤلفات د. عادل غنيم في القضية الفلسطينية، وسوف أتناول فيما يلي عرضًا موجزًا لهذه الأعمال.

اهتم د. عادل غنيم بالقضية الفلسطينية منذ كان طالبًا في الدراسات العليا بقسم التاريخ بجامعة القاهرة، حيث نشر كتابًا عن قضية اللاجئين عام ١٩٦٢م

- وقد بدأ التأصيل العلمي للحركة الوطنية الفلسطينية برسالة للماجستير بعنوان: **"الحركة الوطنية الفلسطينية من ١٩١٧-١٩٣٦م"** نوقشت عام ١٩٧٠م بإشراف أ.د. محمد أنيس، بآداب القاهرة، وأجيزت بتقدير ممتاز، وهي تغطي عشرين عامًا من المقاومة والعمل الفلسطيني.

وفي هذه الرسالة عكف على دراسة التقارير والبيانات والوثائق المتعلقة بتلك الفترة، والتقى بشخصيات فلسطينية عديدة، وراسل عددًا ممن أسهموا في أحداث القضية، ولم يترك بابًا إلا طرقه لدراسة تاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية.

وتشمل هذه الدراسة من تاريخ الحياة السياسية والحركة الوطنية الفلسطينية

من ١٩١٧-١٩٣٦م، شاملة الأحزاب والجمعيات الإسلامية والمسيحية واللجان التنفيذية العربية والمؤتمرات السياسية، كما درس الاضطرابات والثورات التي حدثت في فلسطين والمشروعات البريطانية التي قدمت لعرب فلسطين والكتب التي أصدرتها الحكومة البريطانية والمباحثات بين الوفود الفلسطينية في الخارج وبين الحكومة البريطانية، كما درس الحزب الموالي لبريطانيا واطلع على المحاضر الأصلية لمجالس إدارته، وحزب الأهالي والأحزاب الفلسطينية خلال العشرينيات والثلاثينيات، ومشروعات حكومة الانتداب وثورة الشيخ القسام.

وقد نشرت الرسالة في كتاب صدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٧٤م، بتقديم د. محمد أنيس، في ٣٣٧ صفحة، (انظر رقمي ٢، ٣ بالقائمة).

- وجاءت رسالة الدكتوراه للدكتور عادل غنيم مكمّلة للماجستير، وهي تتناول " **الحركة الوطنية الفلسطينية من ثورة ١٩٣٦م حتى قيام الحرب العالمية الثانية** "، وبذلك تبلغ السنوات التي تغطيها الماجستير والدكتوراه نحو ربع قرن، (من ١٩١٧ حتى قيام الحرب العالمية الثانية) وقد نوقشت عام ١٩٧٦م، بتقدير مرتبة الشرف الأولى بإشراف د. محمد أنيس، ونشرت هذه الدراسة في كتاب مطبوع صدر عن مكتبة الخانجي عام ١٩٨٠م في ٤٧٩ صفحة.

وهذه الفترة التي تغطيها رسالة الدكتوراه شهدت قيام ثورة عربية كبيرة، وبداية اهتمام العالم العربي بالقضية الفلسطينية واقترح خلالها أول مشروع للتقسيم، كما استكمل خلال نفس الفترة بناء الوطن القومي اليهودي.

ويتناول البحث الثورة وتطورها وقواعدها وقياداتها، كما يهتم بأوضاع القوى الاجتماعية ومواقفها من الثورة، وبالعالم العربي ومواقف دوله منها، مثل مصر والسعودية والمغرب العربي، ثم لأوضاع الوطن القومي اليهودي

في تلك الفترة، ويوضح مواقف الشخصيات الفلسطينية مثل موقف راغب الشاشيبي من مشروع التقسيم، ويحسم عددًا من المسائل التي ورد بشأنها تضارب في بعض المراجع، واعتمد البحث على المصادر التالية : التقارير السنوية لحكومة الانتداب، وتقارير اللجان الرسمية المختلفة من بداية الإدارة المدنية في عام ١٩٢٠ حتى الثورة، ووثائق الخارجية البريطانية من ١٩٣٥-١٩٣٨م، ومجلس العموم البريطاني، ومجلس الوزراء المصري، والخارجية المصرية، ومجلس النواب والشيوخ في مصر ووثائق عربية ومراجع عربية وأجنبية وصهيونية رئيسية، ونحو أربعين دورية، وأوراق خاصة بعوني عبدالهادي، عميد حزب الاستقلال الفلسطيني، ومراسلات خاصة مع شخصيات فلسطينية مثل أمين الحسيني، وكامل الدجاني، ومحمد عزة. (انظر رقمي ٩، ١٠ بالقاهرة).

- **" القوى الاجتماعية في فلسطين فيما بين الحربين العالميتين "**، القاهرة، مطبعة جامعة عين شمس، ١٩٨٠م، (١٥٥ صفحة) (انظر رقم ١٥ بالقائمة).

هذه الدراسة عبارة عن الفصل الرابع من رسالة الدكتوراه وتعالج القوى الاجتماعية في فلسطين قبل الثورة الفلسطينية وخلالها أي في الفترة من ١٩٣٦م حتى قيام الحرب العالمية الثانية، وفي هذا الكتاب يتناول المؤلف بالتفصيل أوضاع وظروف ومساهمات القوى الاجتماعية في الثورة الفلسطينية، وتشمل الفلاحين والبدو والعمال، والبرجوازية الصغيرة، والطبقة المتوسطة الصغيرة، والمثقفة والشباب والحرفيين وصغار التجار والموظفين، والبرجوازية الكبيرة، الزراعية والتجارية والصناعية والمالية.

ويقارن البحث بين أجور العرب واليهود، والتي كانت تتسم بالتفرقة الحادة بين دخل العربي الضئيل ودخل اليهودي المرتفع مع تفضيل اليهود للأعمال الراقية والمريحة.

ومن الواضح في هذه الدراسة تأثر الباحث بالمنهج العلمي التاريخي الذي يقيم الفئات والطبقات الاجتماعية في سلم جدلي تاريخي، وهو منظور يتسم بكثير من الوضوح والموضوعية والمنهجية خصوصًا في الدراسات التاريخية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، في أوضاع تاريخية واجتماعية معينة خصوصًا ما قبل المجتمع الصناعي المتقدم.

وحول المقاومة ضد الاحتلال كتب أ.د. عادل غنيم الدراسات التالية :

- " الحركات الجهادية في حرب ١٩٤٨م "، وهي ندوة في جامعة قطر عام ١٩٦٥م، (انظر القائمة رقم ٢٩).
- " المقاومة الوطنية والإرهاب على ضوء النموذج الفلسطيني "، (محاضرة في الموسم الثقافي للجنة التاريخ بالمجلس الأعلى للثقافة في عام ٢٠٠٣م) (انظر رقم ٤٥ بالقائمة).

وتسهم هذه الورقة في توضيح الفرق بين المقاومة الوطنية المشروعة للاحتلال والعدوان، وبين الإرهاب الذي لا هدف له سوى ترويع الآمنين، وهو ما تحاول قوى الاستعمار العالمي أن تقوم به من الخلط بين المفهومين لتمرير فظائع الاستعمار والصهيونية واغتصاب أراضي الشعوب ومنها شعب فلسطين.

- " المقاومة الفلسطينية وحقوق الإنسان "، مقالة في ٤ صفحات (انظر رقم ٤٧ بالقائمة).

ويتحدث عن المقاومة كواحدة من أهم حركات التحرر الوطني في التاريخ الحديث والمعاصر، من حيث الاستمرارية والإصرار على تحقيق الهدف، والمدى الزمني الذي جاوز المائة عام منذ مقاومة بيع الأراضي لليهود، وفي عام ١٨٩١م أبرق بعض زعماء القدس إلى السلطة العثمانية مطالبين بإصدار فرمان يمنع شراء اليهود للأراضي الفلسطينية

- **" الثوابت والمتغيرات في النضال الفلسطيني حتى عام ١٩٤٨م "**، (بحث ضمن الكتاب التذكاري للدكتور عمر عبدالعزيز أستاذ التاريخ بكلية الآداب جامعة الإسكندرية)، (١٠ صفحات) (انظر رقم ٤١ بالقائمة).

ويتناول هذا البحث :

١- موقف عرب فلسطين من المشروع الصهيوني.
٢- مطالب عرب فلسطين وأهدافهم السياسية.
٣- تاريخ المواقف الفلسطينية ضد الحركة الصهيونية والاحتلال البريطاني، واعتبار فلسطين جزءًا من سوريا منذ ميثاق ١٩١٩م، وانتهاء تلك الحالة بعد ١٩٢٠م عند وضع فلسطين تحت الانتداب البريطاني، ورفض العرب لمشاريع الصهيونية واستمرار المقاومة.

- موقع انتفاضة الأقصى عام ٢٠٠٠م من النضال الفلسطيني (بسبب اقتحام شارون لساحة الحرب القدسي في ٢٠٠٠/٩/٢٨م)، (انظر رقم ٣٧ بالقائمة). وفي هذه الورقة يؤرخ ليقظة عرب فلسطين للخطر الصهيوني حتى قبل نشأة الحركة الصهيونية رسميًا عام ١٨٩٧م، وتصديهم لبيع الأراضي لليهود منذ عام ١٨٩١م، مع عرض للشعر الفلسطيني الذي نبه لهذا الخطر مثل شعر الشاعر الفلسطيني سليمان التاجي الفاروقي. (انظر رقم ٣٧ بالقائمة).

- **" حماس : القصة الكاملة "** (مقال في مجلة الهلال، مايو ٢٠٠٤م ـ ٨ص)، (انظر رقم ٤٦ بالقائمة).

ونلاحظ أن هذه المقالة تأتي لتسد نقصًا وندرة في المقالات والكتب عن حماس، وهي تتناول نشأة حماس منذ بداية انتفاضة ١٩٨٧م، وتحليل بعض بياناتها وميثاقها، واستراتيجيتها ووسائلها وعلاقتها العربية والإسلامية والدولية، وموقف الغرب منها، مع الاستشراف للمستقبل في نهاية المقالة، رغم اغتيال الشيخ ياسين، لأن المنظمة تدار بشكل جماعي يعتمد على الشورى، وأن إسرائيل سوف تضطر في النهاية إلى الحوار مع السلطة

الفلسطينية، وسوف يسجل التاريخ أن استمرار حماس وغيرها في التصدي لإسرائيل سيسهم في الحفاظ على قدر من الكرامة العربية، وهذا ملخص لرأي د. عادل غنيم ورؤية لمؤرخ ينظر إلى الأحداث على المدى القريب والبعيد معًا، وقد انقلب السحر على الساحر كثيرًا في وقائع التاريخ والقوى العظمى عبر العصور، فهل يحدث ذلك مع الإمبراطورية الصهيونية والأمريكية.

- **" جيش الإنقاذ "**، مقالة ضمن مجلد أصدره مركز تاريخ مصر المعاصر بدار الكتب المصرية ـ ٥٤ص)، (انظر رقم ٣٤ بالقائمة).

وهي مقالة حول المتطوعين في الحرب العربية الإسرائيلية، وكانوا ثلاث قوى، ويعالج المقال واحدة من هذه القوى وهي جيش الإنقاذ الذي قاده فوزي القاوقجي المناضل العربي وتكون من جنسيات عربية وإسلامية متعددة، وكونته اللجنة العسكرية بالجامعة العربية، وتسلم القيادة في ديسمبر ١٩٤٧م، وتم حله بخدعة قام بها سياسي سوري في الجامعة العربية هو زهير القباني حيث حصل بالخديعة على توقيع عبدالرحمن عزام أمين عام الجامعة العربية على قرار بتسريح هذا الجيش، وتم تسريحه في أواخر ١٩٤٨م، وكانت سوريا تخشى من نمو هذا الجيش، وكذلك لبنان.

ويوضح المقال عناصر الفوضى والارتجالية في هذه الجيوش، وخشونة أفرادها مع السكان المحليين، وهي دروس ينبغي على العرب أن يستوعبوها إلى جانب إيمانهم بالحق في الأرض والوطن، ولكن المهم أيضًا التسلح بالنظام والتخطيط في الحركة والعمل، وهو سؤال لا يزال يطرح نفسه حتى اليوم في تحركات العرب السياسية والعسكرية.

- **" حقيقة الاستعدادات العسكرية العربية قبل الحرب العربية الإسرائيلية الأولى علم ١٩٤٨م "**، (١٧ صفحة)، (انظر رقم ٢٧ بالقائمة).

ويعالج تطور موقف البلاد العربية من التدخل العسكري، والمعلومات

العسكرية لدى العرب، وحالة الجيوش العربية، والحالة لدى عرب فلسطين، وتقييم حقيقة الاستعدادات العربية، والمواقف المتناقضة، واعتقاد النقراشي باشا في مصر بأن الحرب ستكون مجرد مظاهرة سياسية وليست عملاً حربيًا، وسرعان ما ستسوى.

- **" المؤتمر الإسلامي في العام (١٩٣١م) "**، مقالة في ٢٢ صفحة (انظر رقم ٦ بالقائمة).

عقد في القدس، ونشأت فكرته بمناسبة إرسال لجنة البراق الدولية للتحقيق في قضية حائط البراق، والتي أقرت في تقريرها بحق المسلمين في ملكية الحائط وحق تصرفهم فيه.

وهدف المؤتمر ديني ذو طابع سياسي، وكان صاحب الفكرة الزعيم التونسي عبدالعزيز الثعالبي عند وجوده في القدس وحديثه مع الحاج أمين الحسيني ورفاقه، وقيل إن الزعيم الهندي ميرزا مهدي اقترح في خطاب إلى مفتي فلسطين الدعوة إلى مؤتمر إسلامي، ونشر هذا الخطاب في جريدة الشورى في ١٩٣١/٧/٨م، كما نسبت الفكرة إلى الزعيم الهندي شوكت علي.

- **" المجلس الإسلامي الأعلى في فلسطين ودوره الوطني فيما بين الحربين العالميتين "**، (١٤ صفحة)، (انظر رقم ٤٤ بالقائمة).

بعد الانفصال عن الدولة العثمانية وسقوط فلسطين في براثن الاحتلال البريطاني. تكون عام ١٩٢١ ليشرف على الأوقاف الإسلامية والقضاء الشرعي في البلاد بعد موافقة المندوب السامي البريطاني، وكان رئيسه محمد أمين الحسيني، وكان مؤسسة وطنية حاولت الحفاظ على أرض الوطن وقاومت الاستيطان اليهودي.

وكتب د. عال غنيم مقالات حول بعض الشخصيات الفلسطينية التي كان لها دور في الكفاح الفلسطيني وهم ثلاث شخصيات (محمد أمين الحسيني، وعز الدين القسام، ومحمد عزة دروزة)، وفميا يلي عرض لهذه المقالات :

- مفتي فلسطيني أمين الحسيني وقد تناولته مقالتان :

- وثائق العدد الخامس من مجلة الشرق الأوسط ١٩٧٨م، ويحتوي على وثيقة لم يسبق نشرها عن وصول مفتي فلسطين أمين الحسيني إلى مصر في ١٩٤٦/٦/١٩م، ولجوئه إلى قصر الملك فاروق في عابدين. (انظر رقم ١٢ بالقائمة).
- محمد أمين الحسيني ١٨٩٥-١٩٧٤م، وهو المناضل الذي بدأ ظهوره مع انتفاضة القدس في إبريل عام ١٩٢٠م، وقد أنصف المقال هذا المناضل وأبرز جهوده السياسية. (مجلة شئون الشرق الأوسط)، العدد ٥، يناير ٢٠٠٣م.

- وهناك مقالتان حول الشيخ عز الدين القسام وهما :

- ثورة الشيخ عز الدين القسام، (١٢ صفحة)، (انظر رقم ٤ بالقائمة)، وهو سوري الأصل من اللاذقية، ولد عام ١٨٧١م، وتوفي في ١٩٣٥/١١/٢٠م شهيدًا، وهو أزهري شارك في الثورة ضد الفرنسيين في شمال سوريا ما بين ١٩٢٠-١٩٢١م، وحكم عليه بالإعدام، ولجأ إلى حيفا وتولى التدريس والخطابة، ورفع شعار الثورة المسلحة ضد الانتداب والصهيونية. وقد نشرت هذه المقالة عام ١٩٧٢م في العدد السادس من مجلة شئون فلسطينية، الصادرة عن مركز الأبحاث بمنظمة التحرير الفلسطينية في بيروت، وفي العدد السابع من المجلة نشرت رسالة من مجاهد قديم بعنوان: " ذكريات عن القاسم "، (من السيد إبراهيم الشيخ خليل) أحد رفاق القسام، وتحتوي على ملاحظات وذكريات حول مقالة، د. عادل غنيم، وتتحدث عن التبرعات والأعمال العسكرية والعلاقات الإنسانية في حياة القسام، وعدم ارتباطه بأية منظمات سياسية.

- **حركة الشيخ عز الدين القسام**، (١٩ صفحة)، (انظر رقم ٤٣ بالقائمة). وهي ورقة في ندوة بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية، عام ٢٠٠٣م، ويلاحظ أن د. عادل غنيم استخدم كلمة (حركة) بدلاً من (ثورة) في المقالة السابقة والفرق بينهما ٣١ عامًا، وله وجهة نظر في تغيير المصطلح، وهو يعتبر أن كلمة (حركة) أكثر دقة من كلمة (ثورة) في وصف حركة القسام.

وهو يعالجها باعتبارها أول حركة جهادية في فلسطين خلال الانتداب البريطاني لفلسطين من ١٩٢٢-١٩٤٨م، وقد خاضت معركتها الحاسمة مع الاستعمار البريطاني في ١٩٣٥/١١/٢٠م، وقد أدرك القسام ما لم يدركه سابقوه من المجاهدين من أن المعركة هي مع الاستعمار البريطاني، وهو أساس المؤامرة الصهيونية، وكان القسام يحسن الاختيار والتدريب، ويستعين بذوي الخبرة، وكان يهتم بالعلم والنضال حتى ضد الاحتلال الإيطالي في ليبيا، وكان جيشه يم مجاهدين من دول عربية مختلفة ومن بينهم مجاهد مصري شهيد، وقد استمرت حركته بعد موته، ولكن إلى حين، مثل كل الجهود والتضحيات العربية والفلسطينية التي ترتبط بالحماس ولا تدخل ضمن استراتيجية طويلة المدى متدرجة الخطوات كما نشاهد في الحركة الصهيونية منذ نشأتها خصوصًا بعد ظهور كتاب الدولة اليهودية لثيودور هرتسل !!

- **محمد عزة دروزة وحركة النضال الفلسطيني**، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٨٧م، (١٥٢ صفحة)، (انظر رقم ٢٥ بالقائمة).

يُعد دروزة من أبرز الشخصيات الوطنية في النضال الفلسطيني خلال مرحلة الانتداب البريطاني (١٩٢٢-١٩٤٨م)، وإلى جانب اسهامه السياسي فهو مؤرخ للحركة العربية المعاصرة في فلسطين، وقد قام

المؤلف بمراسلة دروزة مما شكل مادة كافية لإيضاح بعض المسائل والمواقف التي تعددت فيها وجهات النظر، وقد توفى دروزة في ١٩٨٤/٧/٢٦م. وقد أبرز المؤلف اهتماماته الفكرية والأدبية والتاريخية والإسلامية، واطلع من أجل إنجاز هذا العمل على مذكرات دروزة في (في جزءين) ومراسلاته إلى المؤلف وهي خمسة مراسلات (بين ١٩٦٤-١٩٧٦م)، وخمس رسائل إلى عوني عبدالهادي من (١٩٣٧-١٩٤٦م)، وأربعة كتب لدروزة.

ثالثا : القدس :

للدكتور عادل غنيم دراسة وثائقية حول القدس بعنوان :

- **القدس في وثائق عصبة الأمم والأمم المتحدة**، (انظر رقم ٣٨ بالقائمة).

وفي هذه المقالة يستعرض مواقف كل من هاتين المنظمتين من القدس، ثم يستعرض وضع القدس في مرحلة ما قبل الحرب العالمية الأولى، وملامح تاريخ القدس الحديث والمعاصر.

- والدراسة الثانية في كتاب : **حائط البراق أم حائط المبكى**، (١١٥ صفحة)، (انظر رقم ٣٥ بالقائمة).

وهو كتاب صغير الحجم عظيم القيمة، يعالج فيه المؤلف موضوع القدس وحائط البراق في ثلاثة أقسام، ويغطي الأصول الدينية والتاريخية للموضوع، وكيف أن هيكل سليمان قد دمر منذ آلاف السنين عدة مرات، وقد دمر تمامًا وللمرة الثالثة على يد الرومان عام ٧٠٠ ميلادية، كما تنبأ بذلك السيد المسيح عليه السلام، كما يوضح تاريخ حائط البراق عند المسلمين وارتباطه بالإسراء والمعراج، وكيف أثيرت مشكلة حول هذا الحائط وسمى حائط المبكى لخلق موضوع مقدس يجتمع حوله اليهود وهم شتات من أجناس الأرض وليسوا وحدة عرقية على الإطلاق.

ويقدم المؤلف دراسة وثائقية حول ما يزعم اليهود أنه حائط المبكى، ويكشف

من خلال جهد علمي وثائقي ومنهجي كذب هذا الادعاء حول الحائط الغربي للحرم القدسي الشريف، والذي هو " حائط البراق " الإسلامي الذي أثبتته وثيقة تاريخية عالمية صدرت عن عصبة الأمم المتحدة في ديسمبر ١٩٣٠م، تؤكد ملكية المسلمين وحدهم للحائط الغربي كجزء من ساحة الحرم الشريف، وليس لليهود أي حق في الحائط أو الرصيف المجاور له، ولم تلق هذه الوثيقة حظها من الدراسة سواء لدى العرب والمسلمين أو غيرهم من الأمم، بل وسقطت وسائل الإعلام العربية المكتوبة والمسموعة والمرئية في هذا الوهم، وراحت تردد اسم حائط المبكى في جهالة وغباء مثير للدهشة والغضب معًا، والأدهى من ذلك أنه بعد صدور هذا الكتاب وتوزيعه لازالت معظم هذه الوسائل تردد اسم حائط المبكى وكأنها لا تقرأ أو تسمع أو تحس، كما أنه من دواعي الاستغراب أن أحد الإعلاميين سرق هذا الكتاب ونسبه لنفسه ونشره في دولة خليجية !! ومن الطريف أن تحاول الصهيونية سرقة حائط البراق، ويسرق عربي كتاب د. عادل غنيم !!.

- والمعالجة الثالثة هي مقالة بعنوان : ما الذي تنتظره القدس من الأمة ؟ (انظر رقم ٣٦ بالقائمة).

ويتحدث فيها عن ثمانية أشياء يمكن للأمة العربية والإسلامية القيام بها من أجل القدس.

رابعًا : المجتمع الفلسطيني :

في مؤلفات د. عادل غنيم عدد من الأبحاث تتناول جوانب متعددة من المجتمع الفلسطيني ومظاهر الحياة السكانية والاجتماعية والثقافية والسياسية، وإلى جانب ما اشتملت عليه رسالتا الماجستير والدكتوراه من معالجة لهذه الجوانب، فإن الدراسات الثمانية التالية تعطي صورة متكاملة لجهود الباحث عبر سنوات طويلة في تغطية هذه الجوانب من المجتمع الفلسطيني والإنسان الفلسطيني.

مشكلة اللاجئين :

- قضية اللاجئين، القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٢م، ١٠٤ صفحة (انظر رقم١ بالقائمة).

أمضى د. عادل غنيم فترة التجنيد بالقوات المسلحة في سيناء وغزة، عندما كانت تحت الإدارة المصرية، وشاهد عن قرب مأساة اللاجئين الفلسطينيين، وكان ذلك دافعًا لكي يؤلف كتابه عن قضية اللاجئين، وهذا هو الكتاب الأول للمؤلف حول القضية الفلسطينية والكتاب الثاني في أعماله المنشورة، وقد سبقه عام ١٩٦٠م، كتابه عن تطور الحركة الوطنية في العراق.

وفي " قضية اللاجئين " يوضح المؤلف كيف نشأت القضية وأسباب النزوح والهجرة ومذابح اليهود البشعة وهزائم الجيوش العربية وخسائر الفلسطينيين ودور الأمم المتحدة في قضية اللاجئين والإغاثة ومشاريع توطينهم وتهجيرهم، والسؤال الذي لا يزال حائرًا حول مصير اللاجئين، وأرى أنه ليس سؤالاً فحسب بل هو عار يلحق بذمة وضمير العالم المعاصر كله شرقًا وغربًا مثل عار إبادة سكان الأمريكتين الوطنيين الذي أطلق عليهم الهنود الحمر، وعار فيتنام والجزائر وغيرها.

- " الوجود الفلسطيني في لبنان والأزمة اللبنانية "، (انظر رقم ١٣ بالقائمة)، وهو بحث ضمن مجموعة دراسات عن الأزمة اللبنانية نشرها معهد البحوث والدراسات العربية عام ١٩٧٨م، ويعالج هذا البحث مشكلة الوجود الفلسطيني في لبنان وجوهر مشكلة اللاجئين في لبنان، وكذلك يعالج الأزمة اللبنانية وحقيقة الدور السوري في لبنان.

المرأة الفلسطينية :

- " المرأة الفلسطينية المعاصرة وبدايات النشاط الاجتماعي الوطني (١٩١٨-١٩٣٥م) "، (١٠ صفحات)، (انظر رقم ٣٢ بالقائمة).

ويتحدث عن تكوين جمعيات اجتماعية نسائية خيرية في فلسطين، وكانت قد

اشتركت فيها مسيحيات ومسلمات ويهوديات من أبناء فلسطين الأصليين، وقد تأثرت هذه الأنشطة بثورة ١٩١٩م في مصر، وبظهور كتابات نسائية لتحرير المرأة الفلسطينية في جريدة المقطم في القاهرة.

الأحزاب الفلسطينية :

- **الحزب الوطني : أول حزب سياسي عربي فلسطيني (١٩٧٣، ١٨ صفحة)، (انظر رقم ٥ بالقائمة).**

هذه دراسة عن أول حزب سياسي من أحزاب الأقلية التي تكونت في فلسطين، فقد كونت مجموعة النشاشيبي في نوفمبر ١٩٢٣م، بعد فرض الانتداب البريطاني عليها، والذي كان بداية لعدة أحزاب تكونت في منتصف العشرينيات، وكانت تعبيرا عن الاتجاه المتعاون مع الانتداب والمناوئ لقيادة الحركة الوطنية المتمثلة حينئذ في (اللجنة التنفيذية العربية) التي كان يقودها آل الحسيني والتي توحد الشعب الفلسطيني بقيادتها في مواجهة حكومة الانتداب، فلجأت إلى استغلال التنافس بين آل النشاشيبي وآل الحسيني، وأوعزت بتأليف هذا الحزب وأصبحت جريدة مرآة الشرق وصاحبها بولس شحادة بالقدس هي لسان هذا الحزب، ولعب السير جلبرت كلايتون بخبرته بالخلافات في المجتمع الفلسطيني دورًا خطيرًا في التلويح بالمصالح واستغلال الشقاق بين العائلات في تفكيك التوحد الفلسطيني ضد خطط الإنجليز وخلق تيار ينخدع بفكرة التدرج والاعتدال والقناعة بما يعطيه الإنجليز ثم المطالبة بالباقي، وإعطاء المبرر للإنجليز لشق الصف الفلسطيني والفرصة للصهيونيين في شراء الأراضي، وقد تبرأ الفلسطينيون من هذا الحزب، وأدانوا أعضاءه، وقد تورط فيه بعض ذوي النيّات الحسنة، ونشرت الصحف فيما بين ١٩٢٤-١٩٢٦م توقيعات للفلسطينيين الذين يتبرءون من هذا الحزب ويتمسكون بقيادة اللجنة التنفيذية العربية.

- الأحزاب الزراعية في فلسطين في السنوات الأولى من الانتداب البريطاني، (١٣ صفحة) (انظر رقم ٨ بالقائمة).

في السنوات الأولى من الانتداب تشكلت عدة أحزاب عربية من أحزاب الأقلية، وفي عام ١٩٢٣م، تكون الحزب الوطني الفلسطيني، وفي ١٩٢٤م، نشأت أحزاب زراعية عربية شكلها عدد من الوجهاء والمشايخ المحليين، وكان الباعث الرئيسي لها معارضة اللجنة التنفيذية العربية قائدة الحركة الوطنية في ذلك الوقت، وتعاونت هذه الأحزاب مع الإنجليز واتصلت باليهود وساعدت على بيع الأراضي لليهود وأسهمت في التفرقة بين القرية والمدينة، وكانت من القوى المناوئة لقيادة الحركة الوطنية في فلسطين وحققت أهداف الانتداب البريطاني، وسجلت صفحة قاتمة ومحزنة في تاريخ القضية الفلسطينية، وقد استعان الباحث بمراجع أصلية، وصحف فلسطينية معاصرة لهذه الأحداث.

- الشعر في القضية الفلسطينية :

أهمية الشعر في دراسة التاريخ الفلسطيني المعاصر (١٩٨٦م)، (٢٦ صفحة)، (انظر رقم ٢٢ بالقائمة).

هذا البحث متعدد الجوانب، فهو من ناحية يدخل في إطار مناهج البحث واستخدام المصادر التاريخية، وقد عرضته في هذا المجال في البحث(*)، أما الجانب الآخر فهو الشعر الفلسطيني الذي لجأ إليه د. عادل غنيم ليستقرئه تاريخ بعض الأحداث التي قد يغفل عنها التاريخ.

وقد شمل البحث شعراء فلسطينيين منذ الحرب العالمية الأولى ثم عام ١٩٤٨م وما بعدها، وشمل ذلك شعراء مثل سليمان التاجي الفاروقي في قصيدة له عام ١٩١٢م، وإبراهيم طوقان، وعبدالرحيم محمود، ووديع البستاني الذي له

(*) انظر الشريحة التالية (ثانيًا) في هذا القسم من البحث

قصيدة بمناسبة افتتاح الجامعة العبرية في يوليو ١٩١٨م، يحذر فيها مفتي القدس من خطورة الدور الذي يمكن أن تقوم به الجامعة العبرية في دعم الكيان الصهيوني في فلسطين، وتوضح القصيدة افتقار المفتي إلى الوعي وحرصه على التعاون مع الإدارة البريطانية، كما تحتوي على سخرية طوقان من بيع الأغنياء أرضهم لليهود، وأشار الشعر إلى إعدام الشيخ فرحان السعدي عام ١٩٣٧م، وهو صائم بتهمة حيازة بندقية، واهتم بذلك الشاعر عبدالكريم الكرمي (أبو سلمى).

ومن الشعراء أيضًا برهان الدين العبوشي، وإسكندر الخوري البيتجالي، ومحمد إسعاف النشاشيبي.

الصحافة الفلسطينية :

- الصحافة الفلسطينية ومواقفها من القضية الوطنية (١٩٠٨-١٩٣٦م)، ١٩٨٥م، (٣١ صفحة)، (انظر رقم ٢١ بالقائمة).

يرصد هذا البحث النشأة المبكرة للصحافة الفلسطينية منذ عام ١٩١٨م، الذي شهد إصدار صحيفة " النفير " في القدس وكان امتيازها للصحفي إيليا زكا، ويبدو من اسمها أنها كانت ضمن أعمال التصدي لاستعمار فلسطين، ويستكمل البحث بقية الأنشطة الصحفية في هذا المجال.

العرب واليهود في فلسطين :

- **موقف عرب فلسطين من اليهود والصهاينة من الحرب العالمية الأولى حتى اضطرابات البراق ١٩٢٩م**، (بتاريخ ١٩٧٤م)، (٢٠ صفحة)، (انظر رقم ٧ بالقائمة).

يتناول البحث هجرة يهود فلسطين هربًا من روسيا قبل احتلال بريطانيا لفلسطين بحوالي أربعين عامًا، إلى جانب حياة قلة من اليهود في فلسطين في ظل الحكم التركي منعزلين بينما كانت مذابح اليهود في روسيا وبولونيا وفرنسا وغيرها، وتعد قضية دريفوس في فرنسا نموذجًا لذلك.

وقد اعتمد الباحث على تقارير للمندوب السامي البريطاني وغيرها، ويعطي

هذا البحث صورًا نادرة ودقيقة للمجتمع الفلسطيني في هذه الفترة المبكرة وحياة اليهود الآمنة مع العرب واستضافة الأرض العربية لليهود الذين هربوا من جحيم أوربا، ثم النهاية المؤلمة بترحيل مشكلة اليهود إلى فلسطين والمنطقة العربية وما أحدثته من خراب ودماء وحروب لازالت تستنزف وتقتل وتدمر حتى الآن بمجئ أجناس من شتات الأرض إلى فلسطين وافتعال دولة صهيونية استعمارية شديدة الخطورة.

خامسًا : مراحل تكوين ودعم إسرائيل :

في هذا المجال كتب د. عادل غنيم متتبعًا الفكرة القديمة عند نابليون ومشروعه اليهودي في أواخر القرن الثامن عشر عندما فكر في خلق رأس جسر للاستعمار الفرنسي في المنطقة مستغلاً اليهود رغم كل ما كانت تحمله فرنسا وأوربا من كراهية لليهود في ذلك الوقت، وتفكير بالمرستون رئيس وزراء بريطانيا منذ عام ١٩٤٠م في استخدام اليهود ضد قوة محمد علي باشا في مصر.

ثم تناولت الأبحاث والكتابات هرتسل وكتابه عن الدولة اليهودية الذي ظهر في أواخر القرن ١٩، ثم تاريخ الفكرة الصهيونية وقيام دولتها في فلسطين، وتقسيم فلسطين عام ١٩٤٧م، وشملت الأبحاث مواقف دول عديدة من قرار التقسيم وعلى رأسها مصر ودول عربية، ثم الأمم المتحدة وبريطانيا، وفي النهاية دور أمريكا في رعاية الصهيونية وإسرائيل، والتي اختتمت في عامنا هذا ٢٠٠٤م، بوعد من جورج بوش الابن لشارون، اعتبره د. عادل غنيم أخطر من وعد بلفور.

وفيما يلي عرض لهذه الأبحاث والدراسات التي قام بها د. عادل غنيم على مر سنوات من اهتمامه بالقضية الفلسطينية :

- نابليون بونابرت واليهود والوثائق التاريخية، (انظر رقم ٣١ بالقائمة).
- الأصول التاريخية للحركة الصهيونية، (٣٠ صفحة) (انظر رقم ٤٠ بالقائمة).

يتناول هذا البحث نداء نابليون إلى اليهود بإعادة تأسيس أورشليم في عام ١٧٩٨م، وقد أعدت حكومة الإدارة الفرنسية في هذا العام خطة سرية لإقامة كومنولث يهودي في فلسطين في حال نجاح الحملة الفرنسية في احتلال مصر والمشرق العربي بما فيه فلسطين في مقابل تقديم اليهود قروضًا مالية للحكومة الفرنسية، وبث الفوضى وإشعال الفتن والأزمات لتسهيل احتلال الجيش الفرنسي لهذه المناطق.

ثم يتابع البحث اهتمام بريطانيا بهذه المنطقة وتفكير بالمرستون رئيس وزارتها منذ ١٨٤٠م في استخدام هجرة اليهود إلى فلسطين لمواجهة أي مؤسسات لأسرة محمد علي باشا وفي نفس يوم انسحاب جيش محمد علي باشا من سوريا.

وهذه الدراسة بالغة الأهمية لإدراك مصلحة القوى الاستعمارية في نشأة واستمرار إسرائيل، ولعل عصرنا الحالي يحتوي على كثير من أمثال هذه الخطط التدميرية للمنطقة ومستقبلها.

الدولة اليهودية : تأليف ثيودور هرتسل، ترجمة محمد يوسف عدس، مراجعة ودراسة د. عادل حسن غنيم، القاهرة، دار الزهراء للنشر، ١٩٩٤م، ١٣٩ صفحة، (انظر رقم ٢٨ بالقائمة).

من غرائب العقل العربي وعلامات غيبوبته وعشوائيته أن كتاب " دولة اليهود " الذي ألفه ونشره ثيودور هرتسل عام ١٨٩٦م في فيينا، لم يكن قد ترجم إلى العربية رغم كل الحروب والمقاومات والبطولات ضد الصهيونية وإسرائيل والاستعمار، ويعجب المرء كيف كان الزعماء والقادة يفهمون الصهيونية ويحاربونها أو يتفقون معها بغير قراءة كتاب هرتسل، ولا أظن أنهم يبلغون من الثقافة أن يقرأوه في لغة من اللغات الأوروبية غير العربية !!

ولقد يسر الله لمفكر من مفكري هذه الأمة هو الأستاذ محمد يوسف عدس أن يتصدى لترجمة هذا الكتاب من نص أصلي بالإنجليزية كان مختفيًا عن الأنظار

بعد أن حذف منه ونشر معدلاً بالإنجليزية أيضًا، وبعد ذلك خرجت الترجمة العربية ونشرت بالقاهرة عام ١٩٩٤م، في طبعة متواضعة، ولكنها بالغة القيمة ويكفي أنها تسد ثغرة في كرامة العقل العربي ومعقوليته !! ولقد استدعى الأمر الحصول على أربع ترجمات إنجليزية للكتاب، ومنها طبعة حاييم وايزمان ١٩٤٣م، وطبعات ١٩٤٦م، ١٩٧٢م، ١٩٨٨م.

وللأستاذ محمد يوسف عدس أعمال بالغة الأهمية في مجالات عديدة مثل تاريخ المسلمين في الفلبين والبلقان وكوسوفا وغيرها، مع ترجمة لأعظم مؤلفات المفكر البوسنوي الرئيس بيجوفيتش ومنها كتابه الهام " الإسلام والغرب " الذي كلفه من الجهد والمشقة الكثير والكثير.

ومن نفس هذا الجيل العظيم المبدع والمخلص، جاء الأستاذ الدكتور عادل غنيم، ومن أبناء المنصورة أيضًا، لكي يكتب تقديمًا لترجمة كتاب هرتسل، ودراسة عن الكتاب ومؤلفه وأهمية نشأة الحركة الصهيونية.

وفي التقديم نقرأ أن هرتسل مؤسس الحركة الصهيونية، قد نشر كتابه منذ أكثر من مائة عام (نشر عام ١٨٩٨م)، وارتكزت الحركة الصهيونية على هذا الكتاب (دولة اليهود)، واعتبرته في منزلة التوراة لدى اليهود.

واستعرض التقديم سيرة هرتسل الذي ولد في بوداست عام ١٨٦٠م، وعقد أول مؤتمر صهيوني في ١٨٩٧م. واستعرض أيضًا تاريخ الفكرة القومية الصهيونية التي ظهرت في مؤلفات سابقة على هرتسل، مع تقييم لقدرات هرتسل ونقاط القوة والضعف في كتابه، وأظهر أهمية ظهور ترجمة لكتابه والأثر الانقلابي الذي أحدثه في تاريخ اليهود في العالم، وقد وصف هرتسل كتابه بأنه ليس اكتشافا لمشكلة اليهود ولكنه " توليفة " لحل هذه المشكلة، وقد طرح عدة وسائل لاحتلال أرض جديدة سواء في فلسطين أو الأرجنتين، وربط فكرة الدولة اليهودية بدورها كراس حربة لأوربا في مواجهة آسيا، ويرى د. عادل غنيم أن العرب لو كانوا قرأوا هذا الكتاب لأدركوا أبعاد المؤامرة .. وقد اعتمد على

يوميات هرتسل التي نشرها مركز الأبحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية. ولازالت الأمة العربية مطالبة بأن يخرج من أبنائها مفكر يكتب لأمته عن " الدولة العربية " في مقابل "الدولة اليهودية " لهرتسل، ليكون مشروعًا حضاريًا متكاملاً للحاضر والمستقبل !!

تقسيم فلسطين عام ١٩٤٧م :

- **وثائق العدد السادس من مجلة الشرق الأوسط، ١٩٧٩م، (١٧ صفحة)، (انظر رقم ١٤ بالقائمة).**

أربع وثائق لم يسبق نشرها تتعلق بالموقف المصري والبريطاني الرسمي من تطورات القضية الفلسطينية في المرحلة التالية لمشروع تقسيم فلسطين الذي أصدرته الجمعية العامة للأمم المتحدة في ١٩٤٧/١١/٢٩م.

وهي توضح رفض الحكومة المصرية لقرار التقسيم، وترى أن الخطر الصهيوني يهدد البلاد المجاورة لفلسطين وأن الحكومة الفلسطينية سوف تقدم المساعدة للفلسطينيين ولن تمنع المتطوعين من الذهاب إلى فلسطين.

- **ردود الفعل العربية الرسمية في أعقاب توصية الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين في ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧م، (٦١ صفحة)، (انظر رقم ٢٣ بالقائمة).**

ردود فعل سوريا ومصر والعراق والأردن ولبنان وفلسطين خلال الشهر الثاني لتلك التوصية، حولية كلية الآداب بسوهاج، جامعة أسيوط، ع٥، ١٩٨٦م.

- **وثائق العدد الخامس من مجلة الشرق الأوسط، ١٩٧٨م :**

وتحتوي على ثلاث وثائق، الأولى : عن مفتي فلسطين وقد سبق الحديث عنها في مجالها، والثانية : حول القرارات السرية التي اتخذتها اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية في صوفر (لبنان) من ١٦ إلى ١٩ سبتمبر ١٩٤٧م، والثالثة: مذكرة من رئيس الوزارة العراقية في ١٩٤٧/٢/١٥م بشأن مواجهة العراق لقرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين في ١٩٤٧/١١/١٩م.

الولايات المتحدة وإسرائيل :

- **الولايات المتحدة والقضية الفلسطينية خلال الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩-١٩٤٥م، (١٩٨١م)، (٢٠ صفحة)، (انظر رقم ١٨ بالقائمة).**

بعد أن أكملت الحكومة البريطانية وعودها لبناء وطن قومي لليهود في فلسطين، وتحققت عناصر تصريح بلفور أصدرت الكتاب الأبيض في ١٩٣٩/٥/١٧م، لتوفير مناخ سياسي يسمح للبلاد العربية بالوقوف إلى جانب الحلفاء في حالة قيام الحرب العالمية الثانية.

وبدأت جهود اليهود في استمالة الولايات المتحدة نحو أهدافهم، وبعد تردد تورطت السياسة الأمريكية في التحيز للحركة الصهيونية بعد الحرب العالمية الثانية، دون اعتبار للمصالح العربية، وتستعرض هذه الدراسة مراحل التطور والتحول من الدور البريطاني إلى الدور الأمريكي في مساندة الصهيونية والخلط بين المفاهيم والتخلص من مشكلة اليهود في الغرب بتصديرها إلى فلسطين.

- **هل هو وعد بلفور جديد ؟، مقالة في الأهرام في ٢٠٠٤/٥/٩م، ص١٢، (انظر رقم ٤٩ بالقائمة).**

يرى د. عادل غنيم أنه ما بذله بوش لشارون لأخطر من وعد بلفور عام ١٩١٧م، لأن العرب الآن في أسوأ حالاتهم، وإسرائيل في أفضل حالاتها، وعندما ظهر وعد بلفور كانت كفة الميزان في صالح العرب - نسبيًا - ولكنهم لم ينتبهوا إلى خطورة ما يحدث ولم يستثمروا إمكانياتهم لحماية فلسطين، أما اليوم فإن العرب في أسوأ حالاتهم كما أن الاستعمار العالمي يقف بقوة إلى جانب إسرائيل، ولولا المقاومة الفلسطينية المستميتة لأعلنت إسرائيل تسوية القضية نهائيًا، ولا يساندها سوى الرأي العربي العام الذي يؤازر عرب فلسطين ولكن لا يملك القوة لمساندتها، وفي ظل هذه الظروف تأتي وعود بوش والحقوق التي يمنحها لشارون.

ثانيًا : في منهج البحث والمصادر :

يمكن أن نرصد للدكتور عادل غنيم أربعة أعمال في مجال المنهج، ثلاث منها تتعلق بالمنهج التاريخي، والرابع بمناهج البحث عمومًا.

ومن المهم في البداية القول بأن من أهم المراحل التي يصل إليها العالم والباحث مع تقدم الخبرة وتكامل الرؤية العلمية والمنهجية، هي المرحلة التي يصبح له اهتمامات ورؤى خاصة بمنهج البحث في مجاله خصوصًا، وفي مجال العلم عمومًا، فهي مرحلة تجريدية تنتمي إلى التفكير الفلسفي المنطقي الذي تتبع منه مناهج البحث باعتبارها " سلم العلوم " كما أسماها المناطقة العرب.

وقد حدث ذلك عندما اهتم د. عادل غنيم بالتأليف في المنهج، ونميز في هذا المجال التفاصيل التالي :

١- كتاب : **في منهج البحث التاريخي**، بالاشتراك مع العالم المؤرخ أ.د. جمال محمود حجر، أستاذ التاريخ الحديث بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية، (انظر رقم ٥١ بالقائمة).

ومع ندرة التأليف العربي في الموضوع، بعد الكتاب الذي ألفه د. حسن عثمان مبكرًا عام ١٩٤٣م، بعنوان " **منهج البحث التاريخي** "، نجد هذا الكتاب ذا أهمية خاصة، وهو يعالج الموضوع من خلال بعدين :

أ- بعد يدور حول منهج البحث التاريخي، ويعرفه ويميزه عن بقية المناهج التجريبية والاستدلالية وغيرها.

ب- والبعد الثاني يركز على الصياغة الفنية والمنهجية للضوابط المرجعية في البحث، مثل الحاشية والقائمة البيبليوجرافية، وصياغة أسماء المؤلفين العربية والأجنبية، مستفيدًا بعد ذلك بقواعد الفهرسة الوصفية والمرجعيات البيليوجرافية في علم المكتبات والمعلومات، مما يجعل الكتاب متكاملاً في المنهج والطريقة.

٢- بحث بعنوان : **إشكالية توظيف المصادر لكتابة التاريخ العربي الحديث والمعاصر : مع التركيز على النموذج المصري**، (ورقة بحث ضمن إشكالية المنهج في العلوم الاجتماعية، مقاربة واقع المجتمع العربي، كلية الآداب، جامعة البحرين، ٩-١١ إبريل ١٩٩٤م، ١٢ صفحة).

وفي هذه الورقة يعالج الباحث أهمية الاستفادة من الوثائق ويتطرق إلى جهل أو إهمال كثير من المؤرخين العرب لاستخدام الوثائق الخاصة بتاريخ العرب الحديث وخصوصًا مصر، رغم توافر الآلاف منها في دار الوثائق المصرية، كما يتطرق إلى مشكلات حفظ وتوثيق هذه الوثائق، وهي مشكلة العقل العربي عمومًا مع أي نوع من التنظيم والنظام.

كما يتحدث عن ترديد المقولات غير الدقيقة بالنسبة لبعض القضايا الهامة في التاريخ، وعن قضية معاداة بعض الحكام لعملية تسجيل التاريخ في موضوعية، وهو المرض الشائع والحتمي الذي يصيب الطغاة والفاسدين في كل عصور الإنسانية، ويعد صفة أساسية في التاريخ المعاصر للعالم العربي الجريح الذي نعيش فيه الآن، ولعل هذه الخصائص والمحن الاستبدادية المظلمة هي التي تؤكد وحدة هذه الأمة من المحيط إلى الخليج، مهما فرقت بينها الأسباب ... ولقد وصل الأمر ببعضهم إلى إعدام الوثائق التاريخية أو الإيعاز بكتابة تاريخ مزيف إلى درجة تخلو من الحياء والنزاهة، ويختتم الباحث حديثه بقاعدة : " إذا ضاعت الأصول ضاع التاريخ معها " وهي قول للمؤرخ أسد رستم، ومن ملاحظاتي أن الأمة التي تفقد الذاكرة التاريخية تتحول حياتها إلى حركة عشوائية همجية متعاكسة ومتصادمة تنتهي في كل لحظة إلى كوارث تتراكم لتضع ملامح المأساة والتخلف والعبودية أمام أضعف المخلوقات ... فهي عدو لنفسها.

٣- دراسة في مصادر التاريخ بعنوان : " **أهمية الشعر في دراسة التاريخ الفلسطيني المعاصر** "، (انظر رقم ٥٠/أ بالقائمة).

وتعتبر هذه دراسة متعمقة ورأسية في منهج البحث التاريخي، تعالج فـــن

استخدام المصادر في كتابة التاريخ، ويتصل هذا البحث بقضية بالغة الأهمية من وجهة نظر علم المعلومات، حيث ينظر إلى العلوم من زاوية تعدد الارتباطات بين كل فرع من فروع العلم وفروع أخرى. وقد تناول د. عادل غنيم هذه القضية بتركيز ومنهجية في قطاع التاريخ وهو شديد الخصوبة، عندما تناول قضية استخدام الشعر في دراسة التاريخ، مع التطبيق على الشعر الفلسطيني والتاريخ الفلسطيني.

ويبدأ دراسته بتساؤل منهجي هو: هل الشعر عامل مساعد في دراسة التاريخ، ويمكن أن يحتوي على تسجيل صادق للأحداث، إلى جانب العلوم المساعدة الأخرى، للتاريخ، مثل الاقتصاد والجغرافيا والأدب، من هذا السؤال بدأ الباحث معالجته للموضوع.

ومن إغراء هذا الموضوع وخصوبته، أجد من الضروري أن أذكر ما يلي كما فهمت من إشارة وتساؤل أ.د. عادل غنيم :

أ- أن التاريخ كعلم يعتبر بمثابة إمبراطور عظيم بين العلوم، له علوم كثيرة في خدمته، وهي علوم جليلة المقدار ولكنها تعطيه ثمرة إنتاجها وعطائها لكي يستفيد فيها هذا الإمبراطور في رؤية شاملة منهجية سواء كانت بالتأويل أو التسجيل والتدوين، وكلاهما مكمل للآخر وإن تنازعته المناهج المختلفة في كتابة التاريخ، ومن هذه العلوم المساعدة: الآثار والوثائق (الدبلوماتيقا) Diplomatique والنقود والنقوش والكتابات والاجتماع والسياسة والاقتصاد والأساطير وغيرها، ويكفي أن نعرف أن سياسة اليوم هي تاريخ الغد، وتاريخ اليوم كان سياسة الأمس.

ب- أن الدكتور عادل غنيم يخفي وراء تساؤله خبرة المؤرخ الذي يعتمد على الوثائق التاريخية في صياغة المادة التاريخية، وللوثيقة التاريخية شروط توثيقية مادية ورسمية أو قانونية، أو شرعية، في ظهورها يستوفيها الباحث في علم الوثائق قبل أن يعتصر مادتها الأولية ثم يقدمها لعلم التاريخ، ولكن

الشعر (مثلا) لا يستوفى من هذه الشروط الوثائقية إلا حالة واحدة، وهو أنه عندما كتب كان عفويًا ولم يكن في وعي كاتبه أن يخاطب التاريخ أو يزيف وقائع معينة، بل هو مرتبط بحدث أو انفعال أو رؤية للشاعر لحظة إبداعه، ومن هنا يستطيع المؤرخ أن يعتمد على بعض عطاءات الشعر ليستخرج منها مادية تأريخية في أحداث معينة، مستوفيًا شروط المنهجية التي تؤكد عفوية هذا الشعر وصدق ارتباطه بالحدث التاريخي، مثلما فعل عادل غنيم في استخراج حقائق من الشعر الفلسطيني في تأريخه لهذه القضية في بعض مراحلها، وهو ما عرضه في هذا البحث في موضوع القضية الفلسطينية

٤- " مدخل إلى مناهج وطرق البحث "، القاهرة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ٢٠٠٠م، (بالاشتراك مع أ.د. كمال محمد عرفات نبهان)، (انظر رقم ٥٣ بالقائمة).

بعد الكتابة المتخصصة في مناهج البحث التاريخي، نجد هذا البحث الذي تناول مناهج البحوث عمومًا، وشمل مقدمة عن العلم والمعرفة العلمية، ثم تعريف المنهج وأهميته، وبعض أنواع مناهج البحث وأهمها المنهج التاريخي (الاستردادي) والمنهج الاستنباطي (الاستدلالي) والمنهج التجريبي أو الاستقرائي، وصفات الباحث وأخلاقياته، وأهمها ملكة النقد والموضوعية والأمانة العلمية والصبر والشجاعة، كي يتطرق البحث إلى بعض الأبعاد الببليوجرافية للبحث العلمي، مثل درجات البحث وأبعاده الوعائية، من حيث الأفقية أو الرأسية والأشكال الوعائية للأبحاث كالرسائل الجامعية وورقة البحث والمقالة العلمية، والتقرير والكتاب، ثم خطوات البحث العلمي وصياغة البحث والحواشي والأسماء العربية والأجنبية والقوائم الببليوجرافية.

ثالثاً : التاريخ العربي الحديث :

تاريخ الدولة العثمانية :

١ ـ " **نشأة الدولة العثمانية وتطورها** "، للدكتور عادل غنيم، ويحتل هذا البحث الفصل الأول من كتاب (تاريخ العرب الحديث / إعداد فريق من الأساتذة، الدوحة، ١٩٨٩م) ص ص٧-٣٤. (انظر رقم ٥٦ بالقائمة).

وقد أعد هذا الفصل ليكون تمهيدًا لفهم حركة التاريخ في المنطقة وما يجاورها في إطار التاريخ الوسيط والحديث. وتناول مسائل هامة في نشأة الدولة العثمانية، والروايات المختلفة حول نشأة العثمانيين وإسلامهم، وتحدث عن مصادر التاريخ العثماني وتكوين الإمبراطورية العثمانية والنظام الإداري في هذه الدولة، ابتداء من السلطان، ثم الصدر الأعظم (رئيس الوزراء)، والوزارة والهيئة الدينية الإسلامية والجيش والبلاط والتقسيم الإداري للدولة، والتوسع شرقًا وغربًا، وغزو الشام ومصر والحجاز واليمن والعراق، والصراع مع المماليك والصفويين الشيعة في إيران، والمواجهة مع البرتغاليين وتأثير القوة العثمانية في المنطقة العربية عمومًا حتى سقوط الدولة العثمانية والحرب العالمية الأولى.

تاريخ العراق :

تطور الحركة الوطنية في العراق ـ القاهرة، الدار القومية، ١٩٦٠م. (انظر رقم ٥٤ بالقائمة).

هذا هو أقدم كتاب نشر للدكتور عادل غنيم، وهو ينم عن الاهتمام المبكر بالقضايا العربية، والجانب السياسي منها منذ البداية، وقبل أن يركز اهتمامه في القضية الفلسطينية في رسالتي الماجستير والدكتوراه فيما بعد.

وهذا الكتاب مبسط ومختصر، ويعرض لجزء من تاريخ العراق المعاصر منذ بداية القرن العشرين، حينما بدأ تقسيم المستعمرات بين دول أوربا، وكيف تم احتلال العراق والحركة السياسية في العراق بعد الحرب العالمية الأولى، وتحول الجيش العراقي إلى قوة وطنية، ثم سلسلة الانقلابات العسكرية منذ عام ١٩٣٦م

والخلافات بين العراق وبريطانيا ثم ثورة رشيد عالي الكيلاني التي فشلت، والعراق بعد الحرب العالمية الثانية وتفاعل العراق مع الأحداث العربية مثل فلسطين وثورة يوليو، ثم نوري السعيد وحلف بغداد حتى جاءت ثورة الجيش في ١٤ تموز (يوليو) ١٩٥٨م التي أعلنت العراق جمهورية وهذه هي نهاية الفترة التي يعالجها الكتاب.

تاريخ قطر :

البحث الأول في تاريخ قطر بعنوان :

١ – " ملامح التغير في السياسية القطرية في مرحلة ما قبل الحرب العالمية الأولى ١٨٦٦-١٩١٣م ". (انظر رقم ٥٧ بالقائمة).

وقد نشر ضمن أعمال ندوة " قضايا التغير في المجتمع القطري خلال القرن العشرين " الذي عقد في جامعة قطر عام ١٩٨٩م، ونشرت أعماله عام ١٩٩١م.

وهو بحث يرصد ملامح التغير في السياسة القطرية في هذه المرحلة، ويؤرخ لبروز قيادة قطرية لأول مرة عام ١٨٦٦م ممثلة في الشيخ محمد آل ثاني الذي وقع اتفاقية مع المقيم البريطاني في الخليج عام ١٨٦٨م، ثم تولى بعده الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني ١٨٦٩م وأنشأ إمارة قطر وتجمعت حوله معظم القبائل القطرية في ظروف محلية ودولية اتسمت بالصراع بين القوى الكبرى بهدف التوسع والمصالح، وتحددت علاقة قطر بالقوى الكبرى بريطانيا والدولة العثمانية والقوى المحلية مثل السعودية والبحرين وأبو ظبي وتمسكت باستقلال قرارها.

البحث الثاني في تاريخ قطر يحتل ثلاثة فصول من كتاب: **"التاريخ الاجتماعي للمرأة القطرية المعاصر " الدوحة، جامعة قطر، ١٩٨٩م،** (انظر رقم ٥٥ بالقائمة).

وهذه الفصول هي :

الرابع : حول الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في قطر منذ الحرب العالمية الأولى.

السادس : عن المرأة القطرية والزواج.

السابع : عن المرأة القطرية والعمل.

وفيما يلي عرض لهذه الفصول :

الفصل الرابع : يعالج تطور عدد سكان قطر منذ نهاية القرن ١٩ حتى نهاية القرن ٢٠، ثم يعالج الحالة الاقتصادية والمهن سواء في البحر أو البادية ومختلف علاقات الإنتاج التي انعكست على حياة المجتمع والأفراد.

وفي الفصل السادس : يعالج في دراسة هي الأولى من نوعها، موضوع المرأة القطرية والزواج، ومن خلال مصادر التراث والفولكور القطري والخليجي، ومصادر أخرى حول الاقتصاد والمجتمع القطري، استطاع الباحث أن يستخرج ملامح لتقاليد الزواج في المجتمع القطري قبل مرحلة البترول وبعده، وأبرز طبيعة النظرة إلى الفتاة والمرأة في المجتمع التقليدي ثم مجتمع البترول، وتطور المرأة نفسها وتغير نظرتها إلى الزواج، مع إظهار التطور الذي طرأ على المهور والعنوسة والزواج من أجنبيات.

وفي الفصل السابع : يمتزج المنهج التاريخي بالدراسة الاجتماعية للمجتمع القطري في جانب من أخطر جوانبه وهو خروج المرأة للعمل، وخلاصة هذا البحث كما يلي :

- المواقف المتعددة في المجتمع القطري من عمل المرأة بين مؤيد ومعارض ومتحفظ بالنسبة للتوفيق بين العمل ومسئوليات الأسرة والأبناء.
- التطرق إلى رأي الدين الإسلامي في حقوق ثم واجبات المرأة والمساواة مع الرجل والتعليم والعمل والبيت.
- أسباب عمل المرأة القطرية، سواء كان للمكانة الاجتماعية أو التحرر من ضغوط اجتماعية أو الدخل الاقتصادي أو غير ذلك.

- تأثير تعليم الفتيات وخصوصًا المؤهلات العليا والنتيجة الحتمية لذلك وهي العمل وتقلد المناصب الإدارية العالية في الحكومة.
- المجالات والمؤسسات التي تسمح التقاليد للمرأة بالعمل فيها.
- تقييم خروج المرأة للعمل وانعكاس ذلك على تربية الأطفال، وهنا تبرز أخطر النتائج التي ترتبت على الاعتماد على الخادمات في تربية الأطفال مما أدى إلى الاغتراب اللغوي والسلوكي والأخلاقي أحيانًا لجهل هؤلاء الخادمات وانتمائهن إلى ديانات أخرى في الغالب، ونسيان بعض الأمهات لأطفالهن والانشغال بمظاهر الزينة والثراء مما دعا إلى مطالبة كثير من الدراسات والآراء بالإصلاح العاجل لهذه الظاهرة.
- إبراز بعض نماذج النجاح للمرأة في العمل وكلها تدور في إطار جامعة قطر سواء في التدريس أو العمل الفني المساعد أو المكتبات الجامعية.

وفي مجال التاريخ العربي الحديث والمعاصر، عالج د. عادل غنيم في بحثين جوانب من تاريخ لبنان، وتاريخ الخليج العربي (العراق وإيران والسعودية وقطر) في إطار معالجة القضية الفلسطينية وعلاقتها بهذه الأقطار، وقد أشرت إلى كل من هذين البحثين عند الحديث عن القضية الفلسطينية. (انظر ٥٤/أ، ٥٤/ب بالقائمة).

رابعًا : تاريخ الهند والدولة المغولية :

في هذا المجال الجديد الذي طرقه د. عادل غنيم، نجد كتابين هما :

١- "**تاريخ الهند الحديث**"، القاهرة، دار الكتاب الجامعي، ١٩٨٤م، (بالاشتراك مع الأستاذ الدكتور عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم)، (انظر رقم ٥٨ بالقائمة).

ويركز هذا الكتاب على تاريخ الهند الحديث الذي يحدد بدايته بنهاية القرن الخامس عشر عندما تحول طريق التجارة العالمي بين المشرق والمغرب حول رأس الرجاء الصالح، ووصول البرتغاليين إلى ساحل الهند الغربي، وتنتهي هذه

الفترة بالحرب العالمية الثانية، ويعالج البحث ملامح الهند الجغرافية والحضارية والاجتماعية والدينية، والتطلع الأوربي للهند، والاستعمار البرتغالي والهولندي والبريطاني للهند.

كما يعالج الدولة المغولية في مختلف مراحلها، ثم مرحلة الثورة الهندية، وصولاً إلى الحربين العالميتين ثم الاستقلال.

٢- " الدولة التيمورية (المغولية) الإسلامية في الهند ١٥٢٦-١٨٥٧ "، (انظر رقم ٥٩ بالقائمة).

وهو كتاب مختصر للقارئ المثقف العام، يتحدث عن تاريخ السلاطين في الدولة التيمورية، وهم سبعة سلاطين كبار ابتداء من بابر مؤسس الدولة وانتهاء بالسلطان أورنجزيب، وتعد هذه الدولة من أهم الدول الإسلامية في تاريخ الهند بشكل عام وفي التاريخ الإسلامي بشكل خاص، وقد أعطى المؤلف الاهتمام الأكبر لأهم سمات الدولة وتنظيماتها.

خامسًا : موضوعات متفرقة :

أمكن حصر أربعة أعمال للدكتور عادل غنيم، منها مقالتان ومقدمتان، وهي صغيرة الحجم، ولكنها مركزة تحتوي على قيمة علمية وإنسانية عالية، ويمكن عرضها كما يلي حسب تتابعها الزمني :

١- مقالة **" أ.د. محمد إبراهيم كاظم قيادة إدارية "،** (انظر رقم ٦٠ بالقائمة)، نشرت في الكتاب التذكاري عن د. كاظم، وهو مؤسس جامعة قطر وأول رئيس لها، وهو أستاذ تربية مصري تميز عمله بالدقة والإبداع في إنشاء هذه الجامعة، على أحدث النظم الجامعية، وكان عمله نموذجًا مشرقا للإدارة العلمية لمؤسسة أكاديمية بدأت بكلية للتربية لكل من البنين والبنات، ثم تطورت حتى شملت معظم الكليات التي تعرفها الجامعات الكبرى، وتميز هذا العالم بعمله حتى أصبحت جامعة قطر - في عصرها الأول - من الجامعات العربية المتميزة، وكان د. عادل غنيم

ممن أسهموا في إنشاء وتطور هذه الجامعة، ولذلك كتب هذه المقالة في تكريم د. كاظم من تجربة ومعرفة ووفاء.

٢- تقديم لكتاب بعنوان " **الأستاذ محمد يوسف عدس مستشار منظمة اليونسكو والخبير في الدراسات البلقانية : ودوره البارز في خدمة قضية كوسوفا** " تأليف بكر إسماعيل (الكوسوفي)، (انظر رقم ٦٢ بالقائمة).

وفي هذا التقديم تعريف بالمفكر المصري الأستاذ محمد يوسف عدس ومسيرته العلمية وإنتاجه العلمي في التأليف والترجمة وجهوده في خدمات المكتبات في مصر ودول متعددة، وخدمته للقضايا الإسلامية في العالم حيث انه من أهم من كتب عن قضايا المسلمين في الفلبين والبوسنة وكوسوفا، وترجم أهم أعمال الرئيس بيجوفيتش ومنها كتاب الإسلام بين الشرق والغرب، وكتاب الإعلان الإسلامي، وقد اهتم بتاريخ البوسنة والهرسك وكوسوفا وكتب عنها أدق وأصح ما كتب بالعربية، بالرجوع إلى المصادر الأولية التي لا تصل إليها الأيدي المتعجلة والمعالجات السطحية الزائفة التي تروج في مجال الإعلام المختلفة.

٣- تقديم كتاب " **الصوفية والمجتمع في غرب أفريقيا** "، تأليف د. عبدالله عبدالرازق، (انظر رقم ٦١ بالقائمة).

وقد عرض أ.د. عادل غنيم جهد المؤلف في البحث حول عدد من حركات الجهاد والدعوة في غرب أفريقيا وهي دول مسلمة غير عربية، والتي اختلفت في أساليب الجهاد والدعوة الإسلامية ولكنها تتفق في كثير من أهدافها، كما يعرض لجهود د. عبدالله عبدالرازق المتخصص في التاريخ الأفريقي في معالة قضايا المسلمين في أفريقيا بشكل عام وفي غرب أفريقيا بشكل خاص.

٤- مقالة في الكتاب التذكاري بعنوان " **هؤلاء علمونا** " الصادر عن كلية

الآداب جامعة عين شمس لتكريم ثمانية من أساتذة الكلية الذين لقوا ربهم في عامي ٢٠٠١-٢٠٠٢م، (انظر رقم ٦٣ بالقائمة).

ويتحدث فيه د. عادل غنيم عن أ.د. رأفت عبدالحميد عميد الكلية الأسبق، كقيادة جامعية وتاريخ أكاديمي بارز.

سادسًا : مقالات عن أ.د. عادل غنيم :

في كتاب أصدرته جامعة قطر للتأريخ لإنشاء الجامعة وجهود بعض المؤسسين لهذه الجامعة، نجد إسهام الدكتور عادل غنيم واضحًا ضمن هذه الجهود، حيث كان عمله بجامعة قطر معاصرًا لبداية إنشائها وكانت البداية متواضعة في شكل كلية للتربية، تنقسم ما بين مبنى للبنين وآخر للبنات، ثم تزايد عدد الكليات وأصبحت هناك جامعة قطر، ومن أجل ذلك أنشئ مكتب فني للتطوير الجامعي منذ عام ١٩٧٩م، وكان د. عادل غنيم عضوًا بهذا لمكتب، وإلى جانب التدريس بقسم التاريخ بكلية العلوم الاجتماعية، فقد أسهم بجهود بارزة في تطوير الجامعة حتى أصبحت جامعة مرموقة في العالم العربي، وفي هذا الكتاب نجد أربع عشر صفحة تسجل جهود د. عادل غنيم في هذا المكتب، ما بين عام ١٩٧٩م وحتى عام ١٩٩٢م وهو المدى الزمني الذي يؤرخ فيه الكتاب لمكتب التطوير. وقد استمر د. عادل غنيم أستاذًا بالجامعة بعد ذلك، حتى أصبح رئيسًا لقسم التاريخ بها، وفي صيف ١٩٩٧م عاد إلى مصر بعد أن قدم استقالته من العمل بجامعة قطر، وحظي من الجامعة بتكريم واعتراف بفضله وجهوده في الإنشاء والتطوير والتدريس بها. (انظر رقم ٦٤ بالقائمة).

وفي مقالين للصحفي المصري الأستاذ أحمد الجمال في عموده اليومي بصحيفة الشرق القطرية، تحدث الجمال عن د. عادل غنيم، وفي اليوم الأول ١٩٩٤/٧/٣م تناول بعض ذكرياته مع د. عادل غنيم عندما كان مديرًا لمكتب رئيس الجامعة وكان الجمال موظفًا بالجامعة، وتعرض الجمال مثل كثير من شباب عصره للاعتقال بسبب اتجاهاته السياسية التقدمية، وكانت أجهزة معنية

تحرص على حرمان المعتقل من مرتبه ولا يجرؤ أحد على استلام المرتب وتوصيله لأهله، ولكن د. عادل غنيم تحدى تعليمات وتهديدات رئيس أمن الجامعة حينذاك وظل يتسلم مرتب الجمال ويوصله إلى أسرته التي كانت بحاجة إليه، وكان ذلك يعد تحديًا جريئًا لبطش أجهزة الأمن حينذاك. وكان ذلك المقال مثارًا للمقارنة بين هدوء ودماثة د. عادل غنيم، وبين صلابته وعناده في الحق. (انظر رقم ٦٥ بالقائمة).

وفي العمود الثاني بتاريخ ١٩٧٤/٧/٤م بنفس الصحيفة، تحدث الجمال عن الدراسة التي قام بها د. عادل غنيم عن هرتسل في تقديمه لكتاب الدولة اليهودية الذي قام بترجمته الأستاذ المفكر العالم محمد يوسف عدس، وهو صديق للدكتور عادل غنيم وزميل دراسة، ومن مجموعة المنصورة المبدعة في العلم والأدب والفن. كما أنه أستاذ لكاتب هذه السطور ومعلم ورائد لأجيال من أبناء الفلاحين في دلتا مصر، قبل أن يتفرغ للعمل في خارج مصر، وفي استراليا ثم اليونسكو، وأدعو الله أن تتاح لي الفرصة للوفاء للأستاذ محمد يوسف عدس بجزء من فضله وأستاذيته بالكتابة عن إنتاجه الفكري الرائع. (انظر رقم ٦٦ بالقائمة).

وفي كتاب للأستاذ فتحي متولي الصحفي المبدع بالجمهورية، عن خمس وخمسين شخصية مصرية مبدعة، خصص الكاتب قسمًا للحديث عن د. عادل غنيم محامي القضية الفلسطينية، وكان هذا الاختيار موفقًا من الصحفي فتحي متولي، وهو يتميز بحاسة صادقة لكتابة التراجم المعاصرة لكثير من أعلام عصرنا ونادرًا ما نلتفت إليه في زمن الزحام واختفاء القمم الشامخة وراء سحابة الدخان والضباب التي نتمنى أن تنقشع عن العقل المصري لكي يستفيق إلى القيم الرائعة والعلماء المبدعين في هذا الوطن. (انظر رقم ٦٧ بالقائمة).

القسم الثالث

التحليل البيليومتري

للإنتاج الفكري للأستاذ الدكتور عادل غنيم

(الجداول والنتائج)

جدول (١) التوزيع الزمني للمؤلفات من ١٩٦٠ – ٢٠٠٤م.

جدول (٢) التوزيع الموضوعي الإجمالي للمؤلفات.

جدول (٣) تحليل موضوعات القضية الفلسطينية في المؤلفات.

جدول (٤) تحليل موضوعات التأليف الأخرى.

جدول (٥) أماكن النشر لمؤلفات أ.د. عادل غنيم.

جدول (٦) فئات الناشرين للكتب والمقالات.

جدول (٧) الأشكال الوعائية للنشر.

(جدول ١)

التوزيع الزمني لمؤلفات أ.د. عادل غنيم

نوع الوعاء	٦٠	٦٢	٧٠	٧٢	٧٣	٧٤	٧٥	٧٦	٧٨	٧٩	٨٠	٨١	٨٢	٨٤	٨٥	٨٦	٨٧	٨٩	٩١	٩٣	٩٤	٩٥	٩٦	٩٨	٢٠٠٠	٢٠٠١	٢٠٠٢	٢٠٠٣	٢٠٠٤	مجموع
كتاب مستقل																														١٢
كتاب تأليف مشترك																														٥
مقالة أو بحث (في دورية أو ندوة).																														٤٢
مقدمات كتب																														٤
مجموع	١	١	١	١	١	٢	١	١	٣	١	٣	٣	١	١	١	٢	٣	٣	١	١	٢	١	٢	١	٣	٤	٢	١٠	٥	٦٣
كتب ومقالات ودراسات عن أ.د. عادل غنيم																														٥

تحليل لمعطيات جدول (١) بالتوزيع الزمني لمؤلفات أ.د. عادل غنيم :

- يمتد المجال الزمني للتأليف من عام ١٩٦٠م وحتى ٢٠٠٤م (تاريخ كتابة هذا البحث.
- ويبلغ هذا المجال الزمني ٤٤ سنة.
- كانت بداية التأليف عام ١٩٦٠ (بكتاب عن العراق).
- استمر بالتأليف في شكل كتب حتى عام ١٩٧٠م.
- وحتى هذا التاريخ بلغ عدد الكتب ثلاثة، منها رسالة الماجستير.
- بدأ تأليف المقالات عام ١٩٧٢م (بمقالة عن القضية الفلسطينية).
- أكثر السنوات إنتاجًا هو عام ٢٠٠٣م حيث شهد عشرة أعمال وهي : كتاب واحد + ٥ مقالات + ٤ مقدمات للكتب).
- وهناك أعوام بدون تأليف وهي : (١٩٦١م)، (٦٣-١٩٦٩م)، (١٩٧١)، (١٩٧٧)، (١٩٨٣)، (١٩٨٨)، (١٩٩٠)، (١٩٩٢)، (١٩٩٧)، (١٩٩٩).
- بلغ مجمع السنوات التي لم تظهر فيها مؤلفات (١٦ سنة).
- ويلاحظ أن فترة التوقف من (١٩٦٣ – ١٩٦٩) كانت هي فترة التفرغ لإعداد رسالة الماجستير التي نوقشت عام ١٩٧٠م.
- بلغ مجموع سنوات التأليف الفعلي ٢٨ سنة (داخل الإطار الزمني من ١٩٦٠-٢٠٠٤م) (أي ٤٤/٢٨ = ٦٣,٦٣% من الإطار الزمني).
- ويمكن أن تعتبر سنوات التوقف التي يتبعها استمرار في نشاط التأليف مراحل للتخمير والتجهيز، ومن المهم البحث عن تحولات قد تكون حدثت في النوعية أو الموضوعات أو الشكل في التأليف التالي.
- بلغ إجمالي الكتب المستقلة في التأليف ١٢ كتابًا، وإجمالي الكتب المشتركة (٥) كتب، وإجمالي المقالات (٤٢) مقالة، وإجمالي مقدمات الكتب (٤).
- بلغ إجمالي الأعمال كلها ٦٣ عملاً من تأليف أ.د. عادل غنيم.
- بلغت الكتابات عن أ.د. عادل غنيم (٤ مقالات + كتاب تذكاري)=٥ أع ال.

(جدول ٢)

التوزيع الموضوعي الإجمالي لمؤلفات أ.د. عادل غنيم

التوزيع الموضوعي	كتب مستقلة	كتب مشتركة	مقالات وبحوث	مجموع	ملاحظات
القضية الفلسطينية	١٠ (تشمل الماجستير والدكتوراه) (في شكل رسائل ثم في شكل كتاب منشور لكل منهما)	-	٤٠	٥٠	لا يوجد تأليف مشترك في موضوع القضية الفلسطينية
التاريخ العربي المعاصر	١	٢	١	٤	التأليف المشترك كتابان
مناهج البحث	-	٢	١	٣	التأليف المشترك كتابان
تاريخ الهند الحديث	١	١	-	٢	التأليف المشترك كتاب واحد
موضوعات متفرقة	-	-	٤	٤	-
الإجمالي	١٢ (١٩%)	٥ (٨%)	٤٦ (٧٣%)	٦٣	
كتابات عن أ.د. عادل غنيم	كتاب واحد (تكراري)	-	٤	٥	

تحليل لمعطيات جدول (٢) :

- تحتل القضية الفلسطينية أعلى نسبة في تأليف أ.د. عادل غنيم، فقد بلغ مجموع هذه الأعمال ٥٠ عملاً بين كتب ومقالات، بنسبة ٧٩,٤% وتشمل هذه الأعمال رسالتي الماجستير والدكتوراه، سواء في شكل رسالة أو شكل كتاب منشور.
- لا يوجد في موضوع القضية الفلسطينية أي مؤلفات مشتركة مع آخرين.
- يحتل موضوع التاريخ العربي الحديث المرتبة الثانية، وبلغ مجموع الأعمال (٤) بنسبة ٦,٣%. ومن بينها كتاب واحد تأليف مستقل، وكتابان تأليف مشترك، ومقالة واحدة، ويلاحظ أن هناك مقالة أخرى في نفس الموضوع مشتركة مع موضوع آخر، وهو القضية الفلسطينية، ولذلك لم يتم حسابها ضمن الجدول.

- ويحتل موضوع مناهج البحث واستخدام المصادر المرتبة الثالثة، ويبلغ مجموع المؤلفات فيه ٣ أعمال، منها كتابان تأليف مشترك، (وهناك مقالة في نفس الموضوع لم تحتسب في العدد لأنها وردت في موضوع آخر مشترك وهو القضية الفلسطينية).
- تشمل الموضوعات المتفرقة ٤ أعمال، وتاريخ الهند الحديث عملين، وهما كتاب تأليف مستقل، وكتاب تأليف مشترك.

(جدول ٣)

تحليل موضوعات القضية الفلسطينية (كما عالجها أ.د. عادل غنيم)

(المعالجة الأساسية والمعالجات المرتبطة لموضوعين أو أكثر)

	الموضوع الفرعي	تكرار	%
١	القضية الفلسطينية (البعد الإقليمي والدولي) ////	٣٠	٣٣,٥%
١/١	مصر والقضية ٥		
٢/١	حزب الوفد المصري والقضية ٤		
٣/١	حرب أكتوبر ١٩٧٣ والقضية ١		
٤/١	الفكر القومي والقضية ١		
٥/١	الأمة العربية والقضية ١		
٦/١	الجامعة العربية والقضية ١		
٧/١	الخليج العربي والقضية ١		
٨/١	العراق والقضية ١		
٩/١	إيران والقضية ١		
١٠/١	السعودية والقضية ١		
١١/١	لبنان والقضية ١		
١٢/١	الصحافة القطرية والقضية ١		
١٣/١	بريطانيا والقضية ١		
١٤/١	الأمم المتحدة والقضية ١		
١٥/١	مواقف دولية من القضية ١		

	الموضوع الفرعي	تكرار	%
٢	المقاومة الفلسطينية (الحركات السياسية والعسكرية الفلسطينية لحماية فلسطين وأبعاد الصراع العربي الإسرائيلي)	٢٩	%٣٣
١/٢	تاريخ عام //// ØØ (ماجستير ودكتوراه وكتابان)		
٢/٢	شخصيات فلسطينية :		
٣/٢	محمد أمين الحسيني مفتي فلسطين /		
٤/٢	عز الدين القسام //		
٥/٢	محمد عزة دروزة /		
٦/٢	المقاومة الفلسطينية // ØØ		
٧/٢	الفرق بين الإرهاب والمقاومة Ø		
٨/٢	انتفاضة البراق ١٩٢٩ / Ø		
٩/٢	ثورة ١٩٣٦ /		
١٠/٢	انتفاضة ٢٠٠٠ /		
١١/٢	حركة حماس /		
١٢/٢	الجهاد وحرب ١٩٤٨ //// Ø		
١٣/٢	جيش الإنقاذ Ø		
١٤/٢	الجيوش العربية في حرب ١٩٤٨ Ø		
١٥/٢	الحركات الإسلامية وفلسطين //		

	الموضوع الفرعي	تكرار	%
٣	القدس Ø //	٦	%٧
١/٣	حائط البراق (هيكل سليمان / حائط المبكى) /		
٢/٣	عصبة الأمم والأمم المتحدة والقدس Ø /		
٤	المجتمع الفلسطيني (عام) /	٩	%٩,٥
١/٤	اللاجئون /		
٢/٤	اللاجئون في لبنان /		
٣/٤	المرأة الفلسطينية /		

٤/٤	الأحزاب الفلسطينية //		
٥/٤	الشعر في فلسطين /		
٦/٤	نظرة الفلسطينيين العرب إلى اليهود والصهيونية /		
٥	مراحل تكوين ودعم إسرائيل	١٥	%١٧
١/٥	نابليون والمشروع اليهودي في القرن ١٨ /		
٢/٥	هرتسل وكتاب الدولة اليهودية ق١٩ /		
٣/٥	تاريخ الصهيونية /		
٤/٥	وعد بلفور /		
٥/٥	الدولة اليهودية /		
٦/٥	تقسيم فلسطين ١٩٤٧ / Ø		
٧/٥	موقف من التقسيم ØØ		
٨/٥	الدول العربية والتقسيم Ø		
٩/٥	الأمم المتحدة والتقسيم Ø Ø		
١٠/٥	بريطانيا والتقسيم Ø		
١١/٥	أمريكا وإسرائيل Ø		
١٢/٥	وعد جورج بوش لشارون ٢٠٠٤ Ø		
	المجمـــــــوع ٨٩		

تحليل لمعطيات جدول (٣) :

- قبل أن أكتب ملاحظاتي أنبه إلى ضرورة قراءة جدول ٣ بإمعان لأنه شديد الخصوبة والعطاء في شكله الجدولي.
- وأول ما نلاحظه في كتابات أ.د. عادل غنيم عن القضية الفلسطينية هو تعدد الارتباطات والعلاقات البينية بين فروع معرفية كثيرة وهو ما يسمى Interdiscip Linarity، ولذلك فإن خمسين عملاً من الأعمال حول القضية الفلسطينية قد أمكن في جدول (٣) تحليلها إلى ٨٩ عنصرًا أو موضوعًا فرعيًا، لأن الموضوع ورد في معالجة تربط بين أكثر من موضوع، ولذلك فهو يحسب أكثر من مرة، ويبلغ اتساع الدوائر في المعالجة والربط بين

الموضوعات نسبة ١٨٠%، (وهذه النسبة هي مقياس من صنع كاتب هذه السطور وعلى مسئوليته).

- ويدل ذلك على ثراء المعالجة للموضوع، والقدرة على ربط القضية موضع الدراسة بمتغيرات ومجالات ذات علاقة بشكل حيوي ورؤية بانورامية إلى جانب التقيد بالمنهج العلمي في نفس الوقت.
- ويكفي كنموذج لذلك أن أحيل إلى جدول (٣) في العناصر التالية :

١/٣، ١/١٢، ٢/٧، ٢/١٤، ٣/١، ٤/٣، ٤/٤، ٤/٦، ٥/١، ٥/٢، ٥/٧، ٥/١١، ٥/١٢.

- ونلاحظ من جدول (٣) أيضًا أن موضوع القضية الفلسطينية كمشكلة إقليمية ودولية يحتل أعلى نسبة في المعالجة، وقد بلغت ٣٣,٥%.
- وفي المرتبة الثانية ترد " المقاومة الفلسطينية " بنسبة ٣٣%، وهي تشمل الجهود السياسية والعسكرية للشعب الفلسطيني والشعوب العربية وحكوماتها أحيانًا، للدفاع عن فلسطين.
- وفي المرتبة الثالثة، نجد نسبة ١٧% لموضوع " مراحل تكوين إسرائيل " ودعمها من جانب القوى الاستعمارية التي بدأت ببريطانيا وانتهت بالولايات المتحدة الأمريكية.
- وفي المرتبة الرابعة يحتل المجتمع الفلسطيني بعناصره الثقافية والسكانية والسياسية والاجتماعية نسبة ٩% من المعالجة.
- وفي المرتبة الخامسة نجد موضوع القدس وذلك بنسبة ٧%.

(جدول ٤)

تحليل موضوعات التأليف الأخرى (بخلاف القضية الفلسطينية)

معالجات أساسية للموضوع، ومعالجات مشتركة ومختلطة بموضوعات أخرى

الموضوع الأصلي وفروعه	تكرار	إجمالي فرعي	إجمالي الأساسي والمشترك
التاريخ العربي الحديث : - العثمانيون. - العراق. - قطر (تاريخ + المرأة القطرية). - لبنان (الأزمة) - الخليج العربي عموما (استراتيجية) - السعودية - إيران	 ١ ١+١ مشترك ٢+١ مشترك ٢ ١ ١ (مشترك) ١ (مشترك)		
		٧ أساسي ٤ مشترك	١١
مناهج البحث والمصادر : - منهج البحث التاريخي (بالاشتراك) - مصادر التاريخ : الشعر كمصدر للتاريخ + توظيف المصادر - مناهج البحث (بالاشتراك)	 ١ ٢ ١		
			٤
تاريخ الهند الحديث : - الهند (بالاشتراك) - الدولة التيمورية	 ١ ١		
			٢
موضوعات أخرى متفرقة : - مقدمة عن الأستاذ محمد يوسف عدس - مقدمة لكتاب عن غرب أفريقيا - مقالة عن د. رأفت عبدالمجيد - مقالة عن د. محمد إبراهيم كاظم	 ١ ١ ١ ١		
			٤
مقالات عن أ.د. عادل غنيم كتاب عن أ.د. عادل غنيم	٤ ١		
			٥

جدول (٥)

أماكن النشر لمؤلفات أ.د. عادل غنيم

مكان النشر	مصر			قطر	لبنان	العراق	البحرين
الموضوع	القاهرة	إسكندرية	سوهاج (جامعة أسيوط)	الدوحة	بيروت	البصرة	المنامة
القضية الفلسطينية	٣٥	١	١	١٠	٢	١	-
مناهج البحث	١	١	-	-	-	-	١
تاريخ العالم العربي	١	-	-	٣	-	-	-
تاريخ الهند	٢	-	-	-	-	-	-
موضوعات أخرى	٣	-	-	١	-	-	-
مجموع فرعي	٤٢	٢	١	١٤	٢	١	١
الأجمالي	٤٥ = ٧١,٤%			١٤= ٢٢%	٢ = ٣,٢%	١ = ١,٦%	١ = ١,٦%
						=	٦٣

كتابات عن الدكتور عادل غنيم :

القاهرة	٢
الدوحة	٣
الإجمالي	٥

تحليل لمعطيات جدول (٥)

- يمثل النشر في مصر نسبة ٧١,٤%، وتبلغ نسبة القاهرة وحدها ٦٦,٧%، والإسكندرية ٣,٢%، وهناك عمل واحد يرتبط بسوهاج (تابع لجامعة أسيوط).
- تمثل الدوحة النسبة التالية وهي ٢٢,٢% في أماكن النشر بالنسبة لأعمال أ.د. عادل غنيم، نظرًا لأنه عمل أستاذًا بجامعة قطر لمدة تصل إلى ثمانية عشر عامًا، وكان لجامعة قطر نشاط خصب في نشر الدوريات العلمية والأعمال الشاملة لأبحاث في موضوع معين.
- وتحتل بيروت نسبة ٣,٢% نظرًا لنشر مقالتين في مجلة متخصصة في القضية الفلسطينية كانت تصدر في بيروت.
- وفي كل من البصرة ١,٦% والمنامة بالبحرين ١,٦%، نشر للمؤلف عمل واحد.
- وبصفة عامة، نلاحظ ازدواج النشر بين عاصمتين هما القاهرة والدوحة.
- ولكن الكتب المنفردة والمشتركة مع مؤلف واحد آخر تقتصر على النشر في القاهرة والإسكندرية.
- ونلاحظ من هذا الجدول مسألة قد تبدو حالة خاصة بمؤلفات أ.د. عادل غنيم، ولكنني أذكرها لأنني أعتقد بأنها تنطبق إلى حد كبير على إنتاج مؤلفين آخرين في ظروف مشابهة، ذلك أن الدكتور عادل غنيم بعد أن غادر الدوحة إلى القاهرة، لم يظهر له أي عمل (مقال أو كتاب) منشور في الدوحة، أو أي عاصمة عربية أخرى، واقتصر النشر بعد ذلك على القاهرة أساسًا، رغم أنه تعمق أثناء وجوده في قطر في اهتمامه بتاريخ قطر والتاريخ الاجتماعي للحياة القطرية والصحافة القطرية، كما نلاحظ في مؤلفاته (انظر القائمة رقم ٢٠، ٥٤، ٥٥، ٥٧)، ومن هنا يمكن أن أتساءل :

هل تنقطع صلة العالم الباحث مع العاصمة العربية (أيا كانت) من الناحية العلمية بعد مغادرته لها ؟

- أليس من الطبيعي والمنطقي أن نتساءل عن استمرارية الاتصال بين الباحث والعالم علميًا وإنسانيًا والعاصمة العربية والمؤسسات العلمية التي عاش فيها جزءًا من حياته ؟ خصوصًا إذا قارب ربع قرن من الزمان تكفي لاختمار الأفكار في عقل الباحث والعالم الزائر لهذه العاصمة .
- وهل تضحي العاصمة العربية (أيًا كانت) بخبرة العالم الذي أقام فيها ودرس ظواهرها الاجتماعية والتاريخية وأصبح خبيرًا بها مثل أبناء البلد الأصليين. وربما أكثر أحيانًا بحكم التخصص وتراكم الخبرة والزمن والنصوص والمراجع. وتتبدد هذه الخبرة العلمية والإنسانية بلا حساب ؟
- أي بمعنى آخر ألا توجد في الحياة الإنسانية والعلمية والعربية ظاهرة التراكم والتشجير والنمو الضرورية لتقدم العلم والمعرفة في كل زمان.
- وهل تعني المغادرة الجسدية للباحث والعالم لعاصمة عربية أو أخرى، مغادرة نهائية معنوية وعلمية واتصالية، مثل المغادرة النهائية التي تبصم في جواز السفر عند المغادرة بصراحة إدارية مطلقة ؟
- وهل هناك مسئولية على المؤسسات العلمية في هذه العواصم أن تستمر في علاقتها مع العلماء الذين عملوا بها وعلموا وبحثوا ونشروا باعتبارهم جزءًا من النسيج الوجداني الفكري العقلي لها، ومكسبًا لا يجوز التفريط فيه أو نسيانه، وكان عليها أن تتواصل مع الباحث بمؤتمراتها ودورياتها العلمية ومشروعاتها البحثية ؟
- وهل من مسئولية الباحث أن يسعى لكي تستمر علاقته العلمية والفكرية والبحثية والنشرية في هذه العاصمة أو معها أو عنها أو بواسطتها ... ؟
- لم يقتنع بأن جزءًا عزيزًا من حياته وخبرته وعلمه قد انقطع وأصبح مكانه البوم الصور وصندوق الذكريات.

- ولا أقول هذا بالنسبة لعاصمة عربية معينة، بل أقوله بالنسبة للعقل العربي عمومًا، بلا الأدهى من ذلك أن يعيش المرء في عاصمته الأصلية الأم غريبًا بعد عودته لأنه أصبح خارج النسيج وليس له سرب يغرد فيه ؟؟
- وهذه مجرد أفكار حول ظاهرة تدخل في سوسيولوجية العالم العربي، وميكانيزمات التواصل في العقل العربي بينه وبين نفسه، لأن العلماء العرب هم ثروة العرب في كل مكان وزمان .. ولا تقتصر هذه الملاحظة على تحليل إنتاج الدكتور عادل غنيم، بل أعتقد أنها تتكرر ـ كثيرًا ـ مع غيره من العلماء والباحثين في حركتهم بين العواصم العربية، التي يمكن تلخيصها في كلمتين : الإقامة والمغادرة.
- وهناك مسألة هامة يمكن ملاحظتها في تاريخ الأمة العربية والإسلامية في كل تاريخها الطويل، وهي أن العلماء كانوا هم همزة الوصل بين كل أصقاع وبلدان وعواصم وجامعات هذا الكيان الجغرافي الحضاري الهائل، ولن يعود ذلك التواصل بين العواصم العربية إلا عن طريق العلم والعلماء وطلاب العلم.

الكتابات عن د. عادل غنيم :

من النظرة الأولى يبدو هناك تعادل تقريبًا بين مكان النشر عن الدكتور عادل بين القاهرة والدوحة، ففي القاهرة ظهر عنه عملان، وفي الدوحة ثلاثة أعمال، وإن كان اثنان منهما مقالان صحفيان لصحفي مصري ولكن مكان النشر كان في صحيفة قطرية.

جدول (٦)

فئات الناشرين للكتب والمقالات

نوع الناشر	في مجال القضية الفلسطينية	في المجالات الأخرى	مجموع تفصيلي	إجمالي	%
ماجستير ودكتوراه	٢	-	٢	٢	٣%
مركز أبحاث	٢١	٤	٢٥	٤٤	٧٠%
كلية / جامعة	١٥	٤	١٩		
ناشر تجاري	٤	٤	٨	١١	١٧,٥%
ناشر حكومي	٢	١	٣		
مجلة / صحيفة	٥	-	٥	٦	٩,٥%
حزب سياسي	١	-	١		
مجموع	٥٠	١٣	٦٣	٦٣	١٠٠%

تحليل لمعطيات جدول (٦) :

- أعلى نسبة للناشرين الأكاديميين وتبلغ ٧٠% من فئات الناشرين، وهي تتكون من مركز الأبحاث بنسبة ٤٠%، والكليات والجامعات بنسبة ٣٠%.
- ويلي ذلك الناشرون بنسبة ١٧,٥%، وتتكون من ناشر تجاري بنسبة ١٢,٧%، وناشر حكومي بنسبة ٤,٨%.
- وهناك نسبة ٩,٥% للنشر في مجلة أو صحيفة عامة (بخلاف ما يصدر عن مؤسسات أكاديمية)، وما نشر عن طريق حزب الوفد وهو تقديم للدكتور عادل غنيم لأحد الكتب التي أصدرها الحزب عن موقف الوفد من القضية الفلسطينية.

جدول (٧)

الأشكال الوعائية للنشر (في مؤلفات أ.د. عادل غنيم)

م	الشكل الوعائي	في موضوع القضية الفلسطينية	في الموضوعات الأخرى	مجموع	% فرعية	% إجمالية
١	ماجستير ودكتوراه	٢	-	٢	٣%	
٢	كتاب مستقل	٧	٢	٩	١٤,٢%	١٩,٥%
٣	تأليف مشارك في كتاب مع مؤلف آخر	-	٣	٣	٥%	
٤	مقالة منشورة في دورية / مجلة	٢٦	-	٢٦	٤١,٢%	٧٧,٨%
٥	بحث في مؤتمر أو ندوة	٧	٢	٩	١٤,٢%	
٦	جزء من كتاب لعدة مؤلفين (أكثر من اثنين)	٦	٤	١٠	١٦%	
٧	تقديم لكتاب (لمؤلف آخر)	٢	٢	٤	٦,٤%	
	مجموع	٥٠ =(٧٩,٤%)	١٣ =(٢٠,٦%)	٦٣	١٠٠%	

تحليل لمعطيات جدول (٧) :

- شمل التأليف سبعة أنواع من الأشكال الوعائية وهي المذكورة في الجدول.
- هناك نسبة ٧٧,٨% من النشر في شكل وعاء زائر (مقالة) نشرت في وعاء مصنف (مجلة علمية / كتاب تأليف جماعي / تقديم لكتاب)، ويمكن تفصيل هذه النسبة كما يلي :

- ٤١,٢% من النشر في شكل مقالات في دوريات علمية.
- ١٤,٢% بحث ألقى في ندوة أو مؤتمر.

- ١٦,٢% جزء من كتاب لعدة مؤلفين (أكثر من اثنين)، وهذا النوع من التأليف هو نوع من المقالات أو الأبحاث المنشورة مع أعمال لمؤلفين آخرين.
- ٦,٤% تقديم لكتاب (وهذا أيضًا نوع من المقالات تنشر مصاحبة لكتاب لمؤلف أخر)

- والمرتبة الثانية للنشر في شكل كتاب، وتصل إلى ١٩,٢%، وتنقسم إلى نوعين :

- ١٤,٢% نسبة النشر في كتاب مستقل للمؤلف نفسه.
- ٥% نسبة النشر في كتاب مشترك مع مؤلف واحد آخر.

- نسبة ٣% تمثل رسالتي الماجستير والدكتوراه في شكلهما الأصلي كرسائل جامعية قبل نشرهما في كتاب.

القسم الرابع
قائمة ببليوجرافية بالإنتاج الفكري
للأستاذ الدكتور عادل غنيم

- (مرتبة حسبت الموضوعات، وداخل كل موضوع رتبت المؤلفات ترتيبًا زمنيًا).
- التقسيم الموضوعي للإنتاج الفكري بهذه القائمة هو كما يلي :

أولاً : القضية الفلسطينية (من رقم ١ إلى ٥٠)

ثانياً : مناهج البحث والمصادر (من رقم ٥٠أ إلى٥٣)

ثالثاً : التاريخ العربي الحديث ويشمل :

(الدولة العثمانية - الخليج العربي - العراق - قطر - لبنان)

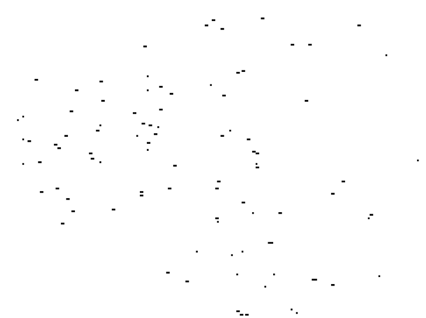
(من رقم ٥٤ إلى ٥٧)

رابعاً : تاريخ الهند الحديث والدولة التيمورية (من رقم ٥٨ إلى ٥٩)

خامساً : موضوعات متفرقة :

(مقدمات - كتب - ومقالات) (من رقم ٦٠ إلى ٦٣)

سادسًا: مقالات عن أ.د. عادل غنيم (من رقم ٦٤ إلى ٦٨)



أولاً : القضية الفلسطينية (كتب ومقالات مرتبة زمنيًا) :

١- **" قضية اللاجئين "**، القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٢م .- ١٠٤ص (أول عمل للمؤلف في القضية الفلسطينية وثاني عمل له في التأليف).

٢- **" الحركة الوطنية الفلسطينية من ١٩١٧ حتى ١٩٣٦م "** .- رسالة ماجستير، قسم التاريخ .- كلية الآداب .- جامعة القاهرة، ١٩٧٠م .- بإشراف أ.د محمد أنيس (بتقدير ممتاز).

٣- [نفس العنوان، منشور، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤م .- ٣٣٧ص].

٤- **" ثورة عز الدين القسام "** .- (مجلة شئون فلسطينية .- بيروت، مركز الأبحاث بمنظمة التحرير الفلسطينية، العدد السادس، كانون الثاني (يناير) ١٩٧٢م .- ص ص ١٨١-١٩٢).

- (في العدد السابع من المجلة تعليق على هذه المقالة).

٥- **" الحزب الوطني أول حزب سياسي عربي في فلسطين "** .- (المجلة المصرية للدراسات التاريخية، مج ٢٠، ١٩٧٣م .- ص ص٢٦٧-٢٨٤).

٦- **" المؤتمر الإسلامي العام (١٩٣١) "** .- (مجلة شئون فلسطينية .- بيروت، مركز الأبحاث بمنظمة التحرير الفلسطينية، ع ٢٥، سبتمبر ١٩٧٣م .- ص ص١١٩-١٣٥).

- انظر في هذا السياق التاريخي (عام ١٩٧٤م) رسالة الماجستير المنشورة، وذلك في رقم ٣ بالقائمة).

٧- **" موقف عرب فلسطين من اليهود والصهيونية من الحرب العالمية الأولى حتى عام ١٩٢٩ "** .- (مجلة مركز بحوث الشرق الأوسط بجامعة عين شمس ١٩٧٤م) .- ص ص٢١٣-٢٣٢.

٨- **" الأحزاب الزراعية في فلسطين في السنوات الأولى من الانتداب البريطاني "** ـ (المجلة المصرية للدراسات التاريخية، مج ٢٢، القاهرة، ١٩٧٥م ـ ص ص٣٢٧-٣٣٩).

٩- **" الحركة الوطنية الفلسطينية من ثورة ١٩٣٦م حتى بداية الحرب العالمية الثانية "** ـ رسالة دكتوراه، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٧٦م ـ إشراف أ.د. محمد أنيس (بمرتبة الشرف الأولى).

١٠- [نفس العنوان]، منشور، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٨٠م ـ ٤٧٩ص.

١١- **" حرب أكتوبر والقضية الفلسطينية "** ـ بحث قدم إلى الندوة التي أقامتها جامعة عين شمس في الفترة من ٢٣/٢٢ أكتوبر ١٩٧٧م، بحوث ودراسات الندوة، القاهرة، ١٩٧٨م ـ ص ص٢٠٩-٢٢٥).

١٢- **" عن مفتي فلسطين بعد وصوله إلى مصر "** ـ (مجلة الشرق الأوسط، القاهرة، مركز بحوث الشرق الأوسط بجامعة عين شمس، العدد الخامس، ١٩٧٨م ـ ص ص١٩١-٢٣١).

١٣- **" الوجود الفلسطيني في لبنان والأزمة اللبنانية "** ـ (بحث ضمن دراسات عن الأزمة اللبنانية ـ القاهرة، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧٨م ـ ص ص٩١-١٤٢).

١٤- **وثائق العدد السادس من مجلة الشرق الأوسط**، القاهرة، (مركز بحوث الشرق الأوسط بجامعة عين شمس، ١٩٧٩ ـ ص ص٣٣-٤٩).

(يشمل المقال أربع وثائق حول الموقف المصري والبريطاني الرسمي في المرحلة التالية لمشروع تقسيم فلسطين الذي أصدرته الأمم المتحدة في ١٩٤٧/١١/٢٩م).

- (انظر في هذا السياق التاريخي (عام ١٩٨٠م) رسالة الدكتوراه المنشورة، وذلك في رقم ١٠ بالقائمة)

١٥- " **القوى الاجتماعية في فلسطين فيما بين الحربين العالميتين** ".- القاهرة، (مركز بحوث الشرق الأوسط بجامعة عين شمس، ١٩٨٠م، ١٥٥ص).

١٦- " **حركة التحرر الفلسطيني والفكر القومي العربي** " .- (بحث منشور بالعدد الثالث من حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية بجامعة قطر، الدوحة، ١٩٨١م، ص ص٦٧-١٠٨).

١٧- " **مستقبل الخليج العربي والقضية الفلسطينية** " .- (بحث ألقى بالندوة العلمية العالمية الرابعة لمركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة ٢٩-٣٠ آذار ١٩٨١م، البحث رقم ٣١ .- ١٣ص).

١٨- " **الولايات المتحدة والقضية الفلسطينية خلال الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩-١٩٤٥م** ".- (بحث منشور بالعدد الرابع من حوليات كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية بجامعة قطر، الدوحة، ١٩٨١م .- ص ص١٠٩-١٣٨).

١٩- " **القضية الفلسطينية : دراسات معاصرة لبعض جوانبها** " .- القاهرة، دار الكتاب الجامعي، ١٩٨٢م .- ٢٠٣ص. (يتضمن هذا الكتاب خمسة بحوث منشورة في شكل مقالات وردت ضمن هذه القائمة).

٢٠- " **القضية الفلسطينية في الصحافة القطرية** " .- في (الفصل الرابع من كتاب : الصحافة القطرية والقضايا العربية .- الدوحة، مركز الوثائق والدراسات الإنسانية، جامعة قطر .- ١٩٨٤م .- ص ص١١٧-١٥٨).

٢١- " **الصحافة العربية الفلسطينية ومواقفها من القضية (١٩٠٨-١٩٣٦م)** " .- (حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، جامعة قطر، الدوحة، العدد الثامن، ١٩٨٥م .- ص ص٣٢١-٣٥١).

٢٢- " **أهمية الشعر في دراسة التاريخ الفلسطيني المعاصر** " .- (حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، جامعة قطر، الدوحة، العدد التاسع، ١٩٨٦م .- ص ص٤٣٣-٤٥٨).

٢٣- " ردود الفعل العربية الرسمية في أعقاب توصية الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين في ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧م " ـ (بحث نشر بحولية كلية الآداب بسوهاج، جامعة أسيوط، العدد الخامس، ١٩٨٦م ـ ٦١ص).

٢٤- "الدبلوماسية المصرية وقضية فلسطين١٩٤٧-١٩٤٨: دراسة وثائقية" ـ القاهرة، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٧م ـ ١٤٣ص.

٢٥- " محمد عزة دروزة وحركة النضال الفلسطيني "ـ القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٨٧م ـ ١٥٢ص.

٢٦- " من جهود مصر الدبلوماسية في عامي ١٩٤٧م، ١٩٤٨م، من أجل قضية فلسطين، على ضوء وثائق وزارة الخارجية المصرية " ـ (حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، جامعة قطر، الدوحة، العدد العاشر، ١٩٨٧م ـ ص ص٢٩٩-٣٢٠).

٢٧- "حقيقة الاستعدادات العربية قبل الحرب العربية الإسرائيلية عام ١٩٤٨م" ـ (مجلة مركز الوثائق والدراسات الإنسانية، جامعة قطر، العدد الخامس، ١٩٩٣م ـ ص ص١٣-٢٩).

٢٨- " دراسة وتقديم في كتاب " ـ (ثيورد هرتسل : الدولة اليهودية، ترجمة محمد يوسف عدس ـ القاهرة، دار الزهراء للنشر، ١٩٩٤م، ص ص٣-٢١.

٢٩- " الحركات الجهادية في حرب ١٩٤٨م "ـ (ندوة في كلية الإنسانيات، جامعة قطر، ١٦/٥/١٩٩٥م).

٣٠- " ستون عاماً على الثورة الفلسطينية في إبريل ١٩٣٦م : الثورة أخرت قيام الدولة اليهودية عشر سنوات " ـ (صحيفة الراية القطرية، إبريل ١٩٩٦م).

٣١- " نابليون بونابرت واليهود والوثائق التاريخية " .- تعليقًا على ما كتب حول الكتاب الجديد للأستاذ هيكل : المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل، (صحيفة الراية القطرية، إبريل ١٩٩٦م).

٣٢- " المرأة الفلسطينية المعاصرة وبدايات النشاط الاجتماعي والوطني (١٩١٨-١٩٣٥م ".- (ضمن مجلد فلسطين في ضوء أوراق البردي والنقوش، القاهرة، مركز الدراسات البردية والنقوش بجامعة عين شمس، ٢٠٠٠م .- ص ص٥٤١-٥٥٠).

٣٣- " تقديم لكتاب ": (الوفد والقضية الفلسطينية، تأليف أحمد حامد السيد، القاهرة، حزب الوفد، ٢٠٠١م .- ص ص٥-٧).

٣٤- " جيش الإنقاذ " .- (بحث نشر ضمن مجلد أصدره مركز تاريخ مصر المعاصر، ٢٠٠١م، بمناسبة مرور أكثر من خمسين عامًا على حرب فلسطين، ص ص١٤٣-١٩٦).

٣٥- " حائط البراق أم حائط المبكى " .- القاهرة، مركز بحوث الشرق الأوسط بجامعة عين شمس، ٢٠٠١م .- ١١٥ص.

٣٦- " ما الذي تنتظره القدس من الأمة ؟ " .- صحيفة الأهرام، ٢٠٠١م.

٣٧- " موقع انتفاضة الأقصى ٢٠٠٠ من النضال الفلسطيني " .- (محاضرة ضمن الموسم الثقافي لدار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠١م، ٣٤ ص)، تحت الطبع.

٣٨- " القدس في وثائق عصبة الأمم والأمم المتحدة " .- (مجلة شئون الشرق الأوسط، مركز بحوث الشرق الأوسط بجامعة عين شمس، العدد الثالث، يوليو ٢٠٠٢م، ص١٤٤).

٣٩- " مصر والقضية الفلسطينية من الحرب العالمية الأولى إلى حرب ١٩٤٨م".- (مجلة شئون الشرق الأوسط، مركز بحوث الشرق الأوسط، بجامعة عين شمس، العدد الأول، يناير ٢٠٠٢م، ص ص٧٦-٩٥).

٣٩ أ - محمد أمين الحسيني ١٨٩٥-١٩٧٤"ـ (مجلة شئون الشرق الأوسط، يناير ٢٠٠٣م).

٤٠ - " الأصول التاريخية للحركة الصهيونية " ـ (دراسة ضمن الكتاب التذكاري لتكريم الأستاذ الدكتور يونان لبيب رزق، أستاذ التاريخ الحديث بكلية الآداب، جامعة عين شمس، ٢٠٠٣م ـ ٣٠ص).

٤١ - " الثوابت والمتغيرات في النضال الفلسطيني حتى عام ١٩٤٨م " ـ (دراسة ضمن الكتاب التذكاري لتكريم الأستاذ الدكتور عمر عبدالعزيز، أستاذ التاريخ الحديث بجامعة الإسكندرية، ٢٠٠٣م ـ ١١ صفحة).

٤٢ - " الجامعة العربية والقضايا العربية خلال القرن العشرين " ـ (مجلة شئون الشرق الأوسط، مركز بحوث الشرق الأوسط بجامعة عين شمس، العدد السابع، يوليو ٢٠٠٣م ـ ص ص٢٠٥-٢١١).

٤٣ - " حركة الشيخ عز الدين القسام "ـ (بحث ضمن ندوة : الثورة والتغير في الوطن العربي عبر العصور، أقامتها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية في الفترة من ٢٢-٢٤ إبريل ٢٠٠٣م، ص١٩)، تحت الطبع.

٤٤ - " المجلس الإسلامي الأعلى في فلسطين ودوره الوطني والاجتماعي فيما بين الحربين العالميتين "ـ (بحث قدم إلى المؤتمر السنوي للجمعية المصرية للدراسات التاريخية الذي عقد من ٢٨ إلى ٣٠ إبريل ٢٠٠١م، وموضوعه " الدين والدولة في العالم العربي توافق أم صراع "، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م، مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، كلية الآداب، جامعة القاهرة ـ ص ص٢٧١-٢٨٤).

٤٥ - " المقاومة الوطنية والإرهاب على ضوء النموذج الفلسطيني "ـ (محاضرة ضمن الموسم الثقافي للجنة التاريخ بالمجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٣م، ص١-٢٧)، تحت الطبع.

٤٦- " حماس : القصة الكاملة ".- (مجلة الهلال .- مايو ٢٠٠٤م .- ص ص٦٨-٧٥).
٤٧- " المقاومة الفلسطينية وحقوق الإنسان ".- (بحث ضمن ندوة أقامها المجلس الأعلى للثقافة عام ٢٠٠٢م.- مجلة شئون الشرق الأوسط، مركز بحوث الشرق الأوسط، جامعة عين شمس، العدد التاسع، يناير ٢٠٠٤م .- ص ص٦٩-٧٢).
٤٨- " فلسطين في مجلس الوزراء المصري من ١٩٢٢ حتى انتفاضة البراق ١٩٢٩ ".- (مجلة مركز تاريخ مصر المعاصر، العدد الثالث، يناير ٢٠٠٤م، الحلقة الأولى، ص ص٢٢-٢٩).
٤٩- " هل هو وعد بلفور جديد ؟ ".- (صحيفة الأهرام، ٢٠٠٤/٥/٩م.- ص١٢).
٥٠- " فلسطين في مجلس الوزراء المصري من ١٩٢٩ حتى ١٩٣٩ ".- الحلقة الثانية، تحت النشر.

ثانيًا : مناهج البحث والمصادر : " كتب ومقالات مرتبة زمنيًا " :

٥٠ أ- أهمية الشعر في دراسة التاريخ الفلسطيني المعاصر " .- (حولية كلية الانسانيات والعلوم الاجتماعية بجامعة قطر، الدوحة، ١٩٨٦م .- ص ص٤٣٣-٤٥٨). (ذكر هذا المقال في رقم ٢٢ بالقائمة).
٥١- " في منهج البحث التاريخي ".- بالاشتراك مع الدكتور جمال حجر .- الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٩م .- ٢٤٨ص.
٥٢- " إشكالية توظيف المصادر لكتابة التاريخ العربي الحديث والمعاصر مع التركيز على النموذج المصري ".- (بحث ضمن ندوة في كلية الآداب بجامعة البحرين من ٩-١١ إبريل ١٩٩٤م .- ١٢ص.
٥٣- " مدخل إلى مناهج وطرق البحث ".- بالاشتراك مع كمال عرفات نبهان .- القاهرة، كلية الآداب بجامعة عين شمس، ٢٠٠٠م .- ١٤٨ص.

ثالثًا : التاريخ العربي الحديث : ويشمل : الدولة العثمانية، الخليج العربي، العراق، قطر، لبنان، (كتب ومقالات مرتبة زمنيًا) :

٥٤- **" تطور الحركة الوطنية في العراق "** ـ القاهرة، الدار القومي للطباعة والنشر، ١٩٦٠م ـ ٤٦ص. (أول كتاب نشر للمؤلف).

٥٤ أ- **" الوجود الفلسطيني في لبنان والأزمة اللبنانية "** ـ (بحث ضمن دراسات عن : الأزمة اللبنانية ـ القاهرة، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧٨م ـ ص ص٩١-١٤٢). (ذكر في رقم ١٣ بالقائمة).

٥٤ ب- **" مستقبل الخليج العربي والقضية الفلسطينية "** ـ (بحث ضمن الندوة العلمية العالمية الرابعة لمركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة، من ٢٩-٣٠ مارس ١٩٨١م ـ بحث رقم ٣١ ـ ١٣ص).

٥٥- **" التاريخ الاجتماعي للمرأة القطرية المعاصرة "** ـ بالاشتراك، الدوحة، مركز الوثائق والدراسات الانسانية بجامعة قطر، ١٩٨٩م، (فصول متعددة).

٥٦- **" تاريخ العرب الحديث "** ـ بالاشتراك، الدوحة، كلية الانسانيات والعلوم الاجتماعية بجامعة قطر، ١٩٨٩م، ص ص٧-٣٤.

٥٧- **" ملامح التغير في السياسة القطرية في مرحلة ما قبل الحرب العالمية الأولى ١٨٦٦-١٩١٣ "** ـ (بحث ألقى في ندوة قضايا التغير في المجتمع القطري خلال القرن العشرين، التي نظمها مركز الوثائق والدراسات الإنسانية بجامعة قطر، خلال الفترة من ٢٥ إلى ٢٨ فبراير ١٩٨٩م، الجزء الأول من بحوث الندوة، ١٩٩١م، ص ص٣٧-٧٣.

رابعًا : تاريخ الهند والدولة المغولية :

٥٨- **" تاريخ الهند الحديث "** ـ بالاشتراك مع عبدالرحيم عبدالرحمن الرحيم ـ القاهرة، دار الكتاب الجامعي، ١٩٨٠م ـ ١٩٢ص.

٥٩- **" الدولة التيمورية (المغولية) الإسلامية في الهند "**.- القاهرة، دار الفكر العربي، ٢٠٠٣م .- ٦٨ص.

خامسًا : موضوعات متفرقة (مقدمات للكتب ومقالات مرتبة زمنيًا) :

٦٠- **" الدكتور محمد إبراهيم كاظم .. قيادة إدارية "**.- (مقالة في الكتاب التذكاري عن الدكتور كاظم، الدوحة، جامعة قطر، ١٩٩٢م).

٦١- **تقديم لكتاب (الصوفية والمجتمع في غرب أفريقيا)** .- تأليف عبدالله عبدالرازق، القاهرة، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، ١٩٩٨م .- صفحتان.

٦٢- **" تقديم لكتاب "**.- (الأستاذ محمد يوسف عدس مستشار منظمة اليونسكو والخبير في الدراسات البلقانية ودوره البارز في خدمة قضي كوسوفا، إعداد بكر إسماعيل، القاهرة، مكتب البابرس، ٢٠٠٣م).

٦٣- **" الدكتور رأفت عبدالحميد قيادة جامعية "**.- (مقالة في الكتاب التذكاري: هؤلاء علمونا، حول ٨ أساتذة بكلية الآداب رحلوا خلال عامي ٢٠٠١/٢٠٠٢م.- القاهرة، جامعة عين شمس،٢٠٠٣م.- ص ص٤٥-٤٩).

سادسًا : مقالات عن ا.د. عادل غنيم :

٦٤- **" جهود د. عادل غنيم في تنظيم وتطوير جامعة قطر من خلال عضوية المكتب الفني للتطوير بجامعة قطر "** .- (مقالة في كتاب : المكتب الفني للتطوير الجامعي بجامعة قطر، نشأته ودوره وإنجازاته، من ١٩٧٩-١٩٩٢م .- الدوحة، جامعة قطر، ١٩٩٣م)، (في الصفحات ١٠٢ – ١٠٩، ١١٢، ١٢٠، ١٢٩، ١٥٤، ١٧٢، ١٧٣).

٦٥- **أحمد الجمال :** مقال عن د. عادل غنيم في (صحيفة الشرق القطرية، ١٩٩٤/٧/٣م، عمود يومي)، (الحلقة الأولى)، يتحدث عن ذكريات الكاتب مع د. عادل غنيم.

٦٦- **أحمد الجمال** : مقال عن د. عادل غنيم في (صحيفة الشرق القطرية، ١٩٩٤/٧/٤م، عمود يومي)، (الحلقة الثانية)، يتحدث عن دراسة وتقديم د. عادل غنيم لكتاب الدولة اليهودية لهرتسل).

٦٧- **فتحي متولي** : " عادل غنيم محامي القضية الفلسطينية " .ـ مقالة في (شخصيات وراء الأخبار، إعداد فتحي متولي .ـ القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، ٢٠٠٢م .ـ (حول ٥٥ شخصية لها دور في المجتمع المصري).

٦٨- **كتاب تذكاري عن أ.د. عادل غنيم**، لمجموعة من العلماء والباحثين، بإشراف أ.د. جمال حجر " يصدر عام ٢٠٠٤م ".

المحور الثاني

دراسات فى التاريخ القديم والوسيط



ثورة اليهود في برقة ومصر وقبرص في عام ١١٥م

أ.د. مصطفي كمال عبد العليم
أستاذ التاريخ القديم
كلية الآداب – جامعة عين شمس

نتناول ثورة اليهود الكبرى التى نشبت فى مدينة قوريني(شحات) فى برقة بشرقي ليبيا فى عام ١١٥م. ثم امتدت إلى مصر وإلى قبرص. وكان اليهود قد توافدوا على هذه البلاد قادمين من فلسطين، واستغلوا تسامح حكام مصر ملوك أسرة البطالمة التى حكمت مصر منذ عام ٣٢٣ق.م حتى عام٣٠ ق.م.عندما سيطر عليها الرومان. وهؤلاء أيضاً وفروا لليهود الإقامة الآمنة فى المناطق التى أسلفت ذكرها. ولم يكن ذلك هو أول العهد باليهود فى هذه الفترة بل كان قد وفد إلى مصر من نجا منهم من السبى البابلى.وقد أفسح لهم فراعنة الأسرة السادسة والعشرين مجال الإقامة فى مصر وانتشرت جاليتهم فى أكثر من ناحية، وكان من أهم مناطق إقامتهم جزيرة الفنتين فى جنوبي مصر حتى أنه سُمح لهم بإقامة هيكل على نسق هيكل سليمان الذى كان البابليون قد دمروه عام ٥٨٦ ق.م. فى القدس وتجمعت مساكن اليهود حول هذا الهيكل حتى أضحت الفنتين أشبه بقدس مصغرة. ولكن ما أن فتح الفرس مصر عام ٥٢٥ ق.م. حتى تحالف اليهود معهم ضد المصريين الذين وثبوا عليهم ودمروا هيكلهم حتى أنه لم يعد لهم ذكر فى مصادر العصر الفرعونى المناظر ولكن بعد أن آل حكم مصر إلى الإسكندر ومن بعده أسرة البطالمة منذ عام ٣٢٣ وحتى عام ٣٠ ق.م.كما أسلفت.

وسمح البطالمة لليهود بإقامة معابدهم التى كان من أهمها معبدهم فى الإسكندرية ومعبدهم بمدينة ليونتوبوليس، فى شرق الدلتا، وفضلا عن ذلك

تجاوزوا مصر إلى ليبيا فكان لهم معبد فى برينيقى(بنى غازى) بل وشيدوا لهم معبداً فى بوريوم على خليج سرت فى غرب برقة وزعموا أن النبى سليمان هو الذى شيده. وكانت لهم معابد أو أماكن عبادة فى قبرص وخاصة فى سلاميس.وتجمع المصادر على تأكيد تمتع اليهود فى هذه المناطق بحرية كاملة إذ تكونت لهم جاليات تمتعوا فى إطارها بحرية دينية واجتماعية وتطبيق شرائعهم.وفتحت لهم أبواب العمل سواء فى العصر البطلمى أو الرومانى وفتحت لهم أبواب العمل فى الإدارة الحكومية وخاصة فى الإدارة المالية.وكان منهم فى الإسكندرية وموانى قبرص أصحاب رؤوس الأموال وكبار التجار وأرباب الإقطاعات الزراعية مما ساعد على انتشارهم فى ريف مصر وريف برقة.

وللإبقاء على تميزهم كجاليات فى مدن مصر وبرقة حرصوا على الأخذ بأسباب الحضارة الإغريقية وممارسة الكثير من مظاهر الحياة الإغريقية التى اعتادها الإغريق فاصطنعوا لغتهم بل نقلوا إليها توراتهم.وواضح حرصهم على اصطناع اللغة الإغريقية بعد أن أصبحت لغة الثقافة والتجارة والاقتصاد.وإتقان هذه اللغة يخرجهم من عزلتهم لو ظلوا على تمسكهم بلغتهم حتى أن فيلون الفيلسوف اليهودى الإسكندرى الذى عاش فى الإسكندرية فى العصر الرومانى كان يجهل اللغة العبرية وكان يقول:"أن اللغة الإغريقية هى لغتنا"وكان يهدف إلى الخروج بالفلسفة اليهودية من أفقها الضيق إلى مجال أرحب لتصبح عالمية الصبغة.وكان يقول أنه لو أتبع اليهود ما أشار به من نقل تراثهم الفكرى إلى الإغريق لربما استطاعوا العيش فى سلام مع جيرانهم الإغريق ولأمكن تجنب وقوع المصادمات الدامية التى شهدها بنفسه فى الإسكندرية عن كثب عام٣٨م.عندما وقع أول صدام دموى عنيف بين الإغريق واليهود.ذلك أن عرض فلسفة الإغريق وثقافتهم على الإسكندرية لأزال ما استقر فى أذهانهم من أن اليهود عنصر لا يستطيع خلق فلسفة أو ثقافة مثل فلسفتهم وثقافتهم.

وعموما لم يكن فى استطاعة يهود الإسكندرية أن ينأوا بأنفسهم عـن التأثير

للفكرى الذى أحدثته مكتبة الإسكندرية وأكاديميتها. بل إن اليهود اتخذوا فى ملابسهم الزى الإغريقى وأطلقوا على أبنائهم أسماء إغريقية أو أسماء يهودية ترجموها إلى الإغريقية.

ونستطيع أن نقول أن اليهود بصفة عامة عاشوا فى ربوع مصر وبرقة وقبرص متمتعين فى كنف البطالمة بالأمن والطمأنينة وأحرزوا فى مدى قرون ثلاث نجاحاً ملحوظاً فى أكثر من ناحية من نواحى النشاط الإقتصادى وازدهرت جاليتهم وتضخم عددهم حتى إذا جاء العصر الرومانى كانوا قد أصبحوا عنصراً له أهميته وخطورته فى حياة هذه البلاد الاقتصادية والسياسية.وإن كان هذا لا يمنع من القول أن اليهود فى أواخر العصر البطلمى فى مصر أثاروا عداء إغريق الإسكندرية ضدهم بالتدخل فى المنازعات الأسرية فى البيت البطلمى ومناصرتهم الجانب الذى كانت روما تؤثره بتأييدها بل أن هؤلاء الإغريق اعتبروا اليهود مسؤولون مباشرة عن سقوط حكم البطالمة وذلك لمساعدتهم أوكتافيوس على إلحاق الهزيمة بكليوباترة السابعة أخر سليلة للبيت البطلمى وتحولت مصر إلى ولاية رومانية عام ٣٠ق.م.وجاء فى إحدى الوثائق ذكر عبارة(قوم يكرهون اليهود).وبعد أن احتل الرومان مصر وأفاق إغريق الإسكندرية من زحمة الأحداث التى أودت بحكم البطالمة،ألفوا مدينتهم وكانت عاصمة لإمبراطورية هم قوامها فأصبحت بين يوم وليلة مجرد مدينة ترزخ تحت عبء الاحتلال الرومانى ووجدوا أن جالية يهود الإسكندرية لا تدخر وسعاً فى إظهار الود لأكتافيوس أو للإمبراطور أغسطس كما سيعرف اسمه بعد عام ٢٧ق.م.ولا يقيمون وزناً لمشاعرهم.وكان من الطبيعى أن ينظر إغريق الإسكندرية إلى اليهود بوصفهم صنائع للرومان وسندة حكمهم وهذا يفسر سبب حدوث تلك المصادمات العنيفة التى حدثت بين الطائفتين التى وقعت أولها عام ٣٨م.عندما أثارها ضدهم إغريق الإسكندرية فتنة جامحة اصطلوا بنارها على عهد الإمبراطور كاليجولا.ثم اشتبك اليهود والإغريق فى صدام عنيف

عام ٤١م.واضطر الإمبراطور كلوديوس إلى أن يحذر الطائفتين معاً ولما لم يهدأ الموقف بسبب إصرار اليهود على الاستمرار فى إحداث الشغب تدخلت القوات الرومانية.ووجه الإمبراطور رسالة قال فيها(إننى أناشد الإسكندريين أن يبدوا روح التسامح والود لليهود،ومن ناحية أخرى آمر اليهود آلا يضيعوا جهدهم سدى فى السعى وراء حقوق أكثر مما حصلوا عليها من قبل وعليهم أن ينتفعوا بما فى حوزتهم من امتيازات ويتمتعوا فى مدينة ليست بمدينتهم بوفرة من الخيرات الجمة.ولئن لم يمتثلوا لأنتقمن منهم بكل الوسائل بوصفهم قوماً ينشرون الوباء الشامل فى أنحاء المعمورة).

وقد هدأت الأحوال مؤقتاً حتى اشتعلت الفتنة مرة أخرى على عهد الإمبراطور نيرون وذلك أنه فى ١٦ مايو سنة ٦٦م.اندلعت نار ثورة عارمة فى أورشليم وبدأت أول الأمر على شكل صراع بين الطبقات العليا من اليهود الذين اتفقت مصالحهم مع مصالح روما والطبقات الدنيا من اليهود الذين يرون فى الطبقات العليا مع روما خيانة لقضية اليهود وعدواناً على الشريعة.ثم تطور الموقف ليأخذ شكل الثورة ضد روما نفسها ومن ثم ضربت القوات الرومانية الحصار حول أورشليم.

وفى نفس الوقت تقريباً انفجر الموقف فى الإسكندرية عندما اجتمع الإغريق فى ملعب المدينة ربما ليتخذوا قراراً بتنظيم حركة يشعرون بها الإمبراطور نيرون بتأييدهم لموقفه من يهود أورشليم وتسلل بعض اليهود إلى الملعب فطاردهم الإسكندريون.وما لبث اليهود أن تجمعوا لإحراق الملعب بمن فيه وأنذرهم حاكم مصر وكان يهودياً صابئاً باستخدام القوة إن لم ينسحبوا فلما أبوا سلط عليهم الجند الرومان ينهبون متاجرهم ويستبيحون مساكنهم وزعم يوسف أنه قد هلك من اليهود يومئذ خمسون ألفاً وأن الجنود لم يرحموا شيخاً أو طفلاً.

أما أورشليم فقد استمرت العمليات الحربية ضد المدينة حتى سقطت أخيراً فى أغسطس سنة سبعين ميلادية فى يد تيتوس بن الإمبراطور فاسبسيانوس

واجتيحت المدينة ودمر الهيكل وهرب إلى مصر وإلى قوريني طائفة من غولات اليهود أطلق عليهم سوسيفوس اسم"سكارى".وأغلق معبد ليونتوبوليس حتى لا يتخذه اليهود بديلاً عن هيكل أورشليم وحرم على اليهود الدخول إليه.ولكن الأهم من ذلك أن الطبقات العليا من يهود مصر رفضت الانصياع إلى هذه العصبة فتنصلت من تبعة أعمالها وساعدت السلطات الرومانية في القبض على أفرادها.

وفعلت الطبقات العليا من يهود قوريني نفس الشيء ويقول يوسف أن بعض زعماء اليهود من الطبقة العليا في يهوذا من بينهم ثلاثة من أبناء الحبر الأعظم إسماعيل هربوا إلى قوريني وهناك لقوا مصرعهم شنقاً ولجأ إلى المدينة أيضاً نساج يهودي يدعى يوناثان تزعم الغلاة وكان على حد وصف يوسف شريراً زنيما وخرج بأتباعه إلى الصحراء ولكن الطبقات العليا من يهود المدينة أبلغت الحاكم الروماني بأمره،وجدت القوات الرومانية في أثرهم وأهلكت منهم خلقاً كثيراً.ووقع زعيمهم وقلة ممن نجوا أسرى في يد الرومان . وأراد الحاكم الروماني أن ينتهز هذه الفرصة ليتخلص من الشخصيات اليهودية البارزة فأوعز إلى يوناثان لينجو بنفسه باتهام طائفة منهم بأنهم حرضوا على الثورة.وزعم يوسف أن هذا الحاكم ذبح كل أغنياء اليهود الذين بلغ عددهم ثلاثة آلاف يهودي وصادر أملاكهم لصالح الخزانة الإمبراطورية.بل أن الحاكم أغرى يوناثان بأن يتهم بالتحريض على الثورة أكثر الشخصيات اليهودية تمتعاً بالسمعة الحسنة في كل من روما والإسكندرية ومن بينهم يوسف المؤرخ نفسه.ولما مثل يوناثان ورفاقه من الأسرى اليهود بين يدي الإمبراطور ردد هذه الاتهامات وأكد أن يوسف أمده بالمال وزوده بالسلاح. ولكن بعد تحقيق دقيق للإمبراطور زيف هذه الاتهامات فأفرج عن كل المعتقلين وحكم على يوناثان وحده بأن يحرق حياً.وقد علل يوسف هذا الاتهام بأن يهود قوريني لم يكونوا راضين عن اكتسابه حقوق المواطنة الرومانية لأن ذلك خروج واضح صريح عن يهوديته.

ويعتبر عام ٧٠م.عاماً فاصلاً في حياة اليهود.وكان لتدمير الهيكل آثاراً بعيدة

المدى إذ طبقاً للتقاليد الدينية وفتوى الربانيين كان على اليهود أن يتوقفوا عن دفع الضرائب الدينية للهيكل ما دام قد دمر ولم يعد له وجود.ولكن الإمبراطور فاسبسيانوس أمر بأن يؤدى اليهود،أينما كانوا،إلى معبد الإله جوبتر فى روما،ما كانوا يؤدونه إلى هيكل أورشليم وأنشئت لهذه الضريبة إدارة مالية خاصة فى روما. وبعد أن كانت هذه الضرائب مقصورة على الرجال إذا بلغوا سن العشرين، أصبح على كل يهودى ذكراً كان أو أنثى ويبلغ من العمر ثلاث سنوات أن يؤدى هذه الضريبة إلى جوبتر التى أطلق عليها اسم ضريبة اليهود.وحتم على كل رب أسرة أن يؤديها عن نفسه وآل بيته وعبيدهم.وكان على اليهود أن يخضعوا لعملية الإحصاء مرتين فى حياتهم مرة فى طفولتهم للتأكد من أنهم بلغوا سن الثالثة ومرة فى شيخوختهم للتأكد من أنهم بلغوا سن الإعفاء وهو سن الثانية والستين.ويبدو أن فاسبسيانوس كان يريد أن يشعر اليهود أنه ثمناً للسماح لهم بعبادة ربهم يهوه فعليهم ضريبة يؤدونها إلى جوبتر رب روما.وفيما عدا ذلك من المرجح أنه لم يشأ أن يمس امتيازاتهم وسمح باستمرار جاليتهم فى مباشرة حياتها الخاصة بها.ولكن فرض هذه الضريبة وما صاحبها من اشتطاط فى جبايتها حتى لا يفلت منها اليهود كان إذلالاً وامتهاناً وإرهاقا لا حد له وخاصة فى مصر إذ كان عليهم أن يدفعوا إلى خزانة الدولة الضرائب العادية التى كان يؤديها كافة سكان مصر وكانت كثيرة بطبيعتها وأن يدفعوا أيضاً ضريبة الرأس بقيمتها الكاملة وهذه أيضا كانت تتطلب إجراء عملية الإحصاء وفى هذا مهانة لهم أيضاً

هكذا كانت الأحوال فى مصر وبرقة بعد حوادث سنة ٧٠م.وسادت فترة من الهدوء دامت حوالى أربعين عاماً ولكنه كان هدوءاً ظاهرياً ولم يأت عام ١١٠ حتى عادت الفتنة فى الإسكندرية تطل برأسها من جديد.وأشعل اليهود نار الفتنة هذه المرة وتدخلت القوات الرومانية ونشبت معركة انتصرت فيها القوات.ويبدو أن الإسكندريين اغتنموا الفرصة وتحرشوا باليهود فتجددت الاشتباكات.وزاد عنف هجمات الإسكندريين تسليط عبيدهم على اليهود وقاوم هؤلاء وأصابوا

بعضهم بجراح وقلقت السلطات الرومانية وخشيت أن يتطور الأمر إلى معارك دامية واتخذت إجراءات حاسمة ضد الإغريق وعبيدهم وأصدر الحاكم الروماني منشوراً في ١٣ أكتوبر ١١٥م.عد الإغريق فيه مسئولين عن أحداث هذه الفتنة وإذا كان الإغريق في الإسكندرية قد أذعنوا لإنذار الحاكم إلا أن اليهود في الريف فاجئوا الإغريق بهجوم عنيف.ففرت جماعات كثيرة من الإغريق إلى الإسكندرية حيث انقضوا مع إغريقها على يهود المدينة الذين قاوموا مقاومة عنيفة.ودمر الإغريق معبد اليهود الكبير وأجاب اليهود بأن دمروا معبد ربة الانتقام عند الإغريق وربما أيضاً معبد السرابيوم.ولو صدقت رواية المؤرخين فإن أحياء برمتها تحولت إلى أنقاض.وما لبث اليهود أن غلبوا على أمرهم ومنيت جاليتهم بخسائر فادحة . وفي الوقت الذي كانت الأمور تسير فيه على هذا النحو حتى خريف عام ١٦٥ قام يهود قوريني فجأة بالثورة واختاروا الوقت الذي كان فيه الإمبراطور تراجان يخوض غمار الحرب ضد بارثيا الواقعة إلى الشرق من نهر دجلة.وإزاء عنف المقاومة التي أبداها أهل بارثيا اضطر الإمبراطور إلى سحب بعض الحاميات من الولايات الإمبراطورية لتعزيز قوات في أسيا وقد نصب يهود قوريني عليهم زعيماً يدعى أندرياس وفي رواية أخرى لوكواس(لوقا)ولقد كان يحمل الاسمين معاً واتخذ لنفسه لقب ملك ونجح في أن يستولي على المدينة. وتجمع الروايات على وحشية اليهود في مهاجمة الإغريق وقد أورد المؤرخ ديوكاسيوس وصفاً منفراً مشيراً لوحشية اليهود فنقرأ أنهم كانوا يأكلون لحوم قتلاهم ويصنعون من أمعائهم أحزمة لهم ويلطخون أجسامهم بدمهم ويسلخون جلودهم ويتخذونها ملابس لهم.وقد عمدوا إلى شطر ضحاياهم من رأسهم إلى أسفل شطرين وألقوا بآخرين إلى الوحوش المفترسة وأرغموا الكثيرين على مصارعة بعضهم بعضاً كما يفعل المصارعون.ويقدر عدد الذين أهلكهم اليهود باثنين وعشرين ألف نسمة.وتظهر النقوش مدى ما لحق مدينة قوريني ومعالمها ومبانيها المشهورة إذ ألحق اليهود الدمار بطريق الوادي ومعابد

الإله ابوللون وايزيس وهيكاتى وزيوس رب الأرباب وأرتيميس والديوسكورى وربما أيضا بلوتو.ودمروا أيضا حمامات تراجان ودار السجلات وحرقوا مستنداتها وقد ذكر المؤرخ أوروسيوس أن الثورة عمت ليبيا بأكملها ويقصد برقة بالطبع . ويفهم من أحد النقوش إن الطريق من قورينى إلى أبولونيا قد دمر وتحول إقليم برقة بعد أن استباحة اليهود إلى صحراء فقراء جرداء يخيم عليها الخراب الشامل وربما تكون أعمال اليهود قد امتدت إلى بقية مدن برقة وخاصة بنغازي وبطلميوسة وتوكوة.

وهكذا انتشرت ثورة اليهود فى برقة وزحف يهودها بزعامة ملكهم لوكواس شتاء عام ١١٦م على مصر بعد ان اكتسحوا فى طريقهم القوات الرومانية وبلغوا مشارف الإسكندرية ولكنهم عجزوا عن اقتحامها فانتشروا فى داخلية البلاد تاركين جالية الإسكندرية لتلقى مصيرها المحتوم على أيدى إغريق المدينة على نحو ما اسلفنا؛ فانتشر اليهود فى ريف مصر وانضموا الى يهودها ونقرأ تفاصيل الحرب بين اليهود من ناحية والجيش الرومانى والإغريق والمصريين من ناحية أخرى فى عدد من الوثائق من محفوظات أسرة حاكم اقليم ابوالونيوس هبتاكوميا (حول كوم اسفحت بمحافظة سوهاج بصعيد مصر) وتوضح هذه الوثائق أن الثورة عمت كل ريف مصر من ادفو جنوبا الى الإسكندرية شمالا وامتدت الى إقليم بلوزيوم شرقا. ويستوقف نظرنا بعض عبارات وردت فى بعض هذه البرديات من ذلك أن إحدى البرديات وهى رسالة إلى مدير الإقليم وكان يحارب بعيدا عن مركز حكمه بعثت بها إليه أمه فى ٣٠ يونيو ١١٦ م.تبدى فيها قلقها من الأخطار التى يتعرض لها ابنها وتضرع إلى الإله هرميس أن ينقذه من أن يشوى على النار على نحو ما كان يفعل اليهود بضحاياهم وهى بذلك تردد عن اقتناع القصص المتداولة عن قسوة اليهود وشراستهم.وفى بردية أخرى تذكر الأم أن الأسعار قد ارتفعت فى إقليم الاشمونين وأنها تخشى أن يفاجئها الشتاء وهى عارية.

وقد تطلب الموقف أن يبعث الإمبراطور بقائده القدير ماريوس توربو على راس جيش ضخم أمده بقوات أخرى جاءت عن طريق البحر استطاع أن يخمد الثورة فى منتصف أغسطس ١١٧ فى عهد الإمبراطور هادريان فى كل من مصر وبرقة.وقد عسكرت سرية من الجند فى بطليموسة لتحول دون يهودها والاشتراك فى الثورة.

وقد تركت هذه الحرب آثارا عميقة الأثر فى بعض الأماكن التى كانت مسرحا لها.من ذلك أن السفر من هرموبوليس (الاشمونين) لم يعد ممكنا عن طريق البر بسبب ما أصاب الطريق من دمار وتخريب.وقد أدمر اليهود النار فى بعض المبانى الزراعية فى اكسيرنخوس (البهنسا) وهجرت الأرض فى بعض مناطق الفيوم أصبحت جرداء لا تغل إيرادا.واستمرت على هذه الحال حتى سنة١٥١ م.أى بعد خمس وثلاثين سنة من إخماد الثورة .

وقد امتد لهيب الثورة إلى قبرص حيث تزعم اليهود شخص يدعى ارتيميون وارتكب اليهود فظائع لا تقل بشاعة عما فعلوه فى قورينه ودمروا مدينة سلاميس العاصمة عن آخرها ولقيت العناصر غير اليهودية اشد العنت على أيدى اليهود الذين اهلكوا منهم حسب تقدير المؤرخ ديوكاسيوس مالا يقل عن ٢٤٠,٠٠٠.

وقد اصدر الإمبراطور هادريان قرار حرم فيه دخول الجزيرة على اليهود وإلا تعرضوا لعقوبة الإعدام بل ذهب أهل قبرص إلى منع اليهود من النزول إلى جزيرتهم حتى إذا أغرقت سفينة يهودية وسبح بحارتها التماسا للنجاة فإنهم يقتلون فور وصولهم إلى الشاطئ .

وخشى الإمبراطور من امتداد الثورة إلى ارض الجزيرة بالعراق وكان عدد اليهود كثيرا فبعث بقائده كويتوس المخيف فقام بحركة تطهير واسعة تخلص أثناءها من عدد كبير منهم إما بقتلهم أو بطردهم منها ثم عينه حاكما على يهوذا سنة١١٧ حتى لا يفكر يهودها فى إحداث أية قلاقل فأصبحت الثورة بالنسبة لليهود نوعا من الانتحار فلزموا الهدوء ولم يحركوا ساكنا .

ويفهم من بردية تعود إلى أواخر أغسطس سنة ١١٧ إى السنة الأولى من حكم هادريان أن بعض المناوشات قد حدثت بين الإغريق واليهود فى الإسكندرية فى اواخر عام ١١٦ وان لوكواس ملك يهود برقة قد عرض فى المدينة فى موكب النصر إما بشخصه وإما بطريقة رمزية مضحكة تثير السخرية والاستهزاء .

وعند إعادة تخطيط الإسكندرية شتت الحاكم الروماني اليهود في مختلف أحياء المدينة حتى يحول دون قيامهم بالتجمع في حي واحد يديرون منه هجوما مفاجئاً على الإغريق ولا أدل على هوان اليهود وفقدانهم للكثير من امتيازاتهم وانحطاط شأنهم أن القواعد المالية لمراقب الحسابات الحكومية وهي مجموعة مهمة من القوانين واللوائح المتعلقة بالوضع القانوني لمختلف عناصر السكان في الإسكندرية في القرن الثاني الميلاد تجاهلت اليهود تجاهلاً تاماً كما لو كان لم يعد لهم وجود في المدينة.

ومما هو جدير بالملاحظة قلة الوثائق التي تحمل أسماء يهودية بعد أحداث هذه الثورة ويرجع ذلك إلى كثرة عدد اليهود الذين هلكوا سواء في الإسكندرية أو في ريف مصر إذ لم يتبق من بين الأسر اليهودية في الحي الرابع من مدينة ادفو وكان مخصصاً لليهود غير أسرة واحدة أطلقت على أبنائها أسماء مصرية وفي إحدى قرى الفيوم يعيش بين سكانها البالغ عددهم ألف نسمة يهودي واحد.

وقد صادرت الدولة أملاك اليهود وأراضيهم الزراعية في ريف مصر ووقعت نفس العقوبة على يهود برقة وقد اضطلع الإمبراطور هادريان بإصلاح ما أفسدته الثورة في برقة فأعاد بناء بعض المبانى ورمم البعض الآخر واصلح من أمر الحمامات وطريق الوادي وبذل الكثير في إصلاح طرق برقة وأعاد بناء ميناء ابولونيا وقد بلغ من عرفان مواطني قوريني انهم أطلقوا عليه لقب مصلح ليبيا و لقب المؤسس و مطعم المدينة من جوع لأنه زود المدينة بالغلال.

وإزاء إقفار برقة من كثير من سكانها والتخريب الذي أصاب مزارعها عمل

الإمبراطور على توطين مستعمرين جدد وخاصة في قريني وفي ريف برقة وكان يدخل في عداد هؤلاء المستوطنين ثلاثة آلاف من الجند الرومان المسرحين وقد وزعت عليهم أراضي اليهود التي صادرتها الدولة أو تلك التي هجرها أصحابها أو لقوا مصارعهم ، وقد أنشأ هادريان مدينة جديدة باسم هادريانوبوليس بين توخيرا وبنغازي.

وثورة اليهود هذه التي عمت برقة وقبرص ومصر في وقت واحد تستحق الاهتمام بسبب الطابع الذي تميزت به فقد بدأت كحلقة جديدة في سلسلة الفتن العادية التي كانت تنشب بين الإغريق واليهود إلا أنها اتسعت وأصبحت صداما مسلحا بين اليهود والرومان ، وخاض الجيش الروماني معارك حقيقية ضد اليهود وقد وصفت إحدى البرديات من مصر أن هذا الصدام كان حرباً بالفعل وأطلق عليه المؤرخ الكنسي يوسيبيوس عبارته المشهورة " حرباً ليست بالصغيرة " وزيادة عن ذلك رددت البرديات أصداء القصص الخيالية التي كان الإغريق يرددونها عن قسوة المحاربين اليهود و شراستهم و قد مر بنا وصف ديوكاسيوس لما فعله اليهود بضحاياهم في برقة وكيف أن أم الحاكم ابوللونيوس كانت تعتقد مخلصة أن اليهود يشوهون أسراهم . وكشف التفاصيل عن خطة مبيتة لتدمير الطرق وتخريب المزارع ولعل الدمار الذي لحق بالمعابد الوثنية سواء في برقة أو في مصر وربما أيضا في قبرص يفسر وصف اليهود بالاتحاد فيما بينهم في الوثائق الرسمية وفي رسائل الأفراد التي تتناول أحداث هذه الثورة ولعلهم بتدمير المعابد إذ كانوا ينتقمون لما لحق بهيكلهم على أيدى الرومان.

ونتساءل عن الدافع الذي حدا باليهود أن يثوروا ثورة رجل واحد في اكثر من ولاية من ولايات الإمبراطورية الرومانية وفي وقت واحد في رأى بعض المؤرخين ينبغي البحث عن هذا الدافع في ضوء ما حدث في يهوذا منذ وفاة هيرود الأكبر ٤. ق.م. فان هذا الإقليم كان نهبا لحركات تزعمها بعض الذين ادعوا انهم ملوك وانهم إنما بعثوا بإرادة الرب لإنقاذ الشعب وقد ظهر في عهد

الإمبراطور كلوديوس نبي يدعى ثيوداس وقد جمع حوله بعض الحواريين ووعدهم بإتيان المعجزات ولكن روما لم تمهله حتى يظهرها بل عجلت بموته. وكان سيمون أو شمعون بن جيورا احد زعماء ثورة ٦٦ ـ ٧٠ م في أورشليم يتخذ لقب ملك وكان يرتدي ملابس الملوك عندما استسلم للرومان واتخذ لوكواس أو لوقا زعيم يهود برقة هو الأخر لقب ملك ولابد أن ذلك حرك النعرة الدينية بين اليهود الثائرين وأثار فيهم الحماس الديني ، ولذلك كان تدمير المعابد جزء من حركته ومعنى هذا أن اليهود لم يتخلوا عن فكرة ظهور واحد منهم يحكم العالم اجمع وتكون فكرة الخلاص على يد مسيح منتظر هي التي أوحت إلى ملك أو مخلص يهود برقة القيام بثورته لتحرير بني جلدته من حكم الرومان الوثني ليس في برقة وحدها بل وفي مصر وغيرها من ولايات وكذب حدسه ووفق الإمبراطور في خطته ومن ثم وجه كل قواته لإخماد ثورات اليهود ومع ذلك فقد ظلت فكرة الخلاص تستهوى اليهود وتسيطر على عقولهم وسيظهر ملك أو مخلص آخر هو سيمون بن شمعون بن كوخفا اي ابن النجم أو ابن كوزيفا أى ابن الكذبة كما كان يسميه أعداؤه ليقود ثورة عاتية في فلسطين في أواخر عهد الإمبراطور هادريان ١٣٢م.وذلك بعد أن اصدر هذا الإمبراطور أمره بان تشيد مستعمرة رومانية تحل محل أورشليم وأن يقام مقام الهيكل معبد لجوبيتر وقد بذل الإمبراطور مجهودا ضخما حتى استطاع إخماد الثوزة سنة ١٣٥م.وبعد ذلك حظر على اليهود أن تطأ إقدامهم أورشليم والأرض المحيطة بها فيما عدا اليوم التاسع من شهر آب بمناسبة ذكرى ذلك اليوم الذي دمرت فيه أورشليم.

ورب متسائل يسأل لماذا لم تكن فلسطين مهداً لحركة الخلاص ؟ لعل الإجابة على هذا السؤال تنحصر في أن اليهود ربما اختاروا برقة عن عمد لبعدها عن مراكز تجمع الجيوش الرومانية التي كانت تحارب تحت راية تراجان وذلك ليتحقق لها النجاح على الأقل في مراحلها الأولى ومع هذا فان البعض قد ينفي انه كان هناك ثمة تدبير أو تآمر سابق ليهب اليهود ثائرين في وقت واحد

وفي أماكن متفرقة ولا يستبعد أن الثورة قامت في قوريني من باب الصدفة لا اكثر ولا اقل وكان من الممكن أن يقضى على الفتنة في مهدها لولا ظهور هذا المخلص لوكواس فأشعلها حرباً أو أغراه نجاحه في برقة ليزحف إلى مصر حيث كانت الفتنة قد بدأت بالفعل ولم يتردد يهود قبرص في أن يهبوا هم أيضا للمشاركة في هذه الثورة.ونستطيع أن نقول أن فكرة الخلاص أعمت اليهود عن تقدير الموقف حق قدره وانهم إنما يخوضون حرباً بائسة ضد قوى تفوقهم في كل شئ وسيطر على عقولهم شئ واحد وهو انهم جند الرب الذي سيقودهم لا محالة إلى نصر محقق ويعيد إليهم هيكل أورشليم فاندفعوا مسلوبي الإرادة في برقة ومصر وقبرص يقتلون ويدمرون ويبطشون بالإغريق والرومان وأهل هذه البلاد لا يفرقون بين جنس وجنس.

وثورة عام ١١٥ بعد ذلك مظهر متكرر لظاهرة العداء ضد اليهود أو كما يسميها البعض العداء ضد السامية وهذه العبارة الأخيرة التي اعتاد المؤرخون استعمالها عند الحديث عن تلك الكراهية الدفينة التي كانت شعوب العالم القديم تكنها لليهود وخاصة في العصرين الهيلينستي والروماني كما جاء في دائرة المعارف اليهودية هي كلمة حديثة تقال عادة للتعبير عن استنكار الشعوب الأوربية لمطالبة اليهود بالمساواة الاجتماعية والسياسية معها وتستمد هذه الكلمة أصولها من مبادئ التفرقة العنصرية بين الأجناس في العصور الحديثة فقد اعتادت الشعوب الأوربية أن تنظر إلى اليهود باعتبارهم أحد الشعوب السامية التي تختلف كل الاختلاف عن الشعوب الآرية أو الهندواوربية التي أرست في القديم قواعد الحضارتين اليونانية والرومانية وأورثوها أسلافهم الأوربيين ولذلك فاليهود في نظرهم عنصر دخيل على هذه الحضارة وليس لهم أن يجنوا ثمارها ولعل هذا هو سبب إصرار الكثير من المؤرخين اليهود المعاصرين على تبيان فضل اليهود على الحضارة الهيلينستية وعلى الربط بين أصول الفلسفة الإغريقية واليهودية كما فعل فيلون الفيلسوف اليهودي السكندري كما أسلفنا ولم

ينشأ هذا الشعور بالعداء نحو اليهود لخلاف في الدين أو العقيدة بقدر ما نشأ لصفات معينة اتسموا بها ومن بينها صفات الجشع والحرص على المال والقدرة على تكوين الثروة من أى طريق والتحكم في مصائر الشعوب بالتحكم في اقتصادياتها فضلاً عن التعصب والشعوبية وعزوفهم عن الاندماج الكامل في المجتمعات التي يعيشون بينها مما جعلهم موضع شك واتهام بعدم الولاء نحو الوطن الذي يظلهم لان الولاء لدينهم مقدم عندهم على كل شئ وهم بذلك في نظر الأوربيين قوم ذو طبيعة انفصالية وقومية منعزلة عن القوميات الأخرى.هل كان ذلك منشأ الشعور المناهض لليهود أو السامية في مصر أو في برقة أو في قبرص في الفترات التي تحدثنا عنها ؟ .

الواقع أننا لمسنا جانباً من هذه الاتهامات وكان أقواها دون شك اتهامهم بممالئة القوة الأجنبية الحاكمة وقد بدا ذلك واضحاً في تدمير المصريين لهيكل جزيرة الفنتين في جنوب مصر في أواخر العصر الفرعوني وقضوا على جالية هذه الجزيرة عندما تحول اليهود إلى ثعبان ارقط يسعى بين صفوف المصريين نافثا سمومه كما جاء في إحدى الوثائق المصرية تعبيراً عن سخط المصريين على اليهود عندما جعلوا من أنفسهم أداة في يد الفرس وأثاروا غضب إغريق الإسكندرية عندما خذلوا البطالمة وخاصة كليوباترا في صراعها مع اوكتافيوس وقد وصلتنا بردية من العصر البطلمى تتحدث عن قوم يكرهون اليهود.أما في العصر الروماني فالشواهد كثيرة واضحة على اتهام إغريق الإسكندرية لليهود بصفة خاصة بأنهم سند الحكم الروماني الذي جاء فحرمهم وحرم مدينتهم الإسكندرية المكانة الممتازة التي كانت لها في الإمبراطورية البطلمية وقد انعكس شعور العداء ضد اليهود واتهامهم بأنهم صنائع الرومان وعملاؤهم في تلك المجموعة من البرديات التي تؤلف مجموعة تعرف باسم أعمال شهداء الإسكندرية.كل بردية عبارة عن محضر جلسة من الجلسات القضائية التي كان يعقدها الإمبراطور الروماني لمحاكمة زعماء الإسكندرية عندما كان ينشأ صدام

بين الإغريق واليهود في المدينة وهذه المحاضر تصور مدى ما كان يكنه إغريق الإسكندرية من احتقار وعداء لليهود حتى ان هذه المجموعة من أعمال شهداء الإسكندرية توصف أحيانا بالأدب الناهض للسامية لكثرة ما تناولته من حديث عن المنازعات بين الإغريق واليهود ويستوقف النظر حرص هذه البرديات على إظهار الإمبراطور بمظهر الموالي لليهود وحرصها أيضا على إثبات تبادل الألفاظ القارصة بين المتهمين والإمبراطور وكيف انه كان يصدر أحكاما تجافي العدل لتحيز الإمبراطور لليهود واتهام بعض زوجات الأباطرة بإظهار العطف الشديد على اليهود.ولذلك رأى بعض المؤرخين مثل (بل) أن روما كانت هي المقصودة بالتشهير في هذه البرديات وأن الإغريق بتقديرهم لليهود إنما كانوا يتخذون ذلك ستارا يخفون وراءه حقدهم الدفين على الرومان.

وفي وسعنا أن نتبين إن هذه البرديات تحتوى على ثلاث مواضيع رئيسية:

أولا – الوطنية والاستشهاد مع التنويه بنبل زعماء الإسكندرية واعتزازهم بمناصبهم البلدية.

ثانيا – تحدى هؤلاء الزعماء للأباطرة وترحيبهم بالموت .

ثالثا – التنديد بظلم الرومان وإبراز وضاعة أصل أباطرتهم ووقوع بعض زوجاتهم تحت تأثير اليهود وفساد أحكام الجلسات القضائية الإمبراطورية التي كانت تمتلئ باليهود والتنديد بهؤلاء والتعريف بربهم يهوه ونعتهم اليهود بأنهم كقوة خاضعون كالمصريين لضريبة الرأس .

ونسوق مثلا على ذلك محضر جلسة عقدها فى روما الإمبراطور كلوديوس في أول مايو ٥٣ ليستمع إلى دعوى اسيدروس مدير معهد التربية أو المنتدى الثقافي(الجيمنازيوم) بمدينة الإسكندرية ضد الملك اليهودي أجريبا من المرجح انه كان ملك خالكيس جبل لبنان.وقد سجل في المحضر الحوار بين الإمبراطور وهذا الزعيم الإسكندرى أجتزئ منه بالآتى :

كـلوديوس : إياك أن تقول شيئا ضد صديقي أجريبا .

أسيدوروس : مولاي قيصر ماذا يعنيك من أمر يهودي كأجريبا لا يساوى نقير.

كلوديوس : ماذا تقول أنت أوقح الناس جميعا .

أسيدوروس : إنني اتهم اليهود بالرغبة في إثارة العالم اجمع وينبغي النظر في وضع أمة اليهود.أن طبائعهم ليست كطباع الاسكندريين وطريقتهم فـى المعيشـة تتفق مـع طريقـة المصـريين وليسوا يـدفعون مـثلهم ضريبية الرأس .

وفى محضر أخر حفظته إحدى البرديات .

كـلوديوس : أفصح يا اسيدوروس انك ابن راقصة .

اسيدوروس : أنـا لست عبدا ولست ابـن راقصـة وإنمـا أنـا مـدير معهـد التربيـة بالإسكندرية المدينـة الشـهيدة وأمـا أنـت فـابن غيـر شـرعى لسلومى اليهودية (أخت هيرود الأكبر) .

وعندئذ يقول أحد أعضاء الوفد لاسيدوروس : ليس بيننا حيلة سوى الإذعان لحاكم مجنون وتذكير الإمبراطور بان اليهود في نفس منزلـة المصـريين لأنهم كانوا يدفعون مثلهم ضريبة الرأس يعنـى انـه لا يمكن أن يقف اليهود مع إغريق الإسكندرية على قدم المساواة من الناحية القانونية والحضارية خاصة وان الإدارة الرومانية كانت حريصة على منع غير المواطنين من الانتساب إلى معهد التربيـة في الإسكندرية وغيرها أو إلى منظمات الشباب وقد نجح إغريق الإسكندرية في أن يجعلوا الحاكم الروماني في أعقاب فتنة ٣٨ م. أن يصدر قراراً يسم فيه اليهود بأنهم أجانب عن المدينة ومن هنا وصفهم في بعض المضاد أنهم حفاة غلاظ غير متحضرين ولم تشفع لهم تلك النسخة الأفريقية التي اكتسبوها باصطناعهم أساليب الحياة الإغريقية كما مر بنا.

ولم يكن الإغريق ليتدخلوا في حرية اليهود الدينية وكانوا يستنكرون من اليهود إعراضهم عن أكل لحم الخنزير ومزاولة عملية الختان وهى عملية لم يكن

من السهل على غير اليهود من الإغريق والرومان فهمها حتى أن هادريان أصدر أمره بإبطالها. اليهود بعد ذلك يعتقدون أن يهوه هو ربهم خالصا من دون العالمين وإنهم باعتبارهم شعب الله المختار ارفع منزلة من هذه الشعوب التي تعتبر أربابا متفرقة لا تسمو مجتمعة الى مقام يهوه وتنص تعاليم الربانيين أن الدين والجنس عنصران متلازمان لا يمكن الفصل بينهما ومن ثم لا يمكن أن يكون قد حدث تقارب بين الدين اليهودي والأديان الوثنية الأخرى وكان الإغريق فيما يبدو يرون أن اليهود كانوا يحملون أوزارهم ودينهم معا لذلك اهتمت برديات أعمال شهداء الإسكندرية بإبراز المجتمع اليهودي في صورة مجتمع منفصل ومنعزل عن حياتهم وحياة المدينة .

وتسجل بردية أخرى من مجموعة أعمال شهداء الإسكندرية محضر جلسة عقدها الإمبراطور تراجان فى روما ليستمع إلى وفد من إغريق الإسكندرية ووفد يمثل يهود المدينة فى ذلك فى خريف ١١٣م. بمناسبة الاضطرابات التى حدثت فى المدينة فى هذا التاريخ وتصف البردية كيف أن كلا الوفدين حمل معه آلهته إذ حمل الإسكندريون تمثالا نصفيا لسرابيس وحمل اليهود فيما نظن لفافة من التوراة وربما تابوت العهد وتذكر البردية أن افلوطينا زوج الإمبراطور سعت لدى أعضاء مجلس الشيوخ لكى يقفوا الى جانب اليهود ضد الإغريق وقد رحب الإمبراطور بالوفد اليهودى ترحيبا حارا فى حين انه استقبل الوفد الإسكندرى ببرود تام بل قال لهم:اتحيوننى كما لو كنتم جديرين برد التحية بعد أن تجرأتم وفعلتم باليهود ما فعلتموه ثم يدور النقاش بين تراجان وبين زعيم إغريقى يدعى هرمايسكوس:

تراجان : أنت تروض نفسك على مواجهة الموت وتزدريه الى حد انك ترد على بقحة .

هرمايسكوس : أن ما يزعجنا هو امتلاء مجلسك باليهود .

تراجان : أصغ إلى ياهرمايسكوس فسأقول لك للمرة الثانية أن اعتزازك بأصلك يدفعك إلى ان ترد على بقحة

هرمايسكوس : أى رد وقح وجهته إليك أيها الإمبراطور الأعظم .

تـراجان : لأنك زعمت أن مجلسى خاص باليهود .

هرمايسكوس : أو يزعجك إذن ذكر اليهود ؟ إذا كان الأمر كذلك فأولى أن تساعد بنى قومك وان لا تنبرى للدفاع عن اليهود الملحدين .

وتروى البردية انه ما أن نطق هرمايسكوس بهذا الكلام حتى تصبب تمثال سيرابيس عرقاً وهو التمثال الذى كان يحمله وفد إغريق الإسكندرية وعقدت الدهشة لسان الإمبراطور وساد الهرج والمرج فى أنحاء روما وتعالى الصياح وفرا الناس الى أعالي التلال .

وفى مناشدة الإمبراطور نصرة بنى قومه إشارة واضحة إلى أن هناك وشائج من الدين والتقاليد المتشابهة تربط بين الإغريق والرومان وتحتم عليهم الوقوف صفا واحدا تجاه اليهود الذين يتبعون دينا غريبا عنه .

ونقرأ إلى جانب ذلك أن تاجرا إغريقيا فى مصر يكتب فى عام ٤١م. إلى صديق له يقيم فى الإسكندرية يحذره من التعامل مع المرابين اليهود.وهذا يعنى إن اشتغال اليهود بإقراض الأموال بالربا الفاحش ربما كان أحد العوامل الهامة التى تسببت فى إثارة روح الشعور بالكراهية المشوبة بالحذر من التعامل مع اليهود وحقيقة أن الخطاب كتب فى فترة كانت بالحقد بين الإغريق واليهود بعد حوادث سنة ٣٨ م إن اتهام اليهود بالتعامل بالربا اتهام صحيح وإلا ما كان هناك ما يدعو كاتب هذا الخطاب وهو يشهر باليهود لان يختار هذه الناحية دون غيرها من نقائص اليهود ليبرزها على هذا النحو بل أن فيلون الفيلسوف اليهودى لم يخف نفوره من المرابين اليهود وازدرائه لهم وحمل عليهم قائلاً انهم كانوا لا يتورعون عن تقاضى أرباح فاحشة دون وجه حق بإقراضهم المال بل أيضا الطعام للفقراء وتثبت بعض البرديات تعامل اليهود مع غير يهود بالربا فيما يتم

بالرغم من تحريم التوراة ذلك عليهم وهكذا نرى تشابها واضحا بين بعض العوامل التى أدت إلى معاداة اليهود فى العصرين الهيلنيستى والرومانى وتلك التى أدت إلى مناصبتهم العداء فى العصور الحديثة .

ولايعنى ما حدث بالنسبة لليهود أن المجتمع اليهودى تلاشى تماما عقب ثورة ١١٥ – ١١٧م. وغاية ما فى الأمر انه كان فى حاجة إلى فترة يسترد فيها أنفاسه ويستعيد بناء كيانه ليعاود نشاطه من جديد فى القرن الثالث الميلادي فى مصر . ويستوقف النظر عدول اليهود عن استعمال اللغة اليونانية وعودتهم إلى استعمال اللغة العبرية وهكذا نجد أنفسنا بصدد ظاهرة جديدة تنبئ عن وجود مجتمع يهودي جديد ذى طابع مختلف تماما عن الطابع الذي ألفناه فى العصرين الهيلينستي والروماني. فهل نفسر عودة اليهود إلى لغتهم المقدسة القديمة بأنه تعبير عن نبذهم الحضارة الإغريقية وكفرهم بها بعد ما لقوه على أيدى الإغريق والرومان؟ أم هل تفسر هذه الظاهرة بأن اليهود قد وجدوا أنفسهم وجها لوجه أمام قوة المسيحية الفتية النشطة فأرادوا أن يعودوا إلى حياتهم التقليدية وان يبعثوا مقوماتها حتى يصعدوا الكراهية فى وجه المسيحية التى ناصبتهم العداء منذ أصبحت الدين الرسمى للإمبراطورية الرومانية ؟ وقد استعاد اليهود كيانهم منذ القرن الثالث ولكننا لم نعد نسمع عن اليهود كعنصر يتسبب وجوده فى إثارة الفتن إلا فى سنة ٤١٥ م.حين قام كيرلس أسقف السكندرية على رأس جماعة من المسيحيين باحتلال بيع اليهود وطردهم من المدينة.ومن الطريف أن أحد كتاب العصر المسيحى سجل حواراً بين اثنين من مسيحى الإسكندرية قال فيه أحدهما أن اليهود الذين صلبوا المسيح مجرمون ولكنهم اكثر منا ثراء.

وهكذا نرى أن ثورة اليهود سنة ١١٥م.كانت بالفعل حدثاً هاماً لا لأن اليهود تسببوا فى إحداث فتن دامية عمت اكثر من ولاية من ولايات الإمبراطورية الرومانية ولكنه لأنها كانت نقطة تحول حقيقى فى حياتهم وأوضاعهم وتاريخهم القديم.



الأسرة فى مدينة بيت المقدس فى عصر سلاطين المماليك (دراسة وثائقية)

أ.د. على السيد على
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب بالفيوم – فرع جامعة القاهرة

مقدمة :

إن دراسة الوثائق الخاصة بمدينة بيت المقدس من شأنها أن تقدم خدمة كبرى للثقافة العربية بوجه عام، ولتاريخ المدينة المقدسة وقضيتها بوجه خاص، وموضوع دراستنا هذه يعتمد كلية على مجموعة وثائق الحرم القدسى الشريف والتى تم الكشف عنها ما بين عامى ١٩٧٤، ١٩٧٦ م، والتى قام معهد ماكجل بكندا بتصويرها على أشرطة ميكروفيلم. وقام البروفيسور دونالد ليتل بعمل فهرس لها عام ١٩٨٤ م باللغة الإنجليزية، ونشر بعض الوثائق منها فى بعض أبحاثه.[١] كما قام المرحوم الدكتور كامل جميل العسلى بنشر بعض الوثائق فى كتابه بعنوان وثائق مقدسية تاريخية، فى ثلاثة أجزاء.[٢] كذلك قام الدكتور محمد عيسى صالحية بنشر ودراسة عشر وثائق منها فى حولية كلية الآداب بجامعة الكويت.[٣] وقمت بنشر عدة أبحاث عن مجموعة الوثائق هذه وبيان أهميتها فى دراسة التاريخ الاجتماعى، والاقتصادى، والثقافى، وعروبة القدس وأوقاف فلسطين على الحرمين الشريفين.[٤] وإن شاء الله تعالى سأتابع نشر عدد من الدراسات القيمة حول هذه الوثائق وغيرها وأخص منها سجلات المحكمة الشرعية بالقدس .

والحقيقة أن هذا البحث إضافة جديدة كل الجدة لكتابى الذى تحدثت فيه عن القدس فى العصر المملوكى والمطبوع بالقاهرة ١٩٨٦م ، لما تلقيه الوثائق من

أضواء جديدة على حياة مجتمع بيت المقدس بشتى طوائفه الدينية ، وهى وثائق تتعلق بحياة سكان المدينة بمختلف شرائحهم الاجتماعية، طوال الفترة من ٦٤٨ – ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠ – ١٥١٧ م، أى عصر سلاطين المماليك بدولتيه الأولى والثانية، أو دولة المماليك البحرية، ودولة المماليك الجراكسة. وهى فترة من أخصب فترات تاريخنا الحضارى نتناول بالحديث :-

عقود الزواج – المهور – سن الزواج – تعدد الزوجات– معدل الإنجاب – وضعية المرأة - حالات الزواج – سكن العائلة – مكوناته – مواد البناء – ما يحب الزوجان فى بعضهما – العلاقة بين الآباء والأبناء – مسئولية الزوج عن أسرته – المشكلات العائلية – وضع الأطفال القصر – توارث الوظائف والحرف فى الأسرة الواحدة – الأثاث المنزلى – الأدوات المنزلية .

عقود الزواج :-

كان يطلق عليها عقود النكاح أو الإصداقات، وعادةً ما تُستهل بعبارة "أصدق فلان..." أو "هذا ما أصدق فلان..."، يتبع ذلك ذكر إسمى العريس والعروس ، ومكان إقامتهما، وبالنسبة للعروس فعادةً ما تذكر كلمة أو كلمتين تحددان أنها قد وصلت سن البلوغ. وإذا كان سبق لها الزواج فعادةً ما يتم ذكر ذلك مع ذكر اسم زوجها السابق، كما يتم تدوين اسم وكيلها فى الزواج وأنه أهل لهذه الوكالة. كذلك كان يتم ذكر إجمالى مبلغ الصداق "المهر" مع بيان المقدم منه والمؤخر. وعلى ظهر العقد كان يتم عمل ملحق بحالات الطلاق التى وقعت.(٥) هذا بالنسبة للأحرار من أبناء وبنات بيت المقدس. أما بالنسبة للرقيق، ففى حالة زواج الجارية من أحد عبيد السيد فقد كان يشترط عند كتابة عقد زواجهما على يد عاقد الأنكحة أن ينص على: "هذا ما أصدق فلان فلانة مملوكة فلان المقرة لسيدها بالرق والعبودية، عندما خشى على نفسه العنت – أى الفجور والزنا – وخاف الوقوع فى المحظور لعدم الطول، وأنه ليس في عصمته زوجة أخرى،

ولا يقدر على زواج حرة على ما شهد لديه من يعينه فى رسم شهادته صداقاً تزوجها به، مبلغه كذا وكذا وولى تزويجها إياه ، بذلك سيدها المذكور بحق ولايته عليها شرعاً.[٦] كما جاز أن يتولى السيد بنفسه كتابة عقد الزواج ، وفى هذه الحالة كانت صيغة العقد على النحو التالى: "هذا كتاب تزويج إكتتبه فلان لعبده فلان أو أمته فلانة، المقر له كل منهما بالرق والعبودية، وهو أنه أشهد على نفسه أنه زوج عبده المذكور لأمته المذكورة تزويجاً صحيحاً شرعياً بسؤال كل منهما لسيده المذكور فى ذلك، وقبل الزوج من سيده عقد هذا النكاح لنفسه قبولا شرعياً، ولا يعين الصداق.."[٧]

المهور :

من الطبيعى أن تختلف المهور باختلاف أوضاع الناس الاقتصادية والاجتماعية، وباختلاف الزمان كذلك. فأعلى مهر أو صداق وصل إلينا فى الوثيقة رقم٤٧ المؤرخة فى٦ ذى العقدة سنة ٧٧٠هـ / ١٢ يونيو سنة ١٣٦٩م هو ٢٤٠٠ درهما فضة، قدمه أحد سكان القدس لزوجته المدعوة خديجة بنت المرحوم بدر الدين حسين بن هندى الشافعى فى عقد زواجه منها الموقع عليه من قبل أقضى القضاة علم الدين أبى داود سليمان بن شهاب الدين أبى العباس أحمد الحنبلى، خليفة الحكم فى القدس.[٨] يليه العقد الذى ورد فى سجل المحكمة الشرعية بالقدس رقم ٢٦٩ وهو لزوجة قاصر، ومقدار الصداق ألف درهم، دفع الزوج منها ٧٠٠ درهما مقدما والباقى وقدره ٣٠٠ درهما مؤخر صداق لأقرب الأجلين، وهو مبلغ يتناسب مع مكانة عائلتى الزوج وهى عائلة الحسينى من الأشراف، والزوجة إحدى بنات أسرة البديرى فهى إبنة الشيخ محمد بدير أحد كبار العلماء[٩].وفى الوثيقة رقم ٢٨٧ المؤرخة فى ١٢صفر سنة ٧٧٨هـ كان مؤخر صداق الست المصونة المحجبة فاطمة إبنة المرحوم فخر الدين بن زين الدين هو عشرون مثقالا من الذهب أى حوالى ٩٦٠ درهما، فكم كان المقدم؟[١٠]

أما الوثيقة رقم ٤٤ وهى بتاريخ ١٨ صفر سنة ٧٨٠هـ/ ١٦ يونيو ١٣٨٠م فقد جاء فيها أن الحاج يحيى بن خضر بن نصر الله قد دفع صداقا قدره ٦٥٠ درهما لزوجته زينب بنت خليل بن أبى الفتح ، المعروف والدها بالقاضى . وقد جاء على ظهر نفس الوثيقة بتاريخ ٢٥ ربيع الأول سنة ٧٨٥هـ / ٢٨ مايو ١٣٨٣م أى بعد حوالى خمس سنوات أن الزوجة المذكورة تطالب زوجها الحاج يحيى بالطلاق فى مقابل أن يسترد الصداق الذى دفعه، وأنه قبل ذلك.[١١] يلى ذلك الصداق المذكور فى الوثيقة رقم ٦٥٣ بتاريخ ١٥ذى الحجة سنة ٧٩٥هـ وهو ٦٠٠ درهما.[١٢] ثم ما جاء فى الوثيقة رقم ٣٢١ من وثائق الحرم القدسى التى توضح لنا مقدار الصداق بين أبناء الطبقات المثقفة، فهى تذكر أن الشيخ شرف الدين يعقوب بن الحاج يوسف بن يعقوب من القدس يمنح وكيل عروسه فاطمة وهو الشيخ قاسم بن الشيخ موسى بن عمر الغزى صداقا قدره ٦٠٠درهما، العاجل منه ٤٥٠ درهما دمشقيا ثم جاء على ظهر نفس الوثيقة أنه يوم ٥ المحرم سنة ٧٩٥هـ/ ٢١نوفمبر ١٣٩٢م أن يعقوب ، الزوج المذكور فى وجه الوثيقة يطلق زوجته فاطمة المذكورة وأن مؤخر الصداق الذى دفعه كان ١٥٠ درهما. أما الصداق لدى أبناء أهل الذمة فقد كان مقاربا لتلك المبالغ التى سبق ذكرها، فالوثيقة رقم٣٠٢ المؤرخة فى٢ رجب ٧٩٤هـ/ ٢٥ مايو ١٣٩٢م فقد جاء فيها أن جمال الدين بن عبد الله بن منصور بن إبراهيم العابد لله من قرية القِلانسوه يمنح مخطوبته سعيدة بنت توما بن توكل النصرانية صداقا قدره ٤٠٠ درهما، وجاء على ظهر الوثيقة أنه بتاريخ ٤ صفر سنة ٧٩٥هـ / ٢٠ديسمبر ١٣٩١م أن "سعيدة تسأل زوجها عبد الله أن يطلقها فى مقابل أن تدفع له ٤٠٠ درهما، وأنه قبل ذلك".[١٣]

وينبغى أن نشير إلى أن المهور تناسبت تماما مع دخل الفرد فى ذلك العصر، إذ تشير الوثيقة رقم ٦١٠ وهى بتاريخ ٢ صفر سنة ٧٩٣هـ / ٩ يناير ١٣٩١م إلى أن " محمد بن على بن عثمان الصلخدى النساج بالقدس دفع

لمخطوبته روحه بنت عبد الله صداقاً قدره ستة دنانير ذهب أى حوالى ١٤٤ درهماً. كما أن الوثيقة رقم ٢٩١ المؤرخة فى١٥جمادى الأولى سنة ٧٨١هـ / ٢٩أغسطس ١٣٧٩م تذكر أن "شمس الدين محمد بن محمد بن يوسف، المعروف بالمصرى، يمنح مخطوبته عروس بنت الحاج أحمد بن حسين النابلسية صداقا قدره١٥٠ درهماً دمشقياً. والوثيقة رقم٦٤٦ بتاريخ ١٢صفر سنة٧٩١هـ / ١٠فبراير ١٣٨٩م تذكر أن إبراهيم بن على بن إبراهيم الدمشقى اللبان الحاضر بالقدس، يمنح مخطوبته زمرد بنت عبد الله بن عبد الله عتاقة الست ستيتة صداقاً قدره ٣ دنانير ذهب أى حوالى ٧٢ درهماً . وعلى الظهر من الوثيقة هناك إشهادان، الإشهاد الأول عبارة عن خمسة أسطر وتوقيع شاهدين بتاريخ ٢٧جمادى الأولى سنة٧٩٢هـ/ ١٣ مايو ١٣٩٠م جاء فيه أن إبراهيم المذكور فى وجه الوثيقة يطلق زمرد ، وأنها أقرت بعدم وجود أيه حقوق مالية طرفه. يلى ذلك الإشهاد الثانى من ١٢سطراً وتوقيع ٣شهود وعلامة القاضى فى الهامش الأيمن من الوثيقة بأنها تزوجت من شخص آخربعد وفاء العدة يدعى صبيح ومنحها صداقاً قدره ٥ دنانير مصرية ذهباً. وفى ٣ شوال سنة ٧٩٣هـ/ ٣سبتمبر ١٣٩١م هناك إقرار من زمرد بأنها تسلمت مؤخر صداقها من صبيح الذى طلقها(١٤) ومما سبق يتضح لنا أن أعلى صداق كان٢٤٠٠ درهما بينما أقل صداق كان ٣ دنانير أى حوالى ٧٢ درهما .

سن الزواج : -

الحقيقة أن الوثائق التى بين أيدينا وهى ما بين ١٣٠٠ــ ١٥٠٠ وثيقة ليس بها ذكر لسن الزواج ، وكذلك المصادر التقليدية . إلا أننا من خلال دراسة وثائق حصر الإرث المختلفة والتى قاربت ٤٠٠ وثيقة نستطيع القول بأن نسبة الأبناء القصر الذين خلفهم المتوفون كانت كبيرة ، ونستنتج من ذلك أن الزواج فى مدينة بيت المقدس كان يتم فى سن متأخرة نسبياً . وهذا معقول بالنسبة للمعطيات الأخرى المعروفة فى المجتمع الزراعى، مثل حرص الأهل على زواج الأبناء

فى سن مبكرة لأسباب إجتماعية واقتصادية، وأن سن الزواج كان مرتفعا بين الرجال. إلى جانب طول أعمار الزوجات بالنسبة للأزواج وخصوصاً من بقى منهن على قيد الحياة بعد وفاة أزواجهن ، مما يدل على مقاومتهن الطبيعية ومناعتهن حين كن صغيرات فبقين عندئذ على قيد الحياة أو بعبارة أخرى أن سن الزواج كان مرتفعا عند الرجال ومنخفضا عند النساء .(١٥)

تعدد الزوجات

بالرغم مما هو شائع من أفكار عن تعدد الزوجات فى المجتمعات الشرقية بوجه عام والإسلامية بوجه خاص ، فإننا من خلال تفحصنا لوثائق حصر الموجودات ضمن مجموعة وثائق الحرم القدسى الشريف ، والتى قام بتسجيلها جماعة من الكتبة فى حضور الشهود العدول من قبل الحاكم الشرعى للقدس وهو قاضى القضاة الشافعى ، أو من ينيبه عنه من ديوان المواريث الحشرية الذى كان يدخل شريكا فى التركة وخصوصا لمن لم يترك ورثة يستغرقون الإرث كله ، والتى جاء فى معظمها إسم الزوج والزوجة فإننا لم نعثر سوى على وثيقتين تفيدان أن الشيخ برهان الدين الناصرى قارئ الحديث بالمسجد الأقصى ، وأحد الصوفية فى الخانقاه الصلاحية بالقدس قد كان له زوجتان ، الزوجة الأولى وتدعى شيرين بنت عبد الله(١٦) . أما الزوجة الثانية فهى فاطمة إبنة عبد الله بن فهد الخليلية .(١٧) مما يدل على تدنى نسبة تعدد الزوجات وتماسك الأسرة المقدسية فى ذلك العصر .

معدل الإنجاب

إن أول ما يسترعى إنتباه من يتصفح مجموعة وثائق الحرم وخصوصا وثائق حصر الإرث هو ارتفاع معدل إنجاب الأطفال عند مسلمى القدس بوجه خاص . فالوثيقة رقم ٦١٣ المؤرخه فى ١٩ذى القعدة سنة ٧٩٦ هـ / ١٣٩٤م تفيد أن صاحب الوثيقة ويدعى شرف الدين محمود بن شهاب الدين الخوارزمى قد أنجب من زوجته المرأة الكامل سراملك عتاقته عشرة أولاد.(١٨) بينما تذكر لنا

الوثيقة رقم ١٨٤ بتاريخ ٢رمضان سنة ٧٨٩هـ أن المرحوم ناصر الدين محمد الحموى أنجب أولادًا أربعة هم " عمر وأبى بكر وسلما وسارة ..."[١٩] وتشير الوثيقة رقم٧٠٥ المؤرخة فى ٢٣جمادى الثانى ٧٩٦هـ / ٢٥ أبريل ١٣٩٤م إلى أن إبراهيم بن محمد بن عبد الله الطبلاوى السمان حدد ورثته بأنهم: زوجته وأطفاله: ستيتة ، ومنصور، وناصر، وعبد لله، وسليمان ، وسعيد ، وعبد الله الحاضرون ببيت المقدس. وأحفاده أحمد، وحامد ، وأحمد ، وعلى ،وإبراهيم، أى أن عدد أولاده سبعة غير أحفاده[٢٠] والوثيقة رقم ٦٩٥ المؤرخةفى٢٧شوال سنة٧٩٥هـ/ ٥ سبتمبر١٣٩٣م تفيد أن عبد لله بن محمد قدأنجب سبعة أولادهم: غانم، ومحمد، وأبا بكر، وعلى، وخالد، وفاطمة، وعلية[٢١].

وهناك العديد والعديد من الوثائق التى تؤكد إرتفاع معدل الإنجاب بحيث نقف منها على أن متوسط الإنجاب كان لا يقل عن ثلاثة أطفال أو أربعة ، ومن النادر أن تجد من بين المسلمين من لم ينجب أو أنجب طفلا واحداً .

أما بالنسبة لأهل الذمة فكان معدل الإنجاب قليلاً عندهم ، فالوثيقة رقم ٣٨٤ وهى بتاريخ ٤ اذى القعدة سنة ٧٩٥ هـ / ٢١ سبتمبر ١٣٩٣م ، وهى وثيقة حصر موجودات إمرأة مسيحية على فراش المرض، تدعى أفروشية بنت التاج إسحاق النصرانية اليعقوبية والتى تقطن فى دير الأقباط فى القدس، قد أنجبت بنتا واحدة تدعى فخر النساء بنت سالم . والوثيقة رقم ٤٠٥ المؤرخة فى ١٤ جمادى الثانى٧٩٦هـ/ ٢٩أبريل١٣٩٤م وهى وثيقة حصر موجودات إمرأة يهودية ضعيفة على فراش المرض تدعى قمر بنت إسحاق بن مناحم العبرية أشهدت فيها قاضى القضاة الشافعى أن حفيدها موسى بن صمويل الغائب فى دمشق هو وريثها الوحيد بعد وفاة والده ووحيدها صمويل. كما أن الوثيقة رقم ٥٠٣ وهى بتاريخ ٤ ذى القعدة سنة ٧٩٥هـ / ١١سبتمبر ١٣٩٣م وهى وثيقة حصر موجودات شخص مسيحى مريض يدعى رشيد بن هارون بن سمعان النصرانى الشوبكى، أشهد على نفسه أن ورثته زوجته مريم بنت فريج بن شبل النصرانية

الشوبكية، وبنتيه ست الأهل وست النظر، وأخاه غانم الغائب فى الشوبك.(٢٢)

ولعل السبب فى ارتفاع معدل الإنجاب راجع لأهمية الأطفال بالنسبة للآباء والأمهات، لأن الأطفال متعة الحياة، ويمدون والديهم بالحافز على الكفاح والمرح، كما أن كثرة الإنجاب هى الحماية الأفضل للأب الكبير فى السن، ولأنهم هم العصبة التى تحقق القوة، سوف يحلون محله فى العمل ويحققون تراكم الثروة وربما يكون الدافع لهم الظروف الصحية التى عاشها الناس فى ذلك الزمان وكثرة الوفيات بالنسبة للمواليد. (٢٣)

وضعية المرأة الاجتماعية

تحرص الوثائق حرصا شديدا على تحديد وضعية المرأة فى المجتمع ، فإذا كانت من النساء الحرائر بالوراثة ، فعند ذلك غالبا ما تلقب بلقب " السيدة المصونة" أو " الحرمة " أو " الأصيلة " أو " ست الكل " أو " ست الأهل" أو " ست النظر " أو " ست الحكام " ، كما كانت تكنى بإحدى الكنى وخصوصا إذا لم تنجب ولداً فيقال لها مثلا " أم الخير"، " أم محمد" ، " أم الحسن " وغيرها من الكنى. كما تحرص الوثائق على ذكر أصلها ، فإذا كانت أصلا من القدس فتنسب إليها ويقال إنها "المقدسية" ، وإذا كانت من غير القدس فيتم ذكر ذلك مثل "الدمشقية"، و"الحلبية"، و"الحموية"، و"الشوبكية" ، و"الرملية"، و"الصفدية"، و"النابلسية"، و"الخليلية"، و"المصرية"، و"المغربية"، و"العجلونية"، و"الصورية"، و"الطرابلسية" وإلى غير ذلك من ألقاب النسبة التى تحدد الأصل. ثم يذكر اسم والدها وجدها على الأقل. أما إذا كانت جارية فى الأصل وتم عتقها، فيقال لها فلانه عتاقة أو معتوقة فلان أو فلانة. ولأنها مجهولة النسب، ولأن أباها مهما كان هو عبد من عباد الله فيقال لها بنت عبد الله. وإذا كانت متزوجة حرة أم جارية الأصل، فيتم ذكر إسم زوجها فيقال لها زوجة فلان، أما إذا كانت طلقت منه فيقال لها "مطلقة فلان" ثم يذكر إسم والد الزوج وأحيانا إسم أبيه وجده ، وإذا

توفى زوجها فيقال لها "زوجة المرحوم فلان". وغالبا ما يتم ذكر اسم حرفة الزوج أصلا زيادة فى الاحتياط كأن يكون نساجا ، حدادا، خياطا ، تاجرا، فحاما، لبانا، صباغا، صوفيا، دلالا، سقاء، بقالا، بناء، وإلى غيرذلك من المهن [٢٤]

حالات الزواج المختلفة

زواج الرقيق

تعكس لنا كثير من وثائق الحرم القدسي الشريف حالات الزواج المختلفة ، ومنها حالات الزواج التي كانت تتم بين الرقيق بعضهم وبعض ،وخصوصا بعد العتق وأن العتيقة أو العتيق يظلان يحملان اسم مولاهما . فالوثيقة رقم ٥٧ والمؤرخة في ٢٧ شوال سنة ٧٩٣هـ /٢٧ سبتمبر سنة ١٣٩١ م تذكر أن جورير بنت عبد الله عتاقة فاطمة بنت عبد الله الدمشقية ،زوجة فرج بن عبد الله عتاقة مسعود بن إبراهيم من قرية القلندية في إحدي ضواحي بيت المقدس .كذلك الوثيقة رقم ١٢٣ المؤرخة في ١٨ ذي الحجة ٧٩٥هـ /٢٥ نوفمبر ١٣٩٣ م وهي وثيقة حصر موجودات إمرأة تدعي "هيفاء عتيقة الست فاطمة بنت أرغون من حماة " وأن الورثة هم :" زوجها طيبغا المعروف أنه عتاقة سالم الأنكال الحاضر معها في القدس، وأختها ،الست فاطمة ..." [٢٥]

الزواج من الجوارى

تشير بعض الوثائق إلى عدد من الحالات التي قام فيها السيد بعتق جاريته والزواج منها ، بل إنه يحبس عليها بعض الأوقاف حتي يضمن لها موردا ماليا خشية ألا ينجب منها ، أو أن تصادر أملاكه . من ذلك الوثيقة رقم ٤٥٧ المؤرخة في ٤رمضان سنة ٧٩٦ هـ /٣ يونيو ١٣٩٤ م تفيد أن أحد موظفي بيت المقدس ويدعي علاء الدين علي بن قيران متولي الليل في القدس قد أعتق جاريتة طغتاي وتزوجها وأوقف عليها دارا في خط أولاد الشرف ،أي في الحارة المعروفة بحارة الشرف، والتي كان يطلق عليها أيضا حارة الأكراد . كما كان يعتقها لكي

يتزوجها شخصا آخر من الأحرار فالوثيقة رقم ٥٥٥ المؤرخة في غرة ذي الحجة سنة ٧٩٥هـ/ ٨ أكتوبر ١٣٩٣م، وهي وثيقة حصر تركة إمرأة متوفاة تدعي"الحاجة ألفية بنت عبد الله ، عتاقة علي بن حسن الدلال في سوق الرقيق بحلب، زوجة الحاج علي بن محمد بن محمود الحلبي"والتي كانت تقيم في خان باب حطة ، وورثتها هم :" زوجها وحفيد معتقها، جمال الدين يوسف الغائب في حلب"، كذلك الوثيقة رقم ٦٧٩ المؤرخة في ٢١محرم سنة ٧٩٤هـ/ ١٠ديسمبر ١٣٩١م،وهي وثيقة حصر موجودات سيدة ضعيفة علي فراش المرض تدعي نارنج بنت عبد الله، عتاقة المرحرم سيف الدين سلجوق، زوجة الشيخ الصالح ناصر الدين بن خواجا علي القرمي المقيمة في زاوية الشريف بحارة الأكراد . كما جاء في الوثيقة رقم ٢٩٤وهي بتاريخ ١٦ رمضان ٧٩٦هـ/١٥يوليو ١٣٩٤م أن الحرمة يلخاتون بنت عبد الله، عتاقة سيف الدين بيبغا بن عبد الله بن سيف الدين يلبغا، أقرت وهي علي فراش الموت أن الورثة هم زوجها الغائب ، ومعتقها، وابنها أحمد الحاضر معها في القدس . وماجاء في الوثيقة رقم ١٣٠ المؤرخة في٢٢ ذي القعدة سنة ٧٩٥هـ/٢٩ أكتوبر سنة ١٣٩٣م،وهي وثيقة حصر موجودات إمرأة علي فراش الموت تدعي لوكار بنت عبد الله التركية عتاقة الست الملك بنت قطلوتمر الناصري ، وذكرت أن ورثتها زوجها محمد الصناديدي الصوفي، الغائب في القاهرة وبيت المال لأنها لم تنجب .[٢٦]

الزواج من الأقارب

هناك بعض الوثائق التي تشير الي حرص كثيرين من المقادسة علي الزواج من الأقارب، لما يحققه هذا النوع من الزواج من ترابط أسري ،وتراكم الثروة وحصرها داخل الأسرة الواحدة . فالوثيقة رقم ٢٥٤ المؤرخة في ١٢ذي الحجة سنة ٧٩٥هـ/١٩ أكتوبر سنة ١٣٩٣م تذكر أن أحد أبناء بيت المقدس ويدعي "الحاج أحمد بن علي بن عمر الحلبي" روّج إبنته "فاطمة" لابن عمه "محمد"، وعندما توفي الأول دون ولد ذكر كانت إبنته وابن عمه وهو في نفس

الوقت زوجها ضمن الورثة الشرعيين . والوثيقة رقم ٢٦٣ المؤرخة في ١٢رجب سنة ٧٩٦هـ، تذكر أن عائلة تعيش في بيت المقدس أصلها من حمص ببلاد الشام ، تزوج شاب منها يدعي محمد من بنت عمه حليمة ، وعندما مات عمه والد زوجته ويدعي أبو بكر بن أحمد بن زيد الحمصي ، ورثه هذا الشاب وزوجته ابنة عمه . وتؤكد لنا الوثيقة رقم ٣٩٨ المؤرخة في ١٩ رمضان سنة ٧٩٦هـ/١٨يوليو ١٣٩٤م ما ذهبنا إليه من الحرص الدائم علي الزواج من أقرب الأقارب،وهي وثيقة حصر تركة إمرأة متوفاة تدعي "زهرة إبنة إبراهيم الحلبية، زوجة الحاج أحمد بن أبي بكر الحلبي ،وهو في نفس الوقت ابن عمها".(٢٧)

الزواج من أصول واحدة

ومما يلفت النظر أن الزواج من أصول واحدة كان ظاهرة واضحة في سكان بيت المقدس بجميع أصولهم وطبقاتهم الاجتماعية وطوائفهم الدينية .فقد جاء في الوثيقة رقم ١٩٧ بتاريخ ٢٩ صفر سنة ٧٩٥ هـ وهي تتعلق بتركة شخص يهودي يدعي إسحق بن شمويل ، فعندما مرض مرض الموت أقر بنفسه أمام مندوب بيت المال بعد أن تم حصر ممتلكاته أنه متزوج من "سمحة إبنة يهودا الإفرنجية الحاضرة معة بالقدس ولها موخر صداقها عليه ستين أفلورى ذهب" وأن ورثته هم " زوجته المذكورة ووالدته دوسا بنت سلتين الإفرنجية الحاضرة معه بالقدس الشريف " وعلي هذا فهذه الوثيقة تؤكد لنا حرص هذا اليهودي الإفرنجي علي الزواج من بنات جنسه، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى حرص كثير من الأزواج علي إظهار أن تركته مدينة لزوجته وخصوصا إذا لم ينجب منها ولدا ذكرا وبذلك يدخل ديوان المواريث الحشرية شريكا في التركة وهذا ما حاول ذلك الشخص منعه فعندما تم تقييم موجوداته إتضح أن التركة مدينة لزوجته.(٢٨)أما عند المسلمين فكانت ظاهرة الزواج من أصول واحدة تأتي في المقام الأول. فالوثيقة رقم ٤٥٦ بتاريخ ١٤ رمضان ٧٩٥هـ/٢٤ يوليو ١٣٩٣م جاء فيها أن الزوج هو"محمد بن يوسف بن إبراهيم الدمشقي"،

وأن الزوجة هي "الحاجة خاتون بنت محمد بن عبد الله الدمشقية". والوثيقة رقم ٩٢ بتاريخ ٢٨ شوال سنة ٧٩٥هـ/٦سبتمبر ١٣٩٣م وهي وثيقة حصر موجودات إمرأة تدعي "بركة بنت علي المصرية " وزوجها يدعي "علي بن حسن بن علي المصري الموجود معها ". والوثيقة رقم ١٢٦ المؤرخة في ٧ ذي القعدة سنة ٧٩٣ هـ/٦نوفمبر ١٣٩١م، وهي وثيقة حصر موجودات إمرأة مغربية ذكرت أن وريثها هو زوجها الحاج سعد الدين بن عثمان بن داود المغربي السقاء الحاضر معها. كما أن الوثيقة رقم ١٦٢ تؤكد لنا أن الزوج والزوجة من عجلون. والوثيقة رقم ١٦٦ تؤكد أن الزوج والزوجة من سنجار. والوثيقة رقم ٣٠٠ بتاريخ أول رمضان ٧٩٧هـ/٢٠ يونيو ١٣٩٥م تذكر أن الزوج والزوجة من بغداد. والوثيقة رقم ١٧٢ وهي وثيقة إرث لشخص توفي يدعي "الحاج علي بن أبي بكر سلمان الإسعردي" وزوجته "الحاجة مؤنسة بنت أبي بكر الإسعردية". والوثيقة رقم ٢٣٠ المؤرخة في١٦ ربيع الأول ٧٩٤هـ/ ١١ فبراير ١٣٩٣م جاء فيها أن الزوج هو "يعقوب بن موسي بن يعقوب الخليلي "والزوجة "صالحة بنت أحمد بن إبراهيم الخليلية". والوثيقة رقم ٢٥٤ بتاريخ ١٢ذي الحجة ٧٩٥هـ/١٩ أكتوبر ١٣٩٣م جاء فيها أن الزوج هو "الحاج أحمد بن علي بن عمر الحلبي "وزوجته هي "الحاجة بشر بنت سالم الحلبية الحاضرة معه ". أما الوثيقة رقم ٢٦٢بتاريخ ٦رمضان وبدون ذكر السنة، جاء فيها أن الزوج هو "علاء الدين علي بن حسن الحمصي" وأن الزوجة تدعي"فاطمة بنت الشهاب أحمد بن طاهر الحمصية". والوثيقة رقم ٣٩٢ جاء فيها أن الزوج والزوجة من مدينة طرابلس بلبنان. والوثيقة رقم٣٩٤ تذكر أن الزوجين من مدينة عينتاب بتركيا حاليا. والوثيقة رقم ٤٠٢ جاء فيها أن الزوجين من الأكراد. هذا الحشد من الوثائق يؤكد أن الزواج من ذوي الأصول الواحدة كان يمثل أغلب حالات الزواج(٢٩) .

الزواج من أصول متباعدة

ثم نأتي إلى حالات الزواج من ذوي الأصول المتباعدة نوعا ما،فالوثيقة رقم ٤٣٢ بتاريخ ٧ ذي الحجة ٧٩٥هـ/٤ أكتوبر ١٣٩٣م تذكر لنا أن الزوجة وتدعي "حليمة بنت محمد الدمشقية " وزوجها هو "محمد بن نصر الكركي "أي من مدينة الكرك بالأردن حاليا بينما تذكر الوثيقة رقم ٤٤٤ بتايخ ٣٠ رمضان ٧٩٥هـ/٩ أغسطس ١٣٩٣م أن الزوجة وتدعي "مريم بنت سعيد المصرية " والزوج هو" جمعة بن عبد الله بن سلمان البغدادي ". وتذكر الوثيقة رقم ٤٠٤ أن الزوج هو "الحاج محمد بن حسن الحلبي " والزوجة هي "فاطمة بنت يوسف بن صالح الدمشقية ".بينما تذكر الوثيقة رقم ٤٠٦ في نفس العام أن الزوج هو "الحاج محمد بن حسن الرحبي"نسبة إلى مدينة الرحبة ، بينما الزوجة هي"فاطمة بنت يوسف بن صالح الدمشقية ".وهي غير الزوجة المذكورة قبلها .وتذكر الوثيقة رقم ٣٦٢ من نفس العام أن الزوجة هي "بلغان بنت علاء الدين علي بن خالد بن عبد الله المصرية "والزوج هو "الحاج عمر بن محمد بن عامر الدمشقي". وتذكر الوثيقة رقم ٢٤١ في سنة ٧٩٣هـ/١٣٩١م أن الزوج هو "إبراهيم بن محمد المصري" والزوجة تدعي "سوملك بنت عبد الله الخليلية " أي من مدينة الخليل . وتذكر الوثيقة رقم ١٧٠ أن الزوج من مدينة إسكندرونة في تركيا حاليا، بينما الزوجة من مدينة دمشق. وتذكر الوثيقة رقم ١٥٨في سنة ٧٩٥هـ/١٣٩٣م أن الزوجة من دمشق ، بينما زوجها من مدينة بعلبك في لبنان. كما تذكر الوثيقة رقم ١٦٠ من نفس السنة أن الزوج من مدينة الموصل،بينما الزوجة من مدينة دمشق. و تذكر الوثيقة رقم ١٥٦ في نفس السنة أن الزوج من مدينة بغداد ، بينما زوجته من مدينة دمشق . كذلك تذكر الوثيقة رقم ٨٣ المؤرخة في ٢٥ شوال سنة ٧٩٣ هـ/٢٥ سبتمبر ١٣٩١م وهي وثيقة حصر موجودات شخص مريض ملازم الفراش يدعي "أحمد بن أبي ساول الطرابلسي القطان" وأن زوجته تدعي" ست الأهل بنت محمد النابلسية "أي أن

الزوج من طرابلس الشام بلبنان ،والزوجة من نابلس بفلسطين(٣٠) .

وقد يتراءى للبعض أن حالات الزواج التي ذكرناها إما من بلاد الشام بعضها البعض، أو من بلاد الشام ومصر، أو من بلاد الشام والعراق، ولكن لدينا بعض حالات للزواج أبعد من تلك التي ذكرناها، وهي إن دلت علي شئ فإنما تدل علي التوحد وربط أواصر الأخوة بالمصاهرة وهذا ما نحن الآن في أشد الحاجة إليه. فالوثيقة رقم ٥٢٠ المؤرخة في ١٩ ربيع الأول سنة ٧٩٤هـ / ١٤ فبراير سنة ١٣٩٢م، وهي وثيقة حصر موجودات شخص مريض وضعيف من تونس كتبها في حضور مندوبي بيت المال من ديوان المواريث الحشرية لأنه لم يرزق من زوجته الدمشقية بولد (٣١).

وتنبغي الإشارة إلى أنه قد وردت عدة وثائق لم يتم فيها ذكر أصل الزوج علي وجه الخصوص، وتم الاكتفاء بذكر اسمه كاملا ومهنتة، وذكر اسم زوجته وأصلها ،مما يرجح أن مثل هذه الحالات كانت حالات زواج بين مقادسة وبنات مدن أخرى. من ذلك ما جاء فى الوثيقة رقم ٤٨١ وهي من وثائق حصر الموجودات الخاصة برجل مريض طريح الفراش يدعي "أحمد بن علي بن أبي بكر السقاء". وبعد أن تم عمل بيان بحصر موجوداته، ذكر أن من ضمن ورثة "زوجته رحمة بنت إسماعيل بن أبي بكر المصرية، المدعوة أم محمد.." وهي لم تتجب منه لذلك ورثه عمه وأولاد عمه مع زوجته المذكورة (٣٢)

سكن العائلة

بداية يجب أن نشير إلى أن أفراد المجتمع في بيت المقدس قد اهتموا إهتماما شديدا ببناء منازلهم لا لتكون مجرد مأوى لأصحابها، بل لتوفر لهم سبل الراحة والرفاهية في ذلك العصر، ومن الطبيعي أن تتفاوت تلك المنازل تفاوتا يتناسب مع مكانة أبناء المدينة من حيث وضعهم الاجتماعي وحالتهم الاقتصادية.(٣٣) مما أدى إلى اختلاف أحياء أو حارات القدس في مستواها لاختلاف ساكينيها، فقد كانت هناك أحياء راقية يسكنها علية القوم من التجار وكبار أرباب الوظائف

الدينية وغيرهم ، مثل حارة السعدية وهي إحدى أرقي حارات القدس السكنية الواقعة داخل الأسوار بين بابي الساهرة والعمود بالقرب من الحرم القدسي الشريف، وحارة الخوالدة بباب حطة[٣٤] بينما تشير كثير من الوثائق إلي أن حارة بني حارث، وحارة المغاربة التي قامت القوات الإسرائيلية بهدمها لتوسيع المنطقة المواجهة لحائط البراق أو المبكي كما يسمونه، إلي جانب حارة الريشة ،وحارة القصيلة ،وزقاق الحبشي قرب سوق القطانين، وحارة اليهود، وحارة المشاعلة، وحارة المشارقة، وزقاق أولاد كيهام، وحارة صهيون، وسويقة باب حطة كانت كلها مليئة بالسكان من أرباب الحرف المختلفة بشتي طوائفهم الدينية. ولم تكن المدينة تعرف التعصب، فقد سكن كثير من أبناء أهل الذمة في منازل يمتلكها المسلمون ، وسكن كثير من المسلمين في منازل يمتلكها أبناء أهل الذمة، بل تجاورت بعض المنشآت الدينية المسيحية واليهودية والإسلامية مع بعضها البعض.[٣٥]

مكوناته

وتألف منزل الأسرة من مبني علي شكل مستطيل أو مربع أو شكل غير منتظم، واشتمل هذا المبني علي عدد من الغرف أطلق علي الواحدة منها مصطلح بيت ، هذه الغرفة هي التي أطلقت عليها السجلات العثمانية إسم أوضة أو أوطة، أو بيت ، وقد جرت العادة أن يتم توزيع الغرف علي طوابق المنزل المختلفة السفلية والعلوية، بينما كانت الغرف المعدة لاستقبال الضيوف في الطابق السفلي بالنسبة للرجال، والطابق الأوسط بالنسبة للنساء.[٣٦]

واشتمل المنزل علي ساحة سماوية هي عبارة عن فراغ معماري يتوسط الدار وتسمي الصحن أو الساحة، وتسمي سماوية لأنها مكشوفة من الأعلي علي السماء، هذه الساحات السماوية كانت ولا تزال موجودة في كثير من منازل مدينة بيت المقدس، وتختلف مساحتها تبعا لاختلاف مساحة المنزل الذي توجد فيه، إلي جانب الدرج الحجر وهو عبارة عن سلم من الحجر يكون غالبا ملتصقا بجدار

الواجهة الرئيسية للمنزل، ومرفوعا علي قوس نصف دائرية لها وظيفة إنشائية تعمل علي رفع ثقل الدرج وإيصاله من أدني نقطة إلي أعلي نقطة، يستخدمه أهل المنزل في الصعود إلي الطوابق العليا والهبوط منها. بالإضافة إلي بيت الراحة وهو ما يعرف اليوم باسم دورة المياه أو الحمام أو المرحاض، ويوجد في جميع مباني المنازل، وغالبا ما يؤدي إلي الساحة السماوية بالقرب من المطبخ ، أو مقابل الغرف. هذا إلى جانب الصهريج، وهو وحده معمارية ملحقة بالمنزل، تقع فى أسفل المنزل، وتسمى أحيانا بئر، وهو معد لجمع مياه الأمطار نظراً لحاجة مدينة القدس عبر تاريخها الطويل إلى مياه الأمطار التى هى المصدر الرئيسى لسكان المدينة.(٣٧) أما أرضيات هذه الغرف فكانت تبلط بأنواع مختلفة من الحجارة، وهى فى غالبها من الحجر الأزرق الملكى الكبير والأملس، ومنها ما كان يبلط على شكل سجادة.(٣٨)

ومن العناصر المعمارية التى استخدمت فى بناء هذه المنازل القبو المحدب، والذى تميزت به كثير من المنازل فى القدس، وهو عبارة عن وسيلة معمارية مقوسة حادة الرأس تعتمد على نقطتى ارتكاز وتم استخدامه داخل المنازل وفى الغرف.(٣٩) كما عرفت بعض المنازل استخدام القبو المخمس ، والذى يتألف من خمس فقرات أو سقف خماسى الفصوص تتصل ببعضها البعض وتلتقى حجراتها فى وسطها بحجر الغلق. كما شاع فى تلك المنازل استخدام القبو المتقاطع وهو عبارة عن قبو مسقوف على شكل متعامد وفق أربعة فصوص، ويطلق العوام على هذا النمط من الأقبية إسم القبو الصليبى أو القبو المصلب. ووجد بكثرة فى غرف المنازل، وخصوصا ذات الأسقف المنخفضة. وقد استخدمت هذه الأنواع من الأقبية بغرض حمل ثقل الطبقات العلوية وتوزيع ثقلها على الجوانب، إلى جانب وظيفتها الزخرفية عندما يتم تزيينها بأشكال هندسية ونباتية.(٤٠)

وعن طريقة بناء هذه المنازل، فقد عرفت طريقة استخدام البوائك جمع بائكة لما تتيحه من فرغات، وما تقوم به من حمل الأبنية السكنية، ولوقاية المشاة من

الأمطار الشديدة وأشعة الشمس الحارقة.(٤١) كما تم استخدام القباب السطحية الضحلة ذات الرقبة القصيرة فوق الدور السكنية، وكذا تم استخدامها في تشييد المنازل، بحيث نجد أكثر من قبة في سطح المنزل الواحد. هذه القباب كان يتم تشييدها من الحجر والشيد وهو مسحوق طبيعي أبيض اللون مستخرج من الحجر واستعمل قبل اكتشاف الأسمنت في العمارة، وجرت العادة بأن يتم تزيين هذه القباب برسومات هندسية مثل المثلثات والأهلة العديدة وغيرها.(٤٢)

أما عن بناء الأبواب والشبابيك فقد تم استخدام الأقواس المدببة والأقواس نصف الدائرية والمزخرفة بأشكال هندسية مختلفة، كما استخدمت القمريات وهي عبارة عن فتحات دائرية تعلو باب الدار أو المنزل، والغرض منها هو دخول أشعة الشمس بشكل خافت إلى صحن الدار. أما واجهات المنازل فقد تم فيها استخدام الرواشن، ومفردها روشن، وهي كوة أو نافذة تخرج من الطبقات العلوية لبناء المنزل وتكون بارزة إلى الخارج، ويتخلل الروشن شبابيك أو طاقات مشبكة تطل على الطريق العام. ويتميز الروشن منها بجمال الشكل من الخارج في حين يكون من الداخل على شكل غرفة داخل غرفة لإدخال أشعة الشمس، وتوفير الإضاءة المناسبة والتهوية. كما تم استخدام الأفاريز ومفردها إفريز، وهو عبارة عن إطار أو حلية بارزة وغائرة تحيط بعقد خارجي أو داخلي، ويكون الإفريز غالبا في أعلى الجدار مما يجعله يخفف من سقوط الأمطار، ويعمل على تثبيت أطراف المشربيات أو الراوشن.(٤٣)

مواد البناء

أما عن مواد البناء التي استخدمت في المنازل فيأتي في مقدمتها أنواع مختلفة من الأحجار، منها الحجر الملكي، والذي عرف في العصر العثماني بالحجر السلطاني نسبة إلى السلطان سليمان القانوني الذي بنى سور القدس منه، كما يسمى بالحجر المزي، ويسمى أيضا بالحجر الأزرق لميله إلى الإصفرار ثم الإزرقاق بعد قطعه من محاجره الكائنة في حي الشيخ جراح، وباب العمود

ومغارة الكتان وبيت أونيا. ومن الحجارة المستعملة كذلك حجر الهور الكلسي المستخدم في بناء الواجهات[٤٤]إلى جانب استخدام الخشب عند صناعة القوالب الخاصة بالأقبية والأقواس، أو عند بناء الأبواب والشبابيك، وفي السقوف والجدران الداخلية. وقد أشارت بعض الحجج الشرعية إلى استخدام الأخشاب عند ترميم الأبنية، وكان يتم الحصول على الخشب المستعمل في البناء من الأشجار المزروعة حول القدس في جبل الزيتون والمناطق القريبة من القدس وبها أشجار الزيتون والتفاح والسفرجل والتوت والرمان والليمون والتين وغيرها.[٤٥]

كذلك تم استخدام مادة القصارة وهي عبارة عن خليط من القصرمل أي الرماد المتخلف عن الحمامات مع الشيد والرمل والماء، هذا الخليط عرف باسم القصارة البيضاء، إلى جانب خلطة أخرى شاعت منذ العصر الأيوبي ومكونة من الشيد والكتان المشبع بزيت الزيتون والرمل، وغالبا ما كانت تستخدم كقصارة تكسو الجدران الداخلية للمباني. هذا إلى جانب الكحلة الحمراء المكونة من الشيد المطبوخ من الحجر الوردي والتي أفادت بعض الحجج الشرعية استخدامها في تغطية المسامات الفاصلة بين المداميك وعند ترميم المباني.[٤٦] ومن المواد التي تم إستخدامها في بعض منازل القدس الرخام، وقد كثر استخدامه في عمل الفسقيات وتكسية بعض مداخل الدور وأرضياتها وحوائطها.

وللتغلب على مشكلة رشح الماء أو الرطوبة من الجدران والتي تظهر في الشتاء بوجه خاص، فقد تم استخدام كسر الفخار بعد خلطه بالكتان المشبع بزيت الزيتون والشيد في طلاء الجدران الداخلية، قبل كسوة هذه الجدران بمادة القصارة، كذلك لإكساب البناء البرودة الكافية في أيام الصيف.[٤٧] كما كانت أحجار الكلس من المواد المستخدمة في البناء، وهي أحجار جذابة ذات لون وردي وشديدة الصلابة في نفس الوقت، بحيث أضفت على مباني المدينة طابعا مميزا، فضلا عن مقاومتها للرطوبة والأمطار، بحيث لا يمكن أن يحدث لألوانها

أى تغيير أو لأشكالها على طول الزمان. (٤٨)

وقد ظلت هذه المواد مستخدمه فى العصر العثمانى، فعندما زار الرحالة التركى أوليا جلبى القدس ووصف بعض حاراتها ومبانيها قال: ومبانى هذه المدينة من الحجارة، وليس فيها مبان خشبية مطلقا. ومع ذلك فالأبواب مصنوعة من الخشب. (٤٩)

وينبغى أن نشير إلى أن بعض المنازل فى الأحياء الراقية قد اشتملت على حواكير ومفردها حاكورة، وهى غالبا ما تكون ملاصقة للمنزل من الخارج وتزرع بالأشجار المثمرة مثل الكروم والمشمش والتفاح والتين والزيتون والرمان والتوت، وبعض الخضراوات أما الحواكير الكبيرة فهى غالبا ما تكون مستقلة عن المنازل التى قد تحيط بها من جهاتها المختلفة وتحدها من جهة أو أكثر، وتعرف الحاكورة الكبيرة غالبا باسم واقفها أو شجرة تميزها أو عائلة ترعى شئونها أو ولى صالح مدفون بها.(٥٠) وعادة ما كان يخصص جزء من مساحة المنزل وخصوصا منازل الأثرياء لعمل إسطبل يتسع لعدد من الخيول اللازمة لأفراد الأسرة الواحدة، وغيرها من دواب الحمل، وفى داخل الإسطبل دورة مياه ومطبخ للسياس وحجرة للنوم، فضلا عن مستودع لحفظ الأتبان والأعلاف وآلات الركوب المختلفة. وأحيانا يخصص جزء من هذا الإسطبل لتربية بعض الطيور وهو ما عرف فى مصطلح ذلك العصر باسم الحضير وكما سنرى فى بعض الوثائق فى الصفحات التالية .

وتجب الإشارة إلى أنه نتيجة لارتفاع عدد السكان فى العصر المملوكى بوجه خاص وبعد أن عادت المدينة إلى أحضان الدولة العربية الإسلامية ونعمت بالاستقرار، إزداد الطلب على السكن مع قلة فرص البناء فوق الأراضى داخل المدينة لصغر حجمها، فتوسعت أحياء عديدة خارج السور، هذا إلى جانب إتجاه رجال المعمار إلى البناء فوق القناطر التى تعلو الطرق والشوارع، مما أفضى إلى بناء البائكة المحمولة على قنطرة، وأن يعيد المالك بناء مسكنه فيأخذ علو

الطريق العام كقنطرة، أو يستأذن من جاره أن ترتكز عضائد قنطرة منزله على جدران الجيران. وتعطينا الوثيقة رقم ٣٣٦ مثالاً لهذه الحالة والمؤرخة فى ٢٢جمادى الآخرة سنة ٧٨٨هـ، وفيها يأذن الحاج محمد بن أحمد بن محمد البصراوى القصاب بالقدس الشريف لأحد صوفية الخانقاه الصلاحية وهو برهان الدين الناصرى "أن يلصق بناه إلى ملكه من جهة القبلة ومن جهة الغرب على حكم الأرجل القديمة الرومية الملاصقة لملكه."والمقصود بالأرجل القديمة الرومية الأعمدة الرومانية التى تستند عليها إحدى القناطر. (٥١)

كذلك نجم عن ضيق مساحة المدينة واستخدام القناطر والأعمدة فى عمليات البناء فوقها، أن ظهر ما أصطلح على تسميته بحق الإرتفاق، ويعنى ضرورة مرور الجار من دار جاره لعدم تمكنه من سلوك الطريق العام، أو أن يكون له حق الاشتراك فى بعض المنشآت مع جيرانه مثل قنوات المياه التى قد تمر من أسفل دور الجيران.(٥٢) واستمر الحال على ذلك طوال العصر العثمانى، فلم يحدث أى تغيير يذكر فى منازل القدس، وطريقة بنائها، ومكوناتها، فقد جاء فى السجل رقم ٢٢٩ من سجلات المحكمة الشرعية أن إحدى الدور برأس عقبة المولى (عقبة الراهبات) كانت مشتملة على "علوى وسفلى فالعلوى يشتمل على طباق بها سلالم حجر وأربع بيوت [غرف] بأحدها حمام ومطبخ وساحات والسفلى يشتمل على أوطتين وإيوان ومرتفق وأربعة صهاريج وإسطبل ومدفن ومنافع ومرافق وحقوق شرعية. . .".(٥٣) كذلك جاء فى السجل رقم ٢٩٤، وهو سجل وقفيات القدس ذكر الدار التى اشتراها أحد أبناء المدينة ويدعى سليمان جلبى قطينة"المشتملة على علوى وسفلى منها يشتمل على طبقة علوية يصعد إليها بسلم من حجر وحضير بها طاقات وأربعة بيوت بأحدهم حمام وعلى إيوان ومطبخ ومرتفق لطيف ومرتفق آخر وساحات سماوية وسفلى يشتمل على أوطتين وإيوان ومرتفق وأربعة صهاريج لجمع ماء الأشتية وإسطبل ومدفن ومنافع وحقوق شرعية...".(٥٤)

والأهم من ذلك أن الوثائق تلقى كثيرا من الأضواء على سكن العائلة لا من حيث مكوناته، والمواد المستخدمة فى بنائه، ومساحته، وعدد طوابقه، وتكسية جدرانه فحسب، بل ومن حيث نوعيته، فهل هو ملك للأسرة، للزوج أو الزوجة، أو أحد الأبناء، أم هو إيجار، ونوعية الأفراد الذين يسكنونه، ثم هل كان السكن فى إحدى المؤسسات الخيرية والدينية أو فى منشأة تجارية. ففى حالة السكنى فى منزل أحد أفراد العائلة تتم الإشارة إلى ذلك فى صراحة مثلما جاء فى الوثيقة رقم ٢٨٨ بتاريخ ٥ رجب ٧٩٦هـ/ ٦ مايو ١٣٩٤م وهى وثيقة حصر تركة إمرأة توفيت فى "دار ابنها على بنى الحاج حسن بن على". وقد يكون السكن ملكا للزوجة كما جاء فى الوثيقة رقم٤٥٧ بتاريخ ٤ رمضان ٧٩٦هـ / ٣ يوليو ١٣٩٤م وهى وثيقة حصر موجودات إمرأة مريضة وطريحة الفراش تدعى طقطاى بنت عبد الله زوجة علاء الدين على بن قيران، تم حصر موجوداتها فى "دارها الموقوفة عليها فى خط أولاد الشرف "أى فى حارة الشرف والتى كان يطلق عليها كذلك إسم حارة الأكراد. كما قد يكون سكن العائلة فى أسرة الزوج، فقد جاء فى الوثيقة رقم٤٩٣ بتاريخ ٣٠ ذى القعدة سنة ٧٩٥هـ / ٧ أكتوبر سنة ١٣٩٣م وهى وثيقة حصر موجودات إمرأة تدعى الحاجة قوزات بنت إسماعيل بن على العجلونى، زوجة الحاج محمد بن أحمد السكندرى، المعروف بالنورى، وسكنها فى دار الأمير الكبير المجاهد زين الدين غانم النورى.(٥٥)

ومن الأشياء المألوفة أن بعض دور بيت المقدس كان يطلق عليها أسماء ملاكها من النساء فقد جاء فى الوثيقة رقم ٤٧٩ المؤرخة فى ٧رمضان ٧٧٦هـ/ ٦ يوليو ١٣٩٤م أن إحدى الأسرات كانت تقطن فى دار "تسمى دار بنت السراج المغربية.. فى حارة المغاربة" والتى كانت تقع فى مواجهة حائط البراق أو حائط المبكى كما يسميه اليهود.

ومن الطريف أن نذكر أن مدينة بيت المقدس قد عرفت ما هو مطبق حاليا فى بعض بلدان العالم العربى، وبخاصة فى منطقة الخليج من تخصيص منازل لا

يسكنها إلا العائلات، ومنازل أخرى تخصص لسكنى العزاب، وخصوصاً من أرباب الحرف الذين تضطرهم ظروفهم إلى السكنى فى مكان واحد، فالوثيقة رقم ٥٢٦ بتاريخ ٢٧ شوال سنة ٧٢٥هـ/٥ سبتمبر ١٣٩٣م تشير إلا أنه تم حصر موجودات شخص مريض طريح الفراش يدعى"ناصر الدين محمد بن شرف الدين موسى بن يوسف الدمشقى" يسكن فى غرفة فى "بيت سكن الخبازين" وأقر أن ورثته هم: أخواته مغل، خاتون، وسالمة، الغائبات فى دمشق، وأمه الحاجة ملك، وبيت المال. بل تشير الوثيقة رقم ٥١٤ إلى وجود حى بأكمله من الحرفيين ربما كانت منازله من هذا النوع . وقد يكون السكن عبارة عن غرفة داخل إحدى المنشآت الاجتماعية، فمن الأضواء الجديدة التى تلقيها الوثيقة رقم ٥٢٧ بتاريخ ١٧ ذى القعدة سنة ٧٩٥هـ / ٢٤ سبتمبر ١٣٩٣م أن بعض الربط ومفردها رباط كان ينزل فيها بعض الأسر الصغيرة والفقيرة فى نفس الوقت. فهذه الوثيقة تشير إلى إمرأة ضعيفة مريضة مرضاً يخشى منه الموت، فتم حصر موجوداتها فى حضور مندوب عن بيت المال وبعض الشهود العدول من طرف قاضى القضاة الشافعى الحاكم الشرعى فى القدس وذكرت أن مستحقى إرثها هم:"زوجها محمد بن أحمد بن إبراهيم الكركى النساج الحاضر معها، وأحفادها محمد وأحمد وياسين. . .". أو يكون غرفة داخل إحدى المنشآت التجارية، فالوثيقة رقم ٤٦٤ بتاريخ ٣ رمضان ٧٩٥هـ/ ١٣ يوليو ١٣٩٣م، وهى وثيقة حصر موجودات إمرأة مريضة ضعيفة تدعى خديجة بنت الحاج على التركى تقطن فى غرفة فى خان عادار ظاهر القدس الشريف بالمغائر، وتم الحصر فى وجود نائب وكيل بيت المال نائب الحسبة فى نفس الوقت والشهود العدول من طرف قاضى القضاة الشافعى، وذكرت أن ورثتها هم بناتها فاطمة، وحليمة، وعائشة الحاضرات معها بالقدس وبيت المال لأنها لم تنجب ولداً. وجاء فى الوثيقة رقم٤٤٨ بتاريخ ٢٤ ربيع الأول ٧٩٦هـ / ٢٧ يناير ١٣٩٤من وهى وثيقة حصر تركه شخص متوفى يدعى الشيخ عمر فى رباط المرحوم علاء الدين البصير وأن الورثة هم زوجته

وأولاده وبناته. كما قد يكون السكن عدة غرف في منشأه دينية، فقد جاء في الوثيقة رقم ٤٣٨ بتاريخ ١٣جمادى الثاني ٧٩٥هـ/ ٢٦ أبريل ١٣٩٣م، وهي وثيقة حصر موجودات شخص طريح الفراش يدعى فارس بن عبد الله، عتاقة قرقط المغربي في زاوية الشيخ إبراهيم في حارة المرداوية، وذكر أن ورثته هم زوجته عائشة بنت محمد بن يحيى، ومعتقه، وتم الحصر في حضور نائب السلطنة وناظر الحرمين الشريفين للقدس والشهود العدول من طرف القاضي الحنفي. وما جاء في الوثيقة رقم ٤٢٩ بتاريخ ٢٠ ذي القعدة ٧٩٥هـ/ ٢٧ سبتمبر ١٣٩٣م وهي وثيقة حصر موجودات رجل طريح الفراش يدعى الشيخ يعقوب بن غازي التركماني الطباخ في زاوية محمد بيك. وقد تم الحصر في حضور نائب بيت المال والشهود العدول من طرف القاضي الشافعي ، وأقر أن ورثته هم زوجته قطلوا بنت عبد الله الحاضرة معه وأخوه البالغ أبو زيد النساج الغائب في عينتاب. ولم تكن المنشآت الدينية التي حوت منازل استوطنها بعض العائلات المقدسية كلها خاصة بالمسلمين، بل هناك مؤسسات دينية خاصة بالمسيحيين مثال ذلك ما تذكره الوثيقة رقم ٤٧٤ وهي مكونة من ثلاثة عشر سطراً وعليها توقيع شاهدين، ومؤرخه في ٢٩ذي الحجة سنة ٧٩٣هـ /٢٧نوفمبر ١٣٩١م . وهي وثيقة حصر تركة شخص مسيحي يدعي يعقوب بن يوسف بن مسعود توفي في أحد الأديرة في حارة النصارى وهو"دير معله"، أما ورثته فهم أمه وأخوه سمعان الحاضران معه في القدس. والوثيقة رقم ٥٠٣ المؤرخة في ٤ ذي القعدة ٧٩٥هـ/١١سبتمبر ١٣٩٣م والخاصة بشخص مسيحي توفي في هذا التاريخ بأحد أديرة بيت المقدس ويدعى دير العامود، جاء فيها أن ورثته هم زوجته مريم بنت فريح بن شبل النصرانية الشوبكية ، وبناته ست الأهل وست النظر، وأخوه غانم الغائب في الشوبك، وعلى الوثيقة إشهاد القاضي الشافعي. (٥٦)

ومن الحالات النادرة التي صادفتنا أن يكون سكن الأسرة في إحدى مدارس القدس ، إذ تشير الوثيقة رقم ٦٢٧ بتاريخ ٢٥ جمادى الثاني ٧٩٥ هـ / ٨ مايو

١٣٩٣م، وهى وثيقة حصر تركة إمرأة متوفاة تدعى" فاطمة بنت أحمد بن على" وقد كان محل إقامتها هى وأسرتها "سكنها فى المدرسة الميمونية". ومن الطريف أيضا أن بعض الأسر المقدسية أطلقت على دورها بعض الأسماء التى تخلد ذكرى وطنية أو قومية أو تاريخية، فالوثيقة رقم ٧٦٧ المؤرخة فى ١٥ شعبان سنة ٧٥٩هـ/ ٢٦ يوليو ١٣٩٣م جاء فيها أن منزل إحدى الأسر المقدسية يسمى "دار حطين فى خط باب العمود". وكنا نود أن نخرج من دراستنا لمجموعة وثائق الحرم القدسى الشريف، أو وثائق سجلات المحكمة الشرعية بالقدس عن قيمة الإيجار الذى كان يتم دفعه فى المنازل أو الغرف السكنية، والذى لابد وأن يكون مختلفاً من دار لأخرى حسب المساحة والموقع والحالة التى عليها الدار وما إلى ذلك من أمور، وإن كانت هناك إشارات كثيرة فى العديد من الوثائق عن سكن عدد كبير من الأسرات المقدسية فى دور مستأجرة، إلا أن الوثائق المتعلقة بالإيجار لم تشر إلى قيمة إيجارها باستثناء الوثيقة رقم ١١٤ والتى جاء فيها أن إيجار الدار المذكورة فى هذه الوثيقة وهى سكن شخص يدعى "الحاج أحمد بن ـ" عن شهر ربيع الثانى سنة ٧٨٥هـ / يونيو ١٣٨٣م كان ثمانية دراهم فضة. وقد بخلت علينا الوثيقة بذكر إسم الحى الذى تقع فيه تلك الدار لتحديد ما إذا كان من الأحياء الراقية أم الشعبية أم أحياء الطبقة الوسطى. كذلك الوثيقة رقم ٩٦ والمؤرخة فى١١رجب سنة ٧٨٥هـ/ ١٨ سبتمبر ١٣٨٣م والتى جاء بها أن الدار المؤجرة هى ملك أحد أمراء المماليك ويدعى الحاج ناصر بن عبد الله بن فروخ وكان مقدما للطواشية، وأن داره تقع فى حارة المشارقة بالقدس، وإيجارها هو مبلغ ٩٧,٥ درهما شهريا.(٥٧) وقد يرى البعض أن إيجار الدار الأخيرة يبدو مرتفعا، لكن من خلال إلقاء نظرة على صاحبها، وهو أحد أمراء المماليك يمكننا القول أنها كانت بلا شك داراً كبيرة وفى أحد الأحياء الراقية من القدس، وعلى هذا فقيمة الإيجار المذكورة معقولة، وكنا نود أن نتوصل إلى معرفة هامش الربح الذى وضعه أصحاب الأملاك المؤجرة والذى يجب أن تحققه الأموال التى

دفعوها فى شراء تلك الدور. لكن ليس لدينا سوى هذين الرقمين السابقين عن القيمة الإيجارية، مع وجود أسعار شراء العديد من الدور، مثال ذلك ما جاء فى الوثيقة رقم ١٥ بتاريخ ١٦ رمضان سنة ٧٤٣ هـ / ١٢ فبراير ١٣٤٣م حيث تذكر لنا أن شخصا نصرانيا من أبناء بيت المقدس يدعى "رزق الله بن بولس التاجر" قد قام بشراء دار بحارة النصارى - وهى من الأحياء الشعبية فى القدس - بالقرب من دير باسل نظير مبلغ وقدره ١٣٠درهما من صاحبها "الشيخ أبى المحاسن يوسف.." وما جاء فى الوثيقة رقم ٣٩ بتاريخ ٢١ذى القعدة سنة ٧٨٠هـ / ١٠مارس ١٣٧٩م، وفيها أن "الشيخ برهان الدين إبراهيم الناصرى المقرئ فى المسجد الأقصى يشترى داراً بالقرب من قناطر الخضير (حارة فى خط الطواحين) بملبغ ٨٢٥ درهما من محمد بن أحمد بن محمد بن فرج الزيدى". وما جاء فى الوثيقة رقم٣٥٢ بتاريخ ٢٠رمضان ٧٦٥هـ / ٢١ يونيو ١٣٦٤ م من أن "المعلم أحمد بن إدريس السكندرى المقيم بالقدس يشترى داراً فى خط باب السلسلة فى سوق داود من حسن بن على بن حسن بمبلغ ٤٠٠ درهما". كذلك ما جاء فى الوثيقة رقم ٦١٩ المؤرخة فى ١٥ذى القعدة ٧٨٠هـ / ٣مارس ١٣٧٩م أن سعر دار فى قناطر الخضير فى خط الطواحين هو مبلغ ١٨٢٠ درهما". بينما جاء فى الوثيقة رقم ٣٦٧ بتاريخ ٢٦ رمضان ٧٤٣هـ / ٢٢فبراير ١٣٤٣م أن ثمن منزل متهدم فى حارة الخوالدة كان ٣٠درهما. (٥٨)

هذا مع اعترافنا بوجود العديد من المنازل الساكنة ولا يدفع لها إيجار، كأن تكون موقوفة على من يسكنها ممن تشترط فيهم شروط خاصة. مثال ذلك ما جاء فى الوثيقة رقم ٤٣٣ المؤرخة فى١٣ محرم سنة ٧٩٦هـ / ١٣ نوفمبر ١٣٩٣ م وهى وثيقة حصر تركة شخص يدعى "محمد بن سليمان بن مسعود الحسبانى" كان يسكن هو وزوجته "فاطمة بنت أحمد الحسبانية" فى "دار وقف العميان". وما جاء فى الوثيقة رقم ٣٤٣ المؤرخة فى ٢٧ شعبان ٧٩٥هـ/ ٨ يوليو ١٣٩٣م وهى وثيقة حصر موجودات إمرأة طريحة الفراش تدعى حمراء، تسكن فى دار

فى باب حطة، دار وقف الناصر بن الحنبلى ، وذكرت أن ورثتها هم زوجها، وبيت المال لأنها لم تنجب منه. وكذلك ما جاء فى الوثيقة رقم ٤٨٤ المؤرخة فى ٤ ربيع الثانى ٧٩٤ هـ / ٢٩ فبراير ١٣٩٢م وهى وثيقة حصر موجودات إمرأة طريحة الفراش تدعى "حُسن بنت عبد الله" كانت تسكن فى دار وقف المرحوم محمد جوزية فى حارة المشارقة، وذكرت أن ورثتها هم إبنها محمد بن إبراهيم الحلبى وابنتها عائشة. وما جاء فى الوثيقة رقم ٥٠٤ المؤرخة فى ١٧ ذى الحجة ٧٩٣هـ /١٥ نوفمبر ١٣٩١م وهى وثيقة حصر تركه المتوفى مخلوف بن رضوان بن عبد الواحد الحداد. وكان يقيم هو وزوجته فى دار وقف الدوادارية فى وادى الطواحين . وما جاء فى حجة الوقف رقم٨٣٣ بتاريخ ٢٥ ربيع الأول سنة ٧٤٧هـ / ١٦يوليو ١٣٤٦م من أن فاطمة بنت محمد بن على المحسنة المغربية تقف "جميع عمارتها المستجدة بالقبو الرومانى بدارها بحارة المغاربة بالقدس الشريف حده من القبلة الدرب السالك ومن الشرق دار الواقفة المذكورة ومن الشام ـ أى الشمال ـ دار الفقراء المغاربة المقيمين بزاوية الشيخ عمر ومن الغرب الدرب السالك بحقوق ذلك كله وما عرف به ونسب إليه على من يسكنه من الفقراء العجائز من المغاربة سكنًا من غير الانتفاع بظهر القبو المذكور فإذا انقرضوا يجرى ذلك مجرى وقف حارة المغاربة المذكور وقفاً صحيحاً شرعياً محرماً بحرمات الله تعالى لا يباع ولا يوهب ولا يتبادل به...".(٥٩)

وقد يكون الوقف على ذرية المالك فيعيشون فى المنزل ولا يدفعون إيجاراً هم ونسلهم من بعدهم، ولدينا العديد والعديد من وثائق هذا النوع إلا إننا سنكتفى بمثال واحد، وهو ما جاء فى الوثيقة رقم ٦١٧ المؤرخة فى ٢٦ صفر ٧٥٩هـ/ ٧ فبراير ١٣٥٨م حيث أوقف أحد أبناء مدينة بيت المقدس ويدعى "الشيخ عثمان بن محمد بن سلمان الغزى داراً له فى الخليل على مصالح أطفاله وذريته ومن بعدهم للفقراء من المسلمين " (٦٠)

وتنبغى الإشارة إلى أنه فى بداية حياة الزوجين (العريس والعروس) عادة ما تخرج العروس إلى منزل أهل العريس وتعيش فيه عند أبناء الطوائف الدينية الثلاث، وفى بعض الحالات كان العريس يشترط على عروسه ألا تطلب منه الانفصال عن أهله ، وإن كانت هناك حالات خرج فيها الإبن من منزل أبيه ، إذا رغبت هى فى ذلك . وفى بعض الأحيان كان يصر والد العروس على أن تبقى ابنته وزوجها معه فى داره مدة إلى أن تتعود ابنته على زوجها، وفى هذه الحالة كان العريس لا يدفع إيجاراً عند المسلمين، وعند اليهود يقوم بدفع إيجار رمزى، وإن كانت هناك بعض وثائق خاصة باليهود فى مجموعة الجنيزة تنص صراحة على عدم دفع الإيجار.[٦١]

ما يحبه الزوجان فى بعضهما

كان الزوج وما يزال يحب فى زوجته أن تكون صادقة، تحافظ على أسراره، تحفظه فى ماله وعرضه فى حضوره وفى غيابه، جميلة، مرحة ، جذابة، تمشط شعرها جيداً، وتضع الكحل فى عينيها، تعطر جسدها، وأن تكون ولودة. وأن تعامل والديه بكل احترام، بينما كان يتم النص على ذلك فى عقود الزواج عند اليهود، وأن تطيع أوامرهما، وأن تقبل نصحهما[٦٢] وأن ترعى الأطفال وتعطيهم الفرصة للتعليم لأن المجتمع إهتم بتوفير المصاريف اللازمة للتعليم، وأن تكون على دراية بكل شئون بيتها وزوجها وأطفالها ، مع الأخذ فى الاعتبار أن العمل فى المنزل لم يكن شاقاً ويتيح لها قدراً من الوقت لمزاولة بعض الأنشطة، فالقمح كان يخزن فى المنزل، والطاحونة اليدوية "الرحاة" متوفرة لخدمة ربة المنزل، والخبز يمكن شراؤه من الأسواق، وإذا تم إعداده فى المنزل فإنه يخبز فى فرن قريب، والطعام كان بسيطاً وبسبب ندرة الخشب وارتفاع أسعاره كان يفضل إحضار الطعام جاهزاً، والغسيل والتنظيف لم يكن عبئاً على المرأة، فهناك القصار الذى يقوم بغسل وتنظيف الملابس. والغزل والنسج قامت به المرأة وندر ذكره فى وثائقنا باستثناء بعض الأفراد الذين

احترفوا تلك المهنة.[٦٣] هذا إلى جانب أننا ذكرنا في كتاب لنا عن المرأة المصرية والشامية عصر الحروب الصليبية المنشور فى المجلس الأعلى للثقافة عام ٢٠٠٣ العديد من الأنشطة التى قامت بها المرأة، فى شتى مجالات الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية وكانت محل استحسان كل الرجال. بل وافتخر كثيرون من مشاهير كبار رجالات ذلك العصر بأنهم تعلموا على أيديها . كما أنها تمنت منه ألا يتزوج عليها إلا لضرورة ترضاها، وألا يقيم علاقات جنسية مع جواريه اللاتى يمتلكهن ، وكان هذا هو قانون الكنيسة، بل إن عقود الزواج عند اليهود وبخاصة من طائفة القرائين كانت تتضمن وعداً من الزوج ألا يتزوج إمرأة أخرى وألا يحتفظ بخادمة لا تقبلها الزوجة. وهناك إقرار من الزوج فى حالة ما إذا وقعت زوجته أسيرة فعليه أن يفتديها بمال ليس من مؤخر صداقها ولكن من ماله الخاص، وهذا ما كان يتم عند المسلمين والمسيحيين دون ذكر ذلك فى عقد الزواج. [٦٤]

ومما كانت تحبه الزوجة فى زوجها هو أن يشعرها بمسئوليته الكاملة عن الأسرة، وألا يخرج فى أسفار بعيدة كثيراً، وإذا خرج فعليه أن يترك لزوجته وأولاده النفقة المناسبة التى تكفيهم مدة غيابه، وعند اليهود بوجه خاص كان يتم النص على ذلك فى عقد الزواج.[٦٥] وأن يدرك أن من حقها أن ترى أقاربها وصديقاتها بين الحين والحين، كما كان فى مقدورهن أن يأتين لزيارتها من وقت إلى آخر، وربما تم ذلك مرة أو مرتين فى الشهر ولكن بعد إذن من زوجها لها بذلك. وأن يكون رقيقاً، عطوفاً، معتدلا، يظهر لها الحب، والاستحسان، كريم العقل، يقابلها بالإحسان، وأن يكون ذا مروة، ويحمل لها الهدايا خصوصاً عند عودته من رحلة عمل. وأن يأخذ من يوم الخميس يوماً للمتعة الزوجية، فيستحم فيه ويتعطر صباح الجمعة قبل صلاة الجمعة إذا كان مسلماً، أما إذا كان يهودياً فيأخذ يوم الجمعة لنفس الغرض، وإذا كان مسيحياً فيأخذ يوم السبت لنفس الغرض.[٦٦] كذلك أحبت المرأة فى الرجل أن تتمتع بحياتها وتزور الأسواق ،

وأن تكون هناك أيام راحة، هي الجمعة- للمسلمات، والسبت - لليهوديات - والأحد للمسيحيات. فيترك لها الفرصة في أن تتمتع بالاستماع إلى أبيها وهو يقرأ في أحد الكتب المقدسة أو أن تحضر أحد مجالس العلم والمناقشات، أو الذهاب إلى الحمامات العامة مرة على الأقل كل أسبوع، أو المشاركة في الاحتفالات العائلية من زواج، أو زيارات، أو التهنئة بمولود جديد، أوالعزاء ، وتمضية بعض الوقت مع الصديقات في سرد القصص والحكايات، والحديث عن مشترياتهن، أو غناء بعض القصائد، وربما اللعب بالشطرنج. (٦٧)

العلاقة بين الآباء والأبناء

سبق وأشرنا إلى أن الأطفال متعة وزينة الحياة الدنيا لدى جميع الطوائف الدينية، إلا أنه من الواضح أن الناس في ذلك الزمان لم يتخلصوا من بعض التقاليد المتوارثة عبر أزمان سحيقة، ذلك أن إنجاب البنات عند الجميع من مسلمين ومسيحيين ويهود كان غير مستحب، بدليل ما يرد كثيرا من إشارات عند موت إحدى البنات أن يخلفها ولد، أي أن يرزق الله والديها ولداً عوضا عنها كما جاء في خطاب من مجموعة الجنيزة العبارة: "أن الصغيرة - يقصد زوجة كاتب الخطاب - بخير، أن الله قد منحها طفلاً بديلاً عن البنت التي ماتت". (٦٨) وليس معنى هذا كراهية البنات، بل هو نوع من التفضيل، وهناك من كان يفضل خلفة البنات. فلدينا بعض الأمثلة عن رجال عانوا كثيراً من أجل مصلحة بناتهم، فهناك أحد النساك من بيزنطة، وقد عاش في بيت المقدس حزيناً في كنيسة جبل صهيون كتب يقول: أنه ينبغي أن يعود إلى وطنه كي يرعى ابنته الوحيدة. كما جاء في إحدى الوثائق أن رجلاً رزق بمولودة أثناء غيابه، فكتب لزوجته يعبر عن فرحته بالطفلة وأن الزوجة ليست ملامة على إنجابها تلك الطفلة، فيقول: "أنني سعيد بابنتي! لماذا؟ لأنها المولودة الأولى لنا فهل أكرهها؟ طبعاً لا، إن الله يمنع ذلك. وما أقوله هو:أن الله جعلني سعيد الحظ، إنها بشير السعد لي ولك.. .". وهو يعبر بذلك على أنهما قد تجنبا عين الحسود التي كانت ستصيبهما، ثانيا فإن

تلك الطفلة هي أم صغيرة لأولاد ستلدهم مستقبلا.(٦٩)

أما عن علاقة الأبناء بوالديهم، فمعروف أنه في تلك العصور أن الأبناء كانوا يظهرون إمتنانهم لوالديهم بتقبيل أيديهم، وربما أيديهم وأرجلهم على الأقل في خطاباتهم لهم. كما كان من المتوقع من الأبناء أن يقوموا برعاية والديهم وتقديم كل عون ممكن لهم إذا دعت الحاجة لذلك. مع أن الوثائق التي بين أيدينا لم تتضمن ما يشير إلى نوع العلاقة بين الأبناء والوالدين بشكل مباشر، باستثناء الوثيقة رقم ٢١١ وهي بتاريخ أول شوال سنة ٧٨٨هـ. وفيها أقر أحد كبار تجار بيت المقدس وهو "الصدر الأجل ناصر الدين محمد بن المرحوم علاء الدين على الحموى أحد أعيان السادة التجار بالقدس الشريف وهو معروف عند شهوده إقراراً شرعياً في صحة عقله وتوعك جسمه أن عنده لولده من الدراهم الفضة الجارية في المعاملة الشامية عشرة آلاف درهم نصفها خمسة آلاف درهم وأن ذلك لولده لصلبه شمس الدين محمد المراهق وبه شهد عليه في يوم الفطر المبارك من شهور سنة ثمان وثمانين وسبعمائة.." ثم شهادة الشهود. وواضح من نص الوثيقة أن هذاالتاجر عندما مرض مرضا يخشى منه الموت كتب هذا الإشهاد على نفسه بهذا المبلغ كشكل من أشكال تراكم الثروة في أفراد الأسرة(٧٠) وكنوع من تأمين مستقبل الإبن من قبل والده القادر. وكذلك ما تشير إليه الوثيقة رقم ٢٠٩ بتاريخ ١ شوال سنة ٧٨٨هـ من أن نفس الشخص سابق الذكر يقر أمام مجلس القضاء الشرعي بأنه "جهز إبنته الست المصونة فاطمة زوج الفقير إلى الله تعالى كمال الدين أحمد بن المرحوم الشيخ الإمام القدوة سعد الدين محمد الموعاني الأصل بما مبلغه من الدراهم الفضة الجارية في المعاملة الشامية عشرة آلاف درهم نصفها خمسة آلاف وأن ذلك حوايج على عادة الجهاز وبه شهد عليه يوم الفطر المبارك سنة ثمانية وثمانون وسبعمائة". تم توقيع الشهود واعتماد القاضي الشافعي ذلك.(٧١) وهذا التاجر نفسه الذي رأيناه في الوثيقة السابقة وبنفس التاريخ يؤكد لنا حرصه كأب على المساواة في مساعدة أولاده لا فرق

بين ولد أو بنت ، فهو كما أمن مستقبل إبنه الذى لم يصل سن الرشد، فقد كان حريصاً على أن يزوج إبنته من زوج من أسرة علمية تتصف بالصلاح والعلم، وأن يدفع لها مبلغاً كبيراً كهذا فى زواجها. كما أننا عثرنا فى مجموعة وثائق الجنيزة على خطاب مرسل من أحد الأبناء فى مدينة بيت المقدس إلى أخته فى مدينة طليطلة فى الأندلس يقول فيه : إن أبانا قد وصل إلى حالة لا نتمناها إلا لأعدائنا فقط، لقد أصبح قعيداً، كفيفاً، غائب العقل، ويعانى كثيراً. إن حامل هذا الخطاب إليك سوف يخبرك بمدى رعايتى له ، فهو لا ينقصه أى شئ ، لأننى أقوم على خدمته خير قيام. ولا أعتمد على أحدٍ آخر، ففراشى جعلته ملاصقاً لفراشه، وأقوم بالليل عدة مرات لكى أغطيه وأقلبه، لأنه غير قادر على ذلك بنفسه. الله يلطف به على ما عاناه".(٧٢) كما يبدو أن العلاقة بين الأبناء والأم كانت أقوى مما هي بين الأب، ولم تكن هناك فوارق بين البنين والبنات فى ذلك. (٧٣)

مسئولية الزوج عن أسرته

سبقت الإشارة منذ قليل إلى إحساس أحد الآباء بمسئوليته نحو ابنه ثم ابنته، ونسمع فى وثيقة محفوظة الآن فى متحف جامعة فلادلفيا عن أحد الآباء ويعمل ناسخاً، وهو أب لخمسة أطفال ولكى يطعم أسرته ، فقد قام أولاً ببيع مجوهرات زوجته وأفضل ما عنده من ملابس وأثاث وكتب، كما أضطر إلى الاقتراض، وعندما ضاقت به الحال ، أضطر إلى التوجه إلى دمشق حيث كانت ظروف عمله هناك أفضل وعمل بها بعض الوقت مما مكنه من أن يرسل لأسرته كل ما يقدر عليه "من أجل أولاده". إلا أن الطاعون إجتاح دمشق وتوقف الطلب على نسخ الكتب، فقرر أن يجرب حظه فى العاصمة القاهرة، وهاجر إلى مصر، كل هذا بسبب إحساسه بمسئوليته نحو عائلته، ولا نعرف بعد ذلك هل استقر فيها، وطلب من أسرته اللحاق به أم لا؟ (٧٤)

وفى وثائق الحرم القدسى بعض الأمثلة على أن الزوج إذا نزلت به ضائقة

يطرق جميع الأبواب ليوفر لأسرته الحاجات الضرورية من منطلق شعوره بالمسئولية نحو أسرته، نذكر من ذلك على سبيل المثال لا الحصر ما جاء فى الوثيقة رقم ١٣ بتاريخ أول شهر صفر سنة ٧٧٧ هـ من أن أحد أبناء بيت المقدس ويدعى إبراهيم الناصرى تقدم بطلب لأحد المسئولين يشرح فيه أنه "فى عايلة... وليس له دخل من أى مؤسسة خيرية أو دينية أو اجتماعية، وأنه "من أهل الاستحقاق..." ويطلب صدقه تصرف له من "الرباط المنصورى" نسبة إلى السلطان المنصور قلاوون وهى عبارة عن رطل "خبز فى كل يوم"، ويدعو للمسئول أن يؤيده الله بمنه وكرمه، وقد جاء فى الهامش الأيمن من الوثيقة: "ليقرر عوضا عن المتوفى إلى رحمة الله تعالى وهو فى كل يوم أربعة أرغفة سابع صفر سنة سبع وسبعين وسبعمائة".[٧٥] وما جاء فى الوثيقة رقم ١٠ من أن نفس الشخص المذكور يتقدم بطلب إلى المشرف على الأوقاف وهو قاضى القضاة الشافعى، يطلب منه سكناً فى إحدى المنشآت المخصصة لذلك، ويذكر أنه من أهل العلم الشريف وحملة كتاب الله تعالى، فى حاجة لسكن له ولأسرته، وأن يوافق على إسكانه أسوة بالفقراء الصوفية، وقد جاء رد القاضى على ظهر الوثيقة على النحو التالى "الحمد لله إن لم يكن استكمل بالرباط المبنى لساكنيه بالقدس الشريف عشرون فقيهاً فيستقر بالرباط المذكور وإن كان قد استكمل فها شرط الواقف فمن توفى منهم أو توجه لسكن بغير القدس الشريف فيستقر عوضه ويعين له سكن بالرباط المذكور ...". وما جاء فى الوثيقة رقم ٢٣٢ وهى عبارة عن قصة "شكوى" مقدمة من أحد أبناء القدس ويدعى يعقوب يذكر فيها أنه صاحب عائلة كبيرة وقد أصبح فى فاقة، وليس لديه شئ يرهنه أو يبيعه لينفقه على عياله، ويطلب من الحاكم الشرعى وهو قاضى القضاة الشافعى أن يأمر بصرف صدقه له من أى جهة كانت ليستعين بها فى الإتفاق عليهم.[٧٦]

وإذا أضطر الزوج للسفر بحثا عن رزقه، فقد كان يتحتم عليه أن يدفع لزوجته ما تواجه به التكاليف اللازمة للحياة اليومية من طعام وشراب وكسوة

وما إلى ذلك، وهناك إشارة في وثائق الجنيزة أن رب أسرة دفع لزوجته ثمن ٣ ويبة من القمح وثمن طحنها وثمن ثلاثة أوقيات شامية من الزيت للطعام والإضاءة، بالإضافة إلى ثمن الحطب اللازم كوقود، وعشرون درهما أسبوعيا لشراء لوازم أخرى طوال مدة غيابه.(٧٧)

المشكلات العائلية

المشكلات العائلية من الأمور المألوفة في حياة الناس والمجتمعات في كل عصر ومكان وزمان. وكثير منها يتم حله عن طريق التفاهم بين الزوج والزوجة، أو عن طريق تدخل بعض الأقارب والأصدقاء للطرفين. والحقيقة التي ينبغي علينا أن نذكرها أن الرجال بوجه خاص كانوا حريصين كل الحرص على زوجاتهم سواء في حياتهم أو عندما يشعر الواحد منهم بدنو أجله، فلدينا العشرات والعشرات من وثائق حصر موجودات رجال على فراش الموت، وخصوصاً ممن لم ينجبوا أولاداً ذكوراً يستغرقون ميراثهم كله مع الزوجات ، وفي هذه الحالة وخوفاً من أن يدخل بيت المال شريكا في الميراث في التركة ، كان الواحد منهم يذكر أن لزوجته في ذمته مبلغاً كبيراً كمؤخر صداق إلى جانب بعض الديون، حتى إذا قومت التركة وتم تجهيزه للدفن وتسديد ديونه تؤول التركة كلها للزوجة ولأولاده البنات من بعده، ولا يأخذ بيت المال شيئاً. وكان هذا هو حال أبناء الطوائف الدينية المختلفة من يهود ومسيحيين ومسلمين في القدس .

إما إذا حدث خلاف عميق بين الزوجين واستحالت العشرة بينهما، فقد كان الطلاق هو الحل لمثل هذه الحالات، وإذا تعسف الزوج ولم يطلق زوجته، فقد كان من حقها أن تطلب الخلع، أي أن يطلقها نظير مبلغ تدفعه له، والأهم من هذا هو أنه في هذه الحالة يصبح أمر الزوجة في يديها ولا يحق للزوج أن يرجعها إلى عصمته في مدة العدة إلا إذا وافقت هي على ذلك، وغالبا ما كانت تزيد من مبلغ صداقها الأول، وكان من حقها تسجيل قيمة ومقدار الصداق الجديد في عقد زواجها. ولدينا من هذا النوع الوثيقة رقم ٤٧ من وثائق الحرم القدسي والمؤرخة

في ٦ ذي القعدة سنة ٧٧٠هـ، وهي عبارة عن عقد زواج بين المدعو سيف الدين أرمنجي بن عبد الله وبين مختلعته خديجة بنت المرحوم بدر الدين حسين بن هندي، وكانت قد طلبت منه الخلع مرتين من قبل، ويتبين من هامش الوثيقة الأيمن أن الزوج زاد قيمة الصداق بعد العقد مائتي دينار فأصبح الصداق ٣٠٠ دينارا. وفي آخر الوثيقة شرح يستفاد منه أن خديجة تزوجت من شخص آخر بعد وفاة زوجها أرمنجي ، وذلك في سنة ٧٨١، ثم طلقت طلاقا بائنا للمرة الأخيرة. وفي آخر عقد الزواج شهادة شاهدين هما: محمد بن محمد بن سليم، وعلي بن أبي بكر بن محمد .(٧٨)

كما تشير الوثيقة رقم ٦٥٣ بتاريخ ١٥ ذي الحجة سنة ٧٩٥هـ إلى أن الزوجة، كانت تلجأ إلى القضاء للحصول على حقوقها من زوجها، وخصوصا إذا فشلت في ذلك بالطرق الودية، فالزوجة هنا وتدعى فاطمة بنت أحمد بن حسن الحلبية الأصل والمقيمة في القدس تشكو زوجها المدعو علي بن محمد بن علي الحلبي الشهير بابن الدمشقي مغسل الأموات، وتذكر أن زوجها قد طلقها ثلاثا وأنها تستحق عليه المتعة، أي متعة الطلاق وهي عبارة عن مبلغ من المال بحسب حالة الزوج المادية بالإضافة إلى الكسوة، فسأل القاضي الزوج عن دخله، ثم حكم لها عليه بمبلغ ثلاثمائة درهما عن الكسوة والمتعة، وهو دون نصف مهرها كما هو مقتضى الشريعة، وفي آخر الوثيقة جاء توقيع الشهود. (٧٩)

وتؤكد الوثيقة رقم ٢٨٧ والمؤرخة في ١٢ صفر سنة ٧٨٧هـ أن هناك بعض الخلافات الزوجية التي كان يتم حلها بالطرق الودية، وتحصل الزوجة المطلقة على جميع حقوقها من مؤخر صداق ونفقة ومتعة وكسوة وغيرها. فالزوجة هنا وتدعى فاطمة أقرت "أنها قبضت وتسلمت وصار إليها من يد زوجها المسمى ناصر الدين محمد أحد كبار التجار بالقدس الشريف من الذهب الهرجة المصري المسكوك أربعين مثقالا – دينارا- نصف ذلك عشرون مثقالا وذلك مؤخر صداقها.." وأقرت أيضا أنها "مواصلة بكسوتها ونفقتها من زوجها

إلى يوم تاريخه" بل إنها "أقرت أيضا أن فى ذمتها لزوجها المسمى فيه بطريق القرض الشرعى من الدراهم الفضة الجارية فى المعاملة الشامية مائتى درهم نصفها ماية درهم واحدة..." (٨٠)

وما جاء فى الوثيقة رقم ٤٥٨ المؤرخة فى ١٨ ربيع الأول سنة ٧٨٣هـ وهى عبارة عن إقرار بقبض نفقة طفل رضيع، ذلك أن أحد رجال الصوفية ويدعى برهان الدين الناصرى كان قد تزوج أخت الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله بن فهد الخليلى ثم طلقها وتدعى فاطمة، وفى هذه الوثيقة يقر الشيخ عبد الرحمن بأنه قبض وتسلم ثمانية وعشرين درهما عن المدة من العاشر من محرم إلى آخر ربيع الأول من السنة المذكورة وسلمها لأخته كنفقة للرضيع، وأن الهدف من تدوين مثل هذه الوثائق كنوع من الإثبات لا غير. (٨١)

وأخيرا ينبغى أن نشير إلى أن الخلافات العائلية لم تكن قاصرة على الأزواج والزوجات، إذ نسمع عن وجود خلافات بين الأبناء بعضهم وبعض وخصوصا عقب وفاة الدهم الذى يترك لهم بعض الميراث، إلا أنها حالات نادرة، فمن بين حوالى ٨٨٠ وثيقة هناك وثيقة واحدة، وهى الوثيقة رقم ٢٧٨ وهى عبارة عن قصة "شكوى" من سيدة تدعى غالية بنت عثمان بن ثعيلب توفى والدها وطمع أخوها فى ميراثها، لذا فهى تستعطف قاضى القضاة فى القدس أن يستخلص لها حقها فى وقف أبيها على الذرية من أخيها المتولى النظر عليه، وذلك وفق الشرع الشريف. وواضح من كلامها للقاضى وجود خلافات بين الورثة، فأخوها وأختها يقفان فى جانب وهى فى جانب آخر. (٨٢)

وضع الأطفال القصر فى الأسرة

القاعدة الشرعية أن القاصر لابد أن يوضع تحت تصرف وصى شرعى، الأم، العم، أو الخال، فإن لم يوجد وصى من أقاربه يقوم الحاكم الشرعى فى القدس فى ذلك العصر وهو القاضى الشافعى بوضعه تحت وصاية أحد أعوانه من القضاة ، وهو الذى عرف باسم "أمين الحكم" أو "أمين الحكم العزيز". وأن

هذا القاصر لا يحق له بيع ولا شراء ولا هبة ولا توكيل، ولا عتق حتى يبلغ سن الرشد وهى غير سن البلوغ بدليل ما جاء فى الوثيقة رقم ٢٣ من وثائق الحرم القدسى والمؤرخة فى العشر الأخيرة من شهر صفر سنة ٧٩٧ هـ، وهى عبارة عن حكم قضائى صادر من القاضى الشافعى للقدس الشريف، يعلن فيه بطلان عتق عبدين وجاريتين لأن العتق صدر من قاصر وصل إلى سن البلوغ ولكنه لم يكن قد وصل بعد إلى سن الرشد التى تخول له الحق فى التصرف.(٨٣).

وقد بلغ من حرص بعض الآباء على أبنائهم تعيين وصى عليهم أثناء حياته ثقة منهم فى الوصى، فالوثيقة رقم٦١٣ والمؤرخة فى ١٩ ذى القعدة سنة ٧٩٦هـ تذكر لنا أن أحد تجار بيت المقدس ويدعى شرف الدين محمود بن شهاب الدين أحمد بن محمد الخوارزمى ، وهو فى مرض جسمه أسند وصيته إلى زوجته المرأة الكامل سراملك وله منها عشرة أولاد، على أن تتصرف لهم فى مالهم المخلف لهم التصرف الشرعى. وواضح أن اختياره لها وصية بحيث تكون أهلا لهذه الوصاية.(٨٤).

وينبغى أن نشير إلى أن بعض فقهاء المسلمين وأصحاب الكتب المعاصرة طالبوا الوصى على الأيتام أن يرعى مصالحهم ، ويتيح لهم فرص التعليم ، حيث وفر لهم المجتمع كثيراً من المنشآت التعليمية وخصوصاً الكتاتيب والتى عرف الواحد منها باسم "كتاب السبيل" أو "كتاب الأيتام" أو "كتاب الأولاد". واستثمار أموالهم حتى لا تفقد هذه الأموال قيمتها بمرور الزمن، والتحفظ على أموالهم، وعدم الإقراض منها . وأن يُخرجوا زكاتها إذا حال عليها الحول، وألا يُحوج الواحد منهم أم اليتيم إلى التردد إلى بابه طلباً لنفقات أطفالها اليتامى، ومن فعل ذلك فقد ظلم ظلماً عظيماً.(٨٥).

توارث الوظائف والحرف فى الأسرة

هناك العديد من الوثائق فى هذه المجموعة التى تظهر بوضوح مدى حرص الآباء على توريث وظائفهم وحرفهم لأبنائهم ، وإعدادهم منذ صغرهم ليرثوهم

فى تلك الوظائف والحرف، ونقل خبراتهم بل ونقل "سر المهنة" لهم، لما توفره لهم هذه الوظائف والحرف من دخل مالى، ونفوذ، ومكانة إجتماعية. فمن العائلات المقدسية القديمة التى ترجع إلى بداية عصر سلاطين المماليك عائلة الشيخ يونس أو عائلة يونس، وهى من العائلات التى توارثت الولاية على أوقاف النبى موسى منذ عهد الظاهر بيبرس، وكانت تشرف كذلك على السماط الذى يتم فى موسم النبى موسى ويُقدم فيه الأرز والدبس والزيت والفلفل والحمص والملح، وكذلك الخبز. ومن العائلات المقدسية القديمة والتى ترجع إلى بدايات الفتح الإسلامى للقدس عائلة الصحابى الجليل عبادة بن الصامت، والتى توارث أفرادها الإشراف على وقف هذا الصحابى الجليل الموجود فى قرية نبالة أى القرية المعروفة اليوم ببير نبالا شمالى القدس قرب قرية الجيب، وقرية برج عرب بظاهر القدس على بعد بضعة كيلو مترات إلى الشمال الغربى قبل قرية لفتا وعلى الطريق المؤدى إليها "سماها اليهود روميما" وقرية صرعى التى تقع على بعد ٣١ كيلو مترا غربى القدس، كانت تقع على ضفة وادى الصرار الشمالية وهى من القرى التى دمرها اليهود سنة ١٩٥٨م.[٨٦]

وكانت المنافسة شديدة جداً بين أبناء تلك الأسرات، والتى تم حصرها فى حوالى ٥٠ أسرة من الأسرات وخصوصا العلمية منها، وقد تمثلت المنافسة فى شقين الأول وهو الإنتاج العلمى، أما الثانى وهو الذى يهمنا هنا فهو تولى العديد من الوظائف لما تحققه من دخول مرتفعة لأبناء تلك الأسر، وبالتالى ما توفره هذه الوظائف من مكانة إجتماعية وجاه فى المجتمع وداخل نطاق الأسرة الواحدة، مع ما يؤدى إليه ذلك من علاقة وطيدة بالسلطة الحاكمة.[٨٧].

ولم يكن هذا هو دأب أبناء الأسرات الكبيرة وحسب، بل وأبناء الأسرات الصغيرة والناشئة، مثال ذلك ما تذكره لنا الوثيقة رقم ٢ المؤرخة فى آخر ربيع الأول سنة ٧٨٨هـ وهى عبارة عن مرسوم صادر من الأمير علاء الدين أقبغا الحاجب بغزة المحروسة سابقاً. بأن يستقر "الشيخ العالم الفاضل الشيخ برهان

الدين إبراهيم الناصرى أسبغ الله عليه ظلاله على قراءة الميعاد – أى درس الوعظ والإرشاد والحث على التقوى – بالصخرة الشريفة يوم الجمعة من وقت التذكير إلى وقت آذان الظهر ويوم الأحد بعد صلاة الصبح وليلة الخميس بعد صلاة المغرب وله القراءة من التفاسير والأحاديث وكلام المشايخ بالحكايات والموعظة وله فى ذلك معلوم فى كل شهر يمضى مبلغ عشر دراهم وبعد وفاة المشار إليه والعياذ بالله يكون ولده مستمرا على وظيفة والده من غير منازع ومعارض إن كان أهلا بالوظيفة...." (٨٨)

ولم يتغير هذا الوضع فى العصر العثمانى، بل وظهر على نطاق واسع لدى أرباب الحرف بجميع طوائفهم، مع الحرص كل الحرص على توارث منصب "شيخ الطائفة"، حيث ظهر بوضوح هذا المنصب، بحيث كان لكل طائفة حرفية شيخها، فقد كان هناك شيخ للأساكفة، وشيخ للأطباء والجراحين والحكماء، وشيخ لطائفة البياطرة، وشيخ لطائفة بائعى الكتب، وشيخ لطائفة التجار، وشيخ لطائفة الترابين، وشيخ لطائفة التراسين، أى حمالى القمح، وشيخ لطائفة الحدادين، وشيخ لطائفة الحفارين، أى حفارى القبور، وشيخ لطائفة الحلوانية، وشيخ لطائفة حمالى الموتى، وشيخ لطائفة الحمامين والحلاقين، وشيخ لطائفة الحياكين ، وشيخ لطائفة الخبازين، وشيخ لطائفة الخضرية، وشيخ لطائفة الخياطين، ولطائفة الدباغين، ولطائفة الدلالين، ولطائفة الزبالين، ولطائفة السرامجية، ولطائفة السقائين ولطائفة السكاكينية والسيوفية، ولطائفة السلاخين، ولطائفة السوقة، ولطائفة السياجين والبيارية، ولطائفة الشعارية، ولطائفة الشماعين، ولطائفة الصباغين ، ولطائفة الصياغ، كما كان التسامح الدينى هو أهم ما ساد بين أبناء هذه الطوائف الحرفية، وتشير سجلات المحكمة الشرعية فى القدس إلى أن المسيحيين فى الطائفة ربما اختاروا شيخا مسلما أو يهوديا عليهم، والمسلمون كانوا يختارون شيخا مسيحيا أو يهوديا، واليهود كانوا يختارون شيخا مسلما أو مسيحيا عليهم، كل ما يهمهم هو أن يكون أكثر كفاءة وخبرة ودراية بأمور حرفته وأكثر مقدرة

على سياسة أبناء طائفته الحرفية. وهناك الكثير من الإشارات عن تنافس العديد من العائلات المقدسية التي احتكرت مشيخه طائفة زمنا طويلا، بل نسمع أن كثيراً من مشايخ الطوائف الحرفية يتنازلون عن ربع هذه المشيخة أو تلك، ولم نسمع أن مثل هذا التنازل قد لقى رفضا من أبناء طائفة من الطوائف التي ذكرناها، إلا في حالة المرض الذي لا يرجى منه الشفاء، أو العجز. فقد كان أبناء الطائفة يختارون خليفة لشيخهم، وينيبون عنهم جماعة منهم لإبلاغ رغبتهم هذه إلى الحاكم الشرعي وهو القاضي الحنفي، الذي يتأكد من ذلك ثم يصدر قرارا بذلك.(٨٩)

الأثاث المنزلي

إن معلوماتنا عن الأثاث المنزلي في مدينة بيت المقدس عصر سلاطين المماليك تعتمدا أساسًا على ما جاء في وثائق حصر الموجودات، وهي وثائق تهتم بالدرجة الأولى بحصر ممتلكات أشخاص طريحي الفراش في مرض الموت. ويبدأ هذا النوع من الوثائق عادة بالقول: "حصل الوقوف على"، ويلي ذلك تاريخ الوثيقة، ثم موقع البيت الذي حصل فيه الوقوف واسم المريض ونسبه. وبعد ذلك يأتي ضبط الحوائج والمخلفات وبيانات حول الديون سواء له أو عليه، وبعدئذ تحدد أسماء الورثة، ومن بينهم بيت المال في حالة ما إذا كان الشخص المريض لم ينجب، أو أنجب بناتا لا يستغرقون الإرث كله. وفي كثير من الحالات كان حصر التركة يتم بحضور ممثل لبيت المال، والشهود العدول من قبل قاضي قضاة القدس الشافعي هذا إلى جانب وثائق الإرث الحشري وهي تركات من يموت ولا وارث له، أو له ورثة لا يستغرقون الإرث كله. وأهمية هذين النوعين من الوثائق أنهما حويا معلومات كثيرة عن الملابس وأدوات الزينة والحلي وأثاث المقاعد والسجاجيد والبسط والمفارش وأدوات المنزل اللازمة للطعام وغيرها.(٩٠)

ويتضح من دراسة هذه الوثائق التي قاربت ٤٠٠ وثيقة أن بيوت مدينة بيت

المقدس فى ذلك العصر قد احتوت على القليل من قطع الأثاث الكبيرة الحجم، مثل المناضد(الطاولات)، والكراسى، والدواليب، والأسرة. فالدواليب لم يرد ذكرها إلا فى أربع وثائق وكانت من نوع الدواليب الخشبية أو الدواليب المحفورة فى الحوائط الحجرية. وأما الأسرة فلم ترد إلا مرة واحدة ضمن تركة إمرأة كان سريرها من نوع الخشب الصف[٩١] ولعل السبب فى ذلك راجع إلى أن الناس اعتادوا أن يفترشوا الأرض معتمدين على المقاعد والمخدات والبسط والسجاجيد والمفارش الجلدية، والطراحات وهى عبارة عن مراتب مستطيلة أو مربعة تفرش ويجلس عليها أثناء النهار، ويتم النوم عليها بعد وضع المخدات عليها بالليل، أوفى أوقات الراحة، وعادة ما يكون لكل واحدة منها وجه (غطاء) من جوخ أزرق، أو وجه جوزى، وبطانة حمراء يتم حشوها بالصوف أو القطن.[٩٢]

وكانت أغلبية المنازل تفرش بالبسط التى تنسج من الصوف والتى يتم جلبها من أرمينيا ويطلق عليها اسم البسط الرومية ، ذات الصوف الجيد والقرمزية اللون، كما يتم جلب أنواع منها من الشوبك بالأردن والتى تسمى الشوبكية، ومنها ما هو كبير ومنها ما هو صغير. كما أن تلك البيوت إقتنت أنواعا من السجاجيد الصوفية ذات اللون الأبيض والأخضر والعسلى، والمزينة برسومات بيضاء ومبطنة ببطانة مطرزة بأبيض، ولها شراشيب زرقاء، وأغلب السجاد الذى جاء ذكره فى الوثائق تم صنعه فى اليمن وحوران.[٩٣]

أما المقاعد التى جاء ذكرها فى الوثائق فقد كانت من القطن أو الجوخ وهى زرقاء اللون، فقد ذكرت الوثيقة رقم ١٠٠أحد المقاعد بأنه قطنى صغير رومى، وآخر من الجوخ الأزرق، وقد تضاف إليه قطعة من جلد أو يبطن ببطانة زرقاء، كما أن المقعد الذى جاء ذكره فى الوثيقة١٢٦كان أزرقا وبوسطه نطع (قطعة جلد) عتيق، كما أن المقعد الذى ذكرته الوثيقة رقم ٥١٢ كان أبيض اللون ومن القطن ولكنه ببطانة زرقاء.[٩٤]

ويأتى بعد السجاد كفرش عام الحصر والطراريح أو الطراحـــات التى كانت

تفرش على الأرض، ومعظم الطراريح التى جاء ذكرها فى الوثائق تختلف ألوانها بين الأزرق والأبيض والأحمر، وقد تكون بوجه وكما سبق أن أشرنا، فقد عثرنا فى الوثائق على طراحات بوجه قدسى وبطانه زرقاء، وغيرها ببطانة حمراء، أو بيضاء. (٩٥)

واستعملت المخدات أو الوسائد لراحة الناس عند الجلوس أو النوم، ويبدو أنها كانت مثل تلك المعروفة فى زماننا حيث تحشى وتوضع فى كيس، ومن الطبيعي أن القماش المستعمل اختلف باختلاف مستويات الناس الاجتماعية، فقد كان قماشها من الحرير أو المشتهرأو القماش العادى وتحشى بالقطن أو بورق الموز أو اللباد الأبيض، أما ألوانها فكانت زرقاء أو بيضاء بكيس أحمر أو زيتى حرير وأحيانا تطرز بالحرير الأحمر أو الأبيض. (٩٦)

كما استعملت الألحفة كدثار عند النوم سواء كان اللحاف بدون بطانة أو ببطانة، وقد عرف مجتمع بيت المقدس فى ذلك العصر بوجه عام وفى القرن الثامن الهجرى ، الرابع عشر للميلاد بوجه خاص أنواعا مختلفة من الألحفة، منها ألحفة بوجوه قدسية مربعة ببطانة زرقاء، أو بوجه جوخ أحمر وأخضر ببطانة بيضاء، وغالباً ما يوضع فوق اللحاف ملاءة لتقيه الأوساخ وتجعله أقدر على منع البرد. هذا بالإضافة إلى أنواع من الركينات ، والتى غالبا ما يكون القصد منها تزيين المكان الخاص بالجلوس، أو وضعها فى أركان الحجرة لتضفى جمالا على المنظر، وعادة ما تكون مطرزة بحرير أزرق أو أحمر بحاشية مزركشة، وقد كانت بعض الركينات التى ورد ذكرها فى الوثائق بيضاء اللون مطرزة بحرير أزرق، وأخرى بيضاء مطرزة بحرير أحمر. (٩٧)

الأدوات المنزلية

والوثائق تزودنا بأسماء وأنواع العديد من الأدوات المنزلية التى كانت مستعملة فى ذلك العصر، وبعضها ما يزال مستعملا إلى اليوم، أو كانت مستعملة حتى الأمس القريب. فالوثيقة رقم ٦٣٥ وهى بتاريخ ١٨ محرم سنة ٧٩٣هـ

وهي وثيقة حصر موجودات رجل طريح الفراش يدعى الحاج حسن العجمي بالقدس بحارة المشارقة والتي كانت تقع شمال باب حطة. (٩٥) جاء فيها ذكر الأدوات دست نحاس وسطاني، وفأس حديد بهراوة، وطشت من الفخار ضيق من الأسفل واسع من الأعلى مكسور، ومسرجة خشب، وأبريق، وقدرة فخار وقرطلتين – أى سلتين من الخوص– ضمن أحدهما منجل صغير، وخمس ملاعق، ومكنسة صغيرة، وقفة صغيرة ضمنها مكحلة، وسكينة، ومطحنة عتيقة قش، وطبق قش عتيق، ومنجل، وغربال، وخشبية برسم الدق، وسيخ حديد صغير، وعلبه ميزان ضمنها ميزانين صغار برسم الفضة خالي من الصنج، ومغرفة، وثلاث ملاعق، ومطرقة صغيرة، وأبريق زيت فارغ ، وأواني من الفخار تسمى برنية، وزبدية مدهونة، وحقة نحاس صغيرة مكسورة ، وخابية ضمنها طحين لم يستنفع به، ومحلبة (إناء يحلب فيه) ، وجرة عتيقة. أما الوثيقة رقم ٣٠١ المؤرخة في ١٤ محرم ٧٩٧هـ وهي وثيقة حصر موجودات أيضاً، من ضمن ما جاء بها : فردة صندوق من خشب،هاون نحاس كبير، ثلاث صواني، طاسة كبيرة، شربة نحاس، سطل صغير نحاس، حقة نحاس أصفر، مصفاة صغيرة. أما الوثيقة رقم ٢٠٠ وهي بتاريخ آخر ذي القعدة سنة ٧٩٥هـ فقد كان من ضمن ما جاء بها: دست نحاس وسطاني ، وطاسة نحاس ، ونحاس أصفر ثلاث طاسات صغار، زبدية نحاس صغيرة، حقة نحاس أصفر، مصفاة صغيرة، صينيتين نحاس صغار، مقلاة نحاس. (٩٨)

واضح من خلال الأدوات المنزلية التي تم ذكرها أن الأواني المستخدمة في منازل القدس في ذلك العصر، ولعلها ظلت مستخدمة إلى وقت قريب وكما هو الحال في كثير من المدن العربية كانت من النحاس الأبيض أو الأحمر، إلى جانب بعض الآنية الفخارية، وبعض الآلات المصنوعة من الحديد مثل السكاكين والملاعق والأسياخ، والتي ربما صنعت أيديها من الخشب، كما تم استخدام الخشب على نطاق ضيق في عمل "الخشبية التي برسم الدق" جنباً إلى جنب

الأوعية المصنوعة من القش أو سعف النخيل مثل القفاف والسلال وغيرها، وكلها أدوات كانت معروفة ومستخدمة إلى زمن قريب في القدس وفي غيرها من المدن العربية الأخرى.

ولأن هذه المجموعة من الوثائق تخص البسطاء من الناس في حياتهم اليومية، فقد عكست لنا حقيقة هامة، وهي وعي هؤلاء الناس بالأحوال الاقتصادية، ولأن المعادن من ذهب وفضة ونحاس كانت أسعارها في ارتفاع مستمر، فلم يكن أمام هؤلاء البسطاء إلا أن يقبلوا على شراء الأواني النحاسية لا بقصد استخدامها وحسب، بل لأنها كانت تشكل شكلا من أشكال تكديس الثروة حتى ولو كانت بمقدار ضئيل، والدليل على هذا وجود الأواني النحاسية بشكل أو بآخر في غالب وثائق حصر الموجودات، كما أن الوثيقة رقم ٦٢٢ المؤرخة في ٢٢ رمضان ٧٨٨هـ / ١٧ أكتوبر ١٣٨٦م تؤكد هذا الاتجاه بشكل لا يدع مجالا للشك، فقد جاء فيها أن "الحاجة الجليلة المصونة شيرين بنت عبد الله، زوجة أحد رجال الصوفية، وقارئ القرآن الكريم في المسجد الأقصى، ويدعى الشيخ برهان إبراهيم بن الشيخ رزق الله بن شهاب الدين أحمد الناصري، اشترت أدوات متعددة من النحاس الأبيض في ذلك التاريخ بمبلغ ٥٠٠ درهما. وهو مبلغ لا يستهان به بمقاييس تلك الفترة، بل هو يزيد عن ثمن منزل من المنازل التي تحدثنا عنها في الصفحات السابقة.[٩٩]

الهوامش والتعليقات

(1) Donald little: "The Significance of the Harm Documents for the Study of Medieval Islamic History" In Der Islam, 57, 1980,pp. 189-21.

(٢) العسلى" د. كامل جميل" : وثائق مقدسية تاريخية، جـ١، عمان ، ١٩٨٣م، جـ٢، عمان، ١٩٨٥م، جـ٣، عمان، ١٩٨٩م.

(٣) صالحية" د. محمد عيسى": حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، الحولية السادسة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

(٤) أنظر: مجلة التربية، مجلة محكمة تصدر عن اللجنة الوطنية القطرية للتربية والثقافة والعلوم، العدد ١٢٩، يونيو ١٩٩٩، صـ ١٧٨ ـ ٢١٥، العدد ١٤٠، مارس ٢٠٠٢، صـ ١٩٠ ـ ٢٢٥ ؛ والعدد ١٤٦ سبتمبر ٢٠٠٣ ، ص ١٥٨ .

(5) little : Acatalogue Of The Islamic Documents From Al- Haram As-Sarif in Jerusalem, Beirut 1989 p. 300.

(٦) راجع : النويرى "شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب" نهاية الأرب فى فنون الأدب، القاهرة ١٩٢٣ ـ ١٩٧٦، جـ ٩، صـ ١٢٢.

(٧) المصدر السابق : نفسه، جـ ٩، ص ١٢١ ، ١٢٤.

(8) Little: Op. Cit. P. 302

(٩) العسلى : نفسه، جـ ٣، صـ ٧٣.

(١٠) المرجع السابق: نفسه، جـ ٢، صـ ١١١

(11) little: Op. Cit. p. 301

(١٢) العسلى : نفسه، جـ ٢، صـ ١٩-١٢ .

(13) little : Op. Cit. p. 303

(14) Ibid : Op. Cit. p. 306

(١٥) عبد الكريم رافق: "دراسة عمرانية واجتماعية واقتصادية من خلال الوثائق الشرعية" المؤتمر الدولى الثالث لتاريخ بلاد الشام، عمان ١٩٨٣م، المجلد الثانى، صـ ٩٦.

(١٦) أنظر الوثيقة رقم ٣٨٢ فى العسلى: نفسه ، جـ١ ، ص ٢٥٢ .

(١٧) أنظر الوثيقة رقم ٢٨٩ فى العسلى: نفسه ، جـ ٢، صـ ١١٦ .

(١٨) المرجع السابق: نفسه، جـ٢، صـ ١٤٢ .

(١٩) المرجع السابق: نفسه، جـ٢، صـ ١٠٩ .

(20) little: Op. Cit. p. 154

(21) Ibid : p. 154

(22) Ibid: pp. 103-135

(23)S.D.Goitein :A Mediterranean Society, London 1978, vol, III, pp. 128- 237.

(٢٤) صالحية: نفسة ، صـ ١٠٤ .

(25) Little : Op. Cit. P. 167

(26) Ibid ; pp. 122, 142, 217, 231, 74.

(27) Ibid ; pp.92, 107

(٢٨) العسلى: نفسه، جـ ٢، صـ ٤٢

(٢٩) المرجع السابق : نفسه .

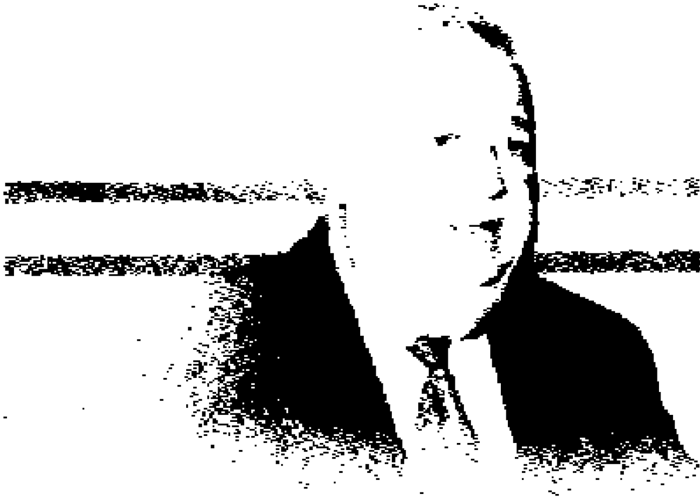
(30) little: Op. Cit. p. 73- 135
(31) Ibid : pp. 105-127
(32) Ibid ; pp.136
(٣٣) على السيد على (دكتور) القدس فى العصر المملوكى، القاهرة، ١٩٨٦م، صـ ٢٧٤.
(٣٤) غوشة (محمد هاشم موسى) : حارة السعدية فى القدس، رام الله، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م، صـ ٩٩.
(35) Little: Op. Cit. P.89 –106
(٣٦) غوشة ، نفسه ، صـ ١٤١.
(٣٧) المرجع السابق : نفسه ، صـ ١٤١ – ١٤٢ .
(٣٨) المرجع السابق: نفسه ، صـ ١٤٢ .
(39) K.A.C.Creswell; short Account of Early Muslim Architecture, London, 1948, p.184.
(٤٠) غوشة، نفسه، صـ ١٤٥-١٤٦ .
(٤١) المرجع السابق: نفسه ، صـ ١٤٨ .
(٤٢) السجل رقم ١٤٦ من سجلات المحكمة الشرعية، صـ ١٧٣ – ١٧٤، المرجع السابق: نفسه، صـ ١٤٩ .
(٤٣) غوشة : نفسه، صـ ١٥٢-١٥٥ .
(٤٤) زياد المدنى : القدس وجوارها، عمان، ١٩٩٧م، صـ ٧٣ .
(٤٥) غوشه : نفسه ، صـ ٩٣-١٧١ .
(٤٦) سجل شرعى رقم ٢٤٤ .
(٤٧) غوشه: نفسه، صـ ٩٣-١٨٠- ١٨٣ .
(48) Amiry (M.A.); Jerusalem Arab Origin and heritage, London, 1948, p.9.
(٤٩) العسلى(كامل جميل) : بيت المقدس فى كتب الرحلات عند العرب والمسلمين، عمان، ١٩٩٢م ، صـ ٢٢٩- ٢٣٠.
(٥٠) غوشه : نفسه ، صـ ١٣٨ .
(٥١) العسلى: وثائق مقدسية ، جـ١، ص ٢٨٠ .
(٥٢) أحمد إبراهيم بك: المعاملات الشرعية المالية ، القاهرة ، ١٣٥٥هـ ، صـ ١٦؛ غوشة نفسه، صـ ١٨٧ .
(٥٣) غوشة : نفسه، صـ ٢٥٣- ٢٥٤ .
(٥٤) المرجع السابق: نفسه، صـ ٢٥٥ .
(55) Little : pp. 96
(56) Ibid : pp. 95-172 .
(57) Ibid; pp. 96 – 183
(58) Ibid; pp. 277 – 293
(٥٩) العسلى : نفسه، جـ١ ، صـ ٢٣٥ - ٢٣٦ I bid; pp. 116-131
(60) Ibid; pp.319
(61) Goitein: Op. Cit. pp. 150 – 153
(62) Ibid; pp.156-166
(63) Ibid; pp.341- 342
(64) Ibid; pp. 341

(65) Little : pp. 106-107
(66) Ibid; p. 156
(67) Ibid; pp.166-168
(68) Ibid; pp.343- 344
(69) Ibid; pp.227- 228
(70) Ibid; pp.227-229

(٧١) العسلى: نفسه، جـ٢، صـ ٨٣-٨٥

(72) Goitein; Op. Cit. p. 240
(73) Ibid; p. 242
(74) Ibid; p.242
(75) Ibid; p. 201

(٧٦) العسلى: نفسه، جـ١، صـ ٢٤٠
(٧٧) المرجع السابق: نفسه، جـ ١، صـ ٢١٢، ٢١٤
(٧٨) المرجع نفسه، جـ ١، صـ ٢١٥، ٢١٦ ؛ Goitein; Op. Cit. p.191
(٧٩) العسلى: نفسه، جـ١، صـ ٢٥٤-٢٥٧ .
(٨٠) العسلى: نفسه، جـ١، صـ ١٩ .
(٨١) المرجع نفسه، جـ٢، صـ ١١١ .
(٨٢) نفسه، جـ٢، صـ ١١٥.
(٨٣) نفسه، جـ١، صـ ٢١٧ .
(٨٤) المرجع نفسه، جـ١، صـ ٢٢١ .
(٨٥) المرجع نفسه، جـ٢، صـ ١٤٢ .
(٨٦) السبكى "تاج الدين عبد الوهاب ت ٧٧١هـ": معيد النعم ومبيد النقم، دار الحداثة، بيروت، ١٩٨٣م ص ٦٢ .
(٨٧) العسلى: نفسه، جـ٣، ص١٣٠-١٣٢.
(٨٨) المرجع نفسه، جـ١، ص١٩٩-٢٠٠.
(٨٩) عطا الله "محمود على": وثائق الطوائف الحرفية ، فى القدس فى القرن السابع عشر الميلادى ، جامعة النجاح الوطنية، مركز التوثيق والمخطوطات والنشر، ١٩٩١م ، ص١٩-٢٩٩.
(٩٠) العسلى: نفسه، جـ١، ص٢٦١-٢٦٨؛ صالحية: نفسه، ص١٩-٣٣.
(٩١) صالحية: نفسه، ص٣٣.
(٩٢) العسلى: نفسه، جـ٢، ص٣٣.
(٩٣) صالحية: نفسه، ص٣٣-٣٤.
(٩٤) المرجع السابق: نفسه، ص٣٣-٣٤.
(٩٥) نفسه: ص٣٤.
(٩٦) نفسه: ص٣٤.
(٩٧) نفسه، ص٣٥.
(٩٨) مجير الدين الحنبلى: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، طبع بيروت بالأوفست، جـ٢، ص٥٤.
(٩٩) العسلى: نفسه، جـ٢، ص٣٣-٣٤-٣٧-٣٨-٧٨. Little: Op. Cit. P.293.



ظهور واختفاء شخصية الزعيم في مصر منذ العصر المملوكي وحتى التاريخ الحديث والمعاصر

د.نجوى كمال كيرة

مدرس التاريخ الإسلامي

كلية الآداب – جامعة المنصورة

تتفاعل الأبعاد التاريخية والسياسية والاجتماعية والثقافية وتنصهر مع بعضهاالبعض لتنتج لنا في النهاية ظاهرة الزعامة السياسية نتيجة لتفاعل تلك الأبعاد[١].

إن التاريخ الإنساني بكل وقائعه شاهد ثابت على أن الجماهير لا تستطيع أن تعمل بمعزل عن زعيم يقودها ويوجهها، فحركة المجتمع والتاريخ ثنائية مشتركة بين الزعيم والشعب.

وتعتبر الزعامة السياسيةPolitical Leadership في مصر من القضايا الهامة والشائكة التي شغلت العديد من المؤرخين والباحثين. وهي قضية أدلى فيها الباحثون برؤاهم فتعددت الرؤى في تناولها ويعكس عمق تناولها مدى أهميتها على الصعيدين السياسي والاجتماعي وهي ظاهرة ذات أبعاد تاريخية يستعان على فهمها بالاعتماد على علمي السياسة والاجتماع إلى جانب رصد الظواهر التاريخية.

وقد ارتبطت ظاهرة الزعامة بعدد من المفاهيم والظواهر كمفهوم السلطة Authority ، والقوة Power والصفوة The Elite ثم اصطلاح النفوذ The Influence ثم الثورة Revolution[٢].

ولنا أن نتساءل هل يجوز الخلط بين مصطلحي الزعيم بمعناه السياسي، والقائد بمعناه الاجتماعي أو الثقافي أو الإداري وهنا يفرض سؤال هام نفسه على

مائدة البحث هل يمكن أن يجمع شخص ما بين كونه زعيماً سياسياً وفي نفس الوقت يكون متملكاً للسلطة الشرعية؟ أم أن لكل منهما دوراً في المجتمع مكمل للآخر ولكل منهما مقومات خاصة؟

لقد توصل بعض الباحثين في علم الاجتماع إلى أن "الزعامة السياسية يجب أن تكون سلطة تتجاوز كل الحدود الشرعية وتكون أحد صفوات المجتمع بمعنى أن تكون صفوة عسكرية أو صفوة سياسية، أو صفوة فكرية أو صفوة دينية ولكنها على أية حال تتسم بمجموعة من الخصائص المتميزة وتنهض وفقاً لمجموعة من القدرات والكفاءات الخاصة وتتوفر لها الظروف الموضوعية التي تتيح لها الظهور والتألق لتعبر عن قوى المجتمع المختلفة، وتتولد من خلال ثورة تقوم لمناهضة الظلم والديكتاتورية"(٣).

"فالحكم الاستبدادي قد يبني أمة أو يبني مرحلة تاريخية معينة، لكنه لا يبني الإنسان... إن الشعوب التي تكثر تناقضاتها الاقتصادية أو الاجتماعية أو الدينية يسهل الوصول إلى حكمها لكن يصعب قيادتها، أما الشعوب التي تقل تناقضاتها فيصعب تولي حكمها لكن يسهل قيادتها"(٤).

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن: ما هي ظروف تواجد الزعامة في مجتمع من المجتمعات؟، وما هو الدور الذي لعبته الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية في خلق وانبثاق الزعامات المصرية؟ لقد أثارت ظاهرة الزعامة السياسية مجموعة من القضايا النظرية والفكرية وثيقة الصلة بهذه الظاهرة، وهل ارتبط تواجد الزعامة في مصر بالمناخ السياسي والاجتماعي السائد، أم أنها ظاهرة مستقلة تتكون بطريق المصادفة بمعنى هل هي زعامة موقف أو زعامة أزمة؟

يرى فريق من الباحثين أنها نتاج حتمي تفرزه صيغة الديمقراطية والحزبية للحكم، ويرى البعض الآخر أنها رد فعل طبيعي لما ينتج عن أوتوقراطية حاكمة فرضت كبت الحريات والاستئثار بالحكم فأثر مناخ الحكم الشمولي في تولـــد

وظهور الزعامة للخلاص من سلبيات ذلك النظام(٥).

ولنا أن نتساءل هل الزعامة المصرية نتجت من أزمة الحكم المطلق، أم أنها ظهرت في ظل الديمقراطية الحزبية ؟ وهل هي تستمد مقوماتها من مصادر ذاتية تتعلق بسمات مميزة للزعيم وقدرات ينفرد بها أم أن لها مصادر قوة متميزة؟

ليس من شك أن للزعامة مواصفات خاصة يتصف بها صاحبها الذي من المؤكد أنه يتمتع بقدرات وملكات خاصة تميزه وتؤهله لتلك الزعامة(٦) "إن عظماء الرجال هم الذين يحركون التاريخ، وهم الذين ينهضون بأممهم ويسيطرون على ما يحيط بهم من قوى سياسية واقتصادية واجتماعية، ولا شك أن لعظماء الرجال دورهم في صنع التاريخ، لكن هذا الدور ليس دوراً مجرداً غير متأثر بما حوله من أوضاع داخلية وخارجية، وإنما هو محصلة لتفاعل عدد من المؤثرات تجسدت في النهاية، في دور هذا الزعيم أو ذاك"(٧) فيتحدى السلطات الشرعية التقليدية وينطلق معبراً عن القوى المختلفة للمجتمع ويتزامن كل ذلك مع المناخ الطبيعي لتولد تلك الزعامة كالثورة على الوضع السياسي، وتدهور أنظمة الحكم وديكتاتوريتها، والنظم الأوتوقراطية(٨) والظلم كما تلعب النظم الديمقراطية الحزبية دوراً كبيراً في ميلاد تلك الزعامة. فالحرية والمعارضة يتيحان للزعامة أن تظهر وتنمو وتزدهر، حيث تجد تلك الزعامة الفرصة سانحة للنقد والمعارضة والمشاركة في الواقع السياسي. إذن فالنظام الأوتوقراطي يولد الزعامة شأنه كشأن الديمقراطية ولكن كلا وفقا لظروفه(٩).

فالشعب ينظر للزعيم على أنه الملاذ والحصن الذي يلوذ به ويتحصن فيه ويرى فيه القوة التي بدونها قد يعجز عن تحقيق أهدافه، وفي بعض الأحيان يكون الزعيم بمثابة الأمل في الحياة لشعبه.

ومن أهم الصفات التي يجب أن تتوافر للزعيم عدم الانتماء إلى مصالح طبقته فقط وإنما الالتحام بالجماهير وإلا سيفقد أهم مقومات زعامته، كما يجب أن

تتكون لـه منظومـة فكريـة تساعده علي عمليـة التحديث السياسي والاجتماعي والاقتصادي في المجتمع مما يعكس وعيه بقضايا شعبه.

وعلى مدى صفحات تاريخ مصر وبالتحديد منذ العصر المملوكي وحتى عصرنا هذا كانت ظاهرة ظهور شخصية الزعيم في بعض فترات هذا التاريخ ثم اختفائها لفترة ثم عودتها للظهور مرة أخرى – ملفتة للانتباه وجديرة بالبحث – والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هل فكرة الزعامة في تاريخ مصر استندت إلى أساس ديني يرجع إلى قضية المهدي المنتظر، تلك الفكرة التي تولدت لدى طائفة الشيعيين المسماة بالأثنا عشرية والذين نادوا بالإمامة لأحد أحفاد الحسين بن علي والذي قيل أنه دخل سرداباً في مدينة سامرا سنة ٢٦٠هـ وأمه تنظر إليه ولكنه لم يعد ولم يقف له أنصاره على أثر ولازالوا ينتظرون عودته ويعتقدون أنه سيظهر ويملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً![١٠] هل تواجد الفاطميين في مصر منذ القرن الرابع الهجري – وعلى مدى أكثر من قرنين من الزمان بعقيدتهم الشيعية والتي تقوم فلسفتها حول الإمام وتمجيده أكثر من أي شيء آخر، وترويجهم لفكرة المهدي المنتظر هل أثر ذلك في نفوس المصريين؟ لقد وجدت تلك الفكرة في الكثير من المعتقدات في العالم والتي أشار إليها الشاعر محمد إقبال في جاويد نامه أو رسالة الخلود ورمز إلى صاحبها بالخضر وهو رجل الحق الذي يحتاجه العالم المادي[١١]، وهي فكرة الترقب الدائم والتطلع لظهور مخلص للعالم من سلبياته.

هل أثر ذلك الفكر في نفوس المصريين حتى أنهم بحثوا طوال تاريخهم عن هذا المهدي أو ذلك الزعيم الذي سوف يخلصهم بصورة أو بأخرى مما يعانون، فإذا ما وجدوا في شخص ما مقومات ذلك الزعيم سارعوا بالالتفاف حوله وتسليمه مقاليد أمورهم وتركوا له العنان يتصرف بمقدراتهم كيفما شاء حتى يجيء حدث يتعدى قدرات احتمالهم فإما ينقلبون عليه أو يصدمون فيه وفي كلتا الحالتين تختلف وسائلهم في التعبير عن هذا الانقلاب أو تلك الصدمة.

فعلى مدى التاريخ قاوم المصريون حكم الأجانب سواء من فرس أو إغريق أو رومان، وفي الوقت نفسه تقبلوا حكم أجانب يدينون بالإسلام كولاة الخلافة الإسلامية في المدينة ثم دمشق وبغداد حتى الطولونيين والإخشيديين والفاطميين والأيوبيين، وكانت النزعة الدينية تعطي لهم نوعاً من الاقتناع النفسي الذي يظهر بوضوح في علاقة المصريين وحكامهم المسلمين.

وعلى مدى صفحات التاريخ المصري نلاحظ أن المصريين قد درجوا أو تعودوا على نوع واحد من الحكم هو الذي وافقهم واستكانوا إليه وهو الحكم الاستبدادي الفردي أو الديكتاتورية بمعناها الشامل. ويبدو أن المصريين كانت لهم اليد الطولى في تحول بعض زعمائهم إلى الدكتاتورية فهم شعب يغلب عليه النزعة الوجدانية فيسبغون على زعيمهم طابع الإجلال إذا ما أحبوه ووثقوا به، والنفس البشرية تتطور وتتغير حسب المتغيرات والمؤثرات التي تحيط بها وسنحاول فيما يلي متابعة ظاهرة الزعامة في العصور المختلفة.

الزعامة في العصر المملوكي:

ارتبطت ظاهرة الزعامة السياسية في مصر - عبر تاريخها الطويل- بالمواقف والأزمات التي تحمل في طياتها مضموناً اقتصاديا في بعض الأحيان وسياسياً في أحايين أخرى.

ويعتبر نمط الحكم الذي ساد مصر في حكم المماليك إفرازاً طبيعياً لظهور شخصية الزعيم الذي يلتف حوله الشعب ويرتبط به ويهتف لحياته متطلعاً إلى تحقيق العدالة الاجتماعية والاستقرار والأمن على يد هذا الزعيم.

فقد ساعد نظام الحكم الظالم في عصر المماليك ومن جاء بعدهم من الأتراك العثمانيين على خلق ظاهرة التمرد والعصيان والاحتجاج، والتي تترتب على ما تعززه مظاهر الظلم المرتبط بأساليب ونظم الحكم الديكتاتوري مما يوفر المناخ المناسب للزعامات السياسية حتى تظهر وتنمو[١٢].

ويجب التنويه إلى أن زعامات هذا العصر لها مقاييس وهوية مختلفة عـــن

زعامات العصور الحديثة ولكنها ارتبطت بظروف عصرها.

ففي العصر المملوكي نرى شخصية الزعيم قد تجسدت إلى حد ما في شخص السلطان الظاهر بيبرس البندقداري ١٢٦٠م، ذلك المملوك الأجنبي الذي استطاع وبذكاء شديد ناتج عن موهبة فذة أن يسطر صفحة مجيدة في تاريخ دولة المماليك في مصر، وكذلك في حياة الشعب المصري، ففور دخول بيبرس قلعة الجبل ٢٣ أكتوبر ١٢٦٠م بدأ سياسة قائمة على العديد من الإصلاحات أدت إلى اعتباره المؤسس الحقيقي لدولة المماليك في مصر والشام لمدة سبعة عشر عاماً[١٣]، مما يعكس قوته ونجاح سياسته في الحكم واستقرار الأمور له، فقد أراد أن يجعل من نفسه صلاح الدين الثاني مما دفعه إلى رسم سياسة خارجية ضخمة كانت أبرز سماتها حماية بلاد الشام من خطر التتار والقضاء على الصليبيين وطردهم من الشام[١٤].

فكان بيبرس قائداً شجاعاً ضربت الأمثال ببطولته وشهامته وقد تجلى ذلك في كثير من المواقع الحربية التي خاض غمارها كواقعة المنصورة سنة ٦٤٧هـ والتي انتهت بانتصار المصريين على الصليبيين، وواقعة عين جالوت التي قاد فيها جيوش السلطان قطز ضد جيوش التتار التي أغارت على بلاد الشام[١٥]. وقضى على الثورات الداخلية بمصر والشام واستطاع أن يطوعهما لخدمة تطلعاته وأهدافه، ولمس وتراً حساساً لدى المصريين حيث قام بإحياء الخلافة العباسية السنية، ومن ثم فقد ظهر أمام جموع المسلمين بمظهر حامي حمى الخلافة، فاستحق بجدارة لقب الزعيم ليس على مصر فحسب بل على البلاد الإسلامية.

فقد استطاع بدهاء تدعيم سلطانه بإسباغ الطابع الديني عليه، مما كان له أكبر الأثر في التفاف المصريين حوله، فقد تزامن ذلك مع سيطرة النزعة الدينية على قلوب الناس وعقولهم، وتوج كل ذلك بانتصاراته ضد الصليبيين في الشام، وتحريره للمدن والقلاع مما جعله أسطورة تألفت حولها الملاحم الشعبية

المعروفة بالسيرة الظاهرية[١٦]، والتي جسدت شخصيته على أنها شخصية أسطورية لا مثيل لها. وكان حاكماً عادلاً يجلس للمظالم ويعطف على الفقراء والمعوزين وقام بالعديد من الإصلاحات لبسط الأمن وضبط الأخلاق فمنع بيع الخمور وأقفل الحانات بالقاهرة وجمع أعمال مصر ونفى كثيرا من المفسدين[١٧].

ويجب أن نوضح حقيقة هامة وهي أن حكومة بيبرس كانت حكومة استبدادية مستنيرة، وكان بيبرس على رأسها صاحب السلطان المطلق، وهو يعد بحق مؤسس دولة المماليك ومبتدع طريقة حكمها[١٨].

ثم يظهر في العصر المملوكي زعيم آخر وهو أحد أبناء قلاون وهو الناصر محمد بن قلاون[١٩] في نهايات القرن الثالث عشر الميلادي ١٢٩٣م-١٣٤٠م[٢٠].

وقد كان عهد الناصر يمثل عهد وراثه[٢١] تخللته فترات اغتصاب لا تكاد تظهر حتى تختفي، ثم يعود وارث العرش فيستمتع بحقه في ملك أبيه، وكان صغر سنه عاملاً هاماً أدى إلى طمع الأمراء مغتصبي العرش فوجدوها فرصة سانحة لتحقيق مطامعهم[٢٢].

حظي الناصر محمد بن قلاون خلال سنوات حكمه الأولى بشعبية كبيرة بين مختلف طبقات المجتمع المصري[٢٣]. بل نلاحظ أنه عندما بعث إليه الأمراء في الكرك للحضور لتولي زمام الحكم في سلطنة المماليك هيأ له: "نائب الكرك ما يليق به، وسار به إلى القاهرة، فخرج الأمراء والعساكر إلى لقائه وكادت القاهرة ومصر ألا يتأخر بهما أحد من الناس فرحا بقدومه وخرجوا إليه عامة في يوم السبت رابع جمادى الأولى ٦٩٨هـ/١٢٦٨م"[٢٤].

فقد حمل المصريون بوجه عام مشاعر الود والتقدير للناصر محمد بل ولأسرة قلاون جميعا[٢٥]. ولعل هذا يعود إلى أنهم كانوا يرون فيها رمزاً وسبباً في الاستقرار السياسي، والسلام الاجتماعي، والطمأنينة الفكرية فيسود المجتمع طابع الأمان والنظام[٢٦].

وتجلت مشاعر الحب والتعلق بالناصر محمد في سنة ٧٠٧هـ/١٣٠٧م حين شدد الأمير سيف الدين سلار نائب السلطنة وبيبرس الجاشنكير الأستادار الحجر على الناصر قلاون وحدثت الفتنة التي تجلى فيها حب الشعب للناصر وحكمه ذلك الحب الذي ظهر بأجلى معانيه أثناء هذا النضال، ولم يحل دون القضاء على ملكه وإن كان قد أطال قليلاً في فترة سلطنته الثانية[٢٧].

وتعتبر سلطنة الناصر الثالثة هي الفترة التي حكم فيها بنفسه، وتخلص من أعدائه وازداد تعلق الشعب به لما أتاه من جليل الأعمال وما تكشف لشعبه فيه من جميل الخصال[٢٨].

لقد حكم الناصر محمد مصر ثمان وأربعين سنة ٦٩٣-٧٤١هـ/١٢٩٣-١٣٤٠م وتعتبر هذه الفترة بحق من أزهى عصور مصر، فقد كانت القاهرة في عهده حاضرة لإمبراطورية شاسعة متحدة، امتد سلطانها من برقة غرباً إلى ساحل البحر الأحمر شرقاً ومن أسيا الصغرى شمالاً إلى بلاد النوبة جنوباً.

"وخطب له في أماكن لم يخطب فيها لأحد من الملوك وكاتبه سائر الملوك وهادوه وهابوه، وصار جميع عسكر مصر في قبضته"[٢٩].

وكان المصريون يتوقون لرؤية سلطانهم الناصر محمد بن قلاون واعتبروا خروجه إلى الميدان فرصة نادرة وثمينة يتسابقون فيها لرؤيته فيذكر المقريزي أنه "ركب السلطان إلى الميدان في موكب عظيم، واجتمع الناس لرؤيته، واستأجروا الحوانيت والدور بمال كبير، فكان يوماً مشهوداً"[٣٠].

كان من نتيجة ذلك أن تمتع الناصر محمد بسلطة واسعة مكنته حتى من عزل الخليفة العباسي وتولية آخر بدلاً منه[٣١].

وكان المصريون يحزنون لمرضه ثم يفرحون لشفائه ومعافاته لما في ذلك من حفاظ على أمانهم واستقرارهم في ظل هذا السلطان، وكانوا حين يشفى يظهرون مشاعرهم الفياضة ابتهاجاً بسلامته، ويبالغون في الزينة ونثر الدراهم التي لا يكادون يملكونها تعبيراً عن سرورهم، إذ يذكر المقريزي: "وفي خامس

عشرية ربيع الآخر ٧٣٠هـ/١٣٣٠م سار السلطان إلى نواحي قليوب يريد الصيد فبينما هو في ذلك إذ تقنطر عن فرسه وانكسرت يده وغشي عليه ساعة وهو ملقى على الأرض، ثم أفاق وقد نزل إليه أيدغمش[٣٢] أميراخور والأمير قماري[٣٣] أمير شكار وأركباه، فأقبل الأمراء بأجمعهم إلى خدمته، وعاد السلطان إلى قلعة الجبل في عشية الأحد ثامن عشرية، فجمع الأطباء والمجبرين لمداواته .. ثم عوفي السلطان، فزينت القاهرة ومصر في يوم الأحد رابع جمادى الآخرة، وتفاخر الناس في الزينة بحيث لم تعهد زينة مثلها، وأقامت أسبوعاً تفنن أهل البلدين فيه بأنواع الترف ونزلت ست حدق[٣٤]، في عدة من الخدام والجواري حتى رأت الزينة وقد اجتمع أرباب الملاهي في عدة أماكن بجميع آلات المغنى"[٣٥].

لقد أحبه المصريون حباً جماً والتفوا حوله، وكانوا يهتفون في الطرقات "يا ناصر يا منصور الله يخون من يخون ابن قلاون"[٣٦].

وهنا يجب أن نقرر حقيقة هامة وهي أن زعامات تلك الفترة كانت محدودة لا نستطيع أن نقارنها بزعامات القرون التي تليها. واختفت الزعامات المصرية منذ الحكم المملوكي لأن المصريين قد تعودوا على استبداد المماليك بالولاة وعزلهم وكان للبعد الاقتصادي والحكم الظالم أثر كبير في ظهور زعامات جماعية في العصر المملوكي والعصر العثماني الذي تلاه.

وإذا تتبعنا صفحات التاريخ بعد ذلك لا نجد من يصلح لأن يوصف بصفة الزعامة، فيمكن التأكيد من خلو العصر العثماني كله بداية من القرن السادس عشر وحتى نهاية القرن الثامن عشر من شخص يتمتع بمواصفات الزعيم لعدة أسباب:

(١) أن مصر وقعت تحت سيطرة العثمانيين.

(٢) عدم عناية العثمانيين بشئون المصريين.

(٣) تدهور الحياة الاقتصادية والاجتماعية في مصر.

(٤) عدم وجود شخص جدير بالتفاف المصريين حوله.

(٥) العزلة التي فرضها الأتراك العثمانيون على المصريين ومنعهم من الاتصال بالدول الأوربية الناهضة أي باختصار إبعادهم عن حركة التنوير في أوربا ومحاكاة النهضة الأوربية.

وقد أفاض عبد الرحمن الجبرتي عن الدور الرائع الذي لعبه علماء الأزهر ومشايخه[٣٧] بحكم زعامتهم الدينية وكونهم صفوة متميزة في ذلك الوقت، فقد اعتبروا التحامهم بالشعب ودفاعهم عن قضاياه ووقوفهم في وجه ظلم الحكام صورة من صور الجهاد الديني وهؤلاء أمثال الشيخ السادات والشيخ الشرقاوي والشيخ البكري والشيخ العروسي وغيرهم وهؤلاء يمثلون الصفوة الدينية.

ونستطيع أن نتبين من مجموعة الوقائع التي عرضها الجبرتي ما هي طبيعة العلاقة بين الشعب المصري والسلطة الحاكمة في مصر المملوكية فقد كانت علاقة تتسم بالظلم والديكتاتورية مما جعلها في حالة توتر دائم مما جعل الشعب يلجأ إلى العنف في بعض الأحيان[٣٨]. وكان المصريون يلجأون إلى علماء ومشايخ الأزهر لدرء خطر السلطات الحاكمة عنهم، واستمروا في دورهم الوطني في مساندة الحركات الشعبية المصرية ثم انتكس هذا الدور بعد حكم محمد علي، مما جعل نابليون ينظر إليهم بعين الحذر والريبة وقام بالقبض على هؤلاء الزعماء الدينيين ثم تودد إلى العلماء تقرباً إلى الجماهير[٣٩].

وكانت قد امتزجت نزعة علماء ومشايخ الأزهر الدينية بالرؤية السياسية الدنيوية، فكان لهم دور قيادي في قيادة الثورات لمقاومة الحملة الفرنسية والدفاع عن القاهرة وقيادة ثورتي القاهرة الأولى والثانية[٤٠].

وعندما جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر في نهاية القرن الثامن عشر، وتزامن مجيئها مع انهيار المجتمع المصري في تلك الفترة فكانت المقارنة رهيبة والهوة سحيقة بين المجتمعين الفرنسي والمصري، فالأول وصل إلى مرحلة متقدمة من التنوير السياسي بثورته على الحكم المطلق وإقامة الجمهورية،

وإعلان مبادئ الحرية والإخاء والمساواة لكل المواطنين إلى جانب تقدمه اقتصادياً والثاني نظام عسكري واقتصادي واقع تحت سيطرة الأجانب إلى جانب انتشار الجهل والخرافات والشعوذة ليس للعلم فيه مكان سوى بصيص خافت من نوره في الأزهر، فكان ميزان القوة المادية والتفوق الحضاري في صالح الفرنسيين.

زعامة محمد كريم:

في تلك الآونة ظهرت إحدى الزعامات التي لم يقدر لها البقاء طويلاً لممارسة دورها الزعامي، وظهرت متجسدة في شخص السيد محمد كريم حاكم مدينة الأسكندرية والذي التف حوله الأهالي لمواجهة الغزو الفرنسي فاعتقلته القوات الفرنسية وأعدمته رمياً بالرصاص في سبتمبر ١٧٩٨، ومنذ ذلك الحين بدأ الشعور الوطني يتعاظم ويتبلور متمثلاً في ثورتي القاهرة الأولى والثانية كما سبق أن ذكرنا[٤١].

زعامة عمر مكرم:

كانت الحملة الفرنسية بصرف النظر عن وجهها العسكري بمثابة صدمة حضارية ثقافية للمجتمع المصري، وكان وجود المجمع العلمي بكل إنجازاته صورة واضحة لتقدم العلوم والأفكار السياسية والاقتصادية في أوربا ساهمت في توجيه الأذهان لما عليه الغرب الأوربي من تقدم مما ساهم في بلورة الزعامة المصرية وتقويتها بفضل مقاومتها للفرنسيين، وزادت خبرتها بعد مشاركتها في الحكم والسياسة مع الفرنسيين والاطلاع على المعارف الجديدة وأسهمت منازعات الأتراك والإنجليز والمماليك وتصارعهم على حكم مصر في بروز شخصيات لها صفة الزعامة وهو السيد عمر مكرم نقيب الأشراف الذي ساهم هو وزملاؤه من العلماء والتجار والأشراف في التخلص من الفرنسيين والمماليك والإنجليز.

وعمرمكرم شخصية جديرة بالدراسة والتحليل فقد انتمى إلى صفوة المجتمع

المصري في نهايات القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر. كما أنه يعتبر بحق من الصفوات الدينية المستنيرة استطاع أن يجمع بين إدراكه لقضايا الإنسان المصري ومشكلاته ووعيه بضرورة الدور الذي يجب أن يلعبه هو ورفاقه بالنسبة لقضايا المصريين دون حصر هذا الدور في المفهوم الضيق لمعنى رجل الدين(٤٢).

وتجلت ملامح شخصيته القيادية في ثورة القاهرة الثانية ضد الفرنسيين، تلك الثورة التي أظهر فيها عمر مكرم نقيب الأشراف دوراً بطولياً مميزا رافقه فيه السيد أحمد المحروقي وقادا ثورة انضم إليها العديد من أهالي مصر ولكن قدِّر لهذه الثورة أن تحيد عن مسارها المتوقع حيث قام الفرنسيون بمذابح للزعماء الدينيين، مما جعل العلماء يتوخون الحذر ويؤثرون الهدنة حتى تهدأ الأمور(٤٣).

وقد كشفت ثورتا القاهرة الأولى والثانية عن الدور الزعامي المتميز الذي لعبه هذا النقيب، وتعاظم هذا الدور من خلال العديد من الأحداث التي وقعت على المسرح السياسي، والتي سبقت تولية محمد علي على مصر، وبعد توليته أيضاً فقد أنابه الشعب هو ورفيقه الشيخ الشرقاوي للتحدث باسمه، واختيار محمد علي والياً على مصر، وإضفاء صفة الشرعية على توليته بالباسه الكرك والقفطان كنوع من التتويج الشرعي الشعبي قاما به نيابة عنه.

وقد بايع الشعب لمحمد علي كوالي على مصر، وكانت المرة الأولى في الشرق التي يختار فيها الشعب واليه بإرادته، مما يعكس درجة عالية من الوعي أو النضج السياسي، وكانت مبايعة مشروطة ومحكومة(٤٤) بشروط الشعب مما يعني أن زعامة عمر مكرم قد تجسدت – كتعبير عن مطلب شعبي – لعزل الوالي التركي وتنصيب محمد علي، وتلك هي زعامة الشعب، وهذا الدور الذي لعبه عمر مكرم كأحد كبار الصفوة الدينية كما ينبغي أن يكون هو نفسه الذي استشعر منه محمد علي خطورته فنكل بالسيد عمر مكرم ونفاه إلى دمياط فتقلص بنفيه الدور الزعامي للمصريين في تلك الفترة.

ولا يفوتنا أن نشير إلى أن بعض المشايخ كان لهم دور كبير في تعميق هوة الخلاف بين النقيب ومحمد علي، فكان إقصاء هذا الزعيم الديني والسياسي عن الميدان السياسي هدفاً وضرورة سياسية وضعها محمد علي نصب عينيه لتحقيق مآربه وأسرته في حكم مصر(٤٥).

مما سبق يتضح أن الزعامات المتمثلة في رجال الدين والعلماء والتجار نتجت عن بعض المواقف والأزمات التي كانت بمثابة تجسيد وبلورة لتلك الزعامات وكشف أبعادها وكوامنها، وساعدت على خلقها أيضاً التناقضات الطبقية التي سادت المجتمع المصري، إلى جانب الظلم والاستبداد الذي تعرض له المصريون والذي تمثل في ديكتاتورية الحكم.

زعامة أحمد عرابي:

وبنهاية عصر محمد علي ١٨٤٨م وحتى نهاية القرن التاسع عشر خلا المسرح السياسي ممن تنطبق عليهم مواصفات الزعامة، حتى إذا جاء العقد الثامن من القرن التاسع عشر قدّر لمصر أن يظهر من بين أبنائها ممن تنطبق عليه مواصفات الزعيم وهو أحمد عرابي الذي تمتع بشخصية جذابة مؤثرة، وكانت له الموهبة التي تعد من خصائص الزعماء انعكست في محبة ضباط الجيش له وثقة الأمة به، كما كانت له جاذبية جماهيرية، إضافة لموهبة الكلام والحضور الخطابي الذي كان له فعل السحر في نفوس الجماهير، وكانت تلك السمات المؤهلة للزعامة مع روحه كفلاح مصري منحته قدسية خاصة فكان بمثابة المخلص للأمة من ظلم وكبرياء الجراكسة فقاد الأمة بجدارة في فترة من أخطر فترات التاريخ المصري فأصبح زعيماً لإحدى ثورات التاريخ المصري ونموذجاً ثورياً منقطع النظير جسد آمال أمة بأكملها(٤٦).

إن الثورة مظهر من مظاهر التحديث السياسي ودور الزعيم هو حمل لواء ذلك التحديث مع تغيير نمط الحكم الذي قامت الثورة من أجل القضاء عليه.

لقد ساهمت الظروف السياسية والاجتماعية والحكم الديكتاتوري السائد في تألق موهبة عرابي الزعامية، فقد تمحورت عبقريته حول عدة نقاط أولاً: أنه استطاع فرض تصوراته – رغم تواضع ثقافته – على صفوة القوم في ذلك الوقت من المثقفين وأن يشارك في وضع برنامج الحزب الوطني الذي يعكس رؤية إصلاحية صاغها المفكرون والأعيان والأتراك والعسكريون برئاسته(٤٧)، وثانياً: مجاهرته في قصر عابدين يوم ٢ سبتمبر بمساندته للأعيان طالما كانوا معتدلين وتقويمه والجيش لهم إذا أعوج سلوكهم(٤٨)، وهذا يعني استطاعته مناهضة السلطة وجبروت الأتراك وعنجهية الشراكسة. ولا شك أن حماسه الوطني ووعيه وإدراكه للتفاوت الطبقي ومأساة الحكم الديكتاتوري وغياب الحياة الدستورية هو ما دعاه إلى الانتماء إلى الحزب الوطني (جماعة حلوان) الذي تزعمته جماعة البشاوات الوطنيين، وعلى رأسهم شريف باشا وسلطان باشا وغيرهما من ارستقراطي مصر الذين تولد لديهم الوعي بقضايا وطنهم، فطالبوا بالدستور والبرلمان وحكومة تلبي رغبات الشعب وتكون مسئولة أمامه. وقد اتسعت قاعدة هذا الحزب لتشمل الوطنيين من مختلف الطبقات الدنيا والشعبية إلى جانب الصفوة العسكرية الوطنية ومنها أحمد عرابي.

وأيا كانت الاختلافات في الآراء حول وطنية هؤلاء البشاوات وما قيل عن أن حركتهم هدفها الوصول إلى السلطة إلا أنها أدت دوراً متميزاً في تلك الفترة، وقد بدا أحمد عرابي في صورة القديس ليس فقط لدى المصريين ولكن لدى الأجانب أيضاً، فيروي صديقه الفريد بلنت أنه شاهد بنفسه وفدا من الجالية الإيطالية استقبلها عرابي، وما أن مد يده بالمصافحة حتى انهالوا على يديه تقبيلاً وهي ظاهرة غير مألوفة لدى المجتمع الإيطالي، ولكن يبدو أنهم نظروا إليه على أنه قديس يدافع عن الحرية(٤٩).

فقد كان لعرابي مؤهلات جسمانية ومؤثرات وجاذبية شخصية جعلت منه زعيماً يدخل القلوب دون استئذان فيقول بلنت "أن عرابي نموذج للقائد

الفلاحي .. طويل .. عريض المنكبين، بطيء الحركة نوعا ما .. يشبه في مشيته مشايخ البلاد .. أسمر الوجه إلى الحد الذي كان يجعل الأتراك ينفرون منه .. ذا نظرة غريبة .. قد تبدو جامدة وقد تبدو حالمة .. لكنه كان مبتسماً على الدوام وما أن يتكلم حتى يكتشف الإنسان طيبته وذكاءه"(٥٠).

وتجلت زعامة عرابي واكتسابه تأييداً شعبياً جارفاً عندما أطلق عليه الشعب "حامي حمى الديار المصرية" وتغنوا به في مجالسهم، وأدركوا أنه مبعوث العناية الإلهية، وهي قضية موروثة في التراث المصري.

وكان التدخل الأجنبي أو الإنجليزي في مصر سبباً في أن زعامة عرابي تعدت الحدود المصرية إلى خارجها، ففي الداخل قام الأزهريون بجمع أختام المصريين في توكيل عرابي للدفاع عن مصر ورفض التدخل الأجنبي(٥١).

وقام رجال الدين في مصر بدور رائع ومتميز في تغذية الاتجاه الذي سيطر على المصريين وعقولهم وآمنوا به، والاعتقاد الراسخ بانتصار عرابي في الحرب على أعداء الله واستطاعته إسقاط نظام الحكم القائم وتوليه هو الحكم حيث أن لديه مؤهلات تمكنه من ذلك، لأنه ينتمي إلى السلالة النبوية الشريفة، كما أنهم اعتقدوا أنه أحد أولياء الله الصالحين المكشوف عنهم الحجاب، وراح العلماء يروجون لفكرة أنه "توجد نصوص قاضية بأن عرابي سيتسلم ولاية مصر بدلاً من الخديو، ويجرى رفع المظالم ويقطع دابر الفرنج والأتراك، وتبقى الحكومة لزمام المصريين في الوظائف .. وسيصير ملكاً للعرب عموماً بما فيهم الشام والحجاز" .. وقد أعطى عرابي لنفسه مسحة شرعية بإرجاع نسبه إلى الحسين رضي الله عنه. وتلقب بلقب مولانا أمير المؤمنين سعادة أحمد باشا عرابي" وأعلن العلماء المصريون أن عرابي أفضل من يعتلي حكم مصر حيث أنه "المحامي عن الدين والعرض والشرف"(٥٢).

وترددت المقولات التي تذكر أنه حتماً منصور في حربه على أعداء الله، وكعادة المصريين يحلمون بما يريدونه ويفسرون أحلامهم ورؤاهم حسبما

يريدون هتف له أحد مشايخ الأزهر بأنه حامي حمى الإسلام والقائد الذي سيوحد العرب والمهدي المنتظر(٥٣).

وفي الخارج كان لعرابي وجود قوي كزعيم أمة على المسرح السياسي، خدمه في ذلك الرفض للغزو البريطاني لمصر، حيث أنه عُد امتداداً للحروب الصليبية على ديار الإسلام، فكانت بلاد الحجاز يسودها غليان كبير إثر سماع أنباء الغزو البريطاني لمصر، وأقيمت الصلوات في مكة لنصرة عرابي، وامتدت الصلوات من حجر إسماعيل وزمزم في الكعبة الشريفة إلى عرفات ومنى مما يعني دعم أهل الحجاز لعرابي.

وفي طرابلس وتونس قام العلماء بدور هام لدعم عرابي واشترطوا على مندوب السلطان لنجاح قضية الإسلام في شمال أفريقيا أن يبقى عرابي في الحكم، ولقب عرابي هناك بحامي الإسلام والعرب، وأقيمت الصلوات في مسجد القيروان لنصرة عرابي. وتعدى الأمر كل الحدود المتوقعة حيث تعاطف مسلمو الهند مع الثورة المصرية، وأقام أهالي كلكتا الصلوات في المساجد لنجاح ثورة عرابي باشا كما أقيمت الصلوات في المساجد التركية في عقر دار الدولة العثمانية وكثرت الدعوات من أجل نجاح عرابي(٥٤).

وأدى تطلع عرابي للاستيلاء على السلطة وحكم البلاد - وهو أحد وزراء وزارة البارودي -، إلى وقوعه في خطأ كبير كزعيم، بل كان عليه أن ينأى بنفسه بعيداً عن الحكم فيحقق له هذا البعد تأثيراً أقوى، ويجعله متفرغاً للرسالة المنوط بها وهي الدفاع عن شعبه أمام الحكام كما انتظر منه المصريون(٥٥).

لقد قام عرابي بعد توليه وزارة الحربية بالقضاء على خصومه ومعارضيه، وتحول إلى حاكم دكتاتوري وأغفل المثل والمبادئ التي دعا إليها والتي استندت عليها زعامته، كما أنه قام بإغلاق الصحف التي عارضته(٥٦).

ولكن ورغم كل ما قيل عن شخصية عرابي كزعيم واختلاف المؤرخين حول ماهية شخصيته وما قيل عن محدودية ثقافته وولعه بالسلطة وضآلة خبرته

السياسية، وافتقاره إلى رؤية ايديولوجية متكاملة(٥٧). إلا أن كونه منتمياً اجتماعياً إلى المجتمع القروي، بالإضافة إلى الظروف السياسية والاجتماعية التي ظهر فيها كزعيم، ساعده كل ذلك على صياغة البناء الزعامي لشخصيته، مما جعله يلعب دوراً خطيراً في حياة المجتمع المصري في تلك الفترة حيث سيظل عرابي دائماً وأبداً رمزاً حياً لثورية الإنسان المصري في بساطته وعفويته وحماسه الوطني الصادق(٥٨).

زعامة مصطفى كامل:

وبعد فشل الثورة العرابية، عاش المصريون في حالة من اليأس والقنوط، إلى أن ظهرت مع بداية القرن العشرين شخصية اتسمت بقدر كبير من الجاذبية خرجت من بين جموع الشعب لتقوده للمناداة بالاستقلال ألا وهي شخصية مصطفى كامل الذي كان يمثل جيل اليقظة والوعي، جيل ما بعد ثورة عرابي ذلك الجيل الذي حظي بقدر وافر من العلم والثقافة وكانت زعامته تختلف عن سابقتيها، فزعامة عمر مكرم كانت تنتمي إلى الصفوة الدينية، وزعامة أحمد عرابي كانت تنتمي إلى الصفوة العسكرية، أما مصطفى كامل فقد انتمى إلى الصفوة المثقفة(٥٩) مما أتاح له القدرة على إمكانية طرح رؤية أو ايديولوجية شبه متكاملة.

فلقد تزامن ظهور زعامة مصطفى كامل مع نشأة الأحزاب السياسية المصرية، حزب الأمة، وحزب الإصلاح على المبادئ الدستورية ثم الحزب الوطني، مما أثر في صياغة هوية زعامته السياسية، كما حدد المسار الذي اتخذه ليكافح ضد اوتوقراطية السلطة الحاكمة والاستعمار الإنجليزي(٦٠).

ويعتبر مصطفى كامل طرازاً عصرياً من الزعامات السياسية الثورية التي استطاعت بقدرة فائقة الجمع بين الحماس الثوري والحس الوطني الناضج، وبين الطرح الفكري بأبعاده السياسية والاجتماعية، فلم يطغ حماسه الثوري على البعد الفكري لديه فتعلقت به آمال الشعب المصري، فكان بمثابة روح هذا الشعب

وباعث الأمل فيه بعد قنوطه إثر فشل الثورة العرابية، وكانت سياسة البعثات التي ارسلها إسماعيل قد بدأت تؤتي ثمارها، فبعد عودة المبعوثين من الخارج بدأوا في فرض وجودهم على الساحة الفكرية والثقافية متأثرين بالحريات الغربية والحياة النيابية الدستورية، وشاركوا في الصالونات الفكرية والمنتديات الأدبية التي انتشرت في مصر خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر والتي انضم مصطفى كامل إلى أحدها قبل تخرجه بعام، وهو صالون لطيف سليم باشا وساهمت ثقافته الفرنسية إلى جانب ثقافته الإسلامية في تشكيل نمط فكره، فجمع بين الحماس الثوري والحس الوطني اليقظ فتأثر بالفكر السياسي الحزبي الفرنسي مما اثر في تكوين صياغة الفكر السياسي والحزبي لديه[٦١].

وكان مصطفى كامل على دراية كاملة بأسباب فشل الثورة العرابية، وكان حضوره الخطابي والتفاف الشعب حوله من أهم العوامل التي ساعدت على جعله شخصية زعامية متميزة ذات مواصفات خاصة، فقد كان عاشقاً رومانسياً لمصر وكانت مصر المتحدة أحد أحلامه كما جاء في برنامجه الثوري.

وكان لانتمائه للطبقة الوسطى من الشعب المصري[٦٢] وحداثة سنه مع عفته وطهره وعدم تطلعه إلى اعتلاء أي سلطة أنه أصبح أحد رموز الكفاح الوطني، فلم يتطلع مثلما فعل عرابي إلى أي سلطة، لذا كان لزعامته هوية خاصة سمت بالوطنية المصرية ووصلت بها إلى أعلى درجات الفكر الشامل[٦٣].

فكان له اتجاه سياسي وبرنامج إصلاحي لإيقاظ روح مصر الفتاة، ولكن القدر لم يمهله لتحقيق أمانيه وأحلامه.

ولكن وبالرغم من ذلك فقد نجح في تنبيه الضمير العام إلى حق مصر في الاستقلال، ولكن سياسة الوفاق بين الخديوى والإنجليز عملت على تغييب الضمير واندثار الوعي فكانت وفاته بمثابة صدمة للمصريين جميعاً حيث أنه نال حبهم واحترامهم، بسبب مواقفه الوطنية خاصة موقفه من حادثة دنشواي، فقد أدى دوراً قيادياً وزعامياً وسياسياً رائعاً عكس وعيه بنبض شعبه وإحساسه

بمسئولية الدفاع عنه، وأدى موقفه من هذه الحادثة إلى إقصاء اللورد كرومر مما عُد انتصاراً ساحقاً للحركة الوطنية المصرية[٦٤].

وقد استطاع مصطفى كامل أن يضم لحزبه مصر الفتاة الفئات المختلفة من جموع الشعب من الموظفين والأعيان والمثقفين والطلبة والعمال[٦٥].

كما كان بارعاً في المزج بين تعليمه العصري وتربيته في أوربا، وبين تمسكه بأهداب دينه والحفاظ على تقاليد مجتمعه الشرقي[٦٦].

وبوفاته لم يستطع خلفه محمد فريد أن يجمع المصريين بل إن زعامته للحركة الوطنية على الرغم من إخلاصه وتضحياته لم تتمكن من الحفاظ على الوحدة الوطنية، وكان قراره المتعجل بالخروج من مصر بعد أن أدرك الاحتلال أن الرجل لا يتسم بالصلابة التي اتسم بها مصطفى كامل، فغادر مصر إلى أوربا وعاش بها حتى مات سنة ١٩١٩م[٦٧].

زعامة سعد زغلول:

ويمكن القول أن مصر قد خلت من الزعامة الوطنية حتى قبيل أحداث ثورة ١٩١٩م حين ظهر سعد زغلول الذي تبلورت حوله الزعامة مما حث سلطات الاحتلال على اعتقاله هو وزملائه ونفيهم إلى مالطة لإجهاض الحركة الوطنية متناسين أن المشكلة ليست في زعامة يكبلونها وإنما في شعب صمم على تكسير قيوده، مما أدى إلى اندلاع لهيب ثورة ١٩١٩م في الأحياء والمدن والقرى حتى لم يعد هناك شبر واحد إلا ويسمع به دوي الثورة الوطنية، وتوحدت قوى الشعب بكل طوائفه لتعبر بقوة عن تلك الثورة الشعبية مما أثار عجب العالم بأسره، فكيف يثور الشعب المصري أمام انجلترا التي انتصرت في واحدة من أشد الحروب ضراوة، وكان شعار المصريين "الاستقلال التام أو الموت الزؤام". فأجبروا الإنجليز على إطلاق سراح سعد زغلول وأصحابه، كما أجبروهم على مفاوضة الزعيم الذي اختاره الشعب. والسؤال الذي يطرح نفسه الآن لماذا حظي سعد زغلول بإجماع المصريين مما أهله لكي يكون زعيماً مصرياً حقيقياً؟

إن سعد زغلول يعتبر بحق أحد الزعامات السياسية التي امتد تأثيرها للأجيال اللاحقة لثورة ١٩١٩م رغم كبر سنه، ولكنه استطاع الحصول على لقب نبى الوطنية من غالبية الشعب[٦٨]، فقد كان عبقرياً في زعامته، وكانت له نظرة شمولية استطاع من خلالها استشراف ما خفى عن غيره من السياسيين المحنكين ، وكان انتخابه كوكيل للجمعية التشريعية ثم توكيل الشعب له للمطالبة بالاستقلال والتفاف الشعب حوله ثم ثورة ١٩١٩[٦٩]،

كل ذلك كشف عن شخصية زعامية فذة وساحرة لها صلابة الحديد وخاصة عند مفاوضاته على الاستقلال ونجاحه وحزبه – حزب الوفد – في الانتخابات ثم تشكيله لأول وزارة وفقاً لدستور ١٩٢٣م، وقد كانت له سمات عامة تميز فكره مما جعله رمزاً للوطنية، كما ساهمت موهبته المتميزة في التأثير على الآخرين في التفاف الشعب حوله بصورة غير مسبوقة، إضافة إلى ذكائه في التقرب من الشعب وانتمائه للقرية المصرية وإعلانه المستمر أنه زعيم للرعاع تقرباً منه لنفسية الإنسان المصري، أضف إلى كل ذلك استطاعته تطوير التحديث السياسي الذي بدأته ثورة عرابي والذي تمخض عنه دستور ١٩٢٣م وانتخابات ١٩٢٤م كأول لبنة في الحكم الليبرالي[٧٠]، فبهذه الرؤى الفكرية المتميزة، أصبح سعد زغلول من أجدر الشخصيات السياسية تمثيلاً لزعامة الأمة "إن سعد هو أقرب الناس إلى الشعب، وهو أكثر الزعماء الموجودين كفاية وقدرة على الاضطلاع بأعباء رئاسة الوفد"[٧١].

وبوفاته ١٩٢٧م اختفت الزعامة السياسية في مصر وتدهورت الأوضاع المصرية بدرجة أصابت قطاعات المصريين بحالة من اليأس وخصوصاً عقب الحرب العالمية الثانية ووصولاً إلى هزيمة الجيش المصري في فلسطين ومروراً بتدهور سلوك الملك فاروق، والذي كان حديث كل الأوساط المصرية مع تدهور الأحزاب المصرية بشكل كبير حتى يمكن القول أنها لم تعد تتناسب وطموحات المصريين، من هنا كان ظهور جموع الشباب المصري الذي انخرط في التطوع

عقب معاهدة ١٩٣٦م حيث أتيح لأبناء مصر الحقيقيين أن يكونوا ضباطاً لأول مرة، وبحكم ثقافاتهم وانتماءاتهم الاجتماعية واحتكاكهم بالاحتلال فقد كانوا في مقدمة القوى التي استشعرت حجم الخطر الذي تتعرض له مصر، من أجل ذلك كان ظهور تنظيم الضباط الأحرار الذي تمخض عن ظهور شخصية عبد الناصر الزعامية التي حظيت باحترام كل الضباط حتى من الرتب الكبيرة.

زعامة جمال عبد الناصر:

يعتبر جمال عبد الناصر أحد الزعماء السياسيين الذين أفرزتهم الحياة العسكرية، وكان على وعي حقيقي بظروف مجتمعه من الاحتلال وفساد القصر، والفشل المتلاحق للوزارات المصرية لإيجاد هوية مستقلة بعيداً عن ضغوط القصر، ثم صراع الأحزاب على السلطة والحكم، فكان تنظيم الضباط الأحرار(٧٢) إصراراً على حتمية التغيير الجذري لكل بنيان المجتمع سياسياً واقتصادياً واجتماعياً(٧٣).

وكانت ثقافة عبد الناصر لها تأثير كبير في تحديده لمسار كفاحه الوطني، وشعوره بضرورة إيجاد طريقة للخلاص، وإيمانه بحتمية إحداث تغيير جذري يحدد معالم مستقبل المجتمع المصري سياسياً واجتماعياً، ويؤكد كل من جورج فوشيه وبيتر مانسفيلد Mans Field أن جمال عبد الناصر قد قرأ الكثير من كتابات مفكري القرن التاسع عشر وزعمائه، ومن جاءوا بعدهم، فقرأ عن روسو وفولتير وديكنز، كما قرأ عن حياة يوليوس قيصر ونابليون وغاندي، فضلاً عن قراءاته المتنوعة عن بعض أعلام الفكر المصري، وسيرة بعض الزعماء المصريين الذين ساهموا في مسيرة الحركة الوطنية في مصر، فقرأ عن مصطفى كامل وغيره لذلك كان يتساءل: أين الكرامة ...؟ أين الوطنية...؟ أين نشاط الشباب؟ متى يستيقظ المصريون؟ (٧٤)

ولكن ورغم قراءاته المتنوعة في التاريخ والسياسة وتاريخ الزعماء والمصلحين فهو لم يستطع أن يكون منظومة فكرية ذات ملامح متكاملة، وحين

نتعرض بالحديث لمبادئ الثورة الستة، والتي قد تداعى بعضها وتهاوى منذ اللحظة الأولى للممارسة الواقعية للسلطة والحكم بحيث أصبح بعضها مجرد مبادئ بلا مضمون وفرغت تماما من معانيها الحقيقية، وأصبحت مجرد شعارات حماسية وخاصة فيما يتعلق بإرساء دعائم مجتمع ديمقراطي، وهي التي ظهرت في كتاب فلسفة الثورة(٧٥).

وليس هناك من شك أن عبد الناصر الشاب المتحمس الثوري كان يمتلك الموهبة الخاصة والملكات المتعددة التي تؤهله للزعامة والقيادة إلى جانب حسه الوطني بمشكلات مجتمعه، فكان التفاف الجماهير حوله وزملاءه تطلعاً منهم للخلاص من أزمات مجتمعهم، فاعتبرت الجماهير عبد الناصر أحد الأبطال الذين سوف يصنعون المعجزات. وكانت ثورة يوليو ١٩٥٢ والتي وصفها بيكر أنها ثورة من أعلى Revolution from above لأن الذين قاموا بها هم صفوة عسكرية واعية(٧٦)، وقد انطلقت نتيجة لحماس وطني مفرط واستطاعت بمهارة وبفضل رفاق واعين بمسئوليتهم تجاه وطنهم أن يقوموا بثورة عسكرية بيضاء طالما تاق الشعب إلى قيامها والالتفاف حولها، والاعتماد عليها في تحقيق غاياته(٧٧). "فالبطل، والبطولة كأحد رموز القوة عادة ما تستهوي الشعوب ذات المستويات الثقافية والتعليمية المتواضعة ... ومن ثم كان هذا التقدير الجماهيري للحركة الناصرية، وهو تقدير يغلب عليه الحماس العاطفي والتأييد الانفعالي الوجداني"(٧٨).

فكان عبد الناصر ظاهرة حيرت الباحثين والمفكرين ما بين مؤيد ومعارض، ولكنهم جميعاً لم يختلفوا على زعامته، ولكن اوتوقراطيته في الحكم كانت من أهم أسباب فشل زعامته في تحقيق تحديث سياسي، فإلغائه للنظام الحزبي في مصر وإلغائه دستور ١٩٢٣م كان أول انتكاسة للديمقراطية الليبرالية(٧٩)،فكان لا يطيق أي معارضة له وذلك كان قمة التطرف الذي أدى إلى عدم تحويل نظام الحكم من أوتوقراطي إلى ديمقراطي على عكس ما كان المتوقع لنتائج الثورة(٨٠). كما أدت

ممارسة السلطات في عهده لكثير من أنواع القهر وكبت الحريات وامتهان كرامة الإنسان المصري[٨١]، وكذلك اضطهاده لجماعة الإخوان المسلمين ثم بعض الصحفيين المعارضين، ولم يسلم قضاة مصر من الاضطهاد فحدث ما سمي بمذبحة القضاة كما لم يسلم بعض المفكرين أيضاً من هذا الأذى[٨٢].

وكان رفض الزعامة الناصرية لنظام تعدد الأحزاب ومحاربتها للأصوات المعارضة بلا هوادة منذ بداية الثورة، وهو الأمر الذي يتضح جليا من خلال المحاكمات العسكرية التي سميت بمحاكم الشعب والتي حوكم فيها ساسة ما قبل ١٩٥٢[٨٣]. أدى ذلك إلى إيجاد نوع من الفراغ السياسي الذي نتج عن الموقف السلبي للشعب المصري من قضايا مجتمعه حتى عاشت الجماهير في غربة عن مجتمعها، ثم جاءت كارثة ١٩٦٧ فضاعفت حجم مأساة الإنسان المصري وانهيار أحلامه في تلك الزعامة، ولكن وحين أعلن عبد الناصر في مساء ٩ يونيو ١٩٦٧ قراره بالتنحي عن رئاسة الجمهورية – كمناورة- معدة لاستمرار رئاسته للجمهورية وللحكم، انطلقت الجماهير نحو منزل عبد الناصر بمنشية البكري على أضواء ورق الجرائد الذي أشعلوه تهتف باسم زعيمها وتطالبه بالعودة وحين نتساءل لماذا هذا الموقف من الشعب نستطيع الإجابة بأن مشاعر الجماهير رفضت الهزيمة.. ورأت حتمية استمرار الطريق بالكفاح والنضال لحماية وصيانة تراثها وكبريائها تناشد عبد الناصر العودة وفي ضميرها وجوب حساب المقصرين.. تلك المشاعر التي تفجرت ثانية في فبراير ونوفمبر ١٩٦٨ تطالب بمحاسبة المسئولين عن الهزيمة "فكيف يذهب عبد الناصر ويلقي بها في الظلمات .. هارباً إلى الضوء؟ وهل من أوقع بهم الهزيمة لا يقذفون بها إليه؟ فالشعب لم ينهزم وإنما ألقى بالهزيمة في وجه عبد الناصر حينما طالبه بالعودة .. فإذا كان يمثل رمزاً فهم مؤمنين بأنفسهم .. ومؤمنين برفع أي رمز يرونه، فإذا تهاوى أو انهار فإنهم يرفعونه مرة أخرى، لأنهم لم ينهزموا ولم ينهاروا ولم تتهاوى عزائمهم. فالشعب يشعر أنه لم يحارب بعد .. ولم ينتصر بعد ... كما

تمنى دائما"[٨٤].

وقد عبر أنور السادات في خطاب له عام ١٩٧١ عن ذلك بقوله "لقد كشفت هزيمة يونيو ١٩٦٧ عن سلبيات كثيرة في حياتنا، كانت تشوه وجه تجربتنا الثورية الناصرية ..." [٨٥].

كما أضاف "كان لابد أن يزول الخوف، وأن تختفي بذور الشك، وأن تتراجع الحزازات والأحقاد، وأن يحس كل فرد أنه آمن على يومه وغده وعلى نفسه وأهله ورأيه وماله"[٨٦].

وفي النهاية يجب أن نعترف بالخطأ الجسيم الذي وقع فيه عبد الناصر كزعيم سياسي فلو كان نأى بنفسه عن اعتلاء السلطة لكان تغير الحال، فكان ينبغي بعد نجاحه ونجاح الثورة أن يوكل بالأمر لأحد القادة السياسيين لإدارة دفة الأمور ويكتفي بالمراقبة عن بُعد. فقد قامت الثورة من أجل هدف وكان ينبغي عند تحقيقه عدم الاستمرار في قيادة أمة دون أن يكون هناك إطار فكري يتناسب مع قيادتها، وكأن الشعب الذي ساندها وخلقها هو نفسه الذي قُضي عليه بيدها بعد أن أجهضت حريته، ورغم ذلك والعجيب أن الشعب هلع عليه عند وفاته وكأنه فقد سنده الوحيد.

وهنا يجب أن نقر حقيقة هامة أن عبد الناصر استطاع أن يؤدي دوره بشكل متميز حتى هزيمة يونيو ١٩٦٧ ولكنه بعد الهزيمة لم يستطع أداء دوره كما يجب أن يكون أو كما كان يُنتظر منه. "وهكذا نرى أن دور عظماء الرجال دور هام وواضح في حركة التاريخ، لكن هذا الدور مرتبط في النهاية بالظروف الموضوعية التي تتيح لهؤلاء العظماء أن يؤدوا دورهم، وإلى المدى الذي تستمر فيه تلك الظروف فعالة ومؤثرة"[٨٧].

لقد تعدت أحلام عبد الناصر حدوداً لم تكن محسوبة، ولو كان الرجل قد وجه كل اهتمامه للإصلاح الداخلي في مصر لأدت الثورة الدور المنوط بها، فقد تمثلت تلك الأحلام في زعامة العالم العربي أو الإسلامي، فقدم المساعدات

العسكرية لانقلابات بعض بلدان أفريقيا وآسيا على حكامها، ثم الدخول في حرب اليمن ثم مأساة ١٩٦٧ التي أظهرت بجلاء أخطاء حكمه الأوتوقراطي هو وبطانته(٨٨).

وفي النهاية نستطيع القول أن الزعماء السياسيين في مصر تميزوا بسمات خاصة قد تصل أحياناً إلى مستوى الموهبة والعبقرية تتضح في قدرتهم على قيادة الآخرين والتأثير فيهم فضلاً عن السيطرة وإخضاع الآخرين بصورة قد تحدث بشكل إرادي أو لا إرادي. كما أن الظروف لم تخلق الزعامات بقدر ما أتاحت لها الفرصة للظهور والتألق ، فالظروف السياسية من حركات صليبية إلى خطر المغول إلى نمو روح التعصب الديني ومحاولة إحياء الخلافة العباسية ساعدت على ظهور شخصية الزعيم متجسدة في الظاهر بيبرس خلال القرن الثالث عشر الميلادي، ثم تتجسد شخصية الزعيم في نهايات هذا القرن والقرن الذي يليه في شخص الناصر قلاون الذي تطلع إليه المصريون ليخلصهم من ظلم المماليك ويضمن لهم بقاء استقرارهم وأمانهم، كما أن ظلم العثمانيين بعد ذلك وتعسف المماليك والاحتلال الفرنسي ساعدت على ظهور زعامات القرنين السابع عشر والثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر، كذلك فإن اوتوقراطية نظام الحكم في عهدي إسماعيل وتوفيق، والتمايزات الاجتماعية والطبقية قد ساعدت على تفجر زعامة عرابي، كما أن ظروف الاحتلال الإنجليزي والنزعةالفردية في الحكم قد عملت على ظهور زعامة مصطفى كامل ثم سعدزغلول ومن بعدهم عبد الناصر.

وخلاصة القول أنه يجب على أي زعامة سياسية أن تظل دائماً خارج السلطة الشرعية الرسمية، حتى تستطيع العمل بحرية وبدون التقيد بقيود السلطة بمعناها الرسمي، فالزعيم السياسي يجب أن يظل دائماً وأبداً رمزاً للجهاد الوطني، حتى لا تفقد زعامته مقوماتها إذا ما تطلعت إلى اعتلاء السلطة الرسمية، ويجب أن نؤمن إيماناً كاملاً بأن زعامته هي سلطة تتجاوز كل المعاني السلطوية التقليدية، وأنها تستمد شرعيتها من تأييد ومساندة الجماهير لها(٨٩).

الهوامش

(١) عاطف أحمد فؤاد: الزعامة السياسية في مصر، القاهرة ١٩٨٩، ص ٣ من المقدمة.
(٢) المرجع السابق، ص ٣، ٤.
(٣) المرجع السابق، ص ٤، ٥.
(٤) عادل غنيم وآخر: في منهج البحث التاريخي، الأسكندرية، دار المعرفة، ١٩٩٩م، ص ٢٩،٣٠.
(٥) عاطف أحمد فؤاد: المرجع السابق، ص٥.
(٦) المرجع السابق، ص٥، ٦.
(٧) عادل غنيم: في منهج البحث التاريخي ، ص٦٦.
(٨) لمعرفة تفاصيل عن النظام الديمقراطي والأوتوقراطي، انظر محمد كامل ليلة: النظم السياسية: الدولة والحكومة، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٦٨.
(٩) عاطف أحمد: مرجع سابق، ص٥، ٣٩.
(١٠) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، القاهرة ١٩٩١م. ص٣، ص ٢٠٠، ٢٠١.
(١١) انظر محمد إقبال: رسالة الخلود، ترجمة محمد السعيد جمال الدين، القاهرة ١٩٧٤، ص ٣٣، ٣٤.
(١٢) عاطف أحمد: مرجع سابق، ص٧٥.
(١٣) سعيد عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، القاهرة ١٩٧٦، ط٢، ص٥٩.
(١٤) علي إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية، القاهرة ١٩٦٧، ط٣، ص٥١.
(١٥) المقريزي: كتاب السلوك في معرفة دول الملوك، ط١، جـ٢، نشره ووضع حواشيه محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٣٤-١٩٥٨، جـ١، ص٦٣٨.
(١٦) سيرة الظاهر بيبرس: خمسون جزءا، القاهرة، ١٩٢٦م.
(١٧) المقريزي: السلوك، جـ١، ص ٥٥٣.
(١٨) علي إبراهيم حسن : تاريخ المماليك البحرية، ص ٥١.
(١٩) أنظر ترجمته في ابن حجر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ٥ أجزاء، القاهرة ١٩٦٦، جـ/٥ ص ٢٦١-٢٦٥.
(٢٠) علي إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية، ص١٠٦.
(٢١) تولى الناصر العرش ثلاث مرات تخللتها فترات اغتصاب لملكه من بعض أمراء المماليك، على إبراهيم: تاريخ المماليك البحرية، ص ٦٩.
(٢٢) G.wiet: Histoire de la Nation Egyptienne, t.iv L' Egypte Arabe PP.456-498 ؛ علي إبراهيم حسن: تاريخ المماليك، ص٧٠.
(٢٣) Al-Hajji, Hayat Nasser, The Internal Affairs in Egypt during the third reign of sultan Al. Nasir Mohamed B.Qalawn, Kuwait, 1978. P.11.
(٢٤) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٤٠٢٨، جـ٩، ورقة ١٧٢، ١٧٣ ؛ علي إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية، ص٨٨.
(٢٥) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، القسطنطينية، ١٢٨٦هـ، جـ٤، ص٩.
(٢٦) حياة حجي: أحوال العامة في حكم المماليك، الكويت ١٩٩٤، ط٢، ص١٨، ١٩.
(٢٧) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٨، ص ١٧١، ١٧٢.
(٢٨) علي إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية، ص ١٠٥.
(٢٩) ابن تغرى بردى: بدائع الزهور، جـ١، ص١٧٣.

(٣٠) المقريزي: السلوك، جـ٢، ص ٨٣.
(٣١) Arnold, Thomas W. The Caliphate, PP. 99-100, London, 1965.
(٣٢) أنظر ترجمته في الدرر جـ١، ص٤٥٥-٤٥٧.
(٣٣) انظر ترجمته في الدرر جـ٣، ص٣٤١.
(٣٤) انظر ترجمتها في الدرر، جـ٢، ص ٨٧، ٨٨.
(٣٥) المقريزي: السلوك، جـ٢، ص٣١٧، ٣١٨؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٩، ص ٩٣، ٩٤.
(٣٦) المقريزي: السلوك، جـ٢، ص٣٥، ٣٦ ؛ حكيم أمين عبد السيد: قيام دولة المماليك الثانية، القاهرة ١٩٦٧، ص ٢٢.
(٣٧) للمزيد عن كفاح علماء الأزهر، انظر: عبد العزيز الشناوي صور من دور الأزهر في مقاومة الاحتلال الفرنسي لمصر في أواخر القرن الثامن عشر، دار الكتب، القاهرة ١٩٧١؛ عبد الرحمن الرافعي: مصر في مواجهة الحملة الفرنسية، القاهرة ١٩٧٩.
(٣٨) عبد الرحمن الجبرتي: المختار من تاريخ الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، كتاب الشعب (٢٩) القاهرة ١٩٥٨، ص٣٣٦.
(٣٩) محمد أمين حسونة: كفاح الشعب من عمر مكرم إلى جمال عبد الناصر، المجلد الأول، الوعي القومي، القاهرة، ص٢٤، ٢٥.
(٤٠) عبد العزيز الشناوي: صور من دور الأزهر
(٤١) المرجع السابق.
(٤٢) نعمان عاشور: بطولات مصرية، ص٢٠-٢٢ ؛ عاطف أحمد: مرجع سابق، ص٧٩.
(٤٣) الجبرتي: المختار من تاريخ الجبرتي، ص٦٣٠، ٦٣١.
(٤٤) المرجع السابق.
(٤٥) عبد العزيز الشناوي: عمر مكرم بطل المقاومة الشعبية، ص ٢٥٠ ؛ نعمان عاشور: بطولات مصرية، ص ٢٢.
(٤٦) عبد الرحمن الرافعي: الزعيم أحمد عرابي، القاهرة كتاب الهلال، ص٢١٠ ؛ وصلاح عيسى: ملامح من الخريطة الفكرية للثورة العرابية، مجلة الطليعة، العدد التاسع، السنة الرابعة، سبتمبر ١٩٤٧، ص٤٧.
(٤٧) رفعت السعيد: الواقع الطبقي للثورة العرابية، ص ٤٧.
(٤٨) المرجع السابق، ص١٧٠.
(٤٩) صلاح عيسى: مرجع سابق، ص٤٧.
(٥٠) نقلاً عن رفعت السعيد: الأساس الاجتماعي للثورة العرابية، القاهرة ١٩٦١، ص١٣٠.
(٥١) لطيفة سالم: التيار الديني في الثورة العرابية، بحث ضمن أعمال ندوة الدين والدولة في العالم العربي – الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ٢٠٠٣، ص٥٦.
(٥٢) لطيفة سالم: التيار الديني، ص٥٨.
(٥٣) المرجع السابق، نفس الصفحة.
(٥٤) لطيفة سالم: التيار الديني، ص ٦٤.
(٥٥) عاطف أحمد فؤاد: مرجع سابق، ص٩٨.
(٥٦) انظر إبراهيم عبده: الديمقراطية بين شيوخ الحارة ومجالس الطراطير، سجل العرب، القاهرة ١٩٧٩.
(٥٧) عبد الرحمن الرافعي: الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزي، ص١٤٤ وما بعدها.
(٥٨) عاطف أحمد: مرجع سابق، ص١٠١.

(٥٩) للمزيد انظر عبد الرحمن الرافعي: مصطفى كامل باعث النهضة الوطنية، كتاب الهلال، نوفمبر ١٩٥٢ ؛ فتحي رضوان: مصطفى كامل رائدا وطنيا، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، ندوة مصطفى كامل، القاهرة ١٩٧٦، ص١٣-٤٦.

(٦٠) محمد عمارة: مصطفى كامل والجامعة الإسلامية، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، ندوة مصطفى كامل ١٩٧٦، ص ١٠٥-١٥٣.

(٦١) يونان لبيب رزق: مصطفى كامل وتأسيس الحزب الوطني، الجمعية التاريخية، ندوة مصطفى كامل ١٩٧٦م، ص ٧٦، ص٨٠؛ وفتحي رضوان: مصطفى كامل رائدا وطنيا، ص ١٧، ٤٦.

(٦٢) نشأ مصطفى كامل في حي الخليفة بالقلعة في أسرة متوسطة، وحي الخليفة من الأحياء الشعبية المصرية العريقة، عاطف أحمد: مرجع سابق، ص١١٣، هامش ٢.

(٦٣) حسين فوزي النجار، أحمد لطفي السيد: استاذ الجيل، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر، القاهرة ١٩٦٥، ص ١١، ١٢.

(٦٤) عبد الرحمن الرافعي: مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية، ص ١١٢.

(٦٥) المرجع السابق: ص ١٥٢.

(٦٦) صلاح العقاد: مصطفى كامل وفرنسا، الجمعية التاريخية، ندوة مصطفى كامل، ١٩٧٦، ص ٦٢-٧٧.

(٦٧) عاطف أحمد، مرجع سابق، ص١١٠.

(٦٨) انظر السيرة الذاتية لسعد زغلول في عباس محمود العقاد: سعد زغلول سيرة وتحية، دار الشروق؛ عبد الرحمن الرفعي: ثورة الشعب ثورة ١٩١٩؛ عاطف أحمد: مرجع سابق، ص١١٩.

(٦٩) عبد العظيم رمضان: تطور الحركة الوطنية ١٩١٩-١٩٣٦م، ص ١٣٠-١٨٧ ويوميات ثورة ١٩١٩، مجلة الطليعة، عدد ٣ مارس ١٩٦٩، ص ٦٧-٧١.

(٧٠) حسين مؤنس: دراسات في ثورة ١٩١٩، سلسلة أقرأ (٤١٨)، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٦، ص٥٢ ؛ صلاح زكي: الفكر الديمقراطي والحياة النيابية في مصر، مركز النيل للإعلام، القاهرة ١٩٧٩، ص ٢١٦ وما بعدها.

(٧١) صبري أبو المجد، أمين الرافعي: مناضل مصري من أجل الدستور وحرية الرأي، كتاب الجمهورية، عدد ٣٣، القاهرة ١٩٧١، ص٩٣.

(٧٢) جورج فوشيه: جمال عبد الناصر في طريق الثورة، ترجمة نجده هاجر وسعيد الغز، منشورات المكتب التجاري بيروت، ط١، ١٩٦٠، ص١٦٩-١٨٠.

(٧٣) طارق البشرى: الخريطة السياسية والاجتماعية لثورة ٢٣ يوليو، الطليعة ، العدد ٧ يوليو ١٩٦٥، ص٨-٣٦.

(٧٤) Mansfield, Peter, Nasser's Egypt, Penguin Books, Middle sex, 1969, P. 31, 35.

(٧٥) لطفي الخولي: الميثاق الوطني: قضايا ومناقشات، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، أغسطس ١٩٦٢.

(٧٦) انظر مقدمة كتاب وحيد عبد المجيد، مجلة السياسة الدولية، عدد ٦٠، أبريل ١٩٨٠، ص٢١١-٢١٤ ؛ عاطف فؤاد، مرجع سابق، ص ١٥١؛ Baker, Raymond, William, Egypt's Uncertain Revolution Under Nasser and Sadat, Harvard Univ. Press , 1978.

(٧٧) Horowithz, Irving, Louis, Three worlds of Development. The Theory and Practice of International Stratification. Oxford, New York, 1966. P.241.

(٧٨) عاطف أحمد: مرجع سابق، ص ٣٦٧.

(٧٩) لطفي الخولي: الدولة والتنظيم السياسي في التجربة المصرية، الطليعة، عدد ٧، يوليو ١٩٦٥، ص ١٠٩-١٢٩. ؛ طارق البشرى: ثورة ٢٣ يوليو وقضية الديمقراطية، مركز الدراسات السياسية، يوليو ١٩٧٧، ص٢١.

(٨٠) أنور السادات: البحث عن الذات قصة حياتي ، القاهرة ١٩٧٨، ص ١٧٩؛ Moore, Clement, Henry, Authoritarian Politics In Unicorporated Society the case of Nasser's Egypt, Comparative, Politics, April 1974, P. 197.

(٨١) يذكر أنور السادات في كتابه البحث عن الذات نموذجاً لكيفية إهدار كرامة الإنسان المصري وحيث أنه كان شاهد عيان معاصراً للأحداث فرأيه له قيمته حيث يقول " كانت لجنة تصفية الإقطاع تمثل قمة الإرهاب والكبت والإذلال فقد اعتدوا على كرامة الإنسان وهو مالا يقبله شعبنا تحت أية ظروف ولأي سبب .. فالشعب المصري يقبل الجوع والحرمان والفقر.. ولكنه لا يقبل امتهان الكرامة". أنور السادات: البحث عن الذات ص ١٧٩، ١٨٠.

(٨٢) للمزيد: انظر زينب الغزالي: أيام من حياتي، دار الشروق، القاهرة ١٩٧٩؛ مصطفى أمين: سنة أولى سجن، الكتاب الأول، العدد ٢٨٨ يناير ١٩٧٥؛ عبد المتعال الجبري: الناصرية في قفص الاتهام، دار الاعتصام، القاهرة ١٩٧٧.

(٨٣) انظر نصوص تلك المحاكمات في كمال كيرة: محكمة الشعب (سبع أجزاء) صدر عن مكتب شئون محكمة الثورة، ١٩٥٤.

(٨٤) محمد الطويل: لعبة الأمم وعبد الناصر، القاهرة ١٩٨٦، ص ٣٣٢.

(٨٥) ورقة مقدمة من الرئيس انور السادات في حركة التصحيح مايو ١٩٧١، الاتحاد الاشتراكي العربي، اللجنة المركزية، ص١٠.

(٨٦) المرجع السابق، ص ١١.

(٨٧) عادل غنيم: في منهج البحث التاريخي، ص ٦٧.

(٨٨) أنور السادات: البحث عن الذات، ص١٥٥-٢١٧؛ وانظر صلاح العقاد: مأساة يونيو ٦٧، حقائق وتحليل، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٥.

(٨٩) عاطف أحمد فؤاد: مرجع سابق، ص٩٨-٩٩.



مصر فى تاريخ الغجر ومأثورهم الشعبى

عُبـــادة كحيلة
أستاذ التاريخ الإسلامى
كلية الآداب- جامعة القاهرة

يعيش فى عالمنا اليوم نحو من خمسة عشر (أو عشرين) مليونا من الغجر، لا يعرف غالبنا من هم ومن أين أتوا، وإلى أين هم ذاهبون، والأهم لماذا هم غجر؟ ومع ما وصلت إليه الكتابات الحديثة فى علم الغجريات Ggpsiology فما تزال هناك أسئلة، أو بالأحرى مشكلات فى حاجة إلى إجابات أو إلى المزيد من الإجابات .

لدينا عن الغجر فى منطقتنا العربية وما جاورها مجموعة من المسميات، بينها نَوَر فى بلاد الشام ومصر، حلَب فى صعيد مصر وشمالى السودان، كاولية فى العراق، لوريان فى إيران، جنكَنة فى تركيا وزطوط (وواحدها زُطى) فى سلطنة عُمان[١].

ولدينا عن الغجر فى أوربا مجموعة أخرى من المسميات، تتحدر فى معظمها من مسميين أساسيين هماAtsinganoi البيزنطية- اليونانية، وهم مشتق بدوره من مسمى لطائفة مسيحية متهرطقه [٢]، والثانى هو Aegyptii أى مصريون .

هنا يحضرنا تعبير ذاع بين الغجر الإسبان هو Oxonxanó baró أى الخديعة الكبرى، ويشير هذا التعبير إلى أسلوب معين يتبعه الغجر لتجريد أحد المغفلين من أمواله، ويبدو أن الغجر كانت لهم خدع أخرى كبيرة غير هذه الخديعة [٣].

فى مطالع القرن الخامس عشر ظهر فى أوربا– وسطيها ثم غربيها– قوم

ذوو بشرة داكنة، يختلفون عن غيرهم من غير وجه، ولم يلبث أن تتابع ظهورهم في سنوات تالية، بحيث لم يخل من وجودهم قطر أوربى واحد.

بعد الدهشة الأولى، بدأ الأوربيون يتساءلون عن هؤلاء القوم، من هم ومن أين أتوا، وإلى أين هم يذهبون.. وجاءتهم الإجابة بأنهم مصريون.. ومن هنا ظهر المسمى العام لهم، فصار في الإنجليزية Gypsies وفي الفرنسية Gitanes وفى الإسبانية Gitanos .

وما دام الغجر مصريين، فلابد وأن يكون زعماؤهم فراعنة، فالزعيم Pharo أو Farao وزوجته Faraona، وهناك مراتب أدنى كدوق وكونت وأمير[٤]، وجميعهم ينتسبون إلى مصر الصغرى Little Egypt أو klein Ägypten أو Egypte la menor أو Egypto la menor .

لم يكن هؤلاء الغرباء صادقين في زعمهم، وظل السؤال حائراً دون إجابة حتى أخريات القرن الثامن عشر، حين تبين بعد دراسات نهض بها الأغيار، وتمحورت حول التحليل اللغوى المقارن أن هؤلاء القوم هنديو الأرومة، يتحدثون فيما بينهم بلغة، عرفت فيما بعد، بلغة الرومَنى Romany [٦].

فيما عدا ذلك يختلف الأغيار في تحديد متى انطلق هؤلاء الغجر من بلاد الهند، وفى تحديد إلى أى شعب هندى ينتمون.

رغماً عن هذا الاكتشاف- أى هندية الغجر- فإنّ أسطورة الأصل المصرى، لهم ما يزال لها حضورها الواضح عندهم، وإن كانوا هم أنفسهم يتسمون بمسمى فيه قدر من الاستعلاء هو Roma، وواحدها Rom أى إنسان في حين يعد الأغيار Gadźé، وواحدها Gadzó أى فلاح[٧].

لدينا شواهد على استمرار هذه الأسطورة، ففى مقدونيا- وهى إحدى الجمهوريات اليوغوسلافية السابقة- عُرف غجرها أنفسهم في تعداد ١٩٩١ بأنهم مصريون Egipcani[٨] كما أنه في مؤتمر رامبوييه الذى عقد في هذه المدينة

الفرنسية فى العام ١٩٩٩، بهدف حل مشكلة قوصوه (Kosovo أو Kosova) شاركت الحكومة اليوغوسلافية- حكومة ميلوسوفيتش- بوفد من الموالين لها من سكان هذا الإقليم، كان فى جملته عضوان يمثلان الغجر، أحدهما تحت مسمى روم، والآخر تحت مسمى مصرى .

الطريف أن هذه المصرية المدعاة، انطلت على بعض من المصريين- المصريين الحقيقيين- فى أيامنا هذه، وصاروا يباهون بأن لهم أخوة أوربيين، ويذهب البعض من هذا البعض إلى أن هؤلاء المصريين هم بقايا جيش كليوباترا المهزوم فى موقعة أكتيوم فى العام ٣٠ ق.م.، ويذهب البعض الآخر إلى أنهم بقايا جيش محمد على المهزوم فى موقعة نوارين Navarino فى العام ١٨٢٧ إبان حرب الاستقلال اليونانية.

أسطورة الأصل المصرى إذن ما تزال موجودة حتى أيامنا هذه، وتتفرع منها أساطير أخرى، انتقلت إلى فولكلور الغجر، وإلى فولكلور الشعوب التى عاش بينها الغجر.وقد تطبعت هذه الأساطير بطابع دينى مسيحى واضح، لأن الغجر حين حطوا الرحال فى أوربا كانت العصور الوسطى لم تغرب شمسها بعد.

من هذه الأساطير الأسطورة التى تقول بأن الغجر، انتقلوا إلى مصر من بلاد العراق صحبة إبراهيم عليه السلام، فحظوا بترحيب من أهلها، لما أبرزوه من مهارات خاصة. والأسطورة التى تقول بأنه عندما غرقت جيوش فرعون موسى، نجا من الغرق فتى وفتاة هما آدم وحواء بالنسبة للغجر، والأسطورة[٩] التى تقول بأنهم مسيحيون مصريون تائبون عن ردة أرغمهم عليها السراسنة Saracens، وهو تعبير كان يقصد به العرب أو المسلمون، وأنه قد حكم عليهم بسبب هذه الردة بالتغريب سبع سنوات فى البداية، وربما أبد الدهر بعد ذلك[١٠].

على أن العنصر الدينى فى هذه الأساطير لا يلبث أن يجاور العنصر المصرى فى بعضها، فيصبح الغجر هم المجوس الذين أوعزوا إلى هيرود يذبح أطفال بيت لحم، أو أنهم الحدادون الذين صنعوا المسامير التى استخدمت فى

صلب السيد المسيح ، فكان أن أصابتهم اللعنة، وقدر لهم أن يظلوا أبد الدهر تائهين مشردين(١١) .

واضح في هذه الأساطير وغيرها التبرير لطابع الترحال والانتقال الذى صاحب مسيرة الغجر عبر العصور.

يصل الارتباط بين المصرية والمسيحية إلى غايته فى أسطورة سارة قديسة الغجر التى أقحموها على قصة المريمات الثلاث، مريم سالومى ومريم يعقوب ومريم المجدلية(١٢).

تقول هذه القصة أن المريمات الثلاث ومعهن إليعازر الذى أحياه يسوع بعد موته وخادم تدعى سارة المصرية وآخرون، طردوا من فلسطين، وحطوا الرحال فى مرسيليا، وبشروا بالمسيحية فى بروفانس provence، ودرجت الحال على أن يحتفل بالقديسات الثلاث فى يوم ٢٥ من مايو كل عام ، وذلك فى قرية سانت مارى دو لامير Saints – Maries – de – lamer بكامارج Camargue عند مصب نهر الرون، وهو احتفال يعود فى بداياته إلى القرن الحادى عشر .

عَّدل الغجر هذه القصة، فتحولت سارة المصرية إلى سارة الكالية (من Calo بغجرية إسبانيا وتعنى غجرياً أو أسود) كما تحولت من خادم أتت صحبة القديسات الثلاث إلى نبيلة، استقبلتهن وأعانتهن فى التبشير بالمسيحية بين الأغيار Gadźé والروما أى الغجر.

لا نظفر بسارة المصرية ولا سارة الكالية فى تقويم الكنيسة الكاثوليكية للقديسين، لكن الغجر اعتبروها منذ منتصف القرن التاسع عشر قديستهم، واتخذوها راعية لهم، وصاروا يتدفقون إلى سانت مارى دو لامير فى جملة الحاج، حيث يحتفل الجميع وفى جملتهم الغجر بالقديسات الثلاث فى يوم ٢٥ من مايو، بينما يحتفلون هم– أى الغجر- بقديستهم فى اليوم السابق أى ٢٤ من مايو، فيضعون ثيابا جديدة على تمثال القديسة سارة الجصى الذى حال لونه، بسبب

دخان الشموع فى قبوا لكنيسة، ثم يقام القداس، ويتوجه موكبهم إلى البحر، حاملين التمثال صحبة حراس عل خيول بيضاء طلباً للبركة ثم يعودون.

نتساءل الآن لماذا هذه المصرية المدعاة؟ وليس لنا من تفسير لها سوى محاولة الغجر الوصل بينهم وبين أصول قديمة وعريقة، وأعان على رواج هذه الأسطورة ارتباط مصر بالكتاب المقدس فى عهديه القديم والجديد، فضلاً عن ارتباط المصريين والغجر جميعاً فى الذهنية الأوربية والفولكلور الأوربى بالكهانة والسحر وقراءة الطالع .

الهوامش :

١- عبادة كحيلة ، الزط والأصول الأولى لتاريخ الغجر ، القاهرة ١٩٩٤ ص ٨٤ ، ٩٥.
٢- أنجوس فريزر ، الغجر ، ترجمة عبادة كحيلة ، القاهرة ، المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠١ ص٦٦ – ٦٧.
٣- المرجع السابق ص ٨٣ .
4- Clébert: jean Paul. The Gypsies. Trans by Charles DUFF. London, Vista Books, 1963. p 46.
٥- تتردد هذه المسميات وغيرها فى كتاب فريزر السابق ذكره "الفصل الخامس" .
٦- المرجع السابق ص ٢٥ وما بعدها .
7- Clébert. Op cit p. xv11.
٨- فريزر : المرجع نفسه ص ٣٢٦ .
٩- راجع الأساطير الخاصة بأصول الغجر فى الفصل الأول من كتاب كليبير من ١-٢٥.
١٠-تتردد هذه الأسطورة بصيغ تختلف فى الفصل الرابع من كتاب فريزر .
11- Clébert. Op cit pp. 2 - 5.
١٢-فريزر : المرجع نفسه ص ٣٣٩ – ٣٤٠ .



المشترك الفكري والسياسي

بين حركتي الموحدين في المغرب والمريدين في الأندلس

أ.د. محمود إسماعيل

أستاذ التاريخ الإسلامي

كلية الآداب – جامعة عين شمس

تستهدف هذه الدراسة إلقاء الضوء علي حركتين متعاصرتين في المغرب والأندلس ؛ وهما الحركة الموحدية وحركة المريدين في أواخر عصر الدولة المرابطية ؛ بغرض البحث عن القواسم المشتركة بينهما ؛ سواء علي صعيد الفكر أو علي المستوي السياسي ؛ كإسهامة لبرهنة وحدة الصيرورة التاريخية بين العدوتين سياسياً وحضارياً .

ومن خلال تخصصنا الدقيق في تاريخ المغرب الإسلامي؛ نستطيع أن نجزم سلفاً بأن تاريخ الغرب الإسلامي كان جزءاً عضوياً من التاريخ الإسلامي العام ، خضع لنفس الظروف والمعطيات وحكمته ذات القوانين والقواعد ، مع الوضع في الاعتبار بأن السمات والخصوصيات لا تجب بحال ما نسميه "المشترك" العام؛ خصوصاً علي الصعيد الحضاري . من هنا تسقط تلقائياً كافة المزاعم القائلة بالقطيعة بين المشرق والمغرب .

وبنفس الرؤية عالجنا – في الكثير من دراساتنا – العلاقات التاريخية والحضارية بين المغرب والأندلس ، وأثبتنا صدق مقولة القدماء عن الوحدة العضوية بين الإقليمين ، إلي حد تسميتهما بالعدوتين ، علي الرغم من التباين السياسي بينهما في بعض الأحيان ؛ حيث لم تفض القطيعة السياسية العابرة إلي أدنى تشكيك في التوحد الحضاري والثقافي .

ولإثبات مصداقية هذا الحكم، لامناص من استعراض وحدة المسار التاريخي

العام للإقليمين كخلفية منطقية لازمة لإثبات الحقيقة ذاتها بصدد موضوع الدراسة .

فمن المعلوم أن الإقليمين تعرضا للفتوحات الإسلامية الوافدة من الشرق ؛ إذ بعد فتح بلاد المغرب جرى فتح الأندلس . وأسهم البربر المغاربة بالدور الأساسي في هذا الفتح . وبعده استقرت موجات وافدة من البربر في جل أقاليم الأندلس . وخلال عصر الولاة كانت الأندلس تتبع المغرب إداريا ، وشهد الإقليمان معا ثورات البربر ضد الخلافة الأموية . ولما قامت الحركات الاستقلالية – كظاهرة عامة في سائر أقاليم دار الإسلام – كانت بلاد المغرب والأندلس سباقة في الاستقلال عن الدولة العباسية . وباستقرار تاريخ الكيانات المستقلة في المغرب والأندلس ؛ أثبتنا وثوق العلاقات السياسية والحضارية بين العدوتين . ولما قامت الخلافة الفاطمية في المغرب ؛ أعلن عبد الرحمن الناصر قيام الخلافة الأموية في الأندلس . وحين تصارعت الخلافتان ؛ كانت بلاد المغرب الأقصى ساحة هذا الصراع . ولما تمزقت وحدة المغرب إبان عصر الفوضى الزناتية ، تشرذمت بلاد الأندلس فيما عرف بعصر الطوائف الأول . ولما توحدت بلاد المغرب علي يد المرابطين ؛ لم يدخر هؤلاء وسعاً لتوحيد الأندلس بالمثل .

وبديهي أن يكون التواصل الحضاري بين العدوتين أعمق وأشمل ، بفعل الهجرات الديموغرافية المتبادلة ، وتحت تأثير النشاط التجاري المتعاظم ، فضلاً عن ظاهرة "الرحلة في طلب العلم " التي عملت عملها في تخليق نسيج ثقافي واحد ولا غرو ؛ فقد ساد الإقليمين مذهب فقهي واحد – هو مذهب الإمام مالك – كما شهدا بالمثل تواجد معظم فرق المعارضة الوافدة من الشرق ؛ كالخوارج والشيعة والمعتزلة .

وإذ فسر البعض هذا التشابه – بل التماثل – بالعامل الجغرافي ؛ فعندنا أن العامل الاقتصادي – لاجتماعي كان له الأفضلية بامتياز ؛ إذ شهده الإقليمان معاً

نفس أنماط الإنتاج الذي شهد الشرق الإسلامي أيضا ، الأمر الذي يزكي مقولتنا المتواترة عن وحدة الصيرورة التاريخية في "دار الإسلام" برمتها . ولسوف يثبت البحث – في جلاء – أن القاسم المشترك السياسي والفكري بين حركتي الموحدين والمريدين لم يكن معزولاً عن الشرق الإسلامي .

وهذا يقودنا إلي محاولة وضع خطوط أولية عن وحدة نمط الإنتاج بين العدوتين إبان العصر المرابطي الذي يضم بلاد الأندلس والمغرب في وحدة سياسية وحضارية. وفي هذا الصدد نذكر بحكمنا هذا في دراسة تحليلية سابقة ؛ إذ أثبتنا أن العدوتين "شهدتا معاً ظاهرة الإقطاع العسكري ؛ نتيجة ظروف تاريخية متماثلة" (١) ؛ تمتد جذورها إلي الحقبة السابقة – أي عصر ملوك الطوائف – حيث تعرضت بلاد المغرب لغزوات النورمان وبلاد الأندلس للخطر النصراني ، وتعاظم دور العناصر البدوية علي الصعيد السياسي ؛ الأمر الذي أفضى إلي التمزق والفرقة . وفي ذلك يقول أحد المؤرخين(٢) القدماء :" وأما حال سائر الأندلس بعد اختلاف دولة بني أمية ؛ فإن أهلها تفرقوا فرقاً ، وتغلب في كل جهة منها متغلب ، وكذلك الحال في العدوة" ؛ أي في بلاد المغرب .

خلال هذه الظروف المضطربة أصبح قانون الغلبة هو الحاسم في تخليق أنماط حيازة الأرض . وبقدوم المرابطين تحولت هذه الحيازة إلي النمط الإقطاعي العسكري ؛ إذ وزعت الأرض حيازات لقبائل صنهاجة اللثام وخصوصاً قبيلة "لمتونة" التي شكلت العصبية الأساس للدولة المرابطية(٣) . وشهدت بلاد الأندلس الظاهرة نفسها بعد أن ضمها المرابطون إلي دولتهم الإمبراطورية(٤) في عهد يوسف بن تاشفين وفي عهود خلفائه ؛ جري توزيع ما بقي من أراضي الأندلس إقطاعات للولاة والقواد والموالي(٥) .

بديهي أن يفضي نمط الإنتاج الإقطاعي الموحد في العدوتين إلي إعادة صياغة البناء الطبقي في تشكيلة موحدة أيضا(٦).

بديهي أيضا أن تشهد العدوتان معاً شكلاً موحداً لطبيعة الأحداث والوقائع

السياسية ، سواء ما تعلق منها بسياسة السلطة أو موقف المعارضة .

بديهي أخيراً أن تفرز تلك المعطيات أنماطاً إيديولوجية وثقافية موحدة في العدوتين كذلك إذ غلبت الاتجاهات النصية على حساب التيارات العقلانية ؛ بما أثر سلباً على سائر العلوم والآداب والفنون(٧)، وعن هذا التأثير السلبي حاول ابن خلدون تفسيره بما أطلق عليه "خراب العمران" ؛ أي الوقوف على العامل الاقتصادي – الاجتماعي كسبب لما أسماه "عصر الانحطاط" الفكري(٨). وهو أمر أكده أيضا بعض الدارسين المحدثين حين حكموا على الفكر المرابطي بأنه "محض تقليد"(٩) ، وأنه يمثل "بذر بذور الانغلاق والعقم والتحجر"(١٠)، وأن "هذا الفشل الفكري لا يمكن تفسيره إلا بولوج باب السوسيولوجيا منهجياً "(١١).

تلك إذن مقدمة مطولة ، لكنها ضرورية لفهم المناخ السوسيو- سياسي والسوسيو- ثقافي الذي أفرز حركتي الموحدين والمريدين، موضوع الدراسة.

تأسيساً على ذلك؛ سنعالج الشق الأول من الموضوع وهو ما يتعلق بالحركة الموحدية؛ دعوة وثورة ودولة؛ بهدف الوقوف على "المشترك" بينها وبين حركة المريدين .

وننوه بعدم الإطالة في العرض(١٢) إلا بما يساعد على اكتشاف ورصد هذه القواسم المشتركة ، وتبيان أوجه الاختلاف ، وتفسير أسبابها في إطار رؤيتنا السوسيو- تاريخية .

ودون مصادرة واستباق للنتائج ، نعتقد أن الدعوة الموحدية كانت رد فعل إيديولوجي لتسلط الإديولوجيا المرابطية المحافظة، وأن ثورة الموحدين استهدفت – بعد نجاح الدعوة – الإطاحة بالحكم المرابطي في بلاد المغرب والأندلس، وإحلال نظام جديد يحقق طموحات قوى المعارضة بكافة فصائلها وتياراتها .

لذلك وضعت الدعوة الموحدية في اعتبارها ضرورة صياغة إيديولوجية "توفيقية" مستمدة من سائر أفكار قوى المعارضة بهدف عقد "مصالحة" فكرية

كأساس لتحقيق مشروع سياسي يتسق وطموحات أصحاب الفرق والمذاهب المتواجدة في الساحة المغربية والأندلسية(١٣).

من هنا تبرز أهمية تبيان معالم "الخريطة المذهبية" التي استقت منها الدعوة الموحدية أفكارها الأساسية وفي هذا الإطار نشير إلي مذهب الخوارج الذي ساد معظم بلاد المغرب خلال القرون الأولى ونجح معتنقوه في تأسيس عدة إمارات مستقلة ظل بعضها – إمارة بورغواطة – متواجداً في الساحة المغربية حتى إبان الوجود المرابطي كما عاشت أقليات من الخوارج في بعض أقاليم بلاد المغرب ، تعد العدة لمعاودة تأسيس دولة كبرى تجمع العالم الإسلامي برمته(١٤).

أما المعتزلة ؛ فقد انتشر مذهبهم في المغربين الأوسط والأقصى ، واندمجت دعوتهم في الدعوة الشيعية الزيدية، وأسفر هذا الاندماج عن قيام دولة الأدارسة وبعد سقوطها تشرذم المعتزلة وعاشوا في جماعات تعرضت للبطش والاضطهاد خصوصاً إبان الحكم المرابطي(١٥)؛ فانصرفوا عن النشاط السياسي وامتهنوا التجارة(١٦).

كما تشرذم الشيعة الزيدية بالمثل، وهاجر معظمهم إلي الأندلس للعيش في كنف الإمارة الحمودية، وتطلعوا في المغرب والأندلس للمشاركة في حركات المعارضة دون أن يسفروا عن هويتهم المذهبية(١٧).

وقد تعاظم نفوذ الشيعة الإسماعيلية إبان الوجود الفاطمي في المغرب ، ثم امتحنوا علي يد بني زيري ، وتمزق شملهم ، وإن عولوا علي تأجيج بعض الانتفاضات ذات الطابع الاجتماعي خصوصاً في المغرب الأقصى ضد المرابطين(١٨).

أما عن مذهب أهل السنة ، فقد مثلهم المذهب المالكي في الفقه والأشعرى في الكلام وقد تعاظم أمرهم في العصر المرابطي ؛ حيث استأثروا بالجاه والمال والسلطة، واضطهدوا المذاهب الأخرى ، وانشغلوا بالسياسة عن تطوير المذهب الذي فرغ من مضمونه بعد انشغال الفقهاء بالفروع علي حساب الأصول(١٩)

وغني عن القول ؛ أن العصر المرابطي شهد تدهوراً في فكر الفرق جميعاً ، فمال إلي التحجر والتطرف والعقم المذهبي[٢٠].

تلك هي الخريطة المذهبية في المغرب التي تفصح عن أزمة فكرية ما كانت الا نتاجاً لأزمة واقع اقتصادي – اجتماعي مهترئ ، وواقع سياسي متسلط زاده قتامة عجز المرابطين عن مواجهة الأخطار المحدقة براً وبحراً في المغرب والأندلس علي السواء والدارس لتاريخ الشرق الإسلامي يقف – دون عناء – علي وجود نفس الظواهر بما يؤكد أنها جميعاً إفراز لسيادة نمط الإنتاج الإقطاعي العسكري .

في هذا الإطار يمكن تفسير الدعوة الموحدية باعتبارها تعبيراً عن موقف المعارضة البورجوازية التي تبنت طموحات سائر فصائلها وتياراتها المذهبية .

حجتنا في ذلك أن مؤسس الدعوة – المهدي بن تومرت – كان من بربر هرغة المصمودية التي لاقت الأمرين في العصر المرابطي[٢١] لم يكن موقف مصمودة من تسلط لمتونة – المرابطية – موقفا قبلياً ؛ بقدر ما عبر عن موقف طبقي بالأساس وحسبنا أن ابن تومرت عبر عن موقف البورجوازية التجارية ؛ إذ كان تاجراً ، كما كان ساعده الأيمن – عبد المؤمن بن علي – تاجراً أيضا[٢٢]، بينما كان والده صانع فخار وهو أمر يشي بدور البورجوازية في تبني طموحات العوام ولعل هذا يفسر أيضا حقيقة تكوينه الثقافي ؛ إذ جمع المهدي بين العلوم النقلية والعقلية والأدب ونحن في غني عن إثبات ارتباط العلم بالتجارة في العالم الإسلامي الوسيط .

كما ارتبطت التجارة والعلم بالتجوال والتسفار فقد رحل ابن تومرت إلي الأندلس والشرق وفي الأندلس انكب علي دراسة علم الكلام الذي كان آنذاك ممتزجاً بالتشيع والاعتزال . كما ارتبطت التجارة والعلم بالسياسة ولعل ذلك يفسر اتصاله بشويخ جماعة المريدين خلال وجوده بالأندلس ومن المؤكد أن هذا الاتصال أسفر عن اتفاق سياسي ، فحواه توثيق العرى بين الحركتين فكرياً

وسياسياً وهو أمر سنوليه مزيداً من الاهتمام فيما بعد.

بالمثل يمكن الجزم بأن رحلة ابن تومرت إلي الشرق لم تكن بهدف التجارة أو طلب العلم فحسب إنما تضمنت غايات سياسية أيضا دليلنا في ذلك اتصاله بفقهاء المذهب الإسماعيلي في الشام، حيث كانت الحركة الإسماعيلية تشن حرباً ضارية علي السلاطين السلاجقة وكانت دعوتهم ترنو- فضلاً عن المشرق – إلي بلاد المغرب أيضا ولعلهم وجدوا في شخص ابن تومرت ضالتهم المنشودة.

وقد يعترض معترض علي هذا الاحتمال بذريعة اتصال ابن تومرت بالإمام الغزالي في بغداد، الذي كان منظراً للإيديولوجية السنية الأشعرية لكن هذا الاعتراض يفنده كون الغزالي آنذاك قد تاب إلي رشده بعد أن أعلن أسفه عن ماضيه في موازرة السلطة السلجوقية الإقطاعية العسكرية هذا بالإضافة إلي تكدر العلاقة بين الغزالي والمرابطين بعد أن أقدموا علي إحراق كتبه.

وفي طريق عودته مر ابن تومرت علي مصر، وطفق يعلن احتسابه علي سياسة حكامها المتسلطين ، بما يشي بأن الدعوة الموحدية كانت علي صلة وثيقة بالنشاط الإسماعيلي السياسي في المشرق .

عاد ابن تومرت إلي موطنه بالمغرب الأقصى ليعلن دعوته المتمثلة في "عقيدة الموحدين" ذات الطابع التوفيقي الناهل من سائر الفرق والنحل .

وفي اعتقادنا أن تأثير الفكر الشيعي في المذهب التومرتي كان له الغلبة والأسبقية ولا غرو فقد ألحق نسبه بالنسب العلوي ليكسب ولاء الشيعة في المغرب والأندلس(٢٣)، كما أخذ عن التشيع فكرتي "الوصية" و"المهدوية" يقول ابن تومرت: "أنا محمد بن عبد الله بن تومرت الإمام المعصوم ، وأنا مهدي آخر الزمان"(٢٤). ولم يبالغ بعض الدراسين حين حكموا بأن عقيدة الموحدين "ليست إلا مذهباً شيعياً في جوهره"(٢٥).

وإذ نهل ابن تومرت من المذهب الأشعري فلم يكن ذلك إلا إرضاء لجمهور العوام المتمذهب بمذهب أهل السنة والجماعة علي أن نظرة مدققة لما أخذه عن

الأشعرية في هذا الصدد توضح ميله للمقولات المنحازة للعقلانية ليس إلا[٢٦].

ومن نفس المنظور نبرر كذلك إعتماده بعض أحكام المذهب الظاهري حيث استخدم منهج ابن حزم في "الدليل" و"البرهان"[٢٧]، بنفس القدر الذي حرص فيه علي إرضاء العوام – خصوصاً في الأندلس – حين خفف من سلطان العقل لصالح النص يقول:"ليس للعقل في الشرع محل"[٢٨]. وفي ذلك دليل علي غلبة البعد السياسي علي الجانب المعرفي في العقيدة الموحدية ، وفي ذلك إرضاء أيضا لمذهب جماعة المريدين في الأندلس ذات العلاقة الوثيقة بفكر ابن حزم ومذهبه الظاهري .

لنفس الغرض أخذ ابن تومرت الكثير من آراء المعتزلة خصوصاً ما تعلق منها بالعدل والتوحيد[٢٩]، وهما شعاران ملائمان لكسب الأتباع والأعوان كما أخذ عن المعتزلة والخوارج معاً مبدأ "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" كذريعة يتوسل بها في إعلان الثورة علي المرابطين .

يتضح من العرض السابق أن آلية "التوفيق" تشكل حجر الزاوية في صياغة عقيدة الموحدين، وهي آلية مأخوذة عن جماعة "إخوان الصفا" أخذ بها أيضا منظرو حركة المريدين في الأندلس، كما سنوضح بعد في موضعه من الدراسة.

كما أن الجانب المعرفي في المذهب التومرتي محض وسيلة لكسب المزيد من الأعوان والأنصار، وتجنيدهم في سلك الدعوة توطئة لإعلان الثورة وإقامة الدولة، لذلك تسقط حجج القائلين بأن مذهب ابن تومرت كان "ثورة فكرية" كبرى نهل منه فلاسفة الغرب الإسلامي وعلي رأسهم ابن رشد والحق أنه محض أفكار متنوعة ومتضاربة في معظم الأحيان مجردة من أدنى إبداع أو ابتكار، وأن الحافز علي صياغتها حافز سياسي ليس إلا .

فماذا عن حركة المريدين بالأندلس؟ وما هو الأساس الفكري لدعوتهم ؟ وما هي الغاية السياسية من هذه الدعوة؟ وإلي أي مدي تشابهت في صيغتها الفكرية وأهدافها السياسية مع الحركة المريدية ؟

سبق لنا إبراز وحدة الأندلس والمغرب في ظل الحكم المرابطي ، كما سبق التحقق من خضوع العدوتين اقتصاديا واجتماعيا لنفس الظروف وذات المعطيات.

تأسيساً على ذلك شهدت الأندلس أزمة فكرية وصراعاً مذهبياً بين التيارين السني النصي المحافظ والعقلاني الليبرالي المضطهد، كما هو الحال بالنسبة لبلاد المغرب أيضا .

فقد غلب المذهب المالكي– مذهب السلطة – وتسلط على المذاهب الأخرى التي تبنتها المعارضة(٣٠). لقد تبنت الأخيرة مذاهب فقهية أخرى كالمذهب الشافعي والمذهب الظاهري الذي دعمه ابن حزم ومدرسته بهدف جعله إديولوجية لمشروع سياسي طموح ، فحواه الإصلاح السياسي والاجتماعي .

وعلى صعيد الفرق الإسلامية وجدت في الأندلس أقلية من الخوارج في غربي الأندلس تعرضت للبطش والاضطهاد من قبل فقهاء المالكية كما وجدت شرانم من المعتزلة المضطهدين أيضا بعد فشل حركة محمد بن ميسرة(٣١) ذات الطابع الفلسفي الإشراقي ومعلوم أن الفلاسفة تعرضوا أيضا لمزيد من البطش والاضطهاد فلاذوا بالتقية(٣٢). ويصدق نفس الحكم على الشيعة ايضا ؛ حيث تخلى بعضهم عن مذهبهم ولاذ البعض الآخر بالتقية(٣٣). واندرجت سائر فرق المعارضة في سلك التصوف كوسيلة للتستر، وحفاظاً على أنفسهم أمام بطش السلطة الحاكمة والفقهاء المالكين الذين لم يدخروا وسعاً في دمغهم بالزندقة وإثارة العوام ضدهم فأحرقوا كتبهم واعتدوا عليهم باعتبارهم ملاحدة وهراطقة(٣٤).

ولعل هذا يفسر تحول التصوف الأندلسي إلى إديولوجية ثورية تتبنى طموحات المعارضة في إسقاط الحكم المرابطي كما يفسر أيضا طابعه المعرفي الفلسفي العرفاني نتيجة تأثره بالنزعات الاعتزالية والشيعية والفلسفية ، ولذلك عبر التصوف الأندلسي عن فكر الطبقة البورجوازية في طور من أطوار محنتها

ولا غرو إذ شاعت أفكار وتعاليم التصوف المفلسف في مدينة المريه موئل البورجوازية التجارية[٣٥]؛ حيث جرى المزج بين المعارف المتنوعة وطموحات القوى الثورية الناقمة علي المرابطين[٣٦].

لذلك نهلت دعوة المريدين من هذا الفكر الصوفي الخاص الذي يعكس أبعاداً شيعية واعتزالية وفلسفية كما تأثرت الدعوة أيضا ببعض الأفكار العقلانية التي تضمنتها الأشعرية الصوفية التي عبر عنها الإمام الغزالي وذلك بهدف كسب جمهور العوام إلي الحركة[٣٧].

كما عول منظرو الحركة علي الإفادة من الفقه الظاهري الحزمي لنفس الهدف، خصوصاً وأن مذهب ابن حزم استهدف غايات إصلاحية سياسية واجتماعية[٣٨]. كما أفادوا من فكر إخوان الصفا خصوصاً فيما يتعلق بآلية التوفيق بين الشريعة والفلسفة .

ظهرت تلك الصيغة التي تبنتها دعوة المريدين في كتابات منظريهم ؛ من أمثال ابن العريف وابن برجان الإشبيلي ومعلوم أن الأول امتهن الحياكة في أوائل سني عمره[٣٩]، ثم تحول إلي الطبقة الوسطى نتيجة تبحره في العلوم والآداب؛ فأصبح من مشاهير "الإنتليجنسيا" الأندلسية وجماع فكره ما هو إلا توفيق بين صيغ ظاهرية واعتزالية وشيعية، فضلاً عن تعاليم إخوان الصفا إختزل معطياتها في أنموذجة الصوفي، لذلك لم يخطئ أحد الدراسين حين حكم علي تصوف ابن العريف بأنه "تصوف جديد"[٤٠] يكرس المعرفة لخدمة أغراض عملية سياسية وثورية[٤١].

وعلي نفس المنوال نسج معاصره ابن برجان الإشبيلي الذي طفق يدعو لمذهب المريدين في أصقاع الأندلس بعد أن نصبه المريدون "شيخاً وإماماً " لدعوتهم

وعلي يد أبو القاسم بن قسي جري تحويل الدعوة الي ثورة بعد نجاحه في كسب الكثيرين من الأنصار والأعوان[٤٢]، فهو الذي أعطي للحركة بعدها

السياسي؛ بهدف إقامة "دولة الحق والعدل" أو "دولة أهل الخير" حسب اصطلاح جماعة إخوان الصفا(٤٣).

لعل هذا يفسر تحامل الفقهاء المالكية علي الحركة فاعتبروا زعماءها "دعاة فتن وأصحاب ضلالة "(٤٤)"ادعوا الهداية مخرقة وتمويها علي العامة"(٤٥) بينما كانت الحركة في جوهرها ثورة سياسية في التحليل الأخير(٤٦) شأنها في ذلك شان حركة الموحدين ولا غرو فقد لقب ابن قيس نفسه بلقب "المهدي" شأنه في ذلك شأن المهدي بن تومرت(٤٧).

تلك هي السمات المميزة والخصائص العامة لحركة المريدين التي تماثل في منطلقاتها ودعوتها وأهدافها نظيرتها الموحدية في المغرب .

ويمكن الوقوف علي القاسم المشترك بين الحركتين فيما يلي :

أولاً : اعتماد كل من الحركتين دعوة مذهبية استقطبت البورجوازية وشرائح طبقة العوام علي اختلاف مذاهبهم معتقداتهم.

ثانياً : اعتماد الدعوتين آلية "التوفيق" كوسيلة لاستقطاب وإرضاء سائر الفرق والنحل بهدف الإعداد للثورة علي المرابطين في المغرب والأندلس.

ثالثاً : تشابه الحركتين من حيث وجود دعاة منظرين صاغوا أفكار الدعوة ومعتقداتها، إلي جانب قادة سياسيين نيطوا بمهمة تحويل الدعوة إلي ثورة.

رابعاً : إنتماء منظري الدعوتين وقيادتهما السياسية إلي الطبقة الوسطى، أما أتباع الحركتين فكانوا من طبقة العامة .

خامساً : غلبة الفكر الشيعي علي الأطروحتين، خصوصاً ما تعلق بالمهدوية(٤٨) والإمامة بما يؤكد أسبقية الفكر السياسي علي الجانب المعرفي.

سادساً : الاتصال الوثيق بين قادة الزعامتين بهدف التنسيق المشترك لمواجهة خصم مشترك أيضا يتمثل في السلطة المرابطية.

سابعاً : دعوة كل من الحركتين إلي مبادئ الإصلاح وطرح نفس الشعارات كأسلوب موحد لكسب الأعوان والاتباع توطئه لإعلان الثورة في توقيت متفق عليه .

ثامناً : تأثر نظم الدعوتين بنظام الدعوة الإسماعيلية المتطورة، كذا بالتنظيمات الصوفية التي نسجت بالمثل علي غرار النظام الإسماعيلي، وتأثرهما معاً بنظام الأصناف والحرف[٤٩].

تاسعاً : توحد الحركتين في إنهاء السادة المرابطية والتنديد بالمرابطين فاتهموهم بالتجسيم علي سبيل المثال.

عاشراً : تنديد زعماء الحركتين بما أقدم عليه المرابطون من إحراق "كتاب الإحياء" للإمام الغزالي، كذريعة لإثارة العوام ضد الحكم المرابطي[٥٠].

حادي عشر : تبادل السفارات والرسل بهدف التنسيق المشترك بين الحركتين بما يؤكد وحدة الهدف السياسي.

وفي الوقت الذي اندلعت فيه الثورة الموحدية في المغرب، أعلن المريدون الثورة في الأندلس، وأحرز الثوار في العدوتين انتصارات علي جيوش المرابطين لكن خلافاً شجر بين القيادتين نظراً لحرص المريدين علي الاستقلال بالأندلس، بينما أزمع الموحدون ضم الأندلس إلي دولتهم[٥١] ولعل هذا يفسر تراوح العلاقة بين الطرفين بين الود والعداء إلي أن دخل الموحدون الأندلس فلم يجد المريدون مناصاً من التسليم بالأمر الواقع والدعاء باسم الموحدين علي منابرهم، فكان ابن قيسي لذلك أول داعية للموحدين بالأندلس[٥٢] لذلك نعت الموحدون ابن قيسي وأتباعه بأنهم "السابقون الأولون"[٥٣]، ولا غرو؛ فقد ساعد المريدون جيوش الموحدين في إتمام فتح الأندلس، وكوفئوا علي ذلك بتولي حكم بعض أقاليم الأندلس وحين حاول ابن قيسي الاستقلال عن الموحدين لم يجد الأخيرون مناصاً من سجنه واغتياله.

خلاصة القول : أن القاسم المشترك بين حركتي المريدين والموحدين وصل إلي درجة التماثل سواء في مجال الفكر أو السياسة ، بما يؤكد الصلة التاريخية الوثيقة بين العدوتين خصوصاً علي الصعيد الحضاري كما يؤكد حقيقة وحدة

تاريخ "دار الإسلام" برغم اختلاف النظم السياسية والأعراق الإثنية والمذهبيات الطائفية .

البيليوجرافيا والتوثيق

(١) أنظر : محمود إسماعيل : **سوسيولوجيا الفكر الإسلامي** ، جـ٣ مجلد١ ، ص ٣٢ ، بيروت ، ٢٠٠٠ .
(٢) المراكشي : **المعجب في تلخيص أخبار المغرب** ، ص ١٢٣ ، القاهرة ، ١٩٦٣ .
(٣) ابن أبي زرع : **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس** ، ص ١٢٦ وما بعدها ، الدار البيضاء ، ١٩٥٤ .
(٤) عبد الله بن بلقين : **كتاب التبيان** ، ص ٢٠٩، ٢١٠ ، القاهرة ، ١٩٥٥ .
(٥) المراكشي : **المرجع السابق** ، ص ٢٣٥ ، ٢٣٦ .
(٦) محمود إسماعيل : **سوسيولوجيا** ، جـ٣ مجلد١ ، ص ١٢١ وما بعدها .
(٧) وهو حكم يناقض أحكام ثلة من الباحثين الذين تحدثوا عن نهضة مرابطية فكرية ، تأسيساً علي رصد كمي لظاهرات الفكر دون أن يفطنوا إلي الكيف .
عن مناقشة هذه الآراء راجع :
محمود إسماعيل : **فكرة التاريخ بين الإسلام والماركسية** ، دراسة بعنوان : "سياسة المرابطين الفكرية بين التأييد والتنديد ، ص ٥٩ – ٨٠ ، القاهرة ، ١٩٨٨ .
(٨) ابن خلدون : **المقدمة** ، ص ٥٣٢ ، القاهرة د.ت.
(٩) More; W.E: **Social Change**, p.89, New Jersy, 1964.
(١٠) أحمد الظاهري : **الطب والفلاحة في الأندلس بين الحكمة والتجريب** ، ص٧٣، ٧٥ ، المحمدية ، ١٩٩٧ .
(١١) محمد أركون : **أين هو الفكر الإسلامي المعاصر ؟** ص ٢٧، بيروت ، ١٩٩٣ .
(١٢) سبق لنا دراسة هذا الموضوع في بحث بعنوان : "مذهب ابن تومرت بين الوحدة الإديولوجية والتوحيد السياسي" .
أنظر : محمود إسماعيل : **فكرة التاريخ** ، ص ١١٩ وما بعدها .
كما حاولنا إلقاء أضواء أولية علي حركة المريدين في الأندلس في دراسة أخرى .
أنظر : محمود إسماعيل : **سوسيولوجيا** ، جـ٣ ، مجلد١ ، ص ١٧٥ وما بعدها .
(١٣) نفسه ، ص١٢٠ .
(١٤) محمود إسماعيل : **الخوارج في بلاد المغرب** ، ص١٠٩ وما بعدها ، القاهرة ، ١٩٨٦ .
(١٥) محمود إسماعيل : **الأدارسة في المغرب الأقصى** ، ص١٠٢ ، الكويت ، ١٩٨٩ .
(١٦) ابن أبي زرع : **المرجع السابق** ، ص٢٩ .
(١٧) محمود إسماعيل : **مغربيات** ، ص ١٥ وما بعدها ، فاس ، ١٩٧٧ .
(١٨) جوذر : **سيرة الأستاذ جوذر** ، ص١٤ وما بعدها ، القاهرة ، ١٩٥٤ .
(١٩) محمود إسماعيل : **مقالات في الفكر والتاريخ** ، ص٦٦ وما بعدها ، الدار البيضاء ،١٩٧٨.
(٢٠) ابن أبي زرع : **المرجع السابق** ، ص٨٨ .
(٢١) ابن خلدون : **المقدمة** ، ص٢٧ .
(٢٢) عبد الله علام : **الدعوة الموحدية** ، ص٨٣ ، القاهرة ، ١٩٧١ .
(٢٣) المراكشي : **المرجع السابق** ، ص١٢١ .
(٢٤) ابن تومرت : **أعز ما يطلب** ، ص٢٣٤ ، الجزائر ، ١٩٩٣ .

(٢٥) ألفرد بل : الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي ، الترجمة العربية، ص٣٤ ، بنغازي ، ١٩٦٩
عباس الجراري : أبو الربيع سليمان الموحدي ، ص٣٣ ، الدار البيضاء ، ١٩٧٤ .
(٢٦) ابن خلدون: العبر ، جـ٦ ، ص٢٢٦ ، بولاق، ١٢٨٤ هـ .
(٢٧) ابن تومرت: المرجع السابق ، ص٢٣٠ .
(٢٨) نفس المصدر والصفحة .
(٢٩) محمود إسماعيل : فكرة التاريخ ، ص١٣٣ .
(٣٠) بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، الترجمة العربية ، ص٤١٨ ، القاهرة ، ١٩٥٥ .
(٣١) نفسه ، ص٣٢٦ وما بعدها .
(٣٢) ابن أبي أصيبعه : عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص٦٢، ٦٣ ، القاهرة ، ١٨٨٢ .
(٣٣) محمود علي مكي : التشيع في الأندلس إلى نهاية ملوك الطوائف ، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مجلد ٢، مدريد ، ١٩٥٤ .
(٣٤) محمود إسماعيل: سوسيولوجيا، جـ ٣ ، مجلد ٢ ، ص٢٢، ٣١ ، ٣٢ .
(٣٥) ابن العريف: محاسن المجالس ، ص٣ ، باريس ، ١٩٣٣ .
(٣٦) محمود إسماعيل: الإسلام السياسي ، ص١٦٤ ، الكويت ، ١٩٩٣ .
(٣٧) Lauste,H: **La Politique de Gazali**, p.p.115Seq.Paris, 1970.
(٣٨) عن مزيد من المعلومات ، راجع :
محمود إسماعيل :"ابن حزم ومدرسته ، جدل الفقه والتاريخ"، دراسة في كتاب بعنوان : إشكالية المنهج في دراسة التراث ، تحت الطبع .
(٣٩) ابن العريف: المرجع السابق ، ص٢ من المقدمة .
(٤٠) بالنثيا : المرجع السابق ، ص٣٦٩ .
(٤١) ابن العريف: المرجع السابق ، ص٧ .
(٤٢) نجلاء حسني إبراهيم: حركة المريدين في الأندلس، رسالة ماجستير، بإشراف المؤلف، مخطوطة بكلية الآداب – جامعة عين شمس ، ص ٨٠ .
(٤٣) أبو العلا عفيفي ، أبو القاسم بن قسي، مجلة كلية الآداب – جامعة الإسكندرية، مجلد١، ص٥٥ ، الإسكندرية، ١٩٥٧ .
(٤٤) المراكشي : المرجع السابق، ص٢١٢.
(٤٥) ابن الآبار : الحلة السيراء، جـ ٢، ص١٩٧ ، القاهرة ، ١٩٨٥ .
(٤٦) أبو العلا عفيفي: المرجع السابق ، ص٥٩ ، ٦٠ .
(٤٧) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، جـ٣، ص ٢٨٦، الرباط ، ١٩٣٤ .
(٤٨) ابن قسي: خلع النعلين واقتباس النور من موضع القدمين، ص٢٣٧-٢٣٩ ، أسفي ، ١٩٩٧.
(٤٩) Massignon, L: **Recueil de textes inedit Concernant L'histoire dela Mystique en pays d'Islam**, p.770, Paris, 1929.
(٥٠) نجلاء حسني إبراهيم : المرجع السابق ، ص٢٤٢ .
(٥١) ابن خلدون: العبر ، جـ ٦ ، ص٤٨٥ ، بيروت ، ١٩٨٦ .
(٥٢) نفسه، ص٢٨٩ .
(٥٣) ابن أبي زرع: المصدر السابق ، ص١٢٢ .



نظم التجارة الصحراوية بين المغرب الأقصى والسودان الغربي في الفترة من ق ٨-١٠هـ/ ١٤- ١٦م

د. كـرم الصاوي بـاز
أستاذ مساعد التاريخ الإسلامي والوسيط
معهد البحوث والدراسات الأفريقية بجامعة القاهرة

مقدمة

اتجه بعض المؤرخين الأوربيين إلى تفسير تأخر أفريقيا حاليا في الميدان التقنى بوجود الصحراء، وبأنها قد تكون عزلت أفريقيا السوداء عن عالم البحر المتوسط، والحقيقة أن الصحراء لم تمثل حاجزاً، وفضلاً عن ذلك فلم تكن الصحراء خالية من القبائل السكانية؛ إذ كان كثير من أهلها يعيشون حياة البداوة والترحال، ويقيمون علاقات وثيقة مع سكان الحواضر فى الشمال والجنوب. ولقد ظلت الصحراء بين الفترة من ٨- ١٠هـ/ ١٤-١٦م منطقة عبور نشطة، بحيث يمكن أن نعتبر العصر الذهبى للحركة التجارية عبر الصحراء فى تلك الحقبة.

ومنذ القرن العاشر تطورت تجارة ذهب السودان الغربي مع المغرب الأقصى تطوراً منتظماً، وقد كان بعضهم محقاً عندما شبه الصحراء ببحر، ضفافه السهل السودانى والأطراف الجنوبية من أفريقيا الشمالية. أما فى السودان فإن عدداً من المدن الواقعة فى منطقة السهل مثل تشيت وولاته وتنبكت وجاو كانت محط رجال القوافل القادمة من تامدلت وسجلماسة وتلمسان وورقلة وغدامس. ولم تكن المنطقة المعنية بالحركة التجارية عبر الصحراء شمالها وجنوبها تقتصر على الموانى ولكنها تتعلق بمناطق أوسع كثيراً فى أفريقيا الشمالية والسهل. ومن السهل إلى السفانا كانت بعض الدروب والمسالك النهرية تكمل شبكة الطرق العابرة للصحراء.

وقد كان هناك تجار مشهورين فى فن التجارة عارفين بأمورها ومتطلباتها من رأس المال ومعرفة بالصحراء ومسالكها. ومن بين الذين اشتهروا بمزاولة الصفقات التجارية الكبيرة مع دولة مالى فى القرن ٨ هـ/ ١٤م أسرة المقرى الذى كان مالكاً لأحدى المحطات التجارية، ومقيماً فى سجلماسة وله أربعة أخوة مساعدين له، اثنان فى مدينة تلسمان واثنان فى مدينة ولاته على طريق تنبكت، ولكن المقرى يقوم بإرسال الصفقات التجارية، ويستقبل من شركائه فى مدينة تلمسان البضائع المغربية والأوربية. ثم يعمل بدوره على نقلها إلى ولاته حيث كان أخواه يجمعان منتجات السودان الغربى من جلود وعاج وتبر ورقيق ويصلونها إلى المغرب الأقصى سنوياً فى قافلة كبيرة حقاً كان أخوة المقرى يشكلون شركة حقيقية فى تلسمان تملك فرعاً لها فى سجلماسة وأخر بولاته. وكانت للشركة شبكة تمدها بالمعلومات وأعوان يقومون بالاتصالات وقد وصل العديد من التجار العرب والبربر الذين استقروا بفضل التجارة عبر الصحراء فى ولاته ونيانى وتنبكت وجاو وغيرها، وكان معظم تلك المدن تشتمل على حى للعرب وقد عقدت فيها الزيجات منشئة بذلك صلات رحم يحلو للنسابين السودانيين تفصيلها وسوف تناقش هذه الورقة النقاط التالية:

أولاً : شبكة التجارة الصحراوية ودروبها بين المغرب الأقصى والسودان الغربى.

ثانياً : المحطات التجارية بين المغرب الأقصى والسودان الغربى.

ثالثاً : نظم المعاملات التجارية للتجارة الصحراوية بين المغرب الأقصى والسودان الغربى.

رابعاً : العائلات التجارية العربية ودورها فى ازدهار المحطات التجارية الصحراوية.

خاتمة

اولا : شبكة التجارة الصحراوية ودروبها بين المغرب الأقصى والسودان الغربى :

تعتبر الصحراء عنصرا أساسيا فى البنية التحتية لأقتصاد منظم عبر شبكة من المسالك الصحراوية ؛ وهى حلقة للاتصال بين بلاد المغرب والسودان الغربى لتصبح المسالك الصحراوية جزاء من شبكة الطرق العالمية : مسالك تخترق الصحراء الكبرى من شمال افريقيا وهى التى احتلت مكانة متميزه فى التجارة العالمية بين أوربا والمغرب من جهة ، وأفريقيا فيما وراء الصحراء من جهة أخرى[١] .

أرى من الضرورى طرح سؤالين يعتبران المحرك الأساسى لهذه الورقة الأول : ماهى الصحراء ؟ ، والثانى ماهو الدور الذى لعبته هذه المنطقة فى ربط الشمال بالجنوب فى منظومة اقتصادية ؟

اعتبر البعض الصحراء أرضاً مستوية وهى من الفضاء الواسع الذى لانبات فيه ، ولقد شبهت بظهر الدابة الأجرد ، ليس بها شجر ولاجبال ملساء [٢] .

ويرى البعض الآخر أن أكثر أقسامها مغاوز محرقة وقفار رملية وأراضى صخرية عقيمة وسهول وعرة يخشى الكثير منها رواسب رملية ومرتفعات صخرية أشبه بجبال ذات أودية فسيحة تعلوها الرمال [٣] .

هذه الصعوبات والعراقيل التى من شأنها أن تعيق حياة الإنسان فى هذه المنطقة جعلت الدراسات الحديثة تتساءل عن كنه هذه التجارة التى عبرت الصحراء عبر الصحراء الكبرى ، اكبر صحارى العالم [٤] .

ومن ثم وقوفها حاجز مانع لاتصال الشمال بالجنوب فى نظر بعض الدارسين؛ ولكن اهمية الصحراء خلال العصر الوسيط تتضح من خلال القوافل التجارية المنتظمة بأسواقها المزدهرة ومحطاتها الهامة ؛ بين بلاد المغرب والسودان الغربى [٥] .

الحدود الطبيعية للصحراء شرقا بما فيها صحراء ليبيا والنيل ، وغربا المحيط الأطلسي، وشمالا صحراء سيرت جبل نفوسه ، شط الجريد، شط ملغيغ ، الأطلس الصحراوي ودرعه ، مجتازين بذلك كل المراكز التجارية شمال الصحراء (فزان غدامس ، وادي ريغ ، ورقلة ، سجلماسة) جنوبا تصل إلى منعطف نهر النيجر مرورا بالتشاد إلى غاية النيل عند درجة ١٦ درجة شمالا(٦).

ومن اهم العناصر السكانية التي ميزت الصحراء في هذه الفترة البربر الذين شكلوا نسبة ٩٠ % من سكان المنطقة بالاضافة إلى قبائل السودان التي سكنت الصحراء منها فصائل التيبو taubou ، والزغاوة zaghaoua ، وتدا teda h.h ودازا Daza (٧) .

وهذا مايجعلنا القول انها كانت أهم عوامل التحدي والتعايش مع تلك الطبيعة القاسية. فاستقرار هذه القبائل في المناطق الجبلية كالهقار وفزان وتبستي، الدليل على ان هناك مناطق احتفظت بنوع من الرطوبة سمحت للتجمعات البشرية بالتأقلم معها منذ ١٠٠٠ سنة قبل الميلاد(٨) .

وتعتبر إشارة البكري الى هذه الآبار ومناطق وجود الماء في الصحراء الكبرى دليلا على انها استخدمت معلما على طول هذه الطرق التي ترشد القوافل والتي يصعب اجتياز الصحراء بدونها (٩) ؛ واذا قال هيردوت أن مصر هبة النيل ؛ فان الواحات والقصور هي هبة الآبار في الصحراء (١٠) .

وكان وراء انتظام التجارة الصحراية الجمل (١١) سفينة الصحراء الذي ذكر في قوله تعالى:" أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت (١٢) " وتأكيد على ذلك "وعليها وعلى الفلك تحملون (١٣) " أو في قوله صلى الله عليه وسلم : " الابل عز لأهلها ".

أما عن سير القافلة فيشير الادريسي:" أن القافلة تنطلق في سيرها في زمن الخريف(١٤) " وإن كانت الدراسات الغربية تشير إلى أن القافلة تجتاز الصحراء في فترة الشتاء(١٥) ؛ لذا فان القافلة لاتقطع الصحراء في فصل الربيع أو فصل

الصيف لتفادى مخاطر الصحراء الطبيعية التى تكثر فيها الرياح الموسمية فى نهاية فصل الربيع وبداية فصل الصيف (مثل الشهيلى والسيروكو) أما فصل الخريف نجد فيه انخفاضا فى درجة الحرارة مع ضمان وجود الكلأ للابل التى تتشكل منها القافلة (١٦) .

أما مكان الأنطلاق فهو ذلك المستودع أو الميناء أو المحطات الصحراوية الكبرى التى هى عبارة عن مدن استقبلت البضائع والقوافل معا فى اتجاه الشمال والجنوب ، لتصبح بذلك أهم المحطات التى تلتقى فيها قوافل الشمال بمختلف أصناف التجار المغاربة . قبل بداية الرحلة باتجاه أرض السودان ومن مثيلات هذه المحطات التى برزت فى تاريخ تجارة القوافل عبر الصحراء مدينة سجلماسة غربا ورقلة فى الوسط وغدامس شرقاً (١٧) .

يقول لمبارد موريس:"ان دبلوماسية كبار التجار تؤدى إلى عقد معاهدات مع البدو الرحل أسياد الصحراء ، من أجل حماية القافلة طوال الرحلة من الاعتدادات ونقص المياه ، ومن هذه القبائل على غرار مسوفه نجد لمته ، لمتونه وجزولة(١٨) .

وكان لابد من تعيين الدليل الذى يسبق القافلة إلى أرض السودان ، ويختار من نفس القبائل التى تمتاز بالقوة والمعرفة لطرق الصحراء ومحاورها (١٩) .

وقد تطرق ابن بطوطه إلى هذا الدليل فى قوله :"أن التجار كانوا يستعينون بالتكشيف(٢٠) "وهذا الكشاف هو الذى يقوم بحمل الرسائل التى يرسلها التجار إلى أصحابهم ليختاروا لهم الدور ويخرجوا للقائهم بالماء ؛ وبعد اتمام تحضير كل الضروريات يبدأ الأنطلاق فى السفر ، وتعتبر هذه المرحلة أصعب مرحلة تمر بها القافلة بعد أن نظمت نفسها بشكل دقيق مسبقا (٢١) .

وفى المرحلة التالية من اجتياز الصحراء ، تخرج القافلة محملة بالبضائع المغربية والمشرقية فى سفر يدوم شهرين ؛ وهناك من القوافل من يصل عدد جمالها إلى عشرة آلاف(٢٢)

وتنوع جمال القافلة الواحدة من جمال مخصصة لحمل البضائع وأخرى للمؤونة والماء والباقية للركوب ، كما لايختلف عدد هذه القافلة عن ذلك الذى ذكره لومبارد موريس نقلا عن ابن خلدون فى فترة متقدمة مشيرا إلى:"أن القافلة المتوجهة من القاهرة إلى السودان بلغ عددها جمالها خلال القرن الرابع عشر أثنى عشر ألف جمل (٢٣).أما اذا عدنا إلى القرن الثانى عشر فان التجار كانوا يسوقون فى تجارتهم مابين سبعين إلى مائة جمل(٢٤) .

ولتحديد فترة الرحلة أقول أنه نظرا لأهمية البضاعة التى كانت القافلة تشد الرحال من أجلها، عند انطلاق القافلة فى رحلتها يجب أن تكون الفترة المحددة لذلك هى وقت الفجر وتستمر حتى طلوع الشمس واشتداد حرها ، لتتوقف فى وقت العصر ثم تستأنف المسير إلى أن يحل الظلام ، لتبدأ الرحلة من جديد عند بزوغ الفجر(٢٥) .

لقد ذكر الأدريسى هذه الرحلة عبر الصحراء بقوله :"هى نمط سفر التجار الداخلين إلى بلاد السودان، لأن الشمس تقتل بحرها من تعرض للمشى فى القائلة عند شدة القيظ وحرارة الأرض (٢٦) . هذا اضافة إلى معرفة العرب بعلم الفلك والنجوم للاهتداء بها ومعرفة أوقات الرياح (٢٧) .

ويشير البكرى إلى أن التجار كانوا يسافرون فى" خيم من الجلد" لكى لايختنقوا من تلك الزوابع الرملية الشديدة(٢٨) ؛ ولذا يمكن الاشارة إلى هذه الخيم هى التى يطلق عليها بالعربية اسم "الهودج " .

وبعد دخول أرض السودان فى رحلة استغرقت مدة شهرين ، تنقسم القافلة إلى قسمين ، هناك من يواصل الرحلة جنوبا إلى مستودعات الذهب وهناك من يواصل الرحلة من التجار ووكلائهم إلى الجنوب فى مسيرة تستغرق عشرين يوما ، أى إلى السينغال للمقايضة مع السكان المحليين وهم عراة يعيشون فى حفر فى الأرض . وتتم هذه العملية بواسطة التجارة الصامته (٢٩) .

وهناك من يبقى ينتظر فى تلك المراكز التجارية (أودغشت كومبى صالح ، جاو إلى ان يتم عودة الوكلاء [٣٠] لتعود القافلة بعد اتمام الصفقات التجارية إلى مدن المغرب محملة بالتبر والبضائع الأخرى [٣١] .

كما يتقلص عدد جمال هذه القافلة حيث يكون أقل بكثير من عددها ذهابا ، لأن التجار كانوا يبيعونها تفاديا لتكاليف رعايتها [٣٢] .

*** المسالك التجارية ودروبها الصحراوية [٣٣] :**

مع بداية استقرار أحوال المغرب ، بدأ الاتصال الطبيعى المنتظم عبر الصحراء ، وكلما زاد الاستقرار فى الشمال ، تعمقت الصلات وازدادت حركة القوافل التجارية .

ويتضح من الاشارات القليلة الواردة فى كتب الجغرافيين العرب أن القوافل عبرت الصحراء ، فى وقت مبكر فى العصر الاسلامى – وكانت هذه القوافل ، تخرج من المنطقة الواقعة بين وادى درعة وساحل المحيط الأطلسى بطبيعتها الخصبة ، ومياهها المتوافرة العذبة [٣٤] ، فصارت مركزا لتجمع العرب المغاربة الذين فى الصحراء ، يلتقون فيها بسكان طرف الصحراء الشمال . وقد أورد البكرى طريقين صحراويين استخدما فى العصر الاموى [٣٥] .

أولهما : يخرج من وادى درعة إلى غانة مارا ببئر تزامت من " عمل الاول، ورغم أن بنى أميه صنعتها " فاذا كان قد حفر فى العصر الأموى ، أو قبله فإن هذه الأشارة تدل على انتظام الطريق فى عصر بنى أمية .

والثانية من تامدلت فبئر الجمالين "من أنباط عبدالرحمن بن حبيب " أثناء ولايته أفريقية (١٢٧ – ١٣٨ هـ / ٧٤٤ – ٧٥٥ م) ثم عبر الطريق على البئرين الأخرين ، اللذين أنشأهما عبدالرحمن بن حبيب أيضا ، حتى بئر وانزامين، وينتهى الطريق فى أودغشت [٣٦] .

ويفهم من حديث موسى بن أحمد السعدى عن بئر وانزامين ، وتجمع طرق التجارة عندها ، أنه كانت هناك طرق أخرى ربما استخدمت أو استخدم بعضها

فى العصر الاموى ، ويظهر من الاصلاحات الطرقية التى كان الولاه يقومون بها أن الدولة اولت عنايتها بالتجارة وشجعتها (٣٧) .

طريق أوجلة إلى جاو :

يبدأ هذا الطريق من أوجلة وزلة وودان إلى بلاد كوار حتى يصل إلى كوكو(٣٨) .

طريق فزان أقدز :

يرجح أن أول طريق سلكة العرب عبر الصحراء هو طريق فزان أقدز ، فهو أقصر طريق لعبور الصحراء (٣٩) .

- طريق غدا مس تادمكه ، وطريق تادمكه القيروان مرورا بورقلة ، ومن تادمكه إلى طرابلس مرورا بغدامس (٤٠) .
- طريق ورقلة تادمكه كاغو (٤١) .
- طريق ينطلق من جبل نفوسه إلى زويلة والسودان الغربى وهو قليل المياه(٤٢) .
- طريق يبدأ من أراضى المغرب الاوسط ماراً فى اتجاه الجنوب نحو غدامس وغات وأقدز ، ثم يتجه نحو الغرب مارا بتكده ، إلى جاو على نهر النيجر وينتهى فى تنبكت (٤٣) .
- طريق توات تكد وكوكو وسجلماسة وغدامس (٤٤) .

طريق تادمكه أودغشت :

أورد البكرى وصفا للطريق بمراحلة الخمسين فالطريق يمر فى بدايته على الأبار الثلاثة التى حفرها عبدالرحمن بن حبيب . وقد شهد هذا الطريق نشاطاً ملحوظا منذ عهد الأدارسة الذين استطاعوا السيطرة على المنطقة حتى منطقة زاغة على نهر النيجر والذى أطلق عليها ابن خرداذبة بلاد زاغى بن زاغى(٤٥) .

طريق سجلماسة أودغشت :

ارتبطت سجلماسة عبر الصحراء جنوبا بعدة طرق فالبكرى ذكر طريقين أحدهما : يمر على تادمكه ثم يواصل نحو أودغشت . وقدر ابن حوقل المسافة

بين سجلماسة وأودغشت بشهرين . وأورد مارمول اسماء بئرين بين سجلماسة وتنبكت وهى بئر زعوات وبيء عروان (٤٦) والطريق الآخر يتجه رأسا إلى غانة مسيرة شهرين ، ربط الادريسى(٤٧) سجلماسة بسلى وتكرور واوليلى ولم يذكر المحطات التى عبرها وقدر طوله بأربعين يوما بسير القوافل (٤٨) .

طريق وادى درعة إلى بلاد السودان :

لم يذكر البكرى تفاصيل كثيرة عن هذا الطريق ، كما فعل بطريق تادمكه فمراحل الطريق غير مذكورة بالتفصيل وكذلك أماكن المياه فهو يقول مثلاً :

" ثم تمشى فى الصحراء فتجد الماء على اليومين والثلاثة ، ولكنه ذكر بعض الأبار التى توضح أن الطريق لايعانى من الجفاف الشديد ، وأكبر مسافة دون ماء على هذا الطريق هى المجابة الكبرى حيث لايوجد ماء بها ، لمدة ثمانية أيام، ويمر الطريق بقبائل لمتونة وقاعدتهم أزقى(٤٩) .

طريق تغازة السودان :

لم يتعرض البكرى (٥٠) لهذا الطريق مباشرة ،بل أشار إلى وجود معدن الملح، واتفق وصفه مع ماجاء عند الكتاب من بعده عن تغازة (٥١) ، تبعد تغازه عند البكرى عشرين يوما من سجلماسة ، بينما سافر ابن بطوطة من سجلماسة الى تغازة فى خمسة وعشرين يوما ، والماء غير متوفر فى المنطقة الواقعة جنوب تغازة إلا نادرا ، وقد صادفت قافلة ابن بطوطه ماء الغدران الذى تركته الأمطار بين تغازة وتاسرهلا ، والصحراء الواقعة جنوب تاسرهلا ذات ريح ، شديدة الحرارة تجفف الاسقية ، ومن هناك يواصل الطريق إلى ايوالاتن ، وقد سار ابن بطوطه على الطريق بين سجلماسة ايوالاتن شهرين كاملين (٥٢) .

ومن المحتمل أن يكون طريق تغازه قد ازدهر أكثر من الطرق الواقعة إلى الغرب منه ، لأن ظهور تنبكت فى أواخر القرن الخامس الهجرى ، الحادى عشر الميلادى كمركز تجارى إلى جانب نمو مركز جنى قد ركز حركة القوافل فى الجهة الشرقية من هذه المنطقة وساعد على ذلك الاضطربات التى شهدتها غانة

على حدودها الجنوبية ، وقد ساعدت هذه العوامل الجزء الشرقى من المنطقة الغربية لاحتلال مكان بارز فى تجارة الصحراء نظراً لتزويدها القوافل بملح تغازة(٥٣) .

طريق فاس تنبكت :

وهى من الطرق التى يوجد فيها عدد من الآبار. وقد أوضح الوزان شكل الآبار، بأنها مكسوة بجلود الإبل ومبنية بعظامها ، وعلى التجار أن يسافروا مع هذه الطرق فى فصل الشتاء فقط ، نظرا لأن هناك رياح القبلى التى تهب على المنطقة، وتحمل معها الأتربة التى تغطى آبار المياه ، وبذلك يموت المسافر فى هذا الطريق عطشاً ، لأنه لايستطيع أن يهتدى إلى مكان البئر (٥٤)

طريق تلمسان أقدز :

يربط هذا الطريق بين مدينة تلمسان ومدينة أقدز ، وهو طريق صعب لايوجد به الماء ، ولذلك يضطر المسافر إلى حمل الماء معه طيلة المدة التى يستغرقها فى السفر والتى تتراوح مابين ستة إلى سبعة أيام (٥٥) .

إن الطرق السالفة الذكر لم تبق ثابته عبر الحقب الزمنية ،فهناك أمور سياسية وأمنية عملت على تغيير مسارها من فترة لأخرى ، ولكن الاتجاهات عموما حافظت على ثباتها ، مادامت بعض المراكز التجارية لم تفقد أهميتها ، ولاشك أن أهم مؤشرات ضعف الحركة التجارية الصحراوية أو قوتها ترجع إلى عدة عوامل أهمها: الجانب الأمنى ، فإذا ما توافر هذا الجانب نشطت حركة التجارة وفى منطقة السودان الغربى هذا الجانب متذبذب من فترة لأخرى ، حسب قوة الدولة الحاكمة ، ونستشف ذلك من سؤال للقابس " عن رفقة قدمت من غانة إلى سلجماسة فلما كانوا فى بعض الطريق ، خرج عليهم اللصوص فأكلوا أموالهم (٥٦) "

من خلال النص يتضح أن الجانب الأمنى كثيراً ما يتصدع فيمنع التجار عن ارتياد هذه المناطق

وكثيراً ماكانت قبائل البرابيش والطوارق والفلان تخرج عن نطاق السلطة الحاكمة ، وتجبر التجار على دفع إتاوات عالية ، لكى تمر قوافلهم ، الشيء الذى دفع بالتجار إلى العزوف عن الذهاب إلى بلاد السودان (٥٧) .

ومن خلال ماسبق ذكره يمكن لى أن أستنتج أن نظم التجارة الصحراوية كانت تنتقل عبر المسالك الغربية وهى التى ضمت عدة مراكز أساسية فى كل من المغرب الأقصى ، الصحراء الغربية ، وموريتانيا وحتى تلمسان بالأضافة الى ذلك فأن هذا الطريق الغربى كان يحتوى إلى بابين : باب الشمال ويسمى سلجماسة، وباب الجنوب ويسمى أودغشت وساهمت الطبيعة المميزة لهذا الطريق وبشكل كبير فى تنشيط تجارة القوافل فى هذه الفترة ، كما أن استغلال ملح تغازه ساهم فى طرق ثانوية سهلت من توسيع شبكه الطرق التى كان يسلكها التجار وسط المغرب الاسلامى .

ثانياً : المحطات التجارية بين المغرب الأقصى والسودان الغربى :

أن المسلمين فى كافة مناطق تواجدهم استطاعوا أن يؤسسوا مدنا قادرة على توفير الشروط الضرورية لساكنيها (٥٨) ، فالدور الدينى للمدن فى البلاد الاسلامية يعتبر القاعدة الاساسية فى ظهور هذه النهضة العمرانية انطلاقا من المراكز التى كانت فاتحة كل انجاز فى كل الامصار سواء فى أجزاءها الشرقية ام الغربية فالتجارة العابرة للصحراء استطاعت أن تحدث ثورة عمرانية ابتداء من شمال الصحراء الكبرى حتى ضفاف نهر النيجر(٥٩) .

ومن أمثلة ذلك فاس والقيروان التى كانت على صلة مع تلك الواجهة الجنوبية لتجارة المغرب ، ومع نهضة مدن القوافل الكبرى ، هذه الموانى التى تصل اليها كل الطرقات الناقلة لمعدن ذهب السودان الغربى (٦٠) .

ومن أهم المحطات التجارية بين المغرب الأقصى والسودان الغربى .

سجلماسة ..

تقع سجلماسة على الطريق الغربي المؤدى إلى السودان الغربي ؛ والمسافة بينها وبين غانة شهرين وبينها وبين وادى درعة خمسة أيام (٦١)، وبينها وبين فاس عشرة أيام (٦٢). وتعتبر هذه المدينة من اكبر مدن الصحراء المغربية وتبعد عن البحر خمسة عشر مرحلة تمتاز بكثرة بساتينها وخضرها وقصورها وديارها. هذا ما جعلها مقصدا للوارد والصادر . ومن مدنها درعة تدنفوست ، أشر ، أيلا ، أمصلى ، دار الأمير حصن براره ، الخيامات ، تازروت (٦٣) .

يعود غنى هذه المدينة وازدهار أسواقها وكثرة أهلها إلى أنها تقع على طريق الذهب . يقول الحموى :"أهل هذه المدينة من أغنى الناس اكثرهم مالا لأنها على طريق من يريد غانة التى هى معدن الذهب ، ولأهلها جرأة على دخولها(٦٤) " هذا مادفع بجماعات اليهود أن تستقر فيها وتمتهن حرفة البناء " لما علموا أن التبر بها أمكن منه بغيرها فى بلاد المغرب لكونها بابا لمعدنه (٦٥) " .

قرب سجلماسة من السودان على الطريق الغربى جعل كل التجار الذين مارسوا تجارة القوافل يستقرون بها ، ويؤكد البكرى ذلك قائلاً :"ومن مدينة سجلماسة تدخل إلى بلاد السودان إلى غانة (٦٦) .

إن الأهمية الاقتصادية التى حققتها سجلماسة فى المجال التجارى بعد أن تمكنت من ذهب السودان الغربى دفعها إلى عدم الدخول فى التعصب المذهبى وربما دفع تعدد التجار بها وثرائهم ، وكذا الأنشغال فى أمور البيع والشراء إلى التأقلم بشكل سريع مع كل الأنظمة التى عرفتها واسترجاع نشاطها التجارى كلما عرفت خرابا (٦٧). وفى انتظار ذلك تبقى سجلماسة صورة لإحدى عواصم المحطات التجارية التى عرفها المغرب الإسلامى خلال العصور الوسطى والباب الرئيسى للطريق الغربى التى عرفت اجتياز كميات كبيرة من ذهب السودان الغربى بررت كل تنافس مغربى وأفريقى ظهر من أجلها .

ومن خلال بعض الدراسات الأثرية تبرز أهميتها بما عثر عليه من بعض الأواني الخزفيه التي عثر عليها في مدينة أودغشت ، وقد توصل DEVISSE أن ٥٠% من هذه الأواني صنعت في سجلماسة ، وأكد أن ذهب عملة سجلماسة التي ضربت منذ سنة ٣٤٩ هـ/ ٩٦٠ م مصدره أفريقيا الغربية مما دعاه للافتراض أن قاعدة التبادل بين سجلماسة والسودان الغربي بنيت على معدن الذهب مقابل الأواني الخزفية [٦٨] إلى غاية التأكد من حقيقة تلك المبادلات التجارية التي بنيت على أساس معدن ذهب افريقيا مقابل بضائع محلية أو مستوردة [٦٩] .

وهذه رسالة تجارية من تاجر مغربي يدعى حمدو الشان الفاسي إلى وكيله بالسودان الغربي[٧٠] نستخلص منها : ١ – المواد التي كانت تجلب من السودان الغربي إلى المغرب الأقصى وباقي مناطق الشمال الافريقي ، وفي مقدمتها الذهب الذي يقدر بالمثقال والملح بالحجر. ٢ – عمق الاتصالات التجارية بين المغرب الأقصى والسودان الغربي ، خاصة وأن هذه الرسالة كتبت في فترة التواجد المغربي في السودان الغربي . الأمر الذي يؤكد الأزدهار التجاري في هذه الفترة ، وان حكم المغاربة للمنطقة لعب دورا في ازدهارها على كافة الأصعدة .

ومن كبار تجار سجلماسة الذين لعبوا دوراً مهماً في اقتصاد السودان الغربي التاجر حم بن الحاج السجلماسي ومن أبناء سجلماسة تنبكت وأروان أولاد عبيد وهم أكثر الجماعات السجلماسية ارتيادا للسودان وقد نزل بعضهم بوادي الرتب بقصبة البلاغمة بأروان كما اشتغل أولاد عبدالله الكامل بن حسين ابن الحسن السجلماسي بالتجارة وكانوا سبعة : إدريس وسليمان وابراهيم وموسى وعيسى ويحيى ومحمد واستوطن سليمان تلمسان أما البقية فقد استوطنوا أرض السودان الغربي وكان ذلك عام ١١٠٠ هـ/ ١٥٩١ م [٧١] .

أودغشت .

ساهمت عوامل عديدة فى نمو أودغشت وازدهارها واعتبارها محطة تجارية [٧٢] .

- وقوعها على الطريق الغربى الرابط بين سجلماسة وغانة ، هذا الطريق الذى شهد تنافسا بين ملوك صنهاجة وملوك غانة خاصة خلال القرن العاشر للميلاد .

- توفر هذا الطريق على الماء على حد قول البكرى أنه أيسر طريق بسبب وفرة الماء خاصة فى جزئه الرابط بين تامدلت وأودغشت ، خاصة عند الاشارة إلى بئر الجمالين وبئر هيلون أو ويطونان [٧٣] .

- كون اودغشت همزة وصل بين مناجم ملح كل من أوليل ايجيل وتغازه الذى كان ينقل إلى بلاد السودان [٧٤] .

وقد صدرت اودغشت معدن الذهب نحو مدن الشمال التى شكلت أحد مستودعاته يقول البكرى فى هذا الصدد : " يجلب منها الذهب الإبريز الخالص خيوطا مفتولة وذهب أودغشت أجود من ذهب أهل الأرض وأصحه [٧٥] ، وهذا يؤكد مستوى التطور الذى حققته والذى يضاهى دور سجلماسة وورقلة [٧٦] .

وازدهار هذه المدينة وثراء تجارتها دفع بالبعض إلى امتلاك صك وهو من أهل سجلماسة " باثنين وأربعين الف دينار [٧٧] " .

وبدأت ايولاتن تحتل مكانها كمركز تجارى على طريق الصحراء الجنوبى بعد سقوط امبراطوية غانة ، وقيام مملكة مالى التى ضمتها إلى حدودها ، وقد أدت ايولاتن الدور نفسه الذى كانت تقوم به أودغشت فى عهد مملكة غانة ، اذ اتجهت اليها القوافل عبر المنطقة الغربية من الصحراء الكبرى ؛ وقد وصفها ابن بطوطه بأنها مدينة كبيرة تحت إشراف سلطان مالى المباشر ، إذ يحكمها نائب عنه، وأشار إلى اهتمام أهالى ولاته بالتجار وخروجهم اليهم بالماء والموز [٧٨] .

وسكانها خليط من الزنزج والعرب ، وقد هاجر اليها عدد من علماء تنبكت زمن الملك سني على الكبير . وقد ارتبطت بعلاقات تجارية مع تنبكت وبقية المراكز الأخرى [٧٩] .

* تنبكت [٨٠] :

تقع مدينة تنبكت على الحافة الجنوبية للصحراء الكبرى بما يعرف بمنحنى نهر النيجر ، وقد مكنها موقعها المتميز من أن تلعب دوراً مهما فى اقتصاد شمال وجنوب الصحراء [٨١] .

لقد مثلت التجارة المصدر الرئيسى فى حياة سكانها وبذلك اهتموا بها اهتماماً كبيرا ، وتوافد عليها التجار من داخل السودان الغربى ومن خارجه وخاصة من المغرب الأقصى[٨٢] ؛ فكان تجار سجلماسة وفاس فى حركة دؤوبة معها يحملون معهم بضائعهم ويعودون محملين بالذهب والرقيق وسن الفيل ، وريش النعام وغيره [٨٣] .

وقد بلغت تنبكت ذروة الازدهار الأقتصادى فى القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى الذى عرف بالعصر الذهبى لتلك المدينة ، وقد بلغت القوافل القادمة اليها من الشمال الأفريقى فى سنة ٧٥١ هـ / ١٣٥٠ م اثنى عشر الف جمل [٨٤] .

وقد أعجب الحسن الوزان بوفرة خيرات تنبكت وبكثرة الحوانيت التى تبيع المنتجات القطنية والأقمشة المجلوبة لها من المغرب الأقصى [٨٥] . وقد أفاد عبدالرحمن السعدى بأن تنبكت ملتقى للتجار أصحاب رؤوس الأموال الضخمة من كل بلاد[٨٦] ؛ وأورد ابن بطوطه أن بها قبر سراج الدين بن الكويك أحد كبار التجار من أهل الاسكندرية الشيء الذى يبرز لنا مدى قيمة هذا المركز اقتصاديا ومحطة للقوافل تربط شمال وجنوب الصحراء [٨٧] .

وقد أعجب الرحالة الحسن الوزان بتنبكت عندما زارها فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى ، ووصف لنا الحياة فيها وقال عنها ، انها كانت مدينة

عامرة بدكاكين الصناع والتجار وخاصة الدكاكين التى تباع بها المنسوجات القطنية والأقمشة المصنوعة فى اوربا التى يحملها تجار المغرب (٨٨) .

وأكد الوزان أن تنبكت قد اشتهرت بتجارة الكتب والخطوطات التى تأتى اليها من بلاد المغرب وتباع بأثمان مرتفعة جدا تفوق اسعار السلع الأخرى (٨٩) .

ولتنبكت فى عهد دولة سنغاى ميناء خاص على نهر النيجر هو ميناء كابارا، ومنه تحمل القوارب بالبضائع التى تصدر إلى مختلف البلدان الواقعة حول نهر النيجر ، ويبعد الميناء عن المدينة إلى الجنوب بحوالى اثنى عشر ميلا (٩٠) .

وهكذا برزت تنبكت كمركز تجارى ساهم بدور فعال فى انتعاش العلاقات الاقتصادية بين شمال الصحراء وجنوبها خاصة فى عهد الاسكيين .

* جاو :

كانت جاو عاصمة سنغاى منذ أيام آل ضياء الأولى وسنى على الكبير ، واستمرت عاصمة للبلاد فى عهد الاسكيين بداية من عهد الاسكيا محمد الكبير فبلغت فى عهده أقصى اتساعها وازدهارها . فقد وصفها الوزان بأن سكانها تجار على جانب كبير من الثراء ، ويأتى اليها باستمرار عدد كبير من الزنوج لشراء الأقمشة التى تجلب اليها من المغرب وأوربا ، وبها ايضا مكان يباع فيه الرقيق وخاصة فى الأيام التى يجتمع فيها التجار (٩١) .

وتحدث الوزان أيضا عن وفرة الذهب فى جاو بدرجة أن التجار لايستطيعون دائما بيع كل ما يجلبونه إلى السوق وربما يضطرون إلى العودة بما تبقى لديهم من هذا المعدن الثمين (٩٢) .

وفى عهد الاسكيا محمد الكبير ازدهرت الطرق الصحراوية بين المغرب الاقصى وبين السودان الغربى وكانت القوافل تصل إلى تنبكت ومنها تتجه إلى جاو (٩٣) .

أما القوافل التجارية القادمة من جهة الشرق أى من جهة كانم – برنو وبلاد الهوسا ، فتعرج على جاو قبل تنبكت ، التى تبعد عنها بحوالى ربعمائة ميل من ناحية الجنوب الشرقى (٩٤) .

*** جنى :**

جنى من أهم الأسواق التجارية التى قامت فى السودان الغربى وازدهرت فى عهد سلطنتى مالى وسنغاى (٩٥) . والفضل فى ذلك يرجع إلى التجار المغاربة الذين اتخذوها محطة لهم يتبادلون فيها الملح بالذهب . فأثروا ثراء عظيما من هذه التجارة التى تتم بين أرباب الملح القادمين من تغازه . وأرباب الذهب القادمين من بيط (٩٦).

ولهولاء التجار المغاربة يعود فضل معرفة أهل جنى تجارة الأقمشة القطنية التى يتبادلونها مع تجار البربر على سبيل المقايضة مع الأقمشة الأوربية والنحاس والخارصين والأسلحة وأشهرها الخناجر (٩٧) .

وقد ارتبط ازدهار جنى بازدهار تنبكت . إذ قال السعدى عن جنى " ومن أجل هذه المدينة المباركة تأتى الرفاق من جميع الأفاق إلى تنبكت شرقها وغربها يمينها وشمالها (٩٨) .

*** تكدا :**

تقع تكدا إلى الجنوب الغربى من مدينة تنبكت بحوالى ربعمائة وخمسين كم، وقد زادت أهميتها بعد اكتشاف النحاس بها ، حيث تحولت قوافل التجارة إليها .

وأول من ذكرها العمرى (٧٤٩ هـ – ١٣٤٨ م) ونقل عنه القلقشندى فى القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى فذكر أن بها مناجم غنية ، تنتج كميات كبيرة من النحاس ، وأورد ابن بطوطه الذى دخل تكدا عام (٧٥٤ هـ / ١٣٥٣ م) وصفا لهذا المعدن ، يحفر عليه فى الأرض ، ويأتون به إلى البلد فيسبكونه فى دورهم ، ويوزع بعد ذلك داخل بلاد السودان وذكر القلقشندى وجود الملح بها كذلك . وإلى جانب النحاس والملح فإن تكدا

صارت سوقاً تجارياً مهماً ، ووصل اهلها إلى درجة كبيرة من الثراء بسبب الاشتغال بالتعدين أو فى الملح أو خدمة القوافل (٩٩)

* أقدز :

تقع أقدز اليوم فى الشمال الشرقى من نيامى عاصمة جمهورية النيجر ، وتبعد عنها بألف كم (١٠٠) .

والذى يهمنا منها مكانتها التجارية ، فقد احتلت موقعا مهما ، وقد كتب عنها الحسن الوزان وأشار اليها تحت مملكة أغادس ، وأفاد أن أغلب سكانها من العرب المغاربة الذين اشتغلوا بالتجارة ، ويعتمد دخلها على الضرائب التى تؤخذ من التجار الوافدين عليها ، ونقلت منها القوافل بضائعها المتمثلة فى البخور والذهب (١٠١)كما كان العلك من بين المواد الغالية الثمن التى تحملها القوافل إلى أقدز (١٠٢) .

ثالثاً : نظم المعاملات التجارية للتجارة الصحراوية بين المغرب الأقصى والسودان الغربى :-

تعددت الوسائل التى تعامل بها تجار المغرب الأقصى مع مدن السودان الغربى(١٠٣) منذ القرن ٨ هـ / ١٤ م ؛ وبالرغم من أن التجار المغاربة فى بلاد المغرب الأقصى كانوا يتعاملون بالعملات من : الدراهم(١٠٤) ، أو الدنانير(١٠٥) الا أنه غلب فى معظم المعاملات اسلوب المقايضة(١٠٦) فى السودان الغربى ؛ وعرفت بالتجارة الصامته التى كانت تعتمد على الذهب كسلعة رئيسية إلى جانب بعض السلع الأخرى التى قد تختلف من مدينة لأخرى (١٠٧) .

أما المحطات التجارية على أطراف الصحراء فيتم فيها البيع بحضور الطرفين ، وسلعتهم الرئيسية هى الملح (١٠٨) .

ومنذ القرن ٨ – ١٠ هـ / ١٤ – ١٦ م تطور اسلوب التجارة فى السودان الغربى ؛ واستعملت العملات فى بعض المدن السودانية ؛ والغالب على تلك العملات انها لم تكن مسكوكة (١٠٩) ، وفى عهد ملوك سنغاى كانت خزائنهم

تمتلىء بكميات كبيرة من العملات وسبائك الذهب (١١٠) ، ولم يرد ذكر التعامل بالفضة الامرة واحدة عند ابن بطوطة (١١١) . وهم يتبايعون بالنحاس فى تكدا حيث تقوم صناعة النحاس ؛ وقد تزيد قيمة النحاس على قيمة الذهب فى بعض الأوقات ثم تنخفض (١١٢) .

وقد كان هناك أيضاً التعامل بقطع الحديد التى تزن أحياناً رطلاً أو جزءا من الرطل (١١٣) .

أما الودع (هو نوع من الصدف) كان يجلب إلى سنغاى ، من قبل التجار المغاربة ، وعندما احتل الاوربيون سواحل افريقيا الغربية ، جلبوه من الهند ، ماترتب عليه منافسة للتجار المغاربة على هذه السلعة ، وقد استخدم فى الاسواق كعملة فى البيع والشراء (١١٤) .

كما قبل التجار المغاربة فى اسواق السودان الغربى اسلوب التعامل ببعض السلع كنقد اذ قال البكرى : " ان تبايع أهل سلى بأزر قطن يسمونها شكيات " (١١٥) .

كما نجح التجار المغاربة فى القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى، فى تأسيس نظام استطاع أن يربط حركة التجارة فى أسواق السودان الغربى بحركة التجارة فى بلاد المغرب عن طريق نظام الوكالة (التوكيلات التجارية) ؛ وقامت بهذا الدور أسرة مغربية من تلمسان هى أسرة آل المقرى (١١٦)، مهدوا الطريق أمام قوافلهم ، وحفروا لها الأبار. وأمنوا تجارتهم ، وعقدوا شركة بينهم ، جعلوا فيها جميع ما ملكوه من اموال ، وأقاموا بهذه الشركة فروعا فى كل من تلسمان وولاتة وسجلماسة ، فكان الوكيل التلمسانى يبعث الى الوكيل الصحراوى بما يطلبه من سلع ، ويبعث له الوكيل الصحراوى سلع الصحراء من جلود وعاج وجوز وتبر. اما الوكيل السجلماسى فيقول عنه المقرى : " كلسان الميزان يعرفها بقدر الخسران والرجحان ويكاتبها بأحوال التجار والبلدان حتى إتسعت احوالهم (١١٧).

وفى سبيل توحيد قيمة المعاملات ، حددت لأول مرة فى السودان الغربى قيمة المثقال الذهب بما يقابلة من الودع رسميا ؛ وكان مثقال الذهب يصرف باربعمائة ودعة فقط ،وعين لذلك شخص معين وأما ايفاؤهم على التعامل بالودع انما كان لحاجة بعض أهالى القرى المضطره بالتعامل به (١١٨) .

ثم عرفت بعض العملات المضروبة فى المغرب الأقصى طريقها إلى السودان الغربى بعد أن كثر التعامل فيه ببلاد المغرب " اذ كان بباب المنصور كل يوم أربعة عشرة مائة مطرقة تضرب الدينار (١١٩) " وكان التعامل فى الاسواق الكبرى بهذه الدنانير إلى جانب الدراهم التكرورية (١٢٠) .

أما الذهب فقد انخفضت قيمة المثقال عند مجيء المغاربة السعديين (١٢١) ، فأصبح مثقال الذهب يصرف بثلاثة آلاف ودعة (١٢٢) ، بينما قبل مجيئهم كان مثقال الذهب يصرف بأربعمائة ودعة (١٢٣) ، كذلك زادت أسعار الجوارى الى جانب زيادة فى بعض السلع مثل التمر (١٢٤) ، والاقمشة بينما انخفضت اسعار بعض السلع المغربية مثل الجلد المدبوغ والملح (١٢٥) .

* **الميزان التجارى :** هل كان لصالح العائلات التجارية فى المغرب الأقصى أم للسودان الغربى ؟

حقق التجار المغاربة فى أسواق السودان الغربى شهرة واسعة ، كما حققوا ثراء كبيراً ؛ وكان من بين هؤلاء الأثرياء التجار السجلماسيون الذين احتكروا أسواق السودان الغربى (١٢٦) خلال الفترة من ق ١٤ م – ١٦ م .

وعلى حين حقق التجار المغاربة ماحققوه من ثراء ، وجمعوا ماجمعوه من أموال ، الا انهم تعرضوا على مدى قرون للضرائب التى كان يفرضها عليهم حكام السودان . فقد امتلأت خزائن ملوك السودان الغربى بما فرضوه على التجارات الداخلة والخارجة منذ أواخر القرن الخامس الهجرى ، حين كتب البكرى عن غانة وذكر سير ملوكهم على تنظيم الجباية على القوافل الواردة والآتية ، واستمر هذا الاسلوب متبعا فى مالى ثم فى سنغاى (١٢٧)

وفي عهد ملوك مالي استطاعوا تحقيق أرباح وفيرة بفرضهم رسوما على العمليات التجارية والصفقات التي تعقد على بعض السلع ، مثل الخيول المجلوبة من المغرب الأقصى أو من المغرب الأدنى ، وكذلك على المنسوجات الأوربية الحريرية المصبوغة (١٢٨) ، وبخاصة إذا كانت باهظة الاثمان بالاضافة إلى أن ملوك مالي قد فرضوا رسوما على استخراج وتعدين النحاس (١٢٩) .

وقد سار ملوك سنغاي على نهج ما كان يفعله ملوك مالي ففرضوا مثل هذه الرسوم والمكوس (١٣٠) ، إلى أن جاء المغاربة السعديون إلى السودان الغربي فنقلوا القناطير المقنطرة من الذهب الذى جلبه تجارهم من السودان الغربي على عهد المنصور الذي كان يعنيه جدا هذا الذهب الذي سوف يساعده على التوسع في الانفاق في الجهاد دون أن يخشى عيلة أو فقرا . لذلك نجده يهتم بتأمين الطرق التي تجتازها القوافل التجارية في الصحراء (١٣١) ، ولذلك انشأ المنصور مدينة المحمدية في ملتقى طرق القوافل في شوال ٩٨٦ هـ / ١٥٧٨ م (١٣٢) .

يتضح من التواجد الكبير للتجار المغاربة المقيمين في السودان الغربي إنعاش للحياة الاقتصادية (١٣٣) ، وكفة راجحة في الميزان التجاري لصالحهم بدليل الصفقات التي عقدوها من خلال التجارة الصحراوية ؛ فنذكر أن قوافلهم التجارية كانت تضم إثنتى عشر الف جمل في أكثر الأحيان (١٣٤) ، وكان ذلك لعهد ابن خلدون في الفترة السابقة لقيام دولة سنغاي (١٣٥) ، وهي الفترة التي زاد فيها نشاط التجار المغاربة المستقرين في المراكز التجارية على أبواب السودان الغربي والتي بلغت المائه ، تنتشر من الغرب إلى الشرق في وسط واد منحدر (١٣٦) ، وكانت هذه المراكز التي أطلق عليها ابن خلدون (القصور) عامرة اهله بالتجار من سائر قبائل البربر ، وكذلك من قبائل العرب (١٣٧) .

* السلع المتبادلة [١٣٨] .

أرتبط النشاط التجارى الصحراوى بالذهب والملح والرقيق ، وقد ذكرت المصادر العربية أن الملوك كانوا يحتكرون الذهب ، فهو ملك للسلطان ، تجمعة الرعية ، ولايسمح لهم بأخذ شيء منه إلا بإشرافه [١٣٩] .

وكان التجار يجلبون السلع إلى تنبكت من فاس ومراكش فيبعونها بالذهب والرقيق [١٤٠] .

ومن الروايات التى ذكرت عن حملة القائد زرغون عام ١٠٠٣ هـ/ ١٥٩٤م حيث أخذ معه ٣٠ دابة محملة بالذهب والتى أخذها من تجار تنبكت ؛ وهذه الكمية تقدر بـ ١٠٠,٠٠٠ قطعة ذهبية والتى قدرت بـ ٤٢٥ كجم ومن خلال هذا يمكن القول انه كان يكفى ٥٠ جملا لنقل كل انتاج السودان الغربى سنويا [١٤١] .

وقد أدى ذلك إلى توافد التجار والعلماء الأجانب إلى السودان الغربى الذى برزت أهميته العالمية ، ظهرت الخريطة القطالونية التى اعدها ابراهيم كريسك الميورقى حوالى سنة ٧٧٧ هـ / ١٣٧٥ م [١٤٢] . وأصبحت معروفة فى أوربا بأنها مصدر للذهب ، وقد لفتت هذه الأهمية أنظار القوى الأوربية للمنطقة [١٤٣] .

ولقد كانت الصحراء المصدر الرئيسى للملح ،وأشهر المناطق التى ساهمت فى انتاجه ملاحات تغازه التى وصفها البكرى فى القرن الخامس الهجرى الحادى عشر الميلادى [١٤٤] ، وقد عرفت تغازه عند كتاب القرن السابع الهجرى ، الثالث عشر الميلادى ، فذكر ابن سعيد استخراج الملح منها والذهاب به الى السودان [١٤٥].

وكانت مدينة جاو عاصمة مملكة سنغاى من أهم المراكز للاتجار بالملح ، ومع أن هذه المدينة كانت محطة لاهم أنواع السلع التى تنقل اليها من الشمال الافريقى والبحر المتوسط إلا أن اغلى انواع السلع فيها هو الملح [١٤٦] .

وتوجد أسواق الرقيق التى تسمى بأسواق النخاسين فى سنغاى بكثرة وخاصة فى جاو ، ففى هذا الصدد يشير الوزان قائلا : " يباع فيها يوم السوق

عدد لا يحصره عدد من الرقيق من ذكور وإناث [١٤٧] " فتجارة الرقيق وتجارة الذهب تمثلان شريان الحياة للتجارة الصحراوية منذ العصور الوسطى .

فكان الذهب وسيلة للابداع فى طراز الفن المعمارى كما كان وسيلة للبحث عن ما ندر من السلع والبضائع التى تزين تلك القصور والبنايات الفاخرة ، ليساهم السودان بدوره فى تحقيق هذه الرغبة بوضع قائمة من البضاعة التى أصبحت تميز هذا الاقليم .

ومن أهم السلع التى تستحق الذكر العاج التى توفرت بكثرة والتى دخلت فى قائمة الأوانى المنزلية مثل اوانى الشرب او لتزيين الخيول [١٤٨] .

والتمر من السلع التى كانت ترد على السودان الغربى وخاصة مدينة جنى من الشمال الأفريقي . فقد كانت تصدر من ورجلان وسجلماسة وغدامس وايوالاتن [١٤٩] .

وكانت جاو سوقاً رائجاً لتجارة الخيول الأصيلة مع سروجها[١٥٠]، وهى مرتفعة الثمن والحصان يساوى فى مدينة جاو من أربعين إلى خمسن مثقالاً [١٥١].

وكان معظم لباس أهالى السودان الغربى من المنسوجات القطنية والصوفية والحريرية التى كان يأتى بها تجار المغرب الأقصى الى منطقة التكرور عبر أعمات، وكان القميص السوس الأخضر اللون يأتى به تجار المغرب من بلاد السوس ولايلبسه الإ الملوك نظراً لأنه غالى الثمن [١٥٢] .

وقد توصلت الحفريات فى كل من جاو وتنبكت وكومبى واودغشت ، وتادمكه وكاوكاو إلى العثور على بعض الاوانى الزجاجية كالكؤوس والمزهريات والمصابيح الزيتية والتى صنفت ضمن قائمة البضائع الهامة التى جلبها السودان الغربى من المغرب الاقصى [١٥٣] .

رابعاً : العائلات التجارية العربية ودورها فى ازدهار المحطات التجارية الصحراوية .

شكلت قبائل البرابيش [١٥٤] ثقلاً اقتصادياً فى منطقة السودان الغربى ، بأن سيطرت على طرق القوافل الذاهبة والقادمة من المغرب ، فكانت تأخذ الغفر [١٥٥] على كل وارد من تجار غدامس وتوات وتجا كنت وأولاد بالسبع ، وأهل سجلماسة ، وكانت القافلة تصل إلى اثنتى عشر الف جمل فى فصل الصيف ، محملة بالبضائع من ملح وتمر ، وغيره .

وتخرج من السودان محملة بالصمغ والعاج والريش والذهب والرقيق كلها تأخذ عليها البرابيش الغفر الذى كانت قيمته سبع مثاقيل وثلث من الذهب على كل جمل . ويأخذ عن التجار الواردين عليه من شنقيط ضريبة الإبل التى يأتون بها ، بقصد البيع فى أروان ومن جاورها [١٥٦].

ومن هذا يتضح ثقل قبائل البرابيش فى منطقة السودان الغربى ودورها فى انعاش التجارة الصحراوية .

ومن أشهر الشركات التجارية التى ساهمت فى حلقة الاتصال بين المغرب الأقصى والسودان الغربى إخوان المقرى [١٥٧] ، اذ كان المركز الرئيسى لهذا البيت التجارى الكبير فى سجلماسة المحطة التى تبدأ منها القوافل . وقد اقام اثنان منها فى تلسمان وواحد فى سجلماسة وأثنان آخران فى السودان الغربى [١٥٨] . فكان الذى فى تلمسان يرسل للذى فى الصحراء بما يشير عليه من البضائع ، وكان الذى فى الصحراء يرسل اليه بالجلود والعاج وجوز الكولا والتبر اما الذى فى سجلماسة ، فكان يخبرهم وكأنه مؤشر الميزان بهبوط الأسعار أو ارتفاعها ، ويكتب لهم عن وضع التجار وأحداث البلاد وهكذا تضاعفت أموالهم وعظم شأنهم . وكان الأخوة المقرى يشكلون شركة حقيقية فى تلمسان . تملك فرعا لها فى سجلماسة وأخر بولاته . وكانت للشركة شبكة تمدها بالمعلومات وأعوان

يقومون بالاتصالات ، نظموا العمل فى شكل منظومة محكمة ، ووضعوا أنفسهم تحت حماية ملوك مالى ، ونجحوا فى انشاء شبكة تجارية ممتدة الأطراف (١٥٩) .

لقد ساهمت هذه الشركة فى احتواء شبكة التجارة الصحراوية بعدما استوعبت اثمان المنتجات التى ترد من المغرب إلى بلاد السودان ، واتخاذ قرار بشأن الأصناف المطوبة والاثمان التى يمكن أن تباع بها . وقد علا اخوان المقرى بدراسة جدوى تجارية نحو التوغل فى بلاد السودان الغربى ، ووصلوا عام ٧٥٣ / ١٣٥٢م إلى العاصمة مندنجو ، حيث لم يواجه أية متاعب لأن البيت التجارى التابع لهم كان معروفا جيدا، كما كان لهم وكيل فيها(١٦٠) .

أما الجالية التجارية العربية فى مالى فكانت تجمع بين أفرادها رابطة وثيقة ولها تنظيمها الخاص بها ، وفى عهد سليمان كان رئيس الجالية العربية فى مالى هو محمد بن الفقية الجزولى ، وهو مراكشى تزوج بانبة عم منسى سليمان . وكان من بين أعضائها البارزين الأخرين عبدالوكيل المقرى المتزوج بابنة محمد بن الفقية ؛ وشمس الدين بن النقويش المصرى (١٦١) .

كما أن ملفانتى عام ٨٥١ هـ / ١٤٤٧ م أفاض كثيرا فى شرح أهمية التجارة الشرقية، وإن تبين له أن تجار غدامس ومراكش يسيطرون على التجارة . كذلك لم تكن التجارة من حيث قيمتها مما يستهان به ؛ ويذكر ابن حوقل أنه وجد فى حوزة تاجر من أودغشت صكا قيمته أربعون ألف دينار حصل عليه من تاجر فى سجلماسة وكان مضيف ملفانتى فى توات يمتلك ثروة شخصية مقدارها مائة الف دينار ، وكان اخوة المقيم فى تنبكت أكبر تاجر هناك (١٦٢) .

وهكذا يتضح أن تجارة السودان الغربى ذات طابع منظم ، حققت من ورائه ثروة اقتصادية واسعة ، وكانت الأرباح تتدفق على خزائن أمراء التجارة فى توات وغدامس وسجلماسة ، ومنها يمولون تجارتهم .

الخـاتمــة

يتضح مما سبق ذكره عدد من الحقائق التالية حول نظم التجارة الصحراوية بين المغرب الأقصى والسودان الغربى :

اولاً : نشطت حركة التبادل التجارى بين المغرب الأقصى والسودان الغربى من خلال منظومة اقتصادية صحراوية ، عبر حركة من القوافل التجارية ؛ واشتهرت محطات للتسويق فى ظل اسرات تتوارث التوكيلات التجارية لكى تبرز من خلالها شركات ذات منظومة على أعلى مستوى من الدقة ودراسة الجدوى .

نقلوا من خلالها سلعاً جديدة إلى الأسواق المحلية فى السودان الغربى فزادت حركة البيع والشراء : وأصبحت بعض المدن مثل جنى وجاو وتنبكت من أشهر أسواق العالم الإسلامى آنذاك فكان يباع فيها أغلى وأنفس البضائع المجلوبة من المغرب الأقصى وأوربا ، كما اشتهرت سلعها فى كل أسواق العالم وزاد الأقبال على شرائها ، وبناء على ذلك كان تجار المغرب الأقصى هم أول من تعلم منهم أهل السودان الغربى أصول البيع والشراء النقدى .

ثانياً : شكلت قبائل البرابيش ثقلاً اقتصادياً فى منطقة السودان الغربى بأن سيطرت على طرق القوافل بين المغرب الأقصى والسودان الغربى ، كما زاد فى هذا التنظيم التجارى المنظم أسرة المقرى .

ثالثاً : اوضحت الدراسة دبلوماسية كبار التجار عبر التجارة الصحراوية فى عقد المعاهدات مع البدو الرحل من أجل حماية القافلة ، من هذه القبائل مسوفه ، ولمته ، ولمتونة ، وجزولة .

رابعاً : أن الأهمية الاقتصدية التى حققتها سجلماسة فى المجال التجارى بعد أن تمكنت من ذهب السودان الغربى دفعها إلى عدم الدخول فى التعصب المذهبى وربما دفع تعدد التجار بها وثرائهم وكذا الأنشغال فى أمور البيع

والشراء إلى التأقلم بشكل سريع مع كل الأنظمة التى عرفتها واسترجاع نشاطها التجارى كلما عرفت خراباً .

خامساً : كان عدد العرب والبربر الذين استقروا بفضل التجارة عبر الصحراء فى ولاته ونيانى وتنبكت وجاو وغيرها كبيراً ، وكان معظم تلك المدن يشتمل على حى للعرب . وقد عقدت فيها الزيجات ، منشئة بذلك صلات رحم ، يحلو للنسابين السودانيين تفصيلها .

سادساً : برزت أهمية الذهب خلال فترة نهاية العصر الوسيط بعد رحلة منسى موسى سلطان التكرور فى ظهور الخرائط القطالونية التى وضعها إبراهام كرسك عام ١٣٧٥ م تضمنت الخريطة تحديد عدد من المدن والمناطق الهامة مثل سجلماسة وبسكره وتوات وتفازه وجاو وتنبكت ومالى ، وكانت خريطة ١٤٥٩ فراماورو وهى الخريطة السرية التى استخدمها الأمير هنرى الملاح فى عمليات الكشوف البرتغالية حول أفريقية حيث كان العمل من أجل اكتشاف أرض الذهب واحتواء التجارة الصحراوية فى عولمة العصر الوسيط .

هوامش البحث

١. كان على التجار القادمين من المغرب الأقصى لسجلماسة إذا أرادوا التوجه شرقا إلى ورجلان أن يسلكوا طريقا فى الصحراء حتى يصلوا إليها . ثم ينطلقون بها إلى القيروان ثم يقطعون خمسين مرحلة إلى تادمكة ومنها إلى غانة . وهو طريق أهل أغمات وسجلماسة ودرعة ونول لمطه ، وقال الادريسى فى ذلك " هكذا يسافر التجار الراغبون فى أسواق السودان أنظر : نزهة المشتاق فى اختراق الأفاق ، دار الثقافة. بدون ص ١٨ ، ١٠٥ ، ١٠٧، البكرى : المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب بغداد ١٩٥٧م ، ١٨٢ ؛ مجهول : الاستبصار فى عجائب الأمصار ، تحقيق سعد زغلول عبدالحميد ، مطبوعات كلية الآداب ، الإسكندرية ١٩٥٨ ، ص ٢٢٤ " المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، ط ليدن ١٩٩٠ ، ص ٣٤٦ ، . Abdalla Alarow the History of the Maghrib, Princetom, New jersey, P.58. ، الورجلانى : السير وأخبار الأئمة ، تحقيق اسماعيل العربى ، ديوان المطبوعات ١٩٨٤ ، ص ١٦٥،١٦٦ .

٢. ابن منظور : لسان العرب ، المجلد الثالث ، دار الجيل ودراسات العرب ،١٩٨٨ ، ص ٤١١ .

٣. الصحراء فى " دائرة المعارف " للبستانى ، جـ١٠ ، ص٦٩٩ ؛ الصحراء فى الموسوعة العربية العالمية ، جـ١٥ ، ط ٢ ، بيروت ١٩٩٤ ، ص٥٦ إسماعيل العربى : الصحراء الكبرى وشواطئها ، ١٩٨٣ ، ص١٥ .

٤ ذكر ابن سعيد المغربى فى كتابه الجغرافيا أن هذه الرياح التى تهب من غانه إلى سجلماسة تجفف المياه وهى فى قرب المسافرين انظر : ابن سعيد المغربى: كتاب الجغرافيا ؛ تحقيق إسماعيل العربى ، ط ٢ ، الجزائر ديوان المطبوعات الجامعية ١٩٨٢ ، ص١١٣

٥ انظر : بوفيل : تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير ، ط٢ ، ترجمة د. الهادى أبو لقمة . ود. محمد عزيز ، بنغازى منشورات جامعة قار يونس ١٩٨٨ ، ص ٢٩

6. Lewickl (T.) : Le role du sahara et des sahariens dans les relations entre le Nord et le sud, in "Histoire Generale de l'Afrique. L'Afrique du VII^e au XI^e Siecle" Unesco, 1990, P303 .

٧. تحكمت صنهاجة فى حركة التجارة بين الشمال والجنوب عبر الصحراء الكبرى بحاضرتهم أودغشت (قبائل نفوسه ، ولواته وزناته ونفزاوه انظر : البكرى : المغرب ، ص١٥٨ ، روجيه ادريس : الدولة الصنهاجيه ، ترجمة حماد الساحلى دار المغرب الإسلامى ، بيروت ١٩٩٢ جـ٢ ص٢٩١ .

Lewickl (T) : Etudes Maghrebines et Soudanaises, varsovie, ed scientifques de pologne P.43 .

8. Jolly (J) . Histoire du Cointinent Africain, T. 1 , de la prehistoire a 1600 l'Harmattan, 1996, P107 – 127.

٩. انظر: الأدريسى : المصدر السابق ، ص٢٣

10.CF Le thieux (J) Ouargla cite saharienne – des origines au debut du XX^e siecle, librairie orientaliste paul Geuthner, SA, 1984, PP 47,84.
Marcais (G) :L' Urbanisme Musufman in, Melanges d'Histoire et d'Archeologie de l'occident musulman, T. I. Alger, 1957. P226.

11.CF Mauny (R) Tableau geographique de l'Ouest Africain au moyen ege- d'apres les sources ecrites. la Tradition et l'archeologie. Memoires IF AN. No 61 Dakar. 1961 P394

محمد زنيبر : تجارة القوافل فى المغرب ؛ فى " تجارة القوافل ودورها الحضارى حتى نهاية القرن التاسع عشر " بغداد المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم معهد البحوث والدراسات العربية ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤ ، ص١٦٢ محمد عبدالعزيز محمود : الجمل العربى ، ط١ ، الإسكندرية ١٩٩٩ ، ص ٤١ – ٤٢ ؛ إسماعيل العربى : الصحراء الكبرى وشواطؤها ؛ الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ١٩٨٣ ص ٤٢ – ٤٥ ؛

Lombard (M),: Les Metaux dans l'ancien monde du V^{e} au XI^{e} siecle, paris etudes ceonomiques medievales, Mouton & C^{ie} , 1974 , PP 205 – 206 .

١٢. سورة الغاشية / الآية ١٧ .

١٣. سورة المؤمنون / الآية ٢٢ .

١٤. الأدريسى : نفس المصدر ، ص ١٠٧ .

15.Mauny (R) : Tableau geographique de l'Ouest africain, P 401.

١٦. إسماعيل العربى : الصحراء الكبرى وشواطؤها ، ١٦ ،

17.Gaudio (A) : Les civilisations du sahara , P. 1970

18.Lombard (M). Op . cit P223 .

19.CF : Mauny (R), : Tableau geographique , P. 401 .

٢٠. التكشيف : اسم يطلق على كل رجل من مسوفه ، يكتريه أهل القافلة على حد قول ابن بطوطه للقيام بتسهيل الرحلة للقافلة وتحضير وسائل الراحة لها فى المحطات التى ينزلون بها. انظر : ابن بطوطه (أبو عبدالله محمد الطنجى): تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، جـ١ ، المكتبة التجارية الكبرى ، ص ص ١٩٢ ، ١٩٣ .

21.CF : Devisse (J): Sidjilmasa, : in "L'histoire du Sahara et des relations transsahariennes, 1989, P. 127 .

٢٢. انظر : الأدريسى : نزهة المشتاق ص ٢٤٠ ، مجهول : الاستبصار ص ١٨٥ ، عبدالرحمن عبدالمجيد : النقل والمواصلات وأثرها فى تنمية مثلث حلايب ، أعمال ندوة مثلث حلايب ، معهد الدراسات الأفريقية ، جامعة القاهرة ١٩٨٧ ، ص ٤٢٢ ، ٤٩٠ ، ٤٩٩ .

23. انظر : Lombard (M): Op. Cit, P225 .

٢٤. محمد زينبر : تجارة القوافل فى المغرب ، ص ١٨٢ .

٢٥. العيفه شنايت : دولة بنى مدرار سجلماسة ودور تجارة القوافل فى ازدهارها الحضارى : رسالة ماجستير جامعة الجزائر ١٩٩٠ / ١٩٩١ ، ص ١٤٦ .

٢٦. الأدريسى : مصدر سابق ، ص ١٠٨ .

٢٧. سمير عرابى : علوم الفلك والرياضيات والجغرافيا عند العرب والمسلمين ، ط ١ ، دار الكتاب الحديث ، ١٩٩٩ ، ص ٧ ؛ كارلونلينو : علم الفلك – تاريخه عند العرب فى القرون الوسطى " روما ١٩١١ ، ص ١٠٧ .

28.Mauny (R), : Tableu geographique, P. 403.

٢٩. العمرى : مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، مخطوط بدير الدومنيكان ، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية ، برقم ١× – ٨٠٦ ، ١٩٨٨ ، السفر الثالث ، ص ٤٧ .

٣٠. تحدث المسعودى عن التجارة الصامته بقوله : " والتجار الواصلون بالأمتعة إلى غانه يسيرون إليها فإذا وصلوا إلى ذلك الخط جعلوا الأمتعة والأكسية عليه فيأتون أصحاب الأمتعة فإن أرضاهم ذلك أخذوه وإلا رجعوا ويعود فيزيدهم حتى تتم المبايعة كما يفعل التجار الذين يتباعون القرنفل من أهله ، وربما رجع التجار بعد زوالهم عنهم فيضعوا النيران على الأرض فيسيل الذهب فيشترون ظاهرا على الأرض انظر : المسعودى : أخبار الزمان ، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية ، رقم ١٥ ، ورقة ٥٠ – ٥١، بوفيل : تجارة الذهب ، ص ١٥٠.

٣١. مجمول : الاستبصار ، ص ٢١٥ ؛ حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام فى أفريقيا الغربية ، ص ٧٥ ؛

32.Lombard (M): Les metaux dans l'ancien monde , P. 223 .

٣٣. انظر لمزيد من التفصيل .

Devisse (J) : Route de Commerce et echanges en Afrique occidentale en relation avec la Mediterranee in "Revue d'Histoire economique et sociate" n 01 et 03 un essai sur le commerce medieval du X1 " au Xvi" siecle paris centre National de la Recherche scientifique marcel riviere 8 cie 1972 . " P 53 .. انظر الخريطة شكل رقم (٦)

٣٤. حسين مؤنس : تاريخ المغرب وحضارته ، المجلد الأول . جـ ١ ، العصر الحديث للنشر والتوزيع ، ط ١ ، ١٩٩٢ ،ص ٣٦١ .

٣٥. البكرى المصدر السابق ، ص ١٤٨ – ١٦٣

M EUNIE (J) : Le Maroc saharien des Origines au xvle siecle, librairie klincksiek 1982, P 219 .

٣٦. موسى بن أحمد السعدى : زهور البساتين فى تاريخ السوادين ؛ (مخطوط ، ليبيا) الهادى المبروك الدالى ، ورقة ٣٠ ؛ البكرى : مصدر سابق . ص ٨٤٦ ، الاستبصار ، مصدر سابق ، ص ٢١٣ .

٣٧. عبله سلطان : العناصر المغربية فى السودان الغربى ودورها السياسى والحضارى منذ ظهور المرابطين حتى نهاية دولة صنغى : رسالة دكتوارة معهد البحوث والدراسات الأفريقية جامعة القاهرة ١٩٩٩ ، ص ٨٩ .

٣٨. الأدريسى : المصدر السابق ، ص ١٣٢ ، الهادى المبروك الدالى : التاريخ السياسى والاقتصادى لأفريقيا فيما وراء الصحراء ، الدار المصرية ١٩٩٩ ، ص ٣١٣ ، ٣١٥ .

39. H . Hurray : Historical. Account of Discoveries and Travel in Africa 2 nd ed Edenburgh 1818, vol – 1 , P 37 .

٤٠. البكرى : مصدر سابق ، ص ١٦٤ ، ابن بطوطه : الرحلة ، بيروت ، دون تاريخ ، ص ٢٠٦ – ٢٠٨ ، اليعقوبى : كتاب البلدان ، ملحق بكتاب ابن رسته الاعلاق النفيسه ، ليدن ١٨٩١ م ، ص ١٠٩ .

٤١. البكرى : مصدر سابق ، ص ١٦٤ ، إبراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ، الدار البيضاء ، دار الرشد الحديثة ١٩٨٤ ، جـ ٢ ، ص ٢٠ .

٤٢. الهادى المبروك الدالى : مرجع سابق ، ص ٣١٤ .

٤٣. محمد عبدالفتاح إبراهيم : أفريقيا من السنغال إلى نهر جوبا ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦١ ، ص ٧٢ .

٤٤. اليعقوبى : المصدر السابق ، ص ١٠٩ .

٤٥. ابن خردانبة : المسالك والممالك ، ليدن ، ١٩٧٦ ، ص ١١ ، إبراهيم حركات : دور الصحراء الأفريقية فى التبادل والتسويق خلال العصر الوسيط مجلة البحوث التاريخية ، مركز جهاد الليبين للدراسات التاريخية ، س ٣ – يناير ١٩٨١ م ، ص ٣٠ .

٤٦. مارمول : مرجع سابق ، جـ ٣ ، ص ١٧٩ .

٤٧. الادريسى : المصدر السابق ، ص ص ٣ – ٤ .

٤٨. البكرى : المصدر السابق ، ١٤٩ – ١٥٩ ؛ ابن حوقل : المصدر السابق ، ص ٩١

٤٩. البكرى : المصدر السابق ، ص ١٦٣ – ١٦٤ ، ابن خردانبة : المصدر السابق ، ص ١٠ ، ابن بطوطه : الرحلة ، ص ٦٥٩ .

٥٠. البكرى : المصدر السابق ، ص ١٧١ .

٥١. القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد ، بيروت بدون ، ص ٢٥ ـ ٢٦ ، ابن سعيد : مصدر سابق ، ص ٤٧ ؛ ابن بطوطه : الرحلة ، ص ٦٧٤ .
٥٢. ابن بطوطه مصدر سابق ، ص ٦٧٤ ـ ٦٧٦ .
٥٣. انظر : عبله سلطان : مرجع سابق ، ص ٩٣ .
٥٤. الحسن الوزان : وصف أفريقيا ، ترجمة محمد صبحي ومحمد الاخضر ، بيروت : الرباط ١٩٨٣ ، جـ ١ ص ٧٥ ـ ٧٦ .
٥٥. نفسه ، ص ٧٥ .
٥٦. مجهول : غرر المسائل اسئلة علماء جازولة مخطوط ، الخزانة العامة بالرباط ، رقم ٧٢٥ ، الهادى المبروك الدالى مرجع سابق ، ص ٣١٧ .
٥٧. الهادى المبروك الدالى : مرجع سابق ، ص ٣١٨ ؛ الامين عوض الله : تجارة القوافل بين المغرب والسودان الغربى وآثارها الحضارية حتى القرن السادس عشر فى " تجارة القوافل ودورها الحضارى حتى نهاية القرن التاسع عشر ، بغداد إصدار المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٨٤ ، ص ٧٦ .
58.Marcais (G) : Melange d'histoire (58) d'archeologie de l'occident musulman t . I . Alger 1957 , p. 54 .
٥٩. موريس لومبارد : الجغرافيه التاريخية للعالم الإسلامى ، ص ١٨٢ .
٦٠. نفسه ، ص ١٨٢ .
٦١. البكرى : المصدر السابق ، ص ١٤٩ .
٦٢. ياقوت الحموى: معجم البلدان ، تحقيق فريد الجندى، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٠ ، ٣٠٥ ، وانظر ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ٤٢ .
٦٣. المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، بيروت ١٩٨٧ ، ص ١٨٤ .
٦٤. ياقوت الحموى : المصدر السابق ، ص ١٩٢ .
٦٥. الحميرى : الروض المعطار فى خبر الأقطار ، تحقيق د / إحسان عباس ، ط ٢ ، لبنان ١٩٨٤ ، ص ٣٠٦ .
٦٦. البكرى : المصدر السابق ، ص ١٤٩ .
67.Meunie (JD) : Le Maroc saharien P. 235 , Lombard (M): les Metaux dans l'ancien monde , PP. 227 – 228 .
68.Benslimane (JH) : Sidjilmasa, du mythe a la realite . Archeologie, in Histoire du sahera et ses relations, p. 26 .
69.Devisse (J) : Sidjllmasa, les sources ecrites, l'archeologie, le controle des espaces in "Histoire du sahara et ses relations", pp 19 – 20 .
٧٠. حمدو الشأن الفاسى، يبعث برسالة تجارية إلى وكيله فى السودانى الغربى اشريف حامد ، مخطوط مركز الشيخ المختار الكنتى ، دون تصنيف ، ورقة ١ ، تاريخها ١١٠٦ هـ/ نص الرسالة " اللحمد لله وكل وستتاب من يضع اسمه عقب تاريخه أشرف حامد على ماله بذمه اشريف سميه وصيبى أحد وعشرون مثقالا ذهب ، وعدد له ملح وأربعة حجر عدد ، أمانة وعلى غيره أشريف عيسى أحد عشر مثقالا توكل مفوض أقمه مقام نفسه ، وبداء من وعلى القرار ونكار وعلى القبض وإقرار وإبطال بتاريخ أواخر شهر الله المعظم رمضان عام ستة ومائه وألف عبيد ربه حمدو (بياض) حمد الشأن الفاسى كان الله له أمين " مكتبة الهادى المبروك الدالى ـ طرابلس ليبيا دون تصنيف .
٧١. أحمد بن محمد أحمد بن عبدالعزيز الحسن بن يوسف : الأنوار الحسينيه فى نسب من بسجلماسة من الأشراف المحمدية ، دون تصنيف ١١٠٠ هـ ، ورقة ٥٢ .

٧٢. عندما غادر بربر صنهاجه جنوب المغرب ، حوالى القرن ٣ ق م ، وهم رعاة رحل ، كانوا يتشكلون من عدة قبائل تشمل لمتونه جدالة لمته ومسوفة ، فانتشروا فى عدة مناطق جنوب موريطانيا الحالية ، واستقروا فى أزوكى فى أدرار شمال غرب عاتر ، واودغشت التى ظهرت بالقرب من ولاته شرق تاجنت .
Delafosse (M): Histoire de l'Afrique occidentale francaise, P. 71 , حسن إبراهيم حسن ، مرجع سابق ، ص ٢١٥
٧٣. البكرى : المصدر السابق ، ص ١٥٧ .
74. CF : Lewick (T) : Le Role du sahara, P. 306 .
٧٥. البكرى : المصدر السابق ص ١٥٩ .
EL-Fassi (M) Histoire generale de l'Afrique T.3 L'Afrique VII^e au XI^e siecle, P. 287 .
٧٦. يصفها الحميرى بقوله ، فكانت لها مبان حسنة رفيعه وأهلها اخلاط من جميع الأمصار استوطنوها لكثرة خيرها ونفاق اسواقها وتجارتها ، ويؤكد أيضا الحموى ، بها أسواق جليلة وهى مصر من الأمصار جليل والسفر إليها متصل من كل بلد " الحميرى : المصدر السابق ، ص ٦٤ ؛ الحموى : المصدر السابق ، ص ٢٧٨ .
٧٧. ابن حوقل : المصدر السابق ص ٩٦ .
٧٨. انظر : مجهول : تاريخ باغرام ، دار معمر القذافى لجمع التراث العربى الأفريقى ، عربية دون تصنيف ، ورقة ١٦٢ ، ابن بطوطه : تحفة النظار ، ٦٦٠٥ .
٧٩. انظر : كرم الصاوى باز : الصراع بين العرش والعلماء فى سنغاى فى الفترة من (٨٦٩ – ٨٩٩ هـ / ١٤٦٤ – ١٤٩٣ م) مجلة الدراسات الأفريقية ، جامعة القاهرة ، العدد ٢٢ ، عام ٢٠٠٠م ، ص ٦٥ – ١١٠ ؛ سكن ولاته التجار المغاربة من ورجلان وفزان وغدامس وتوات ودرعه وتفيلالت وفاس وبيط والسوس انظر : السعدى : تاريخ السودان ، نشر هوداس ، باريس ١٨٩٨ ، ص ٢١ .
٨٠. تتفق جل المصادر التاريخية على أن تنبكت قد تم بناؤها فى أواخر القرن الخامس الهجرى والحادى عشر الميلادى من قبل قبائل طوارق ايمغراش . إحدى قبائل الملثمين انظر الحسن الوزان : مصدر سابق ، ص ٥٣٩ ، محمد سواليه : تمبكتو جوهرة تغمرها الرمال ، بيروت ١٩٨٦ ، ص ٣٨ ، سليم زبال : انقذوا تمبكتو، مجلة العربى، الكويت السنة ٢١ ، العدد ٢٤٢ ، ١٩٧٩ ص ٧٠ ؛ جميلة محمد التكتيك : مملكة سنغاى الإسلامية فى عهد الأسكيا محمد الكبير(١٤٩٣ – ١٥٢٨ م) منشورات مركز جهاد الليبين للدراسات التاريخية ، رقم ٢٦ ١٩٩٨ ، ص ١٢٠ ، ١٢١ ، انظر القوافل التجارية بملحق البحث شكل رقم (١) .
٨١. جاء موقع تنبكت على بعد أربعة فراسخ (١٦ كم) فقط من مجرى نهر النيجر ، مما جعلها أقرب المراكز التجارية التى أسسها طوارق مغشرن فى قلب السودان الغربى الحسن بن الوزان : وصف أفريقيا ، ص ٢١٠ ؛ مارمول : أفريقيا ، جـ ٣ ، ص ٢٠١ ؛ الأمين عوض الله : العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربى ، ص ١٣٦ ، ١٣٧ .
٨٢. انظر : أحمد بلعراف التكنى : أهمية التاريخ مخطوط ، ورقة ٢٠ ، مكتبة الهادى المبروك الدالى – طرابلس – ليبيا – دون تصنيف .
٨٣. انظر : مارمول : جـ ٣ ، ص ٢٠٢ ؛ السعدى : تاريخ السودان ، ص ٧ .
٨٤. أحمد بابير الأروانى : السعادة الأبدية ، مخطوط ورقة ١٣ ؛ مكتبة الهادى المبروك الدالى – طرابلس ليبيا دون تصنيف .
٨٥. الحسن الوزان : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص١٦٥ ، ١٦٦ ،عبدالهادى الدالى: مرجع سابق ص ٣٠٨ .
٨٦. عبلة سلطان : مرجع سابق ، ص ٩٣ .

٨٧ ابن بطوطه : المصدر السابق ، ص ١١ ؛ زهران رياض : التجارة البرية عبر الصحراء الكبرى خلال العصر الوسيط ، مجلة العلوم الاجتماعية ، الكويت ١٩٩٣ ، ص ٩٦ .
٨٨. الوزان : المصدر السابق ، ص ٥٤٠ .
٨٩ الوزان : المصدر السابق ، ص ٥٤٠
٩٠. نفسه ، ص ٥٤١ .
٩١. نفسه ، ص ٥٤٣ – ٥٤٤ ؛ جميله التكتيك : مرجع سابق ، ص ١٢٣ ؛ الهادى المبروك الدالى : مرجع سابق ص ٣٠٩ .
٩٢. الوزان : مصدر سابق ٥٤٤ .
٩٣. الوزان : نفس المصدر ، ص ٥٤٣ ، ٥٤٤ ؛ مارمول : أفريقيا ، جـ٣ ، ص ٢٠٤ .
٩٤. الوزان : مصدر سابق ، ص ٥٣٧ ؛ عبدالقادر زباديه : الحضارة العربية والتأثير الأوربى ، الجزائر ١٩٨٩ ، ص ٢٧ – ٤٠ ؛ عوض الله : مرجع سابق ، ص ١٣٩ ؛ محمد على ، دبور : تاريخ المغرب الكبير ، القاهرة ١٩٦٣ ، جـ٣ ، ص ٣٦٤ .
٩٥. تقع جنى على مسيرة مائتى ميل إلى الجنوب الغربى من تنبكت ، ومائة ميل إلى الشمال الشرقى من سيجو سكورو ، وهى على خط عرض ٣٥ – ٣١ شمالاً وخط طول ٩ شرقى جرينتش ، دائرة المعارف الإسلامية . مادة جنى ، مج ٥ ؛ ص ١٤٥ .
٩٦. بيط : أحد المدن الواقعة فى الصحراء عند مدخل السودان الغربى .
٩٧. السعدى : المصدر السابق ، ص ١١ ؛ د. باولوفرناندو ؛ دى موريايس قارياس : نظام تجارة تادمكة وجاو كاوكاو وكوكيا ؛ مجلة البحوث التاريخية ليبيا ١٩٨١ ، ص ٣٩ – ٥٩ .
٩٨. الحسن بن الوزان : وصف أفريقيا ، ص ٥٣٧ ؛ عبله سلطان : مرجع سابق، ص ٩٥ ؛ جميله التكتيك : مرجع سابق ، ص ١٢٤ ، ١٢٥ .
٩٩. العمرى : مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، تحقيق وتعليق مصطفى أبو ضيف أحمد ، الدار البيضاء ، مطبعة النجاح الجديدة ١٩٨٨ ، صص ٧٤ ، ٧٥ ؛ القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الانشا ؛ القاهرة ، بدون ، جـ٥، ص ٢٩١ ؛ ابن بطوطه : الرحلة ، ص ٦٩٧ ، عبلة سلطان : مرجع سابق ، ص ٩٦ .
100. Barth Henri, : Voyages et Decouvertes dans L Afrique septentrionae et central , Vol 1 , paris 1860 , P.232 .
101. Hunwick (J.I) : Songhay, Borno and Hausa land in sixteen century History of Africa et Ajoyi, JEA. Vol / Great Britain 1976, P 27 .
١٠٢. انظر : موسى بن أحمد السعدى زهور البساتين ، مخطوط ، ورقة ٣٢٠ ؛ الهادى المبروك الدالى : مرجع سابق ، ص ٣١٢ .
١٠٣. كانت تعاملات التجار المغاربة مع مدن السودان الغربى بتبادل العملات الذهبية ، انظر : يوسف بن الحكيم : الدوحة المشتبكة فى ضوابط دار السكة ، جـ١ ، تحقيق حسين مؤنس ، نشر نعهد الدراسات الإسلامية مدريد ١٩٦٠ ، ص ٤٩ .
١٠٤. القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٥ ، ص ١٧٧ .
١٠٥. اشتهرت الدنانير الورجلانية قبل القرن ٨ هـ / ١٤ م وذكرت فى كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار ، ص ٢٢٤ .
١٠٦ انظر لمزيد من التفصيل :
الوزان : وصف أفريقيا ، ص ٣٥٧ ؛ أحمد الياس حسين : سلع التجارة الصحراوية ، طرابلس ، مركز جهاد الليبين للدراسات التاريخية ١٩٧٩ ، ص ٢٠٤ ؛ زبادية : مملكة سنغاى فى عهد الأسقيين ١٤٩٣ – ١٥٩١م ، الجزائر ، د . ت ، ص ٢٠٠ ؛ جميلة التكتيك : مرجع سابق ، ص ١٤٤ ، ١٤٥ .
١٠٧. انظر: المسعودى : أخبار الزمان ، مخطوط ، ص ٣٨ ، ٣٩ ؛

Lombard (M) : "les metaiux precieux dans l'ancien monde, du V^e au XI^e siecle" paris etudeseconomiques medievales, Mouton et cie, 1974, P 223; Mauny (R): Op cit, pp 300 – 301 Gaudio (A): Op cit, p 202 .
مروان عطوان : أزمات الذهب في العلاقات الدولية ، الجزائر ، عين مليلة ، د. ت ، ص ١٢٠

١٠٨. انظر : الوزان : وصف أفريقيا ، ص ٥٤٤ ابن بطوطه : تحفة النظار ، ص ٦٥٨ .

١٠٩. الأدريسي : نزهة المشتاق ، ٢٨ ؛ لقد كانت لسنغاى مقاييس ومكاييل وموازين ثابتة ومتعارف عليها وضع ضوابطها الاسكيا محمد الكبير ، حيث أصبح لها نظام سليم ؛ وقد استعملت في البداية في المغرب الأقصى حتى يقتضى التجار آثار التجارة المشروعة وفرضت مراقبة الأسواق والتجارة مما لفتت انظار المؤرخين والتجار السودانيين وسفرائهم فنقلوها لحكوماتهم انظر : مجهول : الاستبصار ، ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، عرفت دنانير تادمكه بالصلع لأنها غير مختومة ؛ مجهول : الاستبصار ، ص ٢٣ . وفي تنبكت ذكر الحسن بن الوزان أن الناس يتداولون العملات غير المسكوكة انظر وصف أفريقيا ص ٥٤١ .

١١٠. الحسن بن الوزان : وصف أفريقيا ، ص ٥٤١ ؛
Mauny (R): Tableau geographique p. 377
وانظر كذلك محمود الأرواني : الترجمان في تاريخ الصحراء وأروان ، مخطوط مكتبة الهادى المبروك الدالى ، طرابلس ليبيا ، ورقة ٩٤ .

١١١. ابن بطوطه ، ص ٦٥٨ ومن قبله ذكر صاحب الاستبصار عن تجار أودغشت أن تجارتهم أما هي بالتبر وليس عندهم فضة ، ص ٢١٥ .

١١٢. انظر : ابن بطوطه : تحفة النظار ، ص ٦٥٨ ؛ في عهد منسى موسى ملك مالى بلغ سعر مثقال النحاس مثقالا ونصفا من الذهب ، وأما في عهد خليفته منسى سليمان فقد أصبح سعر أربعمائة قضيب من النحاس مثقالا واحداً أنظر: العمرى : مسالك الأبصار ، السفر الثالث ، جـ٤ ، ورقة ٤٧ ؛ القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٥ ، ص ٢٩١ ؛ ابن بطوطة : تحفة النظار ، ص ٦٧٩ .

١١٣. الحسن بن الوزان : وصف أفريقيا ، ص ٥٣٧؛ مجهول : حديقة البستان على تواريخ أهل أروان مخطوط : مكتبة الهادى المبروك الدالى طرابلس ليبيا ورقة ٢٤ .

١١٤. محمود كعت : تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس ، باريس ، نشر هوداس وبنوه ١٩٦٤، ص ١٢٢ ؛ عبدالرحمن السعدى : المصدر السابق ، ص ٣١٢ ؛ الشيخ الأمين عوض الله : المرجع السابق ، ص ١٤٩؛ في التكرور . انظر : العمرى : مسالك الأبصار ، السفر الثالث ، جـ٤ ، ص ٤٤ .

١١٥. انظر البكرى : المغرب ، ص ١٧٢ ؛ مجهول : الاستبصار ، ص ٢١٧ .

١١٦. سوف نتعرض لهذه الشركات التجارية التى نظمت التجارة الصحراوية في المبحث الرابع .

١١٧. المقرى : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب جـ٥ ، تحقيق احسان عباس ، دار صادر بيروت ١٩٦٨ ، ص ٢٠٥ .

118. Cisse (DA), : Histoire economique de l'ouest Africain Noire-economies et societes medievales de l'Afrique Noire subsaharienne de 622 a 1794 , T 111 le moyen age paris l'Harmattan 1988 , P. 17 .

١١٩. الأمين عوض الله : العلاقات بين المغرب والسودان الغربى ، ص ٧٢ ، عبلة سلطان : مرجع سابق ص ١٠١ .

١٢٠. الإفرانى : نزهة الهادى بأخبار ملوك القرن الحادى عشر ، الجزء الأول ، تصحيح هوداس ، مطبعة انجى باريس ١٨٨٨م ، ص ١٢٥ ، ١٥٧ ؛ الصيرفى : نزهة النفوس

والابـدان ، تحقـيق محمـد حبـيش، دار الكتـب القاهـرة ١٩٧٠ ، جـ٣ ، ص ٢٣ ؛ محمـد الغربي : بداية الحكم المغربي في السودان الغربي بغداد ١٩٨٢ ، ص ٤٣٤ .

١٢١. المثقال كان يزن حوالي ثمن أوقية من الذهب حسبما ذكر السعدى انظر : السعدى : تاريخ السودان .

١٢٢. محمود كعت : الفتاش ، ص ١٨٣ .

١٢٣. الحسن بن الوزان : وصف أفريقيا ، ص ٥٤١ .

١٢٤. السعدى : تاريخ السودان ، ص ٣١٤

١٢٥. محمـود كعـت : الفتاش ، ص ١٨٣ ، ت . نـياني : العلاقـات بيـن مخـتلف المـناطق ، المبادلات بين المناطق ، اليونسكو ، المجلد الرابع ، ١٩٨٨ ، ص ٦١٨ ، ٦١٩ .

١٢٦. اشار الحسن بن الوزان في معرض حديثه عن مركز تنبكت التجارى عن هؤلاء التجار الأثرياء قال " اصبح السكان واسعى الثراء ولا سيما الذين انتقلوا للإقامة في البلاد " انظر وصف أفريقيا ، ص ٥٤٠ .

١٢٧. البكرى : المغرب ، ص ١٧٤ ، ١٧٦ ؛ فقي غانة " كان ملكها يفرض على كل حمار يحمل الملح دينارا من الذهب في حالة دخوله البلد أو دينارين عند خروجه ، وكان يأخذ على حمل النحاس خمسة مثاقيل أو على حمل المتاع عشرة مثاقيل " .

يسـاوى المـثقال حوالـى ثمـن أوقـية مـن الذهـب وزنـا انظـر : السـعدى : تـاريخ السـودان ، ص ٧ ؛ والأونسـة الرومانى من الذهب (٢٨,٢٥٦) جم يعادل ستة وثلاثين من دنانير السـودانيين وعلـى هذا يزن المـثقال السودانى ٤,٢٣٨ جرام . الحسن من الوزن : وصـف أفريقيا ، ص ٥٤١ .

١٢٨. مارمول : أفريقيا ، جـ ٣ ، ص ٥٤١ .

١٢٩. العمرى : مسالك الابصـار ، السفر الثالث ، جـ٤ ، ص ٤٧ ، ٤٨ .

١٣٠. محمد عبدالكريم المغيلى : أسئلة الاسكيا وأجوبه المغيلى ، تحقيق عبدالقادر زبادية ، الجزائر ١٩٧٤ ، ص ٤٧ .

١٣١. الفشتالى : مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفاء ، تحقيق عبدالكريم ، المغرب ١٩٧٧ ، ص ١٩٧ ، عـبدالكريم كـريم : المغـرب فـي عهـد الدولـة السـعدية ، المغـرب ، ١٩٧٧ ، ص ١٧٣ .

١٣٢. الفشتالى : مناهل الصفا ، ص ٢٥٣ ، ٢٥٤ .

١٣٣. التقى ابن بطوطـة بالـتجار المغاربـة فـي رحلـته التـي بدأها فـي ١٤ مـن جمـادى الأول سنة ٧٥٣ هـ / ١٣٥٢ وانتهت في محرم من ٧٥٤ هـ / ١٣٥٣ م ، كانوا يقيمون في مدن مـالي بمـا يفيد كثرتهم ، ولقد رافقه البعض منهم في اكثر تنقلاته بين مدن مالي . انظر : ابن بطوطة : تحفة النظار ، ص ٦٦٠ – ٦٧٨ .

١٣٤. ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٦٧٠ .

١٣٥. ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، بيروت ١٩٨٣ ، جـ ٧ ، ص ١١٨ ، ١١٩.

١٣٦. علـى حمـلاوى : قصـور مديـنة جـبل عمـور – مـن القـرن العاشـر إلـى الثالـث عشـر الهجرى ١٦ – ١٩ م " دراسة تاريخية وأثرية ، بحث لنيل شهادة دكتوراه الدولة ، جامعة الجزائر ، كلية العلوم الإنسانية قسم الآثار ، ص ٣٧ .

Le thillex (J) : Ouargla – cite saharienne des origins au XX[eme] siecle" Seprint a Cergy, 1984, P 35 ; Romey (A) : Histoire – Memoire et societe – exemple de N' Goussa : oasis berberophone du sahara, l' Harmattan, Awal, paris Alger 1992 , P 22 .

١٣٧. على حملاوى : نفس المرجع ، ص ٣٠ ؛ ابن خلدون : جـ٧ ، ص ١١٨ ، ١١٩ .

١٣٨. يذكر هوبكنز : أن تلك السلع التي كان يتم الاتجار فيها يمكن تقسيمها إلى فئتين برغم أنه ليس من اليسير رسم الخط الفاصل بينهما : أولهما – صادرات الدولة الضرورية من الذهب والرقيق ، الذى كانوا يرسلونه إلى الشمال ووارداتها الهامة أو الودع والملح والأسلحة التي كانت ترحل إلى الجنوب ثانيهما – السلع والأصناف الترفيهية مثل الأقمشة الغالية الثمن والعاج والفلفل ، وجوزة الكولا والمصنوعات الجلدية ، والمنسوجات العالمية الجودة ، لا سيما تلك الملونة بأصباغ ليست متوفرة محليا ، والأغذية المحفوظة والأواني انظر : أ. ج هو بكنز : التاريخ الاقتصادى لأفريقية الغربية ، ترجمة أحمد فؤاد بليغ ، نشر المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٨ ، ص ١٦١ – ١٦٢ .

١٣٩. العمرى : المصدر السابق ، ص ص ٧٤ – ٧٥ ؛ القلقشندى : صبح الأعشى، جـ٥ ، ص ٢٩٠ ، لمزيد من التفاصيل انظر : أحمد الشكرى : مملكة غانة وعلاقتها بالحركة المرابطية ، منشورات معهد الدراسات الأفريقية ١٩٩٧ ، ص ٢٨ ، ٢٩ انظر البلاط الملكى فى غانة القديمة شكل رقم (٢) .

١٤٠ أحمد بلعراف : أهمية التاريخ ، محفوظ ، ورقة ١٩ ، ويورد محمد محمد المفتى (مرحبا) بأن الحركة التجارية فى منطقة السودان الغربى سنة ١١١٠ هـ/ ١٦٨٩ م كانت نشطة ومحكمة ، وهناك رسالتان تدل على نشاط حركة تجارة الذهب فى عام ١١٠٦ هـ - ١٦٩٤م / ١١٢٦ هـ - ١٧١٤ م انظر : الحاج محمد مرحبا : التاريخ الخاص بالتواتر مخطوط مكتبة الهادى المبروك الدالى / طرابلس ليبيا ، ورقة ١١٠ انظر مناطق الذهب شكل رقم (٥) .

141. انظر Mauny (R): Tableau geographique P. 377.

١٤٢. الطيبى : الحضارة العربية الإسلامية وأثرها الإيجابى فى السودان الغربى فى القرون الوسطى ، دراسات وبحوث فى تاريخ المغرب والأندلس ؛ ليبيا ١٩٨٤، ص ٣١٢ ؛ محمد عبدالعال أحمد : منسا موسى سلطان التكرور ورحلة حجه الشهيرة؛ جامعة القاهرة ١٩٨٧ ، ص ٥٥ انظر الخريطة شكل رقم (٣) .

١٤٣. جميلة التكتيك : مرجع سابق ، ص ١٣٣ ، ١٣٤

١٤٤. مجهول : خبر السوق ، مكتبة الهادى المبروك الدالى ليبيا – طرابلس ، ورقة ١٠ – ١١ ؛ مجهول ملح السلطان ، مخطوط : مكتبة الهادى المبروك الدالى دون تصنيف ؛ البكرى : المصدر السابق ص ١٧١ ؛ ابن بطوطة : المصدر السابق ، ص ١٤١ انظر الواح الملح شكل رقم (٤).

١٤٥. ابن سعيد : بسط الأرض ، المصدر السابق ، ص ٤٧ ؛ القزوينى : آثار البلاد وأخبار العباد ، بيروت ، دت . ص ٢٦ ؛ حسين أحمد الباى : سلع التجارة الصحراوية – الصحراء الكبرى ، ليبيا ١٩٧٩ ، ص ٢٠٦ .

١٤٦. الحسن الوزان : المصدر السابق ، ص ٥٥٤ ؛ مجهول : صالح الغدامسى والمختار بن أحمد ، يبعث برسالة تجارية إلى سيد الوافى ، مخطوط مكتبة الهادى المبروك الدالى ، ليبيا طرابلس ، دون تصنيف ، ورقة ١ .

١٤٧. الوزان : المصدر السابق ، ص ٥٤٤ ؛ العيفه شنايت : مرجع سابق ، ص ١٥٦ .

١٤٨. محمود كعت : المصدر السابق ، ص ١٤٩ ؛ عبدالقادر زبادية : مملكة سنغاى ، المرجع السابق ، ص ٢٢٥ ، ٢٢٦ ،

Law R.C.C : The Gamanties and traus Saharan Enter prise in Ciasical times JAH Vol 8 (No 2 1967) P 169

١٤٩. محمود الأروانى : الترجمان فى تاريخ الصحراء والسودان ، مخطوط بمكتبة الهادى المبروك الدالى ليبيا – طرابلس ، ورقة ٩٤

١٥٠. الحسن الوزان ، المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ١٧٠ ؛ محمود كعت : المصدر السابق ، ص ١٧٥ .
١٥١. الهادى المبروك الدالى : مرجع سابق ، ص ٣٣٣ .
١٥٢. الهادى بن الشيخ الإمام اسحاق يبعث برسالة تجارية إلى سيدى أحمد زروق ، مركز أحمد بابا التنبكتى ، رقم ٧٥٧٦ ، ورقة واحد ، مارمول : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٢٠٤ ، ٢٠٥
١٥٣. انظر : د . باولوفرناندودى مورايس فار ياس : مرجع سابق ، ص ٣٩ – ٥٩ ؛ جان دفيس : التجارة والطرق التجارية فى غرب أفريقيا ، المجلد الثالث ، ص ٤٦٠ ، ٤٦١ .
١٥٤. يطلق أهل تنبكت على كل شخص يميل إلى السمرة بربوشى ونسبهم اورده صاحب الترجمان أنهم ينتسبون إلى بنى حسان وهم من ضمن الهجرة الهلالية إلى الشمالى الأفريقى.
انظر : محمود الأروانى : الترجمان مخطوط ، ورقة ٩٤ ، بول مارتى : البرابيش بنو حسان ، عربه وعلق عليه محمد محمود ولد واداى ، دمشق ، مطبعة زيد بن ثابت ١٩٨٥ ، ط ١. انظر الملحق ؛ الهادى المبروك الدالى : تاريخ أفريقيا فيما وراء الصحراء، ص ٦٠ ، مجهول : تاريخ أزواد فى خير البرابيش ، مخطوط ورقة ١٠ – ١١ ؛ وبول مارتى : كنته الشرقيون ، تعريب محمد محمود ولد ودادى ، دمشق ، مطبعة زيد بن ثابت ١٩٨٥ ، ص ٢٢٦ ، اسماعيل إبراهيم المغربى ، وسيدى محمد بن أمهد رئيس البرابيش ، رسالة مشتركة على أحمد بابا بن أبى العباس التنبكتى ، مخطوط ، دار معمر القذافى لجمع التراث العربى الأفريقى ، دون تصنيف ، ورقة واحد .
١٥٥. ضريبة تؤدى عن كل رأس فى القافلة .
١٥٦. محمد محمد الأروانى : الترجمان ، مخطوط ، ورقة ٩٤ .
١٥٧. المقرى : نفح الطيب ، جـ٥ ، ص ٢٠٥ ؛ أمطير سعد غيث : التأثير العربى الإسلامى فى السودان الغربى ، رسالة ماجستير ، جامعة الفاتح ليبيا ، ١٩٩٤ ، ص ١١٣ .
١٥٨. مادهو بانيكار : الوثنيه والإسلام وتاريخ الامبراطوريات الزنجية فى غرب أفريقية . ترجمة أحمد فؤاد بلبع ، المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٨ ، ص ٣٩٢ . انظر الخريطة شكل رقم (٧) .
١٥٩. نباتى : العلاقات بين مختلف المناطق اليونسكو المجلد الرابع ، ١٩٨٨، ص ٦١٩.
١٦٠. ك . مادهو بانيكار : مرجع سابق ، ص ٣٩٢ .
١٦١. نفسه ، ص ٣٩٢ ؛ حسن حافظ علوى : علاقة المغرب الأقصى بمالى من خلال رحلة ابن بطوطة ، المناهل ٥٣١ ، ١٩٩٦ ، ص ١٢٩ .
١٦٢. ابن حوقل : مصدر سابق ، ص ٦٤ ، ١٤٣ ، عبدالعزيز الحلوى : الاحوال الاجتماعية لسكان الصحراء الكبرى والسودان الغربى من خلال بعض كتب الرحلات فى اعمال ندوة التواصل الثقافى والاجتماعى بين الأقطار الأفريقية على جانبى الصحراء كلية الدعوة الإسلامية ، طرابلس ١٩٩٩ ، ص ٤٥٣ .



الإتجاهان الآسيوى والأفريقى للتوسعات الصليبية، فى القرنين ١٢ و١٣م

أ.د. محمد مؤنس عوض
أستاذ التاريخ الوسيط والإسلامي
كلية الآداب- جامعة عين شمس

تتناول هذه الدراسة العلاقة التبادلية بين الإتجاهين الآسيوى والإفريقى على نحو كان له تأثيره الكبير على مسار تاريخ الصليبيين فى الشرق، بل وإخفاق الحركة الصليبية ذاتها مما أدى إلى طرد الصليبيين من الشام فى أخريات القرن الثالث عشر الميلادى.

والمطالع لتاريخ الصليبيين فى بلاد الشام على مدى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين يلاحظ وجود ظاهرة على جانب كبير من الأهمية فى صورة الإتجاهات الجغرافية السياسية لتحركاتهم وتوسعاتهم الإستعمارية. وبداية؛ من المقرر أن الصليبيات فى أحد مظاهرها تعد على المستوى القارى صراعا أوربيا- آسيويا؛ فمن غرب أوربا ظهرت الدعوة للحركة من خلال الجهد البارز للبابا أوربان الثانى[1](١٠٨٨- ١٠٩٩م) فى مجمع كليرمونت بجنوبى فرنسا، واستقر الغزاة فى غربى آسيا فى صورة الإمارات التى أقاموها فى الرها، وأنطاكية، وبيت المقدس، وطرابلس، وقد حدث ذلك على مدى نطاق زمنى ممتد من عام ١٠٩٨م إلى عام ١١١٨م على اعتبار أنه بوفاة الملك الصليبى المؤسس بلدوين الأولBaldwinI(١١٠٠-١١١٨م)، إكتمل دوره التأسيسى وتأكد لنا استقرار ذلك الكيان الصليبى وارتباطه الآسيوى الذى لا ينكر.

ومن الملاحظ ؛ أن المشروع الصليبى فى مرحلته الدعائية المبكرة ؛ نجده يركز على بيت المقدس الواقعة فى فلسطين فى غربى آسيا، وخير مثال دال على

ذلك نجده فى خطاب البابا أوربان الثانى فى مجمع كليرمونت السالف الذكر فى ٢٧ نوفمبر ١٠٩٥م حيث تباكى على المدينة المقدسة لسقوطها فى أيدى الأتراك السلاجقة، واتهمهم بارتكاب المذابح المزعومة، وطوال الأعوام من ١٠٩٨ إلى ١١١٨م تدعم الوجود الآسيوى للصليبيين؛ غير أن العام الأخير ونعنى به عام ١١١٨م شهد نقطة تحول فارقة ذات أهمية كبيرة فى تاريخ الكيان الصليبى فى الشرق ؛ ففى العام الأخير قام الملك الصليبى المذكور بحملته الشهيرة على مصر[٢]، وقد اختلف المؤرخون فى دوافعها وأهدافها، وإن كان من المرجح أنها كانت ذات طابع استكشافى، وتمكن الصليبيون من خلالها من الوصول إلى مصب فرع النيل فى دمياط[٣]، وتأكد لذلك الملك الوافر الأطماع والنشاط، كيف أن مصر الفاطمية على جانب من الثراء، وبالغة الضعف ؛ حيث لم تقابله مقاومة تذكر، ومن الممكن القول أن بلدوين الأول يعد الرائد الصليبى الأول للتوجهات الإفريقية، ومن الملاحظ أن الغزاة من قبل ذلك بنحو عقدين من الزمان فكروا فى الإتجاه إلى مصر والإستيلاء على الإسكندرية والقاهرة ليكون ذلك الإنجاز مفتاح الإستيلاء على بيت المقدس[٤]، وكان ذلك التصور من قبل اتجاههم نحو المدينة المقدسة والإستيلاء عليها عام ١٠٩٩م، غير أنهم لم يقدموا على ذلك الأمر نظرا لقلة إمكاناتهم حينذاك، وأولوية الإستيلاء على بيت المقدس، ليصبح بلدوين الأول من بعد، صاحب الريادة لدى الصليبيين فى الوجهة الأفريقية. وهكذا ندرك أن عام ١١١٨م؛ يمثل العام الحاسم فى الإنطلاق من البعد الآسيوى- حيث مقر الكيان الصليبى- إلى البعد الأفريقى الذى كان يعنى بدايات التوسع الخارجى المستقبلى، وتأمين وجود الغزاة فى غربى آسيا بالإتجاه صوب الجنوب الغربى فى شمال شرقى افريقيا.

وواقع الأمر؛ أن التوجه الأفريقى فى السياسة الصليبية التوسعية ارتبط بعدة اعتبارات، فهناك الإعتبار الخاص بوجود ملوك صليبيين أقوياء يتجهون صوب استكشاف إمكانيات التوسع الخارجى، ولا يكتفون بالحدود التى وصل إليها

الملوك الأوائل خاصة مع تزايد الخبرة السياسية الإستعمارية (أى الإستخرابية) للصليبيين، وإدراكهم الأعمق لقوى الصراع المحلية فى المنطقة، ومدى فعالياتها وضعفها، ثم هناك ضعف مصر وهى الجار الجنوبى للكيان الغازى الدخيل، وكذلك هناك الإعتبارات الإقتصادية فى صورة السيطرة على مصادر المياه،وكذلك طرق التجارة الدولية المارة بإفريقيا، خاصة التوابل والذهب والرقيق، فى عصر وصف بأنه عصر الثورة التجارية التى امتدت من ١١٠٠- ١٤٠٠م، وهكذا يظهر لنا على نحو جلى الدور التاريخى للملك الصليبى عمورى الأول Amaury I (١١٦٣- ١١٧٤م) الذى قام بعدة حملات على مصر ذات ثقل عسكرى وسياسى كبير غير مسبوق فى الصراع الصليبى- الإسلامى حتى ذلك الحين، ودخل فى تنافس محموم مع الملك نور الدين محمود[٥]، وإن أخفقت جهوده فى تحقيق أهدافه، وحسم الأمر فى ختام المطاف لمهندس حركة الجهاد الإسلامى فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى، ونعنى به؛ نور الدين محمود ومن بعده تلميذه المجاهد الكبير صلاح الدين الأيوبى.

ولا ريب؛ فى أن ما قام به الملك عمورى الأول يعد أكبر حشد عسكرى للتوجه الإفريقى فى تاريخ الصليبيين فى القرن الثانى عشر الميلادى، وجاء إخفاقه ليعكس أن آخر الملوك الصليبيين الكبار؛ عجز عن مد حدود السيادة السياسية الصليبية إلى ما وراء الحدود الفلسطينية المعروفة لمملكة بيت المقدس اللاتينية.

والجدير بالملاحظة؛ أن هناك ثلاث مناطق جغرافية إلتقت عندها الحدود الآسيوية- الإفريقية، وكان لها شأنها فى الصراع المرير بين الجانبين المتصارعين الصليبى والإسلامى، ونجد ذلك فى صورة نطاق من اليابس، ونطاقين بحريين، ونعنى بالأول شبه جزيرة سيناء ونقصد بالنطاقين المذكورين البحر المتوسط والبحر الأحمر، ومن الأهمية إلقاء الضوء بإيجاز على دور تلك

المناطق التى توصف بأنها مناطق إتصال من أجل إدراك طبيعة تاريخ الصليبيين التوسعى فى الإتجاهين الآسيوى والأفريقى؛ صعودا وهبوطا.

فبالنسبة لشبه جزيرة سيناء، وأهميتها حينذاك، من المهم هنا التقرير بأن تلك المنطقة مثلث نقطة إلتقاء الحدود الأسيوية والأفريقية والجسر الواصل بين المسطحين المائيين الكبيرين فى صورة البحر المتوسط، ثم البحر الأحمر، غير أن طبيعتها الصحراوية وطبيعة موقعها ذاته جعل تاريخها حينذاك هو فى حقيقته تاريخ منطقة العبور بين النطاقين الآسيوى والأفريقى، وبالتالى توصف أنها ممرلا مقر، مع ملاحظة أن الجزء الشمالى الساحلى منها المعروف بطريق حورس القديم، كان أقصر أجزائها حركة على المستوى التاريخى، كما أن الطبيعة الصحراوية لها لم تكن مشجعة على أى استقرار فيها، باستثناء وجود بدوى فى الجزء الشمالى منها.

وإذا كانت تلك طبيعة نطاق اليابس المذكور، فإن المسطحين المائيين المشار إليهما لعبا دورا على جانب كبير من الأهمية ضمن آليات الصراع حينذاك.

فمن الملاحظ أنه بالنسبة للبحر المتوسط ؛ نجد أن ذلك البحر على نحو خاص مثل أهمية بالغة للصليبيين من حيث أنه جسر الإتصال بالوطن الأم فى الغرب الأوربى، ومن المقرر أن تاريخ الصليبيين نفسه هو تاريخ تفاعلهم وتصارعهم مع عالم البحر المتوسط، فمن قبل كان تاريخ الإغريق، ثم الرومان، ومن بعدهم المسلمين، والآن جاء الدور على الغرب الأوربى كى يسيطر على شرق ذلك البحر من خلال الموقع الإستراتيجى والإقتصادى البالغ الحيوية لذلك النطاق، خاصة من خلال السيطرة على طرق التجارة القادمة من شرق ووسط آسيا. وينبغى هنا أن نلاحظ أن المشروع الصليبى ذاته مشروع "بحر متوسطى" إندلع من فرنسا الواقعة على الساحل الغربى منه إلى بلاد الشام فى شرقه، كذلك هناك دور المدن التجارية الإيطالية فى صورة جنوة، وبيزا، والبندقية، وجميعها

قامت بدور تجارى فعّال من أجل إنهاء دور المسلمين كوسطاء تجاريين، وتحويل العائد المادى الضخم إلى الوطن الأم فى الغرب الأوربى، وعلى صفحات أمواج ذلك البحر الخالد تدفقت السفن الأوربية المحملة بالفرسان، والحجاج، والتجار، من أجل المشاركة فى دعم الكيان الصليبى الدخيل. وجاء ذلك فى وقت انكسرت فيه شوكة المسلمين البحرية، ومن ثم فإن خطر جبهة البحر المتوسط كجبهة بحرية مدعمة للكيان الصليبى كان كبيرا على القوى الإسلامية ذاتها.

لقد مثل ذلك البحر قناة اتصال بين آسيا وأفريقيا، وحاول الصليبيون من خلال تلك الجبهة المتسعة، وعن طريق الدعم البحرى الكبير للمدن التجارية الإيطالية، وكذلك قوى الغرب الأوربى الأخرى مثل فرنسا وانجلترا- حاولوا الإستفادة من ذلك المسطح المائى فى مد نفوذهم الآسيوى إلى المجال الأفريقى، ومن ثم نجد أن جانبا من تاريخهم فى الصراع مع المسلمين يوصف بأنه تاريخ بحرى، ونجد ذلك واضحا فى الحملة التى شنها الملك الصليبى حنا دى برين فى المرحلة من ١٢١٨- ١٢٢٢م، وكذلك حملة الملك الفرنسى لويس التاسع على مصرعام ١٢٥٠م، ثم بعد ذلك على تونس ١٢٧٠م، وجميع تلك الحملات انطلقت فى النطاق البحر متوسطى، غير أنها باءت بالخسران المبين، على نحو أثبت بجلاء أن ذلك النطاق أخفق الصليبيون فى اتخاذه جسرا للإنطلاق لحل عقدة النطاق الآسيوى المحدود بضم مناطق من إفريقيا إلى أملاكهم. وبالتالى شارك مصير الجسر البرى الآخر فى صورة شبه جزيرة سيناء، وهنا نلاحظ أن الإنطلاق من البحر المتوسط لم يكن يعكس رؤية استراتيجية صائبة، كما أثبت لنا تاريخ الصليبيين وتوسعاتهم.وكان المدخل البرى المذكور أكثر أمنا وملاءمة فى العديد من المرات، دون أن يضمن ذلك للغزاة النجاح بطبيعة الحال.

أما النطاق البحرى الآخر ؛ فقد تمثل فى البحر الأحمر، والواقع أن ذلك البحر لم يحتل فى ذهن القيادات الصليبية ذات القدر من الإهتمام الذى مثله البحر

المتوسط، ولذلك يوصف بأنه أقل في الأهمية في سياساتهم باستثناء كونه المنفذ البحري لحدودهم الجنوبية عند إيلات (أم الرشراش) الواقعة في جنوبي صحراء النقب القاحلة، وعلى رأس خليج العقبة، على الرغم من مرور طريق التوابل القديم في ذلك البحر، وإن سيطر على تلك التجارة الفاطميون، ومن بعدهم الأيوبيون، ثم المماليك.

ومن الملفت للإنتباه أن تاريخ الصليبيين لا نجد فيه زاوية استغلال البحر الأحمر كنقطة ارتكاز بحرية للتوسع الأفريقي باستثناء حملة أرناط أمير الكرك عام ١١٨٢م، مع ملاحظة أنها أصلا كانت ذات وجهة آسيوية من خلال مهاجمة المحارم الإسلامية المقدسة في الحجاز لا سيما المدينة المنورة، أما الهجوم على مصر عند عيذاب؛ الواقعة على بعد حوالي ١٣كم شمال شرقي حلايب، فكان مجرد عمليات سلب، ونهب، وبعث الإضطراب في تلك المنطقة، وإرباك القيادة السياسية الأيوبية وإشعارها بضعف موقفها العسكري والسياسي في تلك المنطقة غير المسبوقة في العمليات الحربية الصليبية، وباستثناء ذلك؛ لا نجد البحر الأحمر يحتل مكانة بارزة في تاريخ الصراع الصليبي- الإسلامي، ومن الملاحظ أن القوى الإسلامية حرصت حينذاك على جعله بحيرة إسلامية مغلقة لا يصل إليها الغزاة، حماية للأماكن المقدسة الإسلامية في الحجاز، وسنجد الأمر يمتد حتى العثمانيين الذين كان من مفاخرهم إغلاق ذلك البحر في وجه المحاولات البرتغالية المستميتة من أجل مهاجمة أعز مقدسات المسلمين في مكة المكرمة والمدينة المنورة.

والواقع ؛ أنه على الرغم من أن البحر الأحمر كان من الممكن الإحتفاظ به "مغلقا" ؛ إلا أن تلك الصفة لم يكن من الممكن تحقيقها في البحر المتوسط، ولذلك إحتل الأول مكانة أقل ، ولا تقف أمام مكانة البحر المتوسط كنقطة إنطلاق إلى حل العقدة الإفريقية المزمنة للكيان الصليبي ؛ وهكذا ندرك أن شبه جزيرة سيناء والبحر المتوسط مثلا الجسرين المفضلين من أجل التوسع الصليبي صوب القارة

الأفريقية. وقد دل تاريخ الإخفاق الصليبي المتعدد على أن الأمر دخل في نطاق يوصف بما يشبه الإستغلاق نظرا لتعدد تجارب الصليبيين ولخفاقاتهم.

من زاوية أخرى ؛ لا نغفل أن أول وآخر الملوك الصليبيين المحليين الكبار، ونعني بذلك بلدوين الأول، وعموري الأول إتجها إلى الوجهة الأفريقية من خلال الجسر البرى السالف الذكر، بينما شغل الملوك الآخرون مثل بلدوين الثاني Baldwin II (١١١٨- ١١٣١م) وفولك أوف أنجو Fulk of Anjou (١١٣١- ١١٤٣م) وبلدوين الثالث Baldwin III (١١٤٣-١١٦٣م) شغلوا بقضاياهم الداخلية وترتيب أوراق البيت الصليبي من الداخل، على نحو يكشف لنا بجلاء أن البعد الأفريقي ارتبط لدى الصليبيين باكتمال ترتيب أوضاعهم في الغرب الآسيوي، فعندما أكمل بلدوين الأول- إلى حد كبير- التوسع في الساحل وأمّن حدود المملكة، وعمل على تشييد القلاع واستقدام المسيحيين الشرقيين للإستقرار في بيت المقدس؛ فكر في الوجهة الجديدة التي مثلت آخر أعماله الكبيرة على مستوى الواقع التاريخي، وعندما استطاع بلدوين الثالث في عام ١١٥٣م إسقاط عسقلان(٦)- مفتاح مصر- كان من الطبيعي أن يلجأ الملك الصليبي عموري الأول من بعد ذلك إلى إستغلال الأمر بالتوسع صوب افريقيا ممثلا بذلك الحلم الصليبي الكبير للخروج من النطاق الآسيوي، ولكن دون جدوى.

وفي حقيقة الأمر؛ أنه على الرغم من النجاحات العديدة التي حققها الصليبيون في البعد الآسيوي، وتكوين إمارات لهم- حتى مع سقوط الرها عام ١١٤٤م- ظلت تلك الكيانات الصليبية في أنطاكية، وطرابلس، وبيت المقدس، دون تأمين لحدودها، لا سيما من جهة الجنوب، وظل ذلك الكيان يعاني من مشكلات اقتصادية، وأمنية، وسياسية، لم يكن من الممكن له أن يعالجها دون التوجه الأفريقي، وأثبتت لنا الأيام أن استمرار الصليبيين بحدودهم الآسيوية دون تطوير، كان أشبه شيء بدخولهم مرحلة أسر لا يستطيعون الفكاك منها، ناهيك

عن عقدة المساحة الجغرافية المحدودة والصغيرة، بالمقارنة بالجيران المسلمين، ونصل إلى حقيقة واقعة وهى أن حلم الصليبيين بالوصول إلى بلاد الشام والسيطرة على الأماكن المسيحية المقدسة صار مع انقضاء الأعوام تلو الأخرى بلا حماية طالما لم يتم مد حدود ذلك الكيان الدخيل إلى أبعد من حدوده الآسيوية ذاتها.

ومن الملاحظ ؛ أن القرن التالى فى تاريخ الصليبيين فى بلاد الشام، ونعنى به القرن الثالث عشر الميلادى ؛ شهد محاولات كبرى للخروج من مأزق البعد الآسيوى، ولا نغفل هنا زاوية مهمة وهى أن الصليبية الثالثة، على الرغم من أن أحداثها جرت على أرض بلاد الشام إلا أنها أكدت للصليبيين – بعد طول صراع مرير- أن الطريق إلى بيت المقدس يبدأ من القاهرة. أو بعبارة أخرى أن حل قضايا الغرب الآسيوى الصليبى يرتبط ارتباطا وثيقا بالتوسع فى الوجهة الأفريقية، وهكذا كانت حملة حنا دى برين John de Birenne (١٢١٠-١٢٢٥م)(٧) التى باءت بالخسران المبين لا سيما بعد الصراع بين ذلك الملك الصليبى والمندوب البابوى بلاجيوس Plagius واستبسال الأيوبيين فى الدفاع عن أرض الكنانة، وجاء إخفاق الصليبية الخامسة ليقدم لنا دليلا جديدا على إخفاق الغزاة فى الخروج من الأسر الآسيوى، وظلت بالتالى "العقدة الجغرافية والتاريخية" لتاريخ الصليبيين فى الشرق قائمة دونما أية تغييرات، على الرغم من الدعم الغرب أوروبى غير المحدود، ومراحل الضعف لدى المسلمين بين الحين والآخر، والتى اعطت للغزاة أحيانا فرصا ذهبية عملوا على استغلالها لصالحهم دون جدوى تاريخية حقيقية.

ومن زاوية أخرى ؛ من الملاحظ أن الملك الفرنسى لويس التاسع Louis IX (١٢١٤-١٢٧٠م) إتجه هو الآخر إلى البعد الأفريقى من خلال حملته الشهيرة على مصر ؛ التى باءت بالفشل المبين عام ١٢٥٠م/ بفضل الدور الفعال للفرسان المماليك الذين نشوا فى أحضان الدولة الأيوبية، وتعد تلك الحملة لخر

الحملات الصليبية الكبرى فى القرن الثالث عشر الميلادى من خلال البعد لأفريقى. وأكدت استمرار العقدة الصليبية إلى مدى زمنى أبعد فى صورة منتصف القرن الثالث عشر الميلادى، وذلك على الرغم من الثقل السياسى للملك الفرنسى لويس التاسع، وإمكانيات الغرب الأوربى الكبيرة، وعلى رأس كل ذلك إمكانيات فرنسا، والدعم البابوى الغير محدود، وجاء ذلك الإخفاق ليمثل علاقة بارزة فى العجز عن مدّ الحدود الصليبية فيما وراء الحدود الفلسطينية.

والأمر المؤكد؛ أنه فى حالة نجاح الصليبيين فى الجبهة الأفريقية لتغير تاريخ المنطقة على نحو جذرى، فعندئذ كان بإمكانهم السيطرة على سهل النيل بإمكاناته الإقتصادية الكبيرة، ناهيك عن موانىء مصر على البحرين المتوسط والأحمر، والسيطرة على تجارة الكارم المارة عبر البحر الأحمر(٩)، وما كان يمكن أن يجنوه من وراء ذلك من أموال طائلة تدعم ميزانيتهم، ناهيك عن توفير الأمن نهائيا لكيانهم الشامى، غير أن ذلك كله لم يتحقق لهم، بل تأكد وجودهم الإنعزالى دون أن يتمكنوا من الخروج من "الشرنقة الغرب آسيوية" إلى ما هو أبعد، على الرغم من أن من حاول إخراجهم منها كان أكبر ملوك أوربا حينذاك.

وقد تأكد البعد الأفريقى للويس التاسع من خلال حملته على تونس عام ١٢٧٠م التى شهدت إخفاقا كاملا هى الأخرى، وتأكد لنا بالتالى أن ذلك الملك الفرنسى كان أكثر ملوك وربا إلحاحا على البعد الأفريقى، وأكثرهم إخفاقا فى ذلك المجال أيضا، وقد امتدت فعالياته الحربية فى المجال المذكور من مصر شرقا إلى تونس غربا.

وهكذا؛ إتضح لنا أن فرنسا التى تمكنت بنجاح من قيادة المشروع الصليبى ووضعت أقدامها على أرض بلاد الشام؛ إلا أنها لم تستطع أن تمد النفوذ الصليبى، وقد جاء ذلك النجاح السابق، والفشل التالى خلال حكم أسرة فرنسية واحدة هى أسرة آل كابيه التى تعدد ملوكها على مدى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين.

نخلص من الوضع السابق إلى عدة تصورات مهمة يمكن إجمالها فى الآتى:

أولا: أن تاريخ الصليبيين على مدى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين يعد تاريخا متأرجحا بين الإتجاهين الآسيوى والأفريقى، ولا يمكن الفصل بين الإتجاهين المذكورين إذ أن كلا منهما كان مكملا للآخر، وهكذا؛ فمن الخطأ البين التركيز على الكيان الصليبى ككيان آسيوى الطابع، دون إدراك أهمية وتأثير التوجهات الأفريقية لذلك الكيان الدخيل.

ثانيا: من المقرر؛ أن الصليبيين نجحوا آسيويا وفشلوا افريقيا، وهنا مكمن التناقض الحقيقى فى تاريخهم الممتد على مدى قرابة قرنين من الزمان، على الرغم من الدعم الأوربى الواسع النطاق ماديا وبشريا، وهذا الإخفاق هو بيت القصيد، ففى حالة نجاحهم فى الإتجاه المذكور لتغير تاريخهم بصورة كبيرة، غيرأن ذلك لم يحدث،ومثل ذلك الإخفاق نتج عن أخطائهم السياسية والعسكرية، والدور الفعال لحركة الجهاد الإسلامى ضد الصليبيين، والدولة النورية ومن بعدها الأيوبية، ثم أخيرا المماليك داوية الإسلام، وهكذا ؛ فلم يكن الأمر يرجع إلى عوامل داخلية صليبية فقط، بل أيضا لعوامل خارجية إسلامية أثرت على وقف توسع الحركة الصليبية خارج الحدود الآسيوية، ويلاحظ هنا أن كافة ظواهر الصليبيين التاريخية؛ وقفت وراءها عوامل فاعلة داخلية وخارجية بصفة عامة.

ثالثا: ليس من قبيل المصادفة؛ ملاحظة أن الملوك الكبار فى تاريخ الصليبيين هم الملوك الذين حاولوا صنع تاريخهم على الأرض الأفريقية- مع عدم إغفال دورهم فى الغرب الآسيوى بالطبع- وهكذا؛ نجد قائمة مكونة من بلدوين الأول، وعمورى الأول، وحنا دى برين، ولويس التاسع، وهكذا فإن البعد الأفريقى منح أولئك الملوك أهمية وجودهم فى تاريخ الصليبيين فى الشرق، على الرغم من إخفاقهم فى تحقيق ما تحرقت نفوسهم شوقا إليه، مع ملاحظة أن ملوك الإتجاه الأفريقى منهم من كان من الملوك الصليبيين المحليين فى بلاد الشام مثل

عموى الأول وحنا دى برين، ومنهم من ولد ونشأ فى الغرب الأوربى مثل بلدوين الأول ولويس التاسع، واتفق الطرفان على ذلك البعد الحيوى ونعنى به البعد الأفريقى.

رابعا: من الجلى البين ؛ أن البعد الأفريقى فى التوسعات الصليبية لم يكن توجها جغرافيا فحسب، بل مطامع اقتصادية، ومصالح سياسية، وأهداف استراتيجية، ولا يفهم إتجاه الصليبيين إلى البعدين المذكورين بدون إدراك الطبيعة الإستعمارية- أى الإستخرابية- للمشروع الصليبى بصفة عامة، على نحو يكشف لنا عن أن إخفاق الصليبيين فى الإتجاه الأفريقى- على نحو خاص- كان فى حقيقته إخفاقا فى محاولة فتح أسواق تجارية جديدة ونهب جديد لموارد ذلك النطاق الجغرافى، وفى إطالة عمر الوجود الصليبى خارج الحدود الآسيوية، فلا عجب والأمر كذلك؛ أننا نلاحظ أن ذلك كان من أهم العوامل التى أدت إلى إفشال المشروع الصليبى بأكمله فى الشرق، على نحو أدى فى النهاية إلى طرد الغزاة من بلاد الشام نهائيا عام ١٢٩١م.

خامسا: ليس فى الإمكان ؛ الفصل بين الإتجاهين الآسيوى ثم الأفريقى، والنبع الأصلى الذى كان من ورائهما فى صورة الغرب الأوربى؛ لقد نجح ذلك الغرب فى مد نفوذه خارج الحدود الأوربية إلى غربى آسيا، غير أن طموحاته التى لا تحد فى تكوين ما يشبه مملكة كبرى بحر متوسطية يدخل فيها الشمال الأفريقى بما فيه مصر وتونس، باءت بالخسران الكامل، وعاد الغرب الأوربى إلى عقر داره مرة أخرى، وهكذا؛ فإن عجز الصليبيين لم يكن يعنى عجزهم كقوة محلية فقط؛ بل عجز ذلك الغرب نفسه عن البقاء فى الشرق، والإستمرار بفعالية خارج حدوده الجغرافية الأصلية على الرغم من الإمكانات المادية والبشرية والدعم المعنوى الذى وضع تحت إمرة ملوك الشرق اللاتينى من أجل تحقيق أهداف الدوائر الكنسية والسياسية فى الغرب الأوربى على حساب القوى الإسلامية المحلية بطبيعة الحال.

سادسا: تأكد لنا أن هناك قوة محلية كانت وراء عجز الليبيين عن التوجه الإفريقي في صورة مصر؛ عملاقة الجغرافيا والتاريخ، التي كانت وبحق مقبرة للغزاة، ولا ينفصل ذلك عن دور شقيقاتها في بلاد الشام؛ إذ وقفت القوى الإسلامية هناك بجوارها، فيما يعرف "بالشمص" وهي الرابطة الجغرافية والتاريخية بين بلاد الشام ومصر.

ذلك عرض عن البعدين الآسيوي والإفريقي في التوسعات الصليبية.

الـهـوامـش

(١) عن البابا أوربان الثانى أنظر:

Fulcher of Chartres, pp. 62- 65

Munro, "The speech of pope Urban II at Clermont", A.H.R., Vol. II, 1905, pp. 231- 242

Kelly, Oxford dictionary of popes, Oxford 1996, pp. 159

The Oxford dictionary of Byzantium, prepared a Dambarton Oaks, Vol. III, Oxford 1991, p. 2143- 2144

محمد مؤنس عوض، الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب، ص ٦٢- ص ٧٠

(٢) عن ذلك أنظر:

Fulcher of Chartres, p. 221

William of Tyre, Vol. I, p. 515

(٣) سعيد عاشور، الحركة الصليبية ، ج١، ط. القاهرة ١٩٨٢م، ص ٣٣٥.

(٤) رايموندا جيل، تاريخ الفرنجة غزاة القدس، ت. حسين عطية، ط. الإسكندرية ١٩٩٠م، ص ٢٢٥- ٢٢٦

(٥) عن التنافس بين الطرفين أنظر:

ابن واصل، مفرج الكروب، ح١، تحتيق الشيال، ط. القاهرة ١٩٥٣م، ص ١٤٩، محمد مؤنس عوض، فى الصراع الإسلامى- الصليبى السياسة الخارجية للدولة النورية ٥٤١- ٥٦٩هـ/ ١١٤٦- ١١٧٤م، ط. القاهرة ١٩٨٨م، ص ٨٧- ١٠٠، تيسير بن موسى، نظرة عربية على غزوات الإفرنج من بداية الحروب الصليبية حتى وفاة نور الدين، ب- ت، ص ١٦٤- ١٦٩

(٦) عن سقوط عسقلان فى قبضة الصليبيين أنظر:

William of Tyre, Vol. II, pp. 184- 234

ابن الأثير، الباهر، ص ١٠٦، مصطفى عبد العزيز العسقلانى، عسقلان ودورها فى الصراع الإسلامى- الصليبى، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب- جامعة الإسكندرية عام ١٩٩٢م، حسن المسحال، عسقلان فى فترة الحروب الصليبية، ٤٩٢- ٦٩٠هـ/ ١٠٩٩- ١٢٩١م، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية الحكومية- غزة عام ١٩٩٩م، ص ١١٩

(٧) عن حملة حنا دى برين على مصر المعروفة بالصليبية الخامسة أنظر:

Oliver of Padenborn, The Capture of Damietta, Trans. by Cavignon, Philadelphia 1948

محمود سعيد عمران، الحملة الصليبية الخامسة، حملة حنا دى برين على مصر ١٢١٨- ١٢٢١م/ ٦١٥- ٦١٨هـ، ط. الإسكندرية ١٩٧٨م

(٨) عن حملة لويس التاسع على مصر وإخفاقها أنظر:

Jean de Joinville, The life of Saint Louis, in Chronicles of the Crusades, Trans. by Shaw, London 1976

حسن حبشى، الشرق الأوسط بين شقى الرحى، ط. القاهرة ١٩٤٩م، جوزيف نسيم يوسف، هزيمة لويس التاسع غلى ضفاف النيل، ط. القاهرة ب- ت، العدوان الصليبى على مصر، ط. الإسكندرية ١٩٦٧م محمد مصطفى زيادة، حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة، ط. القاهرة ١٩٦١م.

(٩) عن تجارة الكارم أنظر:

القلقشندى، صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء، ح٣، ط. القاهرة ب- ت، ص ٥٢٤، صبحى لبيب، "التجارة الكارمية فى تجارة مصر فى العصور الوسطى"، المجلة التاريخية المصرية، م (٤)، العدد (٢) عام ١٩٥٤م، ص ٥- ص ٥٣، عطية القوصى، "أضواء جديدة على تجارة الكارمية"، المجلة التاريخية المصرية، م (٢)، عام ١٩٧٥م، ص ١٧- ص ٣٣، الشاطر بصيلى، "الكارمية"، المجلة التاريخية المصرية، م (١٣)، عام ١٩٧٥م.

(١٠) عن حملة لويس التاسع على تونس أنظر:

المحور الثالث

دراسات فى التاريخ الحديث والمعاصر



التاريخ المعاصر

باستخدام المصادر والمناهج الحديثة

أ.د. رعوف عباس حامد
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
كلية الآداب – جامعة القاهرة

جاء اهتمام الجامعات المصرية بدراسة التاريخ المعاصر – في النصف الأول من الستينيات – متأخراً عنه في الغرب بما يزيد على ثلاثة عقود من الزمان. إذ بدأ الغرب يشق للدراسات التاريخية ميداناً جديداً للبحث هو ميدان التاريخ المعاصر، منذ أواخر العشرينات، بعد ما كشفت الحرب العالمية الأولى عن عالم جديد حافل بالتغيرات التي لم تشهدها أوربا من قبل. واستقر هذا الميدان الجديد للدراسة التاريخية استقراراً تاماً مع نهاية الحرب العالمية الثانية. ولعبت التغيرات الكبرى التي شهدها العالم فيما بين الحربين العالميتين، وسرعة إيقاع الحوادث التاريخية عندئذ، دوراً هاماً في اتجاه المؤرخين إلى دراسة التاريخ المعاصر. وجاءت التغيرات المتلاحقة التي وقعت في أعقاب الحرب العالمية الثانية لتزيد من الحاجة إلى تلك الدراسة، حيث برز الصراع بين المعسكرين الغربي والشرقي فيما عرف بالحرب الباردة، وبدأت تظهر مع تصفية الاستعمار مجموعة جديدة من الدول المستقلة حديثاً عرفت بالبلاد النامية أو بلاد العالم الثالث، راحت تصارع من أجل البقاء والتنمية في ظروف الحرب الباردة، وتعمل على بناء اقتصادها القومي وحماية استقلالها الوطني من خلال تكتلات دولية جديدة أبرزها كتلة عدم الانحياز. ولكن ذلك لم يحل دون اكتواء بلاد العالم الثالث ببعض نيران الحرب الباردة في الحروب المحلية التي وقفت الكتلتان من

ورائها كحرب كوريا وحرب فيتنام، ثم الصراعات الحدودية المترتبة على الإرث الاستعماري في آسيا وأفريقيا، وبروز قضايا سياسية هامة كالقضية الفلسطينية، والتفرقة العنصرية في أفريقيا، إلى غير ذلك من أحداث وقع بعضها وقوع الصواعق. وجاءت ثورة الاتصالات والمعلومات لتزيد من وقع الحوادث، ولتسرع من إيقاعها، ولتعمق من آثارها على الصعيدين الإقليمي والدولي، بما صحب ذلك من تعقد مشكلات التنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وتشابكها وتداعيها من اتساع المسرح الذى تدور عليه الأحداث.

وفي ضوء ذلك كله لم يعد بوسع المؤرخ أن يتجاهل ما يدور حوله حتى يطويه الماضي السحيق، بعدما أصبح "الماضي" قريباً نتيجة سرعة إيقاع الأحداث حتى أصبح الأمس القريب ماضياً. يمكن إخضاعه للدراسة التاريخية المنهجية في ضوء ما يتوفر من المصادر. فإذا كانت بعض الوثائق لا تزال محبوسة، هناك فيض زاخر من المصادر التي وفرها تطور أساليب الاتصال والإعلام. كالبيانات والتقارير الرسمية المعلنة، والكتب المطبوعة التي تحدد مواقف الفرقاء إزاء مختلف القضايا والأزمات. وهناك خارج الأرشيفات الرسمية مصادر تتعلق بالنشاط الاقتصادي والاجتماعي لا يدخل معظمها في نطاق السرية، مثل تقارير البينات الدولية، وتقارير البنوك وبورصات الأوراق المالية التي تقدم رصداً لحالة السوق وحركة رأس المال، ثم مناقشات المجالس النيابية وبيانات الحكومات، وغيرها من المصادر العديدة التي تجعل دراسة الماضي القريب ممكنة وميسورة، وأن كانت تتطلب من الباحث في التاريخ استخدام مصادر غير تقليدية، ومناهج وتقنيات جديدة.

وهكذا وجدنا – على سبيل المثال – ليدل هارت Lidel Hart ينشر عام ١٩٣٠ كتابه "تاريخ الحرب العالمية الأولى" قبل أن يجف مداد المعاهدات التي أنهت الحرب، وقبل أن تتضح آثارها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية

والسياسية، ويظل كتابه مرجعاً هاماً، فأعيد طبعه مرتين في عام ١٩٣٤ ثم في عام ١٩٧٠، بل سبقه بعامين سيدني فاي SidneyB.Fay عندما نشر عام ١٩٢٨ كتابه عن "أصول الحرب العالمية" في جزئين، وأعيد طبعه أربع مرات كانت آخرها عام ١٩٦٦.

وبذلك تآكلت وصايا المدرسة التاريخية الألمانية التي ظلت تحظى بنفوذ واسع حتى نهاية القرن التاسع عشر، وربما حتى قيام الحرب العالمية الأولى، فلم تعد الوثيقة وحدها هي مصدر المادة التاريخية، بل أحد مصادرها، وخضعت – كغيرها من المصادر – للنقد بمختلف جوانبه، ولم يعد الباحث في التاريخ المعاصر يقلق كثيراً لندرتها أو حتى غيبتها، بل أصبح قادراً على بناء الاستدلال التاريخي مستعيناً بالعديد من المصادر الأخرى المتاحة. واستجابات الحكومات لطبيعة العصر وسنة التطور، إدراكاً لأهمية الدراسات التاريخية وتقديرا لنبضها، فأنقصت المدى الزمني لحجب الوثائق عن الباحثين من الخمسين إلى الثلاثين عاماً عند البعض، وإلى الخمسة وعشرين عاماً عند البعض الآخر، بل حرصت بعض الدول الكبرى على طبع مختارات من وثائقها التي يحين موعد الكشف عنها في مجلدات تيسيراً للباحثين مثل مجموعة "العلاقات الخارجية للولايات المتحدة الأمريكية" Foreign Relation of the U.S.A مع إبقاء بعض الوثائق التي يؤثر الإطلاع عليها على مصالح الدولة المعنية وسياساتها طي الكتمان، محجوبة من الباحثين مثلما فعلت بريطانيا مع بعض وثائق عام ١٩٤٨ الخاصة بفلسطين – على سبيل المثال - وكذلك فعلت الشئ نفسه مع التقارير الخاصة بالشخصيات السياسية في البلاد التي خضعت لسيطرتها؛ لاعتبارات سياسية وإنسانية.

ونحو منتصف الخمسينات – تقريباً – بدأ مجال التاريخ المعاصر يزداد اقترابا من الواقع الراهن، ليظهر ميدان بحث تاريخي جديد هو التاريخ الجاري

Current History وهو الذى يتناول حدثاً تاريخياً بعد انتهائه مباشرة كدراسة الأزمات الدولية الاقتصادية والسياسية والحروب والصراعات الإقليمية الحديثة ولم تجف بعد الدماء التى أريقت فيها، مثل حرب فيتنام والصراع العربى – الإسرائيلى وحرب الخليج. بل أصبح هناك من يرون أن ميدان عمل المؤرخ لا يعرف حدا زمنياً يقف عنده طالما كان له منهجه الخاص وأدواته الخاصة التى تميزه عن غيره من الباحثين كالاقتصاديين وعلماء الاجتماع وعلماء السياسة وغيرهم. وها هوذا بول كنيدى Paul Kennedy ينشر عام ١٩٨٨ كتابه الذى أثار جدلاً كبيراً بين الباحثين بعنوان "قيام وسقوط القوى الكبرى، التغير الاقتصادى والصراع العسكرى من عام ١٥٠٠ حتى عام ٢٠٠٠"، معبراً عن اتجاه جديد يؤمن بتواصل التاريخ وبقدرة المؤرخ على استشراف المستقبل من خلال الدراسة التحليلية للماضى والحاضر فيقدم سيناريو لأحداث المستقبل، وهو ما يعرف بالتاريخ الاستطلاعى Para –History.

وهكذا بدأت دراسة التاريخ المعاصر – منذ نهايات العشرينات – فى الأوساط الأكاديمية الغربية، فى وقت كانت فيه الجامعة المصرية لا تزال تتمسك بمناهج المدرسة التاريخية الألمانية والمدرسة المثالية والمدرسة الوضعية، تمزج بينها بوعى أحياناً وبدون وعى فى أغلب الأحيان، ثم بدأ بعض المؤرخين المصريين فى الأخذ بالمدرسة المادية الماركسية مع مطلع الستينات بدرجات متفاوتة من الفهم والنجاح. وفى بداية الستينات – أيضا – بدأ بعض المؤرخين المصريين يتجرأون على التقليد الراسخ – عندئذ – فى الجامعات المصرية الذى كان يتمسك بحاجز الخمسين عاماً كمدى زمنى لا يجوز تخطيه لدراسة التاريخ وكأنه سور الصين العظيم، فتجاوزوا هذا الحاجز وبدأوا يعالجون التاريخ المعاصر، ويوجهون تلاميذهم نحو دراسته، وأبدت المجالس العلمية المختلفة (مجالس الأقسام ومجالس الكليات) قدراً من التسامح مع هذه "البدعة" الجديدة،

فتبنت تسجيل موضوعات لرسائل الماجستير ثم الدكتوراه في التاريخ المعاصر، بدأت تؤتي ثمارها قبيل نهاية الستينات.

ولما كان مفهوم "الحقبة المعاصرة" من تاريخ بلد ما يقصد به المرحلة القريبة من تاريخه التي تعيش في ذاكرة جيل أو جيلين من أبناء نفس المجتمع الذين كانوا شهود عيان على حوادثها، وربما شارك بعضهم في صنعها، فهي بذلك ليست مرحلة تاريخية منتهية، ولكنها مستمرة التكوين، لم تدر بها عجلة المجتمع دورة كاملة بعد، وهي لا تقتصر على التطور السياسي وحده، ولكنها تعنى بدراسة التغيرات التي يشهدها المجتمع في شتى المجالات، رصداً وتحليلاً، باعتبار المجتمع المسرح الذي تدور عليه أحداث التاريخ.

وعلى ضوء هذا المفهوم، اصطلح من تصدوا لدراسة التاريخ المعاصر في مصر أو غيرها من بلاد الوطن العربي على اعتبار الحرب العالمية الأولى حداً فاصلاً بين دراسة التاريخ الحديث والتاريخ المعاصر، لما شهدته المنطقة من تغيرات اجتماعية واقتصادية وسياسية ميزتها عن فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى. ورغم ذلك اختار بعض دارسي تاريخ مصر المعاصر عهد الاحتلال البريطاني بداية لدراستهم دون أن يقدموا تبريراً عنصرياً لهذا الاختيار سوى أن السيطرة البريطانية استمرت – بصورة أو بأخرى – حتى توقيع اتفاقية الجلاء عام ١٩٥٤، متناسين أن مسرح التاريخ (المجتمع) قد تغير كثيراً مع الحرب العالمية الأولى وليس قبلها.

على كل، أصبح التاريخ المعاصر ميداناً شرعياً للدراسة التاريخية عندما خصصت له مقررات بلوائح كليات الآداب وأقسام التاريخ المختلفة، وعندما أصبح متقبلاً كميدان من ميادين البحث في الدراسات العليا، ولكن لم يحسم المشتغلون بدراسته مشكلة المصادر بعد، ولم يتفقوا على منهج خاص لهذا الحقل من الدراسة التاريخية رغم انقضاء قرابة العقود الثلاثة على بداية تلك الدراسة

بمصر، ولازالت غالبية المشتغلين بدراسة التاريخ المعاصر تستخدم المنهج التقليدى وأدوات البحث العتيقة. وتهدف هذه الورقة إلى توجيه عناية المشتغلين بدراسة التاريخ المعاصر فى بلادنا إلى أهمية بعض المصادر غير التقليدية وما تقدمه للدراسة من آفاق جديدة، كما توجه الانتباه إلى بعض الجوانب المنهجية وأدوات وتقنيات البحث التى يجب استخدامها عند دراسة التاريخ المعاصر.

*****

ظلت الوثائق تمثل حجر الزاوية فى مصادر البحث فى تاريخ مصر والعرب المعاصر، ينشدها الباحثون فى الأرشيفات الأوربية عندما لا يجدونها فى دور الوثائق ببلادهم، إضافة إلى المذكرات السياسية المحدودة والدوريات. وأهملت المصادر الأخرى للمادة التاريخية التى أوجدتها ظروف العصر وثورة المعلومات والاتصالات. فلم يحاول باحث مصرى أو عربى – حتى الآن – استخدامها، رغم شيوعها بين الباحثين فى الغرب، ولعل ذلك يرجع إلى ترددنا المتوارث فى التجديد، وخشيتنا من طرق أبواب مصادر جديدة حتى يصبح شيوعها عند غيرنا لا جدال فيه، وعندما نأخذ بها يكون القوم قد سبقونا إلى مصادر جديدة، وكأننا نؤثر السلامة فى المحافظة على القديم والتقاعس عن الإمساك بزمام المبادرة.

ومن المصادر الجديدة التى حظيت باعتراف الباحثين ولم نأبه بها المصادر السمعية – البصرية التى جاءت ثمرة التطور العلمى الكبير فى مجال الإعلام المسموع والمرئى وفى مجال المعلومات، وذلك رغم ما لهذه المصادر من أهمية وخطورة؛ إذ إنها تنقل المؤرخ إلى قلب الحدث التاريخى وتجعله يعيشه وكأنه شاهد عيان معاصر للحدث. ومن هذه المصادر الأفلام الإخبارية السينمائية والتليفزيونية التى تسجل أحداثا هامة، وتوفر مادة حية لتلك الأحداث. وتضم المكتبات السمعية – البصرية فى الخارج أعدادا هائلة من تلك الأفلام، بل

أصبحت مكتبات الجامعات تضم أقساماً للمواد السمعية – البصرية. وفيما عدا مكتبة هيئة الإذاعة والتيفزيون، وهى مكتبة خاصة بالجهاز الفنى للهيئة، ليس لدينا هذا النوع من المكتبات، رغم أن "جريدة مصر الناطقة" السينمائية تعود إلى مطلع الخمسينات، وقد عثر منذ عامين على مجموعة منها ملقاة بين النفايات فى عرض الطريق العام ، تغطى الأحداث الكبرى التى شهدتها مصر فى الخمسينات والستينات، وهى مادة لا غنى عنها لدارس التاريخ المعاصر.

كذلك تقدم أشرطة التسجيل بمختلف أنواعها مادة غنية لدارس التاريخ المعاصر كالخطب السياسية والتصريحات الرسمية ووقائع الاجتماعات العامة، وخاصة أن أشرطة التسجيل أصبحت من أدوات العمل السياسى المعارض فى ظل الأنظمة السياسية التى تقوم على الاستبداد وكبت الحريات العامة. والدور الذى لعبه (الكاسيت) فى إشعال الثورة الإسلامية فى إيران خير نموذج لذلك، إذ استطاع الخومينى أن يعبئ الجماهير من منفاه من خلال خطاباته المسجلة على أشرطة الكاسيت.

ولما كانت المصادر السمعية – البصرية عرضة للتحريف والتزييف من خلال الاجتزاء الذى يشوه المحتوى أو يحرفه باستخدام المونتاج، فإن استخدام المؤرخ لها يتطلب معاملة فنية خاصة وأسلوباً خاصاً للتحقق من دقتها وملاءمتها، وهو دور تلعبه فى جامعات اليوم أقسام الوسائل السمعية – البصرية، بما فيها من فنيين متخصصين وأجهزة حديثة، تقدم العون للمؤرخ حتى يضمن سلامة تلك المصادر وإمكانية الاعتماد عليها. أما نقد مادتها وتحليل مضمونها فأمره متروك للمؤرخ يعمل فيه أدوات البحث الخاصة به.

ولا ريب أن المصادر السمعية – البصرية تضع المؤرخ فى مواجهة الحدث حال صناعته، وتجعله يقف وجهاً لوجه أمام صُنّاعه، يتفرس فى ملامحهم، ويزن شخصياتهم، ويحلل كلماتهم بالموازين المنهجية، وتتيح له فرصة ذهبية لمقارنة

المادة المكتوبة بالمادة المرئية والمسموعة وصولاً إلى الصورة التركيبية للحدث ودقة التحليل والتفسير.

وإلى جانب المصادر السمعية – البصرية، تقف الصحافة مصدراً بالغ القيمة لدارس التاريخ المعاصر، تزداد قيمته كلما نعم المجتمع بحرية الرأى وغابت عنه الرقابة والحجر على الرأى الآخر، وتقل قيمته إذا كان الأمر عكس ذلك، وإذا قام حكم شمولى يوجه الصحافة وجهة معينة. ورغم ذلك، تظل هناك قيمة لاستخدام هذا المصدر، وخاصة أن الصحف الآن تضم مواد متنوعة. فقد كنا نرجع إلى صحافة القرن الماضى ومطلع هذا القرن كمصدر للأخبار والبيانات الرسمية وخاصة تلك التى تصدر عن الأحزاب السياسية والشخصيات العامة، وكذلك مقالات الرأى التى يعبر أصحابها عن مواقفهم من القضايا المختلفة ، اجتماعية واقتصادية وسياسية وثقافية. ولكن الصحافة المعاصرة أصبحت تعنى بالعديد من القضايا المختلفة. تعرضها فى شكل تقارير أو تحقيقات أو مقابلات شخصية يُجريها الصحافيون مع بعض أهل الرأى أو الخبرة أو صناع القرار، أو تتخذ شكل ندوات تنظمها الصحف لعدد من الخبراء لمناقشة قضية بذاتها، كما تتضمن مادة الصحف ما تتلقاه من بريد القراء الذى يعرض لمشاكل فردية أو جماعية لها دلالات هامة لدراسة المجتمع والقيم الاجتماعية بقدر ما تعكس آراء الناس فى مختلف الشئون، وكذلك تتضمن مادة الصحافة مواد تسجيلية إعلانية عن بعض أوجه النشاط الاقتصادى والاجتماعى، إلى غير ذلك من مواد متنوعة تعبر عن إيقاع الحياة اليومية بشتى جوانبها، لاغنى عنها للباحث فى التاريخ المعاصر : فهى تقدم له صورة حية للواقع الاقتصادى والاجتماعى والثقافى، وتجعله على صلة مباشرة بالجماهير صانعة الأحداث وبالنخبة الاجتماعية والسياسية صانعة القرار، وتجعله يلمس مستوى معيشة الناس من خلال كتاباتهم ومن خلال تقارير الأحوال الاقتصادية. بل يستطيع الباحث أن يستفيد من

إعلانات الوفيات في دراسة علاقات القرابة وتشابك المصالح بين النخبة الاجتماعية أو السياسية، على نحو ما فعل باحث إسرائيلي عند دراسته لضباط الجيش المصري فاستفاد من إعلانات الوفيات بالصحف المصرية لدراسة الأصول الاجتماعية للضباط وعلاقات القرابة والمصاهرة التي تربط كبارهم بالنخب الاجتماعية.

وإلى جانب الصحافة اليومية والأسبوعية العامة، هناك دوريات متخصصة في المسائل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، تضم دراسات وتقارير كتبها متخصصون وخبراء في شتى المجالات، لا تمد الباحث في التاريخ المعاصر بمادة علمية فحسب، بل تعينه على التوصل إلى بعض الدلالات الهامة التي تساعده على تركيب الظاهرة التي يتصدى لها بالدراسة وإدراك العلاقات السببية إدراكاً واضحاً، وتعينه بالتالي على التفسير.

ولكن يجب أن يكون الباحث في التاريخ المعاصر واعياً تماماً الاتجاهات التي تعبر عنها الصحافة - سواء في ظل النظم الشمولية أو التعددية – مدركاً الاتجاهات السياسية والفكرية لأصحاب مقالات الرأي على وجه الخصوص، بارعاً في المقارنة بين وجهات النظر المختلفة، متمكناً من استخدام تحليل المضمون حتى يحقق الفائدة المرجوة من الإطلاع على الصحافة والدوريات.

كذلك تتوفر للباحث في التاريخ المعاصر تقارير الهيئات الدولية مثل منظمات الأمم المتحدة، ومنظمة حقوق الإنسان والصليب الأحمر وغيرها. وهي في معظم الأحوال تقدم وجهات نظر محايدة لا تخلو من دلالات هامة، تعين المؤرخ على دراسة بعض الظواهر الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية، وتستكمل بعض جوانب النقص في المادة التي توفرها البيانات الحكومية الرسمية، عند بناء الصورة التركيبية للحدث التاريخي.

ولما كانت دراسة التاريخ المعاصر دراسة للمجتمع باعتباره مسرحاً

للأحداث فلا غنى للباحث فى التاريخ المعاصر عن نتائج أبحاث علماء الاجتماع الذين يقومون بأبحاث ميدانية فى الريف والحضر عن طريق الدراسات الصحية أو دراسات الحالة، ويستخدمون الاستبيان والملاحظة، وغيرها من تقنيات البحث فى الاجتماع، ثم يتوصلون إلى نتائج هامة من دراستهم للظواهر الاجتماعية المختلفة ويقدمون تفسيراً لها، فيوفرون بذلك للمؤرخ المشتغل بالتاريخ المعاصر مادة هامة عليه أن يتعامل معها بمنهجه الخاص. وهكذا يجد الباحث فى التاريخ دراسات اجتماعية عن الفلاحين والعمال والشباب، وعن مختلف الظواهر الاجتماعية الإيجابية والسلبية، وعليه أن يتهيأ للاستفادة منها بتحصيل قدر من المعرفة بعلم الاجتماع ومناهجه يعينه على سبر غورها، والاستعانة بها فى دراسته.

ونفس القول ينسحب – بنفس الدرجة – على الدراسات الاقتصادية التى يقوم بها المتخصصون فى الاقتصاد، وما يتوصلون إليه من نتائج فى تحليليهم للظواهر الاقتصادية، وخاصة ما اتصل بمستوى المعيشة وحركة الأسعار والدخل القومى وتوزيعاته وطبيعة وظروف السوق، والتجارة نشاطاً ورواجاً وركوداً وكساداً، والموارد الاقتصادية وفرة وندرة، وما يترتب على ذلك كله من آثار اجتماعية، وكلها مادة هامة تعين الباحث فى التاريخ المعاصر على فهم البنية الأساسية للمجتمع، وتقدم إجابات للتساؤلات التى تطرحها عليه الدراسة من خلال ما يقدمه من فرضيات. ولكن لابد أن يتوفر للباحث قدر من المعرفة بالنظرية الاقتصادية يعينه على فهم تلك الدراسات والاستفادة منها.

ومما يميز التاريخ المعاصر تداخله مع حقل دراسة علم السياسة، الذى يعنى بدراسة الأوضاع السياسية الجارية، والعلاقات الدولية، والأزمات السياسية وأصول إدارتها، وطرح السيناريوهات المختلفة للتطورات المتوقعة للحدث السياسى وفق أسس منهجية معينة. وفضلاً عما يمكن أن يفيده الباحث فى التاريخ

المعاصر من نتائج دراسات الباحثين فى العلوم السياسية، نجده فى أمس الحاجة إلى التعرف على مناهج البحث فى العلوم السياسية ليفيد منها عند دراسته للظواهر السياسية مع ربطها بالواقع الاقتصادى والاجتماعى.

ويعد التاريخ الشفوى من المصادر الهامة لدراسة التاريخ المعاصر، وهو الذى يتمثل فى الروايات الشفوية التى يرويها من شاركوا فى صنع الأحداث للباحثين فى مقابلات شخصية. وهنا يجب أن يتزود الباحث بقدر كبير من العبارة والمقدرة عند صياغة الأسئلة التى يطرحها على المصدر الحى للمادة التاريخية، وأن يكون بارعاً فى اعتصار ما لديه من معلومات من خلال استجواب مدروس بعناية، وأن يكون ماهراً فى مقارنة ما يتوفر لديه من مادة شفوية بالمصادر الأخرى، وإخضاعها للنقد والتحليل الدقيق، قبل أن يستخلص منها النتائج، مع مراعاة المحاذير المتصلة بهذا المصدر مثل الخلط بين الحوادث نتيجة ضعف الذاكرة بسبب تقدم السن، أو لمحاولة المصدر إخفاء بعض المعلومات أو ميله إلى التبرير أو التضخيم من موقفه، إلى غير ذلك من المحاذير التى يجب أن يكون الباحث معداً إعداداً جيداً للتعامل معها، والتى لا يعنى وجودها استبعاد هذا المصدر الهام. فكثيراً ما ينجح الباحث فى إقامة علاقة إنسانية مع المصدر على المدى البعيد تساعده على التوصل إلى معلومات هامة، أو أن يلفت المصدر انتباه الباحث إلى مصادر أخرى غابت عنه. ويمكن للباحث أن يجرى تحقيقاً مفيداً من مقارنة الشهادات الشفوية ببعضها البعض وبغيرها من المصادر الأخرى. ولصاحب هذه الورقة تجارب هامة فى هذا الصدد.

كذلك لا يستطيع الباحث فى التاريخ المعاصر الاستغناء عن بعض الأعمال الأدبية الهامة التى تصور حقبة تاريخية قريبة عاشها الكاتب أو عاصر طرفاً منها، وترسم صورة حية لاتجاهات الناس وأسلوب معيشتهم ومعتقداتهم وقيمهم الاجتماعية. وقد يستخدم الباحث العمل الأدبى للدلالة على ما توصل إليه من

نتائج بالرجوع إلى مصادر أخرى، أو للدلالة على عادات وقيم اجتماعية معنية. ولدينا نماذج عديدة لاستخدام الأعمال الأدبية فى دراسة التاريخ المعاصر، لعل أقربها عمل الباحثين جيرشونى وجانكوفسكى Gershoni & Jankowski الذى نشر عام ١٩٨٣ بعنوان "مصر والإسلام والعرب، البحث عن القومية المصرية ١٩٠٠-١٩٣٠"، فقد استخدما ثلاثية نجيب محفوظ للدلالة على التغير فى التوجهات القومية عند المصريين فى الحقبة موضوع الدراسة.

كما أن الأعمال الأدبية التى تقدم السيرة الذاتية لصاحبها مثل ثلاثية أحمد حسين (أزهار، الدكتور خالد، واحترقت القاهرة) لها أهميتها عند دراسة تلك الشخصية. وكذلك الأعمال الأدبية التى تصور الوضع السياسى فى ظروف يسود فيها الحجر على الرأى الآخر وكبت الحريات، لها أهميتها عند تناول الباحث فى التاريخ المعاصر لتلك الظروف. غير أن المؤرخ المعاصر لايستطيع أن يحقق الاستفادة المثلى بالمصادر الأدبية إلا إذا كان على معرفة كافية بمنهج النقد الأدبى تعينه على سبر غور تلك الأعمال وتيسر له سبيل استخدامها.

وأخيراً، يجد الباحث فى التاريخ المعاصر نفسه أمام مصدر من نوع آخر محفوف بالمخاطر والمحاذير، ونعنى به كتابات بعض الساسة التى تتخذ طابع المذكرات أو الذكريات أحياناً، وطابع تبرير الأدوار والمواقف السياسية أحياناً أخرى. وهذا النوع من الكتابات نلمسه بوضوح فى مصر منذ مطلع الثمانينات فى ذلك السيل من الكتابات التى عالجت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، والتى ساهم فى كتابتها بعض رجالها من الضباط الأحرار وبعض من تولوا المناصب الكبرى فى عهدها، وبعض من غيبوا فى المعتقلات فى الحقبة الناصرية على اختلاف اتجاهاتهم السياسية، بل وبعض الكتابات لأصحاب أقلام جرت بأفكار أخرى مناقضة فى عهد عبد الناصر فراحت تشارك فى بوتقة النقد لعهد ولى وانقضى طالما ساهمت فى إطلاق المباخر له من قبل.

وليس من الحكمة أن يسقط الباحث فى التاريخ المعاصر كل تلك الكتابات بل يجب أن يقف طويلاً عندها، على أن يكون مدركاً تماماً للبواعث التى دفعت أصحابها إلى كتابتها، والمرامى السياسية التى استهدفوها من ورائها، وأن يكون ملماً بالاتجاهات السياسية والاجتماعية لأولئك الكتاب، قبل أن يتعامل مع مادة كتبهم. وعند تعامله معها يقوم بإخضاعها للنقد، وتحليل مضمونها، واستخلاص النتائج منها، وبذلك يستطيع استبعاد ما لا يرقى منها إلى مستوى المصدر للمادة التاريخية استبعاداً يستند إلى معايير علمية يرى الباحث موضوعيتها، ولا يجب أن يستند الاستبعاد إلى موقف ذاتى.

وكما أن دراسة التاريخ المعاصر تقتضى – بالضرورة- استخدام مصادر غير تقليدية تفرض طبيعة المجتمع المعاصر استخدامها، كذلك يحتاج الباحث فى التاريخ المعاصر إلى الانفتاح على مناهج العلوم الاجتماعية الأخرى ينهل منها الكثير، وإلى التدريب على استخدام تقنيات جديدة للبحث التاريخى لابد أن يتسلح بها الباحث فى عصر ثورة المعلومات.

****

ولاريب أن كل علم من العلوم، وكل فرع من فروع المعرفة يعتمد على علوم أخرى أو فروع أخرى من المعرفة، فهو يستمد وجوده واستمراره منها، ويدين لها بقدر كبير من فرص التقدم. ومن ثم جاءت حاجة المؤرخ المعاصر إلى العلوم الاجتماعية الأخرى يستمد منها نظرات جديدة وتقنيات جديدة تدفع البحث فى التاريخ المعاصر قدماً إلى الأمام. ولا عجب أن يرى المؤرخون فى أعمال علماء الاجتماع كثيراً مما يعتقدون انعكاسه على عملهم، فالتاريخ وعلم الاجتماع يشتركان فى أهداف واحدة، وبعض جذورهما – على الأقل – تنبع من نفس التربة، فكلاهما يبحث فى أبعاد الحياة الاجتماعية من مختلف زواياها، وغايتهما فهم النشاط الإنسانى وعلاقاته. وما حققه علم الاجتماع من تقدم منهجى

منذ الأربعينات من هذا القرن، جعل المؤرخين يلتمسون فيما توصل إليه علماء الاجتماع من طرق وأفكار ما يساهم في دراساتهم للتاريخ عامة والتاريخ المعاصر خاصة. أضف إلى ذلك أن التغيرات المتلاحقة لعالم ما بعد الحرب العالمية الثانية أدت إلى ظهور صنف جديد من المشاكل، كالسلوك الجماهيرى، والتكيف الاجتماعى والثقافى، والحراك الاجتماعى المتميز، والثقافة السياسية، وغير ذلك من المسائل التى عنى علماء الاجتماع بدراستها مما لم تكن مناهج البحث التاريخى المتعارف عليها قد أعدت العدة لمعالجتها، فلا بديل هنا من استفادة المؤرخ من مناهج البحث فى علم الاجتماع لفهم ومعالجة مشاكل المجتمع المعاصر.

وأتصور – بشكل عام – أن كلا من المؤرخ وعالم الاجتماع يستطيع أحدهما أن يفيد الآخر ويثرى عمله فى إطار من الرؤية الشاملة، فيمكن أن يقدم علم الاجتماع للمؤرخ – مثلاً – رؤية نظرية مدركة لحركة الواقع الاجتماعى ولقوانينه الأساسية، وعلاقاته وتشابكاته العديدة، وللكيفية التى تتسم بها الصيرورة الاجتماعية. هذا بشكل عام، أما عن مصر، فعلم الاجتماع فيها لم يوفقَ بعد فى لعب هذا الدور المطلوب لخدمة البحث التاريخى، لأسباب عديدة يضيق المقام عن ذكرها، وتخرج بهذه الورقة عن نطاقها، منها – مثلاً – تبعية هذا العلم ونشأته المشوهة عندنا، وسيطرة النموذج الغربى – وخاصة الأمريكي – عليه.

وبنفس القدر الذى يحتاج فيه المؤرخ المعاصر إلى رؤية سوسيولوجية شاملة، تأتى مسألة الوعى التاريخى عند الباحث فى علم الاجتماع فى مقدمة الضرورات، فهو فى حاجة – أيضا – إلى عمل المؤرخ والبحث التاريخى. ولو توصل الطرفان إلى صيغة للتعاون العلمى، لحصلنا على دراسات للواقع الاجتماعى المعاصر من نوع جديد.

إن استفادة الباحث في التاريخ المعاصر بمناهج العلوم الاجتماعية – وخاصة علم الاجتماع والانثروبولوجيا – تعينه كثيراً على تقديم رؤية تركيبية للحقبة التي يدرسها طالما كان هناك اتفاق على أن السلوك البشري لايمكن فهمه إلا بالنظر إليه في صورته الاجتماعية الكاملة، فكل مؤسسة قائمة في المجتمع هي خلية مؤثرة فيه، ومن ثم تقتضي دراستها الكشف عن الصور التركيبية لذلك المجتمع، وهو ما لا توفره طرق البحث في التاريخ المتعارف عليها بيننا، ولذلك وجب على الباحث في التاريخ المعاصر أن يستعير طرق البحث في الاجتماع والأنثروبولوجيا، وأن يستخدم أدواتهما استخداماً جيداً عند بناء الصورة التركيبية للمجتمع من منظور تاريخي.

وقد يحتاج المؤرخ المعاصر إلى بعض المعرفة بالتحليل النفسي الاجتماعي عند تفسيره للظواهر التاريخية في إطار الحدود الضيقة نسبياً للمساهمة في تكوين المؤرخ التي يقدمها علم النفس. وبالرغم من كل ما كتب عن الأصول السيكولوجية للشخصيات الدكتاتورية، يضيف التحليل النفسي إلى التفسيرات الأخرى في التاريخ ولكنه لا يقوم بديلاً عنها. وهو يساعد المؤرخ على طرح تساؤلات جديدة على مادته، مما يؤدي إلى توسيع آفاق التفسير التاريخي إذا توفرت للمؤرخ المعرفة بالتحليل النفسي الاجتماعي. وكما أنه لا غنى للمؤرخ المعاصر عن علم الاجتماع وطرق بحثه، فإنه يحتاج بنفس الدرجة إلى علم الاقتصاد الذي انفرد بين العلوم الاجتماعية بتقديم مساهمة جادة لدراسة التاريخ، فالحقائق الاقتصادية تظهر للمؤرخ عند كل منعطف من دراسته، ومن ثم عليه أن يتزود بالأدوات النظرية والإحصائية الضرورية التي تعينه على فهم التطور الاقتصادي، وذلك بغض النظر عن منطلقاته الإيديولوجية. أن المؤرخ المعاصر يحتاج إلى معرفة التحليل الاقتصادي لفهم التغير التاريخي، بقدر ما يحتاج إلى هضم تام للنظرية الاقتصادية. وهو في أمس الحاجة إلى استخدام أدوات الباحث

الاقتصادى كالتحليل الإحصائى أو التحليل الكمى، بحثاً عن إجابات لما يطرحه على مادته من تساؤلات، من أجل التوصل إلى أحكام تستند إلى أسس مادية، ولا تقوم على تصورات انطباعية مستمدة من أرقام عشوائية على نحو ما درج عليه المؤرخون من قبل. ولاشك أن معرفة النظرية الاقتصادية، وإتقان استخدام أدوات البحث الاقتصادية توسع أفق المؤرخ المعاصر، وتفتح أمامه أبواباً كانت تبدو موصدة، وتعينه على فهم أدق للمجتمع فى الحقبة المعاصرة.

فقد صاحب التقدم فى طرق دراسة التاريخ والبحث التاريخى اهتمام جديد بالقياس والتحليل الكمى، وهو بلا ريب مستمد من العلوم الاجتماعية. وهذا الاهتمام هو الذى يميز التاريخ على النحو الذى نما عليه هذا حوالى منتصف الخمسينات من هذا القرن عما كانت عليه حال الكتابة التاريخية من قبل، إذ كانت الكتابة التاريخية – حتى ذلك الحين – يغلب عليها السرد والوصف، حتى فى البلاد التى كانت تأخذ بالماركسية والتفسير المادى، وأصبح الاعتقاد بتشرد الحوادث التاريخية وخصوصيتها عائقاً سيكولوجياً لايمكن تخطيه بالقياسات الكمية والتصويبات النظرية.

أن أبرز خصائص كتابة التاريخ الحديث والمعاصر من زاوية طرق البحث هى ما يمكن أن نسميه "الثورة الكمية"، فقد أثر القياس والتحليل الكمى عملياً فى كل فرع من فروع البحث التاريخى خلال العقود الثلاثة الأخيرة، ولاتزال خصائص وأهمية الثورة الكمية موضع جدل بين المعنيين بالمنهج التاريخى، فمن قائل أنه تاريخ يقل اهتمامه بالحقائق المفردة عن اهتمامه بالعناصر التى يمكن توحيدها فى سلسلة متجانسة، إلى قائل أن استعمال الإحصائيات أو السلاسل الزمنية الرأسية قد يؤدى إلى نتائج مفيدة لتحسين طرق البحث التقليدية فى التاريخ ولكن لا يقدم بديلاً عنها، إلى غير ذلك من حوار لازالت تتردد أصداءه فيما تخرجه مطابع الغرب من كتب ودراسات فى منهج التاريخ. وسيبقى

مصطلح "التأريخ الكمي" مستعملاً بأوسع معانيه لوصف كافة أشكال الكتابة التاريخية التي يكون فيها التأكيد على قياس المعلومات الكمية وتحليلها مقابلاً للتأكيد التقليدي للمؤرخين على ما يقدمونه من تقييم.

واستخدم التحليل الكمي أوسع نطاقاً مما يفترضه البعض، فمعظم المؤرخين لا يعترضون على الاعتراف بشرعية الطرق الكمية والإحصائية عند دراسة التاريخ الاقتصادي والتاريخ الاجتماعي، غير أنهم لازالوا يرغبون عن استعمالها في دراسة التاريخ القانوني وتاريخ الفكر، ولكن البعض لا يرون غضاضة في استخدام التحليل الكمي عند تناول تلك الجوانب من التاريخ باستخدام تحليل المضمون، أي الفحص المنظم والكمي للكلمات أو الأفكار أو المواضيع التي تتكرر في مادة محدودة معينة، واستخراج دلالات ذلك.

إن المعالجة الكمية تضيف بعداً جديداً لدراسة التاريخ المعاصر على وجه الخصوص، بل إن بعض المؤرخين يرى أنها تضيف عمقاً جديداً لدراسة ميادين لم تدرس بعد بانتظام مثل تاريخ النظم الدستورية وتاريخ الفكر، وتساعد على التوصل إلى تفسيرات أدق مما درجنا عليه في دراساتنا الحالية.

ولكن حسن استخدام التقنيات الجديدة يقتضي إعداد المؤرخ إعداداً خاصاً يؤهله للتعامل معها بكفاءة ومقدرة ويساعده على الإفادة منها. إذ يجب ان ينال المؤرخ المعاصر حظاً من المعرفة بالرياضيات والإحصاء والتحليل الإحصائي، كما أصبح لزاماً عليه أن يكتسب مهارة استخدام الحاسبات الآلية. ويتوفر الآن عدد من الكتب بدأت تخرجها مطابع الغرب مع مطلع الستينات، تعالج استخدام الحاسبات الآلية في البحث التاريخي، فإذا تجاهلنا هذا التطور الهام في أدوات البحث ستزيد الهوة العلمية بيننا وبين العالم الغربي اتساعاً في مجال البحث التاريخي.

ونستخلص من الكتابات التي عالجت استخدام الحاسبات الآلية في البحث

التاريخي أن علم الحاسبات علم مساعد شأنه شأن غيره من العلوم المساعدة التى لا غنى للباحث فى التاريخ عن التزود بها، وهو لا يقل عن العنصر البشرى أو ينتقص من أهمية ما يتوصل إليه المؤرخ من أحكام، بل – على العكس – يزيد منها. فالمؤرخ عليه عند تقدير المعلومات المستمدة من الحاسب الآلى أن يستعمل نفس معايير النقد التى يستعملها فى تقدير أى من المصادر الأخرى، لأن تغذية الحاسب بمعلومات غير دقيقة تقود إلى نتائج خاطئة. كما أن الحاسب لا يمكن استعماله بصورة مفيدة فى تحليل المشاكل التى تبحث فى تعدد الحقائق فى ظواهر يمكن ملاحظتها. فإذا كانت المعلومات غامضة لدرجة لايمكن تلخيصها بشكل مفهوم، أو تصنيفها مقبولاً بصفة عامة، أو إذا كانت غير كافية فى كميتها، فمن العبث إدخالها بشكل ملائم فى التحليل الحسابى الآلى. والشرط الأساسى لكافة عمليات الحاسب الآلى هو استخدام منهج معد سلفاً للتصنيف (يطلق عليه البرنامج)، مما يتطلب تحليلاً نوعياً ابتدائياً للظواهر والموضوعات التى تجرى دراستها، فإذا وضع البرنامج، تصبح عمليات الحاسب الآلى ميكانيكية صرفة.

واستعمال الحاسب الآلى فى البحث التاريخى ينجز وظيفتين لايمكن بدونهما أن يتحقق البحث، أولاهما تخزين المعلومات، وثانيتهما استرجاعها، وتلك عمليات ننجزها الآن بوسائل يدوية تستغرق وقتاً طويلاً وجهداً مضنياً، وأصبح الآن بإمكاننا جمع المادة وترتيبها وفرزها حسب البرنامج الذى يعمل المؤرخ بموجبه فى زمن قياسى.

والنتيجة التى يمكن استخلاصها من تلك الدراسات الخاصة باستخدام الحاسب الآلى فى البحث التاريخى، أن الحاسب الآلى يفتح ميادين جديدة للمؤرخ، ويجعله قادراً على القيام بأبحاث كانت عسيرة فى الماضى، وأن القيمة الحقيقية للتحليل الحسابى الآلى تكمن فى المستوى الأكثر تقدماً وتعقيداً مثل وضع مجموعتين أو أكثر من الحقائق مع بعضها البعض، ثم مطابقتها واستخلاص

النتائج منها تبعاً لنوع خاص من التعليمات أو البرامج. وأن لاستعمال الحاسب الآلى تأثيرات مهمة على مستقبل البحث التاريخى، فهو يجبر الباحث أن يسأل أسئلة محددة ودقيقة، ويلغى نهائياً أى تبرير للممارسات التقليدية فى التعميم من أدلة جزئية تلتقط بمحض الصدفة ثم تجمع مع بعضها البعض كما يفعل بعضنا اليوم، وهو يمكن الباحث من تحديد الثوابت التى يمكن على أساسها صياغة نتائج موضوعية، كما أنه يوفر للمؤرخ الكثير من الوقت الذى يصرفه فى التفسير والتحليل. ومهما كان مقدار العمل الذى ينجزه الحاسب الآلى، فإن المؤرخ يبقى صاحب القول الفصل. فالحاسب يستطيع أن يجيب على الأسئلة التى توجه إليه بدقة أكبر، ومجال الخطأ عنده أضيق مما يستطيعه العقل البشرى، ولكن يبقى للمؤرخ عمله الإبداعى الأساسى وهو تقدير قيمة المعلومات المعدة آلياً.

****

والخلاصة، أن الوقت قد حان للاهتمام الجاد بدراسة التاريخ المعاصر باستخدام المصادر الجديدة التى أوجدتها ظروف عصرنا، عصر ثورة المعلومات والاتصال، والانفتاح على مناهج العلوم الاجتماعية الصاعدة، واستخدام تقنيات البحث الحديثة بلا تردد. وحتى نحقق ذلك بأسلوب جيد، يجب أن نعد الباحث فى التاريخ المعاصر إعداداً يتوافق مع التطور الحديث لعلم التاريخ والبحث فيه، ويترتب على ذلك ضرورة إعادة النظر فى برامج الدراسات العليا بجامعاتنا لتحقيق هذه الغاية، كما يجب أن نفتح الباب على مصراعيه أمام النشاط البحثى الجماعى الذى تقوم به فرق بحثية – على قاعدة تقسيم العمل – نظراً لتشعب الظواهر التاريخية التى يعالجها الباحث فى التاريخ المعاصر، وهو اتجاه يأتى أكله فى الغرب، وخاصة بعد استخدام الحاسب الآلى فى البحث التاريخى، إذ أمكن حشد المادة العلمية التى يجمعها فريق البحث وتصنيفها وترميزها وخزنها ثم إخضاعها للتحليل الحسابى فى زمن قياسى. ورغم أن البحث التاريخى عندنا تغلب عليه الفردية، ورغم عدم تعودنا على العمل معا كفريق واحد لخدمة بحث واحد، إلا أن هناك تجارب للعمل العلمى الجماعى مارسها غيرنا من

الباحثين فى العلوم الاجتماعية الأخرى كالاجتماع والاقتصاد وعلم النفس نستطيع أن نستفيد منها متى أدركنا حقيقة المأزق الذى تعانى منه الدراسات التاريخية فى بلادنا.

المراجع

١. ب. بورشيتف، علم النفس الاجتماعى والتاريخ، ترجمة سعد رحمى، دار الثقافة الجديدة، القاهرة ١٩٨٦.
٢. جفرى باركلو، الاتجاهات العامة فى الأبحاث التاريخية، ترجمة صالح أحمد العلى، بيروت ١٩٨٤.
٣. ندوة إشكاليات كتابة التاريخ المصرى، إعداد رؤف عباس، مجلة فكر، العدد ١١، القاهرة يناير ١٩٨٨.

4. Andreano, Ralph (ed.), The New Economic History, Recent Papers in Methodology, New York 1970.
5. Ballard, Martin (ed.), New Movements in the Study and Teaching of History, Indiana University Press 1970.
6. Canton, Norman, How to study history, New York 1967.
7. Davis, Ralph, History and the Social Sciences, Leicester 1965.
8. Dollar, C.M. Innovation in Historical Research, A Computer Approach, in Computer and Humanities, No.3, 1969, [pp. 139-151].
9. Kroeber, A.L., An Anthropologist Looks at History, University of California Press, 1966.
10. Landes, Davis & Tilly, Charles, (eds.), History as Social Science, New Jersey 1971.
11. Lewis, Loan, (Ed.), History and Social Anthropology, London 1968.
12. Rowney, Don & Graham James (Eds.) Quantitative History, Selected Readings in Quantative Analysis of Historical Data, Dorsey Press 1969.
13. Tosh, John, The Pursuit of History, London 1985.



فلسطين وبدايات الحركة الصهيونية

من نشأتها حتى وعد بالفور ١٩١٧

أ.د.أحمد زكريا الشلق

كلية الآداب – جامعة عين شمس

تنشيطاً للذاكرة التاريخية بشأن ما تشهده أرض فلسطين العربية اليوم من صراع مصيري، سياسي ودموي، دأب الصهاينة على محاولات عديدة لطمس هوية فلسطين، واختلاق تاريخ ثقافي وحضاري قديم للصهيونية على أرضها .. رغم أن محاولات خلق قومية لليهود، وارتباط هذه المحاولات بأرض فلسطين ، لم يحدث إلا خلال القرن التاسع عشر، عندما برزت الحركة الصهيونية، كحركة سياسية عنصرية، تستند إلى أساس ديني .. وهذه الدراسة هي محاولة للتأكيد على هذه الحقيقة، بعرض وقائع التاريخ بشأن بدايات اهتمام الصهيونية بفلسطين، ودور بريطانيا في تحويل هذه "الأسطورة" إلى واقع .

في البداية لابد من ملاحظة أن فلسطين بحدودها المعروفة اليوم، لم تكن كياناً مستقلاً، وإنما كانت جزءاً من سوريا الطبيعية. أو الشام التاريخي، أما حدودها السياسية فقد تم تحديدها مع مطلع القرن العشرين، منذ اتفاقية طابا عام ١٩٠٦، التي خططت الحدود الجنوبية الفاصلة بين مصر و فلسطين، وحتى معاهدة عام ١٩٢٢ التي تم بموجبها ضم منابع المياه في جنوب لبنان و" إصبع الجليل"، وبحيرتي الحولة وطبرية، بأكملهما إلى فلسطين، بدلاً من إبقاء نصفها الآخر في سوريا، طبقاً لمطالب اللجنة الصهيونية التي رفعتها لمؤتمر الصلح (١).

كذلك لابد من التأكيد على أنه لم تكن هناك أي توجهات يهودية، سياسية أو قومية، لاستيطان فلسطين قبل القرن التاسع عشر، فلم تشكل فلسطين في الفكر اليهودي سوى المعبد اليهودي، الذي كان فيها يوماً ما، فضلاً عن العوامل

الاقتصادية التي كانت تشد اليهود إليها دون سواها، وإذا كانت الحركة الصهيونية قد صورت اليهود على أنهم شعب فلسطين الأصيل، وأنهم أبعدوا قسراً عنها، فإن حقائق التاريخ دحضت ذلك كله، وأكدت أنه ليس لهم حق تاريخي في فلسطين، وأن العبرين القدماء لم يكونوا أصلاً من فلسطين (٢).

وقد أكدت أحدث دراسة علمية عنوانها "اختلاق إسرائيل القديمة، إسكات التاريخ الفلسطيني" أن إسرائيل القديمة لم تكن سوى خيط رفيع في نسيج التاريخ الفلسطيني الغني، وأن الدراسات التوراتية تحاول اعتبار "مملكة إسرائيل القديمة" حقيقة تاريخية لا جدال فيها، لتؤكد وجود استمرارية تاريخية "مباشرة" بين مملكة إسرائيل القديمة، في بداية العصر الحديدي، وبين دولة إسرائيل المعاصرة، وبذلك توظف أحداث التاريخ لخدمة الأطماع السياسية الصهيونية المعاصرة، كما أوضحت في منهج نقدي علمي أن "إمبراطورية داود" هي مجرد ضرب من الخيال، اختلقه الباحثون التوراتيون، وصوروه على أنه كان امبراطورية لدوافع سياسية واضحة، فلم تكن مملكة إسرائيل سوى وهم زائف، وأن إسرائيل التاريخية لم تكن إلا لحظة عابرة في مسيرة التاريخ الحضاري لفلسطين القديمة، كما أن دراسة التاريخ الفلسطيني القديم له انعكاسه القوي على التاريخ الحديث والمعاصر، لأنها تهدم الحجة الأساسية للصهيونية وهي العودة إلى "أرض الأجداد"(٣).

ومن المعروف أن فلسطين منذ الفتح الإسلامي في القرن السابع الميلادي، قد استقر طابعها العربي الإسلامي، دينيا وحضارياً .. ومنذ ذلك التاريخ وحتى الآن .. وفي بداية العصر الحديث لجأت إلى فلسطين أعداد من اليهود "السفارديم" الذين فروا من الاضطهاد في أسبانيا والبرتغال منذ أواخر القرن الخامس عشر، وانضموا إلى الأقلية اليهودية الموجودة فيها، ولم يشكلوا جميعاً كياناً خاصاً وإنما أقلية دينية، وعاشوا كمتعبدين رغبوا العيش والموت في الأرض المقدسة، أو لاجئين لاذوا بتسامح العرب والحكم العثماني، وتأثروا

بمظاهر الحياة العربية في اللغة وأسلوب الحياة الاجتماعية، ومن هنا لم يزعم أحد من مفكري الصهيونية أن حركتهم كانت نابعة من تطور داخلي في فلسطين، أو أن الصهيونية كانت تعبيراً عن احتياجات طبيعية للطائفة اليهودية في الشرق العربي.

ونتيجة ظروف تتعلق بالسياسة الأوروبية، اهتمت دول أوروبا منذ أواخر القرن الثامن عشر بمسألة توطين اليهود في فلسطين، فعندما أرسلت حكومة الإدارة في فرنسا حملة بونابرت إلى الشرق، كانت تستهدف كسب اليهود، بوعدهم بتأسيس"كومنولث يهودي" في فلسطين، لتسهيل مخططاتها لاستعمار الشرق العربي، لذا أصدر بونابرت نداءه إلى يهود آسيا وإفريقيا يدعوهم لتأييده ووعدهم بإعادة "مملكة بيت المقدس القديمة"[٤]، ورغم عدم تأثير هذا النداء، إلا أن اليهود اعتبروه اعترافا أوروبيا بحقوق لهم في بيت المقدس .. أما بريطانيا فقد سببت هجرات اليهود إليها إثر موجات اضطهادهم في أسبانيا والبرتغال وروسيا، مشاكل عديدة بشأن توطينهم وتجنيسهم، مما أثار الرأي العام البريطاني، خاصة بعد مطالبتهم بالحقوق السياسية والمدنية، تلك التي نجحوا في الحصول عليها بالفعل، وقد برز منهم شخصيات يهودية بريطانية مثل "اللورد منتفيوري "، الذي صار عمدة لندن، و" اللورد روتشيلد"، الذي صار عضواً بمجلس العموم ، وقد قاموا بجهود واضحة لتوطين اليهود في فلسطين، بعد أن وجدت بريطانيا أن هذه السياسة تخدم مصالحها الامبراطورية، بل إن منتفيوري قد بذل جهوداً لتحسين أوضاع المستوطنات اليهودية الأولى في فلسطين، كما أثار الاهتمام بها في أوروبا، حتى أن بلاده بدأت بالفعل تبسط نوعاً من الحماية على الطائفة اليهودية في فلسطين، وقد قام بعدة زيارات إلى فلسطين كانت إحداها لحماية يهود دمشق من تهمة قتل أحد الآباء الدومنيكان عام ١٨٤٠ وهناك أسس مدرسة للزراعة جنوب شرق يافا، مهمتها تخريج مهندسين زراعيين يهود، لاستصلاح الأراضي وتمليكها لهم .

وكانت أقدم الدعوات لاستيطان اليهود في فلسطين قد وردت في كتابات الحاخام"يهودا القالعي"(١٧٩٨- ١٨٧٨)عندما سعى لاختلاق أيديولوجيات تعتمد على الفكر الديني ، تعطي إيحاءً لليهود بأنهم كانوا أمة واحدة ، ودعا إلى الهجرة الجماعية و إلى اتحاد اليهود، وتكوين ما سماه بالكيان اليهودي العالمي، وإنشاء صندوق يهودي، هو الذي تمخضت عنه المنظمة اليهودية العالمية فيما بعد (٥).

وقد سعت بريطانيا خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر إلى مساندة وتشجيع الاستيطان اليهودي في فلسطين، بهدف اتخاذها مركزاً لها في الشرق العربي، يكون اليهود فيه ركيزتها الاستعمارية، وذلك لأهمية موقع فلسطين الاستراتيجي لامبراطوريتها ومواصلاتها.. وتحقيقاً لهذا الهدف تأسست في لندن عام ١٨٠٤ جمعية سميت باسم "جمعية فلسطين" ثم "صندوق اكتشاف فلسطين" عام ١٨٣٨، وكذلك تأسيس قنصلية بريطانية في القدس عام١٨٣٩، بعد أن ازدادت أهمية فكرة استخدام اليهود في استعمار فلسطين بين الساسة الإنجليز والمنظرين اليهود.. وقد نجح منتفيوري في دفع بريطانيا إلى تبني قضية كل اليهود في الدولة العثمانية، وتوطينهم في فلسطين، والتي تحمس لها وزير الخارجية "بالمرستون" حيث أرسل سفير بلاده في اسبتانبول ليطلب من السلطان عبد الحميد السماح لليهود بالهجرة إلى فلسطين، ملوحاً بما قد يجنيه السلطان، من سعة ثرائهم ونفوذهم، بالإضافة إلى ما سيشكله وجودهم في فلسطين كحاجز بشري في وجه محمد علي، عدو الدولة، علاوة على كسب السلطان تاييد يهود أوروبا إلي جانبه في صراعه معه .. والمعروف أن السلطان لم يسمح إلا بإصدار فرمان عام ١٨٤٠ اعترف فيه لليهود بحق ممارسة شعائرهم الدينية، ومساواتهم مع غيرهم من مواطني السلطنة (٦).

ولم ينتظر بالمرستون رد السلطان، واستغل فرصة انشغاله بالصراع مع محمد علي، وأسس أول قنصلية بريطانية في القدس في أوائل عام ١٨٣٩ التي كان أحد مهامها حماية اليهود المقيمين في القدس، كما أعلن مسئولية بلاده عن

تحقيق مشروع إسكان لليهود في فلسطين في فبراير عام ١٨٤١ .. وبعد هزيمة محمد علي ومع تغلغل النفوذ والامتيازات الأجنبية في الدولة العثمانية وولاياتها العربية، تنافست الدول الاستعمارية الكبرى لتمهيد السبيل للسيطرة على فلسطين، عن طريق الحصول على الامتيازات وشراء الأراضي وإقامة القنصليات والمؤسسات التعليمية والصحية وغيرها مما غلف بثوب ديني، وقد ساهم في هذه المنافسة الرأسماليون اليهود المندمجون في مجتمعاتهم الأوروبية ، مدفوعين بأهداف اقتصادية وسياسية.

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر توالت كتابات تشرح أهمية الأراضي المقدسة من الناحية الاستراتيجية في ضوء الصراع الدولي، وظهرت مقترحات لتوطين اليهود في فلسطين من جانب ساسة وكتاب إنجليز وفرنسيين وألمان وغيرهم .. وفي عام ١٨٦٠ أنشأ عدد من اليهود الفرنسيين "الاتحاد الإسرائيلي العالمي" في باريس، الذي كانت مهمته نشر التعليم والحرف، والاهتمام بنشر اللغة العبرية بين يهود فلسطين، وقد أقيمت لهذا الاتحاد مراكز في دول أوروبية أخرى [٧]. وفي ألمانيا نشر الكاتب اليهودي الألماني "موسى هيس" كتابيه "روما والقدس" عام ١٨٦٢ ، ثم "مشروع استعمار الأراضي المقدسة" عام ١٨٦٧ حيث طرح فيهما فكرة استعمار الأراضي المقدسة ، بعد إعداد نفسي وعسكري للمستوطنين "العائدين إلى أرض آبائهم" حتى يمكنهم التصدى لأصحاب البلاد "البدو الرُحّل" ثم يلي ذلك إنشاء " وطن قومي لليهود في فلسطين"، وأضاف أن اليهود شعب صنع التاريخ وأنهم مدعوون مصيرياً لتحويل العالم، وحثهم على بناء حياتهم القومية في فلسطين، وعموماً ظلت كتابات هيس من المصادر الرئيسية للفكر الصهيوني الحديث، ورغم أنه تحول من الاندماج في المجتمع الألماني إلى الحركة الصهيونية، إلا أنه وجه كتاباته لليهود الشرقيين، لأن اليهود الغربيين كانوا بسبيلهم إلى الاندماج في مجتمعاتهم الأوروبية التي عاشوا فيها مئات السنين .

وفي عام ١٨٧١ أرسلت بريطانيا لجنة فنية خاصة إلى فلسطين، قضت فيها ست سنوات لدراسة إمكانية فرص الاستيطان اليهودي في أراضيها، حيث قامت اللجنة بمسح كافة أراضي فلسطين من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب، وفي أعقاب ذلك طرح "أوليفنت" البريطاني عام ١٨٨٠ مشروعاً للاستيطان اليهودي في منطقة واسعة ذات استقلال ذاتي ، ضمن محمية بريطانية في سوريا الجنوبية، وقد حظى هذا المشروع بموافقة رئيس الوزراء البريطاني اليهودي"دزرائيلي" وبموجب هذا المشروع استطاع رجل الأعمال اليهودي "إدموند روتشيلد" أن يحصل على امتيازات في الجولان وكذلك في مناطق فلسطينية، من الدولة العثمانية بضغط بريطاني لتحقيق أهداف استعمارية اقتصادية وسياسية.

وعندما اغتيل قيصر روسيا عام ١٨٨٢ حدثت مجازر رهيبة اضطرت معها أعداد كبيرة من اليهود إلى الهجرة وانهارت فكرة اندماجهم في المجتمع الروسي، وحلت محلها فكرة "أحباء صهيون" التي دعت لإحياء العبرية لتصبح لغة اليهود، والتي تزعمها "ليونسكر" الذي نشر كتاباً سنة ١٨٨٢ عن مشكلة اليهود عنوانه " التحرر الذاتي " وصفها فيها بأنها مأساة العصر [(٨)]، وطالب بضرورة انتقال يهود العالم برمتهم إلى بقعة واحدة من الأرض تكون لهم وطناً .. وإيجاد قومية يهودية لشعب يعيش في " أرض الوطن " .. تواكب مع ذلك نشاط الزعماء اليهود في تنمية روح العداء للسامية في المجتمعات الأوروبية المسيحية ، لدفع اليهود إلى الهجرة إلى فلسطين.

أما مخترع لفظ "الصهيونية" بمفهومها السياسي الحديث فكان "ناثان بير مبارم" فقد استخدمه أول مرة عام ١٨٩٣ واقترح توطين اليهود في البلاد المجاورة للبلاد المقدسة، قبل عامين من ظهور كتاب هرتزل "دولة اليهود" ورغم أن اليهود ظلوا يذكرون تعبير "الوطن التاريخي" وأرض الميعاد " وما إلى ذلك، إلا أن حدود هذا الوطن الذي جاء بالتوراة ظلت مبهمة غير واضحة

الدلالة، فالصهيونيين الأوائل لا يفرقوا بين لفظي سوريا وفلسطين ، فضلاً عن أن الجماعات اليهودية التي هاجرت إلى فلسطين في القرن التاسع عشر، أو كانت موجودة لا تستند إلى أي شكل من أشكال الاستمرار الجغرافي أو التواصل التاريخي، وإنما إلى مجرد رواية دينية محضة تتعلق بفكرة إعادة بناء "معبد أورشليم"(٩).

والواقع أن النصف الثاني من القرن التاسع عشر شهد تطوراً هاماً في وضع اليهود في فلسطين، حيث بدأت أسر اليهود الشرقيين "السفارديم" القديمة تفقد نفوذها، ولم تظهر بين يهود فلسطين أى حركة قومية أو ثقافية ، وإنما جاءت هذه الحركة من أوروبا، حين تدفقت منها خلال العقدين الأخيرين موجة هجرة من يهودها "الاشكانزيم" الذين طالبوا بجعل فلسطين وطناً قومياً لليهود ، يتميز عما حوله بثقافة خاصة ويسيطر عليهم، وكانوا علمانيين، بالمقارنة مع اليهود المحليين الشرقيين المتدينين، وكانت هذه الهجرة هي بداية التنفيذ العملي للفكرة الصهيونية (١٠).

ومع ما سبق، فإن الحركة الصهيونية كانت، حتى هذه المرحلة تفتقر إلى التنظيم والتخطيط، حتى تحولت إلى حركة سياسية منظمة على يد "تيودور هرتزل"(١٨٦٠ – ١٩٠٤) الذي وضع كتابه الشهير "دولة اليهود" عام ١٨٩٦، وحاول فيه أن يقيم الدليل على أن اليهود أمة متميزة ، وأن المشكلة اليهودية مشكلة قومية مضطهدة ينبغي أن تحل. وأعطى هرتزل الحركة طابعاً عالمياً ، وصار المنظم الفعلي لها، بعد أن أسس صحيفة "العالم" عام ١٨٩٧ لتكون لسان حالها .

وكما هو معروف، نظم هرتزل في أغسطس عام ١٨٩٧ انعقاد " المؤتمر الصهيوني الأول" في مدينة بال بسويسرة، الذي حضره نحو مائتي عضو من أنحاء العالم، لوضع أول ميثاق للحركة الصهيونية، وكانت مناقشاته حول ما يلاقيه اليهود من اضطهاد عنصري ، وعن ضرورة الاتحاد، ووضع الحجر

الأساسي للمأوى الذي يضم الشعب اليهودي' فالصهيونية حسب تعبير هرتزل هي" عودة اليهود إلى فكرة الحظيرة المحضة، حتى قبل أن يحققوا عودتهم إلى أرض الميعاد". والمعروف أن المؤتمر حقق أهدافه ، وعلى رأسها إقامة وطن يهودي لليهود في فلسطين يضمنه القانون العام، وذلك باتباع وسائل سلمية فعالة، بإنشاء مستعمرات زراعية وعمرانية تأوي اليهود وتقوي بينهم روح " اليهودية القومية "، وكذلك الاستفادة من التنافس الدولي لصالح مساعدة الصهيونية في تحقيق أهدافها.. وقد أقر المجتمعون علماً ونشيداً قومياً ، وتشكيل لجنة للعمل وتأسيس بنك استعماري .. إلخ. والملاحظ أن المؤتمر تجنب استخدام كلمة "دولة" وإنما استخدم عبارة "وطن يضمنه القانون العام" حتى لا تتشكك الحكومة العثمانية، صاحبة السيادة على الشام و فلسطين، في نوايا الحركة.

وقد سعى هرتزل للاتصال بالسلطان عبد الحميد الثاني عام ١٩٠١ ليحصل على موافقته على هجرة اليهود إلى فلسطين، وكذلك على ضمانات قانونية تمنحهم نوعاً من الاستقلال الذاتي، ولوح هرتزل للسلطان بمعونة مالية كبيرة للدولة ، لكن السلطان كان واعياً لأطماع الحركة، فلم يقبل، و كان قد أصدر عام ١٨٨٢ قانوناً يعتبر دخول اليهود إلى فلسطين أمراً غير مشروع، كما أعقبه بقانون آخر عام ١٨٨٨ يمنع هجرة اليهود على نطاق واسع، ويكتفي بمنحهم فترة ثلاثة أشهر للحج [١١]. ونتيجة لاتصالات هرتزل الأخيرة، أصدر السلطان فرماناً عام ١٩٠٠ يمنع إقامة الإسرائيليين الدائمة في فلسطين، مما أثار زعماء الحركة الصهيونية ، التي راحت تؤلب الحكومات الأوروبية للاحتجاج لدى السلطان.

ومع ذلك فقد شهدت فلسطين خلال عهد السلطان عبد الحميد قدوم موجتين من الهجرة اليهودية ، أولهما خلال الفترة (١٨٨٢– ١٩٠٣) بلغ عدد المهاجرين فيها (٢٥ – ٣٠) ألف يهودي من روسيا ورومانيا وبولندا، والثانية في الفترة (١٩٠٤– ١٩١٤) والتي بلغ عدد المهاجرن فيها بين (٣٥ – ٤٠) ألف من اليهود الروس، وذلك بسبب فساد الإدارة العثمانية في فلسطين، والتي خضعت

للرشوة والابتزاز، مما سمح لليهود بإنشاء المستعمرات وتأسيس الشركات، فضلاً عما لقيه اليهود من دعم بريطاني تمثل في منحهم جوازات بريطانية وغير ذلك ، كما يلاحظ أن الانقلاب الذي قام به الاتحاديون من حزب "تركيا الفتاة" عام ١٩٠٨ شاركت في تدبيره العناصر اليهودية من أعضاء نفس الحزب، وعندما انفرد الاتحاديون بالسلطة في أعقاب نجاح الانقلاب، أفسحوا المجال واسعاً لأعداد غفيرة من اليهود للهجرة إلى فلسطين، حتى بلغ عددهم الإجمالي من ٢٥ألفا علم ١٨٨٢ إلى ٨٥ ألفا عام ١٩١٤.

وقد استطاعت الصهيونية في أعقاب مؤتمر بال أن تخطو خطوات عملية لتحقيق الاستيطان، فقد انبثق عن المؤتمر مؤسسات متكاملة ومتعاونة كان أهمها: صندوق الإئتمان اليهودي للمستعمرات "لجنة الاستعمار" (١٨٩٨)، والجمعية الزراعية اليهودية في أمريكا (١٩٠٠)، وصندوق رأس المال القومي اليهودي(١٩٠١) الذي ساهم في إقامة مدينة تل أبيب عام ١٩٠٩، والبنك الإنجليزي الفلسطيني (١٩٠٣).

فضلاً عن مؤسسات أخرى أنشئت خلال الفترة التالية والتي كان أبرزها افتتاح مكتب فلسطين في يافا (١٩٠٨)، وقد لعبت هذه المؤسسات دوراً كبيراً في ترسيخ حركة الاستيطان الزراعي في فلسطين، كمرحلة من مراحل تأسيس الدولة [١٢].

وقد أعلن هرتزل عام ١٨٠٢ أن هذه الدولة ستكون رأس حربة لأوروبا وجزءاً من استحكاماتها وكموقع أمامي "للحضارة في مواجهة البربرية " حت يضمن بذلك حماية ودعم الدول الأوروبية، كما أكد على فكرة الصلة بين الصهيونية والمصالح الامبريالية لبريطانيا بوجه خاص، واستطاع كسب تأييد وزير المستعمرات البريطانية "تشمبرلين"لأن يكون الوطن اليهودي داخل الممتلكات البريطانية، ورغم ظهور مقترحات بأن يكون هذا الوطن في الأرجنتين أو أوغندا أو شبه جزيرة سيناء، إلا أن فلسطين ظلت المطلب الأول

للحركة الصهيونية، وقد ذكر هرتزل "أن القاعدة الصهيونية يجب أن تكون في فلسطين أو بالقرب منها، وفي إمكاننا أن نستوطن أو غندا بعد ذلك"، وأصر المؤتمر الصهيوني السابع (١٩٠٥) علـى رفض أي نشاط خارج فلسطين، وأعرب عن رجائه أن تقوم الحكومة البريطانية بجهودها مستقبلاً لحل أي مشكلة تتعلق بتنفيذ برنامج مؤتمر بال.

وفي بريطانيا، وبعد وفاة هرتزل، قبض "حاييم وايزمن" اليهودي البريطاني علي زمام الحركة الصهيونية، واستطاع مع جماعة من أبرز الشخصيات اليهودية كسب تأييد ودعم السياسيين البريطانيين وغلاة الاستعمار، في وقت كانت بريطانيا فيه قلقه علـى مصير وضعها الاستعماري، حتى أن رئيس وزرائها "كامبل – بانرمان" دعا الدول الاستعمارية عام ١٩٠٧ إلى مؤتمر يتناول دراسة مصير ومستقبل أوضاعها الاستعمارية، وانتهى هذا المؤتمر إلى وضع تقرير خطير عرف باسم "تقرير كامبل– بانرمان" ورد فيه أن الخطر على نشاط هذه الدول الاستعمارية يكمن في شرق وجنوب البحر المتوسط ،حيث يعيش شعب واحد، له مقومات الترابط والوحدة، ويملك ثروات طبيعية ، ولو أخذ بأسباب العلم والصناعة، فسيقضي على النشاط الاستعماري الأوروبي، لذلك يجب على الدول الاستعمارية الحيلولة دون توحد المنطقة، وإبقاء شعبها على ما هو عليه من تأخر وتفكك، مما يقتضي فصل القسم الآسيوي عن الإفريقي، واقترحت اللجنة إقامة حاجز بشري قوي وغريب، يحتل الجسر البري بين آسيا وإفريقيا، بحيث يشكل فيها، وعلى مقربة من قناة السويس، قوة صديقة للاستعمار، وعدوة لسكان المنطقة (١٣).

وهكذا تلاقت أهداف الحركة الصهيونية مع الاستعمار الأوروبي، ونشطت في كل من بريطانيا، وبقية دول أوروبا والولايات المتحدة، بعد أن علمت بالتقرير، لتقيم الدولة المنشودة، وأصبح هذا التقرير بمثابة ورقة عمل للدبلوماسية البريطانية، تعمل على ضوئها في الشرق العربي خلال الحرب الأولى، التي

رأت فيهل بريطانيا ضرورة كسب عطف اليهود الأمريكيين لتأييد مجهودها الحربي، وكذلك إقناع يهود روسيا للضغط على حكومة الثورة البلشفية للاستمرار في الحرب.

وفي عام ١٩١٥ نشطت جهود "هربرت صمويل" اليهودي البريطاني الذي صار وزيراً للدولة، فعرض المطالب الصهيونية على رئيس الوزراء البريطاني "لويد جورج" الذي تولى الحكم عام ١٩١٦ بعد أن شكل وزارة جاء فيها "بالفور" وزيراً للخارجية وكان هو ورئيسه يميلان للصهيونية، في الوقت الذي قررت فيه الحكومة البريطانية، خلال سير عمليات الحرب، إرسال حملة عسكرية كبيرة إلى فلسطين، فكانت فرصة نجح خلالها وايزمن في إقناع لويد جورج بأهمية استخدام فصيلة من اليهود، الذين أخرجوا من فلسطين ، لمعاونة الحملة في القتال وأعمال التجسس.

وفي أواسط عام ١٩١٧ استدعى بالفور كلاً من وايزمن وروتشيلد ، وبحث معهما أهداف ومطالب الحركة الصهيونية، وطلب إلى زعماء الحركة أن يقدموا إليه مشروعات مكتوبة تعبر عن أمانيهم، فتألفت لجنة تضم كبار الساسة والمفكريين الصهيونيين، ووضعوا مسودة تصريح تتبناه الحكومة البريطانية ، ثم أدخلت عليه بعض التعديلات، وأعد في صيغة نهائية، وافق عليها الرئيس الأمريكي "ولسن" وصدر التصريح في ٢ نوفمبر ١٩١٧ تحت اسم "تصريح بالفور" الذي بدأت به صفحة جديدة من تاريخ الحركة الصهيونية والصراع العربي- الصهيوني.

الهوامش والمصادر

(١) هند البديري: أراضي فلسطين بين مزاعم الصهيونية وحقائق التاريخ ، دراسة وثائقية، الأمانة العامة لجامعة الدول العربية، ١٩٩٨ ، ص ٨٣ – ٨٤ .

(٢) عمر عبد العزيز : تاريخ المشرق العربي ١٥١٦ – ١٩٢٢ ، دار المعرفة بالإسكندرية ، ١٩٨٤ ، ص ٤٧٤ .

(٣) كيت ويتلام: اختلاق إسرائيل القديمة، إسكات التاريخ الفلسطيني، ترجمة سحر الهنيدي، عالم المعرفة (٢٤٩)، الكويت سبتمبر ١٩٩٩، عن مقدمة المترجمة، ص ٧-٩.

(٤) عبد الكريم رافق : العرب والعثمانيون ١٥١٦ - ١٩١٦ ، ط (١)، دمشق ١٩٧٤ ، ص ٥٤٧ ، وكذلك خيرية قاسمية : النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه ، بيروت ١٩٧٣، ص ١٢ .

(٥) هند البديري : السابق ، ص ٨٥ ، وانظر رأياً آخر لعمر عبد العزيز ، السابق ، ص ٤٧٥، حيث ينسب إنشاء أول دعوة لإنشاء وطن لليهود إلى هنري فنش .

(٦) عمر عبد العزيز : السابق ، ص ٤٧٥ – ٤٧٨ .

(٧) عبد الكريم رافق : السابق ، ص ٥٤٨ – ٥٤٩ .

(٨) عمر عبد العزيز : السابق ، ص ٤٨٠ – ٤٨١ .

(٩) هند البديري : السابق ، ٩١ – ٩٢ .

(١٠) حول دور ومرحلة هرتزل وموقف السلطان عبد الحميد ، انظر رافق: السابق ، ص ٥٤٩ ، هند البديري : السابق ، ص ٩٣- ٩٨ ، وكتاب تيو دور هرتزل " الدولة اليهودية" ترجمة محمد يوسف عدس ، مراجعة وتقديم عادل غنيم ، القاهرة ١٩٩٤ ، ص ١٤ وما بعدها ، وكذلك :

Holt, P.M Egypt and the Fertile Crescent 1516- 1922, London 1996, pp. 245-246.

(١١) هند البديري : السابق، ص ١٠٦ .

(١٢) نفسه، ص ١٠٤-١٠٥، وكذلك راجع عبد المالك التميمي: الاستيطان الأجنبي في الوطن العربي ، عالم المعرفة (٧١)، الكويت نوفمبر ١٩٨٣، ص ١٤٨.

(١٣) حول هذا المؤتمر راجع، عمر عبد العزيز: السابق ، ص ٤٩٢-٤٩٣، هند البديري: السابق، ص ٩٩-١٠٠ ، حسن صبري الخولي: سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين في النصف الأول من القرن العشرين، الجزء الأول، دار المعارف بالقاهرة ١٩٧٣، ص ١١٦- ١٢٢



رجل من رواد الإصلاح المصري الت

سعيد حليم باشا

أ.د. محمد السعيد جمال الدين
أستاذ الدراسات الإسلامية
كلية الآداب – جامعة عين شمس

الصدر الأعظم، ولد بالقاهرة ١٨٦٣، ابن الوزير حليم باشا ، وحفيد محمد علي باشا مؤسس الأسرة العلوية في مصر.

تلقى تعليمه الأولى بمصر بشكل خاص ، وتعلم الفرنسية والإنجليزية إلى جانب العربية والتركية. إرتحل إلى إستانبول ١٨٨٨ بعد أن أمضى فترة التكوين العلمي والفكري في مصر. وفي تركيا أصبح عضواً في مجلس شورى الدولة العثمانية، ولم يكن على علاقة طيبة بالسلطان "عبد الحميد الثاني" بسبب صلاته بالشبيبة الأتراك التي كان السلطان يسيء الظن بها، وآثر العودة إلى مصر ثم غادرها إلى أوروبا حيث قدم العون الفكري والمادي لإعلان الحكم النيابي.

عاد "سعيد حليم باشا" إلى إستانبول سالكاً طريق مصر سنة ١٩٠٨، وتولى رئاسة شوري الدولة في تركيا ١٩١٢، وعُهد إليه بالتفاوض مع الحكومة الإيطالية بسبب حرب طرابلس الغرب. ثم تولى منصب وزير الخارجية في الدولة العثمانية ١٩١٣، وفي السنة نفسها تولي منصب الصدر الأعظم بفضل الضغوط التي مارستها "جمعية الاتحاد والترقي" على السلطان محمد رشاد لتنصيبه، واحتفظ في الوقت نفسه بوزارة الخارجية.

ولما قامت الحرب العالمية الأولى أعلن حياد تركيا، ثم اضطر تحت ضغط "الاتحاديين" إلى توقيع معاهدة تحالف مع ألمانيا (١٩١٤)، مما أدى إلى دخول الدولة العثمانية الحرب فعلياً ضد روسيا وإنجلترا وفرنسا دون أن تكون الدولة

مستعدة لهذه الحرب. وحين أدرك أن الخسائر على الجبهات العربية في سوريا والعراق وفلسطين يصعب تلافيها تقدم باستقالته في فبراير ١٩١٧. وفي سنة ١٩١٩ نفي إلى جزيرة مالطه. ثم أطلق سراحه (١٩٢٠). واختار الإقامة في روما. وفي ديسمبر ١٩٢١ أطلق أرمني متعصب النار عليه فأرداه قتيلاً في العاصمة الإيطالية.

كتب سعيد حليم معظم مقالاته بالفرنسية ، وقد ترجمت هذه المقالات إلى التركية ونشرت في كتاب بعنوان. " بحرانلرمز" أي : أزماتنا، وتوالى صدور أجزائه من سنة ١٩١٦ حتى سنة ١٩١٩، ويشتمل الكتاب على فصول في : الدستور ، أزماتنا الفكرية، أزماتنا الاجتماعية، فصل في التعصب، عالمية الإسلام Islam Lashmak، فصل في التقليد. وكان من بين من ترجموا آثاره الشاعر التركي المعروف محمد عاكف.

وقد نشر آخر كتبه، وربما كان أهمها على الإطلاق ، في روما في السنة التي جرى اغتياله فيها(١٩٢١) بعنوان: L'Institutions Politiques dans la Societe Muslemane

وأعيد نشر الكتاب في صورة مقال بمجلة L'Orient et L'Occident بعنوان آخر هو: Notes pour Servier a la reforme de Seciete.

ونقله "مولوي عبدالله " إلى الإنجليزية ونشره في عدد أبريل ١٩٢٧ من مجلة Islamic Culture التي تصدرها دائرة المعارف العثمانية في "حيدر آباد" بالهند ، وذلك بعنوان:The Reform of Muslim Society وقد ترجم المقال إلى اللغة الأوردية Urdu عدة مرات ، ونشر في طبعات مستقلة.

كان سعيد حليم من زعماء حركة الإصلاح الديني في الدولة العثمانية قبل الحرب العالمية الأولى ، وكانت هذه الحركة من أهم التيارات في الحياة السياسية والاجتماعية تقابلها الحركة الوطنية التي تجعل الدولة – لا الدين – هي العامل

الجوهري في حياة الأمة؛ وهو ما يحتم الفصل بين السلطة الدينية والسلطة المدنية. أما حركة الإصلاح الديني – التي يمثلها سعيد حليم أصدق تمثيل – فقد رأت أن الدين الإسلامي يجمع بين المثالية والواقعية أو بين النظرية والتطبيق، وأنه يشتمل على دستور كامل يشمل كل نواحي النشاط البشري : في العقائد والأخلاق والاجتماع، ويجمع كل فروع الحياة الجماعية والفردية؛ وهذا يعني أنه لا سبيل إلى الفصل بين الدين والدولة.

****

وتشتمل كتاباته على خلاصة فكره الإصلاحي الذي يوجّه فيه نقداً لاذعاً للانهيار الذي أصاب المسلمين حين أخرجوا من حياتهم الدراسة العلمية الجادة والتجربة العملية، فسَاد الجهلُ وسيطرت الخرافة وتخبط الناس في فهم عقائد الدين فهماً صحيحاً، وكان مما زاد من سوء الوضع أن أغلق باب "الاجتهاد" مما أدى إلى عدم المواءمة بين الأحكام الدينية ومتطلبات التطور، مع أن مفهوم الدين الإسلامي هو المطابقة بين قوانين الحياة الاجتماعية.

ويرى "سعيد حليم" أن الفساد الاجتماعي يشكل سلسلة مترابطة الأجزاء، فقد أدى الجهل إلى ظهور الاضمحلال السياسي، وأدى هذا الاضمحلال بدوره إلى الإفلاس، ولما كان الإفلاس هو أساس كل عيب أخلاقي– كما قال النبي– صلى الله عليه وسلم- : " كاد الفقر أن يكون كفراً"– فقد انتشرت المفاسد وعمّت البلوى.

ولكي يتخلص المسلمون من الفقر والحاجة، فإن عليهم الاهتمام بالعلوم والفنون العصرية، والمسارعة إلى تحصيلها في أسرع وقت ممكن.

وإذا كان من الضروري أن يتعلم المسلمون من الغرب طرائقه في التجربة والبحث، فليس لهم أن يختاروا المبادئ الاجتماعية والأصول الأخلاقية الغربية أو يفضلوها على الشريعة الإسلامية، فالقوانين الغربية قد وضعت على أساس

من التميّز والتعالي والاستكبار بينما الأساس الذي بنيت عليه الشريعة هو الإخاء. "والأجدر بنا أن نعمل على تنفيذ مبادئ شريعتنا بدلاً من الانصراف عنها إلى غيرها ".

ويفضل" سعيد حليم" الحكومة الإسلامية على النظم السياسية الغربية من نقطة مبدئية تقوم على المقارنة بين الشرع والوضع ، فالشرع مستمد من الوحي الإلهي الذي يضع في اعتباره مصلحة الناس جميعاً دون تمييز بينهم، أما القانوني الوضعي فهو نتاج للعقل الإنساني القاصر عن إدراك المصالح العامة للبشر ، وبالتالي فإن هذا القانون الوضعي يؤدي بالتالي إلى ظهور الحكومات الظالمة التي تمارس الاستبداد وتهدف إلى أن تجعل الإنسان عبداً للإنسان .

لقد حرر الإسلام الإنسان من العبودية ، وأطلق فيه كل طاقات العمل المبدعة، ولم يعط لأحد حق التسلط – أو ما يسميه سعيد حليم "الحاكميّة" – على أحد من الناس ، فالحكم لله الذي قرّر القوانين وسنّ الشرائع، ولا يصح أن يقبل الإنسان في المبادئ العامة لحياته الفردية والاجتماعية من أحد توجيهاً إلا توجيه الله، ولا يحكّم في نفسه إلا حكم الله .

ومن هنا تكون الحرية والإخاء والمساواة أجزاء تركيبية في كيان المجتمع ، فلا يظهر فيه الصراع الطبقي ولا التعصب القومي، وإنما تظهر فيه طبقة واحدة هي "جماعة الصالحين"، وتتوحد الأهداف والمقاصد، وتكتسب الحكومة محبة الناس واحترامهم لكونها خادمة لهذه الأهداف وممثلة للمثل الأخلاقية السامية والمبادئ الحضارية الرفيعة ، وهنا يتحقق التوافق بين الفرد والمجتمع .

ويوجه "سعيد حليم" نقداً لاذعاً للنظم الجمهورية الديكتاتورية في العالم الإسلامي، وهي النظم التي لا تقوم على مبادئ الشورى الإسلامية، والتي يحتل فيها العلماء وأهل الخبرة والرأي مكانة مرموقة ذات طابع مُلزم بجوار الحاكم. ويرى أن الفكر السياسي لدى المسلمين المعاصرين قد فسد عندما ابتعد عن مبدأ

التفاضل ، واتخذ نظماً تقوم على الجبر والقهر ، وتغليب الميزان لصالح الكثرة العددية، مما ينتج عنه صراع طبقي وتنافر بين عناصر المجتمع ، واختلال للتوازن بين طوائفه.

كان "سعيد حليم" من أشد المفكرين المحدثين إدراكاً لروح الإسلام العالمية، ومن ثم بدا في تأملاته من ألدّ أعداء القومية ، التي يراها على النقيض تماماً من الإسلام، بل على النقيض من مبادئ الأديان كلها ، ويعدّها صورة من صور الهمجية والوثنية. وقد أدى شيوع روح القومية في العالم الإسلامي في رأيه إلى ظهور أخلاق محلية لدى الشعوب الإسلامية متأثرة بالخرافات التي كانت سائدة قبل الإسلام في تلك الشعوب، مما أثر بالتالي في المثل الأخلاقية والاجتماعية الإسلامية. وأدى بهذه المثل إلى أن تكون فارسية أو تركية أو عربية أكثر منها إسلامية، مما يفتح الباب واسعاً أمام تغليب الاعتبارات الوطنية على مقتضيات روح الأخوة.

ويرى "سعيد حليم" أن الأخلاق المحلية لهذه الشعوب ينبغي أن تكون خاضعة للمثل الإسلامية العليا، فلا يوجد إسلام تركي أو عربي أو فارسي أو هندي مثلما لا توجد رياضيات إنجليزية أو فلك ألماني أو كيمياء فرنسية، فكما أن الصبغة العالمية للحقائق العلمية تولّد شتاتاً من ثقافات قومية علمية تمثل في مجموعها المعرفة الإنسانية، فكذلك تتمخض عن الصفة العالمية لحقائق الإسلام أنواع شتى من المثل العليا القومية والأخلاقية والاجتماعية.

وبقدر ما ينتقد سعيد حليم المسلمين في تقليدهم الأعمى للغرب بقدر ما يدعوهم إلى فتح باب"الاجتهاد" من جديد على أسس صحيحة– وهو يطلق على الرغبة العارمة التي تملكت المسلمين لتقليد الغرب لفظ "تجدد" Tagadod الذي يخالف "تجديد" Tagdid (Reconstruction). فالمجدد يحرر الفكر الديني من الخرافة، أما المتجدد فلا علم له بالدين ولكن سوء الحظ يفرضه على شعب ما

فيستخدم عقلـه القاصـر فـي هـدم كل قاعدة ثابتـة، وتكـون العاقبـة وخيمـة علـى الشعوب.

حاز سعيد حليم شهرة واسعة في العالم الإسلامي كمفكر تقدّمي، وبخاصة في شبه القارة الهندية ، وأشاد به الشاعر والمفكر محمد إقبـال فـي كتابـه " تجديد التفكير الديني فـي الإسـلام " Recunstruction of the Religious Thought in Islam.(1928) ووظف شخصيته فنياً فـي ديوانـه الفارسي"جاويدنامـه" (١٩٣٢) لنقد الاتجاهات اللادينية في العالم الإسلامي. وجعله يقف على قدم المساواة مع السيد جمال الدين الأفغاني في بعث نهضة الشرق الإسلامي.



بريطانيا واحتلال القدس

أثناء الحرب العالمية الأولى

أ.د. فاروق عثمان أباظة
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
كلية الآداب – جامعة الإسكندرية

أحدث قيام الحرب العالمية الأولى فى سنة ١٩١٤ واستمرارها حتى سنة ١٩١٨ تأثيرات عميقة على الأوضاع القائمة فى العالم بوجه عام، وفى منطقة الشرق الأوسط بوجه خاص. وانقسم العالم فى تلك الحرب إلى معسكرين متصارعين، تكون المعسكر الأول من الإمبراطوريات الألمانية والنمساوية والعثمانية فى جانب، وتكون المعسكر الثانى من روسيا وفرنسا وبريطانيا ومستعمراتها واليابان والبلجيك وصربيا والجبل الأسود فى الجانب الآخر. وحرص الجانبان المتصارعان على اتخاذ الخطوات الدبلوماسية والحربية لكسب المعركة فى ميادين الحرب المختلفة. وانحصر الصراع فى الشرق الأوسط بوجه خاص بين العثمانيين والبريطانيين نظراً لما كان لكلا الجانبين فى تلك المنطقة من قوات ونفوذ ومصالح مختلفة منذ وقت مبكر.

وكان الأتراك العثمانيين قد سيطروا على الشام ومصر والحجاز واليمن بين عامى ١٥١٦ و١٥٣٨ بعد أن كانت تابعة من قبل لدولة المماليك واستمرت سيطرتهم عليها حتى قيام الحرب العالمية الأولى، وكانت القدس قد أصبحت تابعة للعثمانيين فى عام ١٥١٦، وإن أشمل الوثائق التى حددت التقسيمات الإدارية فى الدولة العثمانية هى رسالة تركية عنوانها "قوانين آل عثمان در مضامين دفتر ديوان" وهذا يعنى"قوانين آل عثمان فى ما يتضمنه دفتر الديوان"

وقد كتب هذه الرسالة فى سنة (١٠١٨هـ/ ١٦٠٩م) عين علي أفندى الذى كان "أمينا للدفتر الخاقانى" أى أنه كان مطلعا على جميع سجلات الدولة المتعلقة بالأمور الإدارية والمالية. وقد ورد فى هذه الرسالة أن الدولة العثمانية كانت تقسم فى ذلك التاريخ إلى ٣٢ إيالة، منها ١٤ إيالة عربية ومن بينها "إيالة الشام" التى تنقسم بدورها إلى أحد عشر لواء كان من بينها "لواء القدس الشريف". ثم أصدرت الدولة العثمانية حولية رسمية سنوية أطلقت عليها "سالنامه دولت علية عثمانية"، بمعنى "الكتاب السنوى للدولة العلية العثمانية". وتشير الحولية الرسمية العائدة لسنة (١٣٢٢هـ/ ١٩٠٤م) والتى لم يطرأ بعدها تغير يستحق الذكر على التقسيمات الإدارية المتعلقة بالبلاد العربية، أنها كانت تقسم آنذاك إلى ٩ ولايات و٤متصرفات وكانت إحداها "متصرفية القدس الشريف" وهى متصرفية مستقلة، تتخابر مع وزارة الداخلية العثمانية مباشرة دون أن تتبع ولاية من الولايات. وكانت تضم أربعة أقضيه هى: يافا، غزة، بئر السبع، خليل الرحمن. وكان يتبع مركز المتصرفية والأقضيه المذكورة ١١ ناحية، و٣٨٤ قرية ومزرعة، وكانت أهم القبائل التى تتبع قضاء بئر السبع هى عزازمة، باها، جبارات، ترابين، حناجرة(١).

ومن المعروف أن السلطان محمد الفاتح سمح لليهود بالاستقرار فى استانبول وكافة أرجاء الدولة وعين لهم "حاخام باشى" أو حاخام أكبر وخلع عليه سلطات واسعة شبيهة بتلك التى كان يمارسها بطريرك طائفة الروم - على كل يهود الدولة، وعندما طرد اليهود من أسبانيا فى سنة ١٤٩٢م أصدر السلطان بايزيد الثانى مرسوما يقضى بحسن معاملتهم فى أملاكه. وبلغ النفوذ اليهودى أوجه فى عهد السلطان سليم الثانى (١٥٦٦ - ١٥٧٤) ثم ما لبث أن انتهى نفوذهم بوفاة سليم الثانى وتولى مراد الثالث (١٥٧٤ - ١٥٩٥) الذى استبعد حاخام اليهود "ناسى" من الاشتراك فى شئون الدولة وصادر أمواله بعد وفاته فى عام ١٠٧٩.

ومن الثابت أن الدولة العثمانية حرصت على مدار تاريخها على إرضاء رعاياها من اليهود والنصارى وإزالة الفوارق بينهم حتى مشاركتهم فى الإدارة العامة وتقليدهم المناصب الرفيعة وإعلاء شأنهم وإثبات حقوقهم. وكان لنزاع الطوائف فيما بينها أسوأ الأثر على الدولة العثمانية، إذ استغلت الدول الأوربية الحامية للطوائف خلافاتها الطائفية.

وفى عهد الإدارة المصرية للشام أعلن إبراهيم باشا المساواة بين جميع الطوائف: "ومشى الرعايا جميعهم بالسوية النصرانى واليهودى والمسلم حكم واحد". وعندما عاد العثمانيون إلى بلاد الشام فى سنة ١٨٤٠ تابعوا إقرار المساواة بين الطوائف وفقاً لما جاء فى خط كلخانة عام ١٨٣٩: "ولكى يكون أهل الإسلام وباقى الملل الذين هم من تبعة سلطنتنا السنية نائلين مساعداتنا هذه الشاهانية بدون استثناء أعطيت من طرفنا الشاهانى الأمنية الكاملة بمقتضى الحكم الشرعى لجميع أهالى ممالكنا المحروسة على نفوسهم وأعراضهم وناموسهم"(٢).

وعندما يطالعنا القرن التاسع عشر وهو واحد من أهم قرون التاريخ سطوة ونفوذا على العصور الحديثة اللاحقة له تبرز قضيتان هامتان: أولهما المسألة الشرقية التى تمثلت فى عملية التربص بإرث الخلافة العثمانية، التى كانت إمبراطورية شاسعة تمركزت فى قلب العالم من شواطئ بحر قزوين إلى شواطئ المحيط الأطلسى، وضمت أقطاراً كثيرة من جنوب أوربا والشرق الأوسط وشمال أفريقيا، ولكن الوهن أصابها وعجزت وتهيأت كل ممتلكاتها الأوربية والآسيوية والأفريقية لتكون ميراثاً للغالبين الأصحاء القادرين. لكن هؤلاء لم يكونوا بعد قد توصلوا إلى إتفاق حول تقسيم الإرث رغم نفاذهم إلى الأقاليم والقبائل والعشائر والطوائف فى أملاك الخلافة ومن وراء ظهرها وبهذا الشكل بقيت الخلافة كياناً لا يسمح له بالموت، ولا يسمح له بالحياة، إلى حين تستقر

موازين القوة فى أوربا وبالتالى يطلب كل طرف من الغالبين نصيبه فى القسمة والإرث.

والقضية الثانية التى بدأت تظهر تدريجياً منذ بداية القرن المذكور تمثلت فى المسألة اليهودية، وهى قضية ديانة توزع أتباعها فى أنحاء الأرض، ثم أنهم كانوا هدف عداء استفحل خصوصاً حول مواضع كثافة التواجد اليهودى فى شرق أوربا وروسيا ووقتها كان ٩٠% من يهود العالم (وعددهم الإجمالى ١٢ مليونا) يعيشون على تخوم ما بين روسيا وبولندا، ويتعرضون بين الحين والآخر لغارات دموية تولدها احتكاكات دينية واجتماعية وفكرية. وكان يهود العالم منذ مأساة الخروج مع المسلمين من الأندلس فى عام ١٤٩٢ موزعين بين أوربا وشمال أفريقيا حيث لجأ الكثيرون منهم إلى العالم الإسلامى فى نهاية العهد المملوكى وبداية التوسع العثمانى التاريخى فى العالم العربى. ومنذ تلك الأيام كان الكلام عن العودة إلى فلسطين نداء يتردد على لسان أحد الحاخامات بين حقبةٍ وأخرى، ولم يكن هناك من يأخذ هذا النداء جداً، أو يعلق عليه بأكثر من أنه حنين يجتر الوهم، لأن العودة خلط متعسف للأسطورة بالتاريخ، ثم أنها حتى فى الأساطير مرهونة بإشارات وعلامات لم تظهر بعد على أى أفق.

وقد حاول نابليون بونابرت أن يعزف على الوتر الدينى اليهودى وأساطيره فى نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر بحيث تكون فلسطين وهى حينذاك من أملاك الخلافة العثمانية- التى يتسابق الكل على إرثها - الوطن الموعود والمختار لليهود برعاية فرنسا لتكون نقطة بداية لخططها الإمبراطورية فى قلب أملاك الخلافة العثمانية، فى وقت كان التنافس الدولى بين فرنسا وإنجلترا على أشده فضلاً عن القوى الاستعمارية الأخرى. ومن المحقق أن بعض علماء الحملة الفرنسية بدءوا مبكراً فى الاتصال ببعض حاخامات اليهود فى فلسطين، مثل "موسى موردخاى" و"جاكوب الجازى". وكانت ورقة نابليون

التى أظهرت لليهود أمام أسوار القدس فى عام ١٧٩٩ نداء إلى يهود العالم لم يوزع فى فلسطين وحدها، وإنما جرى توزيعه آنذاك فى فرنسا، وإيطاليا، والإمارات الألمانية، وحتى فى أسبانيا الأمر الذى يشير إلى أن القضية أكبر وأوسع من ظرف محلى واجهه نابليون حينما استعصت عليه أسوار القدس. وإن ورقة نابليون اليهودية هذه هى الوثيقة التى تستحق الاهتمام فى السياق التاريخى لأنها الأثر الاستراتيجى الباقى فى المنطقة من تلك الأيام وحتى نهاية القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين.

إن نابليون بونابرت لم يكن يهودياً ولا كان موالياً لليهود، لكن ورقته اليهودية - المتمثلة فى ندائه ليهود العالم من خارج أسوار القدس هى التى تعبر عن دوره ودور فرنسا فى مساندة هذا التحرك، على الرغم أن اليهود فى فلسطين فى ذلك الوقت لم يزد عددهم على ألفين فى عام ١٧٩٩ وبالتحديد وطبقاً لتقرير مرفوع إلى نابليون نفسه من مجموعة ضباط استكشاف سبقت جيشه إلى فلسطين هو ١٨٠٠ (منهم ١٣٥ فى مدينة القدس) وهؤلاء لم يكن فى مقدورهم - مهما فعلوا لا أن ينصروه ولا أن يخذلوه. وإنما كانت هذه رؤية القائد الفرنسى الذى كان يملك حساً استراتيجياً نابها وبعيداً حتى إنه من الثابت أن نابليون - بعد عودته من حملة مصر وإعلان نفسه إمبراطوراً لفرنسا حضر اجتماع المحفل اليهودى الأكبر فى سنة ١٨٠٧ فى باريس، ورسمت لوحة لهذا المحفل ظهرت ضمن مجموعة رأسمالى يهودى هو "إسرائيل سولومون" فى عام ١٨٦٠ وقد سمح ابنه بنشرها، وظهرت مطبوعة لأول مرة فى سنة ١٨٧١[٣]. ولا شك أن حضور نابليون اجتماع المحفل اليهودى المذكور يوضح مدى اهتمامه باستقطاب يهود العالم لصالح فرنسا.

لقد أدرك نابليون أهمية مصر التى تتميز بموقعها الحاكم على طريق التوسع الإمبراطورى خصوصاً إلى الهند وما حولها وما وراءها وأن السيطرة على

مصر تعد مقدمة ضرورية لأى قوة تريد أن تتصدى لبريطانيا وتريد أن تتحدى سيطرتها على التجارة وعلى البحار. كما رأى بونابرت أن مصر فى اتصال غير قابل للانفصال مع السهل السورى الذى يشكل معها زاوية قائمة تحيط بالشاطئ الشرقى - الجنوبى للبحر المتوسط - وهذه الزاوية القائمة بضلعها الجنوبى فى مصر تمد تأثيرها بالعرض إلى كل الساحل الشمالى لأفريقيا وبالطول إلى الجنوب حتى منابع النيل، ثم إنها بضلعها الشمالى فى سوريا تلامس حدود بلاد ما بين النهرين (العراق) وشبه الجزيرة العربية والخليج، وحتى طرق الاقتراب البرى والبحرى إلى فارس والهند. وكما كان هذا شأن من سبقوه من الفاتحين أن من يسيطر على الزاوية الجنوبية من البحر المتوسط لابد أن يمد بصره إلى سوريا، وهذا ما فعله فراعنة مصر وأباطرة الإغريق وقياصرة الرومان وأكاسرة الفرس، وهو نفسه ما قام به الخلفاء المسلمون فى أعقاب عصر النبوة ثم تواصل بعدهم أمراء المؤمنين من الأمويين والعباسيين، وهو ما نفذه أحمد بن طولون وصلاح الدين الأيوبى وحتى مماليك مصر والأتراك العثمانيون من بعدهم، أى أنه وعلى طول العصور كان لابد أن تكتمل الزاوية الجنوبية الشرقية للبحر المتوسط لتدخل فى إطار سياسى واحد يجعل كل ضلع منها تأميناً للضلع الثانى ضرورة جغرافية وعبرة تاريخ.

وكان نابليون يرى أنه لكى يضمن عدم التقاء الضلعين عربياً وإسلامياً، فإنه يزرع عند نقطة إلتقائهما، أى عند مركز الزاوية شيئاً آخر لا هو عربى ولا هو إسلامى، لكن هذا الزرع لا يمكن خلقه من العدم، وإنما يحتاج خلقه إلى بذور حتى وإن كانت من جينات حفريات الأنثروبولوجيا بحيث يمكن غرسها فى التربة، فإذا جرى ريها وأورق بعضها فحينئذ قد يصعب التمييز بين الأصل والدخيل، وبين الطبيعى والهجين، ومن هنا أتت ورقة نابليون اليهودية تصوراً للمستقبل ورؤية - ربما لا تتحقق بسرعة - لكنها قابلة للتحقيق فى مستقبل الأيام،

وبها فقد ينشأ وطن يهودى يكون ضماناً إضافياً إذا أمكن ويكون عازلاً إذا اقتضت الضرورات، وفى صياغتها فإن صاحبها استخدم مطالب الإمبراطورية ودرس التاريخ وأساطير الأديان القديمة وحولها إلى استراتيجية، والثابت أن نابليون لم يتخل عن تقديراته الاستراتيجية، حتى بعد أن اضطر إلى التسلل ليلاً من مصر والعودة إلى فرنسا، وراح يواصل من باريس صراعه للسيطرة على أوربا إلى حيث تحمله جياده وتصل مرامى مدافعه إلا أنه دعا فى سنة ١٨٠٧ إلى عقد المجمع اليهودى فى "سانهردان" ليحضره كل يهود أوربا ممثلين فى رؤساء طوائفهم إلى جانب مشاهير حاخاماتهم، ليلم "شمل الأمة اليهودية" على حد قوله وأن يدعوهم فى القرار الثالث من قرارات المجمع إلى ضرورة إيقاظ وعى اليهود إلى حاجاتهم للتدريب العسكرى لكى يتمكنوا من أداء واجبهم المقدس الذى يحتاج إليه دينهم "ولعل ذلم هو الذى أوحى إلى مفكر سياسى شهير مثل "دولاجار" بأن يكتب كتابه اللافت للنظر: "نابليون والعسكرية اليهودية".

ورغم أفول نجم نابليون بونابرت فى أوربا عام ١٨١٥ فإن الرؤى الاستراتيجية الواسعة للفاتحين الكبار لا تموت بموتهم، وإنما تبقى فى حافظة التاريخ بعدهم تنتظر غيرهم ممن يجدون الجرأة والجسارة على استعادتها من جديد جزئياً أو كلياً. وهذا ما جعل حلم جمع الزاوية الشرقية ـ الجنوبية من البحر المتوسط بضلعيها المصرى والسورى يتحقق على يد محمد على فى العقد الرابع من القرن التاسع عشر. ويمكن أن يكون محمد على قد توصل إلى ذلك بحسه إلى الضرورات التى تجمع بين مصر وسوريا، ومن المحتمل أن الفكرة وصلت إليه بوحى مباشر أو غير مباشر من "سليمان باشا الفرنساوى" الذى كان أحد ضباط نابليون ثم أصبح فيما بعد رئيساً لأركان حرب إبراهيم باشا إبن محمد على وقائد جيوشه".

ويأتى الحديث عن الدور البريطانى الذى دحر خطط بونابرت وتبنى بالكامل

رؤاه وأمسك أكثر بإمكانياتها وراح يمهد الأرض لتحقيقها لاحقاً بالعدو الفرنسي وسابقاً له. وكان "بالمرستون" شأنه شأن ساسة جيله في ذلك الوقت، يعرف ما فيه الكفاية عن المسألة اليهودية. وبالطبع فإنه كوزير لخارجية بريطانيا ثم رئيس لوزرائها كان مشغولاً بالمسألة الشرقية، لكن أوراقه لا تظهر أنه ربط بين المسألتين إلا بعد أن قام به نابليون. وأن الوثائق البريطانية حافلة بالشواهد على تطور فكر رئيس وزراء بريطانيا حتى وصل إلى تحديد ثلاثة أهداف للسياسة البريطانية في الشرق الأوسط، أولها إخراج محمد على من سوريا لفك ضلعي الزاوية المصرية - السورية، وثانيها حصر محمد على داخل الحدود المصرية وراء صحراء سيناء وتحويل هذه الصحراء إلى نوع من "سدادة الفلين" تقفل عنق الزجاجة المصرية التي يمثلها وادي النيل والتشبيه من خطاب اللورد روتشليد الذي كان من أكثر يهود الغرب الأغنياء والمأزمين من موجات هجرة يهود الشرق إلى غرب أوربا وأشدهم حماسة على "تصدير الفائض" منهم إلى فلسطين، وثالثها قبول وجهة النظر القائلة بفتح أبواب فلسطين لهجرة اليهود إليها وتشجيعهم على إنشاء شبكة من المستعمرات الاستيطانية فيها ليكون منها ذات يوم عازل - يحجز مصر عن سوريا ويمنع لقاءهما في الزاوية الاستراتيجية الحاكمة. وكانت أهداف "بالمرستون" تلقى تأييداً ومساندة من اللورد "ويلنجتون" قائد الجيوش البريطانية وقاهر نابليون في ووترلو. ومن الملاحظ أن كثيراً من التقارير في الوثائق البريطانية تشير إلى أن "ولينجتون" هو صاحب نظرية مواجهة محمد على على ثلاث مراحل: إخراجه من سوريا، واحتواؤه في مصر، وإنشاء عازل حاجز بين البلدين.

وبعد أن نجحت بريطانيا في إعادة محمد على إلى مصر وانسحابه من الشام عقب معاهدة لندن في ١٥ يوليو سنة ١٨٤٠ فقد كتب :"بالمرستون" رسالة إلى سفيره في استانبول: "أن يسعى لإقناع حاشية السلطان والسلطان نفسه بأن محمد

على قد يحاول مرة أخرى - أن يدخل فى مواجهة مع السلطان - وإذا تركت له الفرصة فإنه سوف يعود مرة أخرى إلى دمشق ويعلن فيها تأسيس خلافة جديدة تعيد ذكريات الخلافة الأموية ويدعو العرب منها إلى إنشاء إمبراطورية كبيرة تجمعهم وتؤثر على الموازين فى الشرق الأدنى والبحر المتوسط، وسوف تتكفل هذه الإمبراطورية إذا قامت بتهديد تركيا وربما إنهاء وجودها كدولة والحل السريع الممكن هو إقامة عازل بين الدولة العثمانية وبين طموحات محمد على أو خلفائه، وعلى السلطان وحاشيته أن يدركا أن مطامع محمد على لا تقتصر فقط على شرق البحر المتوسط وإنما تمتد مطامعه أيضاً إلى البحر الأحمر وحتى عدن لكى يؤكد سيطرته الإمبراطورية، إن العازل الذى يمكن التفكير فيه هو توطين اليهود فى فلسطين لأن ذلك يجعل منهم شوكة فى خاصرة محمد على تمنعه من تهديد تركيا من ناحية، كما تردعه عن العربدة فى البحر الأحمر كما يحلم. إن الحكومة الإنجليزية سوف تكون مستعدة إذا ما قبل السلطان بمشورتها أن تضع المستعمرات اليهودية فى فلسطين تحت حمايتها لكى يكون ذلك تحذيراً دائماً لمحمد على حتى يرتدع عن تهديد الدولة العلية".

ثم يعود بالمرستون بعد ذلك بشهرين فيكتب إلى سفيره فى عاصمة الدولة العثمانية: "عليك أن تلح على السلطان أنه سوف يستفيد فائدة كبرى إذا ما قام بإغراء وتشجيع اليهود المبعثرين فى أوربا بالذهاب والتوطن فى فلسطين. إن السلطان سوف يدرك أن اليهود فى فلسطين سوف يطلبون نوعاً من الأمان الحقيقى والملموس، ولا ترى الحكومة الإنجليزية مطالبته بأن يتحمل عبء هذا الأمان، ولذلك فنحن نقترح أن يكون فى استطاعة هؤلاء اليهود أن يعتمدوا على حماية إنجلترا وأن يكون من حقهم أن ينقلوا شكاواهم إلى الباب العالى عن طريق السلطات الإنجليزية "ومن المثير للتأمل أن عدد اليهود فى فلسطين آنذاك فى نهاية عام ١٨٤٠ كان ٣٢٠٠ نسمة فقط وكانت لندن تمشى على خطى باريس،

وكان بالمرستون يقتفى أثر نابليون. ومن سوء الحظ أن الذين يعنيهم الأمر فى المنطقة لم يكونوا واعين لما يدبر لهم(٤).

ولم تكن السياسة البريطانية تهدف فقط إلى الفصل بين مصر والشام وزرع وطن قومى لليهود فاصلاً بينهما عند نقطة الاتصال بين ضلعى الزاوية الاستراتيجية الكبرى فى جنوب شرق البحر المتوسط. وإنما كانت تضاف إلى ذلك مطالب تأمين خطوط المواصلات الإمبراطورية مع الهند، ومنها مطالب السيطرة على طرق التجارة البحرية، ومنها مطالب الصراع على البحرين المتوسط والأحمر، ومنها مطالب لندن فى تأكيد مركزها المالى والتجارى الحاكم. ومع ذلك فإن هذه المطالب كلها وهى حقائق واقعة لا تنفى أنه فى تلك الفترة من منتصف القرن التاسع عشر كان فصل مصر عن سوريا وإنشاء عازل بينهما ـ مطلباً من أهم وأعز مطالب السياسة البريطانية. وهذه عملية تواصلت خطاها ظاهرة وواثقة على خط ممتد من معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ وحتى صدور وعد بالفور سنة ١٩١٧. وفى تلك الفترة تم لبريطانيا تمهيد الأرض فى سوريا أخذاً فى الاعتبار أن فلسطين فى ذلك الوقت كانت بأكملها ولاية من ولايات الشام.

على أن سلسلة الحوادث الكبرى التى وقعت فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر فى مصر وحولها وبالذات فى فلسطين لم تكن مصادفة وإنما حدثت نتيجة لأفكار وخطط وصراعات مصالح وقوى تطلب التفوق والغلبة. ومن هنا كان قيام "دزرائيلى" بمساعدة "روتشيلد" بشراء الحصة المصرية فى شركة قناة السويس فى سنة ١٨٧٥ وتم تدبير أربعة ملايين جنيه ذهباً ونقداً وعداً لإتمام الصفقة بأسرع ما يمكن "قبل أن يغير خديو مصر رأيه أو يتسرب سر الصفقة إلى آخرين. وفى عام ١٨٧٧ كانت أسرة "روتشيلد" تمول إنشاء أول مستعمرة استيطانية لليهود فى فلسطين على مساحة ٢٢٧٥ فداناً وهى مستعمرة "بتاح

تكفاه". وفى نفس السنة كانت الحكومة الإنجليزية تطلب من السلطان السماح لها بإنزال قوات عسكرية فى قبرص لأن تلك ضرورة عسكرية لمراقبة ما يجرى فى سواحل الشام عن بعد، وذلك تطبيقاً لاتفاقية "المساعدة" الإنجليزية التركية التى عقدت بعد انتهاء حرب القرم، والتى تعهدت إنجلترا للسلطان بمقتضاها أن تحمى ممتلكاته الشرقية. وكانت قبرص هى الموقع المثالى لمراقبة ومتابعة ما يجرى فى كل من مصر والشام. وفى سنة ١٨٨٢ تذرعت الحكومة الإنجليزية بوجود قلاقل فى مصر بقيام ثورة عرابى، واتخذ مجلس الوزراء الإنجليزى قراراً يخول قائد القوات البريطانية" اللورد ويلسنتى" باحتلال مصر وقمع الثورة العرابية، وكانت التكأة التى استند عليها القرار البريطانى هى خروج عرابى باشا عن طاعة خديو مصر ومن ثم حقوق السلطان.

وفى نفس السنة التى تم فيها الاحتلال البريطانى لمصر قام البارون "إدموند روتشيلد" بتنظيم أول هجرة جماعية يهودية إلى فلسطين، وبهذه العملية فإن تعداد اليهود فى فلسطين ارتفع من ثمانية آلاف إلى ٢٤ ألفاً. وفى نفس الوقت كانت أسرة "روتشيلد" قد بدأت فى جمع تبرعات ومساهمات طائلة لشراء أراضى فى فلسطين، وكانت الواجهة الظاهرة لهذه العملية مؤسسة للاستثمار فى مجال الأراضى الزراعية فى المشرق العربى. وفى ظرف عشر سنوات تم إنشاء العديد من المستعمرات الكبيرة وعددها عشرين مستعمرة، ومستعمرات أخرى صغيرة شملت الأردن شرقاً وغرباً فى أراضى فلسطين.

وفى هذا المسرح ظهر دور "تيودور هيرتزل" المولود فى فيينا والذى كان يعمل فى مجال الصحافة واتصل بالمسألة اليهودية عن طريق جمعيات ومنظمات فكرية وثقافية تعنى بهذه المسألة. ولم يكن "هيرتزل" وحيداً فى ميدانه، فقد سبقه وأحاط به جمع لا يستهان به من المفكرين والدعاة اليهود الذين رأوا الفكرة مثله، ولن لم يقدروا على تحديدها والتبشير بها صراحة وعلناً. وكانت ميزة "هيرتزل"

علـى قرنائـه الآخـرين فـى زمانـه أنـه استطاع استيعاب مجمـل الظـروف الاستراتيجية ورأى أن اللحظة مناسبة لكي يتخلى العمل اليهودى عن سواتره بما فى ذلك التبشير والهجرة الخيرية، وأن يدخل مباشرة وبقوة إلى عالم الحقائق السياسية، فكان مؤتمر بال فى عام ١٨٩٧ مؤسساً للحركة الصهيونية العالمية.

وفى سنة ١٩٠٤ دعت إنجلترا إلى عقد مؤتمر على شكل حلقات دراسية يمثل فيه الدول الاستعمارية فى ذلك الوقت خبراؤها وأساتذتها الجامعيون لدراسة الأسباب التى يمكن أن تكفل للاستعمار أطول فترة ممكنة من البقاء. وعلى هذا النحو جاء تقرير "كامبل باترمان" رئيس وزراء بريطانيا يدعو إلى تجزئة سوريا بقوله: "إن الخطر الذى يهدد الاستعمار الغربى يكمن فى البحر المتوسط الذى يضم على سواحله الشرقية والجنوبية شعب واحد يتميز بكل مقومات الوحدة والترابط بما فى ذلك أراضيه من كنوز وثروات تتيح لأهلها مجال التقدم والرقى فى طريق الحضارة والثقافة، وكذلك ينبغى العمل كوسيلة عاجلة بالتوصية التالية وهى فصل الجزئين الأفريقى والأسيوى فى هذه المنطقة أحدهما عن الآخر، وإقامة حاجز بشرى قوى وغريب فى نقطة إلتقاء الجزئين يمكن للاستعمار أن يستخدمه أداة لتحقيق أغراضهم(٥).

وكان تنفيذ هذه الخطة من الناحيتين العسكرية والسياسية يعنى تفتيت الأمانى القومية العربية الناشئة فى الشام والباحثة عن استقلالها الذاتى بعيداً عن الأتراك أو أى دولة استعمارية أوربية، ليس هذا فحسب بل وقبل أن تفيق الأمة العربية من هذه الضربة يكون الاستعمار قد أوجد ما يكفل له هذا التقسيم والتقطيع فى أوصال هذه الأمة وأراضيها(٦).

ولما كانت الدولة العثمانية هى صاحبة الخلافة والسلطان على ذلك الجزء - الشام والعراق والجزيرة العربية - وبها الأماكن المقدسة فى الحجاز وفلسطين، وكما كانت إنجلترا ترى أن الدولة العثمانية من الممكن - إذا تحالفت مع أية قوى

معادية- أن تهدد المصالح البريطانية في نقطتين هامتين أولهما قناة السويس المدخل الشمالي للبحر الأحمر، وثانيهما طريق الخليج "الفارسي"، حيث أبار النفط الهامة التابعة للشركة البريطانية الفارسية(٧). ومن ثم بدأت إنجلترا بإجراء دراسة متأنية لسياسة الأتراك وتحركاتهم قبيل نشوب الحرب العالمية الأولى في عام ١٩١٤ مع العمل على اتخاذ ما يكفل تجنب مثل هذه المخاوف من قبل الأتراك

وما أن نشبت الحرب العالمية الأولى ووقفت الدولة العثمانية إلى جانب دول الوسط حتى أرسل "السير أرثر هرتزل Sir A. Hertizel" من قسم الشئون السياسية بوزارة الهند في اليوم الثاني من سبتمبر سنة ١٩١٤ مؤكداً على ضرورة "إحكام السيطرة البريطانية على الخليج الفارسي حتى لا يؤدي ذلك إلى نجاح الدولة العثمانية في إثارة مسلمي الهند ضد الإمبراطورية البريطانية"(٨). ومن ثم فقد جهزت الحكومة البريطانية حملة عرفت باسم الحملة الهندية بقيادة "الكولونيل ديلامين W. S. Delamin" ليصل إلى شط العرب في اليوم الخامس من نوفمبر سنة ١٩١٤(٩)

كما جهزت بريطانيا حملة أخرى اتخذت من مصر قاعدة انطلاق لها لتتجه شرقاً عبر سيناء بقيادة "الجنرال أرشيبالد مرى Archibald Murray" تجاه فلسطين والشام ومواجهة القوات العثمانية هناك. غير أن هذه الحملة واجهتها عدة صعوبات كان أبرزها معارضة الجنود الهنود المسلمين في قوات بريطانيا لمحاربة الدولة العثمانية باعتبارها دولة الخلافة الإسلامية. وقد اضطرت بريطانيا أن تستعين "بأغاخان الثالث" إمام الطائفة الإسماعيلية الذي كانت تربطه ببريطانيا علاقات وطيدة منذ هاجرت طائفته من فارس إلى الهند في منتصف القرن التاسع عشر، حيث قدمت مساعدات كبيرة للبريطانيين في بلاد الهند في توسعهم العسكري والإمبراطوري شمالاً وغرباً من البنجاب، وفي المراحل

الأخيرة من الحرب الأفغانية الأولى في عام ١٨٤١، ١٨٤٢، حيث قام "آغاخان الأول" وفرسانه بمساعدة، الجنرال نوت في " كاردهار " و"الجنرال إنجلند" عندما تقدم من السند للانضمام إلى قوات "الجنرال نوت". ونتيجة لتلك المساعدات التي قدمها "آغاخان الأول" للبريطانيين في الهند فضلاً عن الخدمات العديدة التي قدمها بعد ذلك " لسير تشارلز نابيير" في غزوه لبلاد السند في عامي١٨٤٣، ١٨٤٤، فقد منحته الحكومة البريطانية "معاش تقاعد" كان من شأنه أن يوثق علاقته ببريطانيا منذ ذلك الحين.

كما استقر "آغاخان الأول" في مدينة بومباي حيث عبر له أهلها عن ولائهم الروحي وأقام "در خانته" أي مقره العام هناك والذي أطلق عليه " Aga Khan Hall" وتطور مركز الطائفة الإسماعيلية حتى تولى الإمامة "آغاخان الثالث" في سنة ١٨٨٥ وهو محمد سلطان الحسيني الذي لجأت إليه بريطانيا أثناء الحرب العالمية الأولى والذي تعززت مكانته الدينية بين مسلمي الهند وتوطدت علاقته مع بريطانيا آنذاك مما جعله ينحاز إلى جانبها في مواجهة الدولة العثمانية.

وقد أدرك البريطانيون أهمية الدور الذي يمكن "لآغاخان الثالث" أن يقوم به في المجال السياسي والذي يمكن أن تترتب عليه نتائج أبعد مدى في تحقيق المصالح البريطانية، وذلك عن طريق قيامه بإقناع العثمانيين بعدم الانضمام إلى دول وسط أوربا والتمسك بالحياد. وقد سارع "آغاخان" بالاتصال سراً بتوفيق باشا السفير العثماني في لندن آنذاك. وبناء على طلب "آغاخان" أرسل السفير العثماني إلى حكومته باستانبول يدعوها إلى إرسال وفد وزاري إلى لندن للدخول في مفاوضات مباشرة مع حكومة بريطانيا. وكان "آغاخان" يأمل في تحقيق انتصار دبلوماسي على أعظم جانب من الأهمية. غير أن تفجر الموقف فجأة أدى إلى أن تلقى الدولة العثمانية بنفسها في أتون الحرب العالمية الأولى مما أدى بطبيعة الحالة إلى فشل هذه الوساطة(١٠).

وقد أصدر "آغاخان الثالث" على مسؤوليته الخاصة منشوراً أبدى فيه رأيه فى "الخطأ" الذى ارتكبته الدولة العثمانية بمحاربة دول الوفاق، وجاء فيه "أن الإمبراطورية البريطانية والروسية والجمهورية الفرنسية قد عرضت أن تضمن لتركيا جميع أراضيها بحالة استقلال تام على شرط واحد هو أن تحتفظ بحيادها. إن تركيا هى المؤتمنة على الإسلام والعالم بأجمعه راض عن تركها تحتفظ بالمدن المقدسة فى عهدتها. وعلى جميع الناس أن يفهموا أن وضع تركيا لم يكن مهدداً بأية صورة، وأنها لم تدخل الحرب من أجل الإسلام أو دفاعاً عن استقلال. وإذن فإن واجبنا الوحيد كمسلمين هو أن نبقى مخلصين وأمناء ومطيعين لولاتنا الزمنى والدنيوى"(١١). ويقصد "آغاخان" بذلك الولاء الزمنى والدنيوى لدول الوفاق بريطانيا وفرنسا وروسيا فى ذلك الحين.

وإذا كان الساسة البريطانيون لم يحققوا عن طريق الدور الذى كلفوا "آغاخان" القيام به للتأثير على الساسة العثمانيين بقبول الحياد، الأهداف المرجوة من هذا الدور، والذى وأده تسرع القادة العثمانيين فى الاستجابة لاستقطاب الألمان لهم سياسياً وعسكرياً، فإنه لم يغب عن الساسة البريطانيين، وعن "كتشنر" بالذات، الذى كان على دراية كبيرة بشئون الشرق، وعلى تتبع مستمر لتطورات الأوضاع فيه، أن يسند إلى "آغاخان" فى نهاية عام ١٩١٤ القيام بدور جديد فى مهمة أخرى تتحقق عن طريقها الأهداف البريطانية. وكان ميدان المهمة هذه المرة فى مصر، حيث إتخذ جانب من أهدافها طابعاً أشبه ما يكون فى وقتنا الحاضر "بالتوجيه المعنوى" الذى يشكل ضرورة من ضروريات تهيئة الرأى العام من جهة، وتوجيه المقاتلين لخوض الحرب وتحمل معاناتها من جهة أخرى، وهو ما لا يقل خطورة عن التزويد المادى والتسليح العسكرى.

وقد قام " آغاخان " فى ١٨ ديسمبر ١٩١٤ بزيارة معسكرات البريطانيين فى كل من بورسعيد، والسويس، القاهرة، وطنطا، والإسكندرية حيث خاطب

الجنود الهنود المسلمين بوجه خاص موضحا أن الدولة العثمانية بانضمامها إلى ألمانيا والنمسا والمجر انذاك قد غلبت أهدافها المادية، ولم تعد تلتزم بما تفرضه مكانتها كدولة للخلافة الإسلامية، في الوقت الذى أقنعهم فيه بأن " المستقبل مع الوقوف إلى جانب بريطانيا التى تحرص على حقوق رعاياها المسلمين ".

ولهذا فإن مهمة "أغاخان الثالث" فى مصر فى اليوم التالى لفرض الحماية البريطانية عليها فى ١٨ ديسمبر ١٩١٤، كان يقصد به فى الدرجة الأولى امتصاص ما يكنه الجنود الهنود المسلمين – الذين يشكلون الحجم الأكبر فى القوات البريطانية فى مصر التى بلغت ٧٠ ألف مقاتل من الإنجليز والأستراليين والنيوزيلانديين والهنود –من تعاطف مع الدولة العثمانية باعتبارها دولة الخلافة الإسلامية، وبث التوجيه المعنوى اللازم ليشحد همم الجنود لأداء مهامهم القتالية لتحقيق النصر لبريطانيا، فى الوقت الذى كانت تعد فيه حملتها لمهاجمة العثمانيين فى فلسطين وسوريا فى مطلع الحرب العالمية الأولى بقيادة "الجنرال أرشيبالد مرى Archibald Murray" والتى بدأت تحركها من مصر فى سنة ١٩١٦ والتى خلفه عليها "الجنرال اللنبى Allenby"(١٢) الذى استطاع الوصول إلى غزة حيث صدر وعد بالفور فى اليوم الثانى من نوفمبر ١٩١٧ ثم تمكن من دخول القدس واحتلالها فى اليوم التاسع من ديسمبر ١٩١٧ ثم زحف إلى دمشق بعد ذلك فى عام ١٩١٨(١٣)

بل أن "أغاخان الثالث" أنيط به القيام بدور آخر فى مصر لالتقاط صورة دقيقة و إجراء استطلاع استخبارى لطبيعة الموقف فى مصر آنذاك، أى عقب فرض الحماية البريطانية عليها، حتى تسترشد بها السلطات البريطانية لأحكام تسيير دفة الأمور هناك، بما يتفق وتحقيق مصالح بريطانيا إلى أبعد مدى ممكن(١٤). فكان يهم بريطانيا كثيرا التعرف على انعكاسات قرار فرض الحماية البريطانية على الشعب المصرى بجميع فئاته انذاك وقد تعرف " أغاخان " على

ذلك من خلال مقابلاته مع قادة جميع اتجاهات الفكر السياسي الجديد في مصر بما في ذلك السلطان حسين كامل وأعضاء أسرته، ورئيس الوزراء القائم وزملائه، ورئيس الوزراء السابق، وبعض الوزراء السابقين، فضلاً عن زعيم المعارضة، ورئيس الجمعية التشريعية، وممثلي فئات الشعب المصري، والأجانب، وممثلي الصحافة، والعلماء المسلمين ورجال الأزهر الشريف، ورجال الأكليروس الأقباط.

وقد أشار "آغاخان الثالث" في مذكرته إلى مهمته هذه في مصر فقال: "لقد أدت مهمتنا إلى النتائج التي كنا نرجوها، فتأمن الاستقرار الداخلي طوال الحرب وكانت المساعدة التي أسداها هذا الهدوء إلى الحلفاء حتى زحف الجنرال اللنبي النهائي المظفر عبر فلسطين وسوريا إلى حلب وسفوح جبال الأناضول كبيرة جداً. ومن مصر أخذت طريقي إلى الهند، بعد أن زرت القوات الهندية التي كانت مرابطة في قناة السويس، وبعد أن شجعت أفرادها (المسلمين) وبعد أن حضضتهم على أداء واجبهم، وأن يقاتلوا بأمانة وإخلاص في سبيل الملك الإمبراطور الذي أقسموا على خدمته"، ويعني به ملك بريطانيا بطبيعة الحال. ثم يشير "آغاخان" إلى الأثر الذي خلفته مهمته هذه في مصر في أثناء الحرب العالمية الأولى لدى البريطانيين، مما يؤكد نجاحه فيها فيقول في مذكراته: "وفي الهند أدركت من مقدار الثناء والشكر المندفع الذي استقبلني به نائب الملك فما دونه – أننا قمنا بعمل رائع" في خدمة الأهداف البريطانية بطبيعة الحال[١٥].

وعلى أية حال فقد كان وصول حملة "الجنرال اللنبي" إلى القدس واحتلالها في اليوم التاسع من ديسمبر سنة ١٩١٧ ثم زحفها إلى دمشق والسيطرة عليها في اليوم الأول من أكتوبر ١٩١٨[١٦]، يشكل بداية النهاية للدولة العثمانية، وانتقلت الإدارة في القدس آنذاك من السلطة العثمانية إلى السلطة البريطانية. وكان جيش الشريف حسين بقيادة ابنه فيصل يتجه شمالاً إلى سوريا حيث استثمره اللنبي.

كجناح أيمن أثناء تقدمه عبر فلسطين ثم سوريا ليدفع عنه أية هجمة تركية من جهة البحر الأحمر(١٧).

لقد انضمت إلى قوات " الجنرال اللنبى" قوة تشكلت من متطوعى اليهود قوامها من ٥٠٠٠ إلى ٥٥٠٠ مقاتل وعرفت باسم"فيلق اليهود Jewish Legion" كان هدفها كما رسم زعماء الحركة الصهيونية مساعدة القوات البريطانية فى تخليص فلسطين من أيدى الأتراك، غير أن الحقيقة الباطنة هى استخدام هذه القوة اليهودية فى المساومة السياسية مع بريطانيا من أجل إنشاء الوطن القومى، ولتكون نواة الجيش الذى يتولى حماية الكيان الصهيونى فى فلسطين بعد عودتهم مصقولين بخبرة هذه الحرب. وقد وصل هذا التشكيل العسكرى اليهودى إلى فلسطين ليضم بعدها إلى الجيش البريطانى تحت اسم "فرقة المشاة الملكية"(١٨). وقد بالغ بعض المؤرخين فى الدور الذى لعبه الفيلق اليهودى فى الحرب البريطانية التركية فى فلسطين غير أن الأحداث أكدت أن وصوله إلى منطقة الملاحة بواحة الأردن فى منتصف عام١٩١٨فى وقت كانت العمليات فيه قد بدأت تهدأ إلى أن تم انتهاؤها رسمياً فى الحادى والثلاثين من أكتوبر عام ١٩١٨(١٩).

وهناك دور آخر لعبه اليهود لخدمة الإنجليز عن طريق التجسس لحسابهم قبل الحرب وبعد نشوبها حيث أمدوهم بالمعلومات اللازمة عن تحركات الأتراك. وقد لعب يهود فلسطين وسوريا الدور الرائد فى هذه المضمار باعتبار أن القدس كانت مركزاً لكبار ضباط الأتراك ومنها يشرفون على التحركات والاستعدادات العسكرية أثناء الحرب العالمية الأولى(٢٠). لقد تم هجوم البريطانيين على القدس فى اليوم الثامن من ديسمبر سنة ١٩١٧ حيث حوصرت المدينة وطوقت من ثلاث جهات من الشمال والشرق والغرب. وقد حاولت الحامية التركية فى القدس القيام بهجمات وغارات مضادة خلال العشرة أيام الأخيرة قبل سقوط القدس

لمشاغلة القوات البريطانية المحاصرة للمدينة حيثما تصل الإمدادات التركية، ومن جهة أخرى صرفاً لنظر القوات البريطانية عما كان يتم من تحصين للتلال الواقعة غرب القدس.

غير أن " اللنبى" استثمر هذه الهجمات فى إنهاك الجزء الأعظم من قواهم الاحتياطية والتى كان من المفروض أن تظل فى خنادقها ثابتة لرد الغارات التى توجه إليها. ومن جهة أخرى قام بتحسين الطرق المتجهة جنوب وغرب القدس لتتحمل سير المدافع عليها، كما تم إحضار الذخيرة وإمدادات المياه.(٢١)

وقد أيقن الأتراك فى القدس أنهم خسروا المعركة، وعلى ذلك قرروا الانسحاب من القدس حرصاً على سلامة وصيانة المقدسات من كل أذى وكلفوا رئيس البلدية حسين سليم الحسينى وأعيان المدينة الذين اجتمعوا فى دار المتصرف أن يسلموا المدينة إلى الإنجليز فيدخلوها سلماً. وفى صباح اليوم التاسع من ديسمبر ذهب رئيس بلدية القدس وبعض الأعيان إلى حى الشيخ بدر غرب المدينة، وهم يحملون العلم الأبيض وسلموا المدينة رسمياً فى الظهيرة للجنرال "شيا Schea" قائد الفرقة الستين(٢٢). وقد أشار فى وثيقة التسليم إلى أن "الحكومة العثمانية قد حافظت على الأماكن المقدسة ولهذا فهم يأملون أن تكون المعاملة من قبلك (أى من قبل البريطانيين) على هذا الوجه".(٢٣) وعلى أية حال فقد غادر آخر جندى تركى عثمانى القدس فى صباح اليوم التاسع من ديسمبر سنة ١٩١٧ باتجاه أريحا، كما أتجه آخرون جهة نابلس لينتهى بذلك الحكم العثمانى الذى دام زهاء أربعة قرون. وقد تعرضت قوات الحملة لمقاومة عنيفة من مؤخرة الحامية العثمانية عند جبل الزيتون ولكن الإنجليز تغلبوا عليها بعد اشتباك بالحراب، وما أن بدأ توافد الجنود البريطانيين على القدس حتى استقبلهم السكان وبعض السيدات الأمريكيات بالترحاب، ثم تبع ذلك وصول "اللنبى" فى الحادى عشر من ديسمبر سنة ١٩١٧، من الباب المعروف باب الخليل وقد ترك

سيارته ودخل على قدميه وخلفه أركان حربه وبعض الضباط الفرنسيين الذين شاركوا فى الحملة[٢٤]، ثم دعيت الجهات المسئولة بموجب بطاقات خاصة من رؤساء الأديان والمجلس البلدى والوجهاء وكبار الموظفين وممثلى القرى للاجتماع فى الساحة الواقعة بين القلعة قرب باب الخليل لاستقبال "اللنبى" والسلام عليه والاستماع إلى خطابه الذى سيلقيه من فوق منصة أقيمت له أمام مدخل القلعة الرئيسية. فما أن وصل موكب "اللنبى" إلى الساحة حتى انطلقت الأكف بتصفيق له هدير عظيم، وترجل "اللنبى" ورهطه عن خيولهم ثم صافح مفتى القدس الشيخ كامل الحسينى ورئيس بلديتها حسين سليم الحسينى وبطاركة المسيحيين وحاخام اليهود. وقد أخذت أجراس الكنائس برمتها تقرع فرحاً بسقوط القدس ومن جملتها الكنائس الألمانية، وكأن ما خسرته ألمانيا سياسياً بهذا السقوط يعزيها بعودة البلاد المقدسة دينياً إلى أيدى المسيحيين[٢٥].

ومهما كان من وصف لما حدث من استقبال للقائد البريطانى "اللنبى" عند دخوله إلى القدس فلقد أشار بيده لجمهور المجتمعين، ثم صعد إلى المنصة وأخذ يلقى خطابه المرتقب، على حين كان الجنرال جلال باشا ملازماً له ليقوم بالترجمة العربية. وما أن بدأ خطابه حتى قوبل بالتصفيق، غير أنهم ما لبثوا أن توقفوا عندما تحدث فى خطابه عن الحروب الصليبية على القدس، خاصة عندما أنهى خطابه بقوله: "اليوم انتهت الحروب الصليبية"، فى حين أغفل دور العرب ولم يشر إليهم بكلمة واحدة، فضلاً عما بدا عليه من غطرسة ولهجة قاسية وهو يلقى كلماته[٢٦] كما أنه لم يسمح برفع العلم العربى على فلسطين[٢٧]، وعلى ذلك فقد تعالت أصوات الاعتراض والتساؤل "هل سقطت بيت المقدس فى أيدى الأفرنج بعد أن خرجوا منها فى الحروب الصليبية منذ ثمانمائة وتسع عشرة سنة"[٢٨]. ولهذا فقد استقر رأى المفتى وبعض الأعيان على الخروج من هذا الاجتماع، فما أن أنهى "اللنبى" كلمته حتى انسحبوا دون أن يصافحوه احتجاجاً

على ما قاله، ولم يكن الاحتفال قد انتهى ولم يكن "اللنبى" قد غادر منصة الخطاب بعد(٢٩).

وقد أعلن "اللنبى" فى خطابه فى مدينة القدس الأحكام العرفية وأكد أنها نافذة المفعول ما دام ثمة ضرورة حربية" ولئلا ينالكم الجوع كما نالكم على أيدى الأتراك، أريد أن أخبركم أنى أرى كل واحد منكم قائما بعمله وفقا للقانون ودون أن يخشى أى تدخل من أى شخص كان". كما أكد على صيانة الأماكن المقدسة لجميع الطوائف بقوله: "أود أن أحيطكم علما بأن جميع المعابد والأماكن المقدسة ستصان وفقا للعنعنات المرعية وبالنسبة إلى تقاليد الطوائف التى تملكها"(٣٠) وما أن أتم اللنبى هذا الإعلان حتى قامت حامية هندية بوضعه على الحرم الشريف بعد أن كتب بعدة لغات.(٣١) كما أن أوليات الأعمال البريطانية عقب دخول البريطانيين إلى القدس مباشرة أن أقاموا عند مدخلها الغربى نصباً من الرخام الأبيض تذكاراً لدخولهم القدس ونقشوا عليه اسم "اللنبى" والتاريخ الذى احتلت فيه المدينة على يده، وأنشئوا حول النصب حديقة وأرادوا أن يرفعوا على النصب صليبا، إلا أنهم عدلوا عن ذلك استجابة لرغبة اليهود فوضعوا الصليب بشكل لا يراه الناظر من بعيد(٣٢).

وعندما ترامت أخبار دخول"اللنبى" إلى القدس إلى مجلس الحرب فى لندن فقد أبرق إلى"اللنبى"مهنئاً إياه على هذا الإنجاز، ولكنه فى نفس الوقت طلب منه السرية التامة حتى يعلم هذا النبأ فى مجلس العموم البريطانى، إذ أن سقوط القدس جاء محققا للأهداف البريطانية، وكما أشيع آنذاك أن"لويد جورج" رئيس الحكومة البريطانية قد حصل بسقوط القدس على هدية عيد الميلاد.

وقد اجتاحت العالم المسيحى فرحة غامرة باستعادة الأماكن المقدسة من قبضة المسلمين الأتراك، وقد اعتبروا انتزاعها خطوة فى سبيل زعزعة وإذلال الخلافة الإسلامية العثمانية بعد أن تم إخراج قواتها من المدينتين المقدستين مكة

والمدينة. وأحدثت حركة الشريف حسين التى عرفت بالثورة العربية "جرحاً لا يندمل فى جسد الدولة العثمانية واستمرت تعمل لاستنزاف المزيد من قوة الأتراك آنذاك[٣٢]. إذ بلغت خسائر الأتراك فى الفترة من ٣١ أكتوبر سنة ١٩١٧ وهو تاريخ سقوط بئر سبع وحتى سقوط القدس فى التاسع من ديسمبر من نفس السنة نحواً من ٢٥ ألف من القتلى و١٢ ألف من الأسرى، وأعداد ضخمة من الغنائم المادية منها ١٠٠ مدفع من أنواع متعددة، عدا المدافع الرشاشة، وأكثر من ٢٠مليون طلقة ذخيرة من طلقات البنادق، و٢٥٠ ألف من طلقات المدافع وأكثر من ٢٠ طائرة وقد حطمتها وحدة الطيران الملكى أو احترقت عند محاولة الأتراك تجنب الوقوع فى الأسر[٣٣]. كما أن معظم أسرى الأتراك كانوا من العرب الذين لم يقاتلوا بل استسلموا للجيش المهاجم تجاوباً مع حركة الشريف حسين، كما بلغ إجمالى الخسائر البريطانية منذ سقوط العريش وحتى سقوط القدس نحواً من ١٨ ألف قتيل و٣ آلاف أسير[٣٥].

وبسقوط القدس أصبح أمام القوات البريطانية مصدرين من مصادر الإمداد، الأول من البحر عبر يافا، والثانى من شرق الأردن، ولم تعد هناك حاجة ماسة للحصول على الإمدادات فيما حول المدينة. بناء على هذا التيسير فى الإمداد بدأ "اللنبى" يضع خطته فى ٢٠-٢١ ديسمبر لتأمين مدينة القدس ضد أية محاولات من جانب الأتراك لاستردادها. وعلى الفور ثبت "اللنبى" الفرقة الستين أمام القدس، كما وزع قواته من الفرقتين ٧٤، ١١٠ على مدى خمسة كيلو مترات من شمال القدس، وقدادى إلى إجبار الأتراك على الانسحاب شمالاً، وتقدمت بعد ذلك الفرقة الثانية والخمسين لمتابعتهم حتى وصولهم قرب يافا. كما قامت الطائرات البريطانية بقصف المواقع التركية الممتدة من شمال القدس حتى شمال يافا، كما قدم الأسطول البريطانى الدعم اللازم بقصف هذه الجهة، حتى كاد الأتراك أن ينهزموا لولا وصول المدد إليهم فتوقفت القوات البريطانية عن ملاحقتهم، وعليه

فقد تمكن الأتراك من الانسحاب بعد أن خسروا في هذا الهجوم حوالى ألفا من جنودهم، كما تم أسر ٥٥٠ جندى منهم.(٣٦) ونظرا لظروف الطقس السيئة في شهر ديسمبر سنة ١٩١٧ وبعد أن بلغت القوات البريطانية أقصى درجاتها من الإنهاك بعد هذه العمليات المتلاحقة فقد بات من المحتم على "اللنبى" أن يوقف العمليات الحربية مؤقتا حتى يحصل على ما يلزمه من تجهيزات لاستئناف العمليات الهجومية وقواته في كامل عددها وعدتها(٣٧).

ومن المعروف أن القوات العربية التي كانت تابعة للشريف حسين ستواصل مهمتها للوصول إلى دمشق حيث ستلحق بها القوات البريطانية بقيادة "اللنبى" الذى سيقوم بزيارة مدينة دمشق في اليوم الثالث من أكتوبر سنة ١٩١٨م عقب دخول القوات البريطانية والعربية فيها في اليوم الأول من نفس الشهر. وقد نزل بفندق "فيكتوريا" ثم وصل بعده بقليل الأمير فيصل بن الحسين ليلتقى الرجلان وجها لوجه ولأول مرة، وعلى الفور شرع الرجلان في تداول الموقف العسكرى عن طريق "لورانس" الذى تولى عملية الترجمة فيما بينهما(٣٨). وقد أكد "اللنبى"في حديثه على أن الأراضي التي تم تحريرها من الأتراك في سوريا والتي تعرف باسم أراضي العدو المحتلة "Occupied Enemy Territory" ستخضع خضوعا مباشرا لادارته العسكرية باعتباره القائد الأعلى للعمليات العسكرية التي لم تنته بعد وذلك على الرغم من تقسيم المنطقة إلى ثلاثة مناطق إدراية على النحو التالي:

أ- المنطقة المحتلة الشرقية: تضم المنطقة الواقعة من شرق الأردن بداية من العقبة وحتى دمشق والتي تضم لواء الكرك وحوران وعجلون في شرق الأردن ودمشق وعمان حتى القسم الجنوبى من حلب، على أن يتولى الأمير فيصل بن الحسين هذه المنطقة

ب- المنطقة المحتلة الغربية: وتضم لبنان وكل المنطقة الساحلية من سوريا من عكا وحتى الإسكندرونه وقد وضعت تحت الإدارة الفرنسية.

ج- المنطقة المحتلة الجنوبية : وتضم المنطقة الواقعة غرب الأردن التى تتضمنتها فلسطين وقد وقعت تحت الإدارة العسكرية البريطانية(٣٩)

ومن الملاحظ أن "اللنبى" فى حديثه مع فيصل بن الحسين كان حريصا على أن يضع إتفاقية "سايكس - بيكو" فى عام ١٩١٦ موضع التنفيذ الفعلى دون إشارة صريحة لها. ولم يكن هذا بالشئ الجديد فقد كان "اللنبى" حريصاً منذ تولية القيادة العامة فى يونيو ١٩١٧ على اتخاذ كل ما يكفل تنفيذ اتفاقية "سايكس - بيكو" بناء على توصية كل من "لويد جورج" رئيس الوزراء "وكلايتون" وزير الخارجية البريطانية، ومن ثم فقد راح يتفق والأمير فيصل بن الحسين على أن من يحرر من كلا الفريقين البريطانى أو العربى منطقة ما تؤدى إليه إلى أن يبحث مؤتمر الصلح الذى ينعقد بعد الحرب فى أمرها. وكان يتيح هذا الاتفاق للقوات العربية وحدها دخول المناطق الداخلية من سوريا فينسب فتحها لها، ومن ثم يحق لها ارتدادها مؤقتا إلى ما بعد الحرب، وقد فعل هذا مع القوات الفرنسية بالنسبة للساحل السورى كما قام بإقرار إدارة بريطانية على فلسطين بما فيها القدس بعد أن دخلتها القوات البريطانية، وذلك طبقا لما لبريطانيا من مصالح فيها(٤٠). وقد علق فيصل على هذا التقسيم الذى رآه بعينه أمراً واقعاً حينما توجه لباريس لحضور مؤتمر الصلح عام١٩١٩ بقوله: "إن أول ما أصابني من خيبة الأمل لما أعلمني اللنبى أن سوريا قد قسمت إلى ثلاثة أقسام، وأن هذا التقسيم مؤقت ليس إلا، وأما الضربة الثانية فى تصديق معاهدة سايكس - بيكو التى كذب خبر وجودها فى أول الأمر. وقد رأيت بعينى هاتين مصير بلادى المقسمة إلى ثلاثة مناطق، فكان علينا والحالة هذه أن ننظر إلى الحقيقة المجردة وأن نجابه الأمر الواقع، ولما أعلنت قرارات الحلفاء فيما يختص بسوريا وفلسطين كان موقف

والدى مؤثرا فيما يتصل بخيبة الأمل التى نزلت به والذى لم يكن يعتقد أبدا أن النهاية ستكون كما رأى(٤١). وهكذا كان احتلال القوات البريطانية للقدس فى اليوم التاسع من ديسمبر ١٩١٧، ثم دخول " اللنبى" الرسمى إليها فى اليوم الحادى عشر من نفس الشهر مؤشرا واضحا لنهاية الحكم العثمانى فى القدس وفى فلسطين بوجه عام(٤٢).

وقد اعتبر القوميون العرب آنذاك أن ذلك يعد خطوة فى سبيل تحقيق أمانيهم القومية فى إقامة دولة عربية مستقلة فى الحجاز والعراق وسوريا طبقا لما تم الاتفاق عليه فى محادثات الشريف حسين ـ مكماهون. على أن الهدف البريطانى فى هذا الاتفاق كان مغايرا تماما لأمانى العرب، وبصفة خاصة فيما يختص بفلسطين، إذ كان يرمى إلى الاستئثار بها دون العرب واتخاذها دولة حاجزة بين البريطانيين فى مصر والفرنسيين فى سوريا وذلك للتمكين لليهود فى فلسطين طبقًا لوعد بالفور الصادر فى ٢ نوفمبرسنة١٩١٧.

ولما كان " اللنبى " قائداً أعلى للعمليات العسكرية التى لم تكن قد انتهت بعد فقد اعتبر فلسطين بما فيها القدس جزءا من أراضى العدو المحتلة فى سوريا من ثم فقد عرفت باسم أرض العدو المحتلة الجنوبية وقد خضعت مباشرة لإدارة عسكرية بريطانية على رأسها "اللنبى" كقائد عام وممثل لوزارة الحربية البريطانية التى تتلقى أوامرها وتعليماتها من وزارة الخارجية لكونها المسيرة لشئون المستعمرات البريطانية الخارجية آنذاك(٤٣).

وقد حرص "اللنبى" عقب دخوله القدس فى الحادى عشر من ديسمبر سنة١٩١٧ على القضاء على كل محاولة عربية تشير أو تعمل على تثبيت نفسها فى فلسطين مهما كانت ضئيلة، وعندما هم العرب فى القدس برفع الأعلام العربية على أبنية الحكومة، إلا أن ذلك لم يرق "للكولونيل اللنبى" بالطبع فكانت أولى أوامره إنزال هذه الأعلام مشيرا إلى أنه لا خوف من ذلك طالما أن الحرب

لم تنته بعد وما هذا الإجراء إلا عملا مؤقتا إلى أن تتم التسوية النهائية فى مجلس الصلح الذى سينعقد بعد الحرب، ونجح " اللنبى" بهذا فى تبديد المخاوف العربية ومن ثم فقد رضخوا لإجراء "اللنبى" هذا(٤٤).

وأعقب " اللنبى " هذا الأمر بإلقاء بيانه من قلعة صلاح الدين مؤمنا الأماكن المقدسة والسكان على اختلاف مللهم، على أن ينصرف كل إلى عمله دون أن يخشى شيئا، كما أكد على استمرار الأحكام العرفية وخضوع البلاد للإدارة العسكرية البريطانية. وحرصا من "اللنبى" على عدم حدوث هياج بفلسطين فقد أصدر أوامره بنزع السلاح ممن تبقى من الأتراك مع السماح لمن كان يقيم منهم مع السكان بالبقاء فى دورهم. وفى نفس الوقت أكد على ضرورة إشاعة الأمن والطمأنينة بين السكان محذرا من القيام بنزع السلاح من السكان أو القيام بقمع أية رابطة إسلامية حتى لا يتسبب هذا فى هياج السكان وربما يؤدى إلى قيامهم بالثورة وإنما من الأفضل الانتظار إلى أن يتم تجميع الجند داخل البلاد. ولكن هذا لا يعنى أن تسود الفوضى البلاد وإنما تقمع أية محاولة لإثارة الاضطراب والقلاقل حتى وإن لم يكتمل وصول الجند، ومن جهة أخرى فقد كان "اللنبى" حريصا على التغلب على مشكلة الإمداد والتموين - خاصة وقد توقفت التجارة طوال سنوات الحرب، كما وأن "رونالد ستورث" الحاكم العسكرى للقدس قد أبرق فى أعقاب دخول الجيش البريطانى إلى القدس فى التاسع من ديسمبر ١٩١٧ عن مدى صدمته للمنظر الذى لقيه فيما يخص حال الحيوان والنبات ومدى معاناة الفلاح والسكان من أثر المجاعة "حتى بات يخشى على نفسه من الصياح أمام مكتبه"وعلى ذلك فقد أمر بمصادرة كل مستودعات الأتراك فى فلسطين لإطعام البلدة والقوات البريطانية المتواجدة داخل البلدة وكذلك من تبقى من جند الأتراك.

وتجدر الإشارة إلى أنه خلال مدة الحكم العسكرى فى فلسطين أثناء فترة الحرب فقد قسمت إداريا إلى عدة مناطق كان بعضها من الدرجة الأولى والبعض

الآخر من الدرجة الثانية، والبعض الآخر من الدرجة الثالثة على النحو التالي:-

أولاً: مناطق الدرجة الأولى:

أ- القدس وملحقاتها - بيت لحم - رام الله - اريحا.

ب- حيفا - عكا وملحقاتها.

ج- الناصرة - طبرية - صفد وملحقاتها.

ثانيا: مناطق من الدرجة الثانية:

أ- يافا واللد والرملة وملحقاتها.

ب- نابلس وتوابعها.

ثالثا: مناطق الدرجة الثالثة:

أ- الخليل وملحقاتها.

ب- المجدل وملحقاتها.

ج- جنين.

ء- طولكرم.

ه- بئر سبع[٤٥].

وقد اتبع "اللنبى" تقسيم فلسطين إداريا بأن جعل هناك وظيفتين أساسيتين أولهما الحاكم العسكرى للقدس وهو مسئول أمامه مباشرة، وكان أول من تولى هذه الوظيفة "الجنرال بيل بورتون Bill Borton" وقد استهل عمله بتعيين أعضاء جدد لمجلس بلدية القدس، إلا إنه لم يمكث أكثر من أسبوعين استقال بعدها لأسباب صحية، فخلفه فى الإدارة "السير الكسندربيرد Sir Alexander Baird" ثم خلفه " السير رونالد ستورز Sir Ronald Stors" السكرتير الشرقى لدار المندوب السامى البريطانى فى القاهرة، وأما الموظف الثانى فكان مسئولا عن إدارة فلسطين بأجمعها ولقبه المدير العام لبلاد العدو المحتلة الجنوبية، وكان أول من شغل هذا المنصب "الجنرال كلايتون Clayton" فى سنة ١٩١٧، ثم

خلفه "الجنرال واطسن Watson" في سنة ١٩١٩ "فالميجور بولز" في سنة ١٩٢٠ وقد اتخذ المدير العام لبلاد العدو المحتلة الجنوبية من يافا مقرا له، وعين لكل قسم من أقسام فلسطين حاكما عسكريا(٤٦).

وهكذا تم وضع حجر أساس الإدارة العسكرية في فلسطين فقد كان الضابط السياسي العام مرتبطا بالإدارة السياسية في القاهرة عن طريق المكتب العربي وذلك لضمان تنفيذ المخططات والأطماع البريطانية في هذه المنطقة، ولكن في سنة ١٩١٨ استقلت الإدارة العسكرية البريطانية في فلسطين بذاتها ولم تعد مرتبطة بالإدارة السياسية في مصر.

وتجدر الإشارة إلى أن الإدارة البريطانية في فلسطين بوجه عام وفي القدس بوجه خاص مضت في العمل على تقوية قبضة اليهود في البلاد فمنحتهم وحدهم درجة في المحاكم مع حق تعقيب أو مراجعة الجناة، ثم اتبعت هذه الخطوة بتعيين مستشار يهودي لمحاكمها للنظر في أمور اليهود الخاصة، كما راحت تكون من اليهود فرقة ألحقتهم بالبوليس وجرى تسليحهم تسليحا كاملا ووضعتهم داخل فلسطين للحفاظ على الأمن العام بها، غير أن تعدياتهم على السكان قد زادت عن الحد فكانوا محل سخط واحتجاج لدى الحاكم العسكري من قبل الجمعية الإسلامية المسيحية التي طالبت بأن يكون للعرب مثل هذا الحق، ولكن لم يكن هناك من يجيب(٤٧).

كما راحت الإدارة العسكرية تسند أعمال البناء في جملتها لليهود فقط دون سائر الطوائف الأخرى المسلمة والمسيحية ولمواجهة القصور في أعداد اليهود كانت تستقدم كل أسبوع أعداداً من اليهود الروس للعمل بدائرة الأشغال والعدلية وسائر دوائر الحكومة، رغم أن هذا كان يكلف الإدارة اكثر مما لو قام الوطنيون بمثل هذه الأعمال. كما طبقت الإدارة العسكرية هذا النظام على سائر المهن وقصرت تعاملات البنك الإنجليزي اليهودي على اليهود فقط دون الفلسطينيين

من المسلمين والمسيحيين، وقد ترتب على ذلك أن أصبح كبار التجار في فلسطين من اليهود، وكان استمرار مثل هذا العمل من شأنه أن تتحول كل التجارة إلى اليهود فقط وتنعدم تجارة العرب من المسلمين والمسيحيين الفلسطينيين(٤٨).

وزاد الطين بلة ما اتخذته الإدارة العسكرية في أواخر عام ١٩٢٠ من منع تصدير القمح والشعير والذرة رغم أنه زاد عن الحاجة فتوقف دولاب العمل بين التاجر والمزارع واضطر الفلاح إلى الاقتراض بفوائد باهظة وازدادت الحالة سوءاً بعد ما أغلقت الإدارة المصرف الزراعي وطالبت الفلاحين بتسديد الديون التي عليهم لهذا المصرف. وفوق هذا فقد راحت الإدارة البريطانية تفتح باب الهجرة أمام اليهود على مصراعيه بعد أن ألغت قانون الورقة الحمراء الذي سنه الأتراك والذي كان يقضي بحق المهاجر في الإقامة بالبلاد لمدة لا تزيد عن ثلاثة أشهر، ومن ثم فقد زادت الهجرة اليهودية إلى فلسطين وتزعزعت ثقة السكان في بريطانيا وتوالت المظاهرات وتحولت في ربيع ١٩٢٠ إلى اضطرابات كان أشدها الذي حدث في القدس في ٤ أبريل ١٩٢٠، فقتل من جرائه ٩ من اليهود و٤ من العرب وجرح ٢٥٠ يهودياً و ٢١ عربي ومن ثم فقد تشددت الإدارة العسكرية في تطبيق الأحكام العرفية واعتقلت أعداداً من الزعماء والشبان وزجت بهم في أعماق السجون، وتألفت المحاكم العسكرية لمحاكمتهم، فتراوحت أحكامها بين السجن لمدة شهر وخمسة أعوام، وكان من نصيب عارف العارف ورفيقه الحاج أمين الحسيني الحكم بالإعدام إلا أنه خفض إلى السجن لمدة عشرة سنوات(٤٩).

وعلى أية حال فما أن أعلن مؤتمر "سان ريمو" مقرراته في ٢٥ أبريل ١٩٢٠ وكان من بينها بنداً يقضي بوجوب الانتداب البريطاني على فلسطين حتى كان ذلك مؤشراً بانتهاء الحكم العسكري البريطاني ليحل محله حكومة مدنية، وضع على رأسها "هربرت صموئيل" كمندوب سامي بريطاني لتنفيذ وعد

"بالفور". وبوجه عام فإنه لا يمكن القول بأن الحكم العسكرى البريطانى الذى أمتد بين عامى ١٩١٧ ـ ١٩٢٠، قد أهتم بتنظيم البلاد والعمل على دفعها نحو التقدم وإنما جاءت هذه الإدارة بتدابير مؤقتة هدفها مساعدة العناصر اليهودية والتمهيد لإقامة إدارة مدنية(٥٠).

ومن ثم فقد تم اختيار رجال الإدارة على عجل من بين رجال الجيش البريطانى والموظفين المدنيين البريطانيين من الذين كانوا يعملون فى ذلك الوقت فى مصر. ولم تكن لدى إدارة الحكم العسكرى هذه التعليمات من وزارة الدفاع أو الخارجية البريطانية فقد انصب اهتمامها الأساسى على المحافظة على بقاء الأمور كما كانت عليه وذلك حتى تقوم فى البلاد إدارة مدنية تدفع البرنامج اليهودى فى فلسطين قدما. وبالفعل فما أن وصل" هربرت صمونيل " ليتولى الإدارة المدنية فى يوليو ١٩٢٠ كمندوب من قبل ملك بريطانيا بعد ما عهد إليه بمهمة تنفيذ وعد "بالفور" وجعل فلسطين وطناً قومياً لليهود حتى شرع من فوره فى جعل اللغة العبرية لغة رسمية إلى جانب الإنجليزية والعربية، وسعى لتدفق الهجرة اليهودية بشكلها المكثف إلى فلسطين حتى امتلأت بهم الوظائف فى دوائر الحكومة، كما قام بتنظيم قوانين الأراضى بالشكل الذى يكره الفلاح الفلسطينى العربى على بيع أراضيه، كما سلم اليهود، جميع وسائل الصناعة فى البلاد، وعين يهودياً مشرفاً على أوقاف المسلمين وسخر حكومة الانتداب لتسهيل إنشاء المستعمرات اليهودية، كما سهل شراء السلاح لليهود. وبمثل هذا النهج عمل "هربرت صمونيل" على تهويد البلاد وتثبيت دعائم الوطن القومى لليهود فجعل من القلة اليهودية أصحاباً للبلاد. وقد مهدت الإدارة العسكرية البريطانية لهذا السبيل من قبل، واستأنفت المسيرة حكومة الانتداب فسهلت تنفيذ احتكار بحيرة الحولة ومشروع البحر الميت، وقد كانت هذه المشاريع كما ذكرت صحف كثيرة آنذاك دعامة من دعائم الكيان اليهودى فى فلسطين. وانتهى الأمر إلى فصل

فلسطين أو سوريا الجنوبية عن سائر البلاد السورية، وقد عبرت عن هذا الموقف جريدة الأهرام فى أواخر عام ١٩١٨ بقولها: "وتركزت السياسة الإنجليزية فى تمكين الصهيونية من هدم الجزء العربى من سوريا الجنوبية وأضحى الشعب العربى فى فلسطين يئن تحت الحكم العسكرى البريطانى الذى أشرف على برنامج التهويد"(٥١).

وثمة أمر أخير فقد كانت القدس فريسة سهلة لحملة "اللنبى" فى نهاية عام ١٩١٧ نتيجة للدور الذى لعبته حركة الشريف حسين التى عرفت " بالثورة العربية " فى دعم تلك الحملة التى بدت فى رؤوس مخططيها ومنفذيها وعلى أعلى المستويات البريطانية حملة صليبية للاستيلاء على فلسطين بالدرجة الأولى ولتدمير الروابط العربية والإسلامية وتصفية الدولة العثمانية معقل الخلافة الرابطة للعالم الإسلامى آنذاك واقتسام سائر أملاكها بين إنجلترا وفرنسا، فكانت القدس على حد طلب "لويد جورج" من "اللنبى" هدية عيد الميلاد للشعب البريطانى" كما أحدث احتلالها صدى بعيداً فى العالمين الإسلامى والمسيحى، هذا فضلاً عن أنه بعث الأمل فى الإمبراطورية البريطانية التى أنهكتها حينذاك معارك الحرب العالمية الأولى.

وقد مهدت بريطانيا كل السبل لتقديم القدس ـ طوال فترة الانتداب بين عامى ١٩٢٠ ـ ١٩٤٨ وفى أعقابها ـ للكيان الصهيونى الذى أعلن قيام دولة إسرائيل، التى تسعى لأن تكون القدس عاصمة أبدية لها، متجاهلة بذلك حق الشعب الفلسطينى والأمة العربية وقرارات الأمم المتحدة وكافة الخطوات التى اتخذت من أجل بناء سلام عادل، تساندها فى ذلك الولايات المتحدة الأمريكية التى صادرت على خطى السلام بقرار نقل سفارتها لدى إسرائيل من تل أبيب إلى القدس، رغم الاتفاقات التى تمت فى المسيرة السلمية حول تأجيل التفاهم حول القدس للمراحل الأخيرة من المفاوضات، ورغم الأولوية التى تحظى بها القدس

فى تلك المسيرة لدى كافة الأطراف المعنية فى عالمنا المعاصر. كما لم تستجب دولة الكيان الصهيونى للمبادرات السلمية العربية ولا لتنفيذ خريطة الطريق التى تؤيدها الولايات المتحدة الأمريكية من أجل إعلان قيام دولة فلسطينية مستقلة إلى جانب "إسرائيل" التى تصر وتواصل بناء الجدار العنصرى الفاصل الذى يطغى على حقوق الشعب الفلسطينى ويهدد إقامة دولته المستقلة على أرضه وعاصمتها القدس الشريف، هذا فضلاً عما تشهده منطقة الشرق الأوسط فى الآونة الأخيرة من هيمنة أمريكية امتدت إلى أفغانستان ثم إلى العراق، فضلاً عن دعاوى العولمة، ودعاوى إعادة رسم خريطة المنطقة التى يستغلها غاية الاستغلال الكيان الصهيونى، فهل يسهم ذلك فى تقدم مسيرة السلام فى الشرق الأوسط أم يقف حائلاً غير شرعى فى مواجهتها ؟!

هوامش البحث

(١) ساطع الحصري: البلاد العربية والدولة العثمانية، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٦٥، ص ٢٤٠-٢٤٦.
(٢) دكتور عبد العزيز عوض: الإدارة العثمانية في ولاية سورية ١٨٦٤ ـ ١٩١٤، دار المعارف بمصر ١٩٦٩، ص ٣١٩.
(٣) محمد حسنين هيكل: المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل، الإسطورة والإمبراطورية والدولة اليهودية، دار الشروق، الطبعة الخامسة ١٠ مايو ١٩٩٦، ص ٣١-٣٤.
(٤) محمد حسنين هيكل: المرجع السابق، ص ٤٥-٤٦.
(٥) دكتور حسن صبري الخولي: فلسطين بين مؤتمرات الصهيونية والاستعمار ـ إدارة الإعلام والنشر ـ بالقاهرة، ص ٩.
(٦) دكتور محمد عصمت شيخو: سورية وقضية فلسطين ١٩٢٠ ـ ١٩٤٩، دمشق ١٩٨٢، ص ٥٠.
(7)Rathwell, V. H.: Misopotamia in British War Aims 1914-1918., The Historical Journal III, London, 1970, P. 273,274.
(8)Marlow, J.: The Persian Gulf in the 20 th Century, London, 1926, P. 44.
(٩)دكتور فاروق عثمان أباظه: مستقبل الجانب الشرقي من الدولة العثمانية في نظر حكومة الهند البريطانية في بداية لحرب العالمية الأولى، دار المعارف بالإسكندرية، ١٩٨٦، ص ١٦.
(١٠) مذكرات آغاخان: نقلها إلى العربية دار العلم للملايين، بيروت ١٩٥٩، مقدمة الترجمة بقلم عارف تامر، ص ١٩٦.
(١١) مذكرات آغاخان: المصدر السابق، ١٩٧.
(١٢) بسام العسلي: مشاهير قادة العالم، المارشال اللنبي (١٨٦١-١٩٣٦)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨٣، ص ٤١-٤٢.
(13) Wavell: The Palistine Campaigns, New York, 1922, P. 40.
(١٤) دكتور فاروق عثمان أباظه: آغاخان ومهمته في مصر في بداية الحرب العالمية الأولى، دار المعارف بالإسكندرية ١٩٨٠، ص ١١٤. وقد استند إلى المذكرة السرية الذى أعدها "آغاخان"عن الوضع في مصر عقب فرض الحماية البريطانية عليها في ١٨ ديسمبر ١٩١٤، والمحفوظ بدار المحفوظات العامة بلندن.
"Public Record Office" Foreign and Commonwealth Office, India office, Political and Secrete Memoranda, No. 31. Secret, Note by the Aga Khan and M. A. Ali Baig on the situation in Egypt, Port Said, 12th January 1915, pp. 1-9
(١٥) مذكرات آغاخان: المصدر السابق، ص ٢٠٦
(16) Wavell: Allenby Soldier and Stateman, P. 40, 41.
(١٧) أمين سعيد: الثورة العربية الكبرى ـأسرار ومأساة الشريف حسين، دار الكتاب العربي بيروت، الجزء الثاني، ص ٢١٣.
(١٨) محمود سعيد عبد الظاهر، الصهيونية وسياسة العنف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩، ص ١٢٣.
(١٩) سهام نصار: اليهود المصريون بين المصرية والصهيونية، دار الوحدة، بيروت ١٩٨٠، ص ٢٤-٢٥.
(٢٠) محمود سعيد عبد الظاهر: مرجع سابق، ١٢٣.

(21) Wavell: Allenby Soldier and Stateman, P. 166.

(٢٢) وداد فارس مالك: الحركة الصهيونية وصداها من عام ١٩١٧ – ١٩٢٦ (رسالة ماجستير) جامعة القاهرة، ١٩٧٥، ص ١٠٩.

(٢٣) عارف العارف: تاريخ القدس، دار المعارف بمصر، ص ١٣٧-١٣٨.

(٢٤) عارف العارف، المرجع السابق، ص ١٣٨.

(٢٥) محمد كرد على: خطط الشام – الجزء الثالث – دمشق ١٩٢٥، ص ١٤١.

(٢٦) صبحى ياسين: الثورة العربية الكبرى فى فلسطين، القاهرة، ١٩٧٢، ص ٢٠.

(٢٧) وداد فارس مالك: المرجع السابق، ص ١١.

(٢٨) محمد كرد على: المرجع السابق، الجزء الثالث، ص ١٤٩.

(٢٩) صبحى ياسين: الثورة العربية الكبرى فى فلسطين، القاهرة، ١٩٧٢، ص ٢٠.

(٣٠) عارف العارف: المرجع السابق، ص ١٣٨.

(31) Wavell: Allenby Soldier and Stateman, London 14945, p 194.

(٣٢) عارف العارف: المرجع السابق، ص ١٣٩.

(٣٣) بسام العسلى: المرجع السابق، ص ١٣٠.

(34) Wavell: Allenby Soldier and Stateman, P,127

(٣٥) عمر الديرواى: الحرب العالمية الأولى – دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨١، ص ٥٠٣

(٣٦) بسام العسلى: المرجع السابق، ص ١٣١.

(37) Wavell: Allenby Soldier and Stateman, P. 257.

(٣٨) خيرية قاسمية: الحكومة العربية فى دمشق بين ١٩١٨ - ١٩٢٠، دار المعارف بمصر ١٩٧١، ص٥١.

(39) Wavell: Allenby Soldier and Stateman, P. 257.

(٤٠) دكتور توفيق على برو: العرب والترك فى الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ – ١٩١٨ جامعة عين شمس، ١٩٦٤، ص ٣٣٧.

(٤١) أمين الريحانى: ملوك العرب، الجزء الثانى، بيروت ١٩٢٩، ص ١١٩ –١٢٠.

(٤٢) أحمد إبراهيم شحاته: حملة اللنبى على سوريا (١٩١٧ –١٩١٨) رسالة ماجستير قدمت لكلية الآداب بجامعة الإسكندرية، ١٩٩٣، ص ١٦١.

(43) Grant, Michael: Palestine and the Palestinians, 1935-1983, New York, P. 3.

(٤٤) دكتور: عادل غنيم: الحركة الوطنية فى فلسطين ١٩١٧ –١٩٣٦، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٧٠، ص ١١١.

(٤٥) دكتور: عادل غنيم: نفس المرجع السابق، ص ٥-٦.

(٤٦) دكتور: بهجت حسين صبرى: فلسطين خلال الحرب العالمية الأولى: الإدارة العسكرية البريطانية ١٩١٤ - ١٩٢٠ جامعة عين شمس، ١٩٦٥، ص ص ١٩٩- ٢١٢.

(٤٧) من أوراق اكرم زعيتر: وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩١٨ - ١٩٣٩، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت١٩٨٤، ص٤٠.

(٤٨) من أوراق اكرم زعيتر: المرجع السابق، ص٦٠.

(٤٩) عارف العارف: تاريخ القدس، ص ١٤٢.

(٥٠) دكتور عبد الحميد متولى: نظام الحكم فى إسرائيل، معهد الدراسات العربية، القاهرة ١٩٦٤، ص ٢٨.

(٥١) دكتور إحسان عسكر: الصحافة العربية فى فلسطين - الأردن - سوريا - لبنان - مؤسسة سجل العرب، ص ٢٤-٢٥.



مسألة القدس الشرقية

أ.د. محمد محمود إبراهيم الديب
أستاذ الجغرافية الاقتصادية
كلية الآداب – جامعة عين شمس

يحسن قبل مناقشة موضوع القدس الشرقية أن نلقى ضوءاً على تاريخ مدينة القدس، وأهميتها الدينية وظروفها الجغرافية.

أ- مدينة القدس فى التاريخ :

فقد مرت على مدينة القدس عهود تاريخية كثيرة متنوعة من قدامى العرب، إلى اليهود، إلى البابليين، إلى البطالمة، إلى الرومان، إلى البيزنطيين، إلى العرب والمسلمين الأوائل، إلى الصليبيين، إلى العرب والمسلمين الأواخر حتى ١٩٦٧، إلى الإسرائيليين منذ ١٩٦٧ حتى الوقت الحاضر. والغلبة فى هذا التاريخ الطويل لهذه المدينة هو للعرب وللمسلمين.

١- قدامى العرب والقدس :

شيد اليبوسيون الوافدون من شبه الجزيرة العربية مدينة القدس ٢٥٠٠-٣٠٠٠ قبل الميلاد وكانت تسمى وقتها يبوس نسبة إلى أهلها اليبوسيين، وهم فرع من الكنعانيين العرب. ومن ملوكهم صادق، وقيل اسمه سالم فأطلق عليها اسم أورسالم لأنه كان محباً للسلام. وكلمة أور Uru فى اللغة السومرية تعنى مدينة أى أن تاريخها يرجع إلى ٥٠٠٠ سنة مضت، وفى رواية أخرى ٦٠٠٠ سنة.

ولقد ورد ذكر للقدس فى الآثار المصرية التى ترجع للقرن ١٩ ق.م، وأيضاً فى الواح تل العمارنة فى القرن ١٤ قبل الميلاد على أنها إحدى المدن الكنعانية المستقلة، (الدولة المدينة). وكان سكانها فى ذلك الوقت خليط من الكنعانيين واليبوسيين الوافدين من الجزيرة العربية.

ويكتنف الغموض الاسم العبرى لهذه المدينة وتقول إحدى الأساطير (الأكاذيب) اليهودية أن الإله سالم (السلام) Shalem، أحد آلهة اليهود هو الذى بنى مدينة القدس. ويبدو أن المقطع الأول أور Uru من اسم المدينة هو عبارة عن الكلمة السومرية للفظ المدينة (City)، والمقطع الثانى شليم Sh-L-m يعنى السلام فهى مدينة السلام.

٢- المملكة اليهودية المتحدة [١]:

بقيت القدس عندما غزى بنو إسرائيل أرض كنعان (فلسطين) فى يد اليبوسيين، دولة مدينة City State وسط الأرض التى سيطر عليها بنو إسرائيل مكونة من مملكتين متناحرتين هما (مملكة إسرائيل فى الشمال، ومملكة يهوذا فى الجنوب. ووحد داوود المملكتين فى مملكة واحدة وغزى دولة مدينة القدس، واستولى عليها ١٠٠٠ ق.م وجعلها عاصمة للمملكة (القبائل المتحدة) ونقل إليها تابوت العهد.

وخلفه فى حكم المملكة اليهودية ابنه سليمان فبنى المعبد ٢٠× ٢٠ متراً، ووضع تابوت العهد بداخله. وانتهى حكم سليمان ٩٣٠ ق.م. أى أن المملكة الموحدة لإسرائيل دامت ٧٠ عاماً، وكانت فترة غزو، واحتلال، وتدمير، وتقتيل (شعب دموى)[٢]. وانقسمت بعد ذلك مملكة داوود – سليمان إلى مملكتين متحاربتين : شمالية وجنوبية كما كان الحال قبل توحيدهما. وتحولت مدينة القدس فى عهد سليمان إلى مركز تجارى كبير يقع على الطرق التجارية من فنيقيا إلى خليج العقبة، ومن مصر إلى العراق.

٣- انقسام المملكة، النفى (السبى البابلى) والعودة :

لما انقسمت مملكة داوود – سليمان على نفسها أصبحت القدس عاصمة لمملكة يهوذا، وهدمت أشور مدينة القدس وحاصرتها ٧٠١ ق.م. لكنها رفعت الحصار عنها. ولما انتصرت بابل على أشور ومصر أصبحت مملكة يهوذا تابعة لها شأن بقية دول المنطقة. وثارت يهوذا على بابل فاستولت بابل على مدينة

القدس وتم تدميرها وحرقها أمام عيني نبوخذ نصر، وهدم المعبد ٥٨٦ ق.م. وهذا هو التدمير الأول للمعبد، وسبى اليهود إلى بابل لمدة ٥٠ عاماً.

ولما انتصر قورش (قمبيز الثانى) كسرى فارس وملكها على بابل وأراد غزو مصر سمح لليهود بالعودة من منفاهم فى بابل بعد مكثهم هناك ٥٠ عاماً، وسمح لهم ببناء المعبد من جديد ليستعين بهم فى غزوه لمصر. إلا أن عودتهم لم تكتمل إلا ٥١٥ق.م.

٤- الفترة الهيلنية :

استولى اسكندر الأكبر المقدونى على القدس ٣٣٢ ق.م. وانتشرت الثقافة الهيلنية فى المدينة وانقسم سكانها إلى فريقين متناحرين هما : التقليديون والهيلينيون. ولما توفى اسكندر الأكبر ٣٢٣ ق.م دارت الحروب بين خلفائه فى القدس وفلسطين والشرق الأوسط. وادعت أسرتان مقدونيتان هما : البطالمة فى مصر، والسلوقيون فى سوريا أرض فلسطين بما فيها القدس وتمكن البطالمة فى مصر من السيطرة على المنطقة ٣٠١ ق.م وصارت القدس وقتها المركز الإدارى ليهوذا، وتمتعت بدرجة كبيرة من الاستقلال الذاتى، وكانت تدفع الجزية للبطالمة وكان يحكمها رئيس الكهنة ومجموعة من الكهنة الكبار.

وتمكن السلوقيون فى سوريا بقيادة انطيوخوس الثالث Antiochus من احتلال القدس ١٩٨ ق.م. وسمحوا لليهود بممارسة طقوسهم مع منحهم شئ من الاستقلال الذاتى[٣]. إلا أن الثقافة الهيلينية التى انتشرت فى مدينة القدس عمقت الانقسام بين سكانها : التقليديون والهيلينيون. وحاول السلوقيون بعد ذلك تدعيم الثقافة الهيلينية فى القدس فشيدوا ساحة أولمبية بالقرب من المعبد اليهودى لآلهة الإغريق ولممارسة الطقوس الوثنية. وأصدر انطيوخوس الرابع قراراً يحظر مشاهدة طقوس اليهود ١٦٧ ق.م. وجرى تدنيس معبدهم، ونهب كنوزه وتم تحويل المعبد اليهودى إلى ساحة أولمبية للإله الإغريقى زيوس. وأثارت هذه الإجراءات حفيظة اليهود التقليديون فثاروا ضد السلوقيين وانتصروا عليهم

واعادوا افتتاح المعبد، وتقديم القرابين فيه ١٦٤ ق.م وقد ازدهرت القدس، وزاد عدد سكانها فى عهد أسرة الهاسمونيين (المكابى) التى أعقبت السلوقيين، وأصبحت عاصمة لإمبراطورية مساوية لدولة داوود – سليمان وأصبح المعبد مكاناً يحج إليه اليهود، وأنشأ اليهود قصراً كبيراً مكان الحى الإغريقى فى المدينة.

٥- الفترة الرومانية :

دار صراع طاحن ومميت بين الهاسمونيين فى أواخر عهدهم مما أعطى الرومان الفرصة للتدخل فدخل القائد الرومانى بومبى القدس واحتلها ٦٣ ق.م وتحولت يهوذا إلى مقاطعة رومانية تتمتع بشئ من الاستقلال. وعين مجلس السنت (مجلس الشيوخ) الرومانى هيرود Herod ملكاً على يهوذا ٤٠ ق.م. ونجح فى احتلال القدس ٣٧ ق.م. وشيد فيها قصراً وثلاثة أبراج (للمراقبة) إلا أن أهم مشروعاته كانت إعادة بناء المعبد وتوسيع القاعدة التى كان يرتكز عليها.

ووقعت القدس تحت الحكم الرومانى المباشر فى عام ٦م مع إعطاء اليهود استقلالاً ذاتياً لإدارة شئونهم الداخلية، ونقلت عاصمة يهودية إلى قصارى Caesarae إلا أن وجود الرومان فى مدينة القدس كان مصدراً لإثارة السكان فى كثير من الأحيان. وقامت الثورة الكبرى ضد الرومان فى القدس ٦٦م. واستقلت القدس عنهم لمدة ٣ سنوات. إلا أن تيتس Titus الرومانى احتل المدينة ٧٠م. ودمر المدينة ومعها المعبد اليهودى بالكامل وطرد اليهود منها [٤].

وكان هذا هو التدمير الثانى للمعبد اليهودى بعد التدمير البابلى له. وولد المسيح عليه السلام أثناء خضوع مدينة القدس وفلسطين كلها لحكم الرومان. وفى سنة ١٣٠م زار الامبراطور هدريان Hadrian الرومانى القدس وأصدر عدة قرارات ضد اليهود، وقرر إقامة مستعمرة رومانية على أنقاض مدينة القدس فقام اليهود بثورتهم الثانية ضد الرومان ونجح اليهود فى تحرير القدس من أيدى الرومان لمدة ٣ سنوات ١٣٢- ١٣٥م ولما استعاد الرومان مدينة القدس حظر

الامبراطور هدريان دخول اليهود إليها حتى فى حالة المرض والموت. وأنشأ مدينة ايلياكابتولينا على أنقاض مدينة القدس لطمس هوية الأخيرة، وأحل اسم سوريا الفلسطينية محل يهودية. وهذه هى المرة الثالثة التى تم تدمير المعبد اليهودى فيها. وكانت مدينة إيليا فى شكل مربع مثل كل المستعمرات الرومانية، وهى مطمورة فى الوقت الحاضر تحت البلدة القديمة المعاصرة (القدس الشرقية). وشيد معبداً للإله جوبتر مكان المعبد اليهودى، ومعبداً للإله فينوس فوق القبر المقدس، وقد حلت محله كنيسة القيامة فى الوقت الحاضر.

٦- الفترة البيزنطية :

حول الإمبراطور قسطنطين الأكبر ٣١٣م القدس إلى مدينة مسيحية مقدسة فى القرن ٤ الميلادى. وأعاد إليها اسمها من جديد، وحدد المواقع المقدسة فيها. وحددت أم الإمبراطور ـ وفقاً للتقاليد – موقع صلب المسيح عليه السلام والقبر المقدس مكان موقع معبد الإله فينوس، وأنشأت فوقه كنيسة القيامة ٣٣٥م. وسمح الإمبراطور هدريان لليهود بدخول القدس فى يوم ٩ آب (أغسطس) لإحياء ذكرى تدميرها. وكان الإمبراطور جوليان متعاطفاً مع اليهودية ونوى إعادة بناء المعبد اليهودى من جديد إلا أن موته قضى على تلك الفكرة تماماً. وسكنت الامبراطورة أيودوسيا القدس ٣٤٣- ٤٦٠م وشيدت قصراً وكنسية سانت استيفن. وتم رفع الحظر على دخول اليهود إلى مدينة القدس نتيجة لتدخلها فى ذلك الأمر.

وقد أضرت الحروب التى دارت بين الإمبراطورية البيزنطية وفارس بمدينة القدس كثيراً واستولت فارس على مدينة القدس ٦١٤م كما استولت على الصليب الحقيقى للمسيح عليه السلام، ونقلت الأسرى والمساجين والمسيحيين إلى فارس. وعانى اليهود كثيراً فى ظل الحكم البيزنطى نتيجة لمحاصرتهم (تحاصر إسرائيل الفلسطينيين فى الوقت الحاضر بقسوة وصرامة فما تعرض له اليهود خلال تاريخهم يسقونه كأسامرا لغيرهم). إلا أن البيزنطيين نجحوا فى عهد هرقل فى

استعادة القدس من فارس ٦٢٩م كما استردوا الصليب المقدس منهم، وتم قتل عدد كبير من اليهود مع طرد باقيهم من المدينة.

٧- الفترة الإسلامية المبكرة ٦٣٨- ١٠٩٩:

نجح عرب شبه الجزيرة العربية أثناء جهودهم لنشر الإسلام في الاستيلاء على القدس ٦٣٨م، واهتمت الدولة الأموية التي حكمت البلاد الإسلامية ٦٦١-٧٥٠م كثيراً بشئون القدس، فشيدوا فيها مسجد قبة الصخرة، وأيضاً قبة المسجد الأقصى. وعلى الرغم من اهتمامهم بشئون هذه المدينة إلا أنهم نقلوا عاصمة فلسطين الإدارية منها إلى مدينة الرملة التي تقع في شمال غرب القدس وذلك في القرن ٨م في عهد الخليفة سليمان بن عبدالملك. وفي الحقيقة لم تكن القدس عاصمة للدولة الإسلامية أو محافظة طيلة الفترة العربية – الإسلامية ٦٣٨-١٩١٧ (باستثناء الانقطاع الصليبي ١٠٩٩-١١٨٧) وإنما مجرد مدينة، بينما تنقلت عاصمة الدولة الإسلامية بين المدينة المنورة، دمشق، بغداد، القاهرة، استانبول.

ولم تهتم الدولة العباسية ٧٥٠- ١٢٥٨ التي حكمت من بغداد كثيراً بمدينة القدس. وفي ٨٧٨م ضم الطولونيون فلسطين بما فيها القدس إلى مصر، ومن يومها أصبحت مصر تعتبر فلسطين كمنطقة تخوم لها. وعاد النفوذ العباسي للمدينة مرة ثانية ٩٠٥م. إلا أن مدينة القدس عادت لحكم الأخشيديين في مصر ٩٤١م. ومن بعدهم للفاطميين لما فتحوا مصر ٩٦٩م. وعلى الرغم من أن الدولة الفاطمية كانت دولة متسامحة إلا أن الخليفة السادس الحاكم بأمر الله أساء معاملة رعاياه من أغلبية وأقلية. وتم في عهده تدمير كنيسة القيامة ١٠٠٩م. وتناقص سكان مدينة القدس في عهده.

وسيطر الأتراك السلاجقة على القدس في آخر القرن ١١. إلا أن الفاطميين عادوا إليها لفترة قصيرة بعد ذلك ١٠٩٨، إلا أنهم فقدوها في العام التالي ١٠٩٩م للصليبيين.

٨- الفترة الصليبية :

احتل الصليبيون القدس ١٠٩٩، وقاموا بمذابح ضخمة لسكان المدينة من مسلمين ويهود، وظلت عملية دفن الجثث لمدة ٦ شهور متتالية. وأصبحت القدس عاصمة لمملكة القدس الصليبية، وازدهرت المدينة فى القرن ١٢، وجذبت أعداداً هائلة من الحجاج المسيحيين من كل أنحاء العالم. وشيدت فيها مبانى كثيرة. وتمركزت الحامية العسكرية الملكية فى قلعة (تسمى برج داوود) بالقرب من بوابة يافا. وجرى تشييد قصر بجوارها. وتم حذف اسم المسجد الأقصى، واطلاق اسم معبد سليمان عليه، وتحويل جزء منه إلى كنيسة، وجزء آخر لسكن الفرسان، ولحفظ الذخائر، وجزء إلى اسطبل للخيول، وتم تحويل مسجد قبة الصخرة إلى كنيسة، وبالمثل كثير من الأماكن الإسلامية المقدسة فى المدينة وأعاد الصليبيون بناء كنيسة القيامة تحت سقف واحد ١١٤١م. وأنشئت فى ذلك العهد كنيسة سانت حنة، وكنيسة مريم البتول (العذراء)، وبعض الكنائس الأخرى على جبل صهيون.

واستطاع صلاح الدين الأيوبى حاكم مصر استرداد القدس من يد الصليبيين ١١٨٧م، وسمح صلاح الدين بعودة اليهود إلى المدينة، وأرجع صلاح الدين بعض المساجد التى حولها الصليبيون إلى كنائس. وأنشأ مدارس دينية فى القدس.

واتفقت الموجة الصليبية الثالثة فى آخر القرن ١٢ مع المسلمين للسماح بدخول المسيحيين التابعين للكنائس الغربية لمدة خمس سنوات إلى مدينة القدس. واتفق الحاكم الأيوبى الملك الكامل مع الامبراطور الرومانى فردريك الثانى ١٢٢٩م على تقسيم مدينة القدس، وظل الحرم الشريف فى يد المسلمين. إلا أن الأيوبيين استعادوا المدينة بكاملها لسيطرة المسلمين ١٢٤٤م.

٩- الفترة المملوكية :

بعد أن انتصر مماليك مصر على المغول فى معركة عين جالوت ١٢٦٠م ضموا القدس وبقية فلسطين إلى السلطنة المصرية – السورية. وكانت القدس

تابعة لدمشق فى البداية، ولكنها فى النهاية أصبحت تابعة للقاهرة، وعلى طول ٢٥٧سنة، وهى طول مدة حكم المماليك لم تتعرض القدس لغزوات أجنبية. ودعم المماليك مثل سابقيهم الأيوبيين الطابع الإسلامى لمدينة القدس فشيدوا المساجد والمدارس الدينية والزوايا الصوفية، وأعادوا تجديد كل المعالم المقدسة فى البلدة القديمة.

١٠- الفترة العثمانية :

بعد أن هزم العثمانيون المماليك ١٥١٦- ١٥١٧ لم تكن القدس بذات أهمية سياسية أو اقتصادية أو استراتيجية للامبراطورية العثمانية حتى القرن ١٩، وأعاد السلطان سليمان القانونى تشييد أسوار المدينة ١٥٣٧- ١٥٤١م بطريقة جميلة لحمايتها من غارات البدو. وسار العثمانيون فى القدس على منوال المماليك فى بناء المساجد، والمدارس الدينية، والزوايا الصوفية.

١١- الفترة الحديثة :

تمزقت الإمبراطورية العثمانية وهزمت فى الحرب العالمية الأولى، واستولى القائد الإنجليزى اللنبى على القدس ١٩١٧، وآلت فلسطين بما فيها القدس الى الانتداب البريطانى. ومنح الإنجليز "الذين لا يملكون" وعد بلفور لمن "لا يستحقون" اليهود ٢ نوفمبر ١٩١٧ لإقامة وطن قومى (دولة) لليهود فى فلسطين. وسهلت إنجلترا الهجرة الشرعية وغير الشرعية اليهودية إلى فلسطين وعينت لها مندوباً سامياً يهودياً.

وانسحبت انجلترا من فلسطين ١٩٤٨ بعد أن وضعت أساس الحريق فى منطقة الشرق الأوسط، وسلمت فلسطين لليهود وللصهيونية العالمية الذين أعلنوا قيام دولة إسرائيل ١٤ مايو ١٩٤٨. فقامت الحرب العربية – الإسرائيلية الأولى، وهزم العرب فيها. إلا أن العرب استطاعوا السيطرة على القطاع الشرقى من القدس (البلدة القديمة التى تضم المعالم المقدسة). بينما استولى اليهود على القسم

الغربى من المدينة، وأنشئ خط الهدنة، ومنطقة منزوعة السلاح وسط القدس. وفى ١٩٤٩ اعلنت إسرائيل القدس عاصمة لها.

١٢- الفترة المعاصرة :

تلقى العرب الهزيمة الثانية على يد إسرائيل ٥ يونيو ١٩٦٧، ونجحت إسرائيل فى احتلال كل فلسطين بما فى ذلك القدس الشرقية، والضفة الغربية وقطاع غزة، وهضبة الجولان من سوريا، وشبه جزيرة سيناء من مصر. وأعلنت أنها اعادت توحيد مدينة القدس، وجعلها عاصمة أبدية لإسرائيل. وأوحت الولايات المتحدة الأمريكية لإسرائيل بألا تستخدم مصطلح ضم القدس الشرقية إليها لتخفف من وقع هذا الحدث على الرأى العام العالمى وإنما تستخدم مصطلح إعادة توحيد المدينة. وهكذا أصبحت القدس الشرقية، البلدة القديمة هى مفتاح الحرب والسلام فى الشرق الأوسط بل فى العالم أجمع.

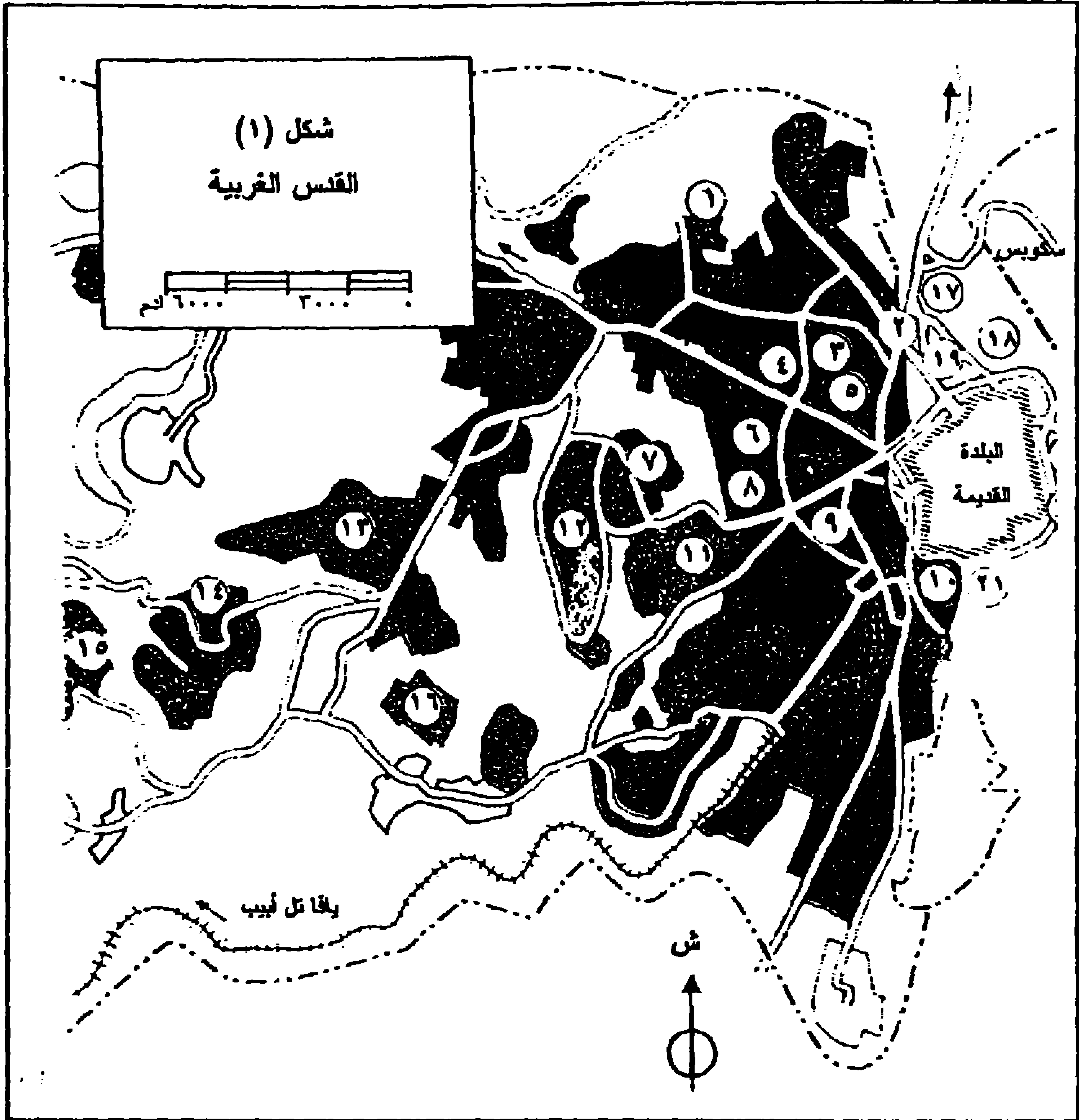
ب- الأهمية الدينية لمدينة القدس :

تتفرد القدس بين مدن العالم بأهميتها الدينية بالنسبة للأديان السماوية الثلاثة: اليهودية، والمسيحية والإسلام. وتعلقت بها حقوق هذه الديانات السماوية الثلاث حتى أصبحت حماية الأماكن المقدسة، وتأمين الوصول إليها تضفى على مدينة القدس أهمية خاصة، وتعاقبت فى هذه المدينة الأديان السماوية الثلاثة : اليهودية، والمسيحية، والإسلام لذا يدور الصراع السياسى وسيشتد حول هذه المدينة المقدسة(٥). وتشكل مدينة القدس فى الوقت الحاضر مفتاح الحرب والسلام فى الشرق الأوسط بل فى العالم أجمع. وإذا لم يتوفر حل مرض لمشكلتها فلن يتحقق السلام فى الشرق الأوسط الأمر الذى سينعكس على الكرة الأرضية كلها. وفيما يلى عرض مختصر لأهم المعالم المقدسة فى القدس بالنسبة لكل من الديانات السماوية الثلاث. وتجدر الإشارة فى البداية إلى أن معظم المعالم المقدسة تقع فى القسم الشرقى من المدينة أى فى البلدة القديمة التى كانت تحت سيادة العرب فى الفترة ١٩٤٨ — ١٩٦٧.

أما الشطر الغربى من القدس فلا يضم شيئاً يذكر من المعالم الدينية المقدسة سوى بعض المعابد اليهودية والكنائس المسيحية[٦]. إذ يقع فى القدس الغربية دير الصليب وهو المكان الذى جئ منه بخشبة الصليب المقدس، وكنيسة يوحنا المعمدان، فضلا عن المعابد اليهودية الكبيرة والصغيرة، ومجمع الوزارات الإسرائيلية ومقر رئيس دولة إسرائيل، والكنيست الإسرائيلى (البرلمان) والهستدروت (مقر اتحاد العمال)، ومقر الوكالة اليهودية، ومقر للمنظمة الصهيونية، ومقر الشبيبة المسيحية Y.M.C.A والمقر الثانى للجامعة العبرية، ومستشفى هداسا، والمجمع الروسى، ودار الكتاب المقدس، والمتحف شكل (١). لكن تجدر الإشارة إلى أن كل السفارات الأجنبية موجودة فى تل أبيب العاصمة السابقة لإسرائيل قبل نقل عاصمتها إلى القدس الغربية عام ١٩٤٩.

المعالم المقدسة لليهود :

أقام الملك سليمان المعبد للرب فى القدس الشرقية بمساحة ٢٠ × ٢٠ متراً لممارسة الشعائر الدينية، اليهودية، ووضع فيه تابوت العهد. إلا أن ذلك المعبد تم تدميره بالكامل ثلاث مرات : الأولى على يد نبوخذ نصر البابلى ٥٨٦ ق.م. والثانية على يد تيتس الرومانى ٧٠م، وفيها نهبت كنوزه، وفقد منه تابوت العهد وإلى الأبد. وفى المرة الثالثة تعرضت مدينة القدس والمعبد لأضرار فادحة عندما احرقهما الامبراطور هيدريانوس وحرثهما حرثا، وبنى مكانها مدينة ايليا كابتولينا ١٣٥م.



١- حديقة الحيوان

٢- بوابة ميندل بوم

٣-الحي اليهودى الارثونوكسى

٤- الهيستودروت

٥- المعسكر الروسى

٦- الكنيست (البرلمان)

٧- مجمع المصالح الحكومية

٨- مبنى الوكالة اليهودية

٩- بنت الشبابية المسيحية

١٠- جبل صهيون

١١- [illegible] الصليب

١٢- الجامعة العبرية

١٣- قبر هرزل

١٤- عين كريم

٥- مستشفى هدسا

١٦- عيادة توليد

١٧- مقبرة الملوك

١٨- متحف روك فيلر

١٩- كاتدرانية سانت جورج

٢٠- قبر مريم العذراء

٢١- جبل الزيتون

ونقبت إسرائيل عن بقايا المعبد علها تكون مطمورة تحت الأرض فى هضبة الحرم الشريف منذ ١٩٦٧ ولم تعثر على شئ لأنه كان حرقاً وهدما وتدميراً شاملاً بل وحرثاً له فى المرتين الأخيرتين. وتتخبط إسرائيل وحلفاؤها فتارة تقولون أن المعبد كان تحت المسجد الأقصى، وتارة تردد انه كان تحت مسجد قبة الصخرة. وتجدر الإشارة إلى نية إسرائيل والصهيونية العالمية مبيتة لإقامة المعبد من جديد فى منطقة الحرم الشريف.

وتدعى إسرائيل أن السور الغربى المحيط بالمسجد الأقصى هو جزء من جدار المعبد، ويطلقون عليه حائط المبكى Wailing Wall وهم يصلون أمامه كل يوم سبت، ويبكون حزناً على تدمير الرومان للمعبد، وكان الامبراطور هدريانوس قد حظر دخول اليهود إلى مدينة القدس. إلا أن خلفاءه خففوا من هذا الحظر وكانوا يسمحون لليهود بدخول القدس يوم ٩ آب (اغسطس) من كل عام لإحياء ذكرى ذلك التدمير للمعبد، ويصوم اليهود هذا اليوم.

وهذا الجدار المشار إليه هو حائط البراق، والبراق هو مركبة النبى محمد صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى. فقد أوقف الرسول صلى الله عليه وسلم البراق عند هذا الجدار شكل(٢).

ولليهود مقبرة كبيرة على جبل الزيتون الذى يطل على البلدة القديمة من الشرق، ووفقاً لمعتقدات اليهود أن بعث يوم القيامة سيبدأ من هذه المقبرة. أما جبل صهيون فى جنوب غرب البلدة القديمة، وهو خارج أسوارها فعليه مقبرة النبى داوود. أما جبل سكوبس فتقع عليه الجامعة العبرية التى أنشئت ١٩٢٥، ومستشفى هداسا، وتم نقلهما بعد هدنة ١٩٤٩ مع الأردن إلى القدس الغربية. لكن إسرائيل شيدت لهما فروعاً من جديد على جبل سكوبس بعد احتلالها للقسم الشرقى من المدينة ١٩٦٧.

وتقع مدينة داوود جنوب البلدة القديمة في الوقت الحاضر بالقرب من بركة (حمام) سليمان ويحدها من الشرق وادي كدرون، ومن الجنوب وادي هنوم (أي المؤدي إلى جهنم) بينما في غربها وادي طيربون Tyropoeon.

وهي تتكون من ٣ برك في أرض منبسطة بين جبلين وكانت المصدر الذي يغذي مدينة القدس بمياه الشرب قديما، وهي تتميز بجمال موقعها الطبيعي ومنظرها الأخاذ بما يحيط بها من أشجار. ومن ثم فهي منتزه جميل يؤمه الناس للمتعة والاستجمام.

القدس الشريف
شكل (٢)

أهم المعالم المسيحية المقدسة فى القدس الشرقية :

القدس هى المدينة التى تتجه إليها أنظار كل المسيحيين فى العالم على شتى مذاهبهم الدينية. فقد وصل إليها المسيح عليه السلام فى نعومة أظفاره وثلاث مرات بعد نشر رسالته يبث دعوته بين سكانها حتى حفل كل مكان وموضع قدم فيها بأثر من آثاره وذكرياته ويرتبط كثير من تاريخ المسيح عليه السلام بهذه المدينة المقدسة، ففيها قبض عليه، وسيق للمحاكمة، وحكم عليه بالموت صلباً فنجاه الله.

- طريق الأحزان :

توجد فى الجزء الشمالى الغربى من البلدة القديمة بعض المعالم المقدسة عند كل المسيحيين ومنها طريق الأحزان (Via Delorosa Street of Sorrow) ويعتقد أنه الطريق الذى سار فيه المسيح عليه السلام تحت حراسة الجنود الرومان لصلبه، وكان حاملاً لخشبة الصليب الثقيلة على ظهره، وهو شارع ضيق.

وتوقف المسيح عليه السلام ١٤ مرة على طوله عندما كان ينوء بحمل خشبة الصليب ويسير فى هذا الطريق كل يوم جمعة الساعة ٣ بعد الظهر جماعة الرهبان الفرنسيسكان وانصارهم ويصلون فى كل موقف من هذه المواقف والمحطات ١٤ التى توقف عندها المسيح عليه السلام.

وينتهى طريق الأحزان عند كنيسة القيامة التى أنشئت فى القرن ٤ الميلادى، وجرى تجديدها وتوسيعها فى القرن ١٢ على يد الصليبيين، وهناك اعتقاد بأن هذه الكنيسة مقامة على القبر المقدس للمسيح عليه السلام، وهو مكان بعثه. وهى أكبر كنائس القدس. ويحج كل أسبوع إلى هذا المكان آلاف المسيحيين والزوار، وكذلك فى يوم عيد الفصح يوم الأحد من كل عام. ومنعاً لتناحر الطوائف المسيحية على هذه الكنيسة فإنه تقوم بحراسة أبوابها، وحمل مفاتيحها عائلتان مسلمتان هما : آل نسيبة لفتح أبوابها، وآل جودة يحملون مفاتيح الكنيسة منذ عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. وعندما كان امير المؤمنين عمر بن

الخطاب يزور هذه الكنيسة حان وقت الصلاة فأشار عليه البطريرك أن يصلى حيث هو فأبى ذلك لئلا يتخذها المسلمون بعد ذلك حجة يتذرعون بها للمطالبة بهذه الكنيسة.

- حمام الشفاء :

ويطلق عليه بركة "بيت حسدا" ويقع فى الجهة الشمالية من كنيسة القديسة حنة (والدة السيدة مريم العذراء).

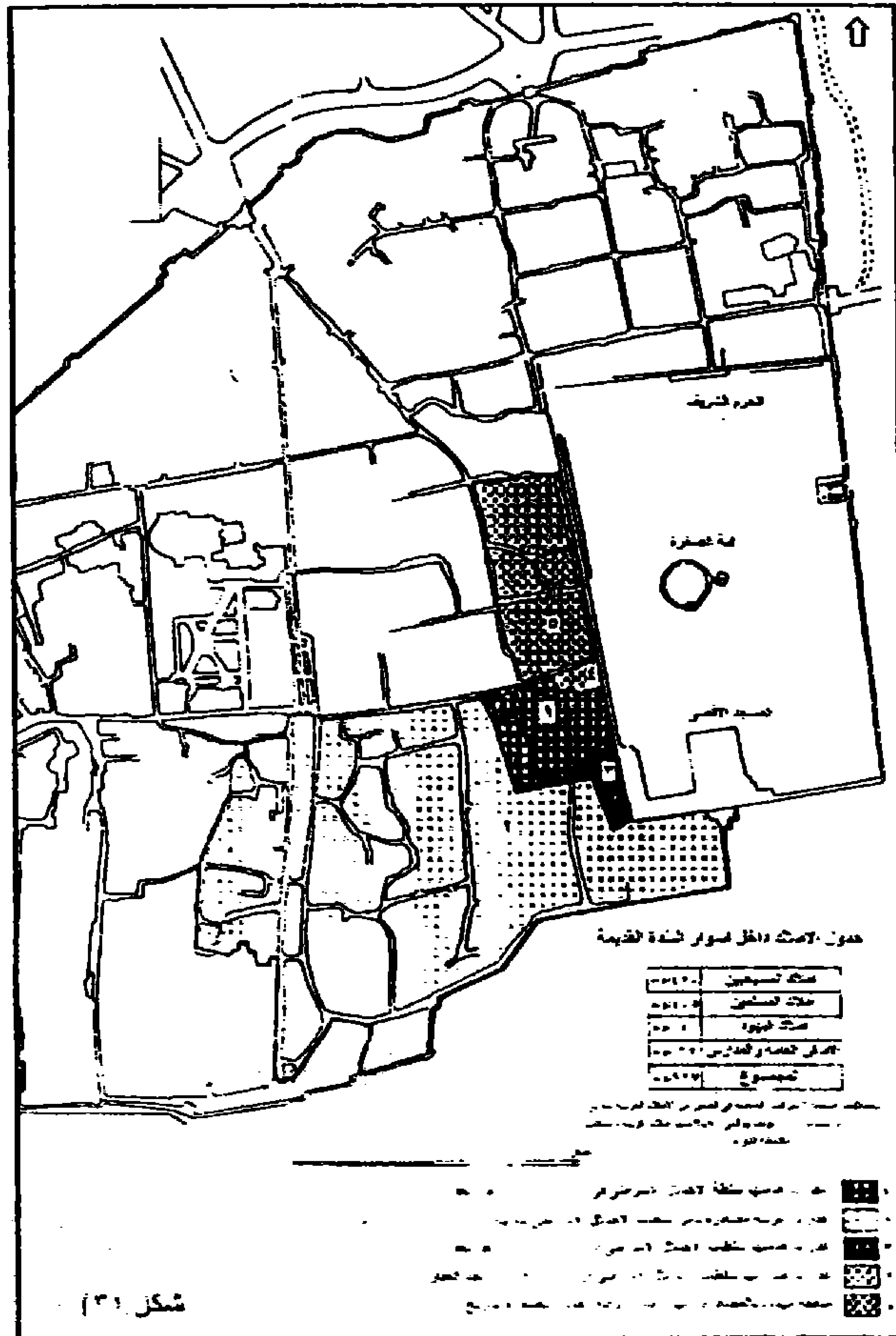
وهناك اعتقاد أن المسيح عليه السلام أتى بإحدى معجزاته هنا إذ مسح على المريض المقعد الذى ظل مريضاً لمدة ٣٨ عاماً فشفاه الله. وتقع كنيسة سانت حنة على مقربة من هذا الحمام، ولا تبعد هذه الكنيسة كثيراً عن طريق الأحزان، وهى واقعة فى الحى الإسلامى بالقدس الشرقية. ويعتقد المسيحيون بأن هذه الكنيسة تقع على المكان الذى كان منزلاً لوالدى السيدة مريم (يواكيم وحنة) أى هو المكان الذى ولدت فيه السيدة مريم البتول.

- وتقع بجوار سور البلدة القديمة من الخارج حديقة الجثمانية، وهى واقعة عند قدم جبل الزيتون. وتضم هذه الحديقة تجمعات لأشجار الزيتون فضلاً عن كنيسة الجثمانية، وهو المكان الذى قضى فيه المسيح عليه السلام آخر لياليه متألما. وكذلك مغارة الجثمانية التى يعتقد أن المسيح عليه السلام كان يلجأ إليها للراحة والنوم هو وتلاميذه. وأنه ألقى القبض عليه فيها بسبب خيانة يهوذا الاسخريوطى.
- وتقع بجوار حديقة وكنيسة الجثمانية كنيسة كل الأمم بالقرب من طريق أريحا الذى يفصل جبل الزيتون عن الحافة الشرقية لهضبة القدس. كما توجد اماكن مسيحية مقدسة أخرى على سفح جبل الزيتون ومنها كنيسة مارى مجدلينا على منسوب أعلى من كنيسة كل الأمم، وهى التى بناها قيصر روسيا الكسندر الثالث ١٨٨٨. بالإضافة إلى كنيسة الصعود، ويصلى فيها الأقباط صباح عيد الصعود من كل عام.

- وسبقت الإشارة إلى أن جبل صهيون يقع جنوب غرب البلدة القديمة ويعتقد أن العشاء الأخير للمسيح عليه السلام كان عليه وهناك اعتقاد بأن السيدة مريم العذراء ماتت على هذا الجبل، وأقيمت كنيسة على قبرها، حيث يصلى فيها الأقباط خلال صوم العذراء من ٧-٢٢ اغسطس من كل عام. ودع عنك الكثير من الكنائس الأخرى، والأديرة والأبروشيات، والبطريركيات، والمدارس الدينية المسيحية الموجودة فى القدس الشرقية شكل (٣).

القدس فى الإسلام :

القدس مدينة عربية أنشأها اليبوسيون، وهم من القبائل العربية الكنعانية التى وفدت من الجزيرة العربية ٢٥٠٠- ٣٠٠٠م واستقرت هناك قبل ظهور الإسلام.



شكل (٣)

ومدينة القدس جزء من العقيدة الإسلامية، فهى القبلة الأولى التى كان يتجه إليها المسلمون فى صلاتهم، وظل المسلمون يتجهون إليها فى صلاتهم بعد هجرتهم إلى المدينة المنورة لمدة ١٦- ١٧ شهراً. وبعد الأمر الإلهى تحولوا فى صلاتهم إلى الاتجاه نحو البيت الحرام فى مكة المكرمة. ففى سورة البقرة، **الآية ١٤٢ دليل صريح على ذلك "سيقول السفهاء من الناس ما ولهم عن قبلتهم التى كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب، يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم" صدق الله العظيم**

والقدس هى مسرى النبى محمد صلى الله عليه وسلم، ومنها صعد مع سيدنا جبريل إلى السموات العلا، وجاء ذلك صريحا فى الآية الأولى من سورة الإسراء، وفيها ربط بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى:"سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا أنه هو السميع البصير" وبين بناء المسجدين بنص حديث الرسول ٤٠ عاماً. ولا تشد الرحال إلا لثلاثة مساجد هى: المسجد الحرام، والمسجد النبوى، والمسجد الأقصى.(حديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم).

ومدينة القدس هى ثالث الأماكن المقدسة فى الإسلام بعد مكة المكرمة، والمدينة المنورة.

ولما فتح العرب المسلمون القدس فى القرن ٧ الميلادى على يدى أبو عبيدة بن الجراح ١٧هـ، ٦٣٨م اشترط بطريرك الروم أن يحضر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لتحرير عقد استلام المدينة، واستلامها بنفسه نظراً لقدسيتها.

وتم ذلك فى الوثيقة المعروفة بالعهدة العمرية التى يشهد فيها التاريخ على سمو الإسلام ومثاليته، وإنسانية المسلمين من قبل أن يصل الغرب إلى حقوق الإنسان التى يتفاخرون بها فى الوقت الحاضر فقد جاء فى العهدة العمرية ما نصه :

"صالح عمر بن الخطاب أهل ايليا (القدس) فى الجابية " بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى عبدالله أمير المؤمنين عمر أهل إيليا من الأمان : اعطاهم اماناً لأنفسهم واموالهم، ولكنائسهم ولصلبانهم، ومقيمها وبريها، وسائر ملتها. أنها لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينتقص منها، ولا من حدها، ولا من صليبهم ولا شئ من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بايليا معهم أحد من اليهود (حسب رغبتهم). وعلى أهل ايليا أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن الأخرى. وعلى أن يخرجوا منها الروم واللصوص. فمن خرج منهم فهو آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم. ومن أقام فيها فهو آمن.

ومن الجدير بالملاحظة فى هذه العهدة أن أهل القدس قد أعربوا عن رغبتهم فى ألا يساكنهم اليهود فى هذه المدينة فاستجاب عمر لهذه الرغبة. ومنذ ذلك الحين سميت ايليا القدس أو بيت المقدس أى البيت المقدس المطهر.

ولما أستولى الصليبيون على القدس بعد حروب طاحنة ارتكبوا فيها من المجازر ما اقشعرت له الإنسانية لدرجة أن دفن الجثث استغرق ٦ شهور متتالية. ولذا صمم المسلمون على استردادها من أيديهم. وقيض الله لهم صلاح الدين حاكم مصر الذى طلب من الشعب المصرى كما تقول الوثائق التاريخية أن يحفظوا جميعاً عن ظهر قلب سورتى الأنفال والتوبة من القرآن الكريم، وهما السورتان المعنيتان بفريضة الجهاد فى سبيل الإسلام وفقاً للشريعة الإسلامية. ونجح فى استردادها فى معركة حطين ١١٨٧م أى بعد أن احتلها الصليبيون نحو ٨٨ عاماً. فأين هو أبو عبيدة بن الجراح، وعمر بن الخطاب وصلاح الدين عفوا أيها الناس لا تبتئسوا فلكل عهد دولة ورجال!!!.

أهم المعالم الإسلامية فى القدس :

تزخر القدس بالمعالم الإسلامية وأهمها على الإطلاق، المسجد الأقصى، ومسجد قبة الصخرة. وهما داخل سور الحرم الشريف فى جنوب شرق البلدة القديمة وبينهما منشآت دينية كثيرة. وتبلغ مساحة الحرم الشريف ٢٦٠٦٥٠ متر

مربع أى سدس مساحة البلدة القديمة. وله ١٤ باباً عشرة مفتوحة، وأربعة مغلقة. وغير مصرح لليهود بدخوله، أما المسيحيون فيدخلونه فى غير أوقات الصلاة.

ويعود بناء المسجد الأقصى إلى زمن بعيد، وتم بناؤه بعد المسجد الحرام فى مكة المكرمة بأربعين عاماً بنص حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم. وشيد قبته الفضية الوليد بن عبدالملك (الدولة الأموية) ٧١٠م. ويقع المسجد الأقصى فى جنوب البلدة القديمة. وشكله مستطيل حيث يبلغ طول ضلعه الشمالى ٣٢١ متراً، والجنوبى ٢٨٣ متراً، والشرقى ٤٧٤ متراً، والغربى ٤٩١ متراً بمساحة ٢٥ فداناً. وحرقه إسرائيلى ١٩٦٩.

أما مسجد قبة الصخرة فقد بناه الخليفة عبدالملك بن مروان ٧٢هـ ، ٦٨٧-٦٩١م والصخرة تقع تحت قبة مسجد الصخرة مباشرة داخل المسجد. وطول الصخرة من الشمال إلى الجنوب ١٧,٧ متراً وعرضها من الشرق للغرب ١٣,٥ متراً. ويتراوح ارتفاعها عن الأرض بين ١-٢ متراً ويقول اليهود أن هذه الصخرة هى التى وضع عليها سيدنا إبراهيم ولده اسحق لذبحه ففداه الله بذبح عظيم بعد أن صدق أبوه الرؤيا الربانية. بينما المسجل فى القرآن الكريم أن سيدنا إسماعيل هو الذبيح، وكان ذلك فى مكة المكرمة. وهى الصخرة التى صعد عليها نبى الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم إلى السماوات العلى فى ليلة الإسراء والمعراج ويصف البعض هذه الصخرة بأنها أجمل ما وجد على الأرض. وتم رصد خراج مصر لمد ٧ سنوات لبناء مسجد قبة الصخرة. وقبته ذهبية صفراء مختلفة عن القبة الفضية للمسجد الأقصى. ويجمع المهندسون والفنانون على أن مسجد قبة الصخرة هو تحفة فنية، وأجمل مبنى فى الشرق الأوسط.

(أ) القدس الشرقية :

حرب أم سلام :

توجد بعض مظاهر الشذوذ علي الخريطة السياسية للعالم، ومنها وقوع جزء من دولة فى دولة أخرى. وهذه الظاهرة الشاذة منتشرة فى كل القارات عدا

استراليا القارة الدولة. وعلى سبيل المثال هناك جزء من أسبانيا يسمى لليفيا يقع فى داخل فرنسا، وجزء من الولايات المتحدة يسمى بوينت روبرت يقع فى كندا، ومنطقة درملى من ايرلندا الجنوبية فى الستر (ايرلندا الشمالية، المملكة المتحدة).

وينطبق هذا على المستعمرات الإسرائيلية لو بقيت فى دولة فلسطين التى ستنشأ فى الضفة الغربية وقطاع غزة. كما ينسحب الأمر نفسه على القدس الشرقية (البلدة القديمة) العربية لو ضمتها إسرائيل إلى دولتها فستكون جزءاً من دولة عربية يقع فى دولة إسرائيل ويصبح الوضع على جانب كبير من الخطورة.

ويطلق على جزء الدولة الذى يقع فى دولة أخرى اسم المكتنف Enclave أو المقتطع Exclave فهو مكتنف بالنسبة للدولة التى تطوقه وتكتنفه (القدس الشرقية فى إسرائيل) وهو مقتطع من دولة فلسطين المستقبلية فى إسرائيل. وبالمثل المستعمرات الإسرائيلية إذا بقيت فى دولة فلسطين.

وترجع نشأة ظاهرة المكتنفات لأسباب كثيرة منها تاريخ العصور الوسطى وترتيبات الزواج والمواريث وقتها، والأوضاع الكنسية فضلاً عن الاستعمار، والحروب، وانقسام الدول.

وتتعارض المكتنفات (جزء من دولة يقع فى دولة أخرى) مع مبدأ السيادة والجنسية. فالدولة تريد فرض سيادتها على كل الأراضى التى تقع داخل حدودها، ولا يكون لأى دولة أخرى سيادة على منطقة من بلدها. كما لا تقبل أى دولة ان تكون جماعة من السكان تعيش فى بلدها، وتخضع لسيادة دولة أخرى[٧].

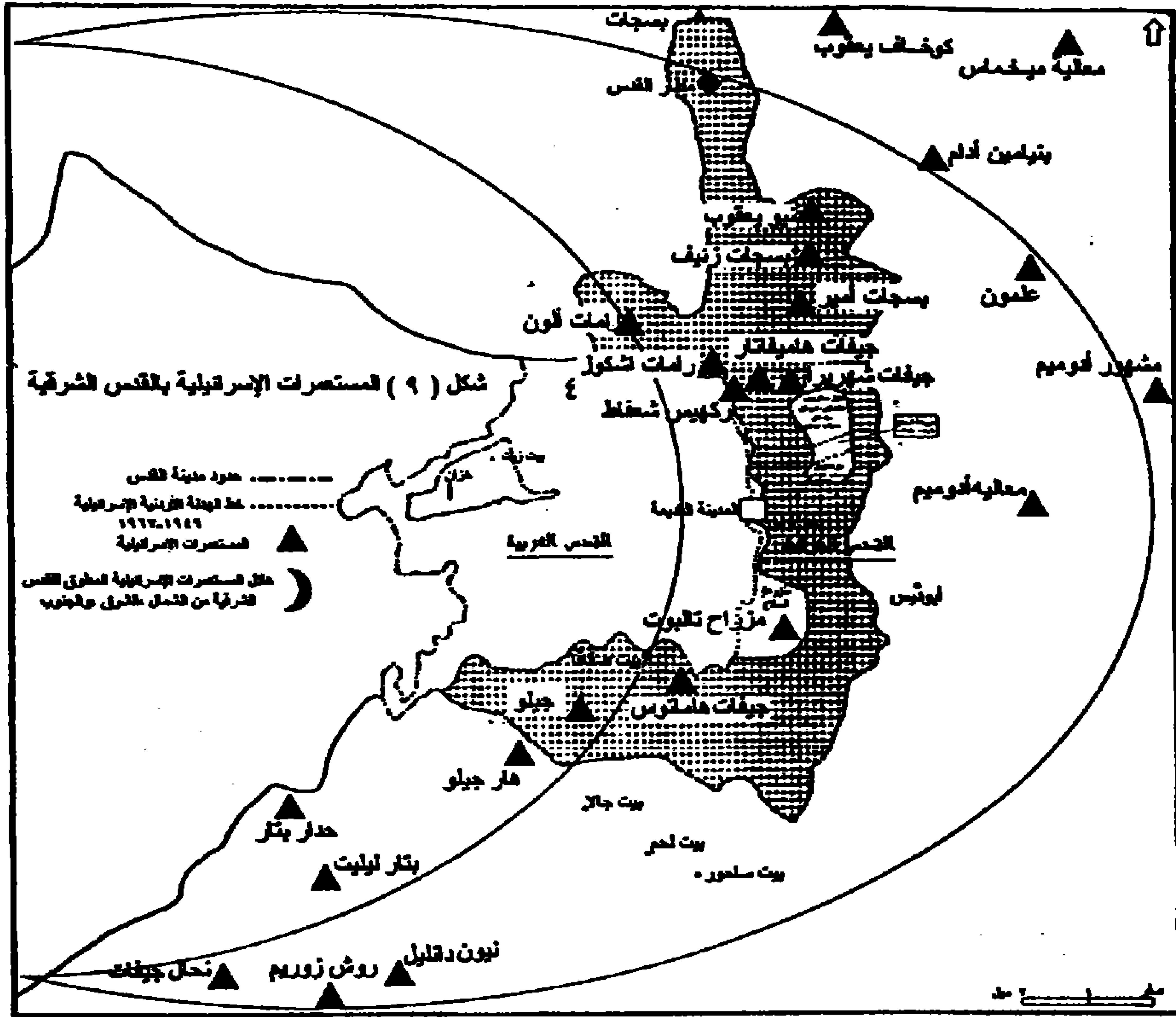
وتثير المكتنفات كثيراً من الاحتكاكات والمنازعات والمشاكل السياسية والعسكرية وغيرها. مثال ذلك لمن تكون السيادة والحكم والإدارة على هذه المكتنفات هل للدولة الأم أم للدولة التى تقع فيها؟ وكيف ستتصل هذه الأجزاء بالدولة أمها؟ وكيف ستكون علاقاتها بالدولة التى تكتنفها؟ وماذا سيكون وضع الإنتاج، والسوق، والعمالة، والجمارك فيها ؟ وكيف ستتأثر علاقات الدول المتجاورة بسبب هذه المكتنفات خاصة لو كانت شعوب الدول المتجاورة متعادية؟

فإذا بقيت المستعمرات الإسرائيلية في دولة فلسطين، ولو نجحت إسرائيل في فرض سيادتها على القدس الشرقية فالحرب قادمة لا محالة بين العرب وإسرائيل.

جغرافيا مدينة القدس :

موقع / طبوغرافيا : تقع مدينة القدس الشرقية على دائرة عرض ٣١ شمالاً، وعلى خط طول ٣٥ شرقاً. وهي مستطيلة الشكل وتبدو القدس الغربية في صورة دائرة. بينما القدس الشرقية تمتد بشكل طولي من الشمال للجنوب، مع قاعدة من الشرق للغرب في طرفها الجنوبي، فهي على شكل هلال، أو رقم ٢، او ٦ مقلوباً وتطوق القدس الغربية من الشرق والجنوب. وتمتد مدينة القدس الشرقية شمالاً إلى ما بعد منطقة المطار. وتضم القدس الشرقية ثلاثة أحياء هي : الإسلامي، والمسيحي، والأرمني. ولما احتلتها إسرائيل ١٩٦٧ هدمت حي المغاربة الواقع في غرب حائط البراق، وأنشأت به ساحة فضاء. وحيا يهودياً شكل (٤).

وتقع مدينة القدس على هضبة مستوية السطح تسمى هضبة الحرم، وأحياناً يطلق عليها جبل الموريا، ويتراوح منسوب هذه الهضبة بين ٦٤٠، ٧٤٠ متراً، بمتوسط ارتفاع ٧٥٠ متراً فوق مستوى البحر. وتحيط بالمدينة من الشرق والغرب سلاسل مرتفعات، وتنحدر منها مجموعة اودية شرقاً وغرباً. ويصل أقصى ارتفاع لجبال القدس ٨٧٥ متراً وذلك في قمة النبي صموئيل. وتتصرف الأودية المنحدرة شرقاً باتجاه غور الأردن ومنها وادى القلط، ووادى النار، ووادى المشاش. وتتصف مرتفعات شرق القدس بالوعورة، وشدة الجفاف لوقوعها في ظل المطر، ويتراوح مطرها بين ٢٠، ٤٠سم / سنة. وقد أثر ذلك على حجم وتباعد المحلات العمرانية التي تقع في هذه السفوح الشرقية.



شكل (٩) المستعمرات الإسرائيلية بالقدس الشرقية

وتنحدر من مرتفعات غرب القدس عدة أودية تتجه صوب البحر المتوسط مثل وادى أبو على (باب الواد) ووادى الصرار. وتتميز هذه المرتفعات الغربية بأنها أقل ارتفاعاً عن نظيرتها الشرقية، لكنها أغزر مطراً بمتوسط يتراوح بين ٥٠- ٧٠ سم/ سنة لمواجهتها الرياح الشتوية الغربية ولذا فتجمعاتها البشرية أكثر ويعمل السكان بالزراعة البعلية، مع الاستعانة بمياه الآبار والعيون للرى[٨].

وتتميز مدينة القدس بموقعها الاستراتيجى الهام. فهى فى مفترق الطرق التى تتجه شمالاً إلى رام الله ونابلس، وغرباً إلى حيفا ويافا، وجنوباً إلى بيت لحم والخليل، وشرقاً إلى اريحا وغور الأردن. وهى تقع شرق البحر المتوسط

بمسافة ٥٢ كيلو متراً، وإلى الغرب من البحر الميت بحوالى ٢٣ كيلو متراً، وتقع المدينة على منسوب ٧٥٠ متراً فوق مستوى البحر المتوسط، وعلى منسوب ١١٥٠ متراً بالنسبة للبحر الميت.

وتنقسم أرض المدينة إلى قسمين مكونين من هضبتين مستطيلتين تحيط بها المرتفعات والأودية العميقة. فيحدها من الشرق وادى كدرون، ووادى هنوم فى الغرب فضلاً عن وادى سلوان. ويلتقى الواديان عند الطرف الجنوبى للمدينة. وهناك وادياً ثالثاً يسمى وادى الجبانة يمتد من الشمال الغربى. للجنوب الشرقى حتى يتصل بوادى سلوان الذى يتصل بدوره بوادى كدرون. ويفصل وادى الجبانة بين الهضبة التى تقع عليها المدينة وجبل صهيون. وهناك وادى الأرواح الذى يلتف حول غرب جبل صهيون ولأقصى الجنوب.

ومن أهم جبال المدينة جبل الزيتون، ويطلق عليه العرب جبل الطور، ويقع فى شمال شرق المدينة القديمة (القدس الشرقية بارتفاع ٧٩١ متراً فوق مستوى البحر، ويفصله عنها وادى كدرون. ولهذا الجبل أهمية خاصة عند المسيحيين حيث تنتشر على سفوحه وقمته الكنائس والأديرة. ويعتقد النصارى أن المسيح عليه السلام كان يعلم تلاميذه فى منطقة اليا الواقعة على قمة هذا الجبل. كما تناول عشاءه الأخير قبل القبض عليه فى كنيسة الجثمانية.

ويقع جبل رأس المشارف أو سكوبس (جبل المشهد) فى شمال شرق جبل الزيتون، ومنسوبه ٨١٣ متراً فوق مستوى البحر. وتقع عليه بعض منشآت الجامعة العبرية ومستشفى هداسا وحامية عسكرية إسرائيلية منذ ١٩٤٨ أى أنها تقع شرق الخط الأخضر، عفوا خط الهدنة اى فى القدس الشرقية. ولذا كانت هذه المنطقة بمثابة مكتنفEnclave فى أرض الأردن (من إسرائيل). أما جبل صهيون فيقع فى جنوب غرب القدس الشرقية. وإلى الشمال الشرقى من جبل صهيون يمتد جبل اكرا على شكل هلال، ومنسوبه ٧٣١ متراً فوق مستوى البحر.

واكسبت الجبال، والتلال، والحافات، والوديان المدينة جمالاً طبيعياً منقطع النظير. فضلاً عن بهائها الديني، والتقاء أنبياء الله فيها، علاوة على عراقتها التاريخية، اكثر من ٦٠٠٠ سنة. ومن عليّ مرتفعاتها يمكن رؤية غور الأردن، والبحر الميت، وهضاب الضفة الغربية ودع عنك السياحة الدينية.

المساحة : تغيرت حدود قضاء القدس من فترة تاريخية لأخرى بسبب الأحداث السياسية والعسكرية التى مرت بفلسطين، وتأرجحت حدوده بين المد والجزر بحسب اتجاهات الإدارة الحاكمة، ونواياها وخططها للمستقبل. فقد كانت مساحة قضاء القدس ١٩٤٣ نحو ٥١٦ كم٢. وبعد نكبة ١٩٤٨ تقلصت مساحته إلى٣٣٥ كم٢لأن إسرائيل اغتصبت منها ١٨١ كم٢ ولما احتلت إسرائيل الضفة الغربية وغزة وسيناء وهضبة الجولان فى حرب ١٩٦٧ أعلنت فى٢٧، ٢٨ /١٩٧٦/٦ ضم مدينة القدس الشرقية إليها. وأوحت لها الولايات المتحدة باستخدام لفظ إعادة توحيد المدينة بدلا من ضمها تخفيفاً أمام الرأى العام العالمى وخداعاً له.

كما أعلنت أن مدينة القدس كلها عاصمتها وإلى الأبد. وبالفعل نقلت العاصمة إليها بعد ١٩٨٠. وكانت مساحة بلدية القدس الشرقية عام ١٩٦٧ نحو ٦ كم٢. ولما احتلتها إسرائيل وسعت حدودها فأصبحت مساحتها ٧٣كم٢ أى ١٢ مرة قدر ما كانت عليه وذلك على حساب أرض عربية صرفة فى الضفة الغربية حيث صادرتها من أصحابها، وشيدت عليها المستعمرات الإسرائيلية التى أصبحت فيما بعد الأحياء اليهودية داخل حدود بلدية القدس الشرقية المحتلة.

ثم أخذت إسرائيل تروج لمصطلحين آخرين هما : القدس الكبرى ومساحتها ٣٣٠كم٢ أى أكثر من مساحة مدينة القدس ١٠٩كم٢، بثلاث مرات، وبهذه الصورة تمتد حدود المدينة على طول مسافة ٣٥ كم من رام الله فى الشمال حتى أطراف مدينة الخليل فى الجنوب، والخان الأحمر شرقاً. أما مصطلح حاضرة القدس ومساحتها ٦٦٠ كم٢ أى ضعف مساحة القدس الكبرى وكل ذلك على

حساب أراضى العرب فى الضفة الغربية. ورسمت إسرائيل حدود مدينة القدس بطريقة متعرجة خبيثة لتستبعد الأماكن العربية ذات الكثافة السكانية العالية، مع ضم مساحات كبيرة من الأرض الفضاء الواقعة فى شمال، وشرق، وجنوب القدس الشرقية وذلك لإنشاء مستعمرات إسرائيلية عليها. ولذا أصبحت المدينة تمتد من شمال مطارها الواقع فى شمالها حتى مشارف بيت لحم فى الجنوب، وحتى مشارف أريحا فى الشرق لتقوى من الفصل الجغرافى بين المناطق العربية وبعضها.

القدس الغربية :

استطاعت إسرائيل أن تحتل القطاع الغربى من مدينة القدس ١٩٤٨. وقد وسعت إسرائيل حدود القدس الغربية إلى ما يقرب من ضعف مساحتها. وتم هذا التوسع على حساب أرض عربية صرفة من أملاك قرى عربية مجاورة هى : لفتا، دير ياسين، عين كارم، بيت صفافا، المالحة وغيرها. وعلى الرغم من ذلك لا تتجاوز مساحة الملكية اليهودية فى داخل القدس الغربية ١٥% من مساحتها. أما بقية مساحة القدس الغربية الراهنة فهى تمثل أراضى القرى العربية التى صادرتها إسرائيل وخاصة منطقة الاسفين الغربى أو أرض المثلث المحصور بين القدس شرقاً وقرى اللطرون وبير مسلم غربا. وتعرف هذه المنطقة باسم باب الواد، ويطلق عليها البعض اسم الفجوة، ويغلب عليها اسم اسفين باب الواد. وتقع فى السفوح الشرقية لمدينة القدس مجموعة من القرى العربية هى : مخماس، جبعة، حزمة، عناتا، العيسوية، العيزرية، الطور، أبو ديس، وسلوان، وتجدر الإشارة إلى أن القرى الخمس الأخيرة أقرب إلى مدينة القدس عن الأربع الأولى، ومنها أبو ديس التى اقترحتها إسرائيل عاصمة لفلسطين.

أما هضبة المدينة فتضم ١٠ قرى هى : كفر عقب، عطاروت، الجيب، بيت لكسا، النبى صمونيل، لفتا، صور، باهر، بيت صفافا، وشرفات. أما قرى السفوح الغربية لمرتفعات المدينة فهى أكثر عدداً لغزارة الأمطار، ويقع معظمها

فى اسفين باب الواد الذى احتلته إسرائيل ١٩٤٨. ومن هذه القرى البريج، دير أبان، دير ياسين، القسطل، أبو غوش، دير رافات، عين وغيرها. وتسقط عليها أمطار تكفى لقيام زراعة بعلية كما تتوفر مياه الرى من العيون والآبار. أما السفوح الشرقية للقدس فهى فقيرة التربة لشدة انحدارها وتقع فى ظل المطر لذلك يطلق عليها مصطلح برية (بادية) القدس. ويمكن تجميع هذه القرى حسب بعدها عن مدينة القدس فى خمس مجموعات هى : أقل من ٥,٥، ٥,٥ - ١٠، ١٠. ١٥- ١٥ -٢٠ و + ٢٠ كم.

- حدود سياسية ١٩٤٨:

فى يولية ١٩٤٨ تم ترتيب الهدنة فى مدينة القدس عن طريق الأمم المتحدة، وانقسمت المدينة بين إسرائيل والأردن إلى القدس الشرقية والقدس الغربية بطول الحائط الغربى الذى يمتد فى وسطها. مع وجود منطقة مشاع عبارة عن حزام أمن بطول ٢,٥ كم (١,٥ ميل) مكون من جزء مهدم (مهجور) وشوارع مهجورة، ونحو ١٥٠ منزلاً بدون سكان، وعشرات الآلاف من الألغام. وتم طرد ٢٠٠٠ يهودى من القدس الشرقية إلى القدس الغربية، وفى المقابل طردت إسرائيل ٣٠ ألف عربى من القدس الغربية واستولت على قراهم. واصبح خط الهدنة (وقف اطلاق النار) او الخط الأخضر فى وسط المدينة بمثابة حد سياسى يفصل بين دولتين : الأردن وإسرائيل وحصنته الأسوار والأسلاك الشائكة ومتاريس دفاعية. وتقع كل الأماكن المقدسة للأديان السماوية الثلاثة فى القدس الشرقية أى فيما يسمى البلدة القديمة. وتم سد ثلاث من بوابات المدينة القديمة ودعمها بحوائط من الأسمنت. أما نقطة العبور الوحيدة فكانت هى ما أطلق عليه بوابة ماندلبوم. وكانت عبارة عن طريق قديم قرب منزل يملكه شخص يدعى ماندلبوم. واقتصر السماح بالعبور من جانب لآخر على رجال الدين، والدبلوماسيين، وموظفى الأمم المتحدة، وبعض السياح. وكان الأردن يطلب من السياح الذين يريدون العبور إبراز شهادات تعميد مسيحية ليثبتوا أنهم غير يهود

قبل السماح لهم بالدخول إلى القدس الشرقية من إسرائيل. ولم يكن يسمح لهؤلاء السياح بالعودة إلى إسرائيل مرة أخرى بل كان عليهم المغادرة إلى بلادهم من الأردن. وانقسمت بالتالي مرافق المدينة من مياه ومجارى وكهرباء وبريد وهاتف وبرق.

وصار جبل سكوبس بما عليه من منشآت الجامعة العبرية ومستشفى هداسا، وحاميته العسكرية الإسرائيلية بمثابة منطقة من إسرائيل تقع فى الأردن أى مكتنفاً. وقد وضعت هذه المنطقة تحت إشراف لجنة الهدنة التابعة للأمم المتحدة. وكان يسمح بعبور شاحنة إسرائيلية لإحضار المؤن لهذه الحامية العسكرية التى كانت توجد هناك. وانقسمت قرية بيت صفافا فى جنوب القدس إلى قسمين : أحدهما لإسرائيل، والآخر للأردن، ولذا تم فصل العائلات والأصدقاء بعضهم عن بعض.

القدس الشرقية :

لما احتلت إسرائيل القسم الشرقى من القدس فى حرب ١٩٦٧ أزالت الحواجز التى كانت فى وسط المدينة، وطهرت المنطقة المنزوعة السلاح، حزام الأمان، من الألغام، وبدأ العبور بين شطرى المدينة بيسر. وفى اليوم التالى لقرار ضم القدس الشرقية لإسرائيل قامت بفصل رئيس بلديتها الأردنى وموظفيه فى مراسم مهينة. فقد نقلتهم سيارات الجيش إلى فندق جلوريا قرب مبنى البلدية وقرأ عليهم نائب الحاكم العسكرى قرار الفصل والترحيل. وعندما طلب رئيس البلدية نصاً كتابياً لهذا القرار قام أحد الإسرائيليين بكتابته على منديل مائدة ورقى خاص بالفندق إمعاناً فى المهانة والاحتقار علماً بأن رئيس البلدية الأردنى كان يتعاون مع الإسرائيليين ويعمل لصالحهم. وتم هدم مبنى البلدية العربى. أما مبنى محافظة القدس الشرقية فقد تم تحويله إلى مبنى للمحكمة المركزية الإسرائيلية.

وقامت إسرائيل بإحداث تغييرات جغرافية وديموغرافية فى مدينة القدس الشرقية لوضع العرب أمام الأمر الواقع. فاستولت على كل الأراضى الفضاء فى

القدس الشرقية لإقامة مساكن لليهود عليها. وبلغت مساحة ما استولت عليه فى عشر سنوات ١٩٧٧/٦٧ نحو ٣٧٠٦٥ فدان بحيث لم يبق فى أيد العرب سوى ١٣,٥% من مساحة القدس الشرقية. ولم تتبق للأحياء العربية أرض فضاء كى تتوسع فيها مستقبلاً كلما زاد عدد سكانها أى أنها خنقتها لتحول دون نموها فى المستقبل. وأسكنت أعدادا كبيرة من اليهود فى القدس الشرقية لكى يصبحوا أغلبية سكانها. وسحبت من السكان العرب بطاقات الهوية الأردنية. وأعطتهم هويات إسرائيلية بدلاً منها. وأصبحت عملتها هى العملة الرسمية المتداولة فى القدس الشرقية.

وسارت خطة إسرائيل بالنسبة للقدس الشرقية فى اتجاهين هما : تطويق المدينة من الخارج، وتطويق الحرم الشريف (المسجد الأقصى وقبة الصخرة) بالمساكن اليهودية. ويطلق على خطة تطويق القدس الشرقية مصطلح العمل خارج الأسوار. أما خطة تطويق الحرم الشريف فتسمى برنامج العمل داخل أسوار البلدة القديمة. ولتطويق الحرم الشريف وجهت إسرائيل فى ١٩٦٧/٦/١٠ (بعد توقيع اتفاقية وقف إطلاق النار) إنذارا إلى ٦١٩ فرداً من سكان حى المغاربة بإخلاء منازلهم. ثم أتت البولدوززات وهدمت هذا الحى بكامله وهو من أقدم الأوقاف الإسلامية فى القدس الشرقية، وحولته إلى انقاض، وهو يقع أمام حائط البراق مباشرة، وذلك لإيجاد مساحة كبيرة من الأرض الفضاء لآلاف اليهود الذين يفدون إلى الحائط الغربى للمسجد الأقصى (تدعى إسرائيل بأنه حائط المبكى) وأيضاً لإنشاء حى يهودى فى مكانه وبذلك طردت نحو ٦٥٠٠ نسمة عرب من هذه المنطقة(٩).

وكانت المبانى العربية منتشرة على طول حائط البراق وحاجبة له من جهة الغرب، ولم يكن ظاهراً ومكشوفاً منه سوى ٥٠ متراً. ولذا قامت إسرائيل فى المرحلة الثانية بهدم المبانى العربية على طول ٨٢ متراً أمام الحائط الغربى وفى

الركن الجنوبى الغربى للحرم الشريف (حائط البراق). ثم الحقت ذلك بهدم أجزاء من حى باب السلسلة، وحى الشرف وقسمان من حى السريان.

وتجدر الإشارة إلى أن حائط البراق الواقع فى جنوب غرب الحرم الشريف دار حوله نزاع بين العرب واليهود ١٩٢٩، فشكلت عصبة الأمم لجنة محايدة من ثلاثة قضاة. جاء فى نص حكمها للمسلمين وحدهم تعود ملكية الحائط الغربى، ولهم وحدهم الحق العينى فيه، لكونه يؤلف جزءاً لا يتجزأ من ساحة الحرم الشريف التى هى من أملاك الوقف الإسلامى. وللمسلمين أيضاً تعود ملكية الرصيف الكائن أمام الحائط وأمام المحلة المعروفة بحارة المغاربة المقابلة للحائط لكونه موقوفاً حسب أحكام الشرع الإسلامى لجهات البر والخير [١٠]، مع السماح لليهود بالوقوف أمام هذا الجدار لتأدية تضرعاتهم إلى الله.

وفى المرحلة الثالثة ١٩٦٩/٦/١٤ قامت بهدم المبانى العربية الموجودة أمام الجزء الجنوبى من حائط البراق. وطردت سكانها بالقوة، وازالتها بالجرافات. وفى المرحلة الرابعة ١٩٦٩/٦/٢٠ قامت إسرائيل بمصادرة ١٧ عقاراً عربياً قسم منها ملاصق لسور الحرم الشريف ويأتى مكملاً لامتداد الحائط، ويقع قسم آخر منها فى طريق وجوانب أخرى داخل السور، وبمصادرة هذه الأبنية أصبحت جميع المبانى الواقعة على الجانب الجنوبى لشارع باب السلسلة فى حوزة إسرائيل التى أسكنت فيها عشرة آلاف يهودى.

وفى المرحلة الخامسة ١٥/ ١٩٦٩/٧ اعلنت إسرائيل أنها ستكشف ٦٠ متراً أخرى من السور تقع فى مستطيل يضم ٣٠٠ عقار وخمسة أبواب من أبواب الحرم الشريف هى : باب السلسلة، باب المطهرة، باب القطانين، باب الحديد، وباب الحبس (باب علاء الدين البصيرى)، فضلاً عن مسجدين وسوقاً عربياً يعد أقدم سوق عربى أثرى فى القدس الشرقية اسمه سوق القطانين، وكان يسكن بهذه المنطقة ٣٠٠٠ عربى تم طردهم منها.

ولتطويق مدينة القدس الشرقية من الخارج وفصلها عن الأراضى العربية المجاورة قامت إسرائيل فى ١٩٦٨/١/١٨ بالاستيلاء على مساحة ٣٣٤٥ دونما أى حوالى ٨١٨ فدانا من أرض العرب إلى الغرب من جبل سكوبس بشمال القدس الشرقية. وفى ١٩٦٨/٤/٢٤ استولت إسرائيل على منطقة متممة للسابقة بمساحة ٢٠٠ دونم. وتشكل هاتان المنطقتان طوقا حاجزا بين عرب القدس واخوانهم فى الشمال وقسما فى الشرق.

اما فى جنوب القدس الشرقية فقد استولت إسرائيل ١٩٦٨/٤/١٤ على منطقة بمساحة ٣٠٠ دونم من أرض العرب لتشكل مع منطقة أخرى استولت عليها بعد ذلك حاجزاً تطويقاً آخر يمتد جنوباً بشرق موازياً للذراع الشمالى الذى أقامته، فأصبح الذراعان الشمالى والجنوبى يطوقان مدينة القدس القديمة من الشمال والجنوب ويفصلانها عن الأرض العربية المجاورة نتيجة لإقامة المستعمرات اليهودية فيهما. وقدمت الأردن شكوى لمجلس الامن فأصدر قراراً ببطلان كل إجراءات إسرائيل فى القدس الشرقية.

وأعلنت إسرائيل عن استعدادها لدفع تعويضات لأصحاب هذه الأراضى والمبانى التى استولت عليها، ورفض العرب ذلك مقررين أن أرضهم ومبانيهم ليست للبيع أو المساومة. وفى ٢٠٠١/٧/٢٥ وافقت المحكمة العليا فى إسرائيل لحركة أمناء جبل الهيكل بأن تضع حجر الأساس للهيكل الثالث قرب الباب المسمى باب المغاربة وبجوار الباب الحديدى الشهابى بجنوب القدس الشرقية المحتلة ولكن ليس بداخل الحرم القدسى الشريف.

وأقامت إسرائيل فى الأرض العربية التى استولت عليها فى مدينة القدس الشرقية ٢٢ مستعمرة واسكنت فيها آلاف اليهود لتحدث تغييراً ديموغرافيا، فضلاً عن تطويق المدينة، وتطويق الحرم الشريف[١١]. وتختلف أهداف الاستيطان اليهودى فى مدينة القدس الشرقية بعض الشئ عما فى الضفة الغربية وغزة. فالغرض من المستعمرات الإسرائيلية، والطرق المستعرضة والالتفافية

فى الضفة الغربية وغزة هو لتقطيع أوصال النطاق الجغرافى الذى تحت سيطرة الفلسطينيين وتحويل هذه المناطق إلى كنتونات ومعازل للسكان العرب غير متصلة ببعضها كما فعل جنوب افريقية بالسكان الوطنيين الأفارقة أيام دولته العنصرية مع الاستيلاء على المياه الجوفية، وتحقيق نشاط اقتصادى : زراعى وصناعى لسكان المستعمرات، أما مستعمرات القدس الشرقية فهى لإبقاء سيطرة إسرائيل وفرض سيادتها عليها.

وتأخذ المستعمرات الإسرائيلية فى القدس الشرقية شكل هلالين يطوقان المدينة فى الشمال والشرق والجنوب، هلال داخلى، وهلال خارجى. فمستعمرات الهلال الخارجى تضم : معالى مخماس، جيفا بنيامين (آدام)، علمون، مشهور أدوميم معالى أدوميم بمساحة ٢٠٩ دونم لتوطين ٣٠ ألف نسمة نحال جيفات "روش زوريم، نيفه دانيل، بيتار لليت، هداربيتار، هارجيلو.

أما مستعمرات الهلال الداخل فهى : نيفه يعكوف، بسجات زنيف، بسجات أمير، راموت ألون، رخيص شعفات، جيفات هامفيتار، راموت أشكول، جيفات شهريارا، مزراحى تلبوت، جيفات هامتوس، وجيلو. وحديثاً مستعمرة جبل أبو غنيم فى جنوب شرق المدينة (أنظر جدول ١).

وأعلن وزير الشئون الدينية ان لإسرائيل حقاً شرعياً فى هدم مسجد قبة الصخرة والمسجد الأقصى وبناء الهيكل مكانهما. وتكونت حركات سرية إسرائيلية لنسف مسجد قبة الصخرة، ولزراعة قنبلة فى المسجد الأقصى لتدميره.

وفى ٩ أغسطس ١٩٦٩ أضرمت النيران فى المسجد الأقصى فقالت إسرائيل أن الذى أضرمها مجنون مسيحى استرالى. واندفع الآلاف العرب لإطفاء الحريق، وتعالت أصواتهم بسب رجال الإطفاء اليهود الذين كانوا يرشون البنزين فى اللهب بدلاً من الماء، وبعد ذلك تقول إسرائيل أن الذى أشعل النيران مجنون استرالى!!!!

وتسعى إسرائيل لتهويد القدس الشرقية بتفريغها من السكان العرب على الأمد البعيد وذلك بحرمانهم من الخدمات، ومنعهم من التوسع العمرانى لمواجهة الزيادة السكانية، بينما تشجع الاستيطان اليهودى فيها، وتقوم إسرائيل بتحقيق هذا الهدف من خلال مصادرة الأرض العربية للمنفعة العامة واستخدام قانون التنظيم والتخطيط.

ويصرح حاخامات اليهود أنها لخطيئة أن تترك تلك المواقع (العربية) فى أيدى الأغيار الأنجاس (العرب)، وأن العرب قذرون ومنحطون ومثيرون للاشمئزاز. والعرب أفاعى، والعرب حشرات قذرة فى عنق زجاجة مملوءة. والله يندم كل يوم الصبح على خلق الفلسطينيين. أما عن تجريح اليهود للقرآن الكريم وللدين الإسلامى ونبيه عليه الصلاة والسلام فحدث ولا حرج. ولا غرابة فى كل ذلك فالإسرائيليون كالصليبيين ذبحوا السكان العرب سواء بسواء. والإسرائيليون هم الصليبيون الجدد، او هم على الأقل أدوات للغرب الصليبى، وهم مرتبطون بالصليبية القديمة.

جدول (١)

بعض المستعمرات الإسرائيلية الكبيرة فى القدس الشرقية

المستعمرة	المساحة / دونم	السكان
رامات أشكول	١٤٢٨	١٦٧٠٠
رامات الون	٤٤٤٩	٤٠٢٠٠
نيفه يعكوف	١٧٩٥	—
بسجات زئيف	٥٥١٨	٤٧٥٠٠
عطروت	٣٣١٥	—
تالبيوت الشرقية	١٠٧١	١٤٨٠٠
جيلو	٢٧٣٤	٣٠٣٠٠
جيفات سابيرا	٩٦١	٨٥٠٠
جبل المكبر (الزيتون)	١١٩٠	—

والشئ الغريب بدلا من ارتفاع صوت جغرافي عاقل وموضوعي عند اليهود تجد أن الجغرافيين الإسرائيليين يستخدمون مصطلحات للسيطرة على الأرض العربية في القدس مثل الابتلاع Engulfing، أحداث ثغرة Breaching، واختراق Penetrating. وكل هذا يكشف عن النوايا الإسرائيلية العدوانية المبيتة تجاه الأرض العربية وسكانها العرب[١٢].

الإجراءات الإسرائيلية الداعمة للاستيطان في القدس[١٣] :

١- تهويد المرافق والخدمات العامة: قامت إسرائيل فور احتلالها للقدس الشرقية بإلغاء الإدارة العربية فيها فحلت المجلس البلدي العربي، وألحقت موظفي الدوائر العربية بالدوائر الإسرائيلية، واشترطت على أصحاب المهن العرب الالتحاق بالمؤسسات الإسرائيلية حتى يسمح لهم بمزاولة مهنهم وأعمالهم.

٢- الإغلاق والعزل وفرض الحصار: عمدت السلطات الإسرائيلية إلى عزل المدينة عن باقي مناطق الضفة الغربية ومنعت المواطنين من الضفة الغربية من زيارة القدس إلا بموجب تصاريح خاصة.

٣- إضعاف النشاط الاقتصادي العربي: عملت إسرائيل على إضعاف الحركة الاقتصادية العربية في القدس من خلال منع إقامة المشاريع الصناعية العربية وفرض الضرائب المرتفعة عليها وعلى السكان العرب لإثقالهم بالضرائب ودفعهم للهجرة من القدس، ومنها ضريبة الأرنونا العقارية المرتفعة، كما يدفع العرب ٢٥% من ميزانية البلدية بينما هم يحصلون على ٥% من الخدمات التي تقدمها البلدية لهم.

٤- طمس الثقافة الوطنية وتهويد التعليم: قامت إسرائيل بإلغاء مناهج التعليم العربية وطبقت مناهج التعليم الإسرائيلية على المدارس العربية وألحقت جميع أجهزة التربية والتعليم في القدس بوزارة المعارف الإسرائيلية.

٥- الاعتداء على الأماكن الدينية الإسلامية والمسيحية: وأخطر هذه الاعتداءات حريق المسجد الأقصى في ٢١أ ب/ أغسطس ١٩٦٩ كما شجعت السلطات الإسرائيلية المستوطنين اليهود على الصلاة في الحرم الشريف في نفس الوقت الذى تحد فيه من حرية المسلمين والمسيحيين على الوصول إلى أماكنهم المقدسة، وتهدف إسرائيل من هذه السياسة إلى الاستيلاء على الأماكن الدينية الإسلامية والمسيحية تمهيداً لإزالتها وإقامة الهيكل المزعوم بدلاً منها، ويظهر ذلك جلياً من خلال الحفريات العديدة التى تقوم بها السلطات الإسرائيلية تحت المسجد الأقصى بحجة البحث عن أثار الهيكل المزعوم.

٦- هدم المنازل: بلغ عدد البيوت التى تم هدمها من قبل الجيش الإسرائيلي فى القدس الشرقية ما بين عام ١٩٦٧ – ١٩٩٩م حوالي ٢٠٠٠ منزل بحجة بنائها من غير ترخيص، علماً بأن الإجراءات والقوانين الإسرائيلية تجعل من المستحيل على أي مواطن عربي فى القدس الحصول على رخصة بناء.

إن السياسة الاستيطانية الاستعمارية والمبرمجة والقائمة على الفكر الصهيوني الاستعماري الذى يدعو إلى طرد الفلسطينيين وإحلال اليهود بدلاً منهم سوف لن يؤدي إلى السلام العادل الشامل فى فلسطين.

أن هذه السياسة الاستيطانية ستؤدى إلى مجموعة من النتائج الخطيرة التى ستؤثر على عملية السلام لأن الاستيلاء على أراضى العرب وبيوتهم فى القدس والقرى المجاورة وإقامة المستوطنات عليها وإسكان المستوطنين اليهود فيها سوف تؤدى إلى جعل عملية السلام فى الشرق الأوسط أمراً مستحيلاً لأن الفلسطينيين الذين يطردون من بيوتهم وأراضيهم سوف يشعرون بالظلم والقهر الواقع عليهم وسيحاولون العمل باستمرار على استعادة أراضيهم ولو بالقوة المسلحة.

الحفريات الإسرائيلية فى محيط الحرم الشريف(١٤):

المرحلة الأولي:

بدأت أواخر سنه ١٩٦٧ وانتهت سنه ١٩٦٨م. وقد امتدت مسافة ٧٠م أسفل الحائط الجنوبي للحرم القدسي الشريف وبعمق ١٤م.

المرحلة الثانية:

بدأت سنه ١٩٦٩ أسفل سور الحرم القدسي حيث انتهت حفريات المرحلة الأولى وقد وصلت باب المغاربة على امتداد ٨٠ متراً.

بلغ عدد الأبنية التى تأثرت بهذه الحفريات ١٤ بناية قامت إسرائيل بإزالتها بالجرافات فى ١٩٦٩/٩/١٤م.

المرحلة الثالثة (حفريات النفق الغربي):

بدأت سنه ١٩٧٠ وتوقفت سنه ١٩٧٤م ثم استؤنفت سنه ١٩٧٥ وامتدت مسافة ٤٥٠م وعمق ١١-١٤م من أسفل عمارة المحكمة الشرعية القديمة مارة بخمسة من أبواب الحرم القدسي. وقد وصل عمقها إلى أكثر من ١٠م. وفى شهر آذار ١٩٨٨م قامت إسرائيل بحفريات عند ملتقى طريق باب الغوانمة مع طريق المجاهدين لإيصال هذا النفق مع قناة الماء التى اكتشفها الجنزال كوانرد تشيك فى القرن التاسع عشر بطول ٨٠ مترا. وفى ٢٤ أيلول ١٩٩٦م قامت الحكومة الإسرائيلية بإعادة فتح هذا النفق مما تسبب فى استشهاد عشرات الفلسطينيين ومقتل عدد من اليهود.

المرحلة الرابعة والخامسة:

بدئ بهما سنه ١٩٧٣ واستمرتا حتى سنه ١٩٧٤ خلف الحائط الجنوبي الشرقي للمسجد الأقصى وسور الحرم القدسي الشريف على امتداد ٨٠ متراً واخترقت هذه الحفريات فى شهر تموز (يوليه) سنه ١٩٧٤م الحائط الجنوبي للحرم القدسي وتم الدخول منها إلى الأروقة السفلية للمسجد الأقصى المبارك والحرم الشريف.

المرحلة السادسة:

جرت تحت الأروقة الجنوبية الشرقية للمسجد الأقصى ووصل عمقها إلى ١٣م وتهدد سور الحرم الشريف بالانهيار.

المرحلة السابعة:

بدأت سنه ١٩٨٢ واستمرت حتى عام ١٩٨٦م في مكان قرب منتصف الحائط الشرقي لسور المدينة ولسور الحرم الشريف بين باب السيدة مريم والزاوية الشمالية الشرقية من سور المدينة، وتهدد بإلحاق الأضرار بمقبرة باب الأسباط.

المرحلة الثامنة:

وهي مشروع تعميق ساحة البراق حيث تم فيها هدم حارة المغاربة بتاريخ ١٩٦٧/٦/٧. وبعد ذلك جرت حفريات أسفل ساحة البراق بعمق ٩ أمتار وقد أثرت على المدرسة التنكزية وعمارة المكتبة الخالدية وزاوية ومسجد أبي مدين الغوث.

المرحلة التاسعة:

وجرت تحت شعار الكشف عن مدافن ملوك إسرائيل في الناحية الجنوبية لسور الحرم القدسي.

المرحلة العاشرة:

حيث تم فيها إعادة فتح نفق الكولونيل الإنجليزي وارن الذى اكتشفه في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وجرت الحفريات ما بين بابي السلسلة والقطانين ووصلت أسفل سبيل قايتباى بامتداد ٢٥ متر وبعرض ٦ أمتار. أغلق هذا النفق بأمر من دائرة الأوقاف الإسلامية في ١٩٨١/٨/٢٩م.

الانتهاكات الإسرائيلية في القدس:

قامت الدولت الإسرائيلية باحتلال القدس الغربية عام ١٩٤٨م وعملت على طرد وتهجير جميع سكان المدينة العرب كما أنها قامت بطرد جميع سكان القرى

العربية الواقعة إلى الغرب من المدينة. وتحول هؤلاء إلى لاجئين في الدول العربية المجاورة وأقامت على أنقاض القرى العربية المستعمرات اليهودية وقد قامت إسرائيل بتدمير المساكن العربية وأقامت على أنقاضها مساكن لليهود الذين حلوا مكانهم. وأعلنت عنها يهودية خالصة ثم نقلت إليها الكنيست ومقر الحكومة وغيرها من الدوائر وادعتها عاصمة لإسرائيل.

من اليوم الأول لاحتلال المدينة فى ١٩٦٧/٦/٧ ارتكبت إسرائيل سلسلة من الانتهاكات الخطيرة نوجزها فيما يلي:

أ- هدم حارة المغاربة بتاريخ١٩٦٧/٦/١١م وقد بلغ عدد المنازل المهدمة: ١٣٥، كما بلغ عدد سكان العرب المتضررين ٦٥٠.

ب- هدم حارتي الشرف والسلسلة بتاريخ ١٩٦٨/٤/١٨ وقد بلغ عدد المباني المهدومة: ٥٩٥ بناية وعقار إسلامي وعدد البيوت المهدومة ١٠٤٨، وعدد الدكاكين والمخازن المهدومة: ٤٣٧، كما هدمت إسرائيل جامعين، أما عدد السكان المتضررين فبلغ ٦٠٠٠ نسمة.

وقد بلغ مجموع مساحة الأرض المصادرة بعد الهدم ١١٦ دونما، ثم قامت إسرائيل بمصادرات أخرى حيث وصلت فى مجموعها حوالي ١٧٠ دونما (فى بعض المصادر). كما قامت سلطات الاحتلال بانتزاع مفتاح باب المغاربة المطل على حائط البراق.

سنه ١٩٦٧ استولي اليهود على حائط البراق وادعوا أنه "حائط المبكي" أو "الحائط الغربي" لما يزعمون أنه الهيكل، كما أزالت سلطات الاحتلال المدرسة العمرية وزاوية المغاربة والمدرسة الأفضلية خلال عمليات الهدم التى تعرضت لها حارة المغاربة وهدمت سلطات الاحتلال الإسرائيل الزاوية الطواشية فى حارة الشرف العربية وأقامت على إنقاضها مساكن لليهود.

ونتيجة الحفريات الإسرائيلية أسفل الحرم القدسي الشريف تأثرت العديد من الأبنية التي أصبحت معرضة للانهيار مثل المدرسة العثمانية والمدرسة الجوهرية ورباط الكرد.

وفي ١٨ نيسان ١٩٦٨م استولت سلطات الاحتلال الإسرائيلي على مدرسة دار الحديث الإسلامية التي انشئت سنة ١٢٦٨م في العصر المملوكي. وفي سنة ١٩٦٩ م رابطت قوات الاحتلال الإسرائيلي في المدرسة التنكزية.

ثم قامت سلطات الاحتلال الإسرائيلي بهدم ٢٨٢ منزلاً في القدس في الفترة ما بين عامي ١٩٨١- ١٩٩٩م.

جـ- **مصادرة الأراضي:** وبلغت مساحة الأراضي المصادرة من قبل سلطات الاحتلال الإسرائيلي في حدود ما يسمي "بلدية القدس الموحدة" في الفترة منذ الاحتلال الإسرائيلي حوالي ٢٥,٠٠٠ دونم أي أكثر من ثلث مساحة شرق القدس، وأهم الانتهاكات قاطبة هو الاحتلال العنصري الإسرائيلي للأرض العربية والإنسان العربي.

- ماذا تعرض إسرائيل وحليفتها أمريكا من حلول تلفيقية للقدس الشرقية؟

تحولت مدينة القدس الشرقية العربية إلى مكتنف في الوقت الحاضر بسبب طوقي المستعمرات الإسرائيلية التي تحيط بها من الشمال، والشرق، والجنوب. وسيستمر وضع هذه المدينة هكذا طالما بقيت المستعمرات الإسرائيلية سواء في ظل مشروع القدس الكبرى ٣٣٠كم٢، أو حاضرة القدس ٦٦٠كم٢ على أرض عربية. وتوطن إسرائيل الآف اليهود في هذه المستعمرات لتفصل بين مدينة القدس الشرقية ومحيطها العربي وبلغ عدد سكان مدينة القدس بقسميها الشرقي والغربي مؤخراً ٥٨٣ ألف نسمة منهم ٧٢% من اليهود، و٢٨% من العرب. ويقترب عدد اليهود حول القدس الشرقية وفيها من عدد سكانها العرب حالياً بسبب الاستيطان الصهيوني. وشكل سكان مدينة القدس بكاملها نحو عشر،

١٠,٥%، سكان إسرائيل عام ٢٠٠٠ وصارت المدينة الأولي فى إسرائيل من حيث عدد السكان.

وعرضت إسرائيل والولايات المتحدة مقترحات لحل مشكلة البلدة القديمة، عفوا القدس الشرقية. وأغلب هذه المقترحات تسعى للالتفاف حول السيادة السياسية للفلسطينيين على القدس الشرقية. مثال ذلك عرضت الولايات المتحدة ٣٠ مليار دولار على الفلسطينيين لقاء تنازلهم عن القدس الشرقية لإسرائيل، وتم رفض ذلك أو أن تكون السيادة لله فى المدينة، ولكن السؤال يبقى قائما، من يتولي السيطرة، وتطبيق السيادة على الأرض: دولة فلسطين أم إسرائيل وفى واحد من مقترحاتها تحدثت إسرائيل عن السيادة السياسية، والسيادة الوظيفية وأن تكون الأولى لإسرائيل فى القدس الشرقية، والثانية للفلسطينيين على أن تتحكم إسرائيل فى شئون الأمن، ومداخل ومخارج كل من المدينة والحرم الشريف. وعرضت أمريكا (يعنى إسرائيل) نوعين من السيادة هما: السيادة الرعوية، والسيادة الأمنية (السياسية) على أن يكون للفلسطينيين جميع الأمور المتعلقة بالحرم من نظافة، وكهرباء، ومياه وتوفير جميع احتياجات الحرم فيما يعرف باسم السيادة الرعوية. وأن يكون لإسرائيل الأمور المتعلقة بالأمن والسيطرة على المنافذ والسماح بالدخول والخروج فيما يعنى السيادة الأمنية (السياسية). وزيادة فى المخادعة لاغراء الفلسطينيين بقبول الفكرة عرضت أمريكا خلع لقب خادم الحرمين الشريفين (المسجد الأقصى وقبة الصخرة وكنيسة القيامة) على رئيس فلسطين، واستخدمت لذلك لفظ Custodian أى حارس وشيخ الغفر. أبعد ذلك استهبال !!! كما عرضت أمريكا وإسرائيل أن تكون السيادة للفلسطينيين على سطح الأرض فى منطقة الحرم الشريف وتحت الأرض للإسرائيليين. وبعد ذلك تقوم إسرائيل بالحفر تحت أساس الحرم الشريف بحثا عن الهيكل اليهودى فينهار المسجدان: الأقصى وقبة الصخرة ولا يعاد بناؤهما وبذلك تنتهي سيادة فلسطين من على سطح المنطقة، وتبقى سيادة إسرائيل تحت الأرض أو تكون مدينة القدس

بشطريها: الشرقي والغربي منزوعة السلاح بالكامل، ومنع وجود عسكري إسرائيلي أو فلسطيني فيها على الإطلاق وفى حالة اختيار إسرائيل للقطاع الغربي من القدس مقراً للحكومة الإسرائيلية والكنيست، تصبح القدس الشرقية عاصمة لفلسطين تضم الحكومة والبرلمان الفلسطيني وطلبت أمريكا تعديل الاقتراح السابق، وذلك بتدويل القدس الشرقية فقط دون الغربية وتم رفض هذا التعديل.

وعرضت إسرائيل اقتراحاً بحق السيادة السياسية لفلسطين على الحي الإسلامي والمسيحي داخل المدينة القديمة وبحق إقامة حكم ذاتى (وليس سيادة) على بعض الأحياء العربية خارج المدينة القديمة ضمن حدود بلدية القدس التى وسعتها إسرائيل ١٩٦٧ على حساب الأرض العربية. ثم تقدمت إسرائيل باقتراح عكس السابق بمعنى الإقرار بحق السيادة السياسية الفلسطينية على بعض الأحياء العربية خارج المدينة القديمة ضمن حدود البلدية الموسعة. وبحق إقامة حكم ذاتى (وليس السيادة) على الحي: الإسلامي والمسيحي داخل المدينة القديمة.

وفى كلا الاقتراحين السابقين الإقرار بما يسمي الولاية الدينية للفلسطينيين وليس السيادة السياسية على الحرم القدسى الشريف. وهناك ١٠ ملاحظات هامة على هذين الاقتراحين:

١- أن السيادة السياسية الفلسطينية لا تشمل كل الإحياء العربية داخل المدينة القديمة.

٢- أن تكون السيادة السياسية لإسرائيل داخل المدينة على الأحياء العربية التى لم تشملها سيادة فلسطين (الحى الأرمنى).

٣- أن السيادة السياسية الإسرائيلية تظل على جميع الإحياء والمستعمرات اليهودية المستحدثة على أرض عربية مصادرة منذ ١٩٦٧ فى القدس الشرقية، ضمن حدود البلدية الموسعة(٣٣٠ كم ٢، و٦٦٠كم ٢)، وهى منشآت باطلة أصلاً بحكم القانون.

٤- أن الإحياء العربية التى تحصل على الاستقلال وتلك التى تحصل على الحكم الذاتي فى الصيغتين السابقتين غير متصلة ببعضها جغرافيا بسبب تداخل أحياء تحت السيادة الإسرائيلية تفصل بينها.

٥- أن المناطق داخل الخط الأخضر (الهدنة) داخل حدود البلدية الموسعة تبقى تحت السيادة الإسرائيلية. وقد صودرت هذه المناطق من سكانها العرب منذ ١٩٦٧، وهى خالية الآن، لكنها تكن بمثابة احتياطي أرض فضاء لإقامة أحياء يهودية عليها مستقبلاً، بالرغم من أنها المجال الحيوى لنمو الإحياء العربية وتوسعها الطبيعي.

٦- يظل مطار القدس (شمال المدينة) تحت السيادة الإسرائيلية، وبذلك يتعذر الاتصال الجوى بين الإحياء العربية ذات السيادة والعالم الخارجى مع ما يستتبع ذلك من انعكاسات سلبية على حركة السياحة والزيارة إلى القدس العربية.

٧- يظل الاتصال بين القدس العربية المفترضة وبين بيئتها وخلفيتها ومجالها الحيوى فى الضفة الغربية شمالا وجنوباً وشرقاً خاضعاً للسيطرة الإسرائيلية الأمر الذى يمكن إسرائيل من عزلها وإغلاقها من أرادت.

٨- يبقى الممر المزمع إقامته المؤدى إلى الحرم الشريف تحت السيطرة الإسرائيلية بحيث يضطر كل عربي أو مسلم يريد الدخول إلى الحرم الشريف للزيارة أو الصلاة خاضعاً لإجراءات الأمن والتفتيش الإسرائيلية.

٩- لن تكون القدس العربية الناتجة عن المشروع وحدة متماسكة تمتد على مدي القدس الشرقية بحيث تشكل همزة الوصل بين منطقة جبل نابلس شمالا ومنطقة جبل الخليل جنوبا. وستظل بمثابة جيتو أو معزل محاصر بالإحياء والمستعمرات الإسرائيلية المتداخلة فيها والى تقطعها عن الضفة الغربية.

١٠- فرض السيادة السياسية (يقولون الإقليمية) الإسرائيلية الأبدية على الحرم الشريف نفسه، وهو بما فيه حائط البراق يعد وقفاً إسلامياً أو وقف على هذه الأمة منذ الفتح العمرى.

وقدمت أمريكا وإسرائيل اقتراحا مشتركا لحل هذه المشكلة ويرتكز على: تقسيم الحرم القدسي إلى ٤ قطاعات وهى: ساحة المسجد الأقصى، وحائط المبكي (البراق) والمسجد الأقصى، وقبة الصخرة ، وأساسات الحرم القدسي تحت الأرض. مع وضع مباني المسجد الأقصى، ومسجد قبة الصخرة فوق سطح الأرض تحت السيادة الفلسطينية مع بقاء حائط المبكي (البراق) وساحة المسجدين: الأقصى وقبة الصخرة، وأساسات المسجد الأقصى فى باطن الأرض تحت السيادة الإسرائيلية. ويدور الجدل حول ساحة الحرم القدسى الشريف، وهى المسافة بين المسجد الأقصى، ومسجد قبة الصخرة وتريد إسرائيل أخذها، وتتمسك إسرائيل بفرض سيطرتها وسيادتها الكاملة على هذه الساحة، وسيادتها على منطقة الحرم القدسى بأكملها تحت الأرض بما تتضمنه من اساسات المسجد الأقصى بزعم وجود اساسات الهيكل اليهودى فى هذه المنطقة، وهذا اقتراح كله خبث كي تقوم إسرائيل بالحفر تحت أساسات المسجد الأقصى ومسجد قبة الصخرة فينهاران من فوق سطح الأرض لتنتهى السيادة الفلسطينية فى المنطقة، وتبقى لإسرائيل لأن سيادتها تحت الأرض، وبعد الانهيار تصعد إسرائيل لسطح الأرض وتتمكن من إقامة الهيكل بطريقة ماكرة. حقاً إنه اقتراح خبيث الذى يتحدث عن سيادة سياسية فوق الأرض، وتحت الأرض. ومفروض أن تمتد السيادة السياسية للدول من فوق الأرض إلى باطنها.

ومن الحلول التى اقترحتها أمريكا أن يكون للمسجد الأقصى وكنيسة القيامة، ومسجد قبة الصخرة وضع السفارة أي ولاية دينية فقط للفلسطينيين على المباني وليس الأرض، وأيضا عرضت أن تقوم إسرائيل بتسليم المسجد الأقصى لكى يكون رئيس فلسطين شيخ غفر عليه عفواً كبير الحراس Custodian. وعلى كل

البيوريتان في إنجلترا من طغيان ملوك أسرة ستيوارت السياسي، ومن ما اعتبروه الردة الانجليكانية التي فرضها كبير الأساقفة(لود)أن دفعهم إلى الهجرة إلى العالم الجديد كي يعبدوا الله أحرارا فيه، وينشئوا هناك هذا المجتمع الطوبوي الذي يؤمنون به في أرض بكر. وكان هؤلاء من كونوا ما باتوا يعرفون باسم الآباء الحجاج الأمريكيين pilgrim fethers .

حينما وصل المهاجرون الأوائل من إنجلترا إلى العالم الجديد بهذا المزيج العجيب من المعتقدات الدينية، التي لا هي يهودية ولا مسيحية، و الفردية، والطموح الاقتصادي، والنفعية، والتي تتنافى جميعها مع طبيعة المجتمع الطوبوي المثالي. وهي كلها أمور ولدت بعد ذلك المبدأ البراجماتي النفعي في أمريكا، الذي أصبح يهتم فقط بالنتائج المادية، دون النظر إلى الجماليات والفنيات والذوقيات التي تميزت بها الثقافة الأوربية بوجه عام).اعتبروا أمريكا هي (أورشليم الجديدة) (أو كنعان الجديدة) وشبهوا أنفسهم بالعبرانيين القدماء حينما فروا من ظلم فرعون (الملك الإنجليزي جيمس الأول) وأنهم فروا بدينهم ومعتقداتهم من مصر(إنجلترا) بحثا عن أرض الميعاد . فكان أن أسسوا علي ساحل نيوانجلند ما ظنوا أنها ستكون أورشليم الجديدة، ووقع هؤلاء البيوريتانيين الذين جاءوا علي السفينة ماي فلاور في نوفمبر ١٦٢٠ اتفاقا بات يعرف باسم عهد ماي فلاور May Flower Compact والذي يعتبر بمثابة العقد الاجتماعي الأصيل الذي اصبح الأساس التاريخي للفلسفة السياسية الأمريكية ، أي أن الحكم يقوم فقط علي رضا المحكومين.

كان هؤلاء البيوريتان علي يقين من أنهم يسيرون علي الطريق الصحيح، ولكن استقامتهم في الدين كانت ذات طابع غريب، إذ كان اهتمامهم باللاهوت نفسه اقل من اهتمامهم بتطبيقه في الحياة العملية اليومية، وقد ساعدهم علي ذلك بعدهم عن مراكز العلم والمكتبات العظيمة في العالم القديم، مع وجودهم في بيئة بكر يريدون ترويضها، وأيضا مع تعرضهم يوميا للتهديد من جانب ألوف

المصادر والمراجع

1- Grolier Insorporated, Encyclopedia Americana Corporation, the Encyclopedia American, vol. 16, New York 1985, P.29.

٢- د. عز الدين فودة. قضية القدس في محيط العلاقات الدولية. مركز الأبحاث، منظمة التحرير الفلسطيني، دراسات فلسطينية، بيروت رقم ٢ ، يناير ١٩٦٩ ، ص ٢٦.

3- Lexicon Publications INC. Lexicon Universial Encyclopedia, vol. II New York 1983, P. 400.

4- Encyclopedia American, op. cit, P. 31,

٥- د. عبد العزيز كامل. الجغرافيا والدين، رسائل جغرافية، قسم الجغرافيا، جامعة الكويت، الكويت، رجب ١٤١١هـ يناير ١٩٩٢، رقم ١٤٠، ص٢٩.

6- E. E. Compton Company. Compton's Encyclopedia, Chicago 1982, P.439.

٧- د. محمد محمود إبراهيم الديب. الجغرافيا السياسية – منظور معاصر، الانجلو المصرية، القاهرة ٢٠٠٢، ص ٢١٤.

٨- د.عزيز سالم الدويك. ظهير بيت المقدس التصنيف ودلالة الوظيفة. الدارة ، العدد ٣، السنة ٢٣، ١٤١٨هـ ، الرياض، ص ص ١٥٢-١٦٠.

٩- أحمد عباس. القدس الدامية. ص ص ٦٣- ٦٩.

١٠- د.عادل حسن غنيم. حائط البراق أم حائط المبكى. مركز بحوث الشرق الأوسط، جامعة عين شمس القاهرة ١٤٢٢هـ ٢٠٠١ ص ٨٧.

11- The National Geographic Society. Jerusalem map scale 2: 75 meters and I inch : 1.3 miles. Washington, D.C. February 1996.

١٢- ترجمة د. فاطمة نصر، د. محمد عناني. القدس مدينة واحدة وعقائد ثلاث، سطور القاهرة ١٩٩٨، ص ٦٥٦.

١٣- عبد الله كنعان. محاضرات حول القدس منشورات اللجنة الملكية لشئون القدس، عمان ٢٠٠١، ص ص ٦٦-٦٨.

١٤- محمود عواد، د. زهير غنايم القدس: معلومات وأرقام. منشورات اللجنة الملكية لشئون القدس، عمان ٢٠٠١، ص ص ٢٧-٢٩.

١٥- مروة أديب جبر. القدس تحت الإحتلال الإسرائيلي جغرافياً وديموجرافياً، ندوة فلسطين عبر عصور التاريخ. مركز البحوث والدراسات التاريخية، جامعة القاهرة ١٩٩٦، ص ٢٩١.

دور العرب في نشر الإسلام في شرق إفريقيا

أ.د. جمال زكريا قاسم
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
كلية الآداب – جامعة عين شمس

تهدف هذه الدراسة إلى التركيز على دور العرب في نشر الإسلام في شرق إفريقيا. وليس من شك في أن الاهتمام بدراسة التراث العربي والإسلامي في إفريقية بصفة عامة وفي شرقها بصفة خاصة أصبح أمرا ملحا لمواجهة التحديات الفكرية والحضارية التي واجهها الإسلام في فترة الهيمنة الأوروبية على القارة ولا يزال يواجهها العرب والمسلمون حتى وقتنا الحاضر.

ومن الثابت طبقا لما تؤكده العديد من المصادر قدم الاتصال العربي بالساحل الشرقي من القارة الإفريقية إذ كان التجار من سواحل الخليج والجزيرة العربية قد عرفوا ذلك الجزء من الساحل الممتد من رأس جردفون شمالا إلى خليج دلجادو جنوبا وأطلقوا عليه بر الزنج أو فيما صار يعرف بزنجبار من الفارسية بار بمعنى الساحل .

وعلى الرغم من أنهم كانوا قلة من التجار يأتون في فترات محددة إلا أنه بمضي الزمن بدأ اختلاطهم يشتد بالسكان فتزاوجوا من نساء القبائل وأقاموا عدة مراكز تجارية على الساحل للاشتغال بتجارة الذهب والعاج والرقيق [١]. وقد ظل الاتصال التجاري ينمو ويتسع قبل الإسلام بين سواحل الخليج والجزيرة العربية وموانئ الساحل الشرقي لإفريقيا حيث ساعدت العوامل الجغرافية إضافة إلى عامل الجوار على تنشيط حركة الملاحة لأن الرياح الموسمية التي تهب على منطقة المحيط الهندي كانت تمكن السفن الشراعية من القيام برحلتين منتظمتين في السنة بأقل مجهود. وفي خلال دورتي الرياح كان يتم التعامل التجاري[٢].

وقد ظلت الرياح الموسمية تعد سرا من الأسرار التي احتفظ بها العرب والهنود لأنفسهم إلى أن تمكن ملاح إغريقي في النصف الأول من القرن الميلادي الأول من كشف اتجاه هذه الرياح وكان من نتيجة ذلك ظهور بعض الكتب باللغتين اليونانية واللاتينية عن الجزء الغربي من المحيط الهندي وموانئه وحركة التجارة فيه ومن أبرزها كتاب"الطواف حول البحر الأرتيري"Erythraei Periplus Marie الذي يعد من أقدم الكتب التي تحدثت عن علاقة العرب بالساحل الشرقي من إفريقيا حيث يعجب مؤلف الكتاب في العديد من الفقرات من كثرة عدد السفن العربية ومن اختلاط العرب بالقبائل الإفريقية وتزاوجهم من نسائها(٣).

ومما تجدر الإشارة إليه أن العرب اكتفوا في الفترة السابقة لظهور الإسلام بالاستقرار المؤقت على الساحل ولم يحاولوا التوغل في الداخل مكتفين بإنشاء المراكز التجارية إذ كان زعماء القبائل الإفريقية يأتون إلى الساحل بالذهب والعاج والرقيق حيث يقايضون التجار العرب بما يحملونه من بضائع . غير أن ظهور الإسلام في القرن السابع الميلادي لم يلبث أن أحدث انقلابا خطيرا في حالة العرب بوجه عام وفي تاريخ الساحل الشرقي من إفريقيا بوجه خاص إذ ظهر عامل آخر غير العامل التجاري نتج عنه اتجاه العرب إلى الاستقرار الدائم وإقامة كيانات سياسية عربية إسلامية. ومن الثابت أن العرب كانوا أول شعب يقيم مستوطنات له على الساحل الشرقي من إفريقيا وكان مما سهل عليهم إقامة تلك المستوطنات أن القادمين الجدد صادفوا جماعات من العرب سبقتهم إلى هناك منذ أزمنة بعيدة كما لقوا شعبا سواحليا أسهمت العناصر الوافدة إلى الساحل في تكوين سماته حيث أخذت شعوب الساحل عن العرب الثقافة العربية والدين الإسلامي والكثير من وسائل عيشهم ونماذج حياتهم . كما كان للعرب المهاجرين من سواحل الخليج والجزيرة العربية فضل كبير في نشر الإسلام في مدغشقر وفي جزر القمر وغيرها من جزر الجزء الغربي من المحيط الهندي .

ولم يكن هدف المهاجرين العرب إلى ساحل شرق إفريقيا الدعوة إلى

الإسلام أو تحويل الأفارقة إلى الدين الإسلامي وإنما كان دافعهم العثور على ملاجئ آمنة من ناحية ومزاولة التجارة من ناحية أخرى. غير أن اعتناق شعوب الساحل للدين الإسلامي وتشربهم للثقافة العربية كان نتيجة للعلاقة التي نشأت بينهم وبين أولئك المهاجرين والتي وصلت إلى حد التزاوج فيما بينهم .

ومنذ بداية القرن التاسع الميلادي شهد الساحل الشرقي لإفريقيا قيام الكثير من المدن والإمارات العربية الإسلامية التي كانت تمتد في صورة سلسلة لا تكاد تتقطع من ساحل البنادر في الصومال شمالا إلى خليج موزمبيق جنوبا[٤] وأخذت المؤثرات العربية والإسلامية تظهر بصورة واضحة وأصبح لكل مدينة مسجدها الخاص بها ولم تستطع القبائل الإفريقية أن تستوعب الوافدين عليها لأن مورد العرب كان منهلا لا يكاد ينقطع وترتب على ذلك احتفاظ العرب بسماتهم المميزة وإن كان قد نمى من هذا الوضع المتحرك الناتج عن تعدد اللغات والثقافات والعناصر التي كانت تفد من الهند وفارس وجزر الشرق الأقصى وسواحل الخليج والجزيرة العربية الثقافة واللغة السواحلية التي شكلت المفردات العربية لاسيما الألفاظ المستخدمة في الشئون التجارية والدينية نسبة كبيرة منها وقدر رويش Reusch- وهو أحد المتخصصين في اللغة السواحلية - نسبة المفردات العربية فيها من الربع إلى الخمسين[٥].

وقد حدثت الهجرات العربية وما تبعها من استيطان في ساحل شرق إفريقيا نتيجة دوافع متعددة لعل أبرزها المنازعات الدينية والسياسية والقبلية على عهد الدولتين الأموية والعباسية مما دفع العرب إلى الهجرة إلى موانى وجزر الساحل الشرقي لإفريقيا التي كانوا قد ألفوا من قبل التردد عليها والتبادل التجاري معها. كما كان للأحداث السياسية الخطيرة التي مر بها العالم الإسلامي ومن بينها سقوط الدولة العباسية على أثر اجتياح المغول للعراق وغزو تيمور لنك لفارس تأثيرها البالغ في دفع هجرات المسلمين إلى شرق إفريقيا. وكان من نتيجة ازدياد موجات الهجرة العربية والإسلامية أن أخذت المراكز التجارية التي كان قد

أنشأها المهاجرون الأول من العرب أو الفرس تتحول إلى مدن و إمارات وسلطنات عربية وإسلامية ومن بينها مقديشيو وبراوة وبات ولامو وزنجبار ومافيا وسفالة وكلوة التي كانت عاصمة لدولة الزنج .[٧]

وكان للهجرات العربية والإسلامية المتوالية التي وفدت على الساحل الشرقي لإفريقيا أثرها في الازدهار الاقتصادي والحضاري الذي تمتعت به تلك الإمارات والسلطنات الإسلامية غير أنها افتقرت إلى التنظيمات العسكرية وربما يرجع السبب في ذلك إلى أنها لم تقم نتيجة لفتح أو توسع عسكري وإنما أقامها تجار أو مهاجرون أو مضطهدون سياسيون أو دينيون كانوا حريصين على أن تكون علاقاتهم سلمية مع الأهالي الذين استوطنوا ديارهم ومن ثم يمكن القول أن الاستقرار العربي في ساحل شرق إفريقيا حدث بهدوء وبدون اللجوء إلى القوة أو العنف إذ لا يذكر لنا التاريخ الإفريقي حروبا أو معارك وقعت بين المهاجرين العرب والسكان الأصليين [٨]. ومن ناحية أخرى أن العرب الذين أقاموا تلك المستوطنات قد نقلوا معهم خلافاتهم ومنازعاتهم القبلية والسياسية والمذهبية ومن ثم أصبح من الصعوبة قيام وحدة سياسية تجمع بين تلك المستوطنات . وبصدد ذلك تحدثنا الروايات عن ذلك النزاع المشهور الذي كان قائما بين ماليندة وممبسة والذي استفاد منه البرتغاليون عند مجيئهم إلى الساحل الشرقي لإفريقيا .

ويمكننا التعرف على الازدهار الاقتصادي والحضاري الذي بلغته الإمارات والسلطنات العربية الإسلامية في الساحل الشرقي من إفريقيا بالرجوع إلى المصنفات العربية الإسلامية وكتب الرحلات بداية من القرن العاشر الميلادي حتى مجيء البرتغاليين في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي حيث ترد المعلومات الخاصة بتلك الكيانات السياسية وتجدر الإشارة بصدد ذلك إلى ما أورده المسعودي والإدريسي وياقوت الحموي وغيرهم عن حالة الازدهار التي كانت عليها تلك الإمارات والمدن والسلطنات العربية الإسلامية التي يبدو من وصف ابن بطوطة لها مقدار الثراء والرفاهية التي كانت تتمتع به إذ من

المعروف أن ابن بطوطة وصل إلى الساحل الشرقي لإفريقيا في نهاية الثلث الأول من القرن الرابع عشر الميلادي عقب اجتياح المغول لدار الإسلام وما تبع ذلك من توافد الهجرات العربية الإسلامية إلى شرق القارة الإفريقية هربا من بطش المغول وقد أحدثت تلك الهجرات الكبيرة ازدهارا في مدن وإمارات الساحل وعلى الرغم من أن ابن بطوطة كان على معرفة وثيقة بالمجتمعات المتحضرة في البلدان الواقعة في قلب العالم الإسلامي إلا أنه أبدى تعجبه من الثراء الكبير والحياة المترفة التي رآها في شرق إفريقيا (٩).

ولم يكن الرحالة والمصنفون العرب والمسلمون هم وحدهم الذين أشادوا بالإمارات العربية الإسلامية في ساحل شرق إفريقيا بل أبرز ذلك أيضا الرحالة البرتغاليون الذين وفدوا إلى ساحل شرق إفريقيا ولعلنا نشير بصدد ذلك إلى الرحالة البرتغالي دورات باربوسا الذي كان مصاحبا لفاسكو دي جاما في رحلاته الاستكشافية وسجل عند وصوله إلى الساحل الشرقي من إفريقيا الحيوية التي كانت تتمتع بها مدن ذلك الساحل حيث ذكر أن البرتغاليين وجدوا عند وصولهم إلى الساحل الشرقي من إفريقيا مواني ومدنا عامرة بالناس كما وجدوا من البحارة العرب والهنود رجالا عبروا المحيط الهندي مرات عديدة وحتى السفن التي وجدوها كانت أكبر من سفنهم وأضخم حجما(١٠). كما أكد كثير من الباحثين أن الحياة الخصبة التي صادفها البرتغاليون في الساحل الشرقي من إفريقيا كانت حياة عالمية شارك فيها الهنود والفرس وغيرهم من العناصر ولكن السمة العربية كانت السمة الغالبة والنغمة العربية للحياة كانت هي الأقوى.

غير أن الغزو البرتغالي للساحل الشرقي لإفريقيا كان له أثره في الانهيار الحضاري الذي تعرضت له المدن والإمارات العربية الإسلامية وقد اعترفت الكثير من المصادر الأوروبية ومن بينها المصادر البرتغالية ذاتها أن اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح كان يشكل كارثة كبيرة بالنسبة لتلك المدن والإمارات العربية الإسلامية ومن ثم كان مجيء البرتغاليين إلى الساحل الشرقي

لإفريقيا في السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر الميلادي بمثابة انهيار للعصر الذهبي لما بلغته الإمارات العربية الإسلامية في الفترة السابقة لمجيء البرتغاليين الذين عمدوا إلى القضاء على مظاهر ومقومات الحضارة الإسلامية العربية على الساحل الشرقي من إفريقيا وإدخال المسيحية إليها ووضح ذلك فيما أنشأه الآباء الكاثوليك الذين عرف عنهم الحماس البالغ لنشر المسيحية من طوائف سانت أوغسطين والجزويت والدومينيكان والفرنسيسكان من مراكز تبشيرية وبناء الكثير من الكنائس على طول الساحل الشرقي من إفريقيا.

وعلى الرغم من الجهود التبشيرية التي قام بها البرتغاليون إلا أنهم لم يلبثوا أن انصرفوا إلى السيطرة التجارية الاحتكارية ومن ناحية أخرى فإن الغزو البرتغالي للساحل الشرقي لإفريقيا لم يستطع أن يوقف مسيرة الإسلام بل يمكن القول أنه أدى وإن كان ذلك بطريق غير مباشر إلى انتشار الإسلام بين القبائل الإفريقية بسبب فرار العرب والمسلمين من الساحل إلى الداخل خوفا من بطش البرتغاليين([illegible]).

لقد نجح البرتغاليون خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر في السيطرة على الساحل الشرقي من إفريقيا وفشلت جهود العرب والمسلمين في درء خطرهم ويعزى ذلك إلى عاملين رئيسيين: أولهما تفكك الإمارات والمدن العربية الإسلامية على الساحل واحتدام الخلافات والتنافس فيما بينها فضلا عن عدم امتلاكها قوة عسكرية والعامل الثاني عدم وجود تعاون بين الدول الإسلامية الكبيرة التي كانت تتصدى لزعامة العالم الإسلامي ومن بينها الدولة المملوكية والدولة العثمانية والدولة الصفوية إلى جانب الدولة المغولية ولم يقتصر الأمر على عدم التعاون بين هذه القوى فحسب بل تأجج الصراع والنزاع فيما بينها مما أتاح للبرتغاليين الفرصة لإحكام سيطرتهم وإن كان بمرور السنين أخذوا يتعرضون لتحديات داخلية وخارجية أدت إلى ضعف سيطرتهم مما أتاح الفرصة لعرب عمان التغلب عليهم ونجاحهم في طردهم من مسقط والخليج العربي

وتتبعهم في مستعمراتهم في الهند وشرق إفريقيا وكان أعظم انتصار أحرزه اليعاربة على البرتغاليين في شرق إفريقيا هو نجاحهم بالتعاون مع الأفارقة في إسقاط أكبر القلاع التي أقاموها على الساحل ونعني بها قلعة المسيح في ممبسة في عام ١٦٩٨[١٢]. وقد ترتب على انهيار السيطرة البرتغالية في ساحل شرق إفريقيا انطلاقة جديدة للإسلام ولذلك يعتبر كثيرمن الباحثين سقوط قلعة البرتغاليين الحصينة في ممبسة معلما هاما لا من حيث القضاء على السيطرة البرتغالية فحسب وإنما في إتاحة فرصة ملائمة لانتشار الإسلام[١٣].

وبانهيار السيطرة البرتغالية على الساحل الشرقي من إفريقيا استطاعت عمان أن تضع أساس سلطنة عربية إفريقية لم تلبث أن بلغت أقصى ازدهارها خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر حين قرر السيد سعيد بن سلطان نقل عاصمة ملكه من مسقط إلى زنجبارفي عام ١٨٣٢ ويمكن القول أنه بتلك الخطوة التي أقدم عليها السيد سعيد بدأت المؤثرات الفعالة في تاريخ زنجبار والشرق الإفريقي بصفة عامة إذ وفد معه عند انتقاله إلى زنجبار مئات من التجار من عرب عمان والجزيرة العربية فازدهرت التجارة وانتعشت بمجيئهم وخاصة حين أخذ أولئك التجار يتوغلون في المناطق الداخلية من البر الإفريقي واستقر الكثيرون منهم في الداخل وأسسوا المراكز التجارية على طول طرق القوافل التي كانت تصل الساحل بالداخل وأصبحت تلك المراكز تشع قدرا كبيرا من السيطرة والنفوذ لسلطنة زنجبار حتى لقد اشتهرالمثل العربي القائل"إن تعال صوت المزمار في زنجبار رقص الناس طربا على البحيرات" ومن ثم شهدت شرق إفريقيا على أثر قيام السلطنة العربية في زنجبار مرحلة مهمة من مراحل انتشار الإسلام في البر الإفريقي حيث وصل الإسلام إلى ربوع أوغندة وأعالي الكونغو ورواندا وبوروندي وتنجانيقا ونياسا وزامبيا وموزمبيق وأصبحت زنجبار مركز إشعاع إسلامي منذ أن اتخذها السيد سعيد بن سلطان حاضرة للحكم العماني في شرق إفريقيا [١٤].

وكانت المراكز التجارية التي أسسها العرب عونا للمكتشفين والرحالة والمبشرين الأوروبيين في توغلهم داخل القارة الإفريقية مسترشدين بتلك المراكز التجارية كما لقي هؤلاء عناية من سلاطين زنجبار الذين أمدوهم بكل عون وعمل الكثيرون منهم على تسهيل عمل البعثات التبشيرية وذلك من واقع المبادئ الرئيسية للإسلام الذي لا يتدخل في شئون الديانات الأخرى ومن ثم كان تصرف حكام السلطنة العربية بمثابة التزام كامل بالمبادئ الإسلامية.غير أن الأمر الذي لا شك فيه أن البعثات التبشيرية والكشفية كانت ذات فائدة للحركة الإمبريالية التي شهدتها القارة الإفريقية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي إذ لم يقتصر عمل المستكشفين والمبشرين على الكشف والتبشير بل كانوا حريصين على تقديم معلومات سياسية واقتصادية وعسكرية لحكوماتهم عن المناطق التي عملوا بها والتي كان من شأنها خدمة الاستعمار وتسهيل مهمته في كثير من الأحيان .

وقد يكون حقيقة أن الاستعمار الأوروبي كان له أثر وإن كان ذلك بطريقة غير مباشرة في إتاحة الفرصة لانتشار الإسلام بصورة أكثر مما كان عليه الحال من قبل نتيجة ما قام به المستعمرون من تعبيد الطرق ومد السكك الحديدية واجتثاث الغابات الكثيفة وما ترتب على ذلك من سهولة اتصال العرب والمسلمين بالمناطق الداخلية(١٥)، إلا أنه من ناحية أخرى كثف جهوده التبشيرية إلى درجة استخدام الرسالةالتبشيرية لخدمة الأهداف الاستعمارية ولعل مما يدل على ذلك أن المبشرين الأوروبيين تجاوزوا في أحيان كثيرة عن بعض التعاليم المسيحية في محاولة منهم لاجتذاب عدد كبير من الأفارقة كما كان حرصهم واضحا على محاربة اللغة والثقافة العربية واستبدال الأبجدية اللاتينية بالأبجدية العربية التي كانت سائدة في كثير من اللغات الإفريقية فيما اعتبره بومان وزميله وسترمان في كتابهما عن شعوب إفريقيا وحضارتها أن استخدام الشعوب الإفريقية التدوين بالخط العربي إنما كان يعد دليلا على الذكاء الفطري والطاقة الثقافية لتلك

الشعوب.غير أنه لما كان الحرف العربي هو حلقة الوصل بالقرآن الكريم فإن استبدال المبشرين والمستعمرين الحرف اللاتيني بالحرف العربي كان حائلا دون ذلك كما أن استخدام الحرف اللاتيني كان من شأنه أيضا عزل الأجيال الإفريقية الجديدة عن تراثها المكتوب بالحرف العربي وفضلا عن ذلك فقد عمل المبشرون والمستعمرون على استبعاد كثير من المفردات العربية التي دخلت اللغات الإفريقية مستهدفين من ذلك تخريج أجيال من الأفارقة أشربوهم كراهية العرب والحضارة الإسلامية بسبب ما أقدموا عليه في مؤسساتهم التعليمية من تشويه تاريخ العرب والإسلام في إفريقيا. وعلى الرغم من ذلك فإن هناك من المبشرين والرحالة الأوروبيين المنصفين من لم ينكر فضل العرب والمسلمين على نجاح مهماتهم الكشفية والتبشيرية نشير من بينهم إلى ريتشارد بيرتون ولويس كرابف وريبمان ويمكننا الرجوع بصدد ذلك إلى كتاباتهم وسجلاتهم التي اعترفوا فيها بأن العرب كانوا عنصرا هاما من العناصر التي حملت لواء الحضارة في أواسط القارة الإفريقية، وليس من شك في أن تلك الاعترافات تدحض ما ورد في بعض المصادر الأخرى بأن النشاط العربي كان يستهدف السيطرة والاستغلال . ولعل مما تجدر الإشارة إليه بصدد ذلك أن هناك من المصادر الأوروبية من تعمدت قصر النشاط الاقتصادي العربي على تجارة الرقيق وذلك على عكس الحقيقة التي لا مراء فيها أن النشاط الاقتصادي العربي تعددت مظاهره وانعكست آثاره في مجالات مختلفة وأدى إلى إحداث تغييرات بعيدة المدى في البنية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في المجتمعات الإفريقية سواء في الساحل أو في المناطق الداخلية في أوغندة والكونغو وتنجانيقا[١٦]. ومن ناحية أخرى أن اشتغال العرب بتجارة الرقيق لم تكن بالقدر الذي أضرت به التجارة الأوروبية إذ كانت التجارة العربية تقوم على جهود فردية بعكس التجارة الأوروبية التي كانت تقوم على خطط محكمة لاستغلال الثروة البشرية في إفريقيا وقامت من أجل ذلك كثير من المراكز والشركات التجارية التي عقدت الاتفاقيات ودبرت الفتن بين القبائل في

سبيل أسوا استغلال عرفته البشرية في تاريخها الحديث [١٧].

وكان التجار العرب إلى جانب ما يقومون به من نشاط تجاري يقومون بالدعوة إلى الإسلام وذلك على عكس ما جاء في بعض المصادر الأوروبية من أن التجار العرب تعمدوا عدم نشر الإسلام بين القبائل الإفريقية حتى يحتفظوا بها باعتبارها موردا لتجارة الرقيق. ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن الإسلام سرعان ما انتشر في الداخل عن طريق التسرب السلمي للدعوة الإسلامية التي قامت على القدوة الحسنة والإقناع إذ لم يستخدم الدعاة العرب ضغطا سياسيا ولا قهرا على الوطنيين ولم يقوموا بفرض ثقافتهم أو دينهم غير أن إقبال الإفريقيين على اعتناق الإسلام كان تقديرا منهم لمكانة العرب والأمانة في معاملاتهم التجارية وعدم التعصب إضافة إلى التسامح وعدم التشدد تجاه التقاليد والممارسات التي كانت سائدة في المجتمعات الإفريقية. والباحث في هذا الموضوع لا بد أن يدرك أن الإسلام لم ينكر على الوطنيين عاداتهم وتقاليدهم الاجتماعية غير أنه قضى على ما يخالف الإسلام منها أو على الأحرى قومها لتتمشى مع الفكر الإسلامي والمبادئ الأساسية للإسلام. ومن ناحية أخرى كان حكام السلطنة العربية في زنجبار حريصين كل الحرص على تطبيق المبادئ الإسلامية في أوساط العرب والأفارقة على قدم المساواة. وكان تلك العوامل جميعها من الأسباب الرئيسية التي دفعت الأفارقة للاستجابة العفوية للإسلام [١٨].

وقد استرعت ظاهرة التسامح الإسلامي انتباه العديد من المراقبين الإنجليز الذين أكدوا أن الدعاة المسلمين أظهروا رفقا وتعاطفا واحتراما للعادات والتقاليد والعصبيات المحلية وهي عوامل كانت دون ريب من وراء نجاحهم والذي يحسن- على حد قول بعضهم -أن يقتدي به المبشرون الأوروبيون في تعاملهم مع الإفريقيين[١٩]. و على الرغم من الدعم الذي كان يتمتع به المبشرون سواء من حكوماتهم أو من الجمعيات التبشيرية التي كانوا ينتمون إليها إلا أن ذلك لم يوقف مسيرة الإسلام الذي أتيحت له فرصة الانطلاق نتيجة الصراعات والمنافسات

التـي احتـدمت بـين الإرسـاليات التبشـيرية الكاثوليكيـة والبروتسـتنتية(٢٠). ولعـل استخدام المبشرين للأناجيل المترجمة إلى اللغة العربية يوضـح مدى تـأثير العرب والمسلمين في العديد من المناطق الداخلية في شرق إفريقيا.

وقد حرص التجار العرب أثناء ترحالهم في البر الإفريقي علـى الـزواج من نساء إفريقيات سواء في القرى أو المدن التي كانوا يمرون بها أو يتزوجون من بنـات رؤسـاء القبائـل الإفريقيـة فـي المراكز التجاريـة التـي أقاموهـا فـي الـداخل تدعيما لعلاقاتهم الاجتماعية والاقتصادية وليس من شك فـي أن تلك المصـاهرات إضافة إلى هيبة الإسلام وثراء حضارته تعلل لنـا حقيقة هامـة وهي أن الكثيرين من الأفارقة لا يزالون يفتخرون بنسبهم العربي إضافة إلى هويتهم الإسلامية .

ترتب على تجارة القوافل العربية فتح العديد من الطرق التـي كانـت تصـل بين الساحل والداخل وكان من أبرز تلك الطـرق طريـق شمـالي يمتد من ممبسة وماليندة إلى هضبة البحيرات الاستوائية حيث يصل إلـى المنـاطق الشرقية من أوغندا الحالية ثم هنـاك طريـق أوسط يبدأ من المـواني المواجهـة لزنجبـار ومـن أبرزهـا بجمـايو إلـى وسـط تنجانيقـا عند طـابورا حيث يتفرع عنـدها شمالا إلـى هضـبة البحيرات ويتجه فرع جنـوبي إلـى منطقـة أوجيجي ويواصل سيره إلـى أعالي الكونغو وهناك طريق جنوبي يمتد من كلوة عبر جنوب تنجانيقا وشمال موزمبيق ويصل إلى بحيرة نياسا .

ويعنينـا من طـرق التجـارة هذه أن كثيرا من المراكز التجاريـة قامت علـى طولها ففـي خـلال النصف الأول من القرن التاسع عشر انجذب التجار العرب نحو التحرك إلـى داخل البـر الإفريقـي وهـم الـذين كـانوا مهتمين فقط بالاستقرار علـى السـاحل. ولعل أول تحـرك عربـي معلوم كـان فـي عـام ١٨٣٠ حين أسس التجار العرب مركزا تجاريا هاما فـي طابورا علـى شـاطئ بحيرة تنجانيقا وبعد ذلك بعشر سنوات امتد النشـاط التجـاري العربـي إلـى المنـاطق المحيطـة ببحيرة تنجانيقـا حيث تأسس مركـز تجـاري هـام فـي أوجيجـي وأخـذ التجـار العـرب

يسيطرون اقتصاديا على منطقة البحيرات الاستوائية(٢١). ومنذ عام ١٨٥٢ استطاع أحد التجار العرب المولدين وهو سناي بن عامر السيطرة على الطريق الممتد من طابورا إلى كمبالا. وبحلول النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي ازداد الطلب على العاج زيادة كبيرة في مناطق الساحل مما أدى إلى اندفاع التجار العرب إلى الداخل وطبقا لما يذكره الرحالة ستانلي فإن بلدة طابورا كانت تمثل إحدى المراكز الهامة للنشاط العربي التجاري في أواسط القارة الإفريقية.

وتجدر الإشارة إلى التنظيم السياسي والاقتصادي الذي أدخله حميد بن محمد المرجبي الذي عرفته الأوساط المحلية الإفريقية بتيبو تيب في أعالي الكونغو والذي لم يلبث أن قضى عليه البلجيكيون وإن كانوا قد أفادوا منه فائدة كبيرة إذ إن كثيرا من التنظيمات الاقتصادية التي أقامها العرب اعتمدت عليها دولة الكونغو الحرة بعدأن عصفت بالوجود العربي هناك(٢٢). ولسنا نجد أفضل من تقييم الوجود العربي في الكونغو مما قاله أحد الكونغوليين أنفسهم وهو جرينفل الذي كان وزيرا للدولة في حكومة باتريس لوممبا الذي كتب يقول "لقد زور البلجيكيون كل شيء في الكونغو فليست مدينمة ستانلى فيل سوى مدينة تيبو تيب القديمة وليس العرب كما قالوا لنا تجار رقيق وإنما هم تلك الموجة الإنسانية التي اختلطت بنا وصاهرتنا وتركوا لنا على أرضنا دماءهم والبلجيكيون يحصدونهم بالأسلحة الحديثة وليس أعز علينا من شيء سوى هذا الدم العربي الذي سال في الماضي كما سال ويسيل الآن دمنا في بلادنا على أيدي نفس أعداء العرب في الماضي"(٢٣).

وليس من شك في أن التنظيمات الاقتصادية والسياسية التي أدخلها العرب سواء في الكونغو أو في منطقة البحيرات الإستوائية كان لها أثرها بين الجماعات الإفريقية التي تحول كثير منها إلى الدين الإسلامي ومما يؤكد ذلك أن الكاباكا ملك بوغندا رحب بالعرب ترحيبا كبيرا واستعان بهم للتغلب على منافسيه

من حكام المناطق المجاورة كما كان له دور كبير في تعميق جذور الإسلام وتشجيع مساعديه ورؤساء وشيوخ القبائل على اعتناق الإسلام وتشير بعض المصادر إلى أن الكاباكا أعرب عن رغبته الارتباط بمصر بعلاقات ودية ومن ثم طلب من الجنرال غوردون حاكم المديرية الاستوائية إرسال دعاة من علماء الدين لنشر الإسلام في بلاده في الوقت الذي أرسل فيه كيرك القنصل البريطاني في زنجبار إلى هنري رايت السكرتير العام لجمعية الكنيسة التبشيرية في لندن يحثه على إرسال بعض المبشرين إلى ملك بوغندا مؤكدا أنه إذا اعتنق الموتيسا النصرانية وعمل على انتشارها بين شعبه فإن هذه الخطوة ستكون هي الفرصة الأخيرة لإنقاذ إفريقيا الوسطى من النفوذ الإسلامي(٢٤).

إن ما ينبغي أن توجه إليه جهود الباحثين العرب والأفارقة هو التعرف على المستوطنات والمجتمعات العربية الإسلامية في شرق القارة الإفريقية ودواخلها إذ أنه على الرغم من توافر الكثير من المعلومات عن المستوطنات العربية الإسلامية التي وجدت على الساحل فلا زالت معلوماتنا قاصرة عن الوجود العربي في دواخل شرق إفريقيا وأواسطها. وقد تفيدنا في ذلك سجلات وتقارير الرحالين والمكتشفين من رواد حركة التبشير والكشف في إفريقيا خاصة وأن هؤلاء أفادوا فائدة كبيرة من المراكز التجارية والحضارية التي أوجدها العرب وكان لها أثرها في تسليط الأضواء على دواخل القارة الإفريقية حتى يمكننا التأكيد على أن الحركة الاستكشافية التي شهدتها القارة الإفريقية في القرن التاسع عشر لم تكن في حقيقتها إلا تسجيلا علميا لمناطق وشعوب كان يعرفها العرب والإفريقيون من قبل.

لقد عاصر امتداد نفوذ سلطنة زنجبار في داخل مقاطعات الشرق الإفريقي التوسع المصري في بلاد السودان وسواحل البحر الأحمر والصومال والمناطق الاستوائية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر(٢٥). وليس من شك في أن توسع كل من سلطنة زنجبار ومصر وامتدادهما في داخل القارة الإفريقية قد

أحدثا مؤثرات ثقافة وحضارية كان من الممكن أن تفعل فعلها وكان من المتوقع لهما إنقاذ القارة الإفريقية من تربص الحركة الإمبريالية بها غير أن الاستعمار الأوروبي لم تكن تخفى عليه الجهود التي تقوم بها هاتان الدولتان العربيتان الإفريقيتان- مصر وزنجبار- ومن ثم كانت الخطة الاستعمارية تستهدف منع هاتين القوتين من الاتحاد أو التعاون فيما بينهما لما قد يشكله ذلك من خطر على وجوده ومن ثم عمل على إضعافهما والسيطرة على المناطق التي امتدا إليها.

ولدينا من الوثائق ما يوضح سير العلاقات بين مصر وزنجبار وكيف بدأت تلك العلاقات ودية ثم كيف توترت العلاقات فيما بينهما بفعل السياسة البريطانية(٢٦) وفي تقديرنا أن العلاقات بين مصر وزنجبار لا تزال في حاجة إلى مزيد من الدراسة خاصة وأن الدور الذي لعبته الدولتان كان متشابها من حيث اتجاههما إلى نشر الإسلام والحضارة العربية الإسلامية في شرق وأواسط القارة الإفريقية كما أن المصير الذي آلت إليهما ممتلكاتهما كان متشابها أيضا من حيث وقوعهما تحت السيطرة الاستعمارية ففي ظل إدارة كل من مصر وزنجبار للأقاليم الإفريقية انتشر التعليم وأنشئت المدارس وأصبحت الشريعة الإسلامية هي السائدة بين الناس في الزواج والطلاق والميراث بدلا من الفوضى التي كانت تضرب أطنابها(٢٧).

وليس من شك في أن الإسلام والثقافة العربية شكلا العقبة الرئيسية التي واجهت عمليات السيطرة الإمبريالية على القارة الإفريقية ومما يؤكد ذلك ما شهده تاريخ إفريقيا بصفة عامة وتاريخ شرق إفريقيا بصفة خاصة من العديد من حركات المقاومة الإسلامية ضد القوى الاستعمارية ولعلنا نشير بصدد ذلك إلى مهدي الصومال وتبوتيب في الكونغو ومحمد أحمد المهدي في السودان وغيرهم وقد أدرك الاستعماريون ما يشكله العرب والمسلمون عليهم من خطورة ومن ثم كانوا حريصين على محاصرة الإسلام والعروبة ومنعهما من الانتشار إلى المناطق التي لم ينتشرا فيها بعد ومن أجل ذلك عملوا على سد المنافذ التي كان

يفد منها العرب الذين كانوا يرتادون داخلية القارة حاملين معهم الإسلام واللغة العربية والحضارة الإسلامية والعمل على السيطرة على المناطق التي ظهر فيها النفوذ العربي واضحا كما هو الحال في زنجبار وأوغندة والكونغو والصومال وغيرها(٢٨). كما طبق الإنجليز قانون المناطق المغلقة في جنوب السودان وترتب على تلك السياسة الجنوبية تحطيم الامتداد الطبيعي للسودان نحو الجنوب سواء كان امتدادا سياسيا أو اقتصاديا أو إداريا وأهم من كل ذلك الامتداد الثقافي ومن ثم ظهرت مشكلة الجنوب التي لا تزال قائمة حتى وقتنا الحاضر(٢٩).

ولعلنا نصل في ختام تلك الورقة إلى دعوة الباحثين العرب والأفارقة إلى التصدي لما جاء في المصادر الأجنبية التي كان دأبها التشويه المتعمد لتاريخ العرب والمسلمين في إفريقيا وأن يتحروا موضوعية ما يأخذونه منها وتكثيف المزيد من الدراسات بجهد علمي وفكري يربط الأفارقة بتراثهم العربي الإسلامي الذي حاول الاستعمار الأوروبي حجبه(٣٠). فعلى الرغم من تعدد أساليب الاستعمار ومدارسه إلا أنه كانت هناك استراتيجية استعمارية واحدة تهدف إلى صناعة إنسان إفريقي لسانا وعقلا ووجدانا يرتبط بالحضارة الأوروبية تعبيرا وفكرا وعقيدة وأسلوب حياة فمثل هذا الإنسان المنفصل عن تراثه العربي الإسلامي كان هو ضمان الوجود الاستعماري في إفريقيا. ولذا قد يكون من الواجب علينا بعد أن ظفرت الشعوب العربية والإفريقية باستقلالها وارتفع الستار الحديدي الذي أسدله المستعمرون عليها أن نعمل على إزالة رواسب الاستعمار الأوروبي القديم والتصدي لتحديات الاستعمار الجديد ودعاوى العولمة التي يواجهها العرب والمسلمون والتأكيد على توثيق الروابط الاقتصادية والثقافية والحضارية ولن يتأتى ذلك إلا بإعادة كتابة تاريخ العرب في إفريقيا ليكون سبيلا للتقارب بين العرب والأفارقة وليس سبيلا للتباعد بينهم.

المصادر العربية والمعربة

- إبراهيم الزين صغيرون ، المؤثرات الحضارية المصرية السودانية ودورها في انتشار الإسلام والثقافة الدينية في إقليم البحيرات الاستوائية في أواسط إفريقيا، القاهرة ١٩٩٣.
- إسماعيل سرهنك، حقائق الأخبار عن دول البحار ، الجزء الثاني ، القاهرة ١٩٢٣
- أبو الحسن المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، مجلدان ، دار الرجاء، القاهرة.
- أبو عبد الله محمد بن بطوطة ، تحفة النظار في عجائب الأسفار وغرائب الأمصار، مجلدان ، القاهرة ١٩٣٣ .
- بازل دافيدسون،إفريقيا تحت أضواء جديدة ، ترجمة جمال أحمد ، بيروت ١٩٦٥.
- جمال زكريا قاسم ، الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية، القاهرة ١٩٩٧ .

  ــــــــــــ ، دولة البوسعيد في عمان وشرق إفريقيا منذ تأسيسها حتى نهاية حكمها في زنجبار وبداية عهدها الجديد في عمان ١٧٤١-١٩٧٠، مركز زايد للتراث والتاريخ ،العين ، دولة الإمارات العربية المتحدة ٢٠٠٠.

  ــــــــــــ ، استقرار العرب في ساحل شرق إفريقيا ، العدد العاشر، حوليات كلية الآداب ، جامعة عين شمس ١٩٦٦ .
- جيان ، شارل ، وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن شرق إفريقيا ، تعريب الأمير يوسف كمال ، القاهرة ١٩٢٧ .
- شوقي عطا الله الجمل ،الوثائق التاريخية لسياسة مصر في البحر الأحمر ١٨٦٣-١٨٧٩، القاهرة ١٩٥٩ .

  ــــــــــــ ، تاريخ كشف إفريقيا واستعمارها ، القاهرة ١٩٦٣.

المصادر الإنجليزية :

- Boxer , C.R. Fort Jesus and the Portuguese in Mombassa 1503-1729 , London 1961.
- Chittick , Neville , Kilwa and the Arab Settlement of the East African Coast , Journal of the African History vol. IV no.2., 1963.
- Coupland , Reginald , East Africa and Its Invaders from the earliest times to the death of Seyyid Said in 1856 . Oxford 1938.
- Krapf , Lewis , Travels , Research and Missionary laours during an eighteen years residence in East Africa , London 1860.
- Pearce , M. Zanzibar , The Island Metropolis of Eastern Africa , London 1920 .
- Shoukry ,M.F. , Equatoria under the Egyptian Rule , Cairo1953
- Soghayroun , I.Z, Islam , Christian Missions and the Colonial Administration in East Africa , A Doumental Study with special emphasis on Uganda , Sultan Qaboos University , Muscat 1992.
- Slade , Ruth , King Leopold's Congo, London 1962.
- Strong, Arthur History of Kilwa , Journal of the Royal Asiatic Society , April. 1895.



دور القوافل الصحراوية فى نشر الإسلام فى السودان الأوسط فى القرن ١٩

د. ماهر عطية شعبان

أستاذ مساعد بمعهد الدراسات الأفريقية

جامعة القاهرة

مقدمة :

جغرافية بلاد السودان الأوسط :

أطلق الجغرافيون المسلمون لفظ السودان الأوسط على المنطقة الممتدة من البحر الأحمر شرقا إلى المحيط الأطلسي غرباً والواقعة بين الصحراء الكبرى شمالاً وصحراء كلهاري جنوباً. ويعرف الجزء الأوسط من هذه المنطقة باسم السودان الأوسط حتى الضفة الغربية للنيل الأبيض، ومن فزان شمالاً حتى الغابات الاستوائية جنوباً، وتضم هذه المنطقة اليوم الدول التالية النيجر – نيجيريا – الكاميرون – أفريقيا الوسطى وتشاد – وغرب السودان.

وهذه النقطة جديرة بالدراسة حيث مازال الغموض والتعتم في كتابات الباحثين حول هذه المنطقة السمات العامة والبحث يحاول أن يبرز دور الصحراء كعامل اتصال عبر عشرات الطرق إلى منطقة السودان الأوسط لنشر الدين الإسلامي فكما أن البحر الأحمر لم يكن يحول بين المسلمين وشرقي أفريقيا كانت الصحراء عامل وصل بين شمال القارة ووسطها، والبحث يلقى الضوء على :

١- دور القبائل المتناثرة في الواحات في نشر الإسلام .

٢- قوافل التجار والرحالة والدعاة والمهاجرين واللاجئين السياسيين ودورهم في نشر الإسلام في السودان الأوسط .

٣- أهم الطرق التجارية والتبشيرية بين شمال القارة ووسطها مثل :

أ- طريق توات تمبكتو، جاو – سوكتو – دارفور.

ب- طريق القيروان – توات – أغادمس – كانو – انجيمي .

ج- طريق فاس .

د- طريق تاهرت .

٤- دور هذه الطرق في توثيق الصلات بين المغرب والسودان الأوسط ، سواء كان ذلك بنقل الإسلام وحضارته أو بتعزيز الروابط التجارية أو بإمداد شعوب المنطقتين (المغربية والسودانية) بدماء جديدة نتيجة الهجرات البشرية المتعاقبة .

٥- مظاهر التأثير الإسلامي في وسط أفريقيا .

أ - اقتصادياً .　　　ب- ثقافياً .

ج- اجتماعياً .　　　د - سياسياً .

والبحث ملحق به عدد ثلاث خرائط :

- حول حركة انتشار الإسلام في السودان الأوسط في القرن التاسع عشر .

- طرق القوافل الرئيسية بين شمال أفريقيا وبلاد السودان .

- الطرق التجارية في القرن التاسع عشر في شمال وغرب أفريقيا .

تمهيد :

جغرافية بلاد السودان الأوسط :

الموقع : أطلق المؤرخون والجغرافيون العرب في العصور الوسطى مصطلح "بلاد السودان"[(١)] على المناطق الواقعة جنوب الصحراء الكبرى ، وشمال الغابات الاستوائية الممتدة من البحر الأحمر شرقاً حتى المحيط الأطلسي غرباً، ورغم أن مصطلح بلاد السودان قد يعني أرض الشعوب السوداء، إلا أن المؤرخين والجغرافيين العرب في العصور الوسطى هدفهم المنطقة المحددة أعلاه ، لأنهم كانوا أكثر إلماماً بها من أي منطقة أخرى من أفريقيا، بالإضافة إلى أن هذه المنطقة كانت على علاقات سياسية واقتصادية مع البلاد العربية .

كما أنها عرفت قيام عدة ممالك إسلامية مثل مملكة مالي– وصنغاي ، وكانم ، برنو.[٢]

وقد وصف الاصطخري بلاد السودان "بأنها بلاد عريضة وليس في الأقاليم التي للسودان من الحبشة والنوبة والبجة وغيرهم إقليم أوسع منه على قرب البحر المحيط مما يلي في الجنوب ، ومما يلي الشمال على مغازة مصر من وراء الواحات ثم على مغاوز بينها وبين أرض النوبة ...). [٣]

ووصفها القزويني بقوله (... هي بلاد كثيرة وأرض واسعة ينتهي شمالها إلى أرض الغرب وجنوبها البراري وشرقها إلى الحبشة وغربها إلى البحر المحيط[٤].ومن هنا يبدو أن المؤرخين المعاصرين اتفقوا على تقسيم بلاد السودان إلى ثلاث مناطق هي: السودان الغربي – السودان الشرقي – السودان الأوسط .

والسودان الأوسط يطلق على المنطقة الممتدة من البحر الأحمر شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا ، والواقعة بين الصحراء الكبرى شمالا ، وصحراء كلهارى جنوبا .

ويعرف الجزء الأوسط من هذه المنطقة باسم السودان الأوسط ، ويقصد به المنطقة الممتدة من الضفة الشرقية لنهر النيجر الأوسط حتى الضفة الغربية للنيل الأبيض، ومن فزان شمالا إلى الغابات الاستوائية جنوبا .

وتضم هذه المنطقة اليوم الدول التالية: النيجر ـ نيجيريا ـ الكمرون ـ أفريقيا ـ الوسطى ـ تشاد ـ السودان[٥].

وعلى الرغم مما حظي به تاريخ أفريقيا جنوب الصحراء من دراسات هامة اسهم في أعدادها كثير من الباحثين بالإضافة إلى العديد من المراكز والمعاهد العلمية المتخصصة، إلا أن ما يؤخذ على هذه الدراسات عدم توجيهها عناية كبيرة إلى وضع السودان الأوسط حيث مازال الغموض والتعتم في كتابات الباحثين المسلمين من السمات العامة، وقد اكتفى الكثيرون بالأخطاء الشائعة والآراء المتسرعة على أساس إنها حقائق تاريخية ووقائع جغرافية وثقافية مسلمة.

وقد كانت هذه المنطقة مكانا لوصول العديد من الهجرات حتى وصل إليها العرب من الشمال عبر الصحراء الكبرى، خصوصا بعد الفتح الإسلامي لمنطقة شمال أفريقيا في القرن الأول الهجري (السابع الميلادي) كما كانت المنطقة نقطة التقاء الطرق التجارية التي تربط بين شرق أفريقيا وغربها من جهة وبين مناطق جنوب الصحراء الكبرى وشمالها من جهة أخرى .

ونتيجة لهذه الظروف التي أوجدتها الهجرات والتجارة شهدت بلاد السودان الأوسط تطوراً حضارياً كبيراً، حيث قامت فيها عدة ممالك مثل مملكة الكانم - والبرنو- وصنغاي- ومالي - ووادي. جعلها تتميز بدور هام من الناحيتين التاريخية والاقتصادية بين مختلف أقاليم القارة[٦].

أولاً : دور القبائل العربية في نشر الإسلام في السودان الأوسط .

شهدت منطقة السودان الأوسط هجرة الكثير من القبائل العربية، خصوصا بعد الفتح الإسلامي لمصر وشمال أفريقيا، حيث اصبح لدى العرب دوافع جديدة غير العامل التجاري للاستقرار في المنطقة- وقد كانت طرق القوافل التجارية هي الطرق نفسها التي سلكتها الهجرات العربية، فكانت منطقة بحيرة تشاد هي البوابة التي انطلقت منها القبائل العربية لتنتشر في سائر أنحاء القارة الأفريقية، حاملة معها عاداتها وتقاليدها، وتزاوجت مع العناصر المحلية فنتج عن ذلك مجتمع أفريقي عربي .

أما فيما يتعلق بالقبائل العربية في بلاد السودان الأوسط فهي كثيرة ويمكن تقسيمها إلى قسمين.القسم الأول: يضم القبائل العربية التي استقرت في الجزء الغربي من بحيرة تشاد (إقليم برنو)، والقسم الثاني: يضم القبائل العربية التي استقرت شرق البحيرة .

وفيما يتعلق بالقسم الأول فأن قبائله اشتهرت باسم (الشوا) [٧] وهم قسمان: الأول يسمى الابالة والبقارة وقد اختار هؤلاء الأماكن الصالحة لتربية حيواناتهم وعاشوا سيرتهم الأولى- والثاني عاشت قبائله في الجنوب وقد اهتموا بتربية

الماشية وعاشوا حياة الزنوج وتأثروا بهم في شتى المجالات .

أما فيما يتعلق بقبائل القسم الثاني التي عاشت شرق البحيرة فقد ظلت تعرف بأسماء قبائلها الأصلية التي قدمت بها من مواطنها الأصلية ومنها قبائل الحساونه وتضم: العسالة، أولاد محارب، العلوان، أولاد سرار، أولاد على، وغيرها. وقبائل جهينة وتضم: أولاد راشد، أولاد موسى، خزام، السلامات، وغيرها[٨] هذه هي أهم القبائل في بلاد السودان الأوسط، ولا شك أن هناك العديد من القبائل الأخرى مثل السارا، والموندنج وغيرها[٩]، لقد كانت بلاد السودان الأوسط ولأسباب كثيرة نقطة التقاء بين أجناس وأعراق مختلفة، كما كانت ملتقى للقوافل التجارية، بذلك أصبحت المنطقة شبه بوتقة انصهرت فيها مختلف الأعراق والأجناس بثقافتهم وحضارتهم فظهرت فيها العديد من الممالك منها كانم - وداى - ومالي - وصنغاى. كما جعلها ذلك عرضة للغزو الخارجي في أواخر القرن التاسع عشر[١٠] ولم تعش القبائل العربية بمعزل عن المجتمع في بلاد السودان الأوسط بل اندمجوا داخل المجتمع بشكل تلقائي - ساعدهم على ذلك معرفتهم بتلك البلاد، وقد تأثروا واثروا بالحياة الاقتصادية لذلك المجتمع، وكان النشاط الاقتصادي للمهاجرين يعتمد بصفة أساسية على الزراعة والرعي والتجارة وبعض الصناعات البسيطة، غير أن الرعي والتجارة كانتا الحرفتين الرئيستين السائدتين بين المهاجرين.

وقد ارتبطت ولاية طرابلس الغرب مع بلاد السودان الأوسط بروابط تجارية واقتصادية قوية، فكانت القوافل التجارية تجوب منطقة الصحراء الكبرى من جميع الجهات، حيث كانت هذه الصحراء مألوفة للتجار الليبيين الذين كانوا يحملون بضائع الشمال إلى مناطق جنوب الصحراء الكبرى ثم يعودون بسلع تلك المناطق، كما كانت واحات الجنوب الليبي مراكز هامة لتجارة القوافل مثل (غدامس- وغات - ومرزق - وسوكنه- وجاكو- واوجلة – والكفره) التي لعبت دوراً كبيراً في ربط الصلات التجارية بين ولاية طرابلس – وبلاد السودان

الأوسط وذلك نتيجة لطبيعة هذه الواحات الجغرافية، وارتباط سكانها بممارسة التجارة الصحراوية والتنقل عبر مراكز التجارة المختلفة، وقد لعبت العلاقات التجارية بين القبائل العربية وبلاد السودان الأوسط دوراً هاماً في زيادة الروابط وتوثيقها، وقد قام التجار الليبيون بدور في هذا المجال[١١]، كما أولت السلطات الحاكمة في بلاد السودان الأوسط عناية كبرى بتجارة القوافل نظراً لما توفره التجارة من تبادل لجملة من البضائع المتنوعة وما تدر من أرباح طائلة للطرفين.

وتشير العديد من الوثائق إلى اهتمام حكام السودان الأوسط بتجارة القوافل وحرصهم على استمرارها[١٢] ورداً على هذه الرسالة قام الوالي بإرسال رسالة إلى الشيخ عبد الرحمن الكانمي يعلق فيها عن رغبته في استمرار التواصل بين الطرفين وزيادة التعامل التجاري وتبادل الهدايا[١٣]. وهذا لدليل على عمق الصلات التجارية ودور قوافل الصحراء فى زيادة هذه العلاقات.

وقد لعب هؤلاء التجار دوراً كبيراً في نشر الإسلام في السودان الأوسط ولعب إقليم فزان وكوار مكانة هامة في نشر الإسلام والحضارة الإسلامية في السودان الأوسط فهما يكونان معاً الطريق الأوسط الذي يبدأ من القيروان ويمر بطرابلس ومرزق وبلما وينتهي عند انجيمى عاصمة مملكة الكانم التي تقع على ضفاف نهر بحيرة تشاد شمالا. وهو الطريق المفضل لدى قوافل التجار والرحالة والدعاه والمهاجرين واللاجئين السياسيين لأنه اسهل الطرق الصحراوية وأكثرها مباشرة عن بقية المسالك[١٤]. وسوف أبرز فقرة كاملة عن طرق القوافل فى العهد القرمانلى فى القرن التاسع عشر .

هكذا نقل الإسلام إلى مناطق السودان الأوسط عن طريق تجارة القوافل التي مارسها التجار العرب ومعهم المهاجرين والرحالة والدعاه – فانتشر الإسلام في ربوع السودان الأوسط بكل أقاليمه وانتعشت الحركة التجارية بين القبائل العربية في الشمال ومنطقة السودان الأوسط جنوب الصحراء[١٥] .

ثانيا:- أهم الطرق بين شمال القارة وبلاد السودان الأوسط :

هناك العديد من الطرق سلكتها القوافل التجارية من الشمال إلى بلاد السودان الأوسط جنوب الصحراء. ولعل أهم هذه الطرق :-

(١) طريق توات، تمبكتو، جاو، سكتو، كانو، انجيمى، وداى ، دارفور، درب الأربعين، أسيوط، القلزم، المدينة المنورة، مكة المكرمة، والعس صحيح .

(٢) طريق القيروان ، ورقله ،غدامس ، توات ،غات ، مرزق ، بلما ، انجيمى .

(٣) طريق فاس ، تلمسان، غرداية، توات، غات، مرزق ، بلما ، انجيمى .

(٤) طريق تاهرت، غرداية ، ورقلة، غدامس ،غات ، مرزق ، بلما ،انجيمى .

(٥) طريق القيروان، توات، أغادمس ، زندر، كانو، انجيمى .

(٦) طريق القيروان، غدامس، غات، مرزق، بلما، انجيمى .

(٧) طريق توات، مرزق، بلما، انجيمى(١٦).

وكانت القوافل تفرغ حمولتها في المراكز الرئيسية لتأخذها قوافل محلية لتوزيعها في مختلف الاتجاهات ،وهذه المراكز أو المحطات في الوقت ذاته مكان للتموين وتأجير المرشدين والحراس وشراء البضائع(١٧) .

وعند انجيمى ينتهي أيضا الطريق الشرقي الهابط من مصر الذي اشتهر بدرب الأربعين وكان يمتد من أسيوط إلى الخارجة ، والشب ، وواحة سليمة ثم لاقيا وبئر النطرون وكبى بإقليم دارفور وهى من كبرى محطات القوافل في الطريق إلى دار وداى ومن وداى تسير القوافل إلى انجيمى إلى بحيرة الفترى وبحر الغزال أو طريق القاهرة ، سيوه ، زويلة ، مرزق ، بلما ، انجيمى .

وهذه الطرق كان لكل منها دور كبير في توثيق الصلات بين المغرب والسودان الأوسط، سواء كان ذلك بنقل الإسلام وحضارته أم بتعزيز الروابط التجارية أم بإمداد المنطقتين (المغربية – والسودانية) بدماء جديدة ، نتيجة الهجرات البشرية المتعاقبة التي اتخذت من تلك الطرق منافذ عبور لها .

ولا ريب في أن هذه الطرق لم تكن من ابتكار قوافل القرون الوسطى ، بل كانت توجد منذ زمن سحيق ، كما أن الصحراء لم تكن بلا ماء أو عشب ، بل تتوافر المياه فيها في بعض الواحات ، كما تتوافر فيها العيون الطبيعية والآبار الارتوازية .

ولم تخل الصحراء التي تقارب مساحتها ثمانية ملايين كيلومتر مربع من الناس، بل ربما كانت المنطقة الأكثر ازدهاراً وحركة ملائمة للإنسان والشعوب التي كانت تسكنها بعد أن اعتنقت الإسلام ، أصبحت مؤهلة اكثر من غيرها للقيام بنشر الخير الذي جاء به الإسلام إلى كافة أنحاء السودان الأوسط .

وتستغرق الرحلة عبر الصحراء في اقصر الطرق نحو ثلاثة اشهر في الذهاب ومثلها في العودة(١٨).

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن هو:

ماذا كانت تحمل قوافل الصحراء وهى متجهة إلى السودان الأوسط وماذا كانت تجلب إلى بلاد المغرب والمشرق.

إنها كانت تحمل إلى السودان الأوسط – الإسلام والحضارة الإسلامية، فحين اشرق نور الإسلام نما معه التعليم وانتشرت اللغة العربية لغة القرآن الكريم فانتشر الإسلام واللغة العربية .

ولا يخفى علينا أن الإسلام دائما يحث على التربية والتعليم ويجعلها جزء لا يتجزأ من الدين الحنيف، كما يحث أيضا إلى نقل الإنسان من التمزق النفسي والشعور بالضياع والنظام القبلي الضيق إلى مجتمع أرحب يسوده الإخاء ويظله التعاون والوفاء مجتمع معيار الكرامة فيه التقوى والعمل الصالح.

فمنذ اليوم الأول الذي اعتنقت فيه بلاد السودان الأوسط الإسلام تغير نمط حياتهم وعاداتهم وتقاليدهم. فالإسلام الذي حملته القوافل الصحراوية حقق الوحدة والانسجام في بلاد السودان الأوسط.

حملت القوافل الصحراوية معها أيضا السلع التجارية كالأقمشة والسيوف

والسكر والملح والقطن– والفول والصمغ العربي والمواشي والأبنوس والعطور والتمور والورق.

وفي العودة تجلب قوافل الصحراء إلى المغرب والمشرق التبر والنحاس والحرير والعاج وبعض ريش النعام والجلود والعسل بالإضافة إلى السواعد البشرية التي كانت الدول الإسلامية في حاجة إلى تجنيدها كلما قامت فتنة بين الأمراء أو حدث انشقاق في الدولة.

وقد شارك أبناء السودان الأوسط في حوادث كثيرة في بلاد المشرق والمغرب حيث استعان بهم الخلفاء والأمراء والولاه في القضاء على الفتن والثورات وتوحيد نظام الحكم، هؤلاء الجند بعضهم كان يقيم في المشرق والمغرب بعد تسريحهم من الخدمة العسكرية حتى اصبح لهم تأثير في المجتمع، وبعضهم كان يعود إلى بلادهم وكانوا احسن نموذج لما يمكن أن يفعله الإسلام بالإنسان من حيث الثقة بأنفس والارتقاء بمكانته الاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية، ولا نستبعد أن يكون هؤلاء الجند العائدون إلى بلادهم من احسن الدعاة إلى الإسلام والحضارة الإسلامية بين أهلهم وذويهم وجيرانهم(١٩) وقد ذكر المقريزى ١٣٦٤ – ١٤٤١م في كتابه الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام، أن الجند العائدين من المشرق والمغرب إلى أفريقيا جنوب الصحراء كان لهم نشاط واسع وان تأثيرهم كان كبيراً في المجتمع والسلاطين والأمراء والتجار مما مكنهم من الدعوة إلى الإسلام في كل مكان وبناء المساجد في كافة الحواجز .

وتعد قوافل الصحراء من أهم العوامل المساهمة في توثيق الروابط بين الشعوب ورمزاً من رموز الاتصال المحكم بين اللغة والعقيدة والفكر والتفاعل الحضاري(٢٠).

وكانت الصحراء تموج بقوافل التجار والعلماء والدعاة والرحالة المسلمين الذين ينتقلون من بلد إلى آخر كما تموج أيضا بالدبلوماسيين واللاجئين السياسيين الذين يعملون من اجل استرداد أمجادهم في كل مكان يحلون فيه .

وسنضرب مثلا بطرق القوافل في العصر القرمانلى فى القرن التاسع عشر وأهميتها .

طرق القوافل في العهد القرمانلي :

وقبل أن نوضح مدى النشاط والازدهار الذي طرأ على هذا النوع من التجارة في عهد الأمراء القرمانليين يجدر بنا أن نوضح الطرق التي سلكتها القوافل الليبية في عهدهم .

ذلك أن هذه الطرق قد وضحت معالمها واهتم القرمانليون بها اهتماماً كبيراً لما كانت تأتي به هذه التجارة من أرباح طائلة لاسيما وأن إقبال الدول الأوربية على ما كانت تأتي به هذه القوافل من بضائع كانت له أسواق رائجة في عواصمها ومدنها .

لقد كانت طرق القوافل تنقسم إلى نوعين أحدهما رئيسي والأخر فرعي :

النوع الأول : ويشمل الطرق الطويلة التي تقطعها القوافل في مدة تتراوح بين الشهرين والثلاثة بل قد تصل إلى أكثر من عام – وهذه الطرق تعتبر حلقة الصلة بين الأقاليم الشمالية والسودان الأوسط.

النوع الثاني : ويشمل الطرق القصيرة التي تقطعها القوافل في أيام قليلة وهي تربط المراكز بعضها ببعض ، وتصل ما بين الواحات المتقاربة – وهذه الطرق أقل شأناً من الطرق الطويلة .

ومن أمثلة النوع الأول :

١- **طريق الحج :** يمتد بحذاء الساحل ويعبر البلاد بطول ساحلها الشمالي ويأتي من مراكش غرباً وينتهي شرقاً إلى مصر ماراً بجنوب هضبة الجبل الأخضر في برقة، وقد عرف هذا الطريق بطريق الحج لأن قوافل الحجاج كانت تخترقه في طريقها إلى مصر ، ولاشك أن قوافل هؤلاء الحجاج وهي في

طريقها من أقصى غربي الشمال الأفريقي إلى الأراضي الحجازية اقترنت بالتجارة إلى جانب الغرض الديني، ولقد كان كثير من الحجاج يقومون بالعمل التجاري لسد تكاليف الحج.

٢- **الطريق الداخلي :** ويمتد من الغرب إلى الشرق محاذيا لطريق الحج ويقع إلى الجنوب منه ويختلف عنه في طبيعته فبواسطة هذا الطريق يمكن للقوافل السير من مدينة طرابلس نحو الجنوب الشرقي إلى واحة أو جلة فواحة سيوة ومنها إلى قرية كرداسة غرب مدينة الجيزة إلى مديرية الفيوم أو منخفض القطارة فوادي النطرون ثم إلى مديرية البحيرة وكلها أسواق للتجارة ومحطات للقوافل التجارية بين ليبيا ومصر .

ولم يكن الليبيون يطرقون هذا الطريق إلا للأغراض التجارية بعكس الطريق الأول الذي تغلب عليه صفة الحج - ويفضل معظم التجار الطريق الثاني توفيراً للوقت خصوصاً في فصل الشتاء حيث يهربون ببضائعهم من الأمطار الساحلية التي يكثر سقوطها على منطقة الجبل الأخضر(٢١).

ألا أن بعض الحجاج كثيراً ما كانوا يسلكون الطريق الثاني وهؤلاء الحجاج كان معظمهم من سكان الواحات الداخلية في إقليم فزان بعد أن يتصلوا به بالطرق الثانوية الخاصة بهم كما جاء وصف ذلك فيما كتبه الرحالة فردريك هورنمان Frederick Hornaman في رحلته التي قام بها أيام يوسف باشا القرمانلى سنة ١٧٩٧م بغرض اكتشاف الجهات الداخلية لأفريقية بالاتجاه من الشرق إلى الغرب في الوقت الذي كان فيه الرحالة الألمانى مونجو بارك Mongo Park مشغولا باكتشاف الأجزاء الداخلية من أفريقيا أيضاً ولكن بالاتجاه المعاكس لسير فردريك.

وقد تمكن فردريك من القيام بهذه الرحلة بعد أن انضم إلى قافلة من الحجاج عند عودتها من الأراضي الحجازية في طريقها إلى فزان وقد بدأ رحلته في سبتمبر سنة ١٧٩٨ بعد أن انتظر قافلة الحجاج ومن معهم من التجار في قرية

كرداسة بغرب الجيزة [٢٢].

أما طرق النوع الثاني فهي طرق قصيرة تتجه من الجنوب إلى الشمال فتصل ما بين أقاليم السودان جنوباً وساحل البحر المتوسط شمالاً – وهي تسير في خطوط متوازنة وإن كان بعضها يتلاقى في واحات معينة تقوم كمحطات لتزويد القوافل بما تحتاجه.

ومن أهم هذه الطرق الطريق الذي يربط طرابلس بمنطقة تشاد ومن خلاله جلب القرمانليون محاصيل أواسط أفريقية إلى موانئ الشمال وهذا الطريق يمر بعدة واحات أهمها منطقة كاوا فواحة مرزق ثم تتجه القوافل غرباً إلى واحة غات فواحة غدامس شمالاً فمدينة طرابلس وكانت هناك بعض القوافل تسلك طريقاً آخر بعد وصولها إلى مرزق إذ تتجه إلى مدينة طرابلس عن طريق واحة سوكنه.

وهناك طرق أخرى تمتد من مدينة طرابلس إلى إقليم النيجر جنوباً حيث سوكوتو Sokoto ومنطقة كانو Kano ببلاد نيجيريا ماراً بواحة غدامس وواحة غات وأير Air .

وإذا اتجهنا إلى الشرق قليلاً نجد طريقاً يربط مدينة بنغازي وإقليم تشاد ماراً باجدابية فواحة أوجله فواحة الكفرة وينتهي عند إقليم تشاد.

وهذا الطريق يتلاقى مع الطريق المتجه من الغرب إلى الشرق محاذياً للطريق الساحلي.

وتتصل واحة أوجله بواحة مرزق بطريق رئيسي يجعل من السهل الاتصال بين بنغازي والسودان الغربي[٢٣].

وهكذا تعددت الطرق الأولية وتشعبت إلى جانب الطرق الأخرى بين الطرق الفرعية، كما تطورت أهمية بعض الواحات واكتسبت مركزاً ممتازاً فواحة مرزق مثلا التي كانت عاصمة لإقليم فزان حتى سنة ١٩٤٣ برغم موقعها غير الصحي قد قامت بدور هام في تجارة القوافل في العهد القرمانلى الأمر الذي جعل منها عاصمة لهذا الإقليم لكثرة ما كان يصل إليها من القوافل التجارية –

ومنها كان التجار يستطيعون الاتصال بأي مكان يريدونه ، كما كانوا يستطيعون أن يتزودوا بأخبار القوافل الأخرى من البلاد البعيدة لكثرة ما يصل إليها من قوافل.

ومجمل القول أن مرزق أخذت ما كان لواحة جرمة من مكانة في تجارة القوافل وقت أن كانت جرمة عاصمة للجرامنت في إقليم فزان في العصور القديمة .

ونرى كذلك واحة زويلة التي عرفت بكثرة الأشراف من سكانها وكان لهم دور كبير في حياتها ، وقد اشتهروا بالهدوء بالنسبة لباقي سكان فزان كما أوضح ذلك الرحالة ليون Lyon في كتابه(٢٤) الذي ضمنه رحلته في المدة من ١٨١٨ الى ١٨٢٠ خلال العهد القرمانلى .

وإذا كان الليبيون في مختلف العهود قد اشتهروا بمهارتهم في تجارة القوافل بصفة عامة إلا انه في العهد القرمانلى كانت هناك جماعات تخصصت في هذا النوع .

فأهالي واحة غدامس عرفوا بذكائهم وأمانتهم وكانوا يبعثون بمندوبين عنهم إلى مدينة طرابلس للإقامة هناك للإشراف على استلام تجارتهم لضمان سلامتها ومراقبة الأحوال التجارية وتقلبات أسعارها كما استعانوا أيضا بوكلائهم في واحة غات وفى كافة الأسواق الأخرى بالسودان لإحكام حلقة الاتصال التجاري وليكونوا على علم أولا بأول بحالة الأسواق.

وفى الناحية الشرقية من ليبيا نجد المجابرة سكان واحة جالو كما نجد قبيلة زوية وتسكن واحة جحرة، وقد نشأ عن النشاط التجاري لهاتين القبيلتين انتشار عنصرهما في كل مكان أمكنهما الوصول إليه .

فكثير منهم يقيم في مصر وفى السودان حيث يعملون في التجارة، وعرفوا بقدرتهم على تحمل متاعب السفر ومقدرتهم في تجارة القوافل، وقد كان للأسفار التي اعتادوها اثر كبير في تكييف معيشتهم.

ويذكر الرحالة فريدريك هونمان أن الذين كانوا يشتغلون بالتجارة منهم كانوا يحتفظون لأنفسهم بثلاث بيوت أحدهم في قرية كرداسة في مصر والثاني في أو

جلة والثالث في واحة زويلة أو مرزق بفزان. وكثير منهم له زوجة وأولاد في كل من هذه الأماكن بل أن بعضهم يتخذ زوجة أثناء إقامته المحدودة التي تبقاها القافلة في إحدى المحطات لتعوله وتقوم بحاجياته الضرورية ولهذا كثرت علاقاتهم مع الجميع بطول البلاد الواقعة في طريقهم التجاري .

أنواع السلع التي بعث بها الأمراء إلى أوروبا :

اهتم القرمانليون اهتماماً كبيرا بما كانت تأتي به القوافل التجارية نظراً لإقبال التجار الأوروبيين على شرائها وأرسالها إلى بلادهم وكانت مدينة طرابلس في العهد القرمانلى سوقاً رائجاً لأنواع السلع وفد إليها التجار من كل مكان - إلى جانب من كانوا يقيمون بها كمندوبين لشراء البضائع المختلفة وتصديرها .

وإذا وكانت الحياة في أوروبا لا يمكنها الاستغناء عن توابل الشـــرق ومنتجاته فان الأوروبيين كذلك لا يمكنهم الاستغناء عن منتجات وسط أفريقيا من رقيق وذهب وريش نعام وجلود وطيور جميلة[٢٥] .

ولعل أهم مواد التجارة التي عنى القرمانليون باستيرادها من الأقاليم السودانية هي الرقيق لاسيما وان أوروبا كانت تقبل على شرائه بأعداد كبيرة .

ويكفى أن نعرف أن العبد الواحد في ذلك الوقت كان يباع بقيمة تتراوح ما بين الثمانين والمائة وخمسين دولارا أسبانيا وحسب حالة العرض والطلب .

ويجدر بنا أن نشير إلى المشاق التي كان يتكبدها رجال القافلة – ولاشك أن النظام الذي وضع في عهد الأسرة القرمانلية لتحديد المسئولية ليوضح ما كانت تعانيه القوافل من مشاق ومتاعب .

فقد كانت كثير من القوافل تتعرض للهلاك نتيجة لأنهم كانوا يضلون الطريق – خصوصا إذا كان الطريق جديدا على أصحابها أو حدث أي تغيير في المعالم المعروفة التي تحدد طرق القوافل وتظهرها للعيان .

وكانت الكثبان الرملية وزحفها اكبر خطر يهدد معالم هذه الطرق ويخفيها، والزائر للصحراء يدهش لكثرة الطرق والمسارات المتقاطعة المتقاربة أحيانا

حتى يصعب عليه تحديد وجهته فيتعرض للهلاك إذا حدث أي خطأ حتى على الخبراء بمعالم الصحراء، وقد احتاط أصحاب القوافل لذلك بالاستعانة بالخبراء في أسفارهم وبالماء الكافي– فخبرة الخبراء كثيرا ما تقف دون التغلب على مثل هذه المآزق وان استعانوا بشروق الشمس وغروبها وهبوب الرياح فى تحديد اتجاه سيرهم، وكثيرا ما كان ينفذ الماء قبل الوصول إلى الواحات او النقط التالية فتهلك القافلة، وكثيرا ما تنفق الجمال وتترك عظامها على الطريق تحدد مساره مشيرة إلى الهلاك الذى ينتظر الغير اذا قدر له ان يمر بهذا المسلك دون الاستعداد الكافى.

ولقد اهتم القرمانليون بحفر الآبار ليستعين بها رجال القوافل ، كما تفنن رجال القوافل في وسائل المحافظة على القرب حتى لا تتمزق إذا احتكت بعض الجمال بعضها ببعض ومع ذلك فان حرارة الصحراء كانت كافية في كثير من الأحيان في إضاعة كمية كبيرة من المياه المحفوظة في القرب عن طريق التبخر أو الرشح(٢٦) .

ومن العوامل التي دفعت الأسرة القرمانلية إلى وضع هذا النظام كذلك الأخطار الكبيرة التي كانت تتعرض لها تجارة القوافل نتيجة الاعتداءات المنظمة التي كانت تقوم بها جماعات قد احترفت هذا النوع من الغزو الصحراوي ، ووضعت له الأسس الكفيلة بنجاحه – هذا على الرغم من أن الأمراء القرمانليين كانوا دائما يعملون على كسر شوكة هذه الجماعات التي كان يغلب عليها الطابع القبلي بكل معانيه.

وكذلك حملت القوافل القادمة إلى مدينة طرابلس العديد من المنتجات الصحراوية مثل ريش النعام والعاج والشبه .

وكان تجار فزان وغدامس يصلون غالبا طرابلس في شهر فبراير من كل عام يحملون هذه المواد ، ويأخذون منها البضائع المستوردة من الدول الأوروبية كالأقمشة القطنية البيضاء والملونة والأقمشة الحريرية والصوفية والجوخ

والأحزمة والسجاجيد والأسلحة النارية والأسلحة البيضاء والزجاج الملون . وكان يتم استيراد معظم هذه البضائع بحرا بواسطة السفن التي كانت تحمل الأعلام الأجنبية وعلى الأخص السفن الفرنسية(٢٧) .

وكانت للقوافل الكبرى المراكشية والجزائرية أهمية تستحق الذكر بالنسبة للتجارة، تلك القوافل التي تنقل الحجاج إلى مكة ، والتي تتوقف سواء في ذهابها أو عودتها عدة أيام في طرابلس ، لا لتحصل على المؤن وحدها ، بل لتشترى أيضا الحرير الدمشقى والإيطالي والمنسوجات الزجاجية الواردة من البندقية، وكانت تحضر من الشرق خيوط القطن والبن والعقاقير(٢٨). نفهم من ذلك أن تجار القوافل فى العهد القرمانلى قاموا بدور الوسيط التجارى بين شمال القارة جنوب ووسط القارة وكذلك بين أوروبا وأفريقيا جنوب الصحراء، ولهذا فأن القوافل الصحراوية قامت بدور مزدوج لنشر الدين واللغة والانتعاش الاقتصادى.

العوامل التي أدت إلى تدهور تجارة قوافل الصحراء :

لقد اقترنت تجارة القوافل في العهد القرمانلى خصوصا أيام يوسف باشا بظاهرة جديدة كان لها أثرها الفعال فيما بعد في القضاء على التجارة بطريقة غير مباشرة.

ذلك أن الدول الأوروبية التي كانت تنظر إلى أفريقيا وتسعى إلى التوغل فيها لتستطيع أن تضع يدها على ما بها من خيرات ومواد خام بدأت هذه الدول تعمل على كشف مجاهلها.

هذه الدول التي صعب عليها الولوج إلى أواسط أفريقية عن طريق السواحل الجنوبية والغربية من القارة أخذت توجه اهتمامها إلى الساحل الشمالي الأفريقي، وتتنافس فيما بينها للوصول إلى داخل أفريقية .

ومنذ مطلع القرن التاسع عشر أصبحت مدينة طرابلس وبقية المدن الساحلية الأخرى محطات للرحالة الأوروبيين الذين يقصدون البلاد بغية التوغل إلى داخل القارة مستعينين بذلك على ما يجدونه من توصية خاصة من الباشا نفسه بعد

إخفاء الغرض الأساسي من رحلاتهم بشتى الطرق كالتعلل بالكشف عن بعض النباتات الطبية ودراسة بعض المناطق الأثرية أو الرغبة في إرضاء روح المخاطرة عندهم، وقد تعلم الكثير منهم اللغة العربية، وتظاهروا باعتناق الدين الإسلامي ومزاولة شعائره على مرأى من رجال القوافل إمعانا في التمويه، وقد كان لهم فيها اكبر معين على تحقيق أهداف رحلاتهم إذ كان الكثير منهم يرافقها في السفر وينتظر موسم قيامها لمصاحبتها، ولنا فى رحلة الرحالة الفرنسى ديبوا (Dubois) إلى مدينة تمبكتو فى النصف الأول من القرن التاسع عشر والرحالة الإنجليز الثلاثة - كلابرتون (Clappertone)، واودنى (Audney)، ودينهام (Denhom) إلى وسط وغرب أفريقيا- لخير دليل على ذلك وكلها تمت فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وكانت وراء هذه الرحلات أهداف استعمارية مهدت الطريق نحو احتلال وسط وغرب أفريقيا فى مطلع القرن العشرين(٢٩).

ثالثاً :- مظاهر التأثير الحضاري الإسلامي على بلاد السودان الأوسط.

كان مسرح تحرك العرب المسلمين في وسط القارة غاية في الاتساع إذ دعموا وجودهم هناك في مساحة قدرت بالآلاف من الكيلومترات، كذلك جمعت أنماطاً من الشعوب وطنيين وغيرهم مما شكل خليطا من الثقافات والمعلومات التي كان على العرب جمعها ودراستها- ليسهل عليهم التعامل في إطارها.

وإذا كانت الكشوف الجغرافية التي حملت منها بذور الحضارة الغربية فيما بعد وسعى الاستعمار في أعقابها لتغيير شكل الخريطة السياسية للقارة الأفريقية فآن جذور تلك الحركة كان العرب هم روادها- فقد حسبت القوافل الصحراوية المسافات وجمعوا المعلومات الجغرافية والطبيعية وعرفوا افضل الأوقات للترحال براً وبحراً ودرسوا العلاقات بين القبائل المختلفة وطبائع البشر هناك.

لقد ساعدت القوافل العربية الأجانب بمدهم بالمرشدين والحراس والحمالين والتراجمة ومواد التموين المختلفة(٣٠) .

كما استطاع العرب كشف الطرق نفسها التي سلكها فيما بعد الرحالة

الأوروبيون بيرتون- وسبيك- وليفنجستون- وستانلي- ثم سبيك وجرانت.

ولم ينكر ليفنجستون فضل العرب في حركة الكشوف الجغرافية- وان الخبرة العربية كانت وراء اكتشاف العديد من المدن في وسط أفريقيا(٣١).

لقد لفت العرب برحلتهم الأنظار إلى هذه المنطقة من العالم فعن طريق الكشف الجغرافي والقوافل العربية الصحراوية دخلت الثقافة العربية ثم الأوروبية قلب أفريقيا المظلم فنقلته إلى نور الحضارة العالمية.

ودليل على عدم عشوائية القوافل الصحراوية العربية في مسيرتها إلى الكونغو بوسط أفريقيا هو انهم كانوا ينتقلون في قوافلهم من مركز إلى آخر في أيام وظروف معينة ،كما كانت هذه المراكز العربية تنشئ حولها المزارع المزدهرة لهذا تخصص بعض العرب في الزراعة .

ومن مظاهر تأثير القوافل الصحراوية التجارية العربية في وسط أفريقيا أن ازدحمت العديد من القرى في الكونغو مثلا بالمدارس العربية التي يقبل عليها الطلاب لتلقى العلوم باللغة العربية – وقد اهتم العرب بتعليم الصغار بدرجة كبيرة حتى انه كان تعليما الزاميا يجبر عليه الأطفال ويلتزم به الكبار – أما التعليم الحرفي فكان يشمل الصناعات اليدوية مثل صناعة الطوب والفلاحة والتجارة وصناعة السلاح والمنتجات الحديدية وهى حرف لم تكن موجودة في وسط أفريقيا .

هكذا كان التعليم في حد ذاته عاملا لرسوخ الإسلام حيث دخل منها إلى نفوس الوطنيين في سهولة ويسر- على حين نرى أن التعليم الأوروبي للإفريقيين أتى بنتائج أخرى فهو في المناطق البلجيكية والفرنسية اخرج الأفريقيين عن لغتهم وحياتهم الأفريقية ، ليصبحوا مواطنين فرنسيين أو بلجيكيين، ثم أن التعليم البريطاني الذي دخل من جانب التدريب المهني لم يجذب إليه إلا عدداً يسيراً من الوطنيين.

ثم من ناحية أخرى اخطر أن التعليم الذي كان وسيلة ايمان بالإسلام كان زلزلة للعقيدة المسيحية في نفوس الزنوج عندما رأوا أن القيم التي نادى بها المبشرون ودخلوا على أساسها المسيحية لا يطبقها الأوروبيون أنفسهم، وان المبشرون وخاصة الإنجليز منهم لا يحترمون تقاليدهم في المجال الاجتماعي – وانتهى الأمر بالأفريقي المتعلم تعليماً أوروبيا أن اصبح لا يصلح للحياة الأفريقية بل ودون الصلاحية للحياة الأوروبية[٣٢] .

كان التعليم في السودان الأوسط تعليماً في الغالب دينياً ويكاد ينحصر في حفظ القرآن ودراسة علوم السنة والفقه واللغة العربية، وقد كان التعليم يتم في حلقات دراسية داخل المسجد أو في الكتاتيب أو الزوايا .

وعندما خضعت تشاد مثلا للسيطرة الفرنسية– افتتحت المدارس الفرنسية في مناطق الجنوب والوسط إلا إنها اقتصرت على أبناء الفرنسيين وأبناء الزعماء التقليديين[٣٣]– واقتصر التعليم في شمال البلاد على التعليم الديني في الكتاتيب والزوايا. وقد ترك الرحالة (ليون) وصفاً لأسلوب التعليم وادواته.

بجانب أن الزوايا كانت لها مكانة مرموقة ببلاد السودان الأوسط وكانت الطريقة القادرية– والتيجانية– والسنوسية– بالإضافة إلى بعض الطرق الأخرى لها مكانة مرموقة في مجتمع السودان الأوسط. وقد وجدت العديد من الزوايا التي لعبت دوراً هاماً في المجال الثقافي لاسيما وان العديد من هذه الزوايا كانت تبنى على خطوط القوافل الرئيسية[٣٤].

وقد وصل مشاع هذه الزوايا إلى بلاد السودان عن طريق الفقهاء والشيوخ الذين تخرجوا بعد حفظهم للقرآن الكريم وعلوم اللغة العربية من تلك الزوايا وكانوا يقومون بالوعظ والإرشاد وتعليم القرآن واللغة العربية في كل البلاد[٣٥].

وقد نجحت القوافل العربية الليبية في إنشاء العديد من الزويا ببلاد السودان الأوسط والتي لعبت دوراً بارزاً في المجال الثقافي. مثل :

الزاوية الاسمرية بمدينة كانو وتنسب إلى الشيخ عبد السلام الأسمر .

زاوية برنى بمدينة زندر أسسها مهاجرون من مدينة سوكنه .

الزاوية السمانة بمدينة كانو أسسها الحاج محمد سجايا الغدامسى.

زاوية شمدور : شمال منطقة دركو بإقليم كاوا .

زاوية وداى ، زاوية الشيخ عبد الفتاح بمدينة زندر .

زاوية الشيخ مالم مهدى بمدينة زندر .

هذه هي بعض الزوايا التي أسسها المهاجريون العرب والتي تحولت إلى مدارس ومراكز دينية تلقى فيها الطلاب شتى العلوم فبخلاف العلوم الدينية هناك علوم الفلك والطب والتاريخ(٣٦) .

ومن ابرز النتائج التي نتجت عن التأثير الثقافي لقوافل التجارة في بلاد السودان الأوسط انتقال المؤلفات والكتب بين العلماء والمشايخ والفقهاء بحيث أصبحت مكتبات منطقة شمال أفريقيا تزخر بالعديد من النسخ المتعددة لبعض الكتب المتداولة في مختلف العلوم هنا وهناك لمؤلفين عاشوا في بلاد السودان الأوسط. وفى نفس الوقت انتشرت المؤلفات العربية في مكتبات تمبكتو وكانو.

ومن النتائج الهامة أيضاً انتقال العديد من أبناء السودان الأوسط لتلقى العلوم في مدارس شمال أفريقيا الزيتونية– وفاس – والأزهر – وطرابلس ثم يعودون إلى بلادهم للعمل في مجال التعليم ومن بين هؤلاء الشيخ (عبد الله سك الفلاف السبغاوى) الذي رحل في طلب العلم إلى فزان ثم عاد إلى بلاده (تشاد)، وكذلك الشيخان أبو بكر بن الحاج عثمان وأخوه على اللذان ذهبا لتلقى العلم بفزان حيث توفى على هناك .

كما أن الشيخ محمد الأمين الكانمى الذي حكم مملكة كانم – برنو ما بين ١٨١٤–١٨٣٥م كان قد تلقى علومه الأولى بزاوية مرزوق حيث حفظ القرآن وتلقى بعض العلوم الدينية ثم انتقل إلى مدينة طرابلس لاستكمال تعليمه على أيدي علماء أجلاء من أمثال الشيخ محمد بن أبي طبل(٣٧).

ومن الوجوه الأخرى لتأثير القوافل الإسلامية الثقافي على بلاد السودان

الأوسط سريان فتاوى علماء شمال أفريقيا في بلاد السودان الأوسط.

كما أوضحت الدراسة أن تعداد القوافل التجارية إلى منطقة السودان الأوسط زادت في القرن التاسع عشر لاسيما القوافل الليبية وأبناء الواحات الصحراوية مثل غدامس– وغات – ومزرق – وسوكنه وغيرها الذين كان اغلبهم من التجار[٣٨].

وقد امتازت العلاقات بين القوافل الصحراوية التجارية وبلاد السودان الأوسط بالازدهار والنشاط، فكانت القوافل التجارية ترتاد بلاد السودان الأوسط وتنتقل بكل حرية.

ومن النتائج المباشرة للقوافل التجارية إلى بلاد السودان الأوسط حدوث المصاهرة والتزاوج بين القوافل وأهل السودان الأوسط وقد شجع على قيام عمليات التزاوج وحدة الدين بين الطرفين فكل منهما يدين بالدين الإسلامي– على المذهب المالكي (وهذا يعود إلى تأثير الشمال الأفريقي). مما أدى إلى عدم وجود موانع دينية أو قوانين صعبة تقف في وجه الزواج .

هذا فضلاعن التشابه الكبيرفي العادات والتقاليد التي لم يجد فيها المهاجرون والرحالة والتجار عبر الصحراء أي وجه للغرابة فعادات الزواج تكاد تكون واحدة، وكذلك الاحتفالات والمناسبات والأعياد الدينية مثل عيد الفطر وعيد الأضحى ويوم عاشوراء– والمولد النبوي تكاد تكون واحدة.

وقد تأثر أبناء السودان الأوسط بكثير من عادات وتقاليد القوافل الصحراوية التجارية العربية[٣٩] .

وهكذا يتضح لنا الترابط القوى بين طرق القوافل الصحراوية التجارية العربية القادمة من الشمال وبين بلاد السودان الأوسط وهو ترابط قوى تجلى في مختلف جوانب الحياه الاقتصادية والثقافية والاجتماعية وهو ما أدى بطبيعة الحال إلى توحيد الجهود والمواقف ضد الاستعمار الأوروبي لمنطقة السودان الأوسط .

الخاتمة

- أكد البحث على أهمية ودراسة منطقة بلاد السودان الأوسط باعتبارها منطقة هامة لم تجد حظاً كبيراً في كتابات الأفارقة حيث مازال الغموض والتعتم يسيطر على كتابات الباحثين الأفارقة عن هذه المنطقة .
- اثبت البحث أن منطقة بلاد السودان الأوسط نقطة التقاء الطرق التجارية التي تربط بين شرق أفريقيا وغربها من جهة وبين مناطق جنوب الصحراء الكبرى وشمالها من جهة .
- أثبتت الدراسة أن هناك عدة ممالك إسلامية كبرى قامت في منطقة بلاد السودان الأوسط منها مملكة الكانم – والبرنو – ومالي – وصنغاى – ووداى وان هذه الممالك الإسلامية شهدت وفود العديد من الهجرات الإسلامية وقوافل التجارة عبر الصحراء.
- كما أكد البحث على دور القبائل العربية في نشر الإسلام في منطقة السودان الأوسط. وان هذه القبائل لم تعش في معزل عن مجتمع السودان الأوسط بل اندمجوا بشكل تلقائي ساعدهم على ذلك سابق معرفتهم بتلك البلاد .
- كما أكد الباحث أن العلاقات التجارية بين القبائل العربية وبلاد السودان الأوسط أدت إلى زيادة الروابط الاقتصادية والاجتماعية .
- كما أشار الباحث إلى أهم الطرق التجارية بين شمال القارة وجنوبها وبلاد السودان الأوسط، وإلى دور التجار والقوافل التجارية الليبية في زيادة الترابط بين شمال القارة وبلاد السودان الأوسط.
- وأكد الباحث أن هذه الطرق (طرق القوافل) لم تكن من ابتكار قوافل الصحراء، بل كانت موجودة منذ زمن سحيق وان الصحراء كانت عامل وصل بين أجزاء القارة ولم تكن عامل فصل .
- وان هذه القوافل حملت معها معالم الحضارة إلى بلاد السودان الأوسط فنشرت الدين الإسلامي واللغة العربية وجلبت منها خيرات هذه المنطقة .
- أكد البحث على أهمية قوافل الصحراء في توثيق الروابط بين الشعوب ورمزاً من رموز الاتصال المحكم بين اللغة والعقيدة والفكر والتفاعل الحضاري .

- ضرب الباحث مثلاً بطرق القوافل في العصر القرمانلي وأهميتها في ربط شمال القارة بوسطها .

كما وضح الباحث مظاهر التأثير الحضاري الإسلامي في بلاد السودان الأوسط وان هذه المظاهر تمد بذورها إلى ما قبل بداية حركة الكشوف الجغرافية– وان العرب لهم دور كبير في نشأة العديد من المدن في وسط أفريقيا والتي ازدحمت مدارسها التي اقبل عليها الطلاب الأفارقة . وقد شهد بذلك عدد من الأوروبيين ومنهم ليفنجستون .

- كما أكد البحث على دور قوافل الصحراء في نشر الدين الإسلامي واللغة العربية والزوايا في مدن وسط أفريقيا .

وأخيراً انتقال المؤلفات بين العلماء والمشايخ والفقهاء ودور قوافل الصحراء في ذلك.

حقا يصدق القول مع التجارة تنقل الحضارة.

****

الحواشي

---

(١) كان العرب أول من أطلق كلمة السودان على الأقوام التي تسكن جنوب الصحراء الكبرى، وربما تكون التسمية مستوحاة من لون البشرة عند مكان هذه المنطقة . وقد استعمل الأوروبيون مصطلح السودان ولكن بشكل جزئي فاستعملها الفرنسيون على ممتلكاتهم في غرب أفريقيا، بينما استعملها الإنجليز على ما كان يعرف بالسودان المصري الذي يشمل الآن كل جمهورية السودان .

(٢) عبد القادر زبادية : مملكة صنغاي في عهد الآسكيين ١٤٩٣–١٥٩١م، الجزائر، ١٩٧١م، ص ص١٥،١٦ وانظر أيضاً :
جميلة محمد التكتيك : مملكة صنغاي الإسلامية في عهد الأسكيا محمد الكبير ١٤٩٣-١٥٢٨، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، طرابلس ١٩٩٨ن ص ص ٢٦، ٢٩.

(٣) ابن اسحق الأصطخري : المسالك والممالك ، القاهرة ١٩٦١ ، ص٣٤ .

(٤) يقصد بالبحر المحيط هنا : المحيط الأطلسي .

(٥) محمد عبد الرازق مناع : جولة في أفريقيا ، طرابلس ١٩٧٤ ، ص٤٨ .

(٦) الشاطر بصيلى عبد الجليل (دكتور) : تاريخ وحضارات السودان الشرقى والأوسط – القاهرة ١٩٧٢. وراجع أيضاً :
عبد الرحمن الماحى : تشاد من الاستعمار حتى الاستقلال (١٨٨٤-١٩٦٠)، القاهرة ١٩٨٢، ص ص ٣٨-٣٩.

(٧) "الشوا" تعنى في لغة الكنورى : الرعاة الرحل أو البدو وقد أطلقت لفظة الشوا عليهم تميزا لهم عن التجار العرب الذين يمكثون فترات قليلة في المنطقة .

(٨) عبد الفتاح مقلد الغنيمي : حركة المد الإسلامي في غرب أفريقيا ، القاهرة ١٩٨٥م ص ص ٢٠-٢٧ .
(٩) عبد الرحمن عمر الماحي : المجتمع التشادي في عهد الاحتلال ١٩١٨-١٩٦٠ ، القاهرة ١٩٧٧ ص٨٥ .
(١٠) إبراهيم على طرخان : إمبراطورية البرنو الإسلامية ، القاهرة ١٩٧٥ ص ص ٨٣-٨٤ .
(١١) محمد بن عمر التو نسي: تشيد الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان (الرحلة إلى الوادي) مخطوط تحت رقم٧٣ قسم المخطوطات – الرياض – السعودية ص.ص:١٠٢/١١٦ .
(١٢) راجع الرسالة المرسلة من قائم قام فزان إلى والى طرابلس يخبره فيها بوصول رسالة من سلطان برنو الشيخ (عبد الرحمن الكانمى) بصحبة القافلة القادمة من هناك .
د– م – ت – ط.ملف نواحي إدارية رقم٢ رسالة من قائم قام فزان إلى الوالي بتاريخ ١٣ رجب ١٢٧٠هـ١٨٥٤م .
(١٣) د– م – ت – ط. ملف التجارة رقم٣ ,وثيقة رقم٦٦ رسالة من قائم قام فزان إلى الوالي بتاريخ ٩رجب ١٢٧١هـ/ ١٨٥٥م .
(١٤) عبد الرحمن الماحي : مساهمة قوافل الصحراء في نشر الإسلام / مجلة جامعة الأمير عبد القادر - الجزائر١٩٩٣ ص٢٢٩ .
(١٥) انظر الخريطة رقم (١) حول حركة إنتشار الإسلام فى السودان الأوسط والغربى من القرن السابع إلى القرن التاسع عشر.
(١٦) راجع الخريطة رقم(٢) في ملحق البحث حول طرق القوافل الرئيسية بين بلاد السودان الأوسط شمال أفريقيا.
(17) J . CHAPELLE : LE PEMPLE TCHADIEN, P.199 -201 .
وراجع أيضاً عمر التونسي ، رحلة إلى وادي ، ص٣٠٠ وما بعدها .
(١٨) المقريزى (تقى الدين احمد بن على) :٨٤٠هـ/١٤٤١م – الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من فلول الإسلام – القاهرة١٩٠٨ ص٢٧ وما بعدها .
(١٩) ياقوت الحموى : معجم البلدان ج٦ القاهرة ، د . ت ، ص٣٧٤ وما بعدها .
(٢٠) المقريزى : الإلمام بأخبار ، مرجع سابق ، ص٢٧ وما بعدها .
(21) Aris Baten : The Kastern Libyans, (London 1914), P.83.
(22) The Journal of Frederick Hornaman's Travel, from Cairo to Hoursouk, the capital of Fosan in Africa in the year 1797-1798 – Printed by W. Bulmer. (London – 1808).
(٢٣) إسماعيل كمالي: وثائق عن نهاية العهد القرمانلى، ترجمة محمد مصطفى بازمة، بنغازي ١٩٦٥، ص ١٤٢.
(24) O.P. Lyon : A narrative of travel in northern Africa in the Years 1818,1819,1820, London.1821, p.218
(٢٥) اتيليو – موري : الرحالة والكشف الجغرافي في ليبيا ، ترجمة خليفة التليسى ، طرابلس ١٩٧١، ص٩٣.
(٢٦) كولا فولايان : ليبيا أثناء حكم يوسف باشا، ترجمة عبد القادر المحيشى، مراجعة، صلاح الدين السوري طرابلس ١٩٨٨ ، ص٩٦ .
(٢٧) محمد المدنى الحضيرى : الطريق من طرابلس إلى فزان ، مجلة البحوث التاريخية يناير ١٩٧٩.
(٢٨) عبد المولى صالح الحرير: نظرة تحليلية لإبعاد سياسة يوسف القرمانلى الاقتصادية على العلاقات الاجتماعية في النصف الأول من القرن التاسع عشر. تونس ١٩٨٥، ص٣٧

(٢٩) توضح الوثائق دور يوسف القرمانلى والى طرابلس ورسائله إلى الشيخ محمد الكانيمى يوصيه فيها بالرحالة الانجليز وحق معاملتهم وكذلك رسالة أخرى إلى أبى بكر بن كالوم فى بورنو تحمل نفس المعنى – وخطاب من شيخ بورنو إلى سلطان كانو محمد دابو تؤكد نفس المعنى وهى الحرص على اكرام الرحالة الانجليز القادمين إلى بلاد السودان الأوسط لمشاهدة العجائب والغابات والصحارى ومدى الحرص على الاهتمام بهم واكرامهم.
وهذه الوثائق مصدرها كتاب: رحلة لاستكشاف أفريقيا، تأليف الميجور، ترجمة: عبدالله عبد الرازق: دينهام– وكلابرتون والرحالة أودنى. مراجعة: أ.د/ شوقى الجمل- المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٢م.

(٣٠) ماهر شعبان : مصادر دراسة تاريخ غرب أفريقيا ، بحث مرجعى مقدم إلى اللجنة العلمية الدائمة ، القاهرة ٢٠٠٢م ، ص ص ١٩-٢١.

(31) De Lovigmette : R Freedom and Authority in French West Africa, (London 1950), p. 212.

(٣٢) زاهر رياض : دكتور ، استعمار القارة الأفريقية واستقلالها ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص١٣٣ .

(33) Lewis : I.M. ISDAM in Tropical Africa, (London,1969), p. 170.

(٣٤) رأفت الشيخ : تطور التعليم في ليبيا في العصور الحديثة ، بنغازي ١٩٧٢، ص ص٩٤ – ٩٧

(٣٥) نيكولاى بروشين :تاريخ ليبيا نهاية القرن التاسع عشر حتى عام١٩٦٩، ترجمة عماد حاتم، مراجعة ميلاد المقرحى ، منشورات مركز الجهاد الليبي، طرابلس١٩٨٨، ص ص ٦٩-٧٠.

(٣٦) عبد الحميد عبد الله الهرامة : فصول من تاريخ ليبيا الثقافي، بيروت ١٩٩٩، ص ص ٢٦،٢٧

(٣٧) عبد الرحمن الماحي : المجتمع التشادي في عهد الاحتلال ، مرجع سابق ص٧٥ .

(٣٨) فريدريك هورنمان :الرحلة من القاهرة إلى مرزق عاصمة فزان، ترجمة مصطفى جودة، (طرابلس١٩٩٣)، ص٥٩.

(٣٩) ريمون فيرون : الصحراء الكبرى ، ترجمة جمال الدين الدناصورى ، القاهرة ١٩٦٣، ص٣٤



حملات إبراهيم باشا علي شرق شبه الجزيرة العربية وآثارها

د. يحيي محمد محمود

جامعة الإمارات العربية المتحدة

مقدمة:

ولد إبراهيم باشا في قولة بألبانيا سنة ١٧٨٩م، وانتقل لمصر عام ١٨٠٥م مع شقيقه طوسون بعد أن استقرت الأمور لمحمد علي وأصبح واليا علي مصر، وقد عينه محمد علي دفتر دارا لمصر- مديرا للمالية- سنة ١٨٠٧م، فأصبح هو المختص بإدارة البلاد المالية، وقام بمجموعة من الإصلاحات الإدارية والمالية بتوجيه من والده وهو ما أكسبه خبرة إدارية ومالية كبيرة، كما أسهم في تأسيس الجيش الحديث، وتطوير البلاد.

استعان محمد علي بإبراهيم باشا للقضاء علي الدولة السعودية الأولي بعد أن فشل أخوه طوسون في القضاء عليها، وبعد أن اضطر محمد علي للسفر إلي الحجاز سنة ١٨١٣م لمساعدة طوسون، وبعد عودة محمد علي و طوسون من الحجاز ووفاة طوسون دفع محمد علي بإبراهيم لقيادة جيوشه، للقضاء علي الدولة السعودية الأولي وإعادة الحجاز إلي حظيرة الدولة العثمانية(١).

بدأ إبراهيم باشا سنة ١٨١٦م بنقل جنوده إلي ينبع ومن هناك تحرك إلي المدينة المنورة، وفي البداية لقي مقاومة كبيرة من السعوديين في الرسة، ولكنه تمكن من إعادة ترتيب جيوشه وهزيمة السعوديين والقبض علي عبد الله بن سعود سنة ١٨١٨م، ودخل الدرعية وقام بتخريبها وتدميرها وفقا لأوامر أبيه سنة ١٨١٨م(٢)، وقد عاد إبراهيم باشا إلي القاهرة بعد أن ترك منطقة الإحساء لبني خالد، ونجح بنو خالد عن طريق والي بغداد داود باشا في تولي إدارة الإحساء

من قبل الدولة العثمانية(٣).

وبالرغم من مشاركة إبراهيم باشا في عدة أعمال عسكرية في اليونان اعتبارا من سنة ١٨٢٤م للقضاء علي ثورتها الاستقلالية بتكليف من السلطان العثماني، وبسلسلة من العمليات العسكرية ضد السلطان العثماني في الشام اعتبارا من سنة ١٨٣٣م،وحتى سنة ١٨٣٩م، إلا أن النفوذ العثماني عاد مرة ثانية ليصل إلي سواحل الخليج والإحساء عندما عين خورشيد باشا محافظا لمكة، وقام سنة ١٨٣٩ باسترداد الإحساء مرة ثانية من السعوديين، ووصل نفوذه إلي البحرين، وحاول مد نفوذه إلي الساحل، وذلك بتعليمات من إبراهيم باشا بعد أن بدأ نفوذ ه في الزوال في الشام، محاولا الحصول علي أملاك جديدة تعوض ما فقده في الشام واليونان، وقد قام إبراهيم باشا بتوجيه خورشيد باشا من القاهرة في نشاطه بشرق الجزيرة بصفة خاصة أكثر من مرة ،مرة بصفته والي جدة، ومرات بصفته سر عسكر مصر(٤)،كما أمر إبراهيم باشا أيضا سنة ١٨٣٩م بنقل العسكر التركية غير النظامية الاستانبولية إلي الحجاز(٥)، لعدم الحاجة إليها، أي أن الحجاز ظل في نظر إبراهيم هو المنفي الذي يتخلص فيه من الجنود بعد استغنائه عن خدماتهم، ولكن سرعان ما انسحب تماما من شبه الجزيرة العربية تحت الضغط البريطاني، واقتصر حكم أسرة محمد علي على مصر فقط اعتبارا من سنة ١٨٤٠م(٦)، وإن واصلت مصر تدخلها في شؤون الحجاز بعد ذلك التاريخ .

إبراهيم باشا قائدا عثمانيا

درج العديد من الكتابات علي وصفَ إبراهيم باشا بالقائد المصري، ووصف جنوده بالمصريين، ولكن بدراسة الوثائق العثمانية نجد أن تعامل إبراهيم باشا مع الجزيرة العربية كان كقائد عثماني، وليس كقائد مصري، فهو أولا لا يتحدث العربية، وكانت كل حملاته العسكرية بأوامر عثمانية، فحين أراد العودة لمصر من الحجاز أرسل محمد علي باشا للصدر الأعظم يطلب منه" أن يبذل جهده لدي

حضرة صاحب الشوكة السلطان في استصدار أمر سامي بالتصريح لابرهيم باشا بالاجازة"(٧)، ومن هذا الطلب يتضح لنا أن ابراهيم باشا كان يلزمه تصريح من السلطان العثماني لمغادرة الجزيرة العربية، حيث أنه ليس إلا ضابطا عثمانيا رفيع المستوي، يلزمه تصريح القائد الأعلى، وحين وافق السلطان العثماني علي طلب محمد علي جاءت الموافقة تفصيليا بمغادرة الدرعية إلي المدينة المنورة، لتنظيم شؤونها، ثم العودة إلي مصر للراحة(٨)، وحين وصل إلي القاهرة سارع محمد علي بابلاغ الصدر الأعظم خبر وصول إبراهيم باشا للقاهرة في ١٩ صفر سنة ١٢٣٥هـ، عقب أدائه فريضة الحج(٩).

و يتضح وضع إبراهيم باشا كقائد عثماني في حرب التحرير اليونانية الشهيرة بحرب المورة، حيث أدرك محمد علي صعوبة موقف إبراهيم باشا بعد تدخل الدول الكبرى ضد إبراهيم وجيشه في اليونان، و أراد محمد علي سحب إبراهيم و جيوشه من ميدان القتال، ولكن السلطان رفض ذلك لأنه القائد الأعلى لجيوشه، وهو ما عجل بالصدام بين محمد علي والسلطان حين عاد إبراهيم باشا لمصر رغم الإرادة السلطانية، ودون تصريح(١٠)، وهو ما يؤيد كونه ضابطا عثمانيا لا يستطيع تدبر الأمر دون الرجوع للقائد الأعلى منه، وحتى حين خرج عن طاعة السلطان كان بأوامر من محمد علي باشا والده وقائده، الذي خرج بدوره عن طاعة السلطان وأصبح واليا خارجا عن الدولة.

النتائج السياسية لحملات إبراهيم باشا

أولا: إبعاد الخطر السعودي عن إمارات شرق شبه الجزيرة:

شكلت الدولة السعودية الأولي خطرا علي شرق شبه الجزيرة العربية فقد طالبت جميع الدول والقوي المحلية بتبعيتها للدولة السعودية، وتمكنوا من احتلال الإحساء سنة ١٧٩٥م، مما فتح الطريق أمامهم إلي المناطق المتاخمة مثل قطر والبحرين وعمان خصوصا بعد احتلال البريمي سنة ١٨٠٠م، بل وتمكنوا من مهاجمة كربلاء عام ١٨٠١م، وزادت قوتهم بانضمام القواسم إليهم عام ١٨٠٣م،

واستولوا علي مكة والمدينة المنورة سنة ١٨٠٣م(١١)، وجاء سقوط الدولة السعودية الأولي ليوفر جوا من الاستقرار ساعد علي نمو تلك المنطقة سياسيا، مما أدي إلي ازدهار إمارات الخليج المختلفة، بل وفرجوا من الاستقرار لعمان، فاكتملت الشخصية المستقلة لمعظم إمارات الخليج في القرن التاسع عشر نتيجة لذلك.

ثانيا:ازدياد اهتمام إنجلترا بمشيخات الخليج:

ما أن بدأ إبراهيم باشا حملاته وانتصاراته حتى حدث تحول في السياسة البريطانية مر بمرحلتين الأولي: محاولة بريطانيا التحالف مع إبراهيم باشا واستخدامه كحليف لتحقيق السياسة البريطانية في المنطقة للسيطرة عليها، وفي المرحلة الثانية: تحولت بريطانيا إلي مقاومة محمد علي، وسارعت لتنفيذ مخططاتها السياسية في المنطقة بل وضرب نفوذه، ودخلت عسكريا للمنطقة للمرة الأولي.

المرحلة الأولي:

رحبت بريطانيا بدخول إبراهيم باشا إلي المنطقة وما أحرزه من انتصارات(١٢)؛ حيث أنه قد خلصها من الدولة السعودية الأولي، وهو ما كانت تريده بريطانيا؛ حيث أن وجود قوة محلية قوية في المنطقة- ممثلا في السعوديين- سيؤدي إلي عرقلة مشاريعها في السيطرة علي المنطقة، لذلك بادرت بريطانيا إلي إيفاد الكابتن سادلير Sadlier من بومباي إلي إبراهيم باشا، في الرابع عشر من أبريل سنة ١٨١٩م(١٣) ، وكلفت الحكومة البريطانية سادلير بلقاء كل من إبراهيم باشا والسيد سعيد إمام مسقط(١٤)، لتنسيق شكل من أشكال التعاون المشترك بين سلطان مسقط والقائد العثماني للتعاون مع بريطانيا في الحملة الصليبية ضد رأس الخيمة(١٥)، القوة المناوئة لبريطانيا والمهددة للملاحة في الخليج، ووعد سادلير بتسليم رأس الخيمة لإبراهيم باشا، إذا ما نجح التحالف العثماني - العماني - البريطاني في احتلال رأس الخيمة(١٦)، وهي

محاولة بريطانية مبكرة لضرب العرب بعضهم ببعض، وتحقيق مخططاتها باستخدام العرب، ودون استخدام لجيوشها إلا في أضيق نطاق .

وصل سادلير Sadlier إلي الهفوف في الحادي عشر من يوليو ورافق القوات المنسحبة إلي الدرعية، حيث فوجئ برحيل إبراهيم باشا إلي المدينة المنورة في طريقه لأداء مناسك الحج، ورحل سادلير لثاني مرة متعقبا إبراهيم باشا، وهو ما يبين حرصه علي لقاء القائد العثماني ومدي أهمية هذا اللقاء، وقد عبر الجزيرة العربية كلها خلفه، وأخيرا تمكن المبعوث البريطاني من لقاء إبراهيم باشا في الثامن من سبتمبر، حيث سلمه رسائل الحاكم العام للهند وحاكم بومباي(١٧)، مع سيف هدية، ولكن إبراهيم باشا أصر علي إحالة المقترحات البريطانية إلي محمد علي في مصر لإبداء الرأي، فهو ليس إلا منفذا لتعليمات قائده، و ارتحل إبراهيم إلي مكة للحج وسادلير Sadlier إلي ينبع لانتظار رد محمد علي، وقد كتب محمد علي لإبراهيم باشا برفض طلب سادلير بلطف، وكتب لكتخداه بالآستانة محيطا إياه علما بمهمة سادلير(١٨)، وأرسل إليه رسالة حاكم بومباي لعرضها علي السلطان، موضحا له كيف رد طلب بريطانيا، وقد أقره الصدر الأعظم في موقفه(١٩).

وعندما وصل سادلير إلي جدة اعتذر له إبراهيم باشا بلطف في الرابع عشر من نوفمبر، وعاد إلي بومباي بعد ما يقرب من العام في محاولة منه لترتيب تعاون مع إبراهيم باشا، وانتهت مهمته بالفشل لتبدأ بريطانيا مرحلة جديدة من التدخل في شرق الجزيرة مستبعدة إبراهيم باشا من مخططاتها، بل متصدية له ولجيوشه(٢٠).

وقد حاول محمد علي مناوأة بريطانيا مستخدما نفس الأسلوب الدبلوماسي بضرب التحالف البريطاني، حيث كتب لإمام مسقط طالبا منه الابتعاد عن التحالف مع بريطانيا(٢١)، ولكنه لم يتلق ردا علي رسالته لإمام مسقط الذي شارك بريطانيا حملتها ضد راس الخيمة، بعد أن رفض ذلك في البداية بمشاركة

الجيوش العثمانية، حيث كان يري أن وصول الجيوش العثمانية يمثل تهديدا لاستقلال بلاده(٢٢)، وكان إمام مسقط يرحب بالتعاون منفردا مع بريطانيا بعيدا عن إبراهيم باشا الذي كان يعرف أنه لا يبرم أمرا إلا بالرجوع لمحمد علي، وكلاهما له أطماعه التي يعرفها الإمام جيدا.

يرجع التغير في السياسة البريطانية إلي إدراك بريطانيا لصعوبة التعاون مع محمد علي الذي كان لا يرغب في التعاون مع بريطانيا التي لم يمض علي غزوها لمصر أكثر من عشر سنوات حين أرسلت حملة فريزر سنة ١٨٠٧م علي مصر، ولعل هذا الموقف من محمد علي يعبر عن وجهة نظره التي أكدها أكثر من مرة أنه لا يمكن له أن يساند دولة غير إسلامية في غزو دولة إسلامية أخري، نفس هذا الموقف الذي اتبعه محمد علي مرة أخري حين عرضت عليه فرنسا مشاركتها في غزو الجزائر وأجاب محمد علي أيضا بالرفض(٢٣)، وربما يعود رفضه أيضا إلى رغبته في القيام بمشروعه وحده.

بعد فشل أول تحالف لإقامة محور عربي مضاد لرأس الخيمة، بدأت بريطانيا تغير من سياستها تجاه إبراهيم باشا ومحمد علي، لتبدأ مرحلة ثانية قامت فيها السياسة البريطانية علي عداء إبراهيم باشا ومخططاته، والعمل علي تقليص نفوذه، ربما لإدراكها لتطلعات محمد علي وتمثيله منافسا لها في وضع يدها علي المنطقة.

المرحلة الثانية:

وبدأت بعد يأس بريطانيا من تعاون إبراهيم باشا معها، حيث قامت بغزو رأس الخيمة سنة ١٨١٩م(٢٤)، وعقدت معاهدة السلام العامة سنة ١٩٢٠م مع مشايخ المنطقة، وبدأت في تدعيم وجودها العسكري والسياسي في المنطقة فعينت وكيلا سياسيا لها في الشارقة ١٨٢٥م(٢٥)، وبدأت مجموعة من الإجراءات لتوحيد القوي المحلية للتصدي لإبراهيم باشا ونفوذ محمد علي، ووضع المنطقة تحت السيطرة البريطانية دون الحاجة إلي معاونة إبراهيم باشا.

عندما بدأت بريطانيا توقف طموح محمد علي في أثناء صراعه مع السلطان بدأت علي خط مواز التصدي له في شرق شبه الجزيرة وحتى جلاء جيوش محمد علي عن شبه الجزيرة، بدأ هذا التصدي البريطاني حين وصل خورشيد باشا عام ١٨٣٨م إلي الرياض، وبدأ يتصل بحكام الإمارات ووالي بغداد وبدأ محاولاته لبسط نفوذه علي الساحل المتصالح، خصوصا بعد ضم الإحساء والقطيف وبالتالي نجد والإحساء بالكامل، لتبعية محمد علي، وتتطلع للسيطرة علي البحرين والساحل المتصالح.

المواجهة البريطانية العثمانية:

واجهت بريطانيا خورشيد باشا بشكل رسمي حينما حاول مد نفوذه إلي البحرين وقد نتج عن هذه المواجهة احتفاظ البحرين بشخصيتها، واستقلالها عن كل من محمد علي وكذلك عن الحكم السعودي فيما بعد.

وقد بدأت تلك المواجهات حينما أرسل خورشيد باشا مبعوثه محمد رفعت إلي البحرين،الذي كتب لمحمدعلي وصفا لأحوال البحرين في تلك الفترة موضحا له أهميتها وموقعها، وإمكانية تحويلها لقاعدة لتموين جيوشه(٢٦)، وطلب من شيخها دفع الزكاة كما كان يفعل مع الدولة السعودية الأولي، وقد وافق شيخ البحرين علي دفع الزكاة لخورشيد، ولكن المقيم البريطاني في الخليج بادر بمقاومة الاتفاق المصري البحريني، وأعلن أن البحرين منطقة حماية بريطانية وفقا للاتفاقات المبرمة مع المشايخ، وقد رد محمد رفعت أن البحرين كانت تابعة للدولة السعودية وبحكم الفتح أصبحت جزءا من أملاك مصر، واستخدم منطق القوة مبررا لضم البحرين مشيرا إلي أن محمد علي يملك القوة لفعل هذا فيقول: "أن أفندينا قد استولي علي نجد وما يتبعها من الثغور مثل القطيف والحسا وانتم والحسا حال واحد، فلا يمكن حينئذ ترك البحرين، إلا بعد العجز عنها، والحمد لله شايف سعادة أفندينا ليس عاجز"(٢٧)، وهكذا يستخدم محمد رفعت منطق القوة في مطالبته بالبحرين.

ومن ناحية أخري حاولت كل من الدولة العثمانية وفارس إبعاد نفوذ محمد علي من المنطقة، فقد أرسل والي بغداد مبعوثا لشيخ البحرين ليقنعه بعدم الدخول في تحالف أو الخضوع لنفوذ محمد علي، كما أرسل شاه إيران مبعوثا لنفس السبب لشيخ البحرين(٢٨)، والموقف العثماني له مبرراته فهناك عداء بل ومواجهات عثمانية مع جيوش محمد علي بقيادة لإبراهيم باشا، وتعددت المعارك العسكرية بينهما، كما أن السلطان العثماني أصبح مدركا لأطماع محمد علي في أملاكه، لذلك أدار والي بغداد ممثلا للسلطان الاتصالات بشيخ البحرين لإقناعه بعدم الدخول في طاعة محمد علي.

أما إيران وهي التي تطالب بملكية البحرين فقد كانت حريصة علي عدم دخولها تحت مظلة محمد علي لتتمكن من ضمها إذا ما حانت الفرصة، لذلك سارعت بإرسال رسول لشيخ البحرين لتحريضه ضد محمد رفعت مبعوث محمد علي إليه(٢٩).

ولكن بريطانيا ضغطت بكل ثقل للابقاء علي البحرين مستقلة عن محمد علي، ونجح ضغطها علي محمد علي في جلاء قواته عن شبه الجزيرة العربية ككل وليس عن البحرين فقط.

ثالثا: ازدياد أهمية مشيخات الساحل:

بدأت حكومة الهند البريطانية جهدا دبلوماسيا لإيقاف تقدم القادة العثمانيين في المنطقة، وتصدي المقيم البريطاني لكل جهود خورشيد باشا لمد نفوذه إلي الساحل المتصالح، و بدأت التحرك لعقد معاهدات حماية علي المشيخات العربية لتمنع محمد علي من السيطرة علي المنطقة، وتوجد شكلا من أشكال التنسيق بين المشيخات للتصدي لنفوذ محمد علي بالمنطقة، ففي٢ مايو سنة ١٨٣٩م وصل الأميرال فريدريك مايتلاند علي متن السفينة ويلزلي إلي الخليج كمبعوث بريطانيا، حيث زار البحرين في٢٢ ابريل، والتقي بالشيخ ناصر أكبر أبناء شيخ البحرين، الذي أخبره باعتقاده بأنهم يعتمدون اعتمادا كاملا علي مساعداتهم في

التخلص من زحف جيوش محمد علي العدواني الذي يهدد استقلالهم.

ولكن لمس القائد البريطاني من المشايخ عدم اكتراث تجاه خطر محمد علي المحيط بهم، وأنهم رغم ما عبروا عنه من خوف، لم يتخذوا أي تدابير لمواجهة هذا الخطر، فلا توجد سفينة واحدة في حالة تأهب ولا توجد لديهم معلومات عن تحركات الجيش العثماني(٣٠)، وربما يرجع ذلك إلي إدراكهم أن محمد علي لا يستطيع غزو بلادهم بشكل فعال لأنهم الأكثر دراية بطبيعة بلادهم.

وفي دبي كان نفس الانطباع لدي مايتلاند، حيث صرح له شيخها أنه سيعرف بوصول قوات محمد علي عندما تظهر عند التلال المحيطة بمنازلهم،(٣١)هنا عمل القائد البريطاني علي تصوير الخطر العثماني للمشايخ، وتصوير الموقف للقيادة البريطانية حيث أنه كان يري أن حماية تلك المنطقة سيكون بالكامل علي العاتق البريطاني وليس علي القوي المحلية غير المستعدة بالطريقة العسكرية البريطانية.

وكان الوحيد الذي لم يحضر للقاء القائد البريطاني هو الشيخ خليفة بن شخبوط الذي تعلل بغياب شقيقه سلطان عن أبو ظبي وهو ما لا يمكنه من مغادرتها، ولكن القائد البريطاني فسر ذلك الاعتذار بأن كرامة الشيخ خليفة لم تتقبل اللقاء في منطقة تخضع للشيخ سلطان بن صقر(٣٢).

كذلك بدأت تحركات محمد علي تصيب بالقلق المشيخات البعيدة، فقد استفسر شيخ لنجة سعيد بن قصيب الواقعة في الجهة الأخر من الخليج الفارسي من المبعوث البريطاني عن تقدم خورشيد باشا، ونواياه، وأبرز اهتمامه بخطره علي العرب عامة والقواسم بشكل خاص(٣٣).

وفي رأس الخيمة أعرب شيخها للقائد البريطاني عن اعتقاده بأنهم غير قادرين علي الدفاع عن أنفسهم، وبالتالي فإن فرصتهم الوحيدة للحفاظ علي استقلالهم في تلقي العون من بريطانيا، وقال الشيخ أنه قد نبه المقيم البريطاني إلي خطر محمد علي منذ مدة، وأنه فكر في السفر بنفسه إلي بومباي أو إرسال

ابنه لطلب المعاونة من الحكومة البريطانية(٣٤).ولم يقتصر الأمر علي ذلك بل إنه قال إنه قرر في حالة عجزه عن الحصول علي مساعدة بريطانيا، فإنه سيغادر بلاده عند قدوم المصريين، وسيبحث له عن ملجأ علي الساحل الفارسي، وتمني لو سمح له في الاستقرار في جزيرة باسدور أو جزيرة أخري، ولكن الكابتن ميتلاند أكد له اهتمام الحكومة البريطانية برفاهية كل البلدان العربية، وأنها تحتج لدي محمد علي لما يبذله من جهود لإخضاعهم، وأن العرب سيجدون في إتحادهم خير ضمان لهم، ولكن شيخ رأس الخيمة أضاف أن إتحاد القبائل معا أمر في غاية الصعوبة(٣٥).

وفي ٣٠ أبريل التقي مايتلاند والشيخ مكتوم بن بطي شيخ دبي، الذي أعلن أنه سيقاوم خورشيد باشا إلي أبعد حد ولن يرضي أبدا بالخضوع له(٣٦)، وهو موقف اختلف عن مواقف باقي المشايخ الذين لم يتوعد أحد منهم لخورشيد باشا.

وقد اعتذر أيضا عن لقاء البريطانيين مرة ثانية الشيخ خليفة بن شخبوط، متعللا بغياب والده وشقيقه، بالرغم من قيام الوكيل المحلي بزيارة أبو ظبي لحثه علي زيارة المندوب البريطاني في رأس الخيمة(٣٧).

وقبل إبحار السفينة ويلزي من الخليج زارها المشايخ وشاهدوا إمكانياتها العسكرية حيث أنها مزودة بأربعة وسبعين مدفعا، وشاهدوا أركانها، وأدركوا مدي قدرة بريطانيا علي حمايتهم، حتى أن شيخ لنجة طلب إنشاء قاعدة عسكرية بريطانية بها(٣٨).

بعد ذلك تجمع المشايخ في رأس الخيمة حيث وقعوا علي اتفاقية الهدنة البحرية، وتم التوقيع علي الاتفاقية بسهولة، ووقعها خمسة مشايخ «سلطان بن صقر، وخليفة بن شخبوط، ومكتوم بن بطي، وعبد الله بن راشد، وحميد بن راشد، وهو ما أدي إلي ظهور مشيخات الساحل المتصالح بشكل أكثر استقلالا عما كان موجودا من قبل.

اخبر مايتلاند المشايخ أن الحكومة البريطانية تواقة لرؤيتهم في حالة سلام،

وأنه من المستحيل القيام بأي شيء لحمايتهم من هيمنة محمد علي طالما استنفدوا مواردهم بالقتال فيما بينهم، وتطويرا لهذا الاقتراح اقترح عليهم صياغة اتفاق سلام دائم بينهم، فلم يعارض المشايخ(٣٩)، وبالتالي كان من السهل اجتماعهم وهم الذين لم يتقابلوا منذ سنوات وتم التوفيق بين الشيخ سلطان بن صقر والشيخ عبد الله بن راشد، أيضا التقي الشيخ خليفة والشيخ سلطان بن صقر بعد أن عادت المودة بينهما، وهكذا كان خطر نفوذ محمد علي وقائده إبراهيم باشا واحدا من أسباب توحد تلك المشيخات وظهور شخصية مستقلة لكل منها تحت حماية بريطانيا.

وقدأثمرت الاحتجاجات القوية التي كان قنصل بريطانيا في القاهرة بالنتيجة المطلوبة، وجلت قوات محمد علي عن نجد في شهر مايو ١٨٤٠م(٤٠).

النتائج الاقتصادية:

كان لحملات إبراهيم باشا علي الحجاز مجموعة من الآثار الاقتصادية علي المنطقة تحقق الكثير منها عقب عودة إبراهيم باشا إلي القاهرة، وفي أثناء قتاله في اليونان بل وفي أثناء حملاته علي الشام، ولكنها كلها كانت نتيجة لحملاته، وبتوجيه منه عقب تصفية ممتلكات محمد علي في الشام واليونان وعودته لمصر.

أولا: ازدياد الإنفاق علي الجند بشكل أنعش المنطقة:

بالرغم من جهود إبراهيم باشا في محاولة تغطية نفقات جيوشه من الجزيرة وعدم الاعتماد علي الدعم المالي للقاهرة، ومحاولته إعادة تنظيم البلاد بشكل يضمن مزيدا من الإيرادات للإدارة؛ إلا أن الإيرادات لم تتساو مع النفقات، لذلك نجد أنه بالرغم من جمع الزكاة وإعادة تنظيم البلاد بشكل يضمن مزيدا من الإيرادات للإدارة؛ إلا أن العجز في الإيرادات ظل موجودا طوال تواجد جيوش محمد علي بالمنطقة، واضطرت لإنفاق الكثير لضمان استقرارها، فلم تتجاوز الإيرادات ٨,٨% من إجمالي النفقات سنة ١٨٣٩م، إذ بلغ ما دفعته تلك الجهات من زكاة – كانت الزكاة بمثابة الضرائب في رأي الإدارة المالية (٤١) - ما

يساوي ١٢٠١أردب، وهو ما يعني أن إجمالي إنتاجها من الغلال لم يتجاوز كمية تتراوح ما بين ٤٨٠٤٠ إردبا إلي ٩٦٠٨٠ إردبا من الغلال، علي حين بلغ ما اشترته الجيوش ١٣٥٠٢أردبا، أي أن الزكاة لم تمثل سوي ٨,٨% من إجمالي الاحتياجات، وقد قامت الإدارة باستيراد الكميات المتبقية من فارس والكويت والإحساء ومن خلال المواني المطلة علي الخليج العربي(٤٢)، وكان الإردب يساوي مبلغا يتراوح ما بين ستة وسبع فرانسة(٤٣)، أي أن نفقات الجيوش كانت تتراوح ما بين ٨١٠١٢ فرانسة وما بين ٩٤٩٢٨ فرانسة في العام كإنفاق علي التغذية فقط ، وإذا ما كانت الزكاة تساوي مبلغا يتراوح مابين ٧٢٠٦ فرانسة وما بين٨٤٠٧ فرانسة أي أن الإنفاق علي التغذية كان يساوي أكثر من ١١ ضعف الزكاة التي دفعت لها، وتم دفع أسعار تلك الغلال بواسطة خزينة القاهرة(٤٤)، ونظرا لصعوبة جلب الغلال من مصر لبعدها عن الجزيرة كانت الإدراة تشتري الغلال من المنطقة في معظم الأحوال، وهو ما كان يمثل إيرادات جديدة للسكان المحليين، وعبئا علي خزينة مصر، وهو ما سبب الكثير من المشاكل الاقتصادية لمحمد علي باشا(٤٥).

كذلك مثلت نفقات الجنود مصدرا ثانيا للإيرادات الناتجة عن نفقات هؤلاء الجنود في المنطقة، فقد بلغت رواتب الجنود في سنة ١٨٣١م مبلغ ١٣٠٢٠ كيسة(٤٦)، وهو المبلغ المرسل من مصر ولم يدخل فيه من إيرادات الحجاز سوي مبلغ ١٩٠٠ كيسة من نقود الإرث(٤٧)، وهو مبلغ يساوي ١% من إجمالي مرتبات الجنود بالمنطقة، أما في سنة ١٨٣٩م قبيل انسحاب جيوش محمد علي، فكانت مرتبات الجنود المتبقية مبلغ ٤٣٥٠٠٠ قرش(٤٨)، بالإضافة إلي ٣٠٠٠٠٠ قرش صرفت لجنود نجد في نفس الفترة أيضا(٤٩) وهكذا نجد أن هذه النفقات قد مثلت إيرادات جديدة لأهالي المنطقة وهو ما يدل علي التأثير الاقتصادي لتلك الحملات علي إيرادات المنطقة، والتي مثلت ضخا نقديا جديدا لإيرادات السكان.

كذلك وصلت الكثير من النفقات الحكومية بشكل مباشر لأهالي المنطقة، فقد درجت الإدارة المصرية علي شراء الغلال من الأهالي كما أوضحنا، وإلي جوار ذلك استخدمت جمال الأهالي كوسيلة نقل، فقد تعاقد محافظ مكة سنة ١٨٢٣م علي استئجار ٢٠٠٠ جمل من زعماء القبائل لنقل الذخيرة للجيش مقابل ستة ريالات للجمل الواحد (٥٠)، كذلك دأبت الجيوش علي شراء الجمال والهجين في مناسبات متعددة مثلما قام به إبراهيم أفندي مهردار مكة المكرمة سنة ١٨١٤م بتعليمات من محمد علي باشا بشراء الهجين والجمال بمناسبة وصول نجله للحجاز (٥١). كذلك أرسلت الخزينة من القاهرة ١٧٠٠ ريال فرانسة لدفع أجر الجمال التي تنقل المؤن بين مختلف مواقع الجيش سنة ١٨٢٢م، أي أن مقدار الجمال المستأجرة كان ما يزيد عن ٢٨٠٠ جمل، وهو عدد يلزم جمعه من العديد من القبائل والجهات المختلفة سنة١٨٢٢م(٥٢).

وقد واصلت الإدارة الإنفاق علي استئجار الجمال من أهل الجزيرة حين رحيلها، فدفعت مبلغ ٤٩٠٠٠٠ قرش كأجرة لثلاثة آلاف وخمسمائة جمل استخدمتها لنقل الجنود من نجد إلي المدينة المنورة في فبراير ١٨٤٠م عند انسحاب الجيش من الحجاز، وكان إيجار الجمل الواحد قد وصل إلي ١٤٠ قرشا(٥٣)، وإذا كانت هذه هي المبالغ المنفقة عند العودة فلابد أن هناك مبلغ مماثل أو أقل قد أنفق عند الذهاب، بالإضافة لنفقات نقل المؤن وغيره، وهي نفقات كانت تصب كإيرادات مباشرة للسكان في المنطقة.

إلي جوار هذا كانت عطايا وهبات محمد علي من غلال ومؤن للسكان مصدرا للدخل والمساعدة لسكان الجزيرة، وقد لجأ محمد علي لتلك الطريقة ربما كوسيلة استرضاء و لكسب ود السكان من كبار القوم، وهو ما شكل مصدرا للثروة للمنطقة ساعد علي إحداث شكل من أشكال الرواج الاقتصادي بها، فقد صرفت الإدارة مبلغ ١٣٦٠ كيسة لتوزيع الحنطة علي الأهالي سنة ١٨٣٩م(٥٤)، وقد حفلت أوامر محمد علي بالمبالغ المصروفة والكميات

المطلوب إرسالها من مصر إلي الحجاز، وسائر الغلال والأدوات لتوزيعها علي الأهالي.

كذلك كانت مرتبات الموظفين المحليين من أبناء المنطقة والذين عملوا مع إدارة محمد علي، وقد بلغت تلك المبالغ ٢١٠١ كيسة في المدينة المنورة وحدها سنة ١٨٣٩م، وإذا ما وضعنا في الاعتبار ما تنفقه الإدارة في باقي الأماكن لوجدنا أن تلك المبالغ تمثل مصدرا قيما للدخل في المنطقة(٥٥) .

وتشير الوثائق إلي قيام الإدارة بشراء العديد من المنتجات اللازمة من ساحل الخليج عن طريق محمد رفعت الذي قام مثلا سنة ١٨٣٩م بشراء الأرز من الإحسانيين بواسطة التجار الذين كانوا يأتون به من فارس (بر العجم) ويرسله إلي خورشيد(٥٦)، ونظرا لكثرة مشتريات الإدارة من منطقة الخليج اقترح خورشيد شراء سفينة لنقل المؤن من الخليج إلي جدة، لسهولة وصولها إلي جدة بدلا من نقلها برا مسافة طويلة وهو ما يؤكد أن منطقة الخليج كانت القاعدة لتموين الحجاز ونجد، وهو ما أنعش الحركة التجارية في المنطقة(٥٧).

ويلاحظ أن كل النفقات التي كانت تنفقها الجيوش في الحجاز كانت من تدبير محمد علي اعتمادا علي إيرادات مصر، ولكن حين تأزمت العلاقات مع الدولة العثمانية، وبعد معاهدة ١٨٤١م، بدأ محمد علي يخصم نفقاته علي الحجاز من الجزية المقررة للدولة العثمانية، ولم تتم أي مصاريف من علي نفقة خزانة مصر(٥٨).

وقد دأبت الإدارة في مصر علي إرسال النقود للحجاز في صورة فرانسة- ريالات فرنسية- و أذنت للناس بالتعامل بذلك الريال الفرنسي بسعر أحد عشر قرشا(٥٩)، ولعل ذلك يوضح لنا سبب ظهور الريال واستخدامه في أجزاء كبيرة من شبه الجزيرة العربية، لتوافد كميات كبيرة من الريالات الفرنسية إليها في صورة إنفاق للإدارة والجيوش، وهو ما جعل الريال وحدة نقدية متداولة في النصف الأول من القرن التاسع عشر تداولا كان من الصعب إلغاؤه حين ظهرت

العملات الوطنية في المنطقة، في القرن العشرين.

ثانيا: تحسن الأوضاع الاقتصادية في المنطقة:

كان السعوديون حريصين علي تطبيق نظام إسلامي في البلاد التي تتبع نفوذهم، وتمثل ذلك في جمعهم للزكاة من البلاد التي تخضع لهم، فكانوا "يأخذون الزكاة عن الغلال خمسة أرادب عن مائة أردب وخمسة قناطير من التمر عن مائة قنطار وإذا كان في بلدة رجل غني فقد كانوا يطلبون منه زكاة المال ويعبرون عنه بزكاة العروض وذلك الغني يعطيهم ما تسمح به نفسه(٦٠)"، وهو ما يعني أن تلك المبالغ كانت تنتقل من بلادها إلي الدرعية، وبزوال الدولة السعودية وتوقف تلك الجهات عن دفع الزكاة للدرعية فان تلك المبالغ كانت تنفق داخل البلاد نفسها، وهو ما ساعد علي رواج المنطقة أكثر من ذي قبل، وكانت تلك الجهات تدفع للدرعية مبلغا" يبلغ تارة مائة وخمسين ألف فرانسة وتارة مائتي ألف فرانسة" (٦١)، وهو ما يعني أن إجمالي الناتج القومي لمنطقة شرق شبه الجزيرة كان يتراوح ما بين٤٠٠٠٠٠ فرانسة إلي ٨٠٠٠٠٠ فرانسة في السنة، ووفقا لتلك المبالغ فان إنفاق مبلغ يتراوح ما بين ١٠٠٠٠٠الي٢٠٠٠٠٠ فرانسة كان كفيلا بإحداث نوع من التطور في المنطقة، ولعل ذلك ما يبرر التطور الاقتصادي والاجتماعي في المنطقة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

وبقراءة أخري لتأثير تلك المبالغ علي اقتصاديات المنطقة، فقد قبلت أبو ظبي في حادث فريد وكتكتيك استراتيجي دفع الزكاة للوهابيين سنة ١٨٣٣م، وقد بلغت تلك الزكاة ما يساوي ٨٠٠ دولار، قام بجمعها الشيخ شخبوط في أعقاب وفاة الشيخ طحنون(٦٢)، وقام بتسليمها لعمر بن حفيصان المندوب السعودي، وذلك لاستخدام السعوديين ضد القواسم، ويدل هذا المبلغ علي مقدار المبالغ التي كانت أبو ظبي ستلتزم بدفعها للسعوديين لو قبلت الخضوع لهم، حيث رفضت أبو ظبي دفع أي زكاة طوال التوسع السعودي وحافظوا علي استقلالهم، وبقاء تلك

الأموال في أبو ظبي تعطينا مؤشرا حول أهمية تلك المبالغ للتطور الكبير الذي أحرزته أبو ظبي في القرن التاسع عشر، فلو واصل السعوديون تقدمهم في المنطقة وهو ما أوقفه إبراهيم باشا في بداية القرن لكانت أبو ظبي قد دفعت ٨٠٠٠٠٠٠ دولار للسعوديين، وهو ما كان ليعيق تراكم رأس المال في أبو ظبي(٦٣).

وقد عابت الإدارة العثمانية علي السعوديين إسرافهم في جمع الأموال، فوصف خورشيد سياستهم بقوله: "فان أهالي نجد شرعوا يأخذون ملابسهم"، ربما بهدف تشويه السعوديين أو تبرير نقص الإيرادات وعدم كفايتها، ولكن مما لاشك فيه أن تحصيل مبالغ من هذه الإمارات كان بمثابة استنزاف لمواردها، وبقاء هذه الأموال هو تركيز للثروة بها.

كذلك حاول الموظفون العثمانيون أيضا تحصيل الزكاة كما لو كانت وسيلة لإثبات السيادة، أو وسيلة لتمويل الإدارة، فقد اتفق محمد رفعت ممثل خورشيد باشا مع شيخ البحرين علي دفع ٣٠٠٠ ريال فرانسة زكاة سنويا علي أن تبق البحرين تحت إدارته في ١٨٣٩م(٦٤)، وهو مبلغ يماثل ما كان يدفعه للسعوديين، ورغم أن هذا الاتفاق لم يوضع موضع التنفيذ بسبب المقاومة والرفض البريطاني له، إلا أنه يوضح لنا مقدار المبالغ التي بقيت في البحرين نتيجة لزوال النفوذ السعودي والعثماني، وهو ما يبرر لنا تطور إمارات الخليج في النصف الثاني من القرن التاسع عشر لتركز ثروتها بها وعدم انتقالها لحاضرة أخري.

ثالثا: التنظيم الإداري:

عقب عودة إبراهيم باشا إلي مصر في ديسمبر سنة ١٨١٩م عين محمد علي حاكما عاما علي الحجاز كان يحمل لقب حاكم عام الحجاز إلي جوار شغله لمنصب محافظ مكة(٦٥)، وكانت بيده السلطتان العسكرية والمدنية فهو سر عسكر الحجاز والحامل لرتبة المير ميران، لذلك كان يختار دائما ممن يثق فيهم،

مثل خليل باشا، ومن بعد وفاته أخيه أحمد باشا يكن سنة ١٨٢٠م، وكانا من أبناء أخي محمد علي من العائلة اليكنية الشهيرة (٦٦)، وكان هؤلاء يتبعون تعليمات محمد علي كما نفذها إبراهيم باشا الذي ظل محمد علي يضرب به المثل في كل مناسبة لهؤلاء المحافظين حتى يمكن لهذا الحكم أن يسمي بأسلوب إبراهيم باشا في الحكم.

اتسم الحكم العثماني بالقسوة البالغة، ولعل ذلك يرجع إلي تعليمات محمد علي لممثليه، فهو الذي يأمر ممثليه بالقسوة والعنف ففي رسالة له لمحافظ مكة يشير عليه بضرورة العنف مع موظفيه "فورب البيت لا أعير ما سبق من خدماتهما اهتماما بل أشنقهما شنقا"(٦٧)، وهكذا كان طابع الإدارة هو الشنق كعقوبة علي أتفه الأخطاء، ويضرب المثل بتصرفات إبراهيم باشا، الذي كان يحصل علي ما يريد بالقوة دون شفقة أو رحمة، وتتضح قسوة إبراهيم باشا في هدمه للدرعية، و هو ما يبرر تباعد العديد من القوي الوطنية عنه، فمثلا فضل الحاكم السعودي للإحساء تركها إلي البحرين في أعقاب دخول الجيش العثماني، كم كان رفض حكام أبو ظبي الدخول في علاقات معهم لمقتهم لذلك العنف وتلك السياسة(٦٨)، بل أن حاكم البحرين بعد ذلك بمدة قارن بين محمد علي والبريطانيين فقال: "اما العجم فانهم أرادو، أن أكون من تبعيتهم، وكاتبوني، وأنا في السابق، كنت متوقف معكم خوفا منكم، لاننا قد سمعنا عنكم انكم تفعلوا بالرعايا امورا عظيمة وحيث من مدة توجهك من عندنا سابق، لغاية تاريخه، صرنا نبحث عن أفعالكم مع غيرنا فلم نري أنه وقع مما يذكروه الناس شيئا وحينئذ قد تركت الخوف منكم وبهذا السبب لما حصل بيني وبين العجم إتفاق، ولا اعطيتهم جواب" (٦٩)، من هذا الرد يتضح لنا إدراك شيخ البحرين للصورة التي اكتسبوها أثناء حملات إبراهيم باشا والتي ظلت معروفة بعدها بعشرين عاما.

ورغم عدم تفضيل أهل البحرين للفرس والبريطانيين و ما يتضح من قول

شيخ البحرين: "وأما الإنجليز ،فانهم لما علموا، انكم تريدونا، نتبعكم فصار منهم، ما صار، من تعدد جواباتهم الينا، وترددهم لطرفنا، وفي كلامهم الاشارة، بانهم يريدونا، ننتسب اليهم، ولكن علمنا أنهم لا يحمونا منكم، وبسبب معاملتكم لغيرنا، بالانصاف، رأينا أن تبعيتنا لكم مأمونة العاقبة، ولا سيما أن اعجم علي مذهب الروافض، والانكليز علي غير الملة الإسلامية"(٧٠)، وهكذا رغم توافر عناصر التقارب بين الإدارة العثمانية والعربية إلا أن العائق بينهم تمثل دائما في ذلك العنف، وربما تكون بعض الإدارات قد أدركت أثر ذلك؛ فحثت الموظفين علي حسن معاملة القبائل، والاعتدال في معاملة الأهالي وتوزيع الغلال كوسيلة للتقرب إليهم(٧١).

رابعا: تنظيم الإيرادات:

قام خورشيد باشا بانتداب لجنة من الخبراء برئاسة محمد أفندي الغريزوني الكاتب بالخزينة لتنظيم الدوائر الحكومية وسن الضرائب وترتيب طرق الجباية التي لم تكن معروفة من قبل في هذه المنطقة(٧٢)، وقد واصل الديوان الخديوي إرسال الإداريين إلي شبه الجزيرة العربية، مثل الشيخ حسن سرور وآخرين سنة ١٨٣٠م بناء علي طلب عابدين بك(٧٣)، ولم يقتصر الأمر علي المحاسبين ولكن تم إرسال مترجمين للترجمة من التركية للعربية مثل علي أفندي الترجمان الذي أرسل إلي الجزيرة العربية في نفس العام(٧٤).

وقد قام الديوان الخديوي بتشكيل لجان للتحقيق في التجاوزات الإدارية العثمانية في الحجاز حين تصل شكاوى أهل الحجاز للقاهرة، مثال ذلك تعيين طلعت أفندي مأمورا للتحقيق في الظلم والغدر الواقع علي أهالي المدينة المنورة من رجال حاشية أوزون علي أغا(٧٥)، وهي المرة الأولي التي يجد الأهالي وسيلة في التحقيق في ظلم وقع عليهم كالدول الحديثة.

وقد كان محمد علي حريصا علي الإطلاع علي صور دفاتر خزينة مكة المكرمة التي كان يرسلها إليه خورشيد باشا، والتي كانت تضم كافة نفقات

الحجاز(٧٦)، وكان المجلس العالي بالقاهرة يتابع الإجراءات الإدارية بالحجاز ويصدر الأوامر المتعلقة بالتنظيم، فحين أراد المحاسبون ترتيب دفاتر الحسابات بالسنة الميلادية رفض المجلس العالي ذلك سنة ١٨٣٠م (٧٧)، وطلب الإبقاء عليها هجريا كما هي لعدم ضياع الوقت في تبديلها، و أمد المجلس الإدارة المالية بأحدث النظم المالية(٧٨).

وقد كانت هناك مشكلة دائمة تواجه الإدارة المصرية، وهي ضرورة ضبط الإيرادات والمصروفات لتحديد احتياجات الإدارة المصرية وجلبها من مصر، لذلك طلب خورشيد باشا"الكتبة من مصر خصيصا كتابا لهذه المسائل واقمنا عليهم مباشرا فيقيد الخراج الذي يؤخذ من البدو ومن الغلال والتمر الناتجة وما يؤخذ من أهل نجد في دفاتر الحسابات ثم يقدم شهرا فشهرا حيث يعلم مقدار الايراد"(٧٩)، وبهذا تشهد المنطقة للمرة الأولي شكلا من أشكال التقييد الحقيقي للايرادات، وشكلا من أشكال التنظيم للضرائب، ليس حرصا علي المنطقة ولكن لسهولة تحديد احتياجات الجيش.

وقد شهدت المنطقة للمرة الأولي نظاما للتفتيش الإداري والمالي الدقيق علي الموظفين العثمانيين من قبل الإدارة في مصر، وذلك بهدف ضبط مصروفات الحجاز التي كانت تكبد الخزانة الكثير، ومن أمثلة دقة التفتيش ما أشار إليه يعقوب أفندي المحاسب في أحد تقاريره بأن الزبير أغا أحد قادة الجند، كان يأخذ راتبا له ولأربعة رجال، كان يدعي أنهم في حاشيته بينما لم يكن هناك سوي رجلين فقط (٨٠).

ولم يقتصر الأمر علي التفتيش المالي والإداري ولكنه أشتمل أيضا علي التفتيش العسكري، حيث كان التفتيش يتم علي الجنود والأسلحة، وعندما وجد خورشيد باشا أن تكاسلا وإهمالا من جنود المدفعية، بسبب عدم التفتيش عليهم كما ينبغي، طلب تغيير وتبديل جنود المدفعية الأتراك، لأنهم لم يتغيروا من مدة، وقد كبر في السن مجموعة كبيرة منهم، طالبا إحلال جند أفضل منهم(٨١).

ولعل دقة التفتيش والمتابعة من خورشيد باشا للجيوش العثمانية هي التي أدت إلي اندلاع ثورة الجند الأتراك ضده، والمعروفة بثورة تركجة بلمز(٨٢)، وهو ما دفع محمد علي لاستدعاء خورشيد للحضور للقاهرة للتحقيق(٨٣)، وتلا ذلك تعيين أحمد باشا يكن محافظا لمكة، علي أن يعمل علي استتباب الأمن والسكينة(٨٤)، وتم تزويده بالشيلان والمعاطف من خزينة الأمتعة كي يكسو بها من يشاء حسب اللزوم(٨٥)، وذلك تمهيدا لإعادة الجنود من الحجاز مع الاكتفاء بآلاي واحد بعد عودة الهدوء(٨٦).

وقد فهم الإداريون العثمانيون القادمون من ولاية مصر طبيعة المجتمع البدوي فليس من السهل التعامل معهم ولا الوصول إلي ما لا يريدونه وهو ما عبر عنه خورشيد باشا بقوله"معني نجد قوة البدوي وقدرته " وحسب وصفه لطبيعتهم"أنهم يعطون المقدار الذي يريدونه وما لا يريدونه يرفضونه قائلين: لا يكون هذا وهذا هو جوابهم الشافي"(٨٧)، وهكذا لم تكن الإدارة لتستطيع أن تفعل شيئا عكس إرادة الأهالي.

وقد أرسل خورشيد باشا محمد أفندي رفعت للإحساء وسواحل الخليج في محاولة منه لتنظيمها إداريا، ولكن الوقت لم يسعفه إذ سرعان ما اغتيل، وانسحبت القوات المصرية من الإحساء وسواحل الخليج عائدة إلي مصر(٨٨).

النتائج الاجتماعية:

إعادة هيكلة المنطقة سكانيا:

حدث تغير في التراكيب السكانية للمنطقة فعند فتح إبراهيم باشا للدرعية وتدميره لها هاجر السكان من المنطقة إلي البحرين التي أصبحت مركزا للفارين من الحكم المصري(٨٩)، وهكذا أدت تلك الحملات إلي تغيير في البنية السكانية للمنطقة، حيث أدت المعارك الحربية المتكررة إلي تكرار هجرة القبائل والأسر من مكان إلي آخر، فقد شهد تخريب الدرعية ضرورة خروج سكانها، وهكذا كان أكبر الآثار الاجتماعية لتلك الحملات متمثلا في هجرة العديد من القبائل من

أماكنها، بل أن بعض المشايخ كان ينوي الهجرة من مناطق استقرارهم إذا ما تقدمت القوات العثمانية إلي مناطقهم كما سبقت الإشارة.

وقد وصف محمد رفعت في تقريره لمحمد علي عن البحرين كيف هاجر السكان من الإحساء حين دخلها إلي البحرين، وكيف إنقطعت سفن البحرين عن ميناء القطيف، ولم تكن تدخلها إلا خفية، وكلها صور لمقاومة الجيوش العثمانية، كما شاهد العديد من أهالي نجد المهاجرين إلي البحرين لعدم التداخل مع جيوش إبراهيم باشا(٩٠)، ويلاحظ أن العرب لم يعاونوا جنوش إبراهيم باشا حتى أنهم كانوا يضللونه فيما يختص بالقتلي، فبعد أن يخبروه أن الجثة لشخص ما، يجده حيا في موقع آخر، فإذا استفسروا تكون الإجابة أن الشبه بينهما كبير(٩١).

ظهور أفكار جديدة

وقد شهدت تلك الفترة أيضا ظهور أول حركة تكفير بالمنطقة، حيث أفتي أحد الشيوخ –مطوع- وهو سليمان وهيبي بتكفير الجنود العثمانيين المشاركين في الحملات، كما شهدت أيضا ظهور الجماعات الفدائية– الفداوية- والتي قادها سليمان بن وهيب لمقاومة الجيوش العثمانية، واتخذت مركزا لها بالبحرين، وكان تعدادهم يتراوح ما بين ثلاثمائة إلي أربعمائة فدائي(٩٢).

وقد قام إبراهيم باشا بأول تعداد للسكان في المنطقة، مثال ذلك تعداد مكة المكرمة سنة ١٨١٩م(٩٣)، وحين درست الإدارة بمصر الإحصاء أعادته مرة ثانية لمكة، حيث كلف خليل باشا بتعداد الأهالي مرة ثانية؛ حيث أن التعداد الأول قد أجري أثناء موسم الحج(٩٤) حيث تتغير التركيبة السكانية في المنطقة، وهو ما يبين دقة الإدارة العثمانية في مصر تحت حكم محمد علي.

ترميم المساجد والأماكن الدينية:

أراد محمد علي الظهور بمظهر المدافع عن الدين والأماكن المقدسة لذلك أرسل أربعة من فقهاء المذاهب الأربعة مع الحملة الأولي(٩٥)، واستمرارا في نفس الدور أراد أيضا أن يلعب دور المحافظ علي الأماكن الدينية(٩٦) التي لم

تكـن موضـع اهتمـام السـعوديين مثـل موضـع ولادة الرسـول، فقـام بتـزيين شبابيكه(٩٧)، وانتدب لذلك اثنين من المعماريين هما اسحق أفندي و علـي عبد الرحيم أفندي،سنة ١٨١٩م، ثم جهز الفنيين بـالأدوات اللازمـة لصـيانة المسـجد الحرام والمسجد النبوي بعد ذلك بموافقة الصدر الأعظم(٩٨).

لم تقتصر عمليات الترميم علي ترميم الأمـاكن المقدسـة ولكنـه تجاوزها إلـي ترميم قباب الصحابة أيضا(٩٩)، وهو مـا يخـالف قواعد المذهب الوهـابي، ربمـا في محاولة منه لاسترضاء الاتجاهات المعارضة للفكر الوهابي.

الخاتمة:

بالرغم من قصر المدة التي قضاها إبراهيم باشا في شبه الجزيرة العربيـة إلا أنها تركت أثرا كبيرا علي شرق شبه الجزيرة، فقد قضـي علـي الدولـة السـعودية الأولي؛ فساعد علي استقرار شرق الجزيرة ونمو إماراته المختلفة، ووفر لهـا جوا من الحماية، ساعد علي نمو تلك المنطقة، كما أدي إلـي إسراع بريطانيـا بالـدخول إلي المنطقة وعقد حمايتها علـي إمـارات المنطقـة، وهـو مـا أدي إلـي الحفـاظ علـي الهويـة المحليـة لتلـك الإمـارات، وسـاعد علـي نضـجها سياسـيا وفقـا للتطـورات الداخلية بها، وليس وفقا لتغيرات بالقوة تأتي من الخارج.

ومن ناحية أخري كان دخول الجيوش العثمانية للمنطقة بقيادة إبراهيم باشـا دافعـا لبريطـانيـا للـدخول إلـي المنطقـة بكـل ثقلهـا، لمحاولـة احتوائهـا مـن الهيمنـة العثمانيـة، وحاولـت فـي البدايـة تحويـل إبـراهيم باشـا لتـابع لهـا، لضـرب القـوي المحلية بالمنطقة، وكحليف يحصل علي رأس الخيمة مقابل خدماته، ولكن رفض إبـراهيم باشـا هذا التعـاون هو مـا دفعهـا لمحاولـة فـض خلافـات مشـايخ المنطقـة وتنظـيم القـوي المحليـة لتتصـدي لـه، وربطهـا بشـكل مـن أشـكال الاتفاقـات التـي تمكنها من التصدي لإبراهيم باشا؛ إذا ما حاول ضم المنطقة للدولـة العثمانيـة التـي كان يعمل تحت لوائها، أو حتى تكوين دولة له فيها، وهو ما شكل تـاريخ المنطقـة بعد ذلك، حيث حصلت القوي المحلية بالمنطقة علي فرصة مناسبة للنمو أدي إلي

تشكلها الحديث.

وعلي صعيد آخر جاءت الجيوش العثمانية لتوفر علي كافة الإمارات والقوي المحلية دفع الزكاة خارج حدودها، وهو ما ساعد علي استقرار الثروة وفيها، وعدم انتقال رأس المال المحلي خارج دائرتها وتتفق الكثير فيها و نتج عن ذلك ازدهار شرق الجزيرة بكل إماراته، كما أن مجئ الإدارة العثمانية بالجيوش إلي المنطقة حتم عليها إعالتها، ومثلت مشتريات تلك القوات من منطقة الخليج سواء من خلال التجار أو من الإنتاج المحلي الذي كان بسيطا لتحدث شكلا من أشكال الرواج لتضيف إلي عناصر الثروة بها، وهو ما أعطي دفعة اقتصادية أخري لاقتصاديات المنطقة ساعدت علي ازدهارها في النصف الأول من القرن التاسع عشر.

الملاحق

ملحق رقم (١)

رسالة حاكم الهند لمحمد لإبراهيم باشا سنة ١٨١٩ م

المصدر: محافظ بر بحر، محفظة رقم٧، دار الوثائق القومية المصرية، القاهرة.

ملحق رقم (٢)

١/٢٠٩

ترجمة مكاتبة واردة من السيد علي باشا (الصدر الأعظم) بتاريخ ١٦ جمادي الاخره سنة ١٢٣٥هـ محفوظة في المحفظة نمرة ٧ تحت نمرة مسلسلة ٢٠٩ من محفوظات المعية السنية

حضرة صاحب السعادة والمكرمة والمودة اخي العزيز:

سبق أن أفاد للباب العالي ترجمان انجلترا المقيم في الآستانة مأذونا من طرف سفير انجلترا أن جنرال انجلترا الموجود في جهة الهند قد عقد النية علي ترتيب عدة سفن حربية وتسييرها من جانب بمباي ومعها مقدار ما يكفي من العساكر البرية بالمخابرة مع العساكر الذين هم تحت ادارة نجلكم حضرة صاحب السعادة ابراهيم باشا والي جدة بقصد ادخال اهالي المحلات الواقعة في الجهات الشرقية من اقليم اليمن وان الجنرال السالف الذكر قد بين الكيفية لنجلكم المشار اليه بمعرفة ضابط(اوفجيال) و حرر لصوب سعادتكم من طرف سلف مخلصكم تفصيل الوصايا اللازم اجراؤها في هذا الشأن. وقد حرر في قائمتكم الواردة في هذه المرة ومكاتبتكم المرسلة أنه سبق ارسال الجواب اللازم عن التحرير السالف ذكره وان الجنرال الانجليزى الموجود في جهة الهند كان أرسل سنة خمسة وعشرين(ومائتين وألف عدة سفن وسيرها علي أهالي القواسم(هكذا في الأصل) وكانت الغلبة في جانب الاهالي المذكورين في المحاربة التي جرت بينهم وبين الانجليز ثم رتب الجنرال المذكور عساكر من طرف الهند وارسلهم تكرارا عليهم

٢/٢٠٩

و اتفق العساكر وسفائن الأسطول التي أرسلها مع امام مسقط فدهموا الاهالي المذكورين وتغلبوا عليهم واحتلوا مواقعهم وانه وان سبق ارسال مكاتبة من طرف سعادتكم الي امام مسقط المومي اليه لاجل أن لا يرغب في الاتفاق مع الانجليز لكن لم لم يرد لحد الآن جواب منه عن تلك المكاتبة وذكرتم في قائمتكم

المذكورة مطالعات سعادتكم وملاحظاتكم . وهذا الجنرال المدو البركير قد ورد الي حوالي مسقط ومعه سفن انجليزية وحاصر قلعة رأس الخيمة التي هي مسكن قراصنة زاكيم (هكذا) ومجمعهم واستولي عليها وكان شيخ زاكيم فر في أول الأمر لكنه عاد ورجع الي الجنرال المذكور واقام الجنرال مقدرا من العساكر في البلدة المذكورة ثم أخذ يدور ويطوف ويتجول في سواحل بلاد العرب حتي استقر في جزيرة البحرين ومن هناك يقصد نحو القطيف الذي سبق ضبطه من قبل عساكر سعادتكم كما ذكر في ورق حوادث قدمه سفير فرانسه بالآستانة وقد وردت تحريرات تتعلق بالحوادث المذكورة من حضرة صاحب السعادة داواد باشا والي بغداد ايضا وحيث لم يرد لحد الآن جواب سعادتكم المتعلق بذلك الذي أشرتم اليه اولا قد سلمت لعبدكم نجيب افندي كتخداكم خلاصة تحريرات والي بغداد مع صورة ترجمة ورق الحوادث الماربيانه

٣/٢٠٩

المقدم من طرف سفير فرانسه لاجل الاستعلام عما عندكم من المعلومات في هذا الشأن، وعقب ذلك ورد جوابكم المشيرى الي المحرر في المرة الأولي المفيد أن ابراهيم باشا المشار اليه حينما كان في الدرعية أتي اليه ضابط من طرف الجنرال المذكور و أفاد عن ترتيب مقدار من العساكر من قبل الجنرال المذكور لاجل ادخال اهالي القواسم (هكذا في الاصل) تحت النظام ومنعهم من التعديات التي تجري منهم نحو سفن الانجليز في تلك الجهات والتماسه موافقة عساكر المشار اليه علي ذلك علي افاده المشار اليه لصوب سعادتكم وانكم حررتم الي نجلكم المشار اليه أن يرد هذا الطلب بحكمة وتلطف حتي رد نجلكم المشار اليه هذا الطلب و أعاد الضابط المذكور بطريقة حكيمة متعللا بانه قد وعد له ولعساكره بالاستراحة بعد فتح الدرعية ازالة للاتعاب اللاحقة بالعساكر الذين هم بمعيته و انه ارسل لصوب سعادتكم خطاب الجنرال المذكور اليه

المحرر بالاملاء الفارسي فارسل الينا وقد عرضنا جميع تلك المحررات للاعتاب السلطانية فأصبحت مشمولة بانظار حضرة السلطان.

فعلي ذلك نفيدكم أن من المبرهن عند ذاتكم الآصفية أن اقوال الدول الافرنجية و أفعالهم في كل وقت انما تدور حول أرباحهم وتجري وراء ترويج آمالهم فلا يجوز ائتمانهم في زمن من الازمان فمن لوازم حكمة الحكومة عدم الانخداع بامثال هذه الحيل التي تأتي من طرف انجلترا

٤/٢٠٩

وعدم التغافل عن اعمالهم المنطوية علي الخداع وليس قصد الانجليز من ذلك غير ايجاد ذريعة لمد يد التسلط الي تلك الجهات كما سبق اشعار ذلك لصوب سعادتكم من طرف سلف مخلصكم، ويستفاد من مطالعة خلاصة مكاتبة حضرة والي بغداد وصورة ترجمة ورقة الحوادث المار ذكرها المقدمة من طرف سفير فرانسة المرسلتين الي صوب سعادتكم بواسطة كتخداكم بالباب العالي أن مرمي الانجليز ومقصدهم الفاسد هو جعل بعض المحلات في تلك الجهات في قبضة تصرفهم واستقرارهم فيها فجوابكم الواقع للجنرال المذكور في محله تماما لكن حيث لا يبعد من الملاحظة ان الانجليز لا يخلون من المضي علي ابراز مقصدهم الكامن في دماغهم الفاسد من القوة الي الفعل وتكرير الخداع ولو بالمراجعة الي طريقة أخري سيئة فيما اذا لم ينجحوا في ماكرتهم يجب في هذا الوقت كمال التبصر كل حين والاهتمام التام بعدم الغفلة عن دسائسهم والاقدام علي استكمال وسائل عدم تمكنهم من ضبط محل في تلك الجهات وقد جري الامر السلطاني ايضا في هذا المجري فالمطلوب العالي بمقتضي نفاذ نظركم و فطانتكم وكياستكم و تجريبكم عند اطلاعكم علي مقاصدهم الفاسدة من خلاصة التحريرات المار ذكرها و من صورة ترجمة ورقة الحوادث المذكورة ان تكون حركتكم بكل تبصر من غير انخداع بملاعيب الجنرال المذكور اصلا و أن تهتموا بعد تمكنهم من ضبط بعض محلات من تلك الجهات و أن تلاحظوا

هذه الشؤون من اطرافها مع استكمال اسباب المدافعة واستحضارها واشعار الكيفية لهذا الطرف وقد حررت

٥/٢٠٩

قائمة مودتنا هذه لبيان ذلك و ارسلت الي نادي سعادتكم فالمأمول لدي وصولها ان شاء الله تعالي ان تبذلوا الهمة للعمل علي الوجه المحرر

في ١٦ جمادي الثانية ١٢٣٥هـ

الختم

السيد علي

المترجم: محمد اسماعيل- دار المحفوظات العمومية

مصدر الوثيقة:محافظ بر بحر، محفظة ٧، دار الوثائق القومية، القاهرة

ملحق رقم (٣)

تقرير يشمل علي ما هو واقع ومشاهد من الامور والمواد عن جزيرة البحرين

البند الأول

بموجب امر دولتكم اتينا الاحساء واسكنا العساكر المنصورة في قلعة الوادي المذكور وان عمر بن حفيصان حاكم الحسا في عهد فيصل هاجم جيشنا في الزميقه مع عدد عظيم من الرجال وان المشايخ الذين هم مع جيشنا وان كانوا قالوا ان المذكور قتل في الحرب التي وقعت في شهر رمضان وان هذا الرأس رأسه وان الرأس الآخر هو رأس حمد بن غثيان ولكن الواقع ان اللذين قتلاهما المذكورين بل اخواهما وانما اشتبه الأمر علي علي المشايخ للشبه بين المقتولين وبين ذنيك الذين لم يقتلا ولكن الذي تحقق ان عمر بن عفيصان رجع الي الحسا منهزما في تلك المحاربة واخراج ما في بيت المال ومتاعه الذي في القلعة شيئا فشيئا وفر قبل وصول العساكر الي الحسا بخمسة عشر يوما وحيث أن حمد بن غثيان قد ركن الي الفرار من بعده نظرا لانه ناظر الايرادات

البند الثاني

وبما انه صدرت لنا الارادة بان ندقق في احوال الموانى الموجودة علي ساحل الاحساء والقطيف و أحوال جزيرة البحرين ثم نعرض نتيجة تدقيقنا فامتثالا للامر نقول اذا نظرنا الي ميناء الاحساء نجده علي بعد مسافة يوم من وادي الاحساء والمرفأ اسمه العفير (العقير) علي ساحل البحر وانه لا يوجد في ذلك الميناء لا بلد ولا ماء وانما يوجد علي بعد مسافة ساعة في الرمال ماء للشرب وانه ليس لاهل الاحساء سفن اصلا لا كبيرة ولا صغيرة وبعد هذه المشاهدة ذهبنا الي القطيف فوجدنا ان ذلك الوادي علي مسافة يومين من جهة شمال الاحساء وانه وان كان علي ساحل البحر ولكن مياه مينائه لا تستقر علي حالة واحدة بل تارة تقل وتارة تكثر وحيث أنه ليس فيه قرصنة(فرصة) موافقة لدخول السفن فان لاهل القطيف بضعة قوارب لصيد السمك ليست بالكبيرة وبسبب هذا الحال فان ميناء المراكب التي تغدو وتروح من نواحي الهند وعمان والعراق و اليها انما هو جزيرة البحرين والسفن التي تأتي الي ذلك الوادي (وادي القطيف) عند اللازوم انما هي سفن جزيرة البحرين ومراكب الجهات المذكورة لا تتجاوز ميناء البحرين ولا تتعداها بحسب العادة المتبعة ولذلك اعتبرت جزيرة البحرين ميناء للاحساء والقطيف

البند الثالث

وبحسب ما قلنا في البند الثاني ان جزيرة البحرين هي ميناء الاحساء والقطيف فقد كانت مراكبها تأتي لتلك الجهتين من قبل ولكن بعد مجيئي انا والعسكر الي هذا الطرف لم يعد يأتي لا سفن ولا رجال نعم انه تأتي بعض المراكب خفية ولكن تأتي تحت قلعة الدمام التي هي علي بعد ثلاث ساعات من جانب القطيف الايمن والتي هيَ في يد مبارك ابن عبد الله امير البحرين عبد الله ابن احمد وتأخذ الناس الذين يفرون من الاحساء والقطيف الذين دخلا تحت حكومة ولي النعم وتذهب بهم وشاهدنا ذلك ثم اننا فحصنا وتتبعنا احوال جزيرة

البحرين في أيام فيصل ووالده تركي وفي عهد عبد الله ابن سعود من قبلهما فوجدناها كانت في حكم آل سعود مثلما كانت القطيف والاحساء في حكمهم وكانت تابعة لحكومة نجد على الدوام وتحت امرة فيصل بن تركي وبسبب الجرم الذي اجترمه عبد الله بن احمد شيخ البحرين والحالة هذه فقد بقي مسجونا ثمانية أشهر عند سعود كما علمنا هذا من الشائعات المستفيضة وقد ذهبت في غرة شهر ذي الحجة هذا الذي نحن فيه الي الجزيرة المذكورة بقارب لاتحقق من مقاصدهم واقف علي أحوالهم كما يجب

البند الرابع

ذهبنا لتلك الجزيرة كنا ركبنا الفلك وقت الصبح لكون الريح متوسطا فوصلنا اليها الساعة الثامنة قبل العصر وارسلت خبرا الي عبد الله بن احمد شيخ البحرين المذكور بانني جئت لاتكلم معه فارسل لنا صباح اليوم التالي شخصا من طرفه فاخرجني الي البر واجلت النظر في أحوال اهلها فتبين لي انهم لا يدخلون تحت الطاعة للأسباب التي سأذكرها وعلمت من اطورهم واوضاعهم وطباعهم انهم ممتنعون عن الدخول تحت طاعة أفندينا ولي النعم

البند الخامس

لقد خرجنا في الفلك الي تلك الجزيرة واقمنا فيها سبعة ايام فعلمت علم اليقين انه جاء مندوب من قبل الحكمدار المعين من طرف شاه العجم المقيم في بندر ابوشير الواقف في آخر حدود بلاد العجم والتي تبعد عن البحرين بحرا مسيرة يوم ونصف بالريح المعتدل ومندوب من جهة بغداد يحملون مكاتبات الي عبد الله بن احمد لتحريضه علي عدم الطاعة لحكومة ولي النعم وقد رأينا اولئك الاشخاص بعيني رأسي وسألت عبد الله ابن أحمد وجماعته أولاد بني عتبة اليسوا هم التابعين لحكومة نجد من قبل فاعترفوا بانهم كانوا تابعين لحكومة نجد حيث لا مجال للانكار فينكرون نعم انهم (أي أهل الجزيرة) اقروا في الواقع ونفس الأمر انهم كانوا تابعين لحكم سعود وعبد الله وتركي وفيصل ولكنهم قالوا أن

المذكورين عرب مثلنا ولذلك دخلنا تحت حكمهم ولم ندخل حتي اليوم تحت حكم من لم يكن من العرب بل كنا مستقلين في جهة لم يحكمنا فيها أحد و أن بيننا و بينكم البحر وسفننا حاضرة فاذا هاجمونا ننظر ان كان بنا قدرة علي قتالكم قاتلنكم و الا فان ارض الله واسعة هذا ما أجابونا به (اهل الجزيرة) معلنين الامتناع عن الدخول تحت الطاعة

البند السادس

لقد رايت في جزيرة البحرين من الاشقياء المفسدين الذين كانوا في الاحساء والقطيف ونجد حاكم الاحساء سابقا عمر بن عفيصان وحاكم القطيف محمد بن سيف (الغجاجي) وفهد بن عفيصان الذي قتل رئيس المشاه محمد أغا الكردي و اخاه غدرا ونهب مالهما وغلال الجيش التي كناها امانة في الخرج لما انهزم جيشنا في السنة الماضية وابن عمه عبد العزيز وناظر ايرادات الحسا سابقا حمد بن غثيان وسليمان وهيبي المعبر عنه عندهم بالمطوع (الفقي) الذي كفر عساكر المصرية المظفرة من أمة محمد وشيخ الفداويين سليمان بن هديب وجماعة فيصل الفداوية البالغ عددهم بين ثلاثمية الي ربعماية وهم الذين كانوا فروا قبلا وكل الأشقياء الذين هم من تلك الجهات ولم يقبلوا الدخول تحت الطاعة يتواردون الي الجزيرة لاسيما طوائف البدو الممنوعون من دخول القري الداخلة تحت الطاعة ما لم يقدموا جمال الرحلة وهم قد اعتادوا ان يتجولوا في الصحاري والقفار وانما يعرجون علي القري مرة في السنة لاخذ ما يحتاجون اليه من تمر وطعام ثم يعودون الي اماكنهم فهم والحالة هذه من حيث أنهم منعوا من دخول الاحساء والقطيف كما ذكرناه آنفا فانهم أخذوا يتواردون علي جزيرة البحرين شيئا فشيئا و يأخذون منها ما يحتاجون اليه وان قبائل الهواجر وبني خالد والعمائر والمهاشير و آل صبيح هم في معية مبارك ابن شيخ البحرين عبد الله المقيم في قلعة الدمام فمن اولئك المذكورين من هم مقيمون داخل القلعة ومنهم من هو مقيم في جوارها واننا كنا طلبنا عساف اب شنين الف جمل ووعدنا بها

من مدة مديدة الا اننا رأينا اخاه اخيرا في جزيرة البحرين وعلمنا ان مقصده من مجيئه اليها ان يشتري الطعام اللازم وانه في غني عن ان يأتي لنجد والاحساء والقطيف حتي لا يعطي الجمال المطلوبة وان هذه الجزيرة اذا لم تدخل تحت طاعة الحكومة فان تلك المضرات المذكورة لا تنقص بل تاخذ بالازدياد

البند السابع

ان جزيرة البحرين هي في وسط البحر طولها مسافة يوم وعرضها مسافة اربع ساعات وثلثاها خراب لانها ليس فيها ماء وفي ثلثها الثالث مياه جارية ويحتوي هذا الثلث علي أكثر من ثلاثين قرية نعم انه لا زراعة فيها ولكن النخل فيها لكثر مما هو في القطيف وجميع مراكبها صغيرة والكبيرة تروح وتغدو ما بينها وبين نواحي البصرة والهند وعمان وان ادخالها تحت طاعة الحكومة موجب لدفع تلك المضرات الحاصلة فيها وفضلا عن ذلك فانه يكون سببا لحصول الحركة في ميناء الاحساء والقطيف والترويج بعض المنافع الاميريه لادارة امور العساكر الموجودة في فيلق نجد هذا ماتراه في ادخالها تحت حكومة ولي النعم

سيدي صاحب المرحمة وولي نعمتي من غير منة علي
بموجب ارادة ولي النعم نظرت في أحوال ميناني الاحساء والقطيف وذهبت ايضا حسب الاقتضا الي جزيرة البحرين وعدت منها في اليوم الثامن من شهر ذي الحجة الجاري الي القطيف وقد سطرت في هذا التقرير هذه البنود السبعة عما يتعلق بالجزيرة وغيرها وها أنا أعرضه ليحيط حضرة ولي النعم بما اشتملت عليه

من القطيف
٩ ذي الحجة ١٢٥٤هـ

معاون دولتكم
عبدكم
محمد رفعت
ختم

مصدر الوثيقة: محفظة ٢٦٧ عابدين
محفظة ١٠٢ أبحاث (الحجاز)، دار الوثائق القومية، القاهرة.

الهوامش

(١) – جورج يانج، تاريخ مصر من عهد المماليك إلي نهاية حكم إسماعيل، تعريب علي أحمد شكري، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٠، ص ١١٢.
(٢) – عمر السكندري وسليم حسن، تاريخ مصر من الفتح العثماني إلي قبيل الوقت الحاضر، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٠م، ص٢٠٧.
(٣) – د. محمد عرابي نخلة، تاريخ الإحساء السياسي ١٨١٨- ١٩١٣، دار السلاسل ، الكويت ،١٩٨٠، ص٣٧.
(٤) – رسالة من إبراهيم باشا والي جدة لخورشيد باشا،١٦ محرم سنة ١٢٥٥هـ/ الموافق١١/٤/١٨٣٩، المعية السنية، س١/١/١٨، دار الوثائق القومية، القاهرة.
- رسالة من إبراهيم باشا سر عسكر لخورشيد باشا، ٢٥ رمضان سنة ١٢٥٥هـ/ الموافق٢/١١/١٨٣٩م، المعية السنية، س١/٤/١، دار الوثائق القومية، القاهرة.
(٥) – من إبراهيم باشا إلي محمد علي باشا،٢٩ رمضان ١٢٥٥هـ/ الموافق ٧/١١/١٨٣٩م، محافظ عابدين، محفظة ٢٥٨، وثيقة ١٩٢، دار الوثائق القومية، القاهرة.
(٦)_د. محمد عرابي نخلة، نفس المصدر، ص٧٥.
(٧)_ رسالة من محمد علي باشا للصدر الأعظم، المعية السنية، س١/١٣/١٠، وثيقة ٤٩، في ٩ شوال سنة ١٢٣٤هـ/ الموافق ١/٨/١٨١٩م، دار الوثائق القومية، القاهرة.
(٨)_ رسالة من محمود درويش باشا الصدر الأعظم إلي الجناب العالي في ٢٢ شوال سنة ١٢٣٤هـ/ الموافق ١٤/٨/١٨١٩م، محفظة ٦ بحر بر، وثيقة ١٠٣، دار الوثائق القومية، القاهرة.
(٩)_ رسالة من محمد علي باشا للصدر الأعظم، ٥ربيع آخر١٢٣٥هـ/ الموافق ٢١/١/١٨٢٠، المعية السنية، س١/٢/١٢٥، دار الوثائق القومية، القاهرة.
(١٠)_ د. يحيي محمد محمود، إدارة الأزمات في عهد محمد علي باشا، منشور في: إصلاح أم تحديث ، ١٥٠ سنة علي عصر محمد علي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ، ٢٠٠٢م.
(١١) – د.فانق حمدي طهبوب، تاريخ البحرين السياسي ١٧٨٣-١٨٧٠م، ذات السلاسل الكويت،١٩٨٣، ص٧٦.
(١٢) – د. فؤاد سعيد العابد، سياسة بريطانيا في الخليج العربي خلال النصف الأول من القرن العشرين، ذات السلاسل ،الكويت،١٩٨١، ص١٢٠.
(١٣) – رسالة من محمد علي باشا إلي نجيب أفندي، المعية السنية، س١/٢/٨٥، وثيقة ٩٢، ٥ربيع آخر سنة ١٢٣٥هـ/ الموافق ٢١/١/١٨٢٠م، دار الوثائق القومية، القاهرة.
(١٤) – Sadlier ,Dairy of a journey across Arabia,Bomby,1866
(١٥) – استخدمت الوثائق البريطانية مصطلح الحملة الصليبية في الحديث عن حملة ١٨٢٠م علي رأس الخيمة أنظر: Islands and Martime Boundaries of the Golf,volume1,1798-1835,Arachive Edition,1990,p279.
(١٦) – Ibid
(١٧) – أنظر الملحق رقم (١).
(١٨) – من محمد علي لنجيب أفندي، المعية السنية، س١/٢/٦٤، وثيقة ٩٢، ٥ ربيع آخر ١٢٣٥هـ/ الموافق ٢١/١/١٨٢٠م، دار الوثائق القومية، القاهرة.
(١٩) – أنظر: الملحق رقم (٢) متضمنا رد الصدر الأعظم.
(٢٠) _ ibid, p286.

(٢١) – د. محمد عرابي نخلة، تاريخ الإحساء السياسي ١٨١٨- ١٩١٣، دار السلاسل، الكويت، ١٩٨٠، ص٣٧.
(٢٢) – Ibid,p279.
(٢٣) – محافظ ملخصات الأوامر محفظة رقم ٢، دار الوثائق القومية، القاهرة.
(٢٤) – IOR/SEC/BOM/45
(٢٥) – د. محمد مرسي عبد الله بريطانيا والإمارات ١٧٩٧-١٩٦٠، المجلد الأول بريطانيا، مركز لندن للدراسات العربية، ديسمبر ١٩٩٦، ص٩٨.
(٢٦) – ملحق رقم (٣)
(٢٧) – رسالة من محمد أفندي رفعت، إلي عبد الله بن حمد، محفظة ٢٦٧، ١٧محرم ١٢٥٥هـ/الموافق ٢ أبريل ١٨٣٩م، دار الوثائق القومية، القاهرة.
(٢٨) – الملحق رقم (٣)
(٢٩) – نفس المصدر.
(٣٠) – IOR:L/P&S/5/376
(٣١) – IOR:L/P&S/5/376
(٣٢) – IOR:L/P&S/5/376
(٣٣) – IOR:L/P&S/5/376
(٣٤) – IOR:L/P&S/5/376
(٣٥) – IOR:L/P&S/5/376
(٣٦) – IOR:L/P&S/5/376
(٣٧) – IOR:L/P&S/5/376
(٣٨) – IOR:L/P&S/5/376
(٣٩) – IOR:L/P&S//376
(٤٠) – د. محمد مرسي عبد الله، مرجع سابق، ص١٧٥.
(٤١) – الزكاة هي الضرائب في عرف الإدارة العثمانية.
(٤٢) – رسالة من خورشيد باشا للباش معاون الخديوى عن مقدار الغلال المشتراة من نجد والزكاة، ٢٩جمادي الأول ١٢٥٥هـ/الموافق ١٠ أغسطس ١٨٣٩م، وثيقة رقم ١٦٣، محفظة ٢٦٧، محافظ عابدين، دار الوثائق القومية، القاهرة.
(٤٣) – كانت الفرانسة تساوي ١٢ قرشا مصريا سنة ١٨١٨م، وزادت قيمتها إلي ما يقرب من ٢٣ قرشا سنة ١٨٤٤م
أنظر:
رسالة من الجناب العالي إلي مدير المالية، ١١ شعبان ١٢٦٠هـ/الموافق ١٨٤٤/٨/٢٦م، محافظ المالية، محفظة مالية/١، أوامر، وثيقة ١٧١، دار الوثائق القومية، القاهرة.
وكانت قيمتها ١١ قرشا سنة ١٨٢٠م.
أنظر:
من الجناب العالي إلي رستم أفندي أمين جمرك جدة، دفتر ٧ تركي، المعية السنية، وثيقة ٥٦، ٢٥ صفر سنة ١٢٣٦هـ/ الموافق ٢/١٢/ ١٨٢٠م، دار الوثائق القومية، القاهرة.
(٤٤) – كشف عن علوفة العساكر الموجودة في مكة المكرمة وتوابعها بالحجاز لمدة سنة، مؤرخة في ١٠ رمضان ١٢٤٧هـ/الموافق ١٢ فبراير ١٨٣٢م، وثيقة رقم ١٠٩، دفتر ٧٨٠، ديوان خديوي تركي، دار الوثائق القومية، القاهرة.

(٤٥) – د. يحيي محمد محمود، ديوان التجارة والأمور الإفرنجية، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة، العدد١٩٩٨،٣٠٤٣م، ص٤٥.
(٤٦) –الكيسة تساوي ٥٠٠ قرش.
أنظر: هيلين آن ريفلين، الاقتصاد والإدارة في مصر في مستهل القرن التاسع عشر، ترجمة: د. أحمد عبد الرحيم مصطفي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٧م، ص ٣٨٢.
(٤٧) – كشف عن علوفة العساكر الموجودة في مكة المكرمة وتوابعها بالحجاز ملمدة سنة، مؤرخة في ١٠ رمضان ١٢٤٧هـ/الموافق ١٢ فبراير ١٨٣٢م، وثيقة رقم ١٠٩، دفتر ٧٨٠، ديوان خديوي ، دار الوثائق القومية، القاهرة.
(٤٨) – نفس المصدر
(٤٩) – نفس المصدر
(٥٠) – من محمد علي باشا إلي محافظ مكة، ٢٢ ربيع أول سنة ١٢٣٩هـ/ الموافق ١٨٢٣/١١/٢٦م، المعية السنية، س١٤/١/١، وثيقة ٢٦٦، دار الوثائق القومية، القاهرة.
(٥١) – من محمد علي باشا إلي ابراهيم باشا، محفظة١ ذوات، وثيقة ٢١٠، دار الوثائق القومية، القاهرة.
(٥٢) – من المعية السنية إلي ناظر خزينة المدينة المنورة، دفتر ١٠ معية سنية، ص ٢٦، وثيقة ١٥٥، في ٢٩ جماد الأول ١٢٣٧هـ/ الموافق ١٨٢٢/٢/٢١م، دار الوثائق القومية، القاهرة.
(٥٣) – رسالة من محرم بك، محافظ المدينة إلي الباش معاون، رقم ٣٧، محفظة٢٦٩، في ٢٩ حمادي ثاني ١٢٥٦هـ/الموافق ٢٨ أغسطس ١٨٤٠م، دار الوثائق القومية، القاهرة.
(٥٤) – رسالة من محرم بك ، محافظ المدينة إلي الباش معاون، رقم ٣٧،محفظة٢٦٩، في ٢٩ جمادي ثاني ١٢٥٦هـ/الموافق ٢٨ أغسطس ١٨٤٠م، دار الوثائق القومية، القاهرة.
(٥٥) – نفس المصدر.
(٥٦) – رسالة من خورشيد باشا، وثيقة ١،محفظة ٢٦٧، ١٧محرم ١٢٥٥هـ/الموافق ٢ أبريل ١٨٣٩م، دار الوثائق القومية، القاهرة.
(٥٧) - رسالة من خورشيد باشا، وثيقة ١، محفظة ٢٦٧، ١٧محرم ١٢٥٥هـ/الموافق ٢ أبريل ١٨٣٩م، دار الوثائق القومية، القاهرة.
(٥٨) –من الجناب العالي لوكيل المالية، أمر بارسال ٣٠٠٠ كيسة لولاية جدة، محسوبا من ويركو سنة٦١هـ، ٢١ ربيع أول سنة ١٢٦١هـ/ الموافق ١٨٤٥/٣/٣٠م، محفظة٢ مالية، أوامر، وثيقة، ١٤٥، دار الوثائق القومية، القاهرة.
(٥٩) – من الجناب العالي إلي أحمد باشا محافظ مكة، دفتر ٧ معية تركي، وثيقة ٥٧، بشأن اعطاء الرخصة للأهالي بالتعامل بالفرانسة باعتبار سعرها أحد عشر قرشا ونصف، ٢٦ صفر ١٢٣٦هـ/ الموافق ١٨٢٠/١٢/٣، دفتر ٧ معية سنية، وثيقة ٥٧، دار الوثائق القومية، القاهرة.
أنظر أيضاً: أوامر مماثلة في نفس التاريخ لباقي جهات شبه الجزيرة العربية، نفس المصدر.
(٦٠) – تقرير من خورشيد باشا عن إيرادات نجد وأحوالها، وثيقة رقم ١٦٣،محفظة ٢٦٧،٢٩ جماد أول ١٢٥هـ/١٠سبتمبر ١٨٣٩م،دار الوثائق القومية، القاهرة.
(٦١) –نفس المصدر .
(٦٢) – رسالة من خورشيد باشا، وثيقة ١، محفظة ٢٦٧، ١٧محرم ١٢٥٥هـ/الموافق ٢ أبريل ١٨٣٩م، دار الوثائق، القاهرة.
R/15/1/61.fromMoollahHuoussein.Agent at Sharjah,20th April,1833 – (٦٣)

(٦٤) – رسالة من محمد رفعت بشأن اتفاقه مع شيخ البحرين في غاية صفر ١٢٥٥هـ/ مايو ١٨٣٩م، محفظة ٢٦٧، عابدين، دار الوثائق القومية، القاهرة.
(٦٥) – د.عبد الرحيم عبد الرحمن، من وثائق شبه الجزيرة العربية في عصر محمد علي،١٨١٩م-١٨٤٠م، دار المتنبي، الدوحة، ١٩٨٢، ص١٣.
(٦٦) - رسالة من محمد علي للصدر الأعظم، وثيقة ١١٠،دفتر٤،دار الوثائق القومية، القاهرة. الجبرتي،عجائب الآثار في التراجم والأخبار، القاهرة، ١٩٠٤م، ج٤،صص٣٢٩-٣٣٠.
(٦٧) – رسالة من محمد علي إلي أحمد باشا يكن، وثيقة١٨٤، المعية السنية س١/٧/١٧، غرة ربيع الثاني ١٢٣٧هـ/الموافق ٢٦ديسمبر ١٨٢١م، دار الوثائق القومية، القاهرة.
(٦٨) – د. جوينتي مايترا، قصر الحصن، تاريخ حكام أبو ظبي ١٧٩٣-١٩٦٦، ترجمة عفراء الحجي، مركز الوثائق والبحوث، أبو ظبي،٢٠٠١ ، ص٨٤.
(٦٩) – رسالة من حاكم البحرين لخورشيد باشا، محفظة٢٦٧، عابدين، ١٧ محرم ١٢٥٥هـ/الموافق ٢ أبريل ١٨٣٩م، دار الوثائق القومية، القاهرة.
(٧٠) – نفس المصدر.
(٧١) – رسالة من المعية إلي محافظ مكة المكرمة، دفتر ١٠، معية سنية، وثيقة ١٧٢، ١٣ جمادي الثانية ١٢٣٧هـ/ الموافق ١٨٢٢/٣/٧م، دار الوثائق القومية، القاهرة.
(٧٢) – من الخزينة المصرية إلي عابدين بك محافظ المدينة المنورة، دفتر ٧٢٨ ديوان خديوي، وثيقة ١٦٧، ١٧ ربيع أول ١٢٣٥هـ/ الموافق ١٨٢٠/١/٣م، دار الوثائق القومية، القاهرة.
أنظر أيضا: محمد سعيد المسلم، ساحل الذهب الأسود، دراسة تاريخية إنسانية لمنطقة الخليج العربي، الطبعة الثانية، منشورات مكتبة الحياة لبنان، ص٥٧ .
(٧٣) – من الديوان الخديوي إلي عابدين بك محافظ مكة والخزينة الخديوية، دفتر ٧٧٤ ديوان خديوي، ص٨، وثيقة ١٨، ٢٨ جماد ثاني ١٢٤٦هـ/ الموافق ١٨٣٠/١٢/١٤م، دار الوثائق القومية، القاهرة.
(٧٤) – من المجلس العالي إلي الديوان الخديوي ، دفتر ٧٧٣، ديوان خديوي ص٨٧، وثيقة ١٥٨ ، ٨ جماد ص٥٧
(٧٥) – من المجلس العالي إلي الديوان الخديوي، دفتر ٧٧٣ ديوان خديوي، ص٤٩، وثيقة ٨٥، ٢٧ جماد أول سنة ١٢٤٦هـ/ الموافق ١٨٣٠/١١/١١م، دار الوثائق القومية، القاهرة.
(٧٦) – من الجناب العالي إلي حبيب أفندي، المعية السنية، س/١/٣٤/٢، وثيقة٦٩٠، ٢٦ ذي الحجة ١٢٤٧هـ/ الموافق ١٨٣٢/٥/٢٧م، دار الوثائق القومية، القاهرة.
(٧٧) – من المجلس العالي إلي الديوان الخديوي ، دفتر ٧٧٠ ديوان خديوي، وثيقة ٨٥، ٢ ربيع أول ١٢٤٦هـ/ الموافق ١٨٣٢/٥/٢٧م.
(٧٨) – من المجلس العالي للديوان الخديوي، بالموافقة علي إعطاء استمارة ببيان أحوال الحسابات الجديدة للعمل بها بالحجاز ، دفتر ٧٧٦ خديوي، ص٧٢، وثيقة ١١٨، ٢٠ رمضان ١٢٤٥هـ/ الموافق ١٨٣٠/٣/١٥م، دار الوثائق القومية، القاهرة.
(٧٩) – تقرير من خورشيد باشا بخصوص واردات نجد وأحوالها، في ٢٩ جمادى الأولى ١٢٥٥هـ/ الموافق ١٠ أغسطس ١٨٣٩م، محفظة ٢٦٧ عابدين، دار الوثائق القومية، القاهرة.
(٨٢) – من المجلس العالي إلي الديوان الخديوي، دفتر ٧٩٢ ديوان خديوي، ص١٦٩ وثيقة ٢٧٢، ٧ ربيع أول ١٢٤٩هـ/ الموافق ١٨٣٠/٧/٢٥م، دار الوثائق القومية، القاهرة.
(٨١) – من الديوان الخديوي إلي ناظر المدفعية، دفتر ٧٨ ديوان خديوي، ص ١١٤، وثيقة ٤٤٢، دار الوثائق القومية، القاهرة.

(٨٢) – تركجة بلمز بالتركية تعني الجاهل.
(٨٣) – من الجناب العالي إلي إسماعيل بك، المعية السنية،س/١/١٣/١، وثيقة ٨٢٦، ٩صفر ١٢٤٨هـ/ الموافق١٨٣٢/٧/٨م، دار الوثائق القومية، القاهرة.
(٨٤) – من الجناب العالي إلي أحمد باشا يكن، المعية السنية، س/١/٢/٢٢، وثيقة ١٦١، ٢٥ صفر ١٢٤٨هـ/ الموافق ١٨٣٢/٧/٢٤م، دار الوثائق القومية، القاهرة.
(٨٥) – من الجناب العالي لحبيب أفندي، المعية السنية،س/١/٢/٢٢، وثيقة ١٤٦، ٩ صفر ١٢٤٠هـ/ الموافق ١٨٣٢/٧/٨م، دار الوثائق القومية، القاهرة.
(٨٦) – من الجناب العالي إلي أحمد باشا محافظ مكة، نفس المصدر، وثيقة ٢٤٢، ١٥ ربيع أول ١٢٤٨هـ/ الموافق، دار الوثائق القومية، القاهرة.
(٨٧) – نفس المصدر.
(٨٨) – رسالة من خورشيد باشا تفيد تعيينه لمحمد رفعت للإشراف علي منطقة الإحساء، وأن يكون له حق العمل علي تحسين أحوالها،بعد إرسال القوات اللازمة إلي هناك، وثيقة١، محفظة ٢٦٧ عابدين،١٧ محرم ١٢٥٥هـ/الموافق ٢ أبريل ١٨٣٩م، دار الوثائق القومية، القاهرة .
(٨٩) - رسالة من خورشيد مرفق بها الجوابات الخاصة بالبحرين، وثيقة ١٣٧، محفظة رقم ٢٦٧، عابدين،٢٣ صفر ١٢٥٥هـ/الموافق ٨مايو ١٨٣٩م، دار الوثائق القومية، القاهرة.
(٩٠) – ملحق رقم (٣)
(٩١) – نفس المصر.
(٩٢) – نفس المصدر.
(٩٣) – رسالة من محمد علي باشا للصدر الأعظم، س/١/٤/١، وثيقة ٤٩، ٩ شوال ١٢٣٤هـ/ الموافق ١٨١٩/٨/١م، دار الوثائق القومية، القاهرة.
(٩٤) – من محمد علي باشا إلي خليل باشا، المعية السنية،س/١/٦/١، وثيقة ١٣٧، ١٥ جماد ثاني ١٢٣٥هـ/ الموافق ١٨٢٨/١/١٩، دار الوثائق القومية، القاهرة.
(٩٥) - رسالة من محمد علي باشا للصدر الأعظم، المعية السنية، س/١/١٣/١٠، وثيقة ٤٩، في ٩ شوال سنة ١٢٣٤هـ/ الموافق ١٨١٩/٨/١م، دار الوثائق القومية، القاهرة.
(٩٦) – رسالة من محمد علي باشا إلي الصدر الأعظم، المعية السنية، س/١/٧/١، وثيقة ٤٨، ٩ شوال ١٢٣٤هـ/ ١٨١٩/٨/١م، دار الوثائق القومية، القاهرة.
(٩٧) رسالة من محمود درويش باشا الصدر الأعظم إلي الجناب العالي، محفظة٦ بحر بر، وثيقة١٠٣، في ١٢شوال سنة ١٢٣٤هـ/ الموافق ١٨١٩/٨/٤م، دار الوثائق القومية، القاهرة.
(٩٨) – رسالة من محمد علي باشا لكتخدا الصدر الأعظم، المعية السنية،س/١/٨/١، وثيقة ١٥٧، في ٩ محرم ١٢٣٦هـ/ الموافق ١٨٢٠/١٠/١٧م، دار الوثائق القومية، القاهرة.
(٩٩) – من محمد علي باشا إلي كتخدا الصدر الأعظم، المعية السنية، س/١/٢/٢٢، وثيقة ١٥٧،٩ محرم ١٢٣٦هـ/ ١٨٢٠/١٠/١٧م، دار الوثائق القومية، القاهرة.

دراسات تاريخية
معداة إلى الأستاذ الدكتور/ عادل حسن غنيم



توجهات زايد الوحدوية
كما رصدها الدبلوماسيون البريطانيون المعاصرون
١٩٦٥-١٩٦٧

أ. د. جمال محمود حجر
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
عميد كلية الآداب- جامعة الإسكندرية

مقدمة

ليس من السهل على المؤرخ أن يكون محايدا عند تناول موضوع معاصر، لأنه إذا كانت المسافةالجغرافية شرط للرؤية، فإن المسافة الزمنية شرط للمعرفة. وفي دراسة التاريخ المعاصر تسقط المسافة الزمنية بين الباحث والموضوع الذي يبحثه، وتصبح المعرفة ضبابية، وتصبح الحيدة أمرا صعب المنال. ويزداد الأمر صعوبة عند الحديث عن زعيم لا يزال في السلطة[١]،لأن الحيدة عندئذ تفقد مضمونهاوتصبح مجرد شعار أجوف، وربما ينصرف الباحث المحايد عن الإقدام على موضوعات معاصرة كهذا الموضوع الذي بين أيدينا.

ولكن الأمر يختلف تماما عندما يكون "زايد" هو الزعيم، وعندما يكون "الاتحاد" هو الموضوع. والسبب في هذا الاستثناء يرجع فيما يتعلق بزايد إلى سماته الشخصية، وإلى الفطرة السوية التي يعالج بقوانينها كثيرا من القضايا، منذ عرفناه حاكما للعين في عام ١٩٤٦، ثم حاكما لإمارة أبو ظبي في عام ١٩٦٦، ثم رئيسا لدولة الإمارات العربية المتحدة في عام ١٩٧١ وإلى اليوم، حتى عده الجميع "حكيم العرب".

وفيما يتعلق بالاتحاد، فقد كانت فكرة "الاتحاد" من بين الأفكار التي ارتبطت

باسم زايد منذ المراحل المبكرة لممارسته السلطة، وهي الفكرة التي تحولت إلى قضية أولاها جل اهتمامه، حتى حققها بين "إمارات الساحل المتصالح"، ليصبح ذلك الساحل منذ عام ١٩٧١ "دولة الإمارات العربية المتحدة". ولما كانت طموحات زايد أكبر مما تحقق في دولة الإمارات العربية المتحدة، فلم يشأ أن يفرط في تحقيق الأمل في وحدة خليجية شاملة حين تعثرت خطاها، وارتضى بالحد الأدنى من طموحاته الوحدوية، وهو "التعاون" الذي تحقق في عام ١٩٨١ متمثلا في "مجلس التعاون لدول الخليج العربية" .

وهكذا أفرزت لنا الفطرة السوية،التي تنسجم مع قوانين الحياة الطبيعية شخصية متوازنة، وتجربتين اتحاديتين ناجحتين، قائمتين على أسس تنسجم مع الواقع ولا تصطدم بأي من تفاصيله؛ فكان الاتحاد حيث أمكن تحقيقه، وكان التعاون بديلا للإتحاد حيث تعثر، عملا بالحكمة القائلة "مالا يدرك كله لا يترك جله". وإذ تنسجم الفطرة السوية مع القانون الطبيعي يرتبط الحدث بصانعه، فيرتبط الإتحاد باسم زايد، حتى صار الحديث عن أحدهما يعني الحديث عن الآخر .

وقد ظهر هذا الارتباط بوضوح، ليس فقط بين أبناء الإمارات المعاصرين لتجربة الاتحاد، وإنما ظهر أيضا في مضمون البرقيات والرسائل والتقارير والمذكرات الرسمية التي تبادلها المسؤولون البريطانيون المعاصرون المعنيون بمنطقة الخليج العربي، فيما بينهم من ناحية، وفيما بينهم وبين حكومتهم في لندن في منتصف الستينيات من القرن العشرين من ناحية أخرى. وتلك الوثائق هي مادة هذه الدراسة. وإذ تكون مادة الدراسة عند هذا المستوى من الحيدة ، تصبح قضية حيدة المؤرخ أمرا هينا .

فقد رصدت تلك الوثائق، منذ أواخر عام ١٩٦٤، ما جرى من اتصالات في الأوساط البريطانية بين المسئولين في لندن والبحرين والدوحة ودبي وأبو ظبـي، وغيرها من المناطق ذات الصلة بمنطقة الخليج، بهدف النظر في مستقبل المنطقة

بعد أن تخرج بريطانيا منها مع مطلع السبعينيات. وخلال هذه الإتصالات برز على السطح اسم الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، حاكم العين وقتئذ، ليفرض نفسه على صناع السياسة البريطانيين، باعتباره شخصية مؤهلة محليا وإقليميا للقيام بدور ريادي في قيادة المنطقة ورسم خطوط مستقبلها.

وقد كشفت هذه الوثائق بوضوح عن إدراك المسئولين البريطانيين لقوة شخصية زايد، وقدراته القيادية، وسعة أفقه السياسي، فضلا عن الدور الذي يمكن أن تقوم به ثروة أبوظبي، التي بدأت بشائرها في الظهور، في مساعده زايد على تحقيق الطموحات السياسية للمنطقة وحمايتها من التفتت والإنهيار، في حال توليه السلطة خلفا للشيخ شخبوط. وحين تهيأت تلك الفرصة لزايد في عام ١٩٦٦، كشف عن مهاراته في قيادة إمارة أبوظبي، وعن قدراته في التأثير على صياغة مستقبل المنطقة السياسي والاقتصادي والحضاري. وصدق بذلك حدس البريطانيين فيه.

ومنذئذ بدأ زايد يسير أمور أبوظبي طبقا لبرامج وضعها هو بنفسه، وتنسجم مع طبيعة المنطقة وتطورها التاريخي وعلاقاتها الإقليمية والدولية. وعند هذه المرحلة أخذ الدبلوماسيون البريطانيون يراجعون سياساتهم في المنطقة، ويعيدون تقويمهم للشيخ زايد ولدوره في صنع المستقبل، إذ إنهم أدركوا أن الرجل وهو يخطط لوضع أفكاره الوحدوية موضع التنفيذ، إنما يراعي طبيعة التراث الثقافي والتاريخي للمنطقة،عبر بعد زمني يربط بين الماضي والحاضر ولا يغفل المستقبل.

وعلى هذا النحو بدت ملامح سياسة زايد تتبلور منذ الأسبوع الأول لتوليه دفة الحكم في أبوظبي، فنجده يصوغ أسس سياسة تقوم على:"التعاون"، و"التكافل"، و"الأخوة"، و"الصداقة"، و"اليد المبسوطة"، بهدف وضع أسس مرحلية لإقامة "اتحاد فيدرالي" بين إمارات الخليج مجتمعة، دون الدخول مباشرة في "اتحاد اندماجي"، يعلم أنه غير مناسب للمجتمعات ذات الثقافة البدوية

الحريصة على تأكيد الذات السياسية.

وإذ رصد الدبلوماسيون البريطانيون توجهات زايد الوحدوية في مراحلها المختلفة، فقد وجدوا أنها تتفق مع خططهم في المنطقة من حيث "الشكل"، ولكنها تختلف معها من حيث "المضمون والهدف"، ولهذا لم يكن هناك مفر من المواجهة بين أسس السياستين؛ سياسة بريطانيا وسياسة زايد، وبعد وضع تلك الأسس في محك الاختبار، لم يجد الدبلوماسيون البريطانيون بدا من التسليم بأفكار زايد، الذي نجح في أن يضع أسس الإتحاد على طريقته.

وهذه الدراسة التي لا نشك في أنها جادة وجديدة، والتي تعتمد اعتمادا تاما على وثائق الأرشيف البريطاني غير المنشورة، إنما ترصد رؤى هؤلاء الدبلوماسيين البريطانيين، وتقييماتهم للشيخ زايد، ولفكره الوحدوي، ولخطاه على على هذا الطريق، خلال الأعوام الثلاثة ١٩٦٥و ١٩٦٦و١٩٦٧، وتسجلها بأمانة علمية، من خلال توظيف منهج علمي تحليلي ناقد. وعلى ضوء هذه المادة الوثائقية البريطانية المنبع والمصب، ومن خلال المنهج التحليلي الناقد المشار إليه، قسمت الدراسة إلى ستة أقسام رئيسة، فضلا عن المقدمة والخاتمة، هي:

١ مكانة زايد في برنامج الحكومة البريطانية الخاص بمستقبل المنطقة

٢ زايد ومشروع العملة الخليجية الموحدة

٣ تزكية بريطانيا لدور زايد في العمل الوحدوي

٤ زايد حاكما لإمارة أبو ظبي وتبلور فكره الوحدوي

٥ توجهات زايد الوحدوية في مجلس حكام الإمارات المتصالحة

٦ تقويم البريطانيين لتوجهات زايد الوحدوية

مكانة زايد في برنامج الحكومة البريطانية الخاص بمستقبل المنطقة :

في إطار التخطيط لمستقبل منطقة الخليج العربي، وقبل أن يتولى الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان مقاليد الحكم في إمارة أبوظبي بنحو عامين، دارت في

أروقة الحكومة البريطانية مجموعة من الأسئلة، طرحها رئيس الوزراء البريطاني لأول مرة في ديسمبر عام ١٩٦٤، وكانت هذه الأسئلة تسلط الأضواء على شخصية زايد بصفة أساسية، وتدور حول ثلاث قضايا هامة هي:

١. مدى إمكانية نجاح زايد (حاكم العين) في أن يحكم إمارة أبوظبي .
٢. مدى استعداده، في حال نجاحه، لتقاسم ثروة أبو ظبي النفطية مع الإمارات الأخرى .
٣. مدى استعداده للدخول مع تلك الإمارات في اتحاد فيدرالي.

وحين طرحت هذه الأسئلة كانت أبوظبي حديثة عهد بالثروة، ولم يكن زايد حاكما لها. ولكن الأسئلة كانت تعكس توجهات مستقبلية داخل أروقة الحكومة البريطانية تجاه منطقة الساحل المتصالح، كما أنها كانت تعكس اهتماما متزايدا بزايد، في محاولة لاستكشاف مقومات القيادة فيه، واستشراف مستقبل الإمارات المتصالحة في حال توليه السلطة في أبوظبي.

وإلى أن تتأكد الحكومة البريطانية من توجهات من سيحكم في أبوظبي، وتقف على ذلك عمليا، فسوف يبقى مسؤولوها على جهالتهم بشأن الأسلوب الذي سيتعامل به من سيخلف الشيخ شخبوط بن سلطان (حاكم أبوظبي) مع قضيتي "الثروة والاتحاد"، وهما قضيتان تراهما بريطانيا حيويتين في رسم مستقبل هذه المنطقة "الفقيرة والمفككة"، والتي تستعد بريطانيا لمغادرتها بأقل قدر من اللوم، الذي قد يوجهه لها المجتمع الدولي نتيجة لغياب دورها الفاعل في تنميتها، رغم أنها ظلت لسنوات طويلة تتحمل المسؤولية الأولى في رسم وتوجيه مستقبلها، وأن دبلوماسييها كانوا على قناعة تامة بأن "مسألة تقاسم السلطة والمال ليست من الأمور السهلة عند أي حاكم عربي"(٢)

Sharing of power and money does not come easily to any Arab Ruler.

في تلك الظروف لم يكن ترديد اسم زايد منطلقا من فراغ ؛ فقد كانت هنـــاك إشارات مبكرة رصدها البريطانيون وسجلوها في مراسلاتهم بشأن توجهات زايد الوحدوية. منها أن وليم لوس Luce، المقيم السياسي في البحرين ، كتب في أحد

تقاريره إلى لندن يقول: إن زايد قال له في آخر اجتماع معه إنه يعتبر "الاتحاد أمرا ضروريا"، وأن أبوظبي سوف تقدم المال اللازم لتنمية الإمارات المتصالحة والنهوض بها. وكان لوس يرى أن في إمكان زايد أن يمد الإمارات المتصالحة بنحو ١٠% من عوائد النفط التي تحصل عليها إمارة أبوظبي .

وفي الوقت نفسه، كان المسئولون البريطانيون متأكدين من أن مسألة إقامة اتحاد بين أبوظبي وجيرانها، قبل مجيء زايد إلى الحكم، تعتبر من الأمور التي تقع خارج حسابات أبوظبي السياسية، مع أنها في ذلك الوقت كانت الإمارة الوحيدة من بين إمارات الساحل المتصالح التي لديها عوائد مالية محترمة، تمكنها من تملك زمام القيادة السياسية والتنموية في المنطقة الجنوبية من الخليج العربي.

على ضوء ما سبق حسم البريطانيون إمكانية النهوض بالمنطقة في عنصرين رئيسين:

العنصر الأول: شخصية زايد الواعدة بإمكانية جمع شمل الإمارات المتصالحة؛

والعنصر الثاني: ثروة أبو ظبي النفطية التي يمكن أن تساعد على تحقيق ذلك .

وفي مقابل هذا الجانب البريطاني المتفائل بإمكانية إقامة اتحاد بين الإمارات المتصالحة بزعامة زايد، كانت هناك معوقات تقف في الطريق إلى هذا الاتحاد المأمول، منها الخلافات القائمة بين حكام الإمارات المتصالحة وبعضهم، وهي خلافات قائمة على رواسب تاريخية، وعلى نزاعات قبلية وحدودية.

وتشير الوثائق إلى أن دور بريطانيا كان يرتكز في هذه المرحلة علي العمل من أجل إقامة "خدمات مشتركة" بين الإمارات المتصالحة، وليس في العمل مباشرة من أجل إقامة "إتحاد" فيما بينها، وقد تمثل ذلك بوضوح منذ عام ١٩٥٢ في إقامة "مجلس حكام الإمارات المتصالحة" Trucial States Council وفي صندوق التنمية التابع له[٣].

زايد ومشروع العملة الخليجية الموحدة :

وفي إطار العمل من خلال "مجلس حكام الإمارات المتصالحة"، تهيأت الفرصة للبريطانيين أن يتعرفوا بشكل أوسع على شيء من الفكر السياسي لزايد تجاه القضايا المطروحة في اجتماعات المجلس، التي عقدت بدبي خلال الفترة من ٢٢ إلى ٢٥ مايو ١٩٦٥، وهي الاجتماعات التي حضرها زايد نائبا عن شخبوط، وبتفويض كامل منه في التعامل مع كافة القضايا المطروحة على المجلس، وكان شخبوط قد أبدى استعداده الكامل لقبول ما سيقبله زايد في هذه الاجتماعات. وفي تلك الاجتماعات التحضيرية، التقى ممثلو الإمارات "الأربعة الكبار"(٤): الشيخ راشد آل مكتوم حاكم دبي، والشيخ زايد بن سلطان نائب حاكم أبوظبي، والشيخ خليفة بن سلمان نائب حاكم البحرين، والشيخ خليفة بن حمد نائب حاكم قطر.

كان جدول أعمال المجلس يتضمن مجموعة من "القضايا المشتركة"، في بادرة تشير إلى توجهات نحو "التعاون والتكافل" بين الإمارات الأربع الكبار. وكان من أهم ما اتفق عليه العمل معا من أجل رفع مستوى المعيشة في هذه الإمارات، والحفاظ على السلام، والإعداد لحياة عصرية في منطقة متطورة، وتأسيس مؤسسة للعملة الخليجية Arabian Gulf Currency Board وإقامة منظمة إدارية Administrative Organization لهذا الغرض(٥). وقد وصف هذا الاجتماع بأنه "تاريخي"، لأن ممثلي الأسر الحاكمة في هذه الإمارات التقت لأول مرة لمناقشة قضايا مشتركة(٦).

كان صيف ١٩٦٥ نقطة تحول تاريخية على مستويين :

المستوى الأول يتعلق بما يدور داخل الحكومة البريطانية حول مستقبل منطقة جنوبي الخليج العربي؛ فمنذ عام ١٨٩٢ وبريطانيا تتحمل مسئولية الدفاع والعلاقات الخارجية للمشيخات العربية، أما فيما يتعلق بالأمور الداخلية، فكانت

المشيخات في الواقع تتمتع بنوع من الحكم الذاتي في إدارة شئونها عن طريق حكامها الشيوخ العرب .

والمستوى الثاني يتعلق بالتوَجهات الجديدة بين حكام المنطقة نحو "التعاون والتكافل"، وهما مرحلتان من المراحل الأولى للعمل الوحدوي، يجري الحديث حولهما بمشاركة من زايد.

وقد رصد الوكيل السياسي في أبو ظبي حركة نواب الحكام الثلاثة (زايد بن سلطان عن أبو ظبي، وخليفة بن حمد عن قطر، وخليفة بن سلمان عن البحرين) ووصفهم بأنهم "أكثر ميلا نحو التعاون" من حكام بلادهم ، وأن على بريطانيا أن تعتمدعليهم كثيرا في تنشيط دور مجلس حكام الإمارات المتصالحة في جلسته التالية[٧].

ومن اللافت للانتباه أن الاجتماع التمهيدي، الذي حضره نواب الحكام الثلاثة، قد عكس توجهاتهم الوحدوية بوضوح، حين أصدروا إعلان دبي لتوحيد العملة الخليجية في ٢٥ مايو ١٩٦٥، وكان أهم ما جاء فيه[٨]:

"انطلاقا من حرصنا على خدمة مصالح بلادنا، عقدنا عدة اجتماعات في جو ودي في دبي، من أجل تبادل الرأي حول أفضل الطرق لتقوية مكانتنا، لاعتقادنا أن العلاقات الحميمة بين شعوبنا، واللقاءات المتصلة والمثمرة، هي الطريق الصحيح لتحقيق السلام في هذه المنطقة، وحماية مصالحها الإقليمية. وسوف يمكننا ذلك من رفع مستوى المعيشة للسكان، وإعداد المنطقة لحياة حديثة. وقد توصلنا إلى اتفاق كامل حول كل الموضوعات المطروحة للمناقشة، وهذه الاتفاقية سوف تؤدي إلى جمع شمل سكان المنطقة كلهم معا ... وقد اتفقنا على تأكيد عزمنا على العمل معا، من أجل إزالة كافة العقبات والمصاعب التي تصادف طريقنا ... فنحن نعتبر أنفسنا أسرة واحدة،

متحدين في جهودنا لتطوير هذه المنطقة في مختلف المجالات، من أجل أن تجد لها مكانا مناسبا تحت الشمس".

كان هذا الاجتماع التحضيري هو أول موقف رسمي يتناول قضايا مثل "التعاون" و"العمل الجماعي" و"الاتحاد"، وهي قضايا سوف نلمسها بوضوح في فكر زايد في المرحلة التالية. ولكن الذي يجب أن نسجله الآن هو أن هذه الخطوة الأولى من نوعها والتي تناولت هذه القضايا الحيوية، إنما تمت بمشاركة مباشرة وفاعلة من زايد وهو لا يزال نائبا لحاكم أبو ظبي، وقبل أن يتسلم زمام السلطة كحاكم للإمارة .

وعلى هذا الطريق الجديد للعمل الوحدوي الذي ساهم زايد في رسمه، وتأكيدا على ما تم التوصل إليه في الاجتماع التمهيدي لممثلي الإمارات الأربعة الكبار، عقد حاكم البحرين وحاكم قطر وحاكم دبي وحاكم أبوظبي، مؤتمرا في قصر الجميرة بدبي ووقعوا اتفاقية العملة الخليجية(٩). وفي مساء اليوم نفسه انضم إليهم حكام الشارقة وعجمان وأم القيوين والفجيرة ورأس الخيمة، ووقع الجميع اتفاقا يقضي باعتبار العملة الجديدة هي العملة الوحيدة لإماراتهم(١٠). وبذلك كـانت اتفاقية توحيد العملة الخليجية هي الخطوة العملية الأولى التي تبناها الحكام الأربعة الكبار على طريق العمل الوحدوي، بمشاركة بريطانية. ولكن التجربة على أهميتها واجهت فيما بعد مجموعة من المعوقات التي حالت دون وضع هذه الاتفاقية موضع التنفيذ.

تزكية بريطانيا لدور زايد في العمل الوحدوي :

أدرك المسئولون البريطانيون في المنطقة أن حكامها ينسجون خيوط العمل الوحدوي في تناغم غير مسبوق، ولذلك اقترحوا أن تتضمن أجندة اجتماعات مجلس حكام الإمارات المتصالحة في دورته الجديدة موضوعات تهدف إلى تسهيل التبادل التجاري بين إمارات الخليج، وتقديم مساعدات للإمارات الشمالية

الفقيرة، وإقامة شكل من أشكال الاتحاد فيما بينهم، يساعد على تحسين صورتها أمام المجتمع الدولي .

كان التدخل البريطاني على النحو المشار إليه محسوبا، فهذه المسألة الأخيرة يجب أن تترك للحكام أنفسهم، كما يجب تشجيعهم على عادة الاجتماع معاً بشكل دوري لتناول قضايا العمل الجماعي المشترك، الذي يهم منطقة الخليج، فإذا نجحت بريطانيا في تدريبهم على ذلك، "فلعلهم يكملون المسيرة وحدهم، ولا يعتمدون علينا"[١١].هكذا أرادت بريطانيا أن تخطط لمرحلتها بعد مغادرتها لمنطقة الخليج.

وبقدر ما كانت بريطانيا متطلعة إلى الدور الريادي الذي يمكن أن يلعبه الشيخ زايد في العمل من أجل تحقيق هذا الاتجاه الوحدوي ، كان الشيخ شخبوط نادما على إرسال الشيخ زايد إلى اجتماعات مجلس الحكام الخليجيين، لأنه استشعر أن ثروة بلاده النفطية ستتبدد، وأنه غير راغب في أسلوب "التعاون" الذي يبديه زايد، طالما أن التعاون ليس من بين أهداف شخبوط. وقرر شخبوط بالتالي ألا يرسل زايدا نائبا عنه إلى أي اجتماع خليجي في المستقبل تحجيما لتوجهاته وطموحاته الوحدوية. وبذلك الموقف من شخبوط تعثرت خطى زايد في العمل الوحدوي لمدة عام[١٢].

ولم يقف البريطانيون المعنيون بالأمر في المنطقة موقف المتفرج من موقف شخبوط؛ فقد رأى المقيم السياسي في البحرين أهمية وضرورة أن يتوسط الشيخ عيسى لدى الشيخ شخبوط لتعديل موقفه من زايد، ولعله ينجح في أن يجعله يعدل عن هذاالموقف الرافض لتوجهات زايد في التعاون مع الإمارات الأخرى الفقيرة. وسعى عيسى لدى شخبوط لكي يرسل أخاه زايدا إلى اجتماع نواب الحكام، ولكن شخبوط كان رافضا لإرسال أي شخص إلى مثل هذه الاجتماعات[١٣].

وعلى مستوى آخر في مجال الضغط على شخبوط، وتدعيما لوساطة عيسى، ومساندة زايد، راى خليفة بن حمد آل ثاني، نائب حاكم قطر، أن يربط

حضوره الاجتماع المقترح بحضور زايد ممثلا لحاكم أبوظبي، ومالكا لكامل صلاحيات اتخاذ القرار من شخبوط، معبرا في الوقت ذاته عن عدم ثقته في أي ممثل آخر يأتي من أبوظبي غير زايد، لأنه لا يرغب بالمشاركة في مجرد اجتماع ترحيبي(١٤). ويكشف هذا الموقف من خليفة عن الروح الجديدة للتعاون، التي ربطت بينه وبين زايد، وعن حرصهما على العمل معا .

وعلى مستوى ثالث، وفي الاتجاه نفسه، سعى لامبLamb، الوكيل السياسي في أبوظبي، إلى لقاء شخبوط يوم ٨ يونيه ١٩٦٦ ليستحثه على حضور الاجتماع، الذي سيعقد في دبي يوم ١٣يونيه، وإلا سيضطر إلى تأجيل المؤتمر، كما لفت انتباهه إلى أن تغييب زايد عنه سيؤدي إلى تعقيد الأمور. ولكن شخبوط الذي لم يكن مستعدا لتغيير موقفه قال: إنه"لن يرسل أحدا إلى أي مكان"(١٥).

زايد حاكما لإمارة أبو ظبي وتبلور فكره الوحدوي :

وخلال شهرين اثنين تطورت الأمور بسرعة لصالح زايد، إذ نودي به حاكماعلى أبوظبي، وتسلم الحكم في ٦ أغسطس ١٩٦٦، وأصبح الأمل معقودا عليه، وهو الذي عبر بوضوح عن توجهاته الوحدوية، ووعد بأن ينفق كثيرا من المال على تطوير إمارة أبوظبي، وعلى تحسين علاقاتها بجيرانها، وعلى إقامة شكل من أشكال التعاون الاقتصادي والسياسي بين الإمارات المتصالحة. وأصبحت بريطانيا متفائلة بذلك التطور الجديد الذي دفع بزايد إلى المقدمة، بعد أن أصبحت إمارة أبوظبي في يده(١٦).

وفي ظل هذه الإدارة الجديدة، رأت الوكالة السياسية في أبوظبي أن تعبر عن رغبتها في أن يتحقق تعاون عام وشامل بين أبو ظبي والإمارات الصغرى، وألا يقتصر على مجرد أن يصبح تعاونا ماليا فقط. ولكنها في الوقت نفسه لن تمارس ضغطا على زايد، الذي لم يمر عليه في السلطة أسبوع واحد، كي يأخذ بيد الإمارات الفقيرة، فزايد يبدي استعدادا طبيعيا في هذا الاتجاه، ويجب على

الحكومة البريطانية استثماره[١٧].

من الواضح أن البريطانيين كانوا منشغلين كثيرا بقضية إمكانية تحقيق التعاون بين الإمارات المتصالحة على يدي زايد، فوضعوا خطة من خلال المقيم البريطاني في البحرين، الذي صاغها إلى وزارة الخارجية البريطانية في عنصرين أساسيين، يجب على زايد أن يظهرهما عندما يقدم مساعدات إلى لإمارات الصغيرة:

العنصر الأول، أن يؤكد زايد على أنه يقدم هذه المساعدة طواعية.

والعنصر الثاني، أن يقدم زايد هذه المساعدة بسرعة وبسخاء .

واقترح المقيم السياسي طبقا لهذه الخطة أن يدفع زايد نصف مليون جنيه إسترليني إلى ميزانية "صندوق تنمية الإمارات المتصالحة" TSDF، دون إلزامه في هذه المرحلة المبكرة بأن يكون الدفع دوريا أو سنويا، فمن المعروف أن عليه قبل ذلك أن يشبع حاجات شعبه الذي ينتظر منه الكثير. وليس من المهم في تلك المرحلة معرفة كيف ستنفق هذه الأموال التي سيتبرع بها زايد، ولكن المهم هو المبادرة التي سيمكن البناء عليها بعدئذ[١٨].

أما نوتال Nuttall، من الوكالة السياسية في أبو ظبي ، فقد باشر دوره في الخطة حين التقى زايد يوم ١١أغسطس، بعيد بضعة أيام من توليه السلطة، مذكرا إياه بأوضاع الإمارات الفقيرة، عندما يضع برامج ومجالات الإنفاق في بلاده، خاصة وأن نوتال كان متشجعا بالزيارة التي قام بها الشيخ صقر، حاكم رأس الخيمة، للشيخ زايد، وحصوله منه على مبلغ من المال .

وخلال هذه الزيارة عبر زايد عن استعداده لتقديم التبرعات للإمارات الصغيرة كافة[١٩].

ويؤكد كلارك، الوكيل السياسي في دبي، على هذه التوجهات عند زايد، حين كتب إلى وزارة الخارجية البريطانية يقول :

"زارني أمس الشيخ صقر حاكم رأس الخيمة في طريق عودته من أبو ظبي، ولم أره أبدا من قبل في مثل هذه الحالة من الانتعاش، فهو لم يبارك فضائل زايد فقط، بل يصف تعبيراته التي تعكس الحب والرغبة في الاتحاد مع شعوب الإمارات المتصالحة جميعا... إن زايد كرر مرات كثيرة حرصه على معاونة أهل الإمارات المتصالحة أكثر مما يتصوره أحد، وأقسم في أحد مساجد أبوظبي على إقامة تحالف يجمع الإمارات المتصالحة على الصداقة، وإن زايد طلب منه أن يخبر حكام الإمارات المتصالحة بأن مرحلة جديدة من التعاون الوثيق ستبدأ. وقال صقر إنه سيلتقي حكام الشارقة وعجمان وأم القيوين ليخبرهم بضرورة أن يلتقوا بزايد بأسرع ما يمكن لكي يسمعوا بأنفسهم تلك الأخبار الطيبة عن مستقبل الإمارات المتصالحة"[٢٠].

وبعد ذلك بأيام تأكد من مصدر آخر ما قاله صقر، إذ كتب كلارك يقول: "أخبرني حاكم أم القيوين، الذي زار أبوظبي، أن الشيخ زايد وعده بمساعدة مالية، ليس فقط من خلال برنامج تنمية الإمارات المتصالحة، الذي يجري بإشراف بريطاني، وإنما كذلك بشكل مباشر. فهو يفعل ذلك لإدراكه أن المساعدات عبر برنامج التنمية لا تكفي"[٢١]. من المفهوم أن زايد كان يريد أن يفشل التجربة البريطانية في التنمية.

ويؤكد لامب على توجهات زايد الإيجابية نحو الإمارات الشمالية الصغيرة، فيقول إنه حين اقترح على الشيخ زايد أن يقدم نصف مليون جنيه إسترليني مساعدات للإمارات الصغيرة، أخرج زايد على الفور دفتر شيكاته He immediately opened his cheque book ولم يتردد حيال الرقم الذي سمعه، بل قال:

"إنه مستعد للتعاون مع الإمارات الأخرى، لأنه من خلال التعاون وعلاقات الصداقة يستطيع الساحل المتصالح، بل كل الخليج، أن يرعى مصالحه، وأن يعيش أبناؤه في سعادة".

وذهب زايد إلى أبعد من ذلك فقال :

"إنه لا يعتزم أن يكون هذا المبلغ، الذي سيهديه إلى الإمارات الصغيرة، هو المساعدة الوحيدة التي سيقدمها لها؛ فالتبرع سوف يقدم خدمات للناس وللمنطقة كلها، ولكن الحكام لن يستفيدوا، ولذلك فهو يعتزم أن يقدم لهم هدايا من وقت لآخر، لفائدتهم الشخصية"(٢٢).

اللافت للانتباه، في هذه المرحلة المبكرة من تسلمه زمام السلطة في أبوظبي، أن الشيخ زايد كان يتصرف طبقا لنهجه الخاص، وليس طبقا للنهج الذي حاول البريطانيون توجيهه إليه. فقد كان زايد مقتنعا بنهجه التعاوني مع الإمارات المتصالحة، ولم يكن مقتنعا بالنهج البريطاني في تنمية الإمارات من خلال برنامج صندوق التنمية الذي أنشأته بريطانيا؛ لأن المال الذي يذهب إليه، يتحول بالتبعية إلى حسابات الشركات الأجنبية التي تنفذ المشروعات التنموية، "ولا شيء من هذا المال يجري تدويره في الإمارات ذاتها". ففي رأي زايد أن المال يجب تدويره في الإمارات الصغيرة؛ كما أن المال لا بد وأن يكون في أيدي الشيوخ ليتمكنوا من أن يتصرفوا تجاه شعوبهم كحكام مسئولين، ولا يجب أن يفقدوا هيبتهم أمام شعوبهم. صحيح أن زايد سيتبرع في الوقت نفسه لصندوق برنامج تنمية الإمارات بمبلغ ضخم، أكثر بكثير مما سيتبرع به لحكام الإمارات الشمالية الخمسة، ولكنه يصر على أن يقدم المال لهؤلاء الحكام، وإنه قد بدأ في اتخاذ الخطوات الأولى لتنفيذ ذلك(٢٣).

لقد كان زايد حريصا على التحاور مع الحكام الذين زاروه باعتباره أخ وصديق، مع وعد بتقديم المال لهم عند الضرورة، وكان كذلك حريصا على

صيانة هيبتهم أمام شعوبهم، فجعلهم يقسمون على ألا يذيعوا أمر هذه الأموال على الملأ. وأكثر من ذلك أنه طمأنهم إلى أن كل ما يريده لهم هو أن يجري المال في أيديهم، لكي ينفقوه على رعاياهم وعلى مشيخاتهم. وتساءل زايد في استنكار أمام لامب قائلا: "هل سيسعدني أن أرى شيخ عجمان مثلا جالسا وحده في منزله بدون رعاياه من حوله؟"[٢٤]. في إشارة إلى دور المال في تدعيم العلاقة بين الحاكم والمحكوم، وخاصة في المجتمعات الفقيرة والبدوية.

وإذ يبدو زايد على يقين من سلامة نهجه السياسي في التعامل مع شيوخ الإمارات الشمالية، والأخذ بأيديهم في العمل الجماعي لتطوير منطقة الساحل المتصالح، والحرص على تقديم كل ما يدعم مكانتهم السياسية والاجتماعية، نرى لامب يرسم صورتين متقابلتين لفلسفة زايد السياسية .

في الصورة الأولى: لا يشك لامب في أن الشيخ زايد "يرى في نفسه حامي حمى شيوخ الإمارات الفقيرة" ؛

وفي الصورة الثانية: يعتقد لامب أن زايد"لايرى أية فائدة فيما أقوله له بشأن دور صندوق برنامج التنمية في العمل على تحقيق شيء من التماسك بين الشيوخ"[٢٥].

إن هذا التقويم للموقف الذي يتبناه زايد في هدوء إنما يؤكد على توجهاته السياسية بعيدا عن التوجهات البريطانية. ويجد لامب أن بريطانيا لا تستطيع عند مواجهتها لهذا الموقف أن تعرقل مساعدات زايد للشيوخ، "وإذا طلبنا منه أن يوقفها فلن يسمع إلى كلامنا؛ لأنه أعلن عن تبنيه لسياسة اليد المبسوطة-open-handed policy تجاه إخوانه الحكام، خلال هذه المرحلة من بداية علاقاته بهم"[٢٦].

كان زايد يدرك،عند هذه المرحله المبكرة من العمل الوحدوي، أهمية الإستقلال الذاتي للشيوخ حكام الإمارات المتصالحة، وخطورة إلغاء أدوارهم المباشرة مع شعوبهم، ويشاركهم الاعتقاد بأن على كل حاكم أن يرعى بلاده

بنفسه، وألا يتدخل في شئون الآخرين. وكان يتبنى هذه السياسة حتى قبل أن يصل إلى سدة الحكم. وقد أفرزت هذه السياسة نتائج إيجابية؛ لأن مفهوم الإتحاد لم يكن واضحا وضوحا كافيا عند هذه المرحلة، بحيث يطمئن فيه كل شيخ على مصالح رعاياه، ولذلك نجد زايد يتعامل مع فكرة الإتحاد من خلال نظرة تؤكد على الاستقلال الذاتي. وبدلا من أن ينفر الشيوخ خوفا على مصالحهم، صار لديه خمسة شيوخ حلفاء في الإمارات المتصالحة، فضلا عن نائب حاكم قطر، يستطيع أن يواجه بهم أي نزاع، إذا اعتدى عليه أحد. وهو يؤكد على أن ليس لديه أية طموحات أكثر من أن يكون حاكما جيدا لأبوظبي، وأن يساعد إخوانه حكام الإمارات الفقيرة ، وأن يعيش مع حكام كل إمارات الخليج في صداقة وتعاون[٢٧].

لا يجب أن يفهم من ذلك أن زايد قد تخلى عن توجهاته الوحدوية مع الإمارات المتصالحة، ولكنه كان يريد أن تسير خطاه بهدوء "خطوة خطوة"، على أرض صلبة مع حكام أقوياء، ضمانا لسلامة البناء الذي يخطط لإقامته، بصرف النظرعن النصائح البريطانية، التي كانت تسعى في اتجاه آخر لتحسين صورة بريطانيا كدولة كبرى أمام المجتمع الدولي، في حال مغادرتها المنطقة.

وتتأكد توجهات زايد هذه حين استقبل في أبوظبي الشيخ راشد، حاكم دبي، بحضور الشيخ محمد بن خليفة، كبير آل نهيان، وتوصل معه إلى اتفاق تام حول الحاجة إلى "التعاون" في الخليج. ودارت مناقشات حول عدد من الموضوعات، أهمها في هذا المقام "التأكيد على الصداقة والتعاون"، وعلى أهمية عقد اجتماع للأربعة الكبار: حكام البحرين وقطر وأبوظبي ودبي، لمناقشة الأمور ذات الأهمية المشتركة[٢٨]. وهكذا كانت فلسفة زايد الوحدوية تنطلق بتوجهاته من داخل المنطقة وليس من خارجها، وذلك يفسر لنا أسباب عدم انسجام توجهاتـــه مـــع توجهات السياسة البريطانية .

والحقيقة التي يجب الإشارة إليها هنا هي أن هذه السياسة القائمة على أسس

"الصداقة" و"التعاون" و"اليد المبسوطة"، إنما نشأت على أرض الواقع قبل أن تعلن كفلسفة، باعتبارها وسيلة لتحقيق السلام والتقدم والاستقرار في منطقة الإمارات التسع (أبوظبي، دبي، الشارقة، رأس الخيمة، عجمان، الفجيرة، أم القيوين، قطر، البحرين). وفي هذا الإطار وجد الوكيل السياسي في أبوظبي أن من الأهمية بمكان أن تشجع بريطانيا هذه السياسة، وأن يعلم الشيخ زايد "أن عيون المنطقة والعالم عليه، ليروا ما هي سياسته تجاه جيرانه. وعليه فلا بد أن يعلن زايد أن التعاون هو جوهر سياسته مع المنطقة، وإن تبرعه للإمارات الفقيرة لدليل على ذلك"(٢٩).

هكذا بدأت السياسة البريطانية تتلاقى مع توجهات زايد السياسية، فأيدت وزارة الخارجية البريطانية توجهات مسئوليها في المنطقة، وخاصة فيما يتعلق بشأن "سياسة اليد المبسوطة" التي يتبناها زايد. وذلك في إشارة إلى اعتبارين مستقبليين تجب مراعاتهما:

الاعتبار الأول: أن هناك حاجة إلى مساعدات منتظمة يقدمها زايد لصندوق تنمية هذه الإمارات، لتمكين الصندوق من تنفيذ خططه وبرامجـــه، وفي هذا فائـــــدة مباشرة للسياسة البريطانية والشركات البريطانية.

والاعتبار الثاني: أن تترك بريطانيا لزايد حرية الحركة ليحقق لنفسه شيئا من المساومة، التي ربما مكنته من بناء مستقبله السياسي في المنطقة.

وهذا يعني فيما يعني أن بريطانيا ارتضت أن تتقاسم مع زايد النفوذ في منطقة كان النفوذ فيها لها وحدها. فزايد هنا يوظف إحدى قوتيه وهي قوة المال في فرض برنامجه السياسي على بريطانيا. وعلى ضوء ظهور هذا العنصر الجديد في التوجيه السياسي في المنطقة، وضعت الخارجية البريطانية تصورا لما يمكن أن تسير عليه الأمور في المستقبل، يقضي هذا التصور بأن الحد الأدنى الذي ستتبرع به أبو ظبي على مدى خمس سنوات سيكون ٣٠٠,٠٠٠ جنيه

إسترليني في السنة، وإن الشيخ زايد سيكون مستعدا لوضع مبالغ إضافية إذا قضت الحاجة، على أن تحدد مجالات إنفاقها من خلال برنامج المشروعات الذي سيلتزم بتنفيذه صندوق التنمية[٣٠].

هكذا وجدت بريطانيا نفسها، بعد شهر واحد من وصول زايد إلى السلطة، تكيف سياستها طبقا لتوجهاته، ولكنها تحاول عبثا في الوقت نفسه أن توجه تلك السياسة نحو تحقيق مصالحها، وهو الأمر الذي يفطن إليه زايد ويعمل على تجنبه في هدوء، بل ويؤكد على سياسته هو في المقابل، ويفرضها كما هي لتتغلب سياسته في النهاية على السياسة البريطانية .

عند هذه المرحلة نستطيع أن نقول: إن زايدا استخدم ثلاث وسائل سياسية تعكس لنا توجهاته الوحدوية في هذه المرحلة المبكرة،هذه الوسائل هي: "الصداقة والتعاون واليد المبسوطة". وفي المرحلة التالية سيوظف زايد، إلى جانب هذه الوسائل الثلاث، وسيلة رابعة تتمثل في إمكانياته الشخصية كزعيم.

توجهات زايد الوحدوية في مجلس حكام الإمارات المتصالحة :

في هذه المرحلة الجديدة بدت مظاهر الزعامة عند زايد في الممارسة السياسية واضحة من خلال نشاطه في اجتماعات مجلس الإمارات المتصالحة Trucial States Council (TSC) الذي أسسته بريطانيا في عام ١٩٥٢ ؛ فبعد أن أمضى الشيخ زايد مائة يوم في الحكم ، حضر لأول مرة بصفته حاكما لإمارة أبوظبي اجتماعات المجلس في دورته السابعة والعشرين المنعقدة في دبي في ١٦ نوفمبر ١٩٦٦. وقام زايد بدور رئيس في مناقشة الموضوعات المطروحة على أجندة المجلس باقتدار، فرضته طبيعة شخصيته القائمة على الفطرة السوية؛ فقد طرح على المجلس "أسئلة ذات مغزى"، على حد تعبير روبرتس Roberts الوكيل السياسي في دبي. وفوق ذلك تجلت قدراته الاقتصادية في توجيه المناقشة نحو أساليب الإنفاق المالي وبرامجه، وتساؤله عن كيف يمكن

تحديد ميزانية للإنفاق دون معرفة مجالات الإنفاق المقترحة. لقد كانت مناقشة زايد جديدة في إيقاعها على المسئولين البريطانيين، الذين رأوا أهمية أن تسيطر الوكالة السياسية البريطانية على توجيه المناقشات داخل المجلس، ولا تترك الفرصة هكذا لزايد يوجه المناقشات "على هواه"، وإلا فلن تكون هناك اجتماعات للمجلس بهذا الأسلوب الذي يخرج به زايد عن التوجهات البريطانية(٣١). على هذا النحو أدركت بريطانيا في هذا المجلس لأول مرة حقيقة الموقف الرسمي لزايد تجاه سياستها في المنطقة.

وللتغلب على هذه الظاهرة الجديدة في المجلس، ظاهرة الحضور الفاعل لزايد، أوصى الوكيل البريطاني بضرورة توزيع أجندة عمل المجلس على أعضائه مقدما، من أجل تفادي طرح موضوعات غير مدرجة يفاجأ بها المسئولون البريطانيون. كما أوصى بأن يقوم أمين عام المجلس ورئيسه بزيارة جميع الحكام ومحادثتهم مقدما بشأنها، لتوضيح مضمون الأجندة ومحتواها، وضبط إيقاع العمل في المجلس بما ينسجم والتوجهات البريطانية(٣٢).

وبالرغم من هذا التوجه البريطاني الجديد في إدارة المجلس، لم يخف المقيم السياسي في البحرين إعجابه بشخصية زايد حين كتب يقول :

> "إن الملمح الجديد في هذا الاجتماع (السابع والعشرين) هو بالطبع حضور الشيخ زايد. فإذا كان تقييمنا لهذا المجلس (TSC) أنه أداة لتحقيق الإدارة المشتركة، فإن حضور الشيخ زايد يبارك ذلك التوجه. والحقيقة التي نؤكد عليها هي شخصية الشيخ زايد المؤثرة وثروته، اللتان وضعتاه في مكانة متميزة داخل المجلس. هذا بالإضافة إلى حرصه على أن يدير إمارته بطريقته، وعلى أن يساعد الآخرين على إدارة إماراتهم بطريقتهم. وإذا رأى المجلس أن ينتهج أسلوبا بناء، فإن عليه أن يعتمد على الشيخ زايد في ذلك، رغم أن هذا لن يحقق تماما

ما تسعى إليه بريطانيا"[٣٣].

كانت لزايد رؤية خاصة أكثر واقعية من الرؤية البريطانية، رصدها المسؤولون البريطانيون ؛ إذ نراه في اجتماعات مجلس الإمارات المتصالحة الثامن والعشرين، يتحفظ على فكرة "الاتحاد"unification كما تطرحها بريطانيا، باعتبار أنها غير ممكنة وغير عملية في هذه المرحلة، لأنها تفقد الشيوخ الحكام صلاحيات لم يألفوا التخلي عنها. وأشار إلى أن البديل الذي يمكن طرحه في هذه المرحلة هو"التفاهم" أو"التعاون"، وخاصة بين قوات الشرطة الخاصة بالإمارات المتصالحة، الذى يعد أمرا ضروريا، لأن القدرة على تحقيق الأمن هو أحد مظاهر السيادة[٣٤]. لقد كشف زايد بتبنيه لهذه السياسة عن وعي عميق بأبعاد فكرة الإتحاد ونتائجها السلبية في حال التسرع فيها وعدم قناعة الأطراف المعنية بها قناعة كاملة .

ولذلك نجد زايد يقترح تأسيس هيئة للشرطة Police Committee تتألف من قيادات قوات شرطة الإمارات المتصالحة Commandments of Trucial States Police Forces وتكون على اتصال مع قوة كشافة عمان TOS ، وأن ترجع عند الضرورة إلى مجلس الإمارات المتصالحة TSC.[٣٥]

لقد كان زايد يطبق في هدوء سياسة جديدة هي سياسة "الخطوة خطوة" ، ويتجنب "سياسة الدمج المباشر" المباغتة في هذه المرحلة المبكرة . ويعلق الوكيل البريطاني في دبي على موقف زايد هذا بأنه "موقف غير مريح ولكننا مضطرون لقبوله"[٣٦]. وتخوفا من أن يتبوأ زايد مركزا مرموقا داخل المجلس، يفسد على بريطانيا كامل خططها، سعت بريطانيا إلى تحقيق شيء من التوازن الذي يخدم مصالحها، وإحداث انقسام داخل المجلس بتدعيم مكانة الشيخ صقرحاكم رأس الخيمة بصفته رئيسا للمجلس في اجتماعه التاسع والعشرين ، وذلك في محاولة من بريطانيا لإبعاد زايد مؤقتا عن أن يلعب دور الرئيس[٣٧].

ولم يبد زايد اعتراضا على ألا يكون رئيسا، بل أثنى على الشيخ صقر، واعتبره اختيارا جيدا، وقال إنه سيتشاور مع باقي الشيوخ، فإذا اتفقوا على ذلك، يستمر الشيخ صقر رئيسا. وإذا حدث خلاف حول أي من بنود أجندة الاجتماع، فلا بد من العودة إليه قبل عقد الاجتماع(٣٨). وهنا نلاحظ أن زايدا لم يحرص على أن يستأثر لنفسه بالرئاسة التي كان مؤهلا لها، ولكنه في الوقت نفسه رأى ألا مفر من العودة إليه عند الضرورة .

فلم يكن زايد ليترك البريطانيين يعبثون في توجيه مستقبل الإمارات على هواهم، أو ينفذون من خلال الخلافات بين الشيوخ إلى ما يريدون. فنراه قبيل اجتماعات المجلس يلتقي والشيخ راشد في اجتماع خاص، لتصفية الأجواء بينهما، وتطوير العلاقات بين إمارتيهما ، في مبادرة طيبة لقيادة جماعية لإمارات متصالحة قوية ومتطورة(٣٩).

وفي اجتماعات مجلس حكام الإمارات المتصالحة، التي عقدت خلال الفترة من ٢٩ أغسطس إلى ٢ سبتمبر ١٩٦٧، لعب الشيخ زايد دورا رياديا في توجيه المجتمعين للعمل طبقا لأفكاره بشأن "التعاون" فيما بينهم، بعيدا عن دور مكتب تطوير الإمارات المتصالحة الذي توجهه بريطانيا، كما عمل كذلك على تعجيز دور مجلس الحكام، الذي يعمل في الأصل بتوجيهات وخطط بريطانية، وبذلك وضع كلا من المجلس والمكتب " في الإطار الذي يعمل فيه على تحقيق تطلعاته الوحدوية فقط "، على حد وصف القائم بأعمال الوكيل السياسي في دبي(٤٠).

هكذا ذهب زايد إلى اجتماعات مجلس حكام الإمارات المتصالحة بموقف قوي يضع العمل الوحدوي المستقل عن التوجهات البريطانية أمام الجميع (إخوانه الشيوخ وبريطانيا معا)؛ ومن ذلك رفضه اقتراح بريطاني بإنشاء مكتب مركزي لسجلات الجريمة Central Criminal Records Office، ورفضه اقتراح آخر بإنشاء سجن مركزي Central Prison، وكذلك رفضه اقتراح ثالث بإنشاء مدرسة تدريب مركزية للشرطة Central Police Training School؛ لا لشيء

إلا لأن ذلك كله كان يعرض بناء على مقترحات بريطانية وينتقص من سيادة الإمارات المتصالحة. ولم يقف زايد موقفا سلبيا مكتفيا بالرفض، ولكنه قدم بدلا من ذلك اقتراحا بإنشاء كلية لتدريب الشرطة في أبوظبي Police Training College in Abu Dhabi يمكنها أن تستقبل الطلاب من كل مكان في الإمارات المتصالحة. وكان رد الفعل على مواقف زايد إيجابيا وفوريا من جانب إخوانه الشيوخ، إذ أصبح مقر إقامته في اليوم التالي للاجتماع(٣٠ أغسطس) ملتقى لزواره من الشيوخ الحكام، فقد صار الرجل عنصر استقطاب وقيادة فاعلة داخل المجلس(٤١).

وتأكد دور زايد وتوجهاته في إحدى جلسات المجلس التالية، التي سادتها خلافات بين الأعضاء حول الأمور المالية المتعلقة بنشاط مكتب التنمية، إذ لم يشارك الشيخ زايد بالرأي في تلك الجلسة، ولم يكتف بالصمت تعبيرا عن حالة عدم الرضا، وإنما اتخذ مبادرة خاصة خارج أعمال المؤتمر؛ فتبرع بمبلغ ٦٠ ألف ريال إلى نادي الشباب في الجميرة ؛ وبمبلغ ١٠٠ ألف ريال لبلدية الشارقة؛ وبمبلغ ٥٠ ألف ريال لنادي شباب العروبة في الشارقة ؛ ووعد بإنشاء طريق بين دبي والخوانيج، هذا فضلا عن إنشاء الطريق بين الذيد والشارقة، واضعا بذلك فكرة العمل الوحدوي موضع التنفيذ(٤٢).

كان الشيخ زايد يتصرف طبقا لما يراه مناسبا لنفسه ولبلاده ولإخوانه الشيوخ، متحديا بذلك الخطط والبرامج البريطانية، التي حاولت بريطانيا فرضها من خلال المجلس، ولم يكن البريطانيون مستريحين لهذه السلوكيات التي وضعها الشيخ زايد موضع التنفيذ، والتي خرجت بالمجلس عن الخط الذي رسمته بريطانيا له. وفي سبيل مواجهة توجهات زايد، قرر المسؤولون البريطانيون اتخاذ الإجراءات اللازمة لتفادي تكرار هذا الأمر في اجتماعات المجلس التالية، وذلك بترتيب الأمور مع زايد مسبقا، ومناقشته في كل شيء بالتفصيل، بهدف تحجيم دوره في صنع القرار داخل المجلس.

لقد أدى موقف الشيخ زايد في المجلس إلى إحساس المسئولين البريطانيين بالإحباط؛ لأن ما كانوا يطمحون إلى تحقيقه لم يتحقق، ولن يتحقق طالما ظل زايد يتبنى مثل تلك السياسات. فزايد يرى أن دور مكتب التنمية هو: تنمية الجوانب المادية في الإمارات المتصالحة؛ مثل إمدادات المياه والكهرباء، وبناء المستشفيات، والاتصالات. ومكتب التنمية بذلك إنما يستهلك ثلث الميزانية في إدارته فقط وهي إدارة بريطانية، هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى، اعترض زايد على أية محاولات يقوم بها المكتب لتقليص صلاحيات الحكام أو الانتقاص من سيادتهم؛ ولهذا السبب كانت معارضته لإنشاء مدرسة للشرطة، وسجن مركزي، ومكتب سجلات مركزي للجرائم ، فهذه جميعا كانت في تقديره من الأمور التي تؤثر على سيادة الإمارات المتصالحة. فهو لم يكن مستعدا لتقديم تنازلات تتعلق بالسيادة من ناحية، ولم يكن مطمئنا إلى أن مكتب تنمية الإمارات المتصالحة سيكون دائما في أيد أمينة(٤٣).

ويفسر القائم بأعمال الوكيل السياسي في أبوظبي معارضة زايد لأي نمو في صلاحيات مكتب التنمية بأمور شخصية، إذ يرى أن سماح زايد لهذا المكتب بأية صلاحيات إضافية سوف تقف عائقا أمام ظهوره كشخصية سياسية مؤثرة وحيدة في المنطقة . فالرجل في نظره "كان قبل عام واحد زعيما بدويا لا يعرف كيف تدار أمور الدول الحديثة، شأنه في ذلك شأن الرجل البدوي الذي لا يمتعه أكثر من أن يجلس في مجلسه والناس من حوله؛ ويتحدث إليهم فيما يروقه من موضوعات"، وبعد هذا العام يدخل زايد في مواجهة مع صناع السياسة البريطانية. هكذا أصبح زايد عائقا في سبيل توجهات السياسة البريطانيـــة، "ولا أحد يبذل أدنى جهد لوقفه عن أن يكون عائقا في مسيرة المجلس، حتى الشيخ صقر رئيس المجلس لا يستطيع أن يقوم بهذه المهمة"(٤٤).

توافقت رؤية بلفور المقيم السياسي في البحرين، مع رؤية نوتال في أبوظبي، حول أن زايدا قد أفسد الخطط البريطانية، ولكن المقيم السياسي، الذي

بدا وكأنه يرفض التسليم بالفشل، أقر بأنه ساهم بدور في إفساد مخططات زايد المضادة للسياسة البريطانية؛ "فهذا المكتب لا يعدو أن يكون الذراع التنفيذية للمجلس، وليست هناك نية لدى بريطانيا في أن تجعله سلطة مستقلة؛ فهو معني بالمشروعات أكثر مما هو معني ببرامج التنمية، أو بالمشروعات الأخرى التي يعنى بها المجلس. ومن ناحية أخرى فإن الهدف من إنشاء المجلس يتعدى مجرد الاهتمام بالإمارات الفقيرة، والتضحية بشيء من السيادة أمر مطلوب في أي نوع من السياسات المتبادلة بين الإمارات وبعضها"(٤٥).

يعتبر إقرار المقيم السياسي البريطاني هذا ذو مغزى؛ فهو **من ناحية** اعتراف بدور زايد الريادي ، **ومن ناحية أخرى** اعتراف بأن على بريطانيا أن تحسب حسابه في المستقبل، **ومن ناحية ثالثة** تتأكد شكوك زايد في حقيقة دور ونشاط مكتب التنمية . ولم يجد بلفور مفرا من أن يقول : **"علينا إما أن نغير خطط زايد أو أن نغير خططنا"** "we must either change Zaid's policies (٤٦)
. or ours"

وهكذا بدأت مرحلة من الصدام بين سياستين ؛ سياسة بريطانيا التي أوجدت لنفسها أرضية قوية في الإمارات المتصالحة منذ سنوات طويلة تعود إلى مطلع القرن التاسع عشر، وسياسة زايد التي تسعى لتغيير هذا الواقع ورفضه بوضع سياسة بديلة تنبع من المنطقة طبقا لمصالحها ، ويشكل هـذا التوجه جوهر سياسة زايد في العمل من أجل رسم خريطة المستقبل للمنطقة .

وجريا على النهج الذي وضعه لنفسه، وإصرارا منه على وضع سياسته موضع التنفيذ، اعترض زايد في الاجتماع الثلاثين لمجلس الإمارات المتصالحة على تمويل بناء مستشفى للأمراض العقلية، لمجرد أن ذلك الاقتراح سيتم تنفيذه من خلال مجلس الإمارات المتصالحة البريطاني التشكيل، واقترح بدلا من ذلك إنشاء المستشفى كاملا في أبوظبي وعلى نفقتها الخاصة، لعلاج كافة أبناء

الإمارات المتصالحة. وهي السياسة نفسها التي تبناها بشأن إنشاء كلية للشرطة. وفي هذا الاجتماع علقت كثير من الأمور بناء على رؤية الشيخ زايد، واتفق على الكثير من الأمور بناء على موافقته، إذ كان صوته مسموعا، ولم يجد البريطانيون مفرا من التجاوب معه على مضض(٤٧). ولعل أهم ما يميز سياسة زايد في هذه المرحلة المبكرة من ممارسته للسلطة في أبوظبي، أنه كان قادرا على وضع الأفكار البديلة محل تلك التي يعترض عليها، ولذلك كان نجاحه مؤكدا وكاسحا .

تقويم البريطانيين لتوجهات زايد الوحدوية :

جرى ذلك كله ولم يمض على الشيخ زايد في السلطة سوى ثلاثة أشهر فقط، وأصبحت شخصيته القيادية محل دراسة الدوائر البريطانية في المنطقة. إذ كتب فيه المقيم البريطاني يقول :

"إن من يلتقي الشيخ زايدا، في مركزه الجديد كحاكم لأبوظبي، لن يجد صعوبة في أن يندهش بالميزتين اللتين تميز بهما بشكل واضح، وهما: شخصيته الذكية والواعدة، وقدرته وحكمته في توظيف الثروة الهائلة التي بين يديه . وبالرغم من أنه يقدر الاستشارات التي نقدمها له، فإن ذلك قد يقوده إلى تبني سياسات قد لا نرغب فيها ، أو أن يرفض سياسات نريده أن يتبناها . وبالرغم من التأكيدات المتكررة ، فإن زايد لا يزال رافضا الموافقة كتابة على اقتراحنا بأن يضع قواته الدفاعية التي ينميها بسرعة تحت قيادة قوة كشافة عمان TOS ، وأن تجري عملية تسليحها وتدريبها بالتعاون مع قوة الكشافة"(٤٨).

هكذا كان زايد مستقلا في آرائه، بعيد النظر في طموحاته، لا يعطي بالا للضغوط البريطانية على حساب المستقبل البعيد للإمارات الصغيرة، والبريطانيون يعرفون جيدا أنه يفضل أن تكون علاقاته مع الإمارات الصغيرة

نوعا من الرعاية patronage وليس كما يتمنى البريطانيون نوعا من المشاركة collaboration. ويفسر المقيم السياسي ذلك بقوله: "ربما يكون السبب مفهوما؛ فقد يؤدي ذلك إلى تعقيد الأمور مع دبي الجارة الكبرى، التي تسعى بطريقة مختلفة إلى ضم الإمارات الشمالية إليها"(٤٩).

ويتحفظ المقيم السياسي على سياسة زايد "ويعتبره متحمسا إلى مجموعة من خطط التنمية المتنوعة والشاملة، التي قد تخلق مشاكل اقتصادية واجتماعية، ليس فقط له وإنما كذلك لجيرانه" في إشارة إلى تبعات الطفرة المتوقع حدوثها نتيجة الثروة المتدفقة على أبوظبي. ولكن المقيم السياسي يلتمس العذر لزايد، "الذي عانى شعبه كثيرا من سلبيات سياسات سابقة، والذي يريد أن يرى أوجه التطور السريع في بلاده". والخلاصة عند المقيم البريطاني هي"أن الشيخ زايد لديه إمكانيات عالية، وآراؤه فيما يتعلق بالخليج على اتساعه موضع تقدير، فهي آراء إيجابية وتقدمية"(٥٠)، وإن كانت لا تنسجم مع توجهات الحكومة البريطانية .

وطبقا لرؤية الوكيل البريطاني في أبوظبي، فإن أبوظبي منطقة صغيرة بالنسبة للشيخ زايد، الذي يحترم استقلال إمارات الخليج، ويشجع على الصداقة والتعاون بينها بكل الوسائل، وهو يرى نفسه يلعب الدور الرئيس في توطيد هذه السياسة، موظفا إمكانياته وقبوله الشعبي، وموظفا أموال بلاده المتنامية لخدمة هذه السياسة. وهو يعتبر **النموذج الأوربي للشيوخ العرب التقليديين** ؛ قادر على الدخول إلى أي مجموعة أو صحبة والاندماج فيها، ليس لديه طباع حادة أو رسميات، يجيد لعب الدور الذي يقوم به الشيخ العربي، يريد أن يكون **"أبا لشعبه"**، لا يرفض استقبال الزوار الأوربيين في مجلسه، ويرحب باستقبال التحية من رعاياه البدو(٥١).

وخلف هذا المظهر الخارجي يوجد شخص آخر : ذكي ، صبور، منطقي في مناقشاته، يعلم ما يريد أن يفعل، لديه تقدير فطري للاحتياجات السياسية

لإمارات الخليج . تعامله مع رعاياه ممتاز بسبب الخبرة الطويلة كحاكم للعين . وهو متفائل جدا بشأن العلاقات بين أجزاء الإمارة، ومتأكد من أنه طالما أن سياسته تهدف إلى المصلحة العامة فلا بد أن تنجح(٥٢).

ويواصل الوكيل البريطاني تقويمه للشيخ زايد، فيصف سياسته الخارجية، وخاصة سياسته نحو جيرانه، فيرى أن أبوظبي تعتبر منطقة صغيرة بالنسبة للشيخ زايد. إن سياسته المعلنة هي احترام استقلال إمارات الخليج، وتشجيع الصداقة والتعاون بينها جميعا بكل الوسائل، وهو يرى نفسه يلعب الدور الرئيسي في توطيد هذه السياسة، موظفا إمكانياته وقبوله الشعبي، وموظفا أموال بلاده المتنامية لخدمة هذه السياسة. وهو كثيرا ما يقول إنه ليس لديه طموحا في المنطقة. وهذا ليس صحيحا، فهو طموح، وهو لم يعترف بهذا الطموح حتى أمام نفسه. ولكن طموحه مبني على اعتقاد خفي يرجحه بقـــوة تفوقه المادي(٥٣) .

خاتمة :

هكذا جرى رصد توجهات زايد الوحدوية عبر سنوات ثلاث، كما سجلها الدبلوماسيون البريطانيون في الوثائق الرسمية للحكومة البريطانية، وأجمعت كافة السجلات المعنية بهذا الأمر على أن الشيخ زايد كان من أكثر قادة المنطقة حرصا على قيم العمل الوحدوي ، مثل: التعاون والتكافل والصداقة والأخوة واليد البسوطة، باعتبار أن تلك القيم هي الممهد الحقيقي للسير على طريق الإتحاد.

وقد صدق فيه هذا الحدس حين أعلنت وزارة الخارجية البريطانية في مطلع ١٩٦٨ أن بريطانيا ستنسحب من الخليج في وقت أقصاه عام ١٩٧٢. إذ ظهرت مؤشرات بأن حكام الإمارات الشمالية الذين يبحثون عن قيادة إنما كانوا يأملون في أن تكون هذه القيادة متمثلة في الشيخ زايد(٥٤).

وهكذا، حين صارت كل الظروف مهيأة، نجح زايد، من خلال توظيف قيمه العليا توظيفا جيدا ، في أن يحقق عدة أهداف في وقت واحد :

الأول أن يكسب ثقة إخوانه حكام الإمارات ،

والثاني أن يحفظ لهم دورهم في قيادة مجتمعاتهم ،

والثالث أن يضع نواة فكرة العمل الجماعي موضع التنفيذ ،

والرابع أن يحقق أنجح تجربة وحدوية في العالم العربي المعاصر، قامت على أسس تبناها ودافع عنها ، وتحدى بها توجهات الدولة الكبرى الوحيدة في المنطقة (بريطانيا) .

والسؤال الذي يطرح نفسه بقوة في نهاية هذه الدراسة هو: هل كان لدى زايد خطة استراتيجية بعيدة المدى في هذا الوقت المبكر بشأن توحيد المنطقة، حتى قبل أن يتولى السلطة في إمارة أبوظبى ؟ أم أن فطرته السوية هي التي كانت توجهه في هذا الاتجاه ؟

أيا ما كانت الإجابة، فالذين يعرفون الرجل عن قرب يدركون أن فطرته السوية انسجمت تماما مع رؤيته الصائبة لواقع المنطقة واحتياجاتها المستقبلية، فعملت الفطرة السوية والرؤية الصائبة معا في انسجام تام، بحيث لقيت أفكاره القبول والرضا والتأييد من أقرانه، فتضافرت جهود الجميع من أجل تحقيق الإتحاد على النهج الذي وضعه زايد، وسوف يظهر ذلك بوضوح في المرحلة التالية من جهوده الوحدوية، أي من ١٩٦٨ إلى ١٩٧١ .

الحواشي

(1) كتب هذا المقال في حياة الشيخ زايد.

(2) Minute by Prime Minister, 22 Dec. 1964, PREW 13/3326

(3) في عام 1952 تأسس مجلس حكام الإمارات المتصالحة TC الذي يضم حكام الإمارات المتصالحة السبع ، بهدف تبني سياسات مشتركة في شئونهم الإدارية ، بما يفضي ربما إلى تكوين اتحاد فدرالي .

(4) يقسم البريطانيون الإمارات العربية التسع في الخليج إلى أربع كبار The big Four هي: أبو ظبي ودبي والبحرين وقطر ، وخمس صغار The Little Five هي : الشارقة ورأس الخيمة والفجيرة وعجمان وأم القيوين .

(5) وحدة العملة المتفق عليها هي الريال ، الذي يساوي روبية هندية واحدة .

(6) Balfour Paul (Dubai) to F.O., 27 May 1965, F.O. 371/179740.

(7) Political Agent, Abu Dhabi, to F.O., London, 17 May 1965, F.O. 371/179740.

(8) D. Cartwright (Political Agency Bahrain) to F.O. (London) 12 July 1965, F.371/17974.

(9) لم توقع الإمارات الخمس الأخرى، نظرا لعدم وجود غطاء مالي لها. انظر:

F.O. (London) 12 July 1965, F.O.

(10) Cartwright (Political Agency Bahrain) to371/179740.

(11) W. H. Luce (Residency, Bahrain) to D. A. Roberts (Political Agent, Dubai) 2 May 1966, F.O. 371/185167.

(12) Lamb (Abu Dhabi) to F.O. 19 May, 1966, F.O. 371/185167..

(13) W. H. Luce (Residency, Bahrain) to Lamb (Agent, Abu Dhabi) 4 June 1966, F.O. 371/185167.

(14) Ward (Agent , Doha) to F.O., 371/185167.

(15) Lamb (Agent , Abu Dhabi) to Luce (Residency , Bahrain) 9 June 1966, F.O. 371/185167.

(16) Memo. By F.O. about Shaikh Shakhbout (no date), F.O. 371/185527.

(17) Nuttall (Agency , Abu Dhabi) to F.O., 10 Aug. 1966, F.O. 371/185527.

(18) Balfour-Paul (Residency , Bahrain) to F.O., 12 Aug. 1966, F.O. 371/185527.

(19) Nuttall (Agency , Abu Dhabi) to F.O .,11 Aug. 1966., F.O. 371/185527.

(20) T. J. Clark (Agency , Dubai) to F.O. 13 Aug. 1966, F.O 371/185528.

(21) T. J. Clark to M. R. Melhuish (Political Residency, Bahrain) 17 Aug. 1966, F.O. 371/185528.

(22) Lamb (Abu Dhabi) to Balfour – Paul, (Bahrain) 15 Aug. 1966, F.O. 371/185527.

(23) Lamb (Agency , Abu Dhabi) to Balfour – Paul (Bahrain) 17 Aug. 1966, F.O.371/185528.

(24) Ibid.

(25) Ibid.

(26) Ibid.

(27) Lamb (Abu Dhabi) to Balfour – Paul (Bahrain) 17 Aug. 1966, F.O. 371/185528.

(28) Political Agent, Dubai to F.O. 21 Aug. 1966, F.O. 371/185528.

(29) Political Agent, Abu Dhabi, to Political Resident, Bahrain, 22 Aug. 1966. F.O. 371/185528.

(30) Foreign Office (London) to Residency (Bahrain), 16 Sept. 1966, F.O. 371/185527.

(31) D. A. Roberts, Political Agent (Dubai) to Sir Stewart Crawford, Political Resident (Bahrain), 22 Dec. 1966, F.C.O. 8/825

(32) Ibid.; Minutes of the 27th meeting of the Trucial States Council, Dubai, 16 Nov. 1966, F.C.O. 8/825.

(33) H. G. Balfour – Paul, Political Resident (Bahrain) 29 Dec. 1966, F.C.O. 8/825.

(34) Lamb, Political Agent (Abu Dhabi) to Foreign Office, 25 March 1967, F.C.O. 8/825.

(35) Ibid.

(36) D. A. Roberts (Dubai) to H. G. Balfour – Paul (Bahrain) 23 March 1967, F.C.O.8/825.

(37) D. A. Roberts (Dubai) to S. J. Nuttall (Abu Dhabi), 7 Aug. 1967, F.C.O. 8/825.

(38) Ibid; S. J. Nuttall (Abu Dhabi) to D. A. Roberts (Dubai) 24 Aug. 1967, F.C.O. 8/825.

(39) Departmental Distribution (F.O.) 5 Sept. 1967, F.C.O. 8/825.

(40) T. J. Clark, Acting Political Agent (Dubai) to H. G. Balfour – Paul (Political Resident, Bahrain) 6 Sept. 1967, F.C.O. 8/825.

(41) Ibid.

(42) Ibid.

(43) S. J. Nuttall (Abu Dhabi) H. G. Balfour – Paul (Bahrain) 16 Sept. 1967, F.C.O. 8/825.

(44) Ibid.

(45) H. G. Balfour – Paul (Resident Bahrain) to S. J. Nuttall (Agent Abu Dhabi) 22 Sept. 1967, F.C.O. 8/825.

(46) Ibid.

(47) D. A. Roberts (Agent Dubai) to A. Stirling (F.O.) 28 Dec. 1967, F.C.O. 8/825.

(48) S. Crawford to Brown, 17 Nov. 1966, F.O. 371/185529.

(49) Ibid.

(50) Ibid.

(51) A. T. Lamb, Political Agent, to Stewart Crawford, 5 Nov. 1966, F.O. 371/185529.

(52) Ibid.

(53) Ibid.

(54) Stewart Crawford (F.O.) to M. S. Wein (Arabian Dept., F.O.) 19 Jan. 1968, F.C.O. 8/825

إيران وفلسطين

أ.د. محمد السعيد عبد المؤمن
أستاذ الدراسات الإيرانية بجامعة عين شمس

مدخل إلى الموضوع:

يعتبر نجاح الثورة الإسلامية في إيران وما أفرزته من نظام يتمثل في الجمهورية الإسلامية وولاية الفقيه التي تستند إلي عقائد شيعية يظاهرها فقه حي متحرك ومرن يتيح لعلمائه إمكانية التعامل مع المستجدات والتواؤم مع الشخصية الإيرانية، إضافة إلى تجربة حرب الثماني سنوات مع العراق من الموجهات الأساسية لإيران في علاقاتها مع الدول العربية، ولاشك أن قبول إيران وقف الحرب قد أدخلها مرحلة جديدة في علاقاتها مع العالم عامة، حيث استتبع هذا القرار سلسلة من التغييرات في شكل النظام وتوجهاته مع تعديل في استراتيجيته بل وتطوير في نظرية ولاية الفقيه ذاتها بما يتلاءم مع المستجدات، إلا أن اتجاه النظام الإيراني إلى الواقعية لم يكن يعني التخلي عن الأفكار الأساسية التي قام عليها، وإنما محاولة التقارب مع معطيات الدول العربية، ومن أهم هذه المحاولات الدعوة إلى وحدة العالم الإسلامي وما تتطلبه من إجراءات، حيث بادر النظام الإيراني إلى تخصيص أسبوع للوحدة الإسلامية يحتفل به كل عام في ذكرى مولد الرسول عليه السلام مابين ١٢ و١٧ ربيع الأول أي تاريخ ذكري مولده عند السنة والشيعة، يقول الزعيم خامنئي:" ينبغي على الأخوة المسلمين من سنة وشيعة أن ينسوا الماضي، وأن يوحدوا كلمتهم وتوجهاتهم وأخوتهم، ويمكن تأسيس دار للتقريب بين المذاهب على أساس التضامن والتعاون والوحدة الفكرية بين علماء السنة والشيعة، إننا لا نريد أن يدخل الأخوة من أهل السنة في مذهب الشيعة أو أن يدخل الشيعة في مذاهب أهل السنة، بل ينبغي أن تكون الوحدة

والتضامن الأخوي الإسلامي حول محور ومجال مشترك[1].

وإذا كان خامنئي قد فسر المحور المشترك بأنه محبة آل البيت باعتبارها واجبة لدى جميع المذاهب والفرق الإسلامية، ولأنها تتفق مع مبدأ التولي والتبري الإسلاميين ومبدأ اللاشرقية ولاغربية اللذين تقوم عليهما السياسة الخارجية الإيرانية، وترضي فكرة إنشاء الحكومة العالمية للإسلام التي يؤمن بها علماء الشيعة، وتسهل عملية تصدير الثورة الإسلامية، فإن خامنئي يكون قدسبق بذلك إلى نقطة وسط يمكن التباحث حولها وسوف يؤدي تطبيقها إلى تحديد حجم العلاقات بين إيران والدول العربية، بل إنها سوف تجعل هذه العلاقات في منزلة بين المنزلتين حيث تتسع وتنكمش حسبما تحدده المصالح المشتركة، وفي هذه الحالة يمكن للتقية السياسية أن تقوم بدور فعال في حل المشاكل التي قد تطرأ بين الطرفين أصحاب المصلحة، تماما كما حدث في مسألة الحج السياسي، وقد عبر الكاتب محسن شهيدي عن هذه السياسة بقوله:" لا ينبغي أن تكون سياستنا سياسة خلق أعداء، ولكننا أيضا لا ينبغي أن نلبس العدو قناع الصديق أو أن نعتبره عدوا بلا خطر[2]."

ولاشك أن متغيرات القوة الخليجية بعد حرب الخليج الثانية قد أتاحت الفرصة لإيران كي تمد جسور العلاقات إلى الدول العربية، وأن تطرح مشروعات لحل المشاكل المعلقة مع كل منها، وفيما يتعلق بأمن الخليج أيضا، ويؤكد كبار المسئولين في إيران أن من أهم التحديات التي تواجه العلاقات الإيرانية العربية هي قضية الجزر المتنازع عليها مع دولة الإمارات العربية المتحدة، وقضية وجود القوات الأجنبية في الخليج والتي تعوق التوصل إلى اتفاق حول مشروع لأمن الخليج، وقضية العلاقات مع العراق .

وقد اعتمد النظام الإيراني في تقاربه مع الدول العربية أسلوب المبادأة وهو أسلوب ضاغط لاينتظر مبادرات بل يقدمها وردود أفعاله جاهزة ليس فيها مجال للتردد، وهذا يعني أن إيران حريصة على هذا التقارب قد خططت له على المدى

القريب والبعيد ووضعت في خططها كافة الاحتمالات معتمدة على خبرتها في علاقاتها مع هذه الدول، وعلى قدرتها على التحرك السريع الفعال وإمكانات الفقه السياسي المساعدة، وهذا يعني أيضا عدم وجود احتمال للتراجع، كما يشير كذلك إلى أن هذا التقارب لن يكون على حساب مكاسب حققتها إيران في المنطقة أو في غيرها أو حتى داخل إيران، قبل الثورة أو بعد انتصارها، فإيران لا تتعامل مع الدول العربية مجتمعة ولو من خلال مجلس الجامعة العربية، وإنما يأتي تقاربها مع كل دولة على حده دون أن تتدخل في طبيعة العلاقات بين الدول، وتعتبرها شأنا داخليا ودون أن تعطي الفرصة لأي تداخل بين هذه العلاقات وبين علاقاتها بكل منها، ويبدو أن الدول العربية قد فهمت الإشارات الإيرانية في هذا الصدد وتسعى لاحترام هذه الرغبة.

إن مستقبل التقارب الإيراني العربي رهن بالتحركات الإيرانية، وإيران تعي ذلك تماما، ومن ثم فهي لا تقف عند محاولات تحسين العلاقات التقليدية، وإنما تبادر لتعميق وتطوير سبل التقارب لتشمل كافة المجالات من سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية، رغم الاختلافات الجوهرية في هذا المجال وتسعى لابتكار وسائل وأساليب جديدة في هذا الصدد، وما جمعيات الصداقة التي تنشئها من جانب واحد إلا حلقة من سلسلة محاولاتها المستمرة في هذا الشأن، يقول أحمد پور نجاتي رئيس جمعية الصداقة الإيرانية السعودية:" إن الجمعية تهدف إلى القيام بدور المعادل في العلاقات بين طهران والرياض بعيدا عن التقلبات السياسية، والأخذ بمبدأ علاقة الصداقة، ولذلك فهي تعتمد على الحوافز والامكانات الشخصية والشعبية مع التنوع الاجتماعي لمشارب مؤسسيها، والاهتمام بالمجالات المشتركة الواسعة بين الشعبين لتكون عاملا مؤثرا في تعميق الروابط بين البلدين، لذلك فقد طالبت هذه الجمعية المسئولين في الدولتين أن يأخذوا أهداف الجمعية على محمل الجد ويتعاملوا معها بإيجابية وفعالية(٣)."

إيران والقضية الفلسطينية:

يقوم الرأي الإيراني حول اليهودية على نفس الأساس الذي وضعه الإمبراطور قورش الأول مؤسس أول إمبراطورية فارسية عند تحريره اليهود من السَّبْي البابلي، وهو أن اليهود جنس له شبه كبير بالجنس الآري، ويمكن الاستفادة منه من خلال إغرائه بالمال. وقد استفاد النظام الإيراني من اليهود استفادة كبيرة خلال الحرب مع العراق كوسطاء يعقدون الصفقات مع الدول الغربية واليهود غير الإيرانيين؛ لإمداد إيران بما تحتاجه من المُؤن والعتاد خلال فترة الحصار الأمريكي مقابل عمولات معقولة، لإدراكه أن هذه الأموال سوف تعود من خلال دوران رأس المال اليهودي في الاقتصاد الإيراني.

أما الصهيونية فهي العدو الحقيقي لإيران؛ لأن استراتيجيتها تتعارض تعارضًا تامًّا مع استراتيجية النظام الإيراني، كما أن أنشطتها الفعَّالة تتقاطع مع الأنشطة الإيرانية في مختلف أنحاء العالم.

وهنا ينبغي أن نسعى إلى محاولة فهم لهذا النموذج الفاعل لأنه يؤثر تأثيرا مباشرا على الحركة المصرية تجاة القضية الفلسطينية، وداخل المنطقة ومصالحها فيها، ويمس مختلف المجالات الحيوية من سياسية وأمنية واقتصادية وثقافية، والمتمثل في نموذج التفاعل بين الشخصية الإيرانية والشخصية اليهودية، وهما شخصيتان قطبان في المشروع الجديد لمنطقة الشرق الأوسط شئنا أم أبينا، وبغض النظر عما تعلنان وما تخفيان من مواقف وسياسات، فإن ثمة خيوط تجمع بينهما منها ما هو ظاهر على السطح ومنها ما يمتد في الأعماق، إلا أن الدراسة التحليلية المقارنة تكشف عن عناصر التواصل والتقاطع بين هاتين الشخصيتين.

أولا: السمات الحضارية المشتركة:

اختلاط القومية بالديانة والمذهب. فالتاريخ الأسطوري لإيران والإسرائيليات اليهودية يمثلان وجها شديد الوضوح لهذا الاختلاط، فرغم أن هذا التاريخ لا

يستند إلى الوثائق والآثار بل إلى روايات تتناقلها الأجيال منذ أقدم العصور إلى يومنا هذا، فإن معتقدات دينية ومذهبية تغذيها وتدعمها، فضلا عن عناصر البيئة الجغرافية بما لها من ظروف طبيعية خاصة ومتميزة، وقد استطاعت الشخصية الإيرانية أن تقيم وشيجة متينة بين الدين الإسلامي والتراث الفكري والثقافي الإيراني القديم من خلال المذهب الشيعي الذي ارتضه نموذجا يعبر عن هذا الائتلاف بين القومية والدين، كما استطاعت الشخصية اليهودية أن تقيم جسرا من الترابط والانسجام بين الشخصية الاسرائيلية

١- والديانة اليهودية من خلال الوعاء الصهيوني كمرآة انعكست عليه تلك الصورة المزدوجة التي جعلت القومية تبدو دينا والدين يبدو قوميا، ولسنا بحاجة هنا لتقديم التفاصيل لكن الجدير بالذكر أن نظام الجمهورية الإسلامية ومبدأ ولاية الفقيه الذي يقوم عليه، ودولة إسرائيل والنظام الديني الذي تقوم عليه، يمثلان شاهدا حيا على هذه الخاصية التي تجمع بين الشخصيتين.

٢- يرتبط بهذه الخاصية خاصية أخرى أشد عمقا وتأثيرا وهي التوجه إلى الماضي بقدر الاتجاه إلى المستقبل لدي الشخصيتين، بل إنهما تجعلان من المستقبل انعكاسا وامتدادا للماضي، فالاتجاه إلى المستقبل بالنسبة للشخصية اليهودية مقرون بحلم العودة إلى أرض الميعاد، والاتجاه إلى المستقبل بالنسبة للشخصية الإيرانية مقرون بعودة المهدي المنتظر وإقامة الحكومة العالمية للإسلام، وتنصرف كل الجهود لتهيئة الزمان والمكان والظروف لهذه العودة بما فيها إقامة الجمهورية الإسلامية تحت ولاية الفقيه. وتدل الأحداث التي ترتبها الشخصيتان الإيرانية واليهودية على أن هذا التوجه يدعمه الأمل ويغذيه العمل الدءوب والفكر الخلاق.

٣- التجديد الحضاري في إطار من الثورية المتجددة يمثل احد العناصر الثابتة في الشخصيتين الإيرانية واليهودية، بما يدلل على موقعهما في بؤرة الحضارة، وقدرتهما على ابتكار الوسائل والأساليب التي تحقق أهدافهما وطموحاتهما، حيث بلورت الشخصيتان من خلال إقامة نظاميهما الجديدين في دولتيهما المستقرتين نوعا من الثورة الدائمة التي تسعي لتقيق الوظيفة الحضارية في قيادة العالم نحو تحقيق الكمال الإنساني وفق منظوريهما، فالثورة الإسلامية في إيران تجديد لشباب ثورة الحسين بن علي رضي الله عنه ضد الفساد والظلم، وهي ثورة دائمة حتى ظهور المهدي وحتى آخر الزمان، وهي ثورة واسعة لا تقف عند حدود إيران، بل تقوم بتصديرها إلى جميع البلدان الإسلامية، ثم إلى جميع بلدان العالم، لأن تصدير الثورة الإسلامية هو التعبير الحركي عن مفهوم الثورة الدائمة، وهي بهذا تصنع مفاهيمها ومدركاتها من منطلق قيم آل البيت عليهم السلام، وتأصيل الترابط بين الدين والسياسة، وتطوير معاني المصطلحات من محدودية ولاية الفقيه إلى الحكومة العالمية للإسلام، أو حكومة العدل الإلهي والديمقراطية الإسلامية. وإسرائيل تقوم بهذا الأمر من خلال تقديم نموذج حضاري يشير إلى قدرة الشخصية الإسرائيلية على نقل الوجود العبري من حضارة الجيتو والعصور الوسطى إلى حضارة عصر النهضة ثم حضارة القرن العشرين ثم استشراف حضارة المستقبل، ومن ثم قدرة هذه الشخصية على إنشاء واحة الأمان والديمقراطية والتقدم الحضاري، لتكون مشعلا ينبعث في المنطقة ليضيء لأهلها سبل السلام والنهضة، وهو ما استطاعت أن تقنع به العالم الغربي وتحصل على دعمه وتأييده.

٤- توظيف المدركات الفكرية لخدمة المصالح الحيوية خاصية واضحة لدي الشخصيتين الإيرانية واليهودية، فاعتقاد الطرفين جازم

بظهور مخلص آخر الزمان، وهو يعطي كلا منهما استثنائية وخصوصية لا تتاح لغيرهما، بحيث يتم توظيف هذا الاعتقاد في شكل تكليف إلهي لكل من الشعبين بالقيام بوظيفة محددة تتمثل في قيادة شعوب العالم، من خلال ترويج فكرة الكمال الروحي لدى الشخصيتين والذي يؤهلهما للقيام بالوظيفة التاريخية، أي الوظيفة الحضارية التي أصبحت تعبيرا عن الحق المقدس في فرض السيادة على العالم. وإن كانت الظروف التاريخية التي مرت بهاتين الشخصيتين قد عمقت إحساسهما بالغربة والانعزالية، فقد تم توظيف هذا الاحساس في إطار التفرد الذاتي والاصطفاء الإلهي.

إن دراسة التفاعلات التي تحدث بين الشخصيتين الإيرانية واليهودية من خلال الظروف التي مرت بهما أمر ضروري، لأنه يفسر كثيرا من السياسات والاستراتيجيات التي يقوم عليها نظاميهما السياسي من ناحية، وحركتهما الفعالة في المنطقة تجاه بعضهما البعض وتجاه دول المنطقة الأخرى من ناحية أخرى. إن ما يبدو من خلاف يصل إلى حد العداء السياسي بين إيران وإسرائيل في الوقت الراهن لا يعبر عن حقيقة التفاعل بينهما، فليس من الممكن تجاهل أثر التفاعل التاريخي على التوجهات الحالية، فلن تستطيع الشخصيتان أن تنسيا محنة السبي البابلي الذي كان له أكبر الأثر في تقاربهما، فإذا كان الإمبراطور قورش الأول زعيم الدولة الفارسية قد استطاع أن يخلص اليهود من هذه المحنة، ويسكنهم أرض دولته في غرب إيران، ويمنحهم كل امتيازات المواطن الإيراني، فقد استفاد بهم في بناء دولته، ودعم الحضارة الأكمينية القديمة، فقد لعب الإسرائيليون دورهم ببراعة في المساعدة على بناء وترسيخ هذه الحضارة الفارسية بما جعلهم شركاء فيها، ومنحهم مكانة خاصة لدى الإيرانيين، كما صار لقورش الفارسي مكانة خاصة عند بني إسرائيل.

لقد ظل الدور اليهودي ممتدا عبر العصور تحت الدعم الإيراني، فتجلت صور التفاعل بين الشخصيتين في العصر الحديث سواء في عهد الأسرة البهلوية وخاصة محمد رضا شاه، في المجالات السياسية والعسكرية والاقتصادية والثقافية، أو في عهد الجمهورية الإسلامية عندما استطاع هذا التفاعل أن يخلص النظام الحالي من مأزق الحصار الاقتصادي والعسكري خلال الحرب العراقية الإيرانية، ويوفر له كل ما يحتاجه من أسلحة وقطع غيار ومواد أولية واستراتيجية وطبية، فضلا عن السيولة النقدية بالعملات الأجنبية والمبادلات التجارية، إضافة إلى المعلومات والوسائل التقنية.

من الأهمية بمكان أن ندرك حقيقة التفاعل بين إيران وإسرائيل في إطار مشروع الشرق الأوسط الجديد من خلال مبدأ المصلحة، الذي يعتبر ركنا أساسيا في عقائد هاتين الشخصيتين، وهو يسمح لهما باتخاذ مواقف ظاهرة لا تعبر عن حقيقة التعاملات المستترة التي لها ما يبررها سواء على مستوى الفكر القومي أو الفكر العقائدي، وهو ما سوف تكشف عنه الأحداث المستقبلية. إن التحالف الذي يمكن أن يتم بين هاتين الشخصيتين في إطار عقيدة المصلحة وهو أمر غير مستبعد سوف تكون له آثاره السلبية على الدول العربية وخاصة مصر، وهو ما ينبغي أن يعمل له حساب خاص منذ الآن.

تطور المواقف الإيرانية من فلسطين:

لقد كانت إحدى اللاءات الثلاثة التي اعترض بها الخميني على الشاه والتي أدت إلى اعتقاله ثم نفيه هي لاعلاقات مع إسرائيل، وكان الكتاب الذي ترجمه رفسنجاني من العربية إلي الفارسية وأدى إلى اعتقاله هو كتاب قضية فلسطين للكاتب أكرم زعيتر، وعندما عاد الخميني إلى إيران منتصرا كانت العلاقات الدبلوماسية مع إسرائيل قد قطعت، فقدم مكتب التمثيل الإسرائيلي في طهران

هدية لمنظمة التحرير الفلسطينية، وأثبتت الأيام التي تلت ذلك أن القضية الفلسطينية قد صارت قضية محورية في فكر نظام الجمهورية الإسلامية الذي أقامته الثورة في إيران، إلا أن إيران قد فرقت منذ البداية بين تعبيرين أساسيين هما اليهودية والصهيونية، ويقوم الفكر الإيراني على إمكانية التعامل مع اليهود على نفس الأساس الذي وضعه الإمبراطور قورش الأول مؤسس أول امبراطورية فارسية عند تحريره اليهود من السبي البابلي، وأنه يمكن الاستفادة منهم من خلال إغرائهم بالمال، وقد استفاد النظام الإيراني من اليهود استفادة كبيرة خلال الحرب مع العراق كوسطاء يعقدون الصفقات مع الدول الغربية واليهود غير الإيرانيين لإمداد إيران بما تحتاجه من المؤن والعتاد خلال فترة الحصار الأمريكي مقابل عمولات معقولة، لإدراكه أن هذه الأموال سوف تعود من خلال دوران رأس المال اليهودي في الاقتصاد الإيراني. أما إسرائيل الصهيونية فهي مرفوضة بالنسبة لإيران لأن استراتيجيتها تتعارض تعارضا تاما مع استراتيجية النظام الإيراني، كما أن أنشطتها الفعالة تتقاطع مع الأنشطة الإيرانية في مختلف أنحاء العالم، مما يجعلها قطبا متنافرا مع إيران ويجعل العلاقات بينهما تبدو مستحيلة، ويؤكد الإيرانيون أن تحديات هذه العلاقات تحديات أمنية بالمعنى الواسع، لذلك فإن الموقف الإيراني من القضية الفلسطينية لا ينبع من فراغ بل من معطيات عقائدية وسياسية واقتصادية وحضارية تجعل الإيرانيين يفصلون بين أمرين أساسيين في القضية، وهما حقوق الشعب الفلسطيني ومسألة القدس وعلى هذا فإن المواقف الإيرانية ليست واحدة مع كلا الأمرين، حيث تبدو متغيرة حسب الظروف والأحداث تجاه حقوق الفلسطينيين، وتبدو ثابتة تجاه مسألة القدس، فالقدس لها قيمة كبيرة لدى الإيرانيين منذ آلاف السنين عندما حررها الإمبراطور قورش الأول من أيدي البابليين وصاهر أهلها، ثم أصبحت قضية جهادية لدى إيران تطبق عليها قواعد الجهاد الطويل المدى، وقد جعلها الخميني أحد رموز النضال خلال الحرب العراقية الإيرانية ووضع

خطة عمليتين كبيرتين في إطار هده الاستراتيجية، اسمى الأولى عمليات طريق القدس وأسمى الثانية عمليات بيت المقدس، لكن وقف الحرب جعل هذا الشعار يفقد معناه، وينسحب من مضمون الجهاد بمعناه العسكري المباشر ويدخل ساحة الجهاد الإعلامي والسياسي، وإن كان الاهتمام الإيراني بالقضية الفلسطينية لم يفتر قط إلا أنه قد حدثت تحولات في كيفية التعامل معها، لقد حاولت إيران أن تقنع الرأي العام العربي والإسلامي أن المفاوضات مع إسرائيل لن تحل القضية، وأن الجهاد هو السبيل الأمثل لحلها، يقول اية الله خامنني في كلمته بمناسبة الذكري الأولى لوفاة الخميني:" إن قضية فلسطين هي القضية الإسلامية الشعبية الأولى وإن الكفاح وحده هو السبيل الوحيد لاقتلاع الغطرسة الإسرائيلية وإنقاذ العالم الإسلامي من الأخطار المحدقة به، وإن مهادنة وسكوت كثير من الحكومات العربية وتظاهر البعض منها باللامبالاة وعدم الحساسية تجاه مصير فلسطين قد أوصل الأمر إلى أن تعلن إسرائيل بصراحة ووقاحة ودون حياء عن نواياها القذرة، فلعنة الله وعباده الصالحين على أول أيدي امتدت بالمصالحة إلى إسرائيل ولعنة الله وأوليائه وعباده الصالحين على كل من يستمر في هذا الطريق(٤)."

لقد بادر الخميني إلى قطع العلاقات مع مصر لتوقيعها اتفاق كامب ديفيد لما ظن أن يتبادر إليه من تداعيات، يقول المحلل السياسي سيد شهيدي:" كان سبب قطع العلاقات مع مصر هو توقيعها معاهدة كامب ديفيد مع النظام الصهيوني الغاصب، فلقد نتج عن هذا العمل الذي قام به السادات تحولات سياسية وعسكرية هامة في منطقة الشرق الأوسط، ومباحثات طويلة بين العرب وإسرائيل قام على إثرها كثير من الدول بإعادة علاقاته مع النظام الصهيوني استنادا إلى أن أصحاب القضية قد حلوا مشكلتهم مع إسرائيل، وأنهم ليسوا أفضل من أصحاب القضية، ومن ناحية أخرى فإن خروج مصر من مجموعة دول المواجهة أضاع احتمال نشوب حرب تقليدية كبيرة أخري بين العرب وإسرائيل، ولذلك فقد

تغيرت استراتيجية الدول العربية حتى سوريا تجاه إسرائيل(٥)." وقد اعتبر الزعيم خامنئي رفع المقاطعة العربية لإسرائيل ولو جزئيا خيانة عظمي للإسلام والعرب والفلسطينيين وذلك في حديثه إلى ضباط القوات البرية في ١٩٩٤/١٠/٥م، كما فعل رفسنجاني نفس الشيئ في خطبة الجمعة بتاريخ ١٩٩٤/١٠/٧م، حيث اعتبرا أن دول الخليج العربية برفعها الحظر جزئيا عن إسرائيل قد قربت المسافة بين إسرائيل ونشاطاتها المعادية وبين ايران، حتى ولو كان في صورة وصول منتجات إسرائيلية إلى منطقة الخليج، لأن هذا يمثل مظهرا من مظاهر الاختراق الإسرائيلي للأمن الإيراني بمعناه الواسع.

لقد تابعت إيران أسلوبها المناهض لأية مباحثات سلام في الشرق الأوسط بين العرب وإسرائيل بوسائل مختلفة، ربما يبدو بعضها غير واقعي مثل إعلان اللواء محسن رضائي قائد جيش حراس الثورة الإسلامية عن تكوينه لجيش القدس، مؤكدا أنه الحل الوحيد ليس فقط لاسترداد الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧م بل وتحرير كافة الأراضي التي استولت عليها إسرائيل(٦). وفي نفس المؤتمر أعلن الزعيم خامنئي رفضه لأية محاولة لتغيير شكل وحقيقة القضية الفلسطينية، كما أعلن رفسنجاني أن إيران تعتبر قضية فلسطين قضيتها، وإن قرار إيران هو الوقوف في الخط الأول للجبهة ضد إسرائيل(٧). وفي هذا الإطار اختارت إيران الجمعة الثالثة من شهر رمضان من كل عام ليكون يوما للقدس تحتفل به وتطالب فيه بعودة القدس إلى المسلمين، يقول خامنئي في كلمة له بهذه المناسبة:" لو أن العالم الإسلامي اهتم بيوم القدس بمعني الكلمة، ووقف في وجه الصهاينة الغاصبين للقدس، فإن العدو سوف ينهزم ويضطر للانسحاب منها(٨)." وعندما بدأت المحادثات الفلسطينية الإسرائيلية تتخذ مسارا جادا، وأعلن عن اتفاق مبادئ لم تكن إيران هي الدولة الوحيدة التي عارضت الاتفاق ولكنها كانت الدولة الوحيدة التي نددت به واتهمت منظمة التحرير الفلسطينية بالعمالة وخيانة الشعب الفلسطيني وإضاعة لمانيه القومية وأنهت القضية بشكل استسلامي، كما اتهمتها

بخيانة الإسلام لأنها فرطت في القدس الشريف، ورغم معرفة إيران تفاصيل الاتفاق إلا انها أرادت إجهاض الحركة التفاوضية منذ البداية ، ومع استمرار المفاوضات الفلسطينية الإسرائيلية بدأت إيران تغير من ردود أفعالها تجاه القضية الفلسطينية، حيث باتت تؤكد على أن القضية الفلسطينية هي قضية الفلسطينيين، وأن إيران لا تطالب إلا بعودة الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني، كما أكدت على إمكانية قيام حكم فلسطيني إلى جانب الحكم الإسرائيلي كخطوة نحو تحقيق الهدف النهائي، وأكد خامنئي في هذا الإطار أن إيران ليست بصدد عسكرة المنطقة أو تهييجها، بل إنها تدعم السلام والأمن في الخليج والشرق الأوسط وسائر مناطق العالم، لأن السلام والأمن في المنطقة في مصلحتها ومصلحة سائر دول المنطقة[٩]. كما صرح سفير إيران في ألمانيا لمجلة اكسبريس الألمانية بأن طهران لاتعارض السلام في الشرق الأوسط بأي وجه من الوجوه وليست ضد اليهود، ولكن ينبغي أن يسمح لنا أن نعلن رأينا في السلام الدائم[١٠]

لاشك أن هذا التطور في الموقف الإيراني جاء فيما يتعلق بجانب حقوق الفلسطينيين فقط ليواكب الظروف والمستجدات الأخيرة في المنطقة، وقد استغلت إيران ما أثير حول قضايا الإرهاب، مؤكدة أن معارضة إيران للمصالحة مع إسرائيل سببها أنها دولة إرهابية، يقول الرئيس خاتمي: إن النظام الصهيوني هو أكبر مظهر للإرهاب الدولي والعنصرية العالمية، إننا نريد السلام في فلسطين، السلام الذي يتمتع فيه المسيحي والمسلم واليهودي العربي وغير العربي وكل من يعيش على أرض فلسطين بحياة مستقرة وهادئة، إن النظام الصهيوني لم يكتف بالاعتداء على حقوق الشعب الفلسطيني وإنما اعتدى أيضا على شعب لبنان وسائر البلاد العربية والإسلامية، إن اعتراضنا على النظام المحتل للقدس إنما هو اعتراض على الإرهاب في العالم، إننا نعتبر المقاومة حق مشروع للدول الحرة المعتدى عليها، وإن جمهورية إيران الإسلامية في إطار قيمها الثورية

والإسلامية سوف تدافع عن حقوق هذه الشعوب، إن إيران لا تبغي التدخل في الشئون الداخلية للدول، ولكنها تعطي لنفسها الحق في أن تدافع عن المظلوم وتعارض الإرهاب في العالم[11]. ومن هنا تعتقد إيران أن مساعدتها لحزب الله في لبنان واجب مذهبي وثوري، وأنها سوف تستمر في دعمه طالما ظلت أراضيه محتلة أو مهددة، يقول هاشمي رفسنجاني في لقائه مع نبيه بري رئيس مجلس النواب اللبناني: إننا مع تقديرنا للمواقف الشجاعة لشعب لبنان وحكومته في دعم جبهة المقاومة أمام محاولات التوسع للنظام الصهيوني نؤكد على استمرار دعم إيران للمقاومة الشعبية في لبنان، إن الأعداء يسعون دائما لإيجاد شقاق بين الدول الصديقة وتحالف جبهة المقاومة ضد النظام المحتل للقدس بأشكال جديدة، ولذلك ينبغي إن نواجه هذه المساعي المستمرة والخطيرة بيقظة ووعي[12]. وإذا كان حديث رفسنجاني يمثل رأي القيادة الإيرانية فإنه يمثل أيضا رأي النخبة السياسية من محافظين وإصلاحيين، فلاخلاف بين الجميع على دعم حزب الله اللبناني دعما مفتوحا حيث يشعر الجميع أنه أحد أبناء الثورة الإسلامية في إيران، وأن دعمه يتجاوز المصلحة وحتى مبادئ الثورة إلى التعاطف العقائدي والوجداني، ومن الواضح أنها حالة خاصة في إطار الموقف الإيراني من القضية الفلسطينية، لأن هذا الدعم لم يعد ينسحب على باقي فصائل المقاومة الفلسطينية، في حين أن الموقف الإيراني من القضية ينسحب على الجميع، مما يشير إلى أن ظهور الإصلاحيين على ساحة السياسة الإيرانية ساهم في تعديل الموقف الإيراني تجاه الفلسطينيين إلى نوع من الذاتية، حيث يري الإصلاحيون أن إصلاح الوضع الداخلي في إيران سياسيا واجتماعيا واقتصاديا على وجه الخصوص ينبغي أن يتقدم الأولويات، وأن يوجه السياسة الخارجية، ومن هنا فإن الدعم الإيراني لأية دولة أو حزب أو جماعة غير إيرانية أو شيعية ينبغي أن يخضع لمراجعات كثيرة ويجب أن يكون هدفه تحقيق مصلحة مباشرة لإيران ولذلك، فقد انتهى دعم إيران لمنظمة التحرير الفلسطينية بدعوى انخراطها في

مباحثات السلام مع إسرائيل، وكذلك انتهى الدعم الإيراني او كاد تجاه سائر المنظمات الفلسطينية ماعدا الندر اليسير لبعض جماعات المقاومة، ومع ان إيران لديها خبرات جيدة في مجال التفاوض، فإنها لم تعرض هذه الخبرات على الفلسطينيين في مفاوضاتهم مع إسرائيل، واكتفت بهذا الموقف السياسي الذي يبدو في ظاهره داعما للحقوق الفلسطينية، ولكنه لايقدم دعما واقعيا للموقف الفلسطيني، وظل هذا الموقف على هذا النحو في عهد حكومة الإصلاحيين إزاء الفكر الإصلاحي الذاتي من ناحية وللتجاوب مع الشكل الحيادي تجاه عملية السلام في الشرق الأوسط من ناحية أخرى ولظروف الأوضاع الاقتصادية التي تمر بها إيران من ناحية ثالثة.

ولقد التف الموقف الإيراني حول القضية الفلسطينية بمحاولة تحسين العلاقات مع الدول العربية وخاصة الدول الخليجية وإثبات التعاطف مع العرب تجاه قضاياهم القومية وتأكيد حسن النوايا التي تغلف التحركات الإيرانية، والحق أن الإيرانيين إذا كانوا ينسحبون بصورة منظمة من موقفهم المتشدد تجاه القضية الفلسطينية، فإنهم لم يغيروا موقفهم من قضية القدس ودعمهم لمساعي عودتها لأيدي المسلمين، إلا أن هذا الدعم يبدو غير فعال نتيجة لعدم رغبتهم في التنسيق مع الأطراف العربية الأخرى ومحاولة فرض الرأي على هذه المساعي، كما أن جيش القدس الذي كانوا قد أعلنوا عنه من قبل دخل دائرة النسيان, وبقي التركيز علي يوم القدس الذي بات شعارا يطمحون إلى جلب التفاف المسلمين حوله تحت عامتهم.

وتدرك إيران الدور الإسرائيلي في منطقة الشرق الأوسط، ومحاولات إسرائيل الاختراق إلى الدول الإسلامية في المنطقة وخاصة تركيا، ويمكن أن نلاحظ ذلك مما تنشره الصحف الإيرانية حول هذا الموضوع، ومنه ما نشرته صحيفة كيهان العربي تحت عنوان تركيا والأزمات المصطنعة(١٣)، في حين أكدت صحيفة همشهري وجود مؤسسات تسعى لتخريب العلاقات بين البلدين مثل

المخابرات الإسرائيلية، ونقلت عن مسؤول سابق في المخابرات التركية تأكيده لهذا الأمر وربطه بين هذه الأحداث وبين محاكمة اليهود الإيرانيين المتهمين بالتجسس لحساب إسرائيل في إيران(١٤).

إيران وفلسطين في إطار الخارطة الجديدة للمنطقة:

لم يعد هنالك من شك في أهمية دراسة الدول التي أصبحت تضمها خارطة الشرق الأوسط الجديد، خاصة تلك التي تقع على حدودنا الجغرافية أو تمثل قطبا يتقاطع أو يتنافس مع القطبية المصرية في المنطقة.

ولا شك أنه يتقاطع مع الخريطة الجديدة للشرق الأوسط وتوجهاتها في إطار النظام العالمي الجديد ثوابت قومية ووطنية وعقائدية متعددة، يأتي على رأسها الإسلام وخطابه الديني والثقافي والحضاري، والعروبة وتراثها الثقافي وأبعادها الحضارية والقومية، إفرازات الاستعمار المعقدة في التركيبة السكانية التي حكمت المناخ النفسي للمنطقة فترة طويلة لم تتخلص من عقدها حتى الآن.

من الواضح أن الرؤية الغربية للمنطقة تحتوي على عناصر ثابتة وأخرى متغيرة، فالعديد من المصالح الحيوية للغرب في المنطقة باقية دون تغيير، ومازال التدفق الحر لبترول الشرق الأوسط بأسعار معقولة، كما أن ضمان التفوق النوعي لإسرائيل في مجال التسلح على مجموع الدول العربية، والمحافظة على أمن إسرائيل وبقائها ورخائها من المصالح الثابتة للغرب. أما العناصر المتغيرة فتظهر في استخدام الوسائل العسكرية والاقتصادية والإعلامية للتأثير في الأحداث، حيث تضع الرؤية الغربية في حسابها أن وجود حدود مشتركة بين تركيا من جهة وبين العراق وإيران وسوريا من جهة أخرى يمكن أن تخدم عملية الاحتواء ، وتنفيذ خطة توفير الإغاثة لسكان كردستان العراق، والضغط على سوريا عند اللزوم، والتحكم في حركة الأكراد على الحدود الإيرانية في الوقت المناسب، كما تعتمد الرؤية الأمريكية على استثمار انهيار الاتحاد السوفييتي وهزيمة العراق وتصفية قدرته العسكرية وسقوط جبهة

الرفض الراديكالية في الشرق الأوسط، لمنع ظهور قوى متطرفة جديدة في إيران أو السودان قادرة على أن تفرض نفوذها على المنطقة، فضلا عن زيادة وجودها العسكري وتحجيم الطموحات العسكرية لإيران والتحكم في شحنات الأسلحة للدول الأخرى في المنطقة

وهذه الرؤية كثيرة الثغرات لأنها لم تضع في حسبانها التحدي الثقافي وقدرة المنطقة على المقاومة الثقافية والفكرية، والتي تمنح الساحة الشعبية القدرة على الرفض، والضغط على الحكام لتقديم المبادرات، وتحقيق قدر أكبر من الإصلاح الداخلي والتوازن السياسي.

أولا: يتقاطع الخطاب الديني لدول الشرق الأوسط مع المشروع، حيث ركزت الرؤية الغربية على التعبئة ضد التطرف الإسلامي، بينما أغفلت خطر التطرف اليهودي، رغم أن موجة التطرف الديني والعنصري في إسرائيل التي قتلت إسحاق رابين تهدد عملية السلام، كما أن إسرائيل هي التي جلبت السلاح النووي إلى المنطقة، وقلبت به موازين القوة فيها، ووضعت في نفوس جيرانها الشك في جدوى الأسلحة التقليدية كقوة ردع حقيقية خاصة في الظروف المتقلبة في المنطقة، ومن ثم باتت الرغبة واضحة في عدد من دول المنطقة في امتلاك السلاح النووي، وقد شجعها على ذلك أن عددا من دول العالم الثالث قد استطاع تحقيق هذا الإنجاز، وإذا كان الخطاب الديني في المنطقة قد اتخذ شكلا معاديا للإرهاب بكافة أشكاله، ورغبة في إخلاء المنطقة من أسلحة الدمار الشامل، فهو يحتفظ بحق الدفاع عن النفس والأرض والقيم الدينية، فضلا عن رفض فرض الواقع بالقوة، خاصة وأنه يثق في أساس قوي وتاريخ طويل يستند إليه في التعامل مع الثقافات الأخرى من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، واستطاع استيعابها دون أن يفقد مقوماته، تبدو في ذلك تجربة عصر النهضة الإسلامية في عهد الدولة العباسية، الدولة الفاطمية، دولة المغول في إيران، ودولة المغول في الهند. يضاف إلى ذلك رفض الخطاب الديني فصل الدين عن الدولة كأساس

عقائدي يؤكد امتلاك الإسلام مقومات بناء الدولة العصرية، وتدل الشواهد التاريخية على إمكانية تطبيق هذه المقومات وقيام دول قوية على هذا الأساس، مثل دول الخلافة في عصور متعددة (الراشدين، الأموية، العباسية، الغزنوية، الفاطمية، الأندلسية، السلجوقية، العثمانية).

ثانيا: تعددت اجتهادات فحص ونقد هذه الأيديولوجيا وحركتها الحديثة بغرض بلورة رؤى جديدة ومنهجية واقعية تقود إلى مشروعات سياسية تملك آليات مرنة وفاعلة، ففيما يرتكز المشروع الشرق أوسطي على أن تاريخ الحروب العربية الإسرائيلية أثبت أن الأمن والاستقرار لا يتحقق بقوة السلاح وحده، وأن مطلب الأمن هو مطلب إسرائيلي وعربي في نفس الوقت، فالمفهوم الشامل للأمن القومي يعتمد على متغيرات أخرى غير العسكرية مثل الثقافية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية، خاصة وأن نوعية السلاح التي تحتفظ بها دول المنطقة تتخطى مفاهيم الأمن الجغرافي، ومن ثم فإن تفعيل هذه المتغيرات غير العسكرية من شأنه أن يكرس مفهوم السلام، لكن أدت الرؤية الغربية إلى أن القضايا الرئيسية للصراع العربي الإسرائيلي مازالت معلقة بلا حل، مثل قضايا الحدود والانسحاب من الأراضي التي احتلت عام ١٩٦٧م والمستوطنات والقدس وحق العودة واللاجئين والمياه وتقرير المصير، كما ترتب على هذه الرؤية انتصار التطرف الإسرائيلي المناوئ لعملية السلام، وجعلت التعاون الإقليمي في إطار الشرق الأوسط الجديد خيارا مشروطا بالتقدم السياسي في التوصل إلى السلام الشامل والعادل بما في ذلك المرحلة النهائية للمفاوضات التي تشمل مدينة القدس وتسوية قضية اللاجئين وتنفيذ قرارات مجلس الأمن والشرعية الدولية وعدم السماح بالتفوق العسكري الإسرائيلي ونزع السلاح النووي الإسرائيلي، قبل بناء نظام شرق أوسطي جديد يشمل التحالف بين أمريكا وتركيا وإسرائيل. كما أن مشروعات التعاون الإقليمي يجب أن تستمد مقوماتها من النظام الإقليمي العربي بعد أن أصبح حفظ الأمن العربي يقوم على هوية

ثقافية صلبة تستوعب كل الأقليات في المنطقة الدينية والعرقية والإثنية، بينما النظام الشرق أوسطي يقوم على التعددية الثقافية والدينية والعرقية، خاصة وأن تحديد الإطار الجغرافي لمنطقة الشرق الأوسط فيه غموض مقصود، من زاوية من يضم من الدول ومن يستبعد.

ثالثا:تبدو العوامل الحضارية والثقافية والصلات التاريخية والمشتركات التراثية والعرقية والثقافية واللغوية، فضلا عن مقومات التعامل الاقتصادي والمصلحة المشتركة والمصير المشترك من أهم الأسس التي يقوم عليها أي تصور أو طرح لمفهوم جغرافي أو جيوسياسي، كذلك تتقاطع السيادة الوطنية مع النظام الجديد، فإذا كان مبدأ السيادة الوطنية المطلق ومبدأ عدم التدخل في الشئون الداخلية للدول في الثقافة السياسية، لم يبق على عذريته ونقائه الذي استقر ضمن أساسيات العلاقات الدولية والقواعد التي تحكمها، ولأن ما طرأ من متغيرات تفرض التعاون المتبادل بين الدول من أجل المصلحة المشتركة، ثم ما طرأ من متغيرات حول حق الدولة وحق الفرد، وأنه بقدر حماية حق الدولة تكون حماية حق الفرد، إلا أن التشابك الحضاري بين الشعوب فرض لها حقها في أن يكون لها مواثيقها التي تحكم وتحمي حقوقها، فضلا عن التنظيم الدولي بأوضاعه الحاضرة من خلال الأمم المتحدة ووكالاتها المتخصصة وما تضمنته المواثيق وارتضته الدول الأعضاء من قواعد منظمة وما صدر من قرارات. من ثم فإن التحدي الحقيقي ليس مواجهة تدخل الأدوات التقنية للمعلومات في الثقافة الوطنية، وإنما مواجهة المضمون المتداول في هذه الأدوات، وجوهر المسألة أن المواجهة هنا هي مواجهة حضارية شاملة، لأن الخارطة الجديدة تحدث تغييرا رئيسيا في واقع ممارسة الثقافة الوطنية، وفي تعريف هويتها، وفي تعريف العناصر التي تحكمها، بل تؤدي إلى تغيير الأولويات والشروط التي يجب أن تبنى على أساسها كل الدول ثقافتها الحديثة بكافة مؤسساتها ومواقفها الوطنية،

لكي تتمكن من الانخراط في النظام الجديد، ولا تتعرض للسقوط في هاوية التهميش.

رابعا: تتقاطع التشكيلة السكانية أيضا مع المشروع، حيث تعتبر منطقة الشرق الأوسط من أكثر المناطق التي توجد بها خلافات على الحدود في العالم، ولعل السبب في ذلك هو موقع المنطقة الذي جعلها معبرا بين الشرق والغرب، وإمكاناتها الطبيعية التي جعلتها مطمعا للقوى الاستعمارية في الشرق والغرب، والتشكيلات السكانية التي سمحت بالتحزب والتعصب بين القوميات المتعددة، مما جعلها تتعرض للتقسيم وإعادة التشكيل أكثر من مرة، وما يكتنف ذلك من الاستغلال وسوء السياسة وقهر الشعوب وتفتيت الأسر والقبائل وعزل الشعوب، وأدى بالتالي إلى الخلاف على الحدود، وهو ما جعل المنطقة دائمة التوتر وتاريخ متصل من الصراع والنزاع، وقد أصبحت الخلافات على الحدود بمثابة قنبلة موقوتة تنفجر عند أقل سبب أو خلاف سياسي أو ضغط خارجي أو مؤامرة أجنبية. كما أن الظروف الطبيعية والمناخية والتي تمتد آلاف الأميال تجعل من الصعب رسم حدود دقيقة، من ثم فإن الوصول إلى الاستقرار القائم على وحدة جيوبوليتيكية متماسكة سياسيا واجتماعيا واقتصاديا وأمنيا، يتطلب أن يكون لدى الأطراف في الشرق الأوسط قناعة بأن لها مصالح مشتركة ومتبادلة تستلزم حلولا متوازنة وعادلة لجميع القضايا محل التعاون، بحيث تضمن هذه الحلول حقوق ومصالح الأطراف في تكافؤ وتوازن يؤدي إلى الاستقرار السياسي والاقتصادي، دون أن يحاول طرف ما أن يهيمن على مقدرات الأطراف الأخرى، أو أن يستفيد على حساب الآخرين أو أن يفرض إرادته على أطراف هذا النسق الإقليمي.

الهوامش

(١) صحيفة اطلاعات بتاريخ ١٩٨٦/١١/١٥م

(٢) صحيفة كيهان بتاريخ ١٩٩٣/٢/١م

(٣) صحيفة همشهري بتاريخ ٢٠٠٠/٢/٢٠م

(٤) صحيفة جمهوري اسلامي بتاريخ ١٩٩٠/٦/٤م

(٥) صحيفة كيهان بتاريخ ١٩٩٢/٧/٧م

(٦) جاء ذلك في كلمته أمام مؤتمر طهران الدولي لدعم ثورة الشعب الفلسطيني ونشرت نصه صحيفة جمهوري اسلامي بتاريخ ١٩٩١/١٠/٢١م

(٧) صحيفة جمهوري اسلامي بتاريخ ١٩٩١/١٠/٢٠م

(٨) صحيفة جمهوري اسلامي بتاريخ ١٩٩٤/٣/٥م

(٩) حديث لخامنئي إلي قادة الجيش والحراس بمازندران ، نشرته صحيفة اطلاعات بتاريخ ١٩٩٣/٥/٩م

(١٠) صحيفة كيهان بتاريخ ١٩٩٤/٤/٧م

(١١) صحيفة رسالت بتاريخ ١٩٩٧/٩/٤م

(١٢) صحيفة همشهري بتاريخ ٢٠٠٠/٣/١م

(١٣) وكالة الأنباء الإيرانية بتاريخ ٢٠٠٠/٥/٢٧م

(١٤) صحيفة همشهري بتاريخ ٢٠٠٠/٥/١٥م



على عزت بيجوفيتش ودوره فى حرب البوسنة

أ. محمد يوسف عدس
الخبير السابق باليونسكو

رحل على عزت بيجوفيتش- الرئيس السابق لجمهورية البوسنة والهرسك - عن عالمنا في يوم الأحد التاسع عشر من شهر أكتوبر عام ٢٠٠٣ ، وكان في ذلك الوقت قد أكمل من عمره الزمني ثمانية وسبعين عاما. أما حياته فهي أعمق من هذا وأعرض ، وهذه تشمل فكره ونشاطه و فاعليته وإنجازاته ، فإذا أضفت ذلك إلى عمره الزمني لوجدته يحوى أعمارا أخرى ويتسع لحيوات كثيرة لا حياة واحدة ، فهو بحق رجل بأمة ، ومن أراد أن يدرك هذه الحقيقة عليه أن يتصفح سجل أفكاره وأعماله وينظر مليا في مسيرة حياته ونضاله.

فعزت بيجوفيتش طراز نادر فريد من البشر ونموذج حي لاستثمار الوقت أضعافا مضاعفة واستثمار القدرات والمواهب التي أودعها الله فيه ، فيما هو أجدى وأنفع وأولى بالمكث في الحياة .

لم يتوقف لحظة من حياته دون عمل نافع حتى وهو في السجن يقضى عقوبة على جرائم لم يرتكبها (سوى أنه فيلسوف ومفكر إسلامي مناضل عنيد) ، ففي السجن كتب أحد أبدع أعماله " فرار إلى الحرية" سطرها في بضعة آلاف من الصفحات أودع فيها أعمق تأملاته في الحياة والفن والفلسفة والدين والسياسة والأخلاق، وأعاد النظر في قراءاته السابقة وتقييمه للشخصيات والمواقف التي مرت به . لم يملأه السجن مرارة على الحياة والناس ولم يسلمه لليأس والانسحاب أو الإكتئاب ، بل زاده إيمانا بقيمة الحرية الإنسانية، وجعله يوقن بأن الحرية هى أعظم هبة منحها الله للإنسان، وان الإنسان مسئول عنها أمام واهبها الأعظم، وأن

الدفاع عن الحرية أنبل مهمة يؤديها الإنسان ليس فقط نحو نفسه وإنما أيضا نحو الآخرين ولو كانوا أعداءه. وليس هذا كلام خطابه أو إنشاء بل واقع مشهود ومسجل في تاريخ الرجل ، فبعد أن تم انتخابه وتوليه رئاسة الجمهورية سنة ١٩٩٠م- لم يكن قد انقضى على خروجه من السجن سنة واحدة، ظن بعض الناس أن فرصته قد واتته لينتقم من أعدائه الذين لفقوا له التهم وزوروا شهادة الشهود وحكموا عليه بالسجن مع الأشغال الشاقة ، ولكنه لم يفعل، فلما سأله الصحفيون: ألا تنتقم للظلم الذي وقع عليك ؟ قال:لا انتقم الآن .. ولا بعد ذلك.. نعم إنني لا زلت اشعر بالظلم الشديد بيني وبين نفسي، ولا أستطيع أن أحملها على نسيان التجربة المريرة ولا نسيان الوجوه الكريهة التي ارتبطت بهذه التجربة، ولا خسة الضمائر والنفاق والكذب .. ولكني لا انتقم أبدا فأنا الآن مسئول عن حياة هؤلاء الناس وعن حقهم في الحرية . وبالفعل كان عدد كبير من هؤلاء لا يزالون في وظائفهم خلال فترة حكمه لم يمسسهم بأذى . أما رأس الجريمة وزير الداخلية وبعض القضاة لمتحيزون فقد كنسهم التاريخ في تراب النسيان .

مثقف وثائر

لم تكن حياة عزت بيجوفيتش هانئة أو رخاءً، رغم انه ينتمي إلى أسرة عريقة كانت تتمتع بالغنى والوفرة في عهد يوغسلافيا الملكية ، وكانت تتمتع بالكفاية والستر في عهد يوغسلافيا الشيوعية. كانت حياته مليئة بالأشواك، حافلة بآلام تكاد تكون متصلة الحلقات ، فيما عدا فترات وجيزة من طفولته تنسم فيها نسمات السعادة والرضا، مما سجله في سيرته الذاتية التي صدرت قبل وفاته ببضعة أشهر.هذه الآلام ما كانت تأتيه من مصدر شخصي ولا أسرى ولا حتى من دائرة العمل ، فقد يسر الله عليه في هذه المجالات الثلاثة، وإنما كانت آلامه تتصل ببيئته الاجتماعية والأيديولوجية الرافضة لهويته: أولا كمسلم وثانيا كمفكر مناضل من اجل الحرية .

لقد أدرك في وقت مبكر من حياته أن شعبه يتعرض لظلم واضطهاد مستمرين بدرجات متفاوتة من الحدة والبطش سواء في عهد يوغسلافيا الملكية أو الشيوعية، ولعل هذا الإدراك كان هو الحافز الأكبر له على أن يغوص في أعماق الفكر الأوربي حتى انه استطاع أن يقرأ ويستوعب أهم الأعمال الفلسفية وأكثرها أثرا في تشكيل الثقافة الأوربية قبل أن يبلغ سن التاسعة عشر، يقول عن هذه المرحلة في سيرته الذاتية: " لم أكن في بداية الأمر استعذب فكر الفيلسوف الألماني "هيجل" وإن كنت قد غيرت رأيي فيه بعد ذلك، أما أكثر ما تأثرت به من فلسفات فيأتي على رأسها فلسفة "هنري برجسون" في "التطور الحي" ، وفلسفة "كانت" خصوصا كتابه " نقد العقل الخالص" ، وكتاب من مجلدين للفيلسوف الألماني " شبنجلر" بعنوان " تدهور الغرب".[١]

هذا الوعي المبكر بالظلم الواقع على شعبة كان وراء اتجاهه - في المرحلة الجامعية- إلى دراسة القانون، حتى يتمكن من الدفاع عن قضية شعبة، وكان هذا ضد رغبة أبيه الأصلية الذي نصحه ألا يفعل ذلك لأنه لن يجد بعد تخرجه في هذا التخصص عملا في النظام الشيوعي ، طالما انه ليس عضوا في الحزب ، فدخل كلية الزراعة إرضاءً لأبيه ولكنه رغم نجاحه هجرها بعد ثلاث سنوات وعاد إلى اختياره الأول في دراسة القانون.

لا شك أن علي عزت كان ثائرا متمردا، ولكن ثورته كانت أبعد ما تكون عن الغضب الهائج، فقد كان حكمته وعقله- حتى في هذا السن المبكرة- اسبق من ثورته، وكانت شجاعته في الحق وقوة فكره ومنطقه وصلابة إرادته بواعث له على المواجهة العلنية، وكوابح له ألا يلجا إلى التدابير السرية والعمل تحت الأرض.

لذلك كله آثر النضال الفكري العلني ومقارعة الحجة بحجة أقوى منها، ومن جراء هذه الشجاعة الفكرية تعرض للسجن مرتين في حياته:ففي الأولى حكم عليه بالسجن لمدة ثلاثة أعوام(مع الأشغال الشاقة)فيما بين سنة١٩٤٦إلى سنه ١٩٤٩،

في هذه المرة تصدى للرد على الهجوم الشرس الذي شنه الشيوعيون – في بداية حكمهم- على الإسلام والمسلمين في البوسنة، فقد رأي فيه هجوما ظالما مليئا بالافتراءات والأكاذيب والجهل بالإسلام ، فقرر مع مجموعة من المفكرين المسلمين أن يرد على هذه الحملة ويفندها بالحجة والبرهان، وأن يكون هذا في اجتماع جماهيري حاشد بمدينة سراييفو.. حيث استقبلته الجماهير بالترحاب وصفقوا وهتفوا له بحماس منقطع النظير، وجاء رد السلطات الشيوعية فوريا حيث قام رجال الأمن بإلقاء القبض عليه هو وزملائه وهم لا يزالون على منصة الخطابة وأودعوهم السجون بتهمة التحريض و"الثورة المضادة"(٢) .

تيتو والقومية الصربية

في العهد الشيوعي ظلت السجون تستقبل المزيد من سجناء الرأي والمعارضين حتى امتلأت بهم وبدأت تبنى سجون جديدة ، وزادت أوضاع المسلمين سوءاً حيث تصاعد البطش والقهر على يد الطاغية"ألكسندر رانكوفيتش" قائد الشرطة وساعد تيتو الأيمن(٣)،حتى عزله تيتو من منصبه سنة ١٩٦٦ ، ولكن بدون تحسن ملحوظ لمدة تسع سنوات أخرى، كان تيتو فيها قد عدل كثيرا من سياساته الداخلية والخارجية واستقرت صورته في العالم كقائد لحركة الحياد الإيجابي وعدم الانحياز مع نهرو وعبد الناصر، وانفتح كثيرا على العالمين العربي والإسلامي، وأخذ الكثير من الشخصيات المرموقة في هذه البلاد تزور بلجراد وتقيم علاقات متشعبة مع يوغسلافيا، حتى سنه ١٩٧٥ عندما تبلورت التحسينات الدستورية والإجراءات القانونية وبدأ الناس يتنفسون شيئا من الحرية، ولكن لم تستمر الأمور في سيرها على هذا الطريق أكثر من خمس سنوات عندما توفى تيتو سنة ١٩٨٠م .

بعد موت تيتو بدأ عهد آخر جديد في يوغسلافيا.. ظلت فيه الهياكل السياسية والاقتصادية تتخذ نفس الأسماء الاشتراكية القديمة ولكن عوامل التآكل والتحلل كانت ماضية فيها بلا هوادة، ليس لأن نظام تيتو كان أسوأ نظام في أوربا

الشرقية بل كان أفضلها ، وإنما بسبب مرض يوغسلافي قديم هو القومية الصربية الكامنة في هذا النظام.

كان جوزيب بروز تيتو بشخصيته الكارزمية وبقوة نظامه وثاقب نظره قادرا على كبح جماح القومية الصربية ، لقد سمح للصرب بكثير من الإمتيازات والهيمنة- ضمن حدود مرسومة- على الجيش والشرطة والإدارة في يوغسلافيا، وبقيت- دائما - الخيوط بين أصابعه يجذب بعضها متى شاء ويرخي بعضها عندما يريد، لإحداث ذلك التوازن الدقيق في القوى المتنافرة التي تشكل دولة يوغسلافيا، وكان يعلم أن القومية الصربية إذا انطلقت من عقالها فسوف تدمر على رأس الجميع هذا النظام الذي صنعه وسهر على استمراره طوال حياته .

فلما مات تيتو انكشف الغطاء فجأة عن غول القومية الصربية، وشرع القوميون الصرب يسقطون أقنعتهم الاشتراكيةويتهيئون لاستلام الميراث اليوغسلافي الكبير، وكان أول ضحايا هذا الغول هوتيتونفسه ونظامه الذي أقامه.

في عقد الثمانينات انهالت على تيتو الإتهامات واعتبرت إنجازات حياته كلها أخطاء فاحشة: إصلاحاته الدستورية سنة ١٩٧٥ التي منحت كوسوفا كيانا سياسيا مكافئا لمستوى الجمهوريات اليوغسلافية الأخرى كانت على رأس هذه الأخطاء، ومن هذه الأخطاء التي لا تغتفر صداقته للدول العربية والإسلامية فهذه - في نظر القوميين الصرب - بلاد متخلفة معادية للتقدم، وسماحه ببناء أو إعادة بناء مسجد بلجراد، وكذلك إنشاء معهد للدراسات الإسلامية في سراييفو، كل هذه كانت موضع هجمات شرسة من جانب الكتاب الصرب من القوميين المتطرفين الذي أبدوا عداء سافرا للإسلام والمسلمين بصفة خاصة، وللكروات الكاثوليك بصفة عامة، وتأكدت النزعة العنصرية الإستئصالية في أول جولة من الحرب خاطفة ضد كرواتيا حيث دمرت القوات الصربية مدينة دبروفنك الأثرية، وعندما وقفت ألمانيا ومن ورائها أوربا وقفة حازمة توقف العدوان الصربي واتجه إلى البوسنة ثم كوسوفا حيث جرت فيهما حمامات الدم أنهارا، فيما عرف باسم

التطهير العرقي.. وانهارت دولة يوغسلافيا بعد أن مزقها الصرب أشلاء فلم يبق منها سوى الاسم .

تجربة السجن الثانية(٤)

على خلفية الحملات الدعائية المسعورة التي شنها القوميون الصرب على الإسلام والمسلمين في بلجراد، استجابت السلطات الشيوعية في سراييفو سنة ١٩٨٣ باعتقال عزت بيجوفيتش مع ثلاثة عشر آخرين من المثقفين وقادة الفكر المسلمين، ووجهت إليهم تهمة "الثورة المضادة" والتآمر لقلب نظام الحكم، وانفرد عزت بيجوفيتش بتهمة إضافية هى الأصولية والرغبة في إنشاء دولة إسلامية في البوسنة والهرسك مقصورة على المسلمين، بعد تطهيرها من السكان الأرثونكس (الصرب) والكاثوليك (الكروات) .

لم يكن في حوزة هؤلاء الناس أسلحة ولا ميليشيات مدربة ولم يكن هناك منشورات ولا مظاهرات ولا أجنده اجتماعات سرية، وكان دليل الاتهام الوحيد هو كتاب عزت بيجوفيتش "الإعلان الإسلامي" .

حفزني شخصيا إلى ترجمته أن اعرف ما الذي في هذا الكتاب مما يمكن أن يشكل اتهاما كالذي وجهته إليه السلطات الشيوعية ، ولدهشتي لم أجد في هذا الكتاب ذكرا ولا إشارة واحدة من قريب أو بعيد إلى البوسنة ولا يوغسلافيا، وإنما هو معنيّ بشئون خاصة بالفكر الإسلامي والبلاد المسلمة خارج أوربا ، بل يحتوى على كثير من النقد للمجتمعات المسلمة، ويقدم اقتراحات إصلاحية لبعض الأوضاع فيها، وزادت دهشتي عندما وجدته يشيد بأفضل ما في النظامين الاشتراكي والرأسمالي، وينصح بالاستفادة من منجزات هذين النظامين في البلاد المسلمة دون حرج، فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أولى بها، ولا يقول هذا الكلام أصولي أبدا.

دافع عزت بيجوفيتش عن نفسه وعن زملائه دفاعا رائعا فند فيه مزاعم الادعاء وكشف عما فيه من افتعال وتزوير وجهل، وما تنطوي عليها من

مخالفات صريحة للدستور والقانون اليوغسلافيين . ولكن هيهات.. ! فالأحكام كانت معدّةً سلفا، وكان الهدف منها هو التخلص من النخبة المثقفة من المسلمين، والقضاء على كل أثر للفكر الإسلامي في البوسنة، ولم تكن المحاكمات سوى تمثيلية عبثية ومسرحا للتناقضات الساخرة ، وكان تزوير شهادات الشهود وتضاربها مثار سخرية وضحك من جانب الذين حضروا جلسات المحكمة، مما سجله عزت بيجوفيتش بالتفصيل في سيرته الذاتية .

كان نصيب عزت بيجوفيتش من الأحكام أربعة عشر سنه سجن مع الأشغال الشاقة حيث وجد نفسه مرة أخرى مُجبراً على الحياة وسط عتاة المجرمين من القتلة واللصوص وقطاع الطرق ، وإذا به يغوص إلى أعمق الأعماق المظلمة في النفوس البشرية، ينزع عنها طبقات متراكمة من القسوة المروعة والإلتواءات الصادمة ، مستخدما ذلك المبضع الإنساني الذي كان يحمله أديب مبدع مثل"دستوفسكي" لنكتشف معه في النهاية بصيصا من ضوء يلتمع تحت تلافيف من الظلمة الحالكة .

لست اشك أن تجربة عزت بيجوفيتش الثانية رغم قسوتها البالغة على نفسه كانت بالغة الثراء، وقد سجلها بحنوّ ظاهر في سيرته الذاتية، تعلمنا منها ألا نحكم على الناس بظواهر سلوكهم ولا بأوضاعهم الاجتماعية، التي جعلت من أحدهم نجما مرموقا يتربع على مقعد سلطة، وهو في حقيقته الجوانية لص أو خائن، وجعلت من الآخر سجينا أو محكوما عليه بالإعدام وهو في الحقيقة برئ أو مظلوم، أو على الأقل كان محاطاً بأسباب موضوعية دفعته إلى ارتكاب جريمة ما، هنا لا نبرر له جريمته ولكن لعلنا نعذره ونتعاطف معه، وقد ضرب عزت بيجوفيتش على ذلك بمثال الرجل الذي سرق لأنه فقير جائع يريد أن يسد رمقه فلا يجد ما يقتات به بينما جاره يرمي بفضلات كثيرة من الطعام في صندوق الزبالة أمام عينيه، وفي هذا يقول: ليس مكان هذا الرجل هو السجن فمن حقه أن يتوفر له الطعام وان يعاد تعليمه وتربيته من جديد وتأهيله لممارسة حياة

اجتماعية كريمة.

تعلمنا أيضا مما سجله عزت بيجوفيتش في سيرته الذاتية حقيقة أن بين النفوس البشرية هوة شاسعة بين من لديهم قدرة خارقة على ارتكاب أبشع الجرائم وبين آخرين ترقَ أرواحهم وتسمو درجات إلى أنبل مستويات التضحية بالنفس.

كان لتجربة السجن آثار واضحة في مواقف عزت بيجوفيتش كإنسان وزعيم قائد وحاكم لأمة، فعلى المستوى الشخصي عمقت هذه التجربة لديه الوعي بقيمة الحرية الإنسانية وقداستها، على النحو الذي سبق أن أشرنا إليه ، ويتفرع عن هذه الحقيقة أنه في المجال الشخصي كان يتمتع بقدرة فائقة على الصفح والمغفرة بلا حدود.. حالة تعّجب لها خصومه ولم يفهمها أعداؤه فذهبوا في تفسيرها شتى المذاهب، نقرأ هذه التفسيرات الخاطئة في مذكرات "لورد أوين" عن حرب البوسنة (Balkan Odyssey) وكان المفاوض الأوربي الذي فشل فشلا ذريعا في مهمته التفاوضية لأنه كان مبرمجا من قبل حكومته البريطانية، متحيزا للجانب الصربي كارها للمسلمين، ومن ثم عرض مشروعه الشهير في تقسيم البوسنة إلى كانتونات طائفية جعل المسلمين فيها محاصرين في جيوب متناثرة تحت إدارة هلامية لا يصدقها عقل، إذا تأملتها مليا تجدها أشبه ما تكون بالجيوب الفلسطينية المعزولة بجدران عنصرية، فيما يحاول شارون طرحه على الساحة. فمشروع أوين مثل مشروع شارون ينبع من مصدر عنصري واحد، ولأن عزت بيجوفيتش رفض هذا المشروع رفضا قاطعا وأصّر على وحدة البوسنة متعددة الأديان والأعراف- لعنه دافيد أوين وافترى عليه ولم ير فيه سوى صورة الرجل الذي حال بينه وبين النجاح والحصول على جائزة نوبل للسلام التي كان يتطلع إليها .

فإذا كان العفو والصفح من أبرز سمات عزت بيجوفيتش على المستوى الشخصي فإن موقفه كرئيس لبلاده وأمين على وطنه في مواجهة عدوان غاشم كان حاسما صلبا قاطعا .. لم يدخر وسعا ولا وسيلة من وسائل تدعيم القوة لشعبه

في رد العدوان إلا اتخذها او سعى جاهدا للحصول عليها

ولكنه في كل الأحوال لم يستسلم لغواية الانتقام وكانت أسبابه ودوافعه كثيرة متكررة، كان أعداؤه يتفننون في أساليب القتل والتنكيل والإذلال، وكانت القيادات الصربية تدرب جنودها وتدفعهم دفعا لارتكاب المجازر ضد المدنيين وانتهاك الأعراض وتمزيق الأجساد، بل كانت تعاقب المتراخين في تنفيذ هذه الأوامر، بينما كان عزت بيجوفيتش يكبح جماح الغضب المتأجج في قلوب جنوده وضباط جيشه ويمنعهم من الانتقام أو ممارسة العقوبات الجماعية .

المقاومة المسلحة

أنشأ عزت بيجوفيتش جيشا من لا شئ ونظرا للحصار الدولي الذي حظر التسلح على البوسنة على سبيل الخطأ أو الحظ العاثر أو المؤامرة - ونظرا لفشل جهوده الدولية في إبطال هذا الحظر الظالم ذهب يتسوق قطع السلاح من كل مكان حتى من أيدي الجنود الصرب أنفسهم ، كانت ولادة الجيش ولادة متعثرة، وكانت سنوات عمره الأولى في مواجهة جيش نظامي مدجج بالسلاح والعتادلا يفتقر إلى الإمدادات والذخائر، فمصانع السلاح والذخيرة اليوغسلافية الشهيرة لم تتوقف- كانت سنواته الأولى طفولة ضعيفة، جرت فيها سلسلة من الحوادث المأساوية لشعب البوسنة ، ولكن هذا الجيش نفسه وجدناه ينمو بخطوات سريعة ويستوعب التدريب في أزمنة قياسية ورغم انه لم يكن يملك الدبابات ولا المدافع الثقيلة إلا انه تمكن في مرحلة من مراحل الحرب من تحييد مئات الدبابات الصربية وتثبيت خطوط المواجهة على سعتها وانتشارها، وعبر سنوات الكوارث الأولى حتى صيف ١٩٩٤، فإذا به يبدأ في تحرير أراضي البوسنة ويحقق انتصارات تكتيكية على القوات الصربية وبدأ الجنود الصرب يفرون من المعارك ويتجنبون الالتحام مع القوات البشناقية المستميتة في القتال، وقد سجلت قيادات صرب البوسنة ما لا يقل عن خمسين ألف حالة هروب من الخدمة العسكرية. كذلك استطاع عزت بيجوفيتش أن يقنع قوات كروات البوسنة

بالتحالف مع القوات البشناقية في حصار مدينة "بنيالوكا" مقر قيادة القوات الصربية، فلما أصبحت المدينة قاب قوسين أو أدنى من التسليم، تدخلت القوات الدولية لوقف إطلاق النار، واقنع الأوربيون والأمريكيين "فرانيو توجمان" رئيس جمهورية كرواتيا بالتدخل لسحب القوات الكرواتية من الحصار في مقابل مساعدات سياسية واقتصادية لوّحوا بها إليه.

كان سقوط بنيالوكا في أيدي البشناق سيعزز قدرات عزت بيجوفيتش التفاوضية، ويمنحه الفرصة لإحباط المخطط الصربي لتمزيق البوسنة،ولكن الدول الأوربية بالذات لم تكن لتقبل أن يفاوض المسلمون من موقع القوة، بل تريد لهم تسوية ذليلة مجحفة يقبل فيها البشناق بما تمنحه لهم لا ما ينتزعونه هم بقدراتهم ونضالهم، لذلك تآمرت مع الصرب في الهجوم على مدينة "سربرنيتشا" في يوليو ١٩٩٥، وكان الصرب قد حاولوا اقتحامها قبل ذلك بثمانية وعشرين شهرا (أي في إبريل ١٩٩٣) ولكن المقاومة البشناقية ردتهم عن المدينة . وفي المرة الثانية كانت المؤامرة على نطاق واسع حيث اشتركت فيها الكتيبة الهولندية التابعة لقوات الأمم المتحدة، كانت قد تسلمت مسئولية الدفاع عن المدينة باعتبارها إحدى الملاذات الخمسة الآمنة في البوسنة وفقا لقرار مجلس الأمن ، ولكنها تخلت عن الدفاع عن المدينة وسمحت للقوات الصربية بالدخول واستخدام سيارات وقبعات جنود الأمم المتحدة للتمويه على السكان، وأخذت القوات الصربية تفرز السكان حيث وضعت النساء والأطفال في سيارات نقل فألقت بهم في الغابات بعيدا عن المدينة، أما الفتيان والشبان والرجال من سن خمسة عشر إلى ستين سنة فقد سيقوا في طوابير طويلة إلى مصير مجهول .

في هذه الحملة الإرهابية وحدها فقد شعب البوسنة ثمانية آلاف قتيل دفن بعضهم أحياء في مقابر جماعية عندما اكتشفت وجدت بها جثث مقيدة الأيدي مات أصحابها وقوفا على أقدامهم بعد أن أهيل عليهم التراب، ولا تزال إلى اليوم أسر الضحاياتبحث عن ذويهم بلاجدوى في مقابرجماعية أخرى لم تكتشف بعد(٥).

ديمقراطية وصحافة حرة

أسس عزت بيجوفيتش نظاما ديمقراطيا في البوسنة والهرسك استمر قائما منذ بداية تسلمه السلطة قبل الحرب وبدون تدخل من جهات أجنبية وبقى خلال الحرب حتى هذه اللحظة ، بينما كانت صربيا وكرواتيا تحكمهما حكومتان دكتاتوريتان يرأسهما"سلوبودان ميلوسفيتش" و "فرانيو توجمان" ، وأبى أن يفرض الرقابة على الصحافة والإعلام أثناء الحرب وكان هذا الموقف مثيرا لدهشة المراقبين، أصر عليه عزت بيجوفيتش رغم معارضة الكثير من قياداته العسكرية والسياسية.

وقد أجريت دراسة محايدة في هذا المجال قامت بها منظمة دولية قارنت أوضاع الإعلام في كل من صربيا وكرواتيا والبوسنة هى المنظمة المعروفة باسم "ARTICLE 19المركز الدولي ضد الرقابة" وأودعت دراستها في كتاب بعنوان "تزييف حرب" "Forging War"هو في الحقيقة شهادة ووسام على صدر عزت بيجوفيتش(٦).

في محاضرة ألقاها عزت بيجوفيتش في سراييفو سنة ١٩٩٤ والحرب محتدمة قام أحد المواطنين يسأل متعجبا من تراخي الرقابة على الإعلام قال : "هل تعلم يا سيادة الرئيس ماذا يكتب في صحف البوسنة الآن .. هذا وقت حرب فكيف تسمح بهذا الكلام !؟..لماذا لا تصدر قانونا للرقابة على الصحف ؟ ، وكانت إجابة الرجل على هذا النحو:"بعد الذي أصابني من جراء قوانين الرقابة لا يمكن أن أساند أي إجراء للرقابة على النشر ومنع الصحف من حرية الكلام.. وليس هذا مجرد التزام بمبدأ فحسب، ولكنه أيضا مسألة (برجماتية) فأنا أرى أن التحريم والإكراه لا يجديان شيئا عندما يتعلق الأمر باقتناع عقدي .. وقد عبر القرآن عن هذه الحقيقة ابلغ تعبير وفي أوجز بيان بآية قصيرة " لا إكراه في الدين..." فإذا طبقنا هذه الآية في مجال أوسع واعتبرنا الإيمان هو كل ما يعتقد فيه الإنسان من أفكار لتبين لنا أن الإكراه لا يجدي ولا يفيد في أي عقيدة..اسأل

نفسك : هل أفاد الإكراه الشيوعيين في القضاء على الأفكار المعارضة بالتهديد والتعذيب والقتل والسجون؟.. لقد دلت تجربة النظام الشيوعي وبرهنت هزيمته النهائية على أن قمع الأفكار بالقوة مستحيل" .

وثيقة من الأمم المتحدة (٧)

في ٢٧ مايو ١٩٩٤م أرسل ا لسكرتير العام للأمم المتحدة خطابا إلى مجلس الأمن مرفقا به تقرير من ثلاثة آلاف صفحة بعنوان : التقرير النهائي للجنة الخبراء المشكلة بقرار مجلس الأمن رقم ٧٨٠ لسنة ١٩٩٢ م "للتحقيق في أعمال العنف التي جرت في البوسنة ورصد ما يدخل منها في مفهوم جرائم الحرب والانتهاكات ضد الإنسانية التي نصت عليها وحرمتها معاهدة جنيف والقوانين الدولية الأخرى" . وزعت نسخ التقرير على أعضاء مجلس الأمن وأرسلت منها نسخة إلى المحكمة الدولية لجرائم الحرب اليوغسلافية (بمقرها في لاهاي) .

بدأت تحقيقات اللجنة في نوفمبر ١٩٩٢ وانتهت في أبريل ١٩٩٤م ، واعتمد تقريرها على إحصاءات وتقارير رسمية للأمم المتحدة في البوسنة ، وعلى زيارات للمواقع التي حدثت فيها جرائم الحرب ، ولقاءات مع الضحايا وشهود العيان في معسكرات اللاجئين في البوسنة وخارجها . وقد سجل المحققون التعاون الكامل من جانب سلطات حكومة البوسنة ، والتعويق الكامل من الجانب الصربي .

من أهم ما ورد في هذا التقرير انه اثبت أن الجرائم التي ارتكبها الصرب ضد البشناق المسلمين لم تكن كما زعم قادة الصرب مجرد انتهاكات قام بها بعض أفراد منحرفين كشأن أي حرب أخرى، وإنما كانت جرائم بتدبير مسبق وفق خطط رسمها خبراء من أعلى مستوى في الخبرة ، وتم تنفيذها بأسلوب منظم وطبقت في جهات مختلفة بطريقة نمطية ثابتة، وكان التنسيق بين الأطراف المشتركة في تنفيذها على أعلى مستوى أيضا ، وقد استطاع المحققون أن يتتبعوا مصادر التوجيه والأوامر إلي أعلى المراكز في القيادات السياسية والعسكرية

والإدارية الصربية . ومما يجب ذكره هنا أنه بناء علي هذا التقرير تم تسليم "سلوبودان ميلوسفيتش" الرئيس الصربي السابق إلي محكمة جرائم الحرب .

من أبرز الموضوعات التي أشتمل عليها هذا التقرير الآتي :

١. دراسة مفصلة لعمليات الإبادة المكثفة للسكان المدنيين في منطقتي "اوبتينا" و"بريدور".
٢. معركة وحصار سراييفو.
٣. معسكرات الاعتقال .
٤. جرائم الاغتصاب والاعتداءات الجنسية الأخرى .
٥. المقابر الجماعية .
٦. تدمير الآثار الثقافية .

هذا التقرير رغم ضخامة حجمه لم يكن مقصودا منه أن يكون شاملاً ، وإنما اكتفت لجان التحقيق المنبثقة عن اللجنة الرئيسية بالبحث في عينات دالة علي الاتجاه العام لكل نوع من أنواع الجرائم ، واستهدفت الموضوعات والمواقع التي فرت فيها وعنها معلومات وأدلة موثقة وكافية لإصدار أحكام صحيحة .

حصار سراييفو (٨)

فيما يتعلق بحصار سراييفو وقصفها يذكر التقرير أن هذه المدينة تقع في واد منخفض وأن القوات الصربية كانت تطوقها من جميع الجهات، في مواقع جبلية حصينة، مسلحة بألف ومائة مدفع وعدد كبير من الدبابات، وأن متوسط القصف اليومي علي المدينة كان يتراوح بين مئتين إلي ثلاثمائة قذيفة، ذلك في الأيام الهادئة، وبين ثمانمائة إلي ألف قذيفة في الأيام النشطة، وقد سجلت تقارير رصد الأمم المتحدة أن القذائف كانت تنهمر كالمطر علي المدينة في يوم ٢٢ يوليو ١٩٩٣ حيث بلغ عدد القذائف ٣٣٧٧ قذيفة. من دراسة سجلات مراقبي الأمم المتحدة يخلص تقرير الخبراء إلي أن القصف المنظم كان يستهدف مواقع معينة ولكن كان هناك قصف عشوائي مقصود لأهداف أخرى، وفي كلتا الحالتين

كانت الأهداف كلها مدنية مثل المستشفيات ومباني الإذاعة والتلفاز والصحف ووسائل المواصلات العامة ومبني البرلمان ومقر الرئاسة ومطاحن الدقيق والمخابز ومبني الإستاد الأولمبي والمصانع والمطار والمساجد والمرافق العامة والمكتبات والآثار العثمانية البديعة ، واستهدف القصف العشوائي بالذات المناطق السكنية والمدارس والشوارع والمتنزهات العامة والملاعب وطوابير المياه والخبز ومراكز توزيع مواد الإغاثة ، وفي هذه المجالات العشوائية تركز نشاط القناصة الصرب ، وكانوا يتراهنون فيما بينهم : من يصيب أكبر عدد من الناس المارين في الشوارع ! وكشف التقرير عن وجود ربط بين شدة القصف وبين أحداث سياسية معينة ، فقد لاحظ الخبراء من دراستهم للسجلات والأزمنة أن القصف العنيف كان يحدث قبل وأثناء المؤتمرات وجلسات المفاوضات بين أطراف النزاع في قصر الأمم المتحدة بجنيف. ومن الواضح أن الصرب كانوا يهدفون بذلك الضغط علي الحكومة البوسنية لكي تخضع لشروطهم وتقبل بالحلول المطروحة عليها دون اعتراض أو مناقشة، وقد رفض عزت بيجوفيتش هذا الابتزاز وقاطع المفاوضات بسببه عدة مرات، معلناً أن المقاومة مستمرة ولن يركع البشناق أمام الغزو الصربي مهما طال أمده ومهما بلغت التضحيات.

حادثتان من حوادث القصف الصربي– بصفة خاصة – أثارتا سخطا شديدا من جانب الرأي العام العالمي نظرا لبشاعة الآثار التي ترتبت عليهما ، وهما : حادثة ملعب كرة القدم (في أول يونية ١٩٩٣) الذي تطايرت فيه أشلاء الأطفال والتصق بعضها في سور الملعب ، وحادثة السوق (٥ فبراير ١٩٩٤) الذي راح ضحيته عدد كبير من المدنيين ، وفي كلتا الحادثتين وجه حلف الأطلنطي إنذاراً إلي القوات الصربية بسحب أسلحتها الثقيلة بعيداً عن المدينة ، وحدد في الحادثة الثانية بالذات عشرة أيام مهلة للصرب وإلا فسوف يتعرضون لقصف الجوي ، ولكن لم يأبه الصرب لهذا التهديد ولم يتحركوا إلي الوراء شبراً واحداً ولم ينفذ حلف الأطلنطي تهديه كالعادة

الموقف الأوربي وآثاره(٩)

تميزت حرب البوسنة دون سائر الحروب التي سبقتها بأن حوادث وقعت تحت سمع العالم وبصره علي شاشات التلفاز، ولذلك لم يستطع الصرب إخفاء جرائمهم في البوسنة كما استطاعت الصهيونية- مثلاً- إخفاء جرائمها الوحشية في فلسطين عام ١٩٤٨. ومع ذلك فقد أقامت أوربا موقفاً متحجراً ثابتاً تجاه البوسنة علي أساس افتراضات خاطئة فأدي هذا إلي تدمير ونكبات لجمهورية البوسنة وشعبها، كان من الممكن تجنبها لو أن الدول الأوربية اتخذت موقفاً مخالفاً لما تسمرت عليه، أما أهم هذه الافتراضات الخاطئة فتتمثل في أمرين :

١. التقليل من القتال بفرض حظر التسلح علي المسلمين والامتناع نهائياً عن التدخل بالقوة لوقف الحرب .

٢. الاكتفاء بتقديم مساعدات غذائية وبالجهود الدبلوماسية فقط لوقف القتال . وقد شجع هذا الموقف السلبي مطامع الصرب والكروات في أرض البوسنة، وجعل وجود القوات الصربية في البوسنة بمثابة دعم للعدوان الصربي وليس عنصراً مساعداً في تحقيق السلام .

من آثار هذا الموقف الأوربي- أيضا- تضاعف خسائر البوسنة خلال السنتين الأولتين من العدوان الصربي حيث بلغت ذروة ماساوية: فقد قتل من البشناق (المسلمين) مئتا ألف معظمهم من المدنيين، وتحول أكثر من مليون إنسان إلي لاجئين مشردين في بلادهم وخارجها، وتم اغتصاب ما يقرب من 35 ألف امرأة، قتل بعضهن بعد الاغتصاب وألقيت جثثهن في الغابات ، وانتحر بعضهن لم يتحملن وطأة الشعور بالعار والمهانة، أما من بقى منهن فلم يستطعن العودة إلي أسرهم وأصبحن اليوم يشكلن معضلة اجتماعية ونفسية للمجتمع البسنوي المجروح، واندثرت قرى مسلمة بأكملها وسويت أنقاضها بالأرض حتى يتعذر علي البشناق التعرف عليها إذا عادوا إليها في أي وقت لاحق . أما ما لحق بمدينة سراييفو من خلال نفس الفترة فقد سجلته التقارير علي النحو التالي:

- تراجع عدد سكانها من ٥٤٥ ألفا إلى ٣٨٠ ألفا .
- قتل ٩٥٠٠ من بينهم ١٦٠٠ طفلا.
- بلغ عددالذين أصيبوابجراح وعاهات مستديمة ٥٥٧٠٠ بينهم ألفامن الأطفال
- تدمير كامل وجزئي لمنازل ومباني المدينة بنسبة ٦٠% (يعني٦ من كل ١٠مباني) أصبحت غير صالحة للسكن أو الاستخدام .
- تناقص عدد تلاميذ المدارس الابتدائية من٦٠ ألف إلي ١٨ألفا .

شريف بسيوني

بعد تقديم وثيقة الأمم المتحدة إلى مجلس الأمن بعامين التقت "سيسليا جابيزون" الصحفية من شبكة الإعلام الدولية WMN في٢٤ يونية١٩٩٦م بشريف بسيوني الذي قاد لجان التحقيق في جرائم حرب البوسنة لتسأله عن مدى فاعلية التقرير وعن بعض الظروف التي أحاطت به فأجاب: "لقد تقدمنا إلى محكمة مجرمي الحرب اليوغسلافية بأسماء"رادوفان كارجيتش" زعيم صرب البوسنة وقائد قواته الجنرال "راتكو ملاديتش" ولكن لم يتم القبض عليهما حتى الآن ، وهناك قائمة أخرى تشتمل علي أسماء رؤساء دول ووزراء في حكومتي كل من صربيا وكرواتيا، وأسماء جنرالات كبار في الجيش ومديري معسكرات الاعتقال .. هؤلاء جميعاً لابد من تقديمهم للعدالة لأن السلام في يوغسلافيا لن يتم إلا بتحقيق العدالة .. لقد سجلنا ٨٩٠ معسكر اعتقال سجن فيها نصف مليون من المدنيين الأبرياء، تلقى منهم (على الأقل خمسون ألفا) أنواعاً من التعذيب تفوق احتمال البشر .. إننا لا نعرف إلي اليوم مصير سكان منطقة "بريدور" التي بدأ بها الصرب تنفيذ سياستهم في التطهير العرقي، حيث نقلوا 65 ألفا منهم إلى معسكرات اعتقال مجهولة، ولم يعثر لهم على الاثر بعد ذلك.." ويعترف شريف بسيوني أن لجنته تعرضت لضغوط من شخصيات أوربية معروفة مثل لورد أوين وبريطانيين آخرين لإنهاء هذه التحقيقات بأسرع ما يمكن لان بريطانيا لم تكن راضية منذ البداية على فكرة التحقيقات من أصلها .. وكان لورد أوين

الوسيط الأوربي في المفاوضات يروج لفكرة أن أطراف النزاع في البوسنة مسئولون جميعاً عن جرائم الحرب على السواء، وقد أغضبه ألا يري في التقرير أيدي المسلمين ملوثة بدماء الآخرين .

ويقول شريف بسيوني في مقابلته مع مراسلة شبكة الإعلام الدولية: "من الصعب تحقيق العدالة على وجهها الصحيح بدون إزاحة الحكومتين الصربية والكرواتية المسئولتين عن جرائم الحرب في البوسنة، حتى يمكن تقديم المسئولين الكبار في هذه الحكومات عن الجرائم التي ارتكبوها .. ولابد أن يستمر الرأي العام العالمي في الضغط على الحكومات الغربية لتمتنع عن منح هؤلاء القادة المذنبين العفو في مقابل موافقتهم على اتفاقية السلام".

وكان آخر سؤال وجهته المراسلة إليه هو:" ما الأثر الذي يلح على عقلك أكثر من غيره من تجربتك في البوسنة؟" وكان رد شريف بسيوني: "من هذه الحرب تعلمت درساً شاهدت فيه نظم الضبط الاجتماعي تنهار على أيدي أشرار المجتمع، فعندما يتمكن السفاحون وقطاع الطرق من امتلاك السلطة المطلقة في أي مكان وخصوصاً إذا كانت تسيطر على عقولهم عقيدة قومية عنصرية، فإن كل شئ يصبح ممكناً، وهؤلاء هم الذين صنعوا جرائم البوسنة على أوسع نطاق".

لماذا لم يلجأ المسلمون إلى الانتقام؟

لابد أن يتبادر إلى الذهن سؤال منطقي: لماذا لم يتورط مسلمو البوسنة في جرائم حرب كالتي تورط فيها الصرب والكروات؟ لماذا لم ينتقم المسلمون ويردوا على الاعتداءات البشعة بمثلها أو أكثر منها، خصوصاً أن لديهم كل المبررات الموضوعية.. والجروح غائرة في أعماق القلوب.. والحرب هائجة وقد اختلط فيها الحابل بالنابل؟ تأثير العقيدة الإسلامية وارد، وسماحة البشناق التاريخية المشهودة واردة أيضا، ولاشك أن هناك فرقاً هائلاً بين عقيدة دينية تفرض على أصحابها ألا يسرفوا في القصاص وان يلتزموا حدود العدل

والاعتدال، وبين عقيدة قومية تستبيح قتل الجار وحرق بيته ومزرعته، مثل عقيدة "الشتنك" الصربية التي يقدسونها ويخلعون عليها طقوسا أسطورية. ومع ذلك لم يكن من المستبعد أن يطيش صواب المسلمين وقد أحيط بهم وصب عليهم العذاب صبا- وان يقوموا بأعمال انتقام مماثلة، ولكنهم لم يفعلوا، ووثيقة الأمم المتحدة أكبر شاهد على ذلك.. ويبقى السؤال قائما لماذا؟ لعل الإجابة البسيطة تكمن في زعامة عزت بيجوفيتش والدور الخارق الذي قام به في كبح زمام الجنون وضبط المشاعر الثائرة والرغبة في الانتقام، في إطار القيم الإسلامية، ليس بالوعظ والإرشاد ولكن بالقدوة التي تمثلها في شخصه وسلوكه وبالتربية التي وجهها إلى ضباط جيشه وبالتنظيم الذي فرضه على القوات المسلحة.

أنشأ عزت بيجوفيتش الأكاديمية العسكرية في سراييفو لتخريج قيادات ميدانية على مستوى رفيع، فلم تقتصر مناهجها على الدراسات العسكرية والتدريب، وإنما اشتملت على برامج تربوية دينية وأخلاقية، وكان الرئيس عزت بيجوفيتش رغم همومه وعظم مسئولياته ومشاغله حريصاً على أن يحاضر في الأكاديمية، موضحاً لضباطه خطورة مسئوليتهم، وضرورة التمييز بين المدنيين والأبرياء من صرب البوسنة، وإلا يؤخذ الأبرياء بذنوب المجرمين، وكان يؤكد لهم أن يتصرفوا دائماً باعتبارهم جيش الشعب كله: مسلمين وأرثوذكس وكاثوليك بلا استثناء ولا تفرقة، ولم يكن عزت بيجوفيتش في خطابه يسمى المقاتلين الذين انحازوا إلى كراجيتش "صرب البوسنة" ولكن كان يسميهم "صرب كراجيتش".. كان يرفض نسبتهم إلى البوسنة لأن الوطني الحقيقي في نظره لا يمكن أن يقدم علي تدمير وطنه وقتل أبناء شعبه .

كانت نصيحته المتكررة لضباطه ألا يقتلوا مدنياً أو يمثلوا بجثة أو يجهزوا على أسير مجروح، وألا يمارسوا العقوبات الجماعية وألا يحرقوا البيوت أو الزرع كما يفعل الصرب، وألا يقتلوا الحيوانات ولا يروعوا راهباً في ديره ولا امرأة في بيتها. ولم يتوقف جهد عزت بيجوفيتش عند حدود النصيحة ولكنه

وضع نظماً للمتابعة ومحاسبة أفراد القوات المسلحة على أي انتهاكات تصدر منهم، وقد أعطى صلاحيات لقادة جيشه في الرقابة والتحقيق وتنفيذ العقوبات الرادعة عند ثبوت أي انتهاك. لذلك كله لم يكن مستغرباً أن تظل أيدي البشناق نظيفة لم تلوثها دماء الأبرياء طوال فترة الحرب التي اقتربت من أربعة أعوام.

كان الصرب يدكون المساجد ويهدمونها على المصلين في الوقت الذي كان هناك فرق من المسلمين يحرسون الكنائس فلم يصبها أذى، وتلك ظاهرة ينبغي أن تتم دراستها وان يتأمل فيها ملياً المؤرخون المنصفون. مثل هذه المواقف يستحيل على رجل مثل لورد أوين أن يفهمها فهو لا يؤمن بغير القوة ولا يرى الحق أو العدل إذا كان من جانب المستضعف أو الضحية، كان دائما يتحدث عن "الحقائق على الأرض" وضرورة إذعان المسلمين لها والاستسلام لما يفرضه الصربي المنتصر. كان من الممكن- بمقياس "الحقائق على الأرض" وحتمية ما سماه بالحقائق الموضوعية أن تندثر البوسنة ويتلاشى وجودها من خريطة العالم.

تحدث أحد قادة البشناق إلى الجنرال البريطاني "مايكل روز" قائد قوات الأمم المتحدة في البوسنة قال له: لقد استولينا على عدد من الدبابات من أيدي الصرب، وسوف نستخدمها في تحرير أرض البوسنة خلال أربعة أشهر، ولان هذه الدبابات كانت من النوع شديد التعقيد تهكم عليه الجنرال روز قائلا: إن جنودك بحاجة إلى أربع سنوات للتدريب على هذه الدبابات وإتقان استخدامها، فرد عليه القائد البشناقي بثقة قائلا: كلا يا سيدي فهذه مقاييسكم أنتم في الغرب أما المسلمون فلهم مقاييس مختلفة وسوف ترى.. "وبالفعل بدأ المسلمون تحرير أرض البوسنة بعد أربعة أشهر واستخدموا الدبابات بكفاءة ملحوظة .. ولم تندثر البوسنة .

العنصرية الصربية والتسامح البشناقي

نشر المفكر الصربي "فوك كراجيتش" مقالا سنة ١٨٤٩ تحت عنوان: (صربيون جميعا في كل مكان) زعم فيه- على أساس تاريخي مختلق- أن

البوسنويين وكذلك سكان دالماشيا (الكروات) ينحدرون جميعا من أصول صربية. وفي سنة ١٨٤٤ كتب قبله "إليا جراشانين"- وزير داخلية صربيا- مذكرة يشرح فيها إمكانية استمالة صرب البوسنة للتعاون مع صربيا في ضم البوسنة إلى صربيا الكبرى، وقد اشتملت هذه المذكرة على برنامج مفصل لتدريب شباب صرب البوسنة على قتال المسلمين وقتلهم وتدمير مجتمعاتهم المستقرة(١٠).

إنها نفس الفكرة العنصرية التي راودت عقل ميلوسفيتش والتي ألهبت خيال أنصاره من القوميين الصرب ، وقد تمكن ميلوسفيتش من إغراء فئة من صرب البوسنة بقيادة "رادوفان كراجيتش" للانضمام إليه لتنفيذ خطته في تدمير البوسنة وضمها إلى صربيا بعد تطهيرها من المسلمين . وكما أن هذه الفكرة لم تكن جديدة كذلك لم تكن محاولة تدمير البوسنة محاولة جديدة ، فقد تبنت صربيا من قبل (في العهد الملكي) خطة الوزير الصربي "ستوبان بروتتش" في حل مشكلة البوسنة إما عن طريق إجبار جميع المسلمين والكروات الكاثوليك للتخلي عن أديانهم واعتناق الأرثونكسية، وإما عن طريق الإبادة الجماعية والمذابح المنظمة، إذا رفضوا اعتناق الأرثونكسية، وقد نتج عن تنفيذ هذه السياسة الدموية بين سنة ١٩١٠ وسنة ١٩٢٠م أن فقدت البوسنة خمس سكانها في المذابح والحرق والأوبئة التي تفشت بين اللاجئين الفارين من عمليات الإبادة.

التزمت القومية الصربية دائما خطا عنصريا واضحا لا مواربة فيه، وهو خط لم يجد التعبير عن نفسه في الصحافة والإعلام فحسب بل في مؤسسات الدولة الرسمية ، ففي عام ١٩٨٦ صدرت من "الأكاديمية الصربية للعلوم" مذكرة ادعت أن القوميات التي كانت تشكل الاتحاد اليوغسلافي السابق وهى: الكرواتية والبشناقية والسلوفينية والمقدونية والألبانية (الكوسوفية)، كلها قوميات مزيفة ولا يصح إلا القومية الصربية، وأعلنت المذكرة: إن الشعب الصربي في أنحاء يوغسلافيا شعب واحد وكيان واحد فائق ومتميز، وله حقوق تاريخية

تتجاوز الحدود السياسية والجغرافية، وأن وحدة الشعب الصربي وتكامله وشرفه وثقافته في يوغسلافيا قضية تفرض نفسها فوق كل الاعتبارات لأنها تتعلق بالحفاظ على هذا الشعب وبقائه ونموه (١١).

وقد رأينا أن ما قام به ميلوسفيتش وأنصاره المتطرفون لتنفيذ توصيات المذكرة في توحيد الشعب الصربي هو الذي أدي في النهاية إلى القضاء على يوغسلافيا وتدمير البوسنة. وعندما رفض كراجيتش التوقيع على خطة (فانس-أوين) بتقسيم البوسنة طمعاً في نصيب أكبر من أراضيها جاء ميلوسفيتش إلى مقر المفاوضات بأثينا في٢ مايو ١٩٩٣ ليحث عميله كراجيتش لقبول الخطة الذي رأى فيها مجرد مرحلة أولى ستؤدي إلى مرحلة تالية تضم فيها أراضي البوسنة كلها إلى صربيا الكبرى، وقد عبر عن هذه الحقيقة اصدق تعبير "دراجوسلاف رانتيتش" المتحدث الرسمي باسم رئيس جمهورية يوغسلافيا قال: "إنها فقط خطوة أولى .. فلن تستمر طويلاً .. إن أحدا لا يصدق هذه الخطة حتى لورد أوين نفسه" ثم أضاف مستخفاً "إن المسلمين سينعمون بمعسكرات إيواء مثل معسكرات ليسوتو الأفريقية .. فهذه ليسوتو البلقان.. وسوف يحصل الصرب في النهاية على كل ما يريدون" (١٢).

أما هذه العنصرية العدوانية التي دمغت القومية الصربية يلاحظ المؤرخون والمراقبون والرحالة على مر العصور تميز البوسنة بالتسامح والامتزاج السلمي بين عناصر الشعب البوسنوي المختلفة: مسلمين ومسيحيين ويهود مما كان دائما ولا يزال مثار إعجاب الجميع: من الرحالة الذين زاروا البوسنة وسجلوا انطباعاتهم عنها الرحالة التركي "أوليا جلبي" الذي اثنى كثيراً على سجايا وأخلاق البشناق وتسامحهم، والرحالة الفرنسي "كيسيليه" الذي زار البوسنة وأقام في سراييفو شهرين من عام ١٦٥٨ كتب "لم ألق في سراييفو إلا أحسن المعاملة ولم أجد سوى الكرم والسخاء من جميع المسلمين في المدينة حيث كان الجميع أصدقاء"(١٣).

وفي العصر الحالي يأتي "هـ.ت نوريس" أستاذ التاريخ بجامعة لندن ليؤكد لنا في كتابه "الإسلام في البلقان" إن البوسنة نموذج فذ للانسجام الديني والعرقي في منطقة البلقان كلها.. وتبعه في ذلك الكاتب والصحفي الأمريكي "دافيد ريف" استخلاصا من خبرته ومشاهداته قال"أن مجتمع البوسنة قد التزم في حياته بالتعددية الثقافية بالمعنى الحقيقي والممارسة أكثر مما حدث في الولايات المتحدة نفسها.. فالتسامح جزء من طبيعة هذا المجتمع" ومن رأيه أن التدخل الغربي إلى جانب البوسنة ضد العدوان الصربي كان ينبغي اعتباره دفاعا عن النفس، وليس صدقة يتصدق بها على غرباء إن شاء".

موقف عزت بيجوفيتش من تفكيك يوغسلافيا

وقفت البوسنة إلى جانب جمهوريتي سلوفينيا وكرواتيا في موضوع الإصلاح الدستوري لمواجهة الأطماع الصربية وتلاعب الصرب بيوغسلافيا، ولكن الرئيس البسنوى على عزت بيجوفيتش لم يكن ليذهب مع سلوفينيا وكرواتيا إلى آخر الطريق، لأنه استشعر أنهما يخططان لانفصال كامل عن يوغسلافيا فإذا تحقق هذا الانفصال سيكون كارثة على البوسنة، فهى جمهورية ناشئة وضعيفة فإذا بقيت وحدها في الاتحاد اليوغسلافي الجديد مع صربيا فستكون تحت رحمة من لا يرحم، وإذا وقع صراع مسلح بين صربيا وكرواتيا بالذات فإن البوسنة سوف تتمزق وتطحن بين رحى هذا الصراع . والسبب في ذلك يرجع إلى حقيقتين: الأولى من التجربة التاريخية الطويلة والثانية من التركيبة القومية الخاصة بالبوسنة التي تتألف من حوالي ٤٧% مسلمين (البشناق) و٣٣% أرثونكس (صرب البوسنة) و١٧%كاثوليك (كروات البوسنة).. ولا تعيش هذه القوميات في كيانات جغرافية متميزة وإنما يمتزج الجميع في القرى والمدن كلوحة من الفسيفساء.

وقد رأى عزت بيجوفيتش أن البوسنة بتركيبتها الفسيفسائية هذه أولا يستحيل تقسيمها من ناحية، وأنها من ناحية أخرى يمكن أن تكون جسر سلام تعبر عليه

محاولات التقريب والوفاق بين العدوين التاريخيين (الصرب والكروات)، ولكن إذا نشب صراع مسلح بينهما (كما حدث بالفعل) فسوف ينحاز صرب البوسنة إلى صربيا وينحاز كروات البوسنة إلى كرواتيا، ويدور الصراع بينهما على أرض البوسنة نفسها فتتمزق وحدتها ويكون اكبر ضحايا هذا الصدام شعب البوسنة المسلم.

لذلك كان عزت بيجوفيتش (على خلاف من كل الادعاءات الكاذبة) كان احرص رؤساء جمهوريات يوغسلافيا على الوحدة اليوغسلافية في إطار ديمقراطي جديد، وعلى اتخاذ المسلك السياسي بدلا من الحرب لحل الأزمة اليوغسلافية، ومن ثم تقدم في اجتماع الرئاسة سنة ١٩٩١ بمشروع حل وسط ينهي الأزمة الناشبة بين صربيا من ناحية وكرواتيا وسلوفينيا من ناحية أخرى، وقد نال هذا الحل تأييد المجتمع الأوربي، ولكن ميلوسفيتش رفضه بصلف ومضى في مخططه العدواني، ولم يأبه فرانيو توجمان (الرئيس الكرواتي) بحل يقترحه عزت بيجوفيتش لأنه كان يتطلع إلى الانفصال عن يوغسلافيا .

وفي هذا يقول عزت بيجوفيتش(١٤):"حيثما كان ميلوسفيتش وتوجمان يحضران المفاوضات، يتوقف النقاش البناء وتنهار جلسة المفاوضات. ثم يأتي إلى النقطة الجوهرية فيقول:"لم يكن هناك شك أن العوامل الذاتية الشخصية كان لها اكبر الأثر في تطور الأحداث بيوغسلافيا على النحو الذي تطورت إليه.. فمن الناحية الموضوعية المجردة كان من الممكن أن تتخذ الأحداث مسارا آخر مختلفا.. وتؤدي في نفس الوقت إلى الأهداف الأساسية لكل من الكروات والصرب والمسلمين وجميع القوميات الأخرى في يوغسلافيا"، ثم يضيف قائلا: "إن السمات الشخصية لبعض الرجال الذين كانوا في مراكز رؤساء جمهوريات أو مراكز أخرى هامة كان من شأنها أن تجعل" أي اتفاق توصلنا إليه مصيره الفشل لا محالة". ثم ينتقل بهذه الفكرة إلى المستوى العالمي الأوسع فيؤكد: "أن سلوك القوى العظمى أيضا تجاه البوسنة ويوغسلافيا السابقة كان يعتمد على

نوعية الأشخاص الذين صنعوا السياسات أو نفذوها: فأمريكا تحت قيادة بوش (الأول) لم تكن هي نفسها أمريكا كلينتون، وبريطانيا جون ميجور اختلفت في عهد توني بلير، وكذلك كانت فرنسا ميتران غيرها في عهد شيراك... لقد تعلمنا في الجامعة النظرية المشهورة أن السياسة تحددها المصالح وتصوغها مجموعات من الخبراء، وان هذا شئ عقلاني ومتوقع وأنها لا تعتمد على الشخصيات إلا في اقل القليل، ولكن تبين لنا واضحا أن هذه النظرية غير صحيحة، فمصير يوغسلافيا وتفككها لم يكن حتمية تاريخية ، وحتى عندما حل هذا التفكك كان من الممكن أن يقع بطريقة أخرى مختلفة غير طريقة الحرب والتطهير العرقي، فكل ما حدث فرضته شخصيات من أمثال ميلوسفيتش وتوجمان ولم يكن بأي حال حتمية تاريخية كما يزعم بعض الناس.. وقد كان حظنا نحن البشناق حظا سيئا ففي اللحظة الحرجة من التاريخ التي انطلقت شرارة الحرب في البوسنة كان يحكم العالم من حولنا أناس مثل بوش وميجور ومتران وميلوسفيتش وتوجمان وغالي واكاشي وجانفيير وغيرهم، كان هؤلاء الناس وسياساتهم هم الحقيقة الموضوعية التي لم يكن لنا عليها أي قدر من التأثير، بل كانت بالنسبة لشعبنا جزءاً من الأقدار التي هبطت علينا من حيث لا نحتسب".

تدخل الولايات المتحدة

كانت الولايات المتحدة الأمريكية- منذ بداية الصراع اليوغسلافي - تحاول أن تنأى بنفسها عن التدخل ، بحجة أن ما يجري هناك شأن أوربي، وعلى أوربا أن تجد له حلا، ولكنها تحققت - مع الوقت - أن أوربا لم تكن مؤهلة للقيام بهذا الدور، بل أسهمت بتقاعسها أحيانا وبتواطئها مع العدوان الصربي أحيانا أخرى في تردي الأوضاع في البوسنة وفي استمرار المذابح في مشهد يومي فاضح أمام العالم لأكثر من ثلاث سنوات، لذلك لم تجد الولايات المتحدة مفرا من التدخل وأخذ زمام المبادرة في يدها. وهكذا تخلي لورد أوين عن مهمته وسقط مشروعه

في تقسيم البوسنة، وتولى "ريتشادر هولبروك" مهمة التقريب بين وجهات النظر، بعد أن اظهر حلف الأطلنطي جديته في ضرب القوات الصربية وإجبارها على فك الحصار عن سراييفو.. وتمخضت اتفاقية دايتون للسلام عن مولود هلامي المعالم يحفظ من الناحية النظرية وحدة أراضي البوسنة، ولكنه يجمع ثلاث كيانات في واحد: جمهورية صرب البوسنة وفدرالية تجمع البشناق والكروات ومجلس رئاسة يضم الثلاثة.

ومن الناحية العملية حصل صرب البوسنة على ٤٩ % من أراضي البوسنة وبقى للفدرالية ٥١ % من هذه الأراضي .

لم يكن عزت بيجوفيتش سعيدا بهذه النتيجة المجحفة ولكنه على الأقل توصل إلى أمرين بالغي الأهمية: وقف حمام الدم النازف الذي يتعرض له شعبه، والحفاظ على وحدة أراضي البوسنة، ورأى أن إمكانات شعبه وظروف اللحظة الراهنة يمكن أن تتغير في المستقبل القريب بحيث تلتئم أشلاء البوسنة وتعود إلى سابق وحدتها التاريخية دولة ديمقراطية متعددة الأديان والقوميات .

بعد توقيع اتفاقية دايتون وقف كل من الرئيسين ميلوسفيتش وتوجمان فشكرا الرئيس كلينتون في سعادة ظاهرة أمام عدسات التلفاز، أما الرئيس عزت بيجوفيتش فلم يشكر أحدا ولكنه وجه خطابه مباشرة إلى شعب البوسنة فقال : "لم يكن الاتفاق عادلا بالنسبة للبوسنة ولكن الله يشهد أننا بذلنا كل ما في وسعنا من جهد للوصول إلى تسوية عادلة" . هذا الشعور بالمرارة صبغ حديث عزت بيجوفيتش كلما سؤل عن رأيه في اتفاقية دايتون ووصف هذا الموقف بأنه : "المذاق المر للسلام" (١٥).

أوضاع البوسنة بعد دايتون (١٦)

أورد عزت بيجوفيتش في مذكراته المنشورة سنة ٢٠٠٣ فيضا من الحقائق المثيرة عن الأوضاع التي سادت في البوسنة بعد اتفاقية دايتون للسلام، حيث يشرح لنا تجربة حكومته مع أمريكا وأوربا فيما يتعلق بتنفيذ الاتفاقية، فيتبين لنا

أن هذه الدول قد نشطت بقوة في تنفيذ الشق العسكري والأمني لضمان وقف الحرب وتأمين وجود قوات حلف شمال الأطلنطي والإدارة الأجنبية على أرض البوسنة، أما الشق المدني من الاتفاقية الّذي يشتمل على إعادة أعمار البوسنة وإعادة اللاجئين إلى ديارهم والقبض على مجرمي الحرب وتقديمهم إلى المحاكمة في لاهاي فلم يتحقق منه شئ يذكر ، ولا يزال رادوفان كراجيتش وراتكو ملاديتش وهما اكبر المجرمين مطلقي السراح حتى الآن، بعد مرور ما يقرب من تسع سنوات على توقيع اتفاقية دايتون .

ويحق لنا أن نتساءل : هل يرجع هذا إلى نقص في آليات التنفيذ أم غياب الرغبة والإرادة ؟ يجيب على هذا السؤال ريتشارد هولبروك مهندس اتفاقية دايتون الذي كتب في مقال له نشر بمجلة " تايم" الأمريكية في ١٢مايو١٩٩٦): " لقد قامت الولايات المتحدة بالتزاماتها العسكرية تجاه اتفاقية دايتون كما وعدت، ولكن هناك إشارات خطيرة في سلوك الدول الأوربية ، إذ يبدو أن هذه الدول قد ألقت بتعهداتها والتزاماتها فيما يتعلق بالجوانب المدنية عرض الحائط، بما في ذلك إعادة البناء الاقتصادي للبوسنة وإعادة اللاجئين إلى ديارهم وتقديم مجرمي الحرب إلى العدالة.. "ويخشى هولبروك من موقف الدول الأوربية الذي يتحدث قادتها فيما بينهم بعيدا عن وسائل الإعلام عن مكنون صدورهم وعزمهم على أن يهيئوا الأوضاع في البوسنة لتقسيمها بصفة نهائية على أساس من الأمر الواقع .

وليس أدل على هذا من محاولة الإدارة الأوربية زعزعة الاستقرار السياسي في البوسنة وخلق مشاكل لحكومتها، وتدعيم بل خلق قوى معارضة ضد حكومة عزت بيجوفيتش ومساندتها بالمال والإعلام والخطط .

لقد كانت الإشارات تصل عزت بيجوفيتش واضحة بأنه طالما هو في قيادة شعب البوسنة فلن يكون هناك إعمار ولا عودة للاجئين المسلمين إلى ديارهم لذلك آثر الرجل مصالح بلاده وضحى بالسلطة وحمد الله انه تخفف من مسؤولية أرهقته وتركت بصماتها قاسية على قلبه وصحته وحياته.

لقاءاته الصحفية وأحاديثه (١٧)

في لقاءاته الصحفية وفي أحاديثه أمام المحافل الدولية يكشف عزت بيجوفيتش عن ثروة فكرية وجرأة غير معهودة في الحق، وفهم عميق للقوى والأفكار التي تحرك هذا العالم. من هذه اللقاءات سلسلة أحاديث أدلى بها عزت بيجوفيتش إلى عبد الله سيدران وهو شاعر بشناقي وكاتب سناريو وصحفي مرموق، نشرت هذه السلسلة في ثلاثة إعداد بمجلة "سرابيفو سلوبودنا بوسنا" سنة ١٩٩٦، نجتزئ ببعضها في هذه العجالة.

- سيدران مستنكرا : "حزنت يا سيدي الرئيس لأنك وافقت مؤخرا على إنشاء محطة تليفزيون خاصة بالبوشناق (وهو الاسم التاريخي لمسلمي البوسنة) .. وسألت نفسي: هل هذا يصب في صالح البوسنة أم هو اتجاه يمكن أن يؤدي إلى تمزيقها ؟". وأجاب عزت بيجوفيتس : "تخطئ إذا وضعت البشناق والبوسنة على طرفي نقيض .. وان تعتقد أن أي زيادة في طرف تؤدي بالضرورة إلى نقص في الطرف الآخر.. واعرف أن هناك أناساً يعتقدون أن إضعاف البشناق يؤدي إلى بوسنه أقوى ، ولكن هذا غير صحيح ، فبوسنة قوية موحدة وديمقراطية لا يستلزم شيئا من ذلك، يرى هؤلاء الناس انه من الأفضل أن ينسى البشناق عقيدتهم وماضيهم وحتى أسماءهم ففي هذا - كما يزعمون- تقوية للبوسنة، وهذا غير صحيح أيضا، وإنما العكس هو الصحيح .. إن شعبا من البشناق الأقوياء الواعين هو العمود الفقري لدولة البوسنة والهرسك، وهو الضمان الأكيد لإنقاذ البوسنة من الأطماع التوسعية للدولتين المجاورتين صربيا وكرواتيا، وهو الذي سيأخذ البوسنة والهرسك تدريجيا في طريق الوحدة.. البشناق هم الضمان أن الستار لن يسقط على دولة البوسنة.

- سيدران : سيدي الرئيس أرجو أن تتحدث عن شخصية عزت بيجوفيتش التاريخية وأعماله ..هل تتذكر مقولتي : إن عزت بيجوفيتش سيكون شيئا إذا نجا البشناق وبقيت البوسنة بعد الحرب وسيكون شيئا آخرإذا إختفيا من وجه الأرض؟

- عزت بيجوفيتش : لا أحب أن أتحدث عن شخصية عزت بيجوفيتش وأعماله.. ولكني أحب أن أتحدث عن البوسنة ومستقبلها. وفي هذا أقول: لك باطمئنان: إنني اعتقد أن فكرة البوسنة ستفوز وتبقى حية.. أومن بذلك لأسباب ثلاثة: أولا أن قوة الشعب البشناقي وقوة البوسنة في نمو مطرد، وثانيا أن صربيا ستبقى في حالة ضعف واضطراب لفترة طويلة، وثالثا أن التحول الديمقراطي بكرواتيا يتقدم بخطى ثابتة، ومعنى هذا أن الدولتين القويتين المجاورتين الطامعتين في التوسع بالبوسنة لن يكون لهما اثر فعال، ومن ثم لن تستطيع صربيا تدمير البوسنة ولن تريد كرواتيا تدميرها، بكلام آخر أقول: أن نمو قوتنا الداخلية في إطار صربيا ضعيفة وكرواتيا ديمقراطية (من الخارج) هى رؤيتي وتصوري التاريخي الذي أراه يتحقق أمامي في هذه المنطقة في هذا الوضع التاريخي سوف تبقى البوسنة وسوف تؤكد نفسها تدريجيا كدولة ديمقراطية موحدة.

- سيدران : ماذا عن رؤيتك للبوسنة سنة ٢٠٣٠ ؟

- عزت بيجوفيتش : كيف يتسنى لي معرفة ما سيحدث بعد ثلاثين أو أربعين سنة قادمة.. اعلم أن بعض الناس يؤكدون أن تغييرات هائلة ستحدث في العالم.. واعتقد أن أوربا ستكون مقاطعة واحدة، وان الشرق الأقصى سيكون مركز العالم .. وان أمريكا ستفقد سيطرتها في العالم بسبب سقوطها الأخلاقي . هذا هو السياق العالمي الذي ستعيش فيه البوسنة ، ولكني لا اعتقد أن التأثير القادم من بعيد سيكون على مستوى التأثير المباشر لجاريها الصربي والكرواتي، كما اعتقد جازما أن كرواتيا خلال خمسة عشر عاما ستجعل من نفسها دولة ديمقراطية حديثة، بينما ستبقى صربيا مضطربة لزمن طويل ، وفي هذا المناخ ستجد البوسنة فرصتها للبقاء والنمو كما سبق أن ذكرت .

الإسلام والأصولية (١٨)

في محاضرة ألقاها عزت بيجوفيتش أمام الجمعية الألمانية للشئون الخارجية في بون (بتاريخ ١٧ مارس ١٩٩٥) قال : "أحب أن ألفت النظر إلى حقيقة وجود

قوى فاشية على جانبي البوسنة (في صربيا وكرواتيا) وهم جميعا يفخرون بتبني مفاهيم قومية مغلقة (دين واحد وحزب واحد) .. وتهب علينا من الجانبين رياح تريد أن تطفئ هذه الشعلة الصغيرة التي أضيئت في أرض البوسنة التي تحررت. هؤلاء هم أنفسهم الذين يهاجمون ما يصفونه بالأصولية الإسلامية، ويزعمون أنهم يقومون بدور المدافع عن أوربا من الخطر الإسلامي، ولعل هذه فرصة مناسبة لإلقاء الضوء على ما يسمونه أصولية إسلامية في البوسنة. ولكني أود أولا أن أنبه إلى حقيقة هامة، وهى انه لا ينبغي لكم أن تسمحوا لهؤلاء الفاشيين بالدفاع عنكم حتى من خطر الأصولية الإسلامية، فأنا لا أظن أن أوربا قد انحط شأنها لدرجة أنها تتوقع من الذين دمروا الأماكن المقدسة والآثار الثقافية والتاريخية أن يقوموا بحماية أوربا من أي شئ !. نعم يوجد في البوسنة إسلام ولكن ليس فيها أصولية، فإذا كان هناك من لا يستطيع أن يفرق بين الإسلام والأصولية فتلك مشكلته الخاصة. لقد استيقظ الدين في نفوس الناس بعد خمسين عاما من القمع الشيوعي، وهذه العملية جزء من اليقظة الوطنية للشعب البشناقي وسوف تستمر، ولكن الأحياء الديني في البوسنة لن يكون متطرفا راديكاليا لأنه أحياء طبيعي حر، وقد لعب دورا إيجابيا في أنسنة نضالنا من اجل الحرية، فالدين يؤكد الفرق بين الخير والشر ..بين الحلال والحرام .. وقد كان كل ما أصابنا من ظلم ودمار يدفعنا لانتقام لا ضابط له .. ولكننا بحمد الله لم نتورط في غواية الانتقام، بل انتصرنا عليها، وذلك بفضل استمساكنا بعقيدتنا الدينية فهل هذه أصولية ؟ . هذا التضليل الذي يخلط بين الإيمان وبين الأصولية لا يزال معلقا فوق رأس البوسنة بفضل الصمت والقبول المتبادل بين المعتدى والغرب.. فالمصلحة واحدة وان اختلفت الأسباب.. مصلحة المعتدي الصربي هى أن يحول بين الغرب وبين أن يقوم بواجبة في مساعدة البوسنة المدمرة ، وذلك باستخدام خدعة التخويف من الأصولية الإسلامية، ومصلحة الغرب هى أنه قد وجد مبررا لسلبيته ونكوصه عن القيام بواجبه الإنساني نحو البوسنة المعتدى عليها" .

في آخر المحاضرة قال عزت بيجوفيتش: "اسمحوا لي ببعض ملاحظات شخصية.. لقد جئت هنا بصفتي الرسمية كرئيس لجمهورية البوسنة .. ولكن لماذا لا أقولها بصراحة إنني جئت إلى هنا أيضا كمسلم من البوسنة، فأنا اشعر أنني مسلم قدر شعوري بأنني أوربي، ولا أظن أن أحدهما يستبعد الآخر، ولست أرى بين الناس وبين الحضارات اختلافات تمنع من التواصل والتوافق، فإذا كانت كل حضارة هي بصفة أولية مجموعة من القيم الأخلاقية.. فمن حقنا أن نتحدث عن إمكانية قيام وحدة بين الحضارات .. ألا نستطيع أن نتفق جميعا - في هذا المجال- على مبدأ المساواة الإنسانية؟.. وفي القرآن آية تقول"تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم.." والدعوة هنا موجهة إلى اليهود والنصارى، ولذلك أدعوكم أن تسقطوا دعوى إقامة حواجز صناعية عدائية بين المسيحية والإسلام.. بين الشرق والغرب، ثم دققوا النظر لتروا التعصبات الكامنة وراء الأنانية والظلم الغربيين، وسوف ترون أيضا أن كثيرا من الاختلافات التي تستشعرون فداحتها ليست في الحقيقة اختلافات جوهرية، وان مصدرها الاختلاف في المستوى الثقافي ودرجة النمو الاجتماعي .. إنني مسلم أوربي واشعر بارتياح كامل واتساق إزاء هذه الحقيقة".

مجرد رئيس انتخبه الشعب (١٩)

في مقابلة مع صحفي من مجلة "داني الأسبوعية" الصادرة في سراييفو بتاريخ ١١ديسمبر ١٩٩٤، وكانت الحرب في البوسنة على أشدها حيث بدأت كفة البشناق ترجح في القتال، ليحققوا انتصارات مفاجئة ويزحفوا لتحرير مساحات شاسعة من أرض البوسنة، سأل الصحفي عزت بيجوفيتش قال: "سيدي الرئيس إن قيادتك العبقرية لشعب البوسنة لا جدال فيها، فلست رئيسا لحزب ولا رئيسا للجمهورية فقط ولكنك أصبحت رمزا للشعب البشناقي .. ومع ذلك أغامر بهذا السؤال : ماذا بعد عزت بيجوفيتش؟ إنني أسألك هذا السؤال وأنا اعلم أن لك محبون كثر كما أن لك كارهون أيضا، ولكنهم متفقون جميعا على انك أحدالعوامل

الحاسمة في الدفاع عن الشعب والحفاظ عليه .

- عزت بيجوفيتش : أظنك تبالغ كثيرا فأنا مجرد رئيس اختاره الشعب في انتخاب حر .. واعرف بالضبط ما يعنيه هذا الاختيار وما ينطوي عليه من مسئوليات .. إنني اشعر من كلامك بالإطراء ، ولكن هناك ما يبرر شعوري بالحزن وربما بالغضب أيضا .. فأنا أخالفك في فكرة إنني على هذا القدر من الأهمية بالنسبة للدفاع عن الشعب البشناقي، وأحمد الله أن هذا غير صحيح .. لقد هب الناس بالألوف يقاتلون ويدافعون عن وطنهم ضد العدوان .. نعم .. لقد جعلت ذلك عليهم أيسر ، ولكن كان في استطاعتهم أن يحاربوا بدوني، وسوف يستمرون في القتال من بعدي .. لقد استطاع المقاتلون المسلمون في "جراداكاتش" في نوفمبر ١٩٩٢ أن يهزموا أعداءهم ويحرروها .. فماذا فعلت لهم ؟ القليل .. أما هم فقد قاموا وحدهم بالتخطيط والدفاع وانتصروا .. وكذلك بالنسبة لإعادة بناء الصناعات العسكرية المدمرة .. كانت كلها بجهود ومبادرات عبقرية من قبل مجموعات محلية وبدون كثير من مساعدة ..

بين الحرية والتطرف

تحدث الصحفي (واسمه بتشانين) عن الاتهامات الموجهة إلى حزب العمل (الحزب الحاكم) وكيف أن البريطانيين يدعون إلى تصفيته على أساس انه حزب قومي متطرف مثل الحزبين الآخرين الصربي والكرواتي ، وكان رد عزت بيجوفيتش موجزا وبليغ .. قال : "لم يكن في حزب العمل الديمقراطي تطرف ولن يكون طالما ظل الإسلام حرا في البوسنة .. أما إذا كنت قد لاحظت حالات فردية من التطرف فهذا أمر عادي يحدث في كل بلاد الدنيا .

- سأل بتشانين معقبا : إذن بماذا تفسر زيادة الوهابيين السلفيين وأولئك الذين يؤيدون طالبان علنا ؟

- عزت بيجوفيتش : فهمي للإسلام واضح ومعروف وهو مختلف عن فهم هؤلاء الناس .. فأنا لا اعتقد أن المرأة يجب عليها أن تغطي وجهها بل إنني أعارض

هذا، وقد زرت الحرم المكي فلم اشاهد امرأة تغطي وجهها إلا فيما ندر.. فلماذا تغطى المرأة وجهها في سراييفو ؟.. أنا لا أعرف أن في البوسنة كثيرا من الوهابيين .. وطالما أنهم لا يستخدمون وسائل غير قانونية فهم أحرار في بلد حر".. ثم وجه الكلام إلى الصحفي فقال : "إذا كنت يا سيد "بتشانين" تقول وتكتب وتعارض كما تشاء .. فلماذا لا يفعلون هم أيضا بنفس الحرية؟.. هذه الآراء التي يطرحونها تصبح موضوع اهتمام السلطات فقط عندما يبدأ أصحابها فرضها بالقوة واستخدام العنف ".

استعادة الهوية

في لقطة واحدة قصيرة يطوي تاريخ البوسنة في مائة عام حتى اللحظة الراهنة حيث وقع الانقلاب الأخير .. يقول عزت بيجوفيتش : خلال مائة عام تحت أنظمة أوربية عانينا بسبب إسلامنا .. وكان التدمير المنظم موجها نحو هويتنا.. حتى لم يبق منها إلا بقايا وأطلال .. إلا أننا بعد نشوب هذه الحرب استعدنا هويتنا وعدنا إلى جذورنا الإسلامية الأولى .. لذلك لم يعد هناك سبب ولا يحق لنا أن ننظر إلى المستقبل بيأس.. ولعل العدوان الغاشم الذي وقع علينا كان عقوبة إلهية لتفريطنا في جنب الله.. ولكننا جاهدنا جهادا كبيرا لاستخلاص حريتنا وقد كافأنا الله بالنصر .. إننا نؤمن أن الأمم القوية هى التي تصاب بمحن كبيرة .. وهى التي تعتصم بمبادئ الأخلاق والإخلاص لهويتها ،وتظل مع ذلك مفتوحة على العالم في أحلك الظروف .. وهذا ما أتمناه لشعبي ولكل الشعوب المسلمة في العالم .

الإسلام والحضارة الغربية (٢٠)

في حديثه عن العلاقة بين الإسلام والحضارة الغربية يقول:" يواجه المسلمون اختيارا صعبا لابد أن يتجنبوا فيه اختيار أحد طرفين متعارضين: الرفض التام للحضارة الغربية ، وإتباعها إتباعا اعمي ، فكلاهما خطر بنفس القدر، فرفض الحضارة الغربية برمتها سيبقى ضعفنا إلى الأبد، وإذا أخذناها

كلها بلا تمييز بين غثها وثمينها فسوف نفقد هويتنا.. ولا ينبغي أن يغيب عن وعينا أن الحضارة الغربية إنما هى ثمرة جهود علماء كثيرين ينتمون إلى أديان مختلفة وشعوب مختلفة.. وان قوة الغرب لا تكمن في قوته العسكرية والاقتصادية فحسب، فهذا هو الجانب "البراني" منها، أما جانبها "الجواني" فيتجلى في التفكير النقدي وهذا هو ما يجب أن ننتبناه على الفور ونتقنه . والنقل الحرفي لمنتجات الحضارة الغربية وتقليدها تقليدا أعمى يصيب الناقل المقلد بآفة كامنة في روحها وثقافتها تتمثل في الصورة التاريخية للعالم كما تراه هذه الحضارة ، وكراهية الإسلام جزء من هذه الروح والثقافة التي تغذت قرونا بأحقاد الحروب الصليبية والغزوات الاستعمارية على العالم الإسلامي، وامتصاص هذه الروح العدائية يخلق عقدة نقص نلمسها في أجيال من المسلمين تعلموا في الغرب وانبهروا بقوته وتقدمه ، ومن هنا جاء احتقارهم لمجتمعاتهم المتخلفة ورفضهم لثقافتهم الإسلامية.. وإذا قمنا بدراسة الصراع الدائر اليوم في المجتمعات المسلمة فسوف نتحقق أن جوهر الصراع يدور بين دعاة الحداثة المنحازين للغرب ، وبين المحافظين التقليديين .. هذا الصراع هو الذي مزق المجتمعات المسلمة وانتهى بها إلى نهاية مأساوية محزنة .

فكرتان عظيمتان (٢١)

وأود هنا أن اعرض لفكرتين عظيمتين معاصرتين إنبثقتا في الفكر الغربي: يدعو إلى الفكرة الأولى "كارل بوبر" في كتابه " مجتمع مفتوح.. وأعداؤه" .. من سمات هذا المجتمع الأساسية: حرية الفرد، والنمو الشخصي ، والتفكير الحر، والحق في نقد النظم السياسية، والتبادل الحر للآراء .و لست أجد في دين المسلمين ما يحول بينهم وبين الأخذ بهذه الفكرة . وإضافة إلى ذلك فإن بوبر يحث على التسامح ويقف ضد السلوك البربري في أوربا الذي يعاني منه المسلمون في القارة .

أما الفكرة الثانيةفتتمثل في الدعوة إلى عصر نهضة ثاني في أوربا، صاحب

هذه الفكرة هو الفيلسوف الألماني "ويتساكر" "Weizsacker" ، ويتميز هذا العصر عن عصر النهضة الأول في أن توجهه إلى عوالم وثقافات خارج أوربا..

هذا التحول الجديد نحو الخارج والانفتاح على ثقافات شعوبه يجعل للإسلام وثقافته موضعا محتملا في إطار الاهتمام الأوربي . في هذا المجال يسوق عزت بيجوفيتش آية قرآنية من سورة المائدة لها دلالة ملفتة للنظر :"... لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ، ولكن ليبلوكم في ما آتاكم، فاستبقوا الخيرات، إلى الله مرجعكم جميعا، فينبئكم بما كمنت فيه تختلفون" .. ويعلق عزت بيجوفيتش على هذه الآية فيقول : نحن لا نستطيع أن ندخل في حلبة السباق إلى الخيرات ونقنع الآخرين بجدارتنا وبما نملك من قيم عظيمة ما لم نقوى هويتنا أو بالأخرى وعينا بهويتنا الخاصة، فالمسلمون الواعون وحدهم هم القادرون على الأخذ والعطاء دون أن يلقوا بقيمهم الإسلامية وراء ظهورهم .. أما الذين انسلخوا من هويتهم ووطنوا أنفسهم على الأخذ فقط فهؤلاء هم المتسولون الذين لا يحظون باهتمام الآخرين أو احترامهم.

مسلم وأوربي

في لقاء مع مندوب صحيفة شتيرن الألمانية في ٥ نوفمبر ١٩٩٤م، سأله — الصحفي: السيد الرئيس أنت معروف كمسلم حريص على التقاليد الأوربية والتسامح الأوربي .. وانك منفتح على العالم بأسره .. ولكن هناك تقارير في الصحافة الأوربية تقول أن هناك الآن أسلمة جارية في البوسنة والهرسك .. فهل هذه مجرد شائعات ؟

- عزت بيجوفيتش : سوف أكون معك شديد الصراحة وأقول لك : لا ليست هذه شائعات بل حقيقة، فالعودة إلى الدين أصبحت ظاهرة عالمية في كل مكان تمكن الشيوعيون فيه من قمع الدين على مدى خمسين إلى سبعين سنة ماضية ، نعم هناك أسلمة في البوسنة كما تسميها.. وهى صحوة إسلامية، ولكن هناك في البوسنة بنفس القدر صحوة أرثوذكسية وصحوة كاثوليكية .. والفرق هو أن عودة

المسيحيين إلى دينهم لم تلفت نظر أوربا المسيحية، وهذا أمرا فهمه ولا ألومها عليه ! .. أود فقط أن أصححك في نقطة واحدة وهي أن تسامحي الذي تتحدث عنه ليس مرده إلى كوني أوربي وإنما مصدره الأصيل هو الإسلام ، فإذا كنت متسامحا حقا - كما تقول - فذلك لأنني أولا وقبل كل شئ مسلم ثم بعد ذلك أوربي.

لقد لاحظت من تجربتي في حرب البوسنة أن أوربا لديها أوهام تعجز عن التحرر منها رغم الحقائق الدامغة، فقد دمرت أثناء هذه الحرب مئات المساجد والكنائس .. كلها بلا استثناء دمرها مسيحيون .. ولم يدمر المسلمون كنيسة واحدة .. وقبل ذلك حكم الأتراك العثمانيون (وهم مسلمون) البلقان خمسمائة سنة فلم يهدموا كنيسة ولا أبادوا شعبا من الشعوب، وحافظوا على الآثار المعمارية وعلى الأديرة الشهيرة في جبال "فروشكا جورا" (قريبا من بلجراد) ..ولكنها لم تصمد ثلاثة أعوام فقط تحت الحكم الأوربي ، فقد دمرها الشيوعيون والفاشيون خلال الحرب العالمية الثانية.. ولم يكن هؤلاء الشيوعيون والفاشيون الذين ارتكبوا هذه الجريمة من آسيا بل من قلب أوربا.. وحتى هذه اللحظة لم تبد أوربا حساسية كافية ضد الفاشية المتصاعدة في البلقان بل وقفت تتفرج على الدمار الذي ألحقه الصرب في البوسنة!.. أنني اعتز بأوربا واحمل لها كل تقدير .. وأنا أوربي ولا أستطيع أن أتخلص من جلدي.. ولكني أقرر أن أوربا لديها فكرة عن نفسها أعلى بكثير من حقيقتها !

هوامش :

١- أنظر عزت بيجوفيتش - مذكرات ... ص ١٤
Izatbegovic, Alija - Inscapable Questions: Autobiographical notes. Leicester, /Eng. : The Islamic Foundation, 2003
٢- نفس المصدر ص ١١
٣ - محمد يوسف عدس - كوسوفا بين الحقائق التاريخية والأساطير الصربية
القاهرة : دار المختار الإسلامي ، ٢٠٠٠ ص ١٧١-١٧٢
٤ - أنظر مذكرات عزت بيجوفيتش ، ص ٢٥-٨٥
٥ - أنظر جان ويليم هونج (سربرينيتشا)
Honig, Jan willem and Norbert Both-Serbrenica: Record of war crime. London: Penguin Books, 1996
٦ - أنظر كتاب تزييف حرب ص ٢٠١-٢٤٩
Forging War: The Media in Serbia, Crootia and Bosnia-Hercegovina. Artcle 19, International Centre Against Censorship, 1994
٧ - أنظر وثيقة الأمم المتحدة في كتاب : محمد يوسف عدس - البوسنة في قلب اعصار .
القاهرة : المختار الإسلامي ، ٢٠٠٠ ص ٢١٢-٢١٧
٨- أنظر نفس المصدر ص ٢١٣
٩ - أنظر نفس المصدر ص ١٦٣-١٧٩
١٠- أنظر نويل مالكوم ص ١٢٧
Malcolom, Noel-Bosnia: Short History. London: Macmillan, 1994.
١١ - أنظر نفس المصدر ص ٢٠٦-٢٠٧
١٢ - أنظر نفس المصدر ص ٢٥٠
١٣ - أنظر نفس المصدر ص ١٠٥
١٤ - أنظر مذكرات عزت بيجوفيتش ، المصدر السابق ، ص ٩٠
١٥ - أنظر محمد يوسف عدس (البوسنة)، ص ٢٥١-٢٥٦
١٦ - أنظر مذكرات عزت بيجوفيتش ، ص ٢٨٩-٣٣٦
١٧ - أنظر مذكرات عزت بيجوفيتش ، ص ٤٥٦-٤٧٤
١٨ - أنظر مذكرات عزت بيجوفيتش ، ص ٤٧٥-٤٨٠
١٩ - أنظر مذكرات عزت بيجوفيتش ، ص ٤٩٢-٤٩٣
٢٠ - أنظر مذكرات عزت بيجوفيتش ، ص ٥٠٦
٢١ - أنظر مذكرات عزت بيجوفيتش ، ص ٥٠٧



العلاقـــات التجارية بين مصر وإيطاليـا في النصف الأول من القرن العشرين

أ.د. أحمد الشربيني
أستاذ التاريخ الحديث
كلية الآداب – جامعة القاهرة

كان لارتباط مصر وإيطاليا ببحر واحد، تأثيره فى وجود علاقات تجارية ممتدة بينهما فى التاريخ، حتى أن المدن الإيطالية ظلت لقرون عدة تتمتع بمركز عظيم فى تجارة مصر الخارجية ، وأصبحت إحداها "البندقية" تقتسم مع مصر المماليكية أرباح التجارة بين الشرق والغرب، وبخاصة بعد أن ازداد نفوذ البنادقة "فى البحر المتوسط" وانحصرت حركة التجارة بين الشرق والغرب عبر مصر، عندما تعطلت طرق التجارة الأخرى، مع الاجتياح المغولى لأواسط آسيا ومعظم مناطق الشرق الأدنى.

لكن تأثر مركز المدن الإيطالية كثيراً فى التجارة مع مصر باكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، وتحول مركز التجارة العالمية عن البحر المتوسط إلى المحيط الأطلنطى، وكذلك بحالة عدم الاستقرار التى انتابت المدن الإيطالية.

وعندما تمكنت المدن الإيطالية من التوحد فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، أخذت إيطاليا تستعيد مركزها فى تجارة مصر الخارجية، حتى أنها أصبحت تحظى بما يتراوح بين ٣% و ٧% من جملة صادرات مصر قبيل الحرب العالمية الأولى، فى الوقت الذى تضاعفت فيها حصتها فى تجارة الوارد المصرية حوالى أربع مرات فى أقل من عقدين من الزمان (١٨٩٤-١٩١٣) بعد أن بلغت قيمة واردات مصر من إيطاليا فى سنة ١٩١٣ حوالى ١,٤٧٣,٠٣٣ جنيهاً مصرياً فى مقابل ٣٣٧,٩٦٧ جنيهاً مصرياً فى سنة ١٨٨٤[1].

وإذا كانت ظروف الحرب العالمية الأولى قد تسببت في تراجع حجم المبادلات التجارية بين مصر وإيطاليا، فإنه بمجرد انتهائها، والتغلب على الظروف التي كانت تعترض الحركة التجارية بين مصر والدول الأجنبية، استعادت إيطاليا مكانتها في تجارة مصر الخارجية، حتى أنها أصبحت لأحد أهم الدول الأجنبية الخمس صاحبة أكبر تعاملات تجارية مع مصر، والتي حظيت بمعظم صادرات مصر، التي كان القطن يشكل ٨٥% منها، في الوقت الذي تحولت فيه السوق المصرية، إلى أحد أهم أسواق منطقة الشرق الأوسط للسلع الإيطالية، وبخاصة المنسوجات على اختلاف نوعياتها.

ففي الفترة الممتدة من نهاية الحرب العالمية الأولى، وحتى اندلاع الحرب العالمية الثانية، ظلت إيطاليا تحصل على ما يتراوح بين ٦% و ٨% من إجمالي الصادرات المصرية، وذلك باستثناء سنة ١٩٣٦ التي تراجعت، فيها هذه النسبة بشكل فجائي إلى ٢,٩% بسبب مشاركة مصر في العقوبات الاقتصادية الدولية التي فرضت على إيطاليا في أواخر سنة ١٩٣٥ والتي بمجرد أن رفعت في أواخر سنة ١٩٣٦، عادت حصة إيطاليا من إجمالي صادرات مصر إلى مستواها الطبيعي في سنتي ١٩٣٧ و ١٩٣٨.

وإذا كانت حصة إيطاليا من إجمالي صادرت مصر في معظم سنوات ما بين الحربين العالميتين قد تجاوزت ضعفا مثيلاتها قبل الحرب العالمية الأولى، فإن الأمر قد اختلف بالنسبة إلى حصتها من إجمالي الواردات المصرية، حيث تجاوزت في عشرينات القرن العشرين ثمانية أضعاف مثيلاتها قبل الحرب العالمية الأولى، وإذا كانت قد تراجعت في الثلاثينات، فإن قيمتها ظلت تقدر بأربعة أضعاف مثيلاتها قبل الحرب. ولهذا ظلت نسبة ما كانت تستورده مصر من إيطاليا في العشرينات تمثل ما يتراوح بين ٩% و ١٠% من إجمالي واردات مصر، وإذا كانت هذه النسبة قد تراجعت في الثلاثينات، فإنها ظلت تمثل حتى في

أدنى مستوياتها – باستثناء ١٩٣٥ و ١٩٣٦- أكثر من ٦% من إجمالي واردات مصر.

هذا التحسن في حجم المبادلات التجارية بين مصر وإيطاليا فيما بين الحربين العالميتين جعل إيطاليا تحتل المركز الرابع في معظم سنوات تلك الفترة في قائمة الدول التي كانت تصدر إليها مصر حاصلاتها، في حين تأرجحت بين المركزين الثاني والثالث بقائمة الدول التي كانت تورد إلى مصر احتياجاتها السلعية، باستثناء فترة العقوبات التي ابتعدت فيها إيطاليا كثيراً عن المركزين، حتى أنها في سنة ١٩٣٦ تراجعت إلى المركز السابع بقائمة الدول التي كانت تمد مصر باحتياجاتها السلعية، بعد المملكة المتحدة، وإيطاليا واليابان، وفرنسا، ثم الولايات المتحدة وبلجيكا.

وإبان الحرب العالمية الثانية تراجع حجم المبادلات التجارية بين مصر وإيطاليا، بعد أن عطل دخول إيطاليا الحرب إلى جانب ألمانيا واليابان حركة المواصلات عبر البحر المتوسط بين مصر والأسواق الأوربية. واستجابت مصر لضغوط بريطانيا، وأوقفت كل تعاملاتها مع إيطاليا، وفرضت الحراسة على البنوك والشركات الإيطالية، ولاحقت أبناء الجالية الإيطالية في مصر.

لكن بمجرد أن انتهت الحرب العالمية الثانية، عادت العلاقات التجارية المصرية الإيطالية إلى سابق عهدها، حتى أن إيطاليا استأثرت بحوالي ١٤% من إجمالي صادرات مصر و٩% من إجمالي وارداتها في سنة ١٩٤٧. وهي نسبة كانت جديرة بجعلها تحتل المركز الثالث بقائمة الدول المتعاملة مع مصر في تلك السنة. ثم شهدت السنوات السبع التالية للحرب العالمية الثانية تقلباً سريعاً في مركز إيطاليا بتجارة مصر الخارجية.

فبعد أن احتلت إيطاليا المركز الثالث بقائمة الدول الموردة إلى مصر في سنة ١٩٤٧ بقيمة واردات بلغت ٩,١٨٩,٠٠٠ جنيه مصري فقد صعدت إلى

المركز الثانى فى سنة ١٩٤٨ بعد أن بلغت قيمة الواردات منها ١٥,٠٠٩,٠٠٠ جنيه مصرى، ثم تخلت عن هذا المركز إلى المركز السابع فى سنة ١٩٥١ على الرغم من احتفاظها بتوريد ما قيمته ١٥,٦٦٥,٠٠٠ جنيه مصرى فى تلك السنة، ثم عادت واحتلت المركز الخامس فى سنة ١٩٥٢ بقيمة وارد بلغت ١٢,٢٣٦,٠٠ جنيه مصرى والتى شكلت ٥,٦% من قيمة إجمالى الواردات المصرية.

أما التقلب فى مركز إيطاليا بقائمة تجارة الصادر المصرية، فلم يكن بنفس الحدة، حتى أنه رغم انخفاض قيمة الصادرات المصرية إلى إيطاليا فى سنة ١٩٤٨ بأكثر من ضعف مثيلاتها فى سنة ١٩٤٧، فقد ظلت إيطاليا تحتفظ بالمركز الرابع بقائمة الدول الأجنبية المستوردة من مصر، وفى السنتين التاليتين تحسن مركز إيطاليا إلى الثالث فالثانى، بعد أن وصلت قيمة الصادرات المصرية إليها فى سنة ١٩٤٩ إلى أكثر من عشرة ملايين ثم إلى ما يقرب من خمسة عشر مليوناً فى سنة ١٩٥٠. ورغم ارتفاع قيمة الصادرات المصرية إلى إيطاليا فى سنة ١٩٥١ عن مثيلاتها فى سنة ١٩٥٠ بأكثر من مليون جنيه مصرى، فإن مركز إيطاليا تراجع بشكل فجائى إلى المركز الخامس، ثم صعدت إلى المركز الثالث فى سنة ١٩٥٢، بعد أن بلغت قيمة الصادرات المصرية إليها خمسة عشر مليون ونصف المليون من الجنيهات المصرية، والتى مثلت ١١% من إجمالى صادرات مصر فى تلك السنة.

والملاحظ أن التقلب الذى أصاب مركز إيطاليا بقائمة تجارة مصر الخارجية فى أعقاب الحرب العالمية الثانية، لم يعد إلى تراجع حجم المبادلات التجارية معها، بقدر ما عاد إلى زيادة حجم تجارة مصر الخارجية، وميل حصة إيطاليا منها إلى الثبات(٢).

وهكذا تحولت إيطاليا فى غضون نصف قرن إلى واحدة من أهم الدول

المتعاملة مع مصر تجارياً على حساب المكانة التى كانت تتمتع بها بريطانيا فى تجارة مصر الخارجية وغيرها من الدول الأوربية وغير الأوربية (فرنسا، ألمانيا، الولايات المتحدة، اليابان) التى شرعت فى زحزحة المكانة البريطانية فى تجارة مصر الخارجية، حتى تجد لها مكاناً بالسوق المصرية، وحصة من تجارة الأقطان المصرية. وهناك مجموعة من الأمور أثرت فى طبيعة وحجم العلاقات التجارية المصرية الإيطالية فى تلك الفترة نوجزها فيمايلى :

فى مقدمة الأمور التى أثرت فى طبيعة العلاقات التجارية بين مصر وإيطاليا، رغبة كلا الدولتين فى توثيق هذه العلاقات وتنميتها، وقد فرض هذه الرغبة ظروفهما، فإيطاليا كانت قد تحولت إلى دولة صناعية، بعد أن ارتقت صناعتها بدرجة هائلة فى أعقاب تحقيقها الوحدة، وشيوع الاستقرار فى ربوعها. وإذا كانت ظروف الحرب العالمية الأولى قد أربكت إيطاليا اقتصادياً، بعد أن كسدت تجارتها، وتعطلت صناعتها، وتدهورت قيمة عملتها، حتى فكرت حكومتها فى أواخر سنة ١٩٢٠ فى إلغاء التداول بالليرة، واختيار عملة أخرى تحدد قيمتها بالذهب، فإن نجاح الحركة الفاشيستية وسيطرة موسولينى على مقاليد الأمور ساعد المجتمع الإيطالى على تجاوز أزمته، بفضل برنامج الاتحاد العام لتعاون نقابات الفاشيست[٣].

لذا استعادت الصناعة الإيطالية فى أعقاب الحرب العالمية الأولى تقدمها، ولو بدرجة بطيئة، حتى جاءت الثلاثينات لتشهد تحول إيطاليا إلى منافس صناعى قوى للدول الصناعية الكبرى عندئذ – إنجلترا، اليابان – فى السوق العالمية، ولاسيما فى سوق المنسوجات، بعد أصابت صناعة المنسوجات القطنية الإيطالية تقدماً هائلاً منذ بداية الربع الأخير من القرن التاسع عشر[٤].

وأمام هذا التطور فى صناعة المنسوجات الإيطالية، وبخاصة القطنية، ازدادت حاجة إيطاليا لتوسيع نطاق تجارتها الخارجية، وإلى مضاعفة اهتمامها

بأسواق الشرق وفى مقدمتها السوق المصرية[٥].

وفى الوقت الذى اتجهت فيه إيطاليا إلى الاهتمام بأسواق منطقة الشرق الأوسط، وفى مقدمتها السوق المصرية، تحت ضغط حاجتها إلى تسويق منسوجاتها، وتدبير جزء من حاجتها إلى القطن، كانت مصر تسعى إلى إقامة علاقات تجارية مع إيطاليا، تحت ضغط حاجتها إلى توسيع أسواق صادراتها القطنية، بعد أن افضت سياسة الاحتلال الاقتصادية فى مصر، إلى تحويلها إلى إحدى الوحدات المتخصصة فى إنتاج القطن، وحتى لا يتوقف استهلاك القطن المصرى على المصانع البريطانية فتتلاعب بأسعاره.

لهذا انتهت مصر وإيطاليا فى فبراير ١٩٠٩ إلى اتفاق جمركى، لم يشكل الإطار القانونى للعلاقات التجارية بين البلدين حتى انتهائه فى ١٥ فبراير سنة ١٩٣٠ فحسب، بل شكل ذات الإطار للعلاقات التجارية بين مصر والدول الأجنبية التى كانت ما تزال تربطها بمصر معاهدات جمركية سارية المفعول، وذلك وفقاً لمبدأ الدولة الأولى بالرعاية الذى تضمنته مثل هذه المعاهدات، والذى يتيح لتلك الدول التمتع بأى ميزات تتضمنها أية معاهدات تعقدها مصر لاحقاً مع أية دولة أخرى. وأهمية الاتفاق التجارى المصرى الإيطالى تكمن فى توحيده للتعريفة الجمركية على جميع البضائع الواردة، وجعلها ٨% بصرف النظر عن كونها مادة خام أو مصنعة أو نصف مصنعة، أو سلع استهلاكية أو رأسمالية[٦].

وحرص مصر على استمرار علاقاتها التجارية مع إيطاليا دفعها إلى الدخول معها وبعض الدول الأوربية الأخرى – فرنسا، إنجلترا، بلجيكا – فى مفاوضات سنة ١٩٢٣، قبل أن تنتهى الاتفاقية السابقة، وتسترد مصر حريتها التجارية والجمركية، وتتفرد بوضع سياسة جمركية تتفق مع مصلحتها من جميع الوجوه، وذلك من أجل زيادة الضرائب الجمركية على جميع الواردات إلى ١٥%، فى مقابل تعهد مصر بعدم المطالبة بزيادة الرسوم الجمركية حتى ١٥

فبراير ١٩٤٠، أى لمدة عشر سنوات بعد انتهاء أجل الاتفاق الجمركى المصرى الإيطالى، لكن هذه المفاوضات فشلت بسبب تمسك إيطاليا والدول الأخرى بعدم زيادة الرسوم الجمركية عن ١٢%، والتى رأتها مصر لا تتناسب مع التضحيات التى ستتحملها البلاد من تقييد حريتها التجارية والجمركية لمدة عشر سنوات أخرى(٧).

وعندما طبقت مصر تعريفة جمركية وفرت لسوقها قدراً من الحماية بمجرد انتهاء المعاهدة المصرية الإيطالية فى ١٥ فبراير ١٩٣٠، وتأثرت بها العلاقات التجارية المصرية الإيطالية، أرسلت الحكومة الإيطالية إلى الحكومة المصرية فى مطلع ١٩٣٤ مذكرة تذمرت فيها من ارتفاع الرسوم الجمركية فى كلا البلدين، وإضراره بالعلاقات التجارية بينهما، حتى أن الصادرات الإيطالية إلى مصر هبطت بنسبة ٥٧% عنها فى السنوات السابقة أو بما قيمته خمسة ملايين ليرة، فى حين هبطت الصادرات المصرية إلى إيطاليا بنحو مليون ليرة. ولذا طالبت الحكومة الإيطالية نظيرتها المصرية بالتدخل لخفض الرسوم الجمركية، على بعض السلع الإيطالية التى لا تنافس الإنتاج المحلى، فى مقابل زيادة مشترياتها من الحاصلات المصرية، وفى مقدمتها القطن(٨).

ويبدو أن الظروف الاستثنائية التى أثرت فى العلاقات التجارية المصرية الإيطالية منذ منتصف الثلاثينات، وحتى منتصف الاربعينات (فرض العقوبات الاقتصادية على إيطاليا عقب غزوها للحبشة ١٩٣٥، وظروف الحرب العالمية الثانية) حالت دون مواصلة مصر وإيطاليا لبحث إمكانية عقد اتفاق تجارى بينهما، يساعدهما على إزالة كل ما كان يؤثر فى حجم المبادلات التجارية بينهما. ولما انتهت الحرب العالمية الثانية، واتجه العالم إلى التخلص من القيود التى اثقلت كاهل التجارة الدولية، وأخذت إيطاليا تسعى للتغلب على مشاكلها الاقتصادية، واستعادة مكانتها بالسوق العالمية، فى الوقت الذى كانت تسعى فيه

مصر إلى تحرير تجارتها الخارجية، وذلك بالسعى للتخلص من رقابة مركز تموين الشرق الأوسط، والخروج من منطقة الاسترلينى، وتوفير كمية من النقد الأجنبى لتحريك تجارتها الخارجية، رغم اشراف الحكومة على الاستيراد(٩). هذه الظروف حدت بالحكومتين المصرية والإيطالية إلى عقد معاهدة للتجارة والدفع فى سنة ١٩٤٨، أدى العمل بها إلى تحسن مركز إيطاليا فى تجارة مصر الخارجية، بعد أن حرمت من المشاركة فيها أعواماً عدة بسبب ظروف الحرب(١٠).

وكان لوجود هذه المعاهدة أثره كذلك فى عدم إخضاع عدد من السلع التى كانت تستورد من إيطاليا لنظام تراخيص الاستيراد الذى بدأت الحكومة المصرية فى تطبيقه فى نهاية ١٩٥٢، تحت ضغط عجز ميزان مدفوعاتها، ونقص أرصدتها من العملات الأجنبية، وتشديد الرقابة على صرف النقد(١١).

كذلك كان لتطور صناعة المنسوجات فى إيطاليا منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر تأثيره فى العلاقات التجارية المصرية الإيطالية فى النصف الأول من القرن العشرين، حيث ظلت المنسوجات الإيطالية على اختلاف نوعياتها تمثل معظم الواردات المصرية من إيطاليا، حتى أن حجمها تأثر ارتفاعاً وهبوطاً بحجم الوارد من تلك المنسوجات، وبنفس القدر كان لصادرات القطن نفس التأثير فى حجم الصادرات المصرية إلى إيطاليا، ولاسيما أن صادرات القطن كانت تشكل أكثر من ٨٥% من إجمالى الصادرات المصرية حتى منتصف القرن العشرين(١٢).

فظلت المنسوجات والخيوط والأقمشة على اختلاف نوعياتها تشكل نسبة كبيرة من قيمة الواردات المصرية من إيطاليا، حتى أنها شكلت ٥٤,٧% من إجمالى واردات مصر من إيطاليا فى سنة ١٩٢٥ و ٥٠% فى سنة ١٩٢٧ ثم ٨٨,١% فى سنة ١٩٣٩، وقد مثلت المنسوجات القطنية معظم واردات

المنسوجات حتى أنها شكلت على التوالى ٣٩% و٤٠% ثم ٧٤% من إجمالى واردات المنسوجات الإيطالية[١٣]. وهذا جعل إيطاليا تأتى فى أواخر الثلاثينات على رأس قائمة الدول الموردة للمنسوجات إلى مصر، وبفارق كبير عن إنجلترا التى انفردت بهذه الميزة عقوداً طويلة[١٤].

ومما ساعد على غمر المنسوجات الإيطالية وبخاصة القطنية للسوق المصرية فى النصف الثانى من ثلاثينات القرن العشرين، انخفاض قيمة الليرة الإيطالية إلى الذهب بنسبة ٤١% فى ١٥ أكتوبر سنة ١٩٣٦، وإشراف الحكومة الإيطالية على تطوير صناعة المنسوجات منذ مارس ١٩٣٤، وعملها على خفض تكاليفها، مما ساعد على انخفاض أسعار المنسوجات الإيطالية بدرجة مكنتها من منافسة مثيلاتها الإنجليزية واليابانية، وزاد من قدرة المنسوجات الإيطالية على هذه المنافسة، لجوء الشركات الإيطالية إلى بيع منتجاتها منذ العشرينات على آجال طويلة، لهذا غمرت المنسوجات الإيطالية السوق المصرية بدرجة أزعجت دوائر صناعة النسيج البريطانية والمصرية على حد سواء. فبينما طالبت شركة مصر للغزل والنسيج المصرية فى سنة ١٩٣٧ السلطات المصرية بفرض رسم إضافى لاستهلاك فرق هبوط قيمة العملة على البضائع الإيطالية[١٥]. سعت الحكومة البريطانية تحت ضغط دوائر صناعة النسيج الإنجليزية لدى الحكومة المصرية للأخذ بنظام الحصص، الذى كان لا يسمح لإيطاليا أو لغيرها من الدول التى كانت تنافس المنسوجات الإنجليزية بتوريد حصص من المنسوجات إلى مصر إلا بنسبة ما كانت تحصل عليه من الأقطان المصرية (على أن تحدد الحصص على أساس متوسط الفترة من ١٩٣٥-١٩٣٨) ولاسيما بعد أن استفادت إيطاليا من غياب المنافسة اليابانية، عندما فرض عليها رسم إضافى قيمى بنسبة ٤٠%، فى الوقت الذى فرض فيه رسم جمركى بلغ ١٠٠% على المنسوجات القطنية الى لها نظير محلى[١٦]. بيد أن

كلا المحاولتين المصرية والإنجليزية تعطلتا، بعد أن تعثرت محاولة الحكومة المصرية لفرض رسم استهلاك إضافى على المنسوجات الإيطالية أمام شدة احتجاج الحكومة الإيطالية، كما تعثر المشروع البريطانى لتطبيق نظام الحصص أمام مماطلة مجلس الشيوخ ذا الأغلبية الوفدية، ثم قيام الحرب العالمية الثانية، وإغلاق السوق المصرية فى وجه السلع الإيطالية، بعد أن أعلنت إيطاليا الحرب على بريطانيا فى يونيو ١٩٤٠(١٧).

وبعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها أخذت المنسوجات الإيطالية تستعيد مكانتها بالسوق المصرية حتى مطلع الخمسينيات، حتى أن قيمة واردات المنسوجات القطنية منها شكلت ٧٥% من إجمالى واردات مصر من المنسوجات القطنية فى سنة ١٩٤٧ مقابل ٢٢% لبريطانيا، فى حين بلغت نسبة الوارد من المنسوجات الصوفية الإيطالية إلى إجمالى واردات مصر من المنسوجات الصوفية حوالى ٢٩% فى مقابل ٣٥% لبريطانيا(١٨).

وفى سنة ١٩٥١ بلغت الزيادة فى واردات مصر من المنسوجات الإيطالية أعلى معدلاتها فى أعقاب الحرب العالمية الثانية، حتى أن نسبة الوارد من غزل الحرير الصناعى إلى جملة واردات مصر منه بلغت ٤١%، والمنسوجات الحريرية ٤٣%، وغزل الحرير الطبيعى ١٨%، وأقمشة الحرير الصناعى ٥٤%، وغزل القطن ٤٧%، والأقمشة القطنية الصرفة ٥٣%(١٩). وهذه الزيادة فى واردات المنسوجات الإيطالية على اختلاف نوعياتها، أثر فى حجم الواردات المصرية من إيطاليا(٢٠).

وبينما كانت المنسوجات على اختلاف نوعياتها تشكل معظم الواردات المصرية من إيطاليا – التى تضمنت كذلك الآلات، الأجهزة الكهربائية، السيارات وهياكلها، قاطرات السكك الحديدية... فقد شكل القطن معظم الصادرات المصرية إلى إيطاليا فى تلك الفترة، وهذا ما يتضح من قراءة أرقام

الجدول التالى :

بيان بحصة إيطاليا إلى إجمالي صادرات القطن المصرى "بالقنطار"

السنة	الصادر إلى إيطاليا	إجمالى صادرات القطن المصرى	النسبة
١٩٢٩	٥٣٦,٤٦٩	٧,٣٢٥,٠٦٥	٧
١٩٣٠	٤١٩,٩٣٣	٥,٩٢٦,٩١٠	٧,١
١٩٣١	٥٠٨,٧٨٩	٧,٣٩٦,٨١٠	٦,٩
١٩٣٢	٥٧٧,٩٥٨	٦,٦٩٨,٥٤٥	٨,٦
١٩٣٣	٦١٦,١٢٥	٧,٨٧٤,١٠١	٧,٨
١٩٣٤	٧٤٩,٠٠٠	٨,٥٦٤,٠٠٠	٨,٧
١٩٣٨	٥٨٢,٢١١	٧,٩٣٦,٦٧٥	٧,٣
١٩٤٦	١,١٩٥,٦٠٨	٥,٧١٠,٦٦٠	٢٠,٩
١٩٤٩	٧٦٠,٢٤٢	٧,٩٧٨,٨٣٦	٩,٥
١٩٥١	٥٩٨,٩٨٠	٥,٦٧٤,٠٥١	١٠,٦
١٩٥٢	٧٧٨,١٢٥	٦,٠١٨,٣٧٢	١٢,٩

المصدر : F.O. 407/218, No 117, from Simon to Lampson, 8 jan 1935, Cairo, p.18

مصلحة الجمارك المصرية: تقرير عن تجارة مصر الخارجية عام ١٩٥٢، ص١٩١؛ الجريدة التجارية المصرية، عدد٣٨٢٦، ٢٢ يوليه ١٩٣٥ "تقرر البعثة الاقتصادية المصرية إلى بريطانيا "٣".

من البيان نلاحظ أن حصة إيطاليا من صادرات القطن المصرى حتى بداية الحرب العالمية الثانية حافظت على ثباتها بنسبة تراوحت بين ٧% و ٨,٦% من إجمالى صادرات مصر من القطن. ثم ارتفعت هذه الحصة فى أعقاب الحرب وحتى مطلع الخمسينيات، مع وجود تقلب فى حجم ونسبة ما كانت تستورده إلى جملة الصادرات القطنية المصرية، حتى أن حجم مشترواتها منه وصل فى سنة ١٩٤٦ إلى أكثر من مليون قنطار بنسبة بلغت ٢١% من إجمالى صادرات مصر، ثم تراجعت هذه الحصة فى السنوات التالية دون أن تصل إلى مستوى

ماقبل الحرب، ولذا ظلت إيطاليا تحتفظ بنسبة من صادرات القطن المصرى حتى مطلع الخمسينيات تراوحت بين ٩,٥% و١٣%، جعلتها تحتفظ بالمركز الثالث بقائمة الدول المستوردة للأقطان المصرية بعد إنجلترا والهند[٢١]. وتعزى هذه الزيادة فى حصة إيطاليا من صادرات القطن المصرى إلى نجاح الدعاية لتلك الأقطان هناك، واشتغال الشركات الإيطالية المستوردة للأقطان المصرية بإعادة تصديرها إلى الأسواق الأوربية[٢٢]. وبالطبع لم يكن القطن يمثل كل الصادرات المصرية إلى إيطاليا، بل صدرت مصر إلى جانبه نوعيات أخرى من الحاصلات المصرية كالبصل والأرز، والتى لم تكن إيطاليا فى يوم من الأيام مشتر جيد لها.

كذلك اثر وجود جالية إيطالية ضخمة فى مصر بدرجة كبيرة فى العلاقات التجارية المصرية الإيطالية فى تلك الفترة، لأن تلك الجالية لم تكن واحدة من أكثر الجاليات الأجنبية عدداً فحسب، بل كانت كذلك من أكثرها انتشاراً فى ربوع مصر وممارسة لكافة الأنشطة الاقتصادية وفى مقدمتها الأعمال المالية والمصرفية.

فمنذ مطلع القرن العشرين وحتى اندلاع الحرب العالمية الثانية، ظلت الجالية الإيطالية تمثل ثانى أهم جالية أوربية فى مصر، بعد الجالية اليونانية، فبينما كانت الجالية اليونانية تمثل ٣٦,٧% من إجمالى عدد الأجانب فى مصر سنة ١٩٢٧ و ٣٨,٣% فى سنة ١٩٣٧، فقد شكلت الجالية الإيطالية على التوالى ٢٥,٣% و ٢٦,٦%، وعلى الرغم مما تعرضت له الجالية الإيطالية أبان الحرب العالمية الثانية، واضطرار أعداد كبيرة منها إلى تصفية أعمالها وهجرة مصر – بعد أن أعتبرهم الإنجليز يشكلون مع أبناء الجاليتين الألمانية واليابانية طابوراً خامساً ضد الحلفاء يجب مقاومته – فإنها ظلت تمثل حتى مطلع الخمسينيات ثالث أهم جالية أجنبية فى مصر، بنسبة بلغت ٢١,٣% من إجمالى عدد الأجانب فى مصر، فى حين شكلت الجالية اليونانية ٤٣,٧% والجالية

الإنجليزية ٢١,٥%[٢٣].

فوجود جالية بمصر فى هذه الضخامة والانتشار، وممارسة كافة الأنشطة الاقتصادية، بل واحتكار بعض قطاعات التجارة (تجارة الأسماك) دفع البنوك الإيطالية فى الوطن الأم، وبعض أبناء الجالية إلى الشروع فى إنشاء مؤسسات مالية ومصرفية بمصر، لدعم نشاط أبناء الجالية، وإقامة علاقات اقتصادية قوية مع مصر، قد تساعد فى يوم ما على زيادة نفوذهم السياسى بالبلاد.

لهذا اهتم الطليان بالاحتفاظ بوجودهم القوى فى السوق المصرفية المصرية طيلة النصف الأول من القرن العشرين، حتى أنهم أعادوا تكوين بنك الخصم والتوفير الإيطالى (الكاسادى سكونتو Cossadi Scontóe di Risparmio)- أحد البنوك الإيطالية الثلاثة التى تأسست بمصر فى ثمانينات القرن التاسع عشر، بنك دى روما ١٨٨٠، بنك موصيرى ١٨٨٠، بنك الخصم ١٨٨٧– فى سنة ١٩٠٩ عندما تحرج موقفه بإقبال الجمهور على سحب ودائعهم لديه، وتوقفه عن الدفع، وإشهاره لإفلاسه فى سنة ١٩٠٧[٢٤].

وإذا كانت البنوك الإيطالية الثلاثة قد صمدت لأحداث الحرب العالمية الأولى، التى أحدثت تغييرات هامة فى النظام المصرفى المصرى، فإن بنك دى روما عندما تعرض لخسائر كبيرة فى أعقاب أزمة ١٩٢١، تخلى فى العام التالى عن أصول فروعه بمصر لبنك روما للقطر المصرى والشرق الأدنى Banco di Roma per L'Egipto et il levante فى الوقت الذى أقدم فيه مع الكريتو ايتاليانو – باعتبارهما من أكبر البنوك الإيطالية عندئذ – على إنشاء البنك الإيطالى المصرى (١٩٢٤) بإيعاز من الحكومة الإيطالية التى اتجهت إلى دعم نفوذها بالخارج من خلال إنشاء فروع للبنوك الإيطالية الكبرى، وبنوك مساهمة بالاشتراك مع ممولين محليين. وقد تأسس هذا البنك برأسمال مدفوع بلغ نصف مليون جنيه، وقصر نشاطه على تمويل التجارة الخارجية، وأرباب الأعمال

الإيطاليين، وشركات التعدين التى يشارك الطليان بمعظم رأسمالها، وحتى يتمكن البنك الإيطالى الجديد من الصمود بالسوق المصرفية المصرية التى كانت تشهد منافسة حادة بين البنوك الأجنبية العاملة فيها. فقد تخلى عن النشاطات التى ورثها عن بنك دى روما، وركز نشاطه فى المجالات السابقة، فاقفل الفروع الريفية، التى كانت قد انتقلت إليه ضمن ما انتقل إليه من أصول بنك دى روما، كما تخلص من الاستثمارات الصناعية والعقارية التى ورثها عنه، وعندما عجز البنك عن مواجهة الآثار التى ترتبت على الأزمة الاقتصادية وما أعقبها من كساد تجارى، اندمج فى سنة ١٩٣٣ فى بنك الخصم والتوفير الإيطالى[٢٥].

كذلك أقدم البنك التجارى الإيطالى بميلانو على تأسيس فرع له بنفس الاسم بمصر فى سنة ١٩٢٤، برأسمال بلغ مليون جنيه، واتخذ شكل شركة مساهمة مصرية[٢٦].

ولما كانت البنوك الإيطالية قد كرست نشاطها لتقوية العلاقات التجارية والمالية بين مصر وإيطاليا، وخدمة أبناء الجالية الإيطالية فى مصر، فقد جاءت إدارتها إيطالية، وموظفوها ممن كانوا يجيدون اللغة الإيطالية من الطليان أو خريجو مدارسها. وقد تأثر نشاطها هذه البنوك كثيراً بظروف الحرب العالمية الثانية، وبخاصة بعد أن تقرر وضعها تحت الحراسة فى يونيو ١٩٤٠ – باستثناء بنك موصيرى – وذلك بمجرد دخول إيطاليا الحرب. ولم تعد هذه البنوك إلى ممارسة نشاطها فى مصر، إلا أن بعد رفعت عنها الحراسة فى أغسطس ١٩٤٨[٢٧].

وبمجرد أن رفعت الحراسة عن البنوك الإيطالية، استعادت ثقتها وثقلها فى سوق الصرف المصرية، حتى أنها - البنك التجارى الإيطالى، البنك الإيطالى المصرى، بنك موصيرى – أصبحت من البنوك المعتمدة العاملة فى مصر، التى تمتعت بحق بيع النقد الأجنبى لدفع قيمة الواردات التى كان يصرح باستيرادها ،

وكذلك التحويلات الخاصة بالحكومة، دون مراجعة المراقب العام لعمليات النقد الأجنبى، وذلك بموجب قانون تنظيم الرقابة على النقد رقم ٨٠ لسنة ١٩٤٧(٢٨).

كذلك تأثرت العلاقات التجارية المصرية الإيطالية فى تلك الفترة بالظروف السياسية الدولية، والأحداث التى جرت فى النصف الأول من القرن العشرين، وفى مقدمتها ظروف الحربين العالميتين، والظروف التى صاحبت الغزو الإيطالى للحبشة.

فعندما أدركت بريطانيا عدم جدوى الإجراءات التى اتخذت إبان الحرب العالمية الأولى لمنع دخول الأقطان المصرية التى كانت تدخل فى صناعة المواد الملتهبة والقنابل والمفرقعات إلى ألمانيا، بعد أن لوحظ تهريب كميات كبيرة منها إليها عن طريق الدول المحايدة، وفى مقدمتها إيطاليا قبل أن تدخل الحرب، فقد ألزمت الحكومة المصرية بوقف صادرات القطن إلى إيطاليا، حتى تضمن عدم تهريبها إلى ألمانيا، بشكل أثر فى حجم المبادلات التجارية بين مصر وإيطاليا إبان الحرب(٢٩).

وما أن انتهت أحداث الحرب، حتى تحسنت العلاقات التجارية المصرية الإيطالية بدرجة جعلت إيطاليا فى غضون سنوات عديدة تستعيد مركزها المتقدم بقائمة الدول المتعاملة مع مصر تصديراً واستيراداً فى أواخر عشرينيات ومطلع ثلاثينيات القرن العشرين، حتى أعلنت إيطاليا الحرب على الحبشة فى منتصف الثلاثينيات (١٩٣٥) والتزمت مصر بتنفيذ العقوبات الاقتصادية والمالية التى فرضتها عصبة الأمم على إيطاليا، بدرجة أدت إلى تراجع حجم المبادلات التجارية بين البلدين طيلة فترة العقوبات التى لم تستغرق أكثر من عامين (١٩٣٥-١٩٣٦) وبالتالى تخلى إيطاليا عن مركزها المتقدم بتجارة مصر الخارجية.

وكانت لجنة تنسيق العقوبات المنبثقة عن العصبة، قد دعت الدول غير

الأعضاء بها إلى التضامن الدولى فى تنفيذ العقوبات التى وقعت على إيطاليا، استناداً إلى قرار كانت العصبة قد أصدرته فى ١٤ أكتوبر ١٩٢١، ووافقت عليه إيطاليا، يقضى بإبرام اتفاقات لضمان تعاون الدول غير الأعضاء فى العصبة فيما يتخذ من تدابير ضد الدول التى تخرق ميثاق العصبة، وتتعدى على غيرها من الدول[٤٠].

لذلك بمجرد أن تلقت مصر الدعوة من عصبة الأمم، أبدت استعدادها للالتزام بتوقيع العقوبات المالية والاقتصادية المفروضة على إيطاليا، وأرسل وزير خارجيتها رسالة بهذا المعنى إلى العصبة، التى علقت عليها أهمية كبيرة، لأن مصر كانت الدولة الوحيدة التى لم تنضم للعصبة، وقبلت المقترحات الخاصة بالعقوبات كما هى[٣١]. حتى أن مجلس الوزراء المصرى عقد جلسة فى ٣٠ أكتوبر ١٩٣٥ قرر فيها انضمام مصر مبدئياً إلى العصبة فيما تفرضه من عقوبات على إيطاليا[٣٢]، وفى ٢٨ نوفمبر ١٩٣٥ صدر المرسوم التشريعى رقم ١٤٥، والذى قضى بوقف التصدير، وإعادة التصدير، والمرور للأسلحة والذخيرة، وغيرها من المنقولات الحربية المتجهة إلى إيطاليا أو مستعمراتها، وكذلك وقف استيراد السلع من إيطاليا أو مستعمراتها باستثناء الذهب والفضة[٣٣].

والجدير بالذكر أن الموقف المصرى بشأن العقوبات التى فرضت على إيطاليا عقب غزوها للحبشة جاء بإيعاز من بريطانيا، التى كانت لا تتوقع أن تخذل مصر عصبة الأمم والسياسة البريطانية بالامتناع عن تطبيق العقوبات، حتى أن رئيس الوزراء المصرى لم يبد لبريطانيا قبوله الالتزام بالعقوبات الموقعة على إيطاليا فحسب، بل أعرب عن استعداد بلاده لتأييد ومساعدة بريطانيا فى حالة دخولها فى حرب مع إيطاليا[٣٤]. كما أن القرار الذى اتخذته مصر بشأن العقوبات، والذى فرض عليه قدر كبير من السرية فى البداية لم يعلن

عنه فى القاهرة وبالصحف المصرية، بل أعلن عنه فى لندن وجنيف، بعد أن أبلغه وزير الدولة المصرى للمندوب السامى البريطانى، الذى نقله إلى حكومته والتى نقلته بدورها إلى عصبة الأمم(٣٥).

وقد تلقت الحكومة الإيطالية القرار المصرى بعدم ارتياح، حتى أنها قدمت للحكومة المصرية مذكرة احتجاج على هذا الموقف، مبررة هجومها على أثيوبيا بأنه جاء لوقف العمليات الاستفزازية والعدائية التى كان يقوم بها الاثيوبيون على المستعمرات الإيطالية فى شرق أفريقيا(٣٦). هذا فى الوقت الذى فرضت فيه الحكومة الإيطالية حظراً على دخول السلع المصرية إليها أو إلى مستعمراتها، مما دفع التجار المصريين إلى تحويل بضائعهم إلى الموانئ غير الإيطالية، أو الاستغناء عنها، تخلصاً من تكاليف إعادتها إلى مصر، إذا كانت من النوعيات التى تنتهى مدة صلاحيتها بسرعة(٣٧). كذلك جمدت الحكومة الإيطالية أموال الشركات التجارية المصرية التى كانت تتعامل معها، منها على سبيل المثال –كالحصر- جمعية مصدرى الأقطان بالإسكندرية(٣٨).

لهذا تراجع حجم المبادلات التجارية بين مصر وإيطاليا مع التزام مصر بتوقيع العقوبات الاقتصادية على إيطاليا، حتى أنه وصل إلى أدنى مستوى له فى سنة ١٩٣٦ منذ نهاية الحرب العالمية الأولى، ولم يعد حجم المبادلات بين البلدين إلى مستواه الطبيعى، وتسترد إيطاليا مكانتها فى قائمة تجارة مصر الخارجية. إلا بعد أن تراجعت مصر عن مواصلة تطبيق العقوبات الاقتصادية المفروضة على إيطاليا فى ١٥ يوليو ١٩٣٦ بناءً على قرار لجنة تنسيق الجزاءات التابعة لعصبة الأمم(٣٩).

وإذا كانت العلاقات التجارية المصرية الإيطالية قد استعادت عافيتها بعد أن تراجعت مصر عن العقوبات التى فرضتها على إيطاليا لأقل من سنة (نوفمبر ١٩٣٥- يوليو ١٩٣٦) فإن هذه العلاقات سرعان ما أصيبت بانتكاسة مع اندلاع

الحرب العالمية الثانية، وإعلان إيطاليا عن دخولها الحرب فى يونيو ١٩٤٠ إلى جانب دور المحور فى مواجهة الحلفاء، الذين كانت تقودهم بريطانيا . عندئذ استخدمت بريطانيا وضعها فى مصر، وبدأت فى تضييق الخناق على المصالح الإيطالية فيها، ففرضت الحراسة على الشركات والبنوك الإيطالية التى كانت تعمل بمصر، كما ضيقت الخناق على الرعايا الطليان، الذين كانوا يشكلون أحد أهم الجاليات الأجنبية فى مصر، فى الوقت الذى سيطر فيه مركز تموين الشرق الأوسط (١٩٤١-١٩٤٥) على حركة تجارة مصر الخارجية إبان الحرب، ولاسيما تجارة الوارد عندما انفرد بمنح تراخيص الاستيراد[٤٠]. ومما لاشك فيه أن هذه الممارسات أثرت فى تراجع حجم وقيمة المبادلات التجارية بين مصر وإيطاليا حتى أنها انخفضت فى الفترة من ١٩٤١ إلى ١٩٤٥ عن مستواها إبان التزام مصر بتوقيع العقوبات الاقتصادية التى فرضت على إيطاليا فى منتصف الثلاثينيات.

وعندما انتهت الحرب العالمية الثانية حل مركز تموين الشرق الأوسط ، وتوقفت إنجلترا عن ملاحقة أبناء الجالية الإيطالية والبنوك والشركات الإيطالية، فقد عادت العلاقات المصرية الإيطالية إلى سابق عهدها، عندما وصلت قيمة المبادلات التجارية بين البلدين إلى مستوى جعل إيطاليا تستعيد مكانتها المتقدمة بقائمة الدول المتعاملة مع مصر تصديراً واستيراداً فى أعقاب الحرب العالمية الثانية، وحتى مطلع الخمسينيات، وإن كانت تلك المبادلات قد اهتز مستواها فى سنة ١٩٥١ بتأثير الحرب الكورية على حركة التجارية العالمية.

هكذا شهد النصف الأول من القرن العشرين تواصلاً وتحسناً فى العلاقات التجارية بين مصر وإيطاليا، رغم الانتكاس الذى أصابها فى بعض السنوات الاستثنائية فى تلك الفترة بتأثير عوامل خارجية أو دولية فى معظمها. ويعزى هذا التواصل والتحسن فى تلك العلاقات فى الظروف الدولية الطبيعية إلى

حرص كلا البلدين على تطوير علاقتيهما الاقتصادية ربما لأن حاجة كل منهما كانت تقتضى ذلك. فإيطاليا التى كانت صناعة المنسوجات فيها قد قطعت أشواطا متقدمة، كانت ترى أن المدخل الرئيسى لأسواق الشرق الأوسط، لا يكون إلا من خلال مصر التى تنتج أجواد النوعيات القطنية فى العالم، ويتوفر بها سوق واسعة لكل المنتجات الإيطالية وفى مقدمتها القطن، وفى حين كانت مصر ترى فى تواصل بل وتحسن علاقاتها التجارية مع إيطاليا ما يساعدها على تنويع أسواق أقطانها، وبدرجة قد تمكنها من الفكاك من حالة التبعية الاقتصادية التى نسجت بريطانيا خيوطها حولها منذ مطلع ثمانينات القرن التاسع عشر.

هوامش الدراسة

١- أحمد الشربيني : تاريخ التجارة المصرية في عصر الحرية الاقتصادية ١٨٤٠-١٩١٤ الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين، القاهرة ١٩٩٥، ص ص ٢٤١-٢٤٢، ٣٨٧.

٢- ارجع إلى الملحق.

٣- محمد افندى عبدالله مهيب : الفاشيست ونهضة إيطاليا، صحيفة التجارة والصناعة، سنة ٧، عدد ٦، يونيه ١٩٣١، ص ٧٨٥.

٤- تجلى هذا التقدم في ازدياد أعداد المغازل والأنوال بدرجة كبيرة، فبعد أن كان عددها في ١٨٧٥ يبلغ ٧٥٠,٠٠٠ مغزل و ٢٥,٠٠٠ نول، ازداد هذا العدد حتى وصل في سنة ١٩٠٠ إلى ٢,١١٠,٠٠٠ مغزل و ٧٠,٠٠٠ نول، ثم ازداد هذا العدد في سنة ١٩٠٨ حتى بلغ عدد المغازل ٤,٠٠٠,٠٠٠ والأنوال حوالى ٩٠,٠٠٠، وعند نشوب الحرب بلغ عدد المغازل ٤,٧٥٠,٠٠٠ والانوال ١٢٠,٠٠٠، لمزيد من التفاصيل أرجع إلى محمد افندى عبدالله مهيب : المرجع السابق، ص ص٧٨٧-٧٨٨.

٥- الأهرام : عدد ١٦٥٦٦، ١٨ يناير ١٩٣١.

٦- محمد سعيد : النظام الجمركي في مصر في الخمسين سنة الأخيرة، الجمعية المصرية للاقتصاد السياسي والإحصاء والتشريع، بحوث العيد الخمسيني ١٩٠٩-١٩٥٩، القاهرة ١٩٦٠، ص ٤٢١-٤٢٣.

٧- نفس المرجع، ص٤٢٣.

٨- الجريدة التجارية المصرية، عدد ٣٤٦٩، ١٧ مارس ١٩٣٤.

٩- مضبطة الجلسة الحادية والثلاثون لمجلس الشيوخ، ٢٥ يوليو ١٩٤٥، ص ٥٨٩؛ مصلحة الجمارك : تقرير عن تجارة مصر الخارجية عام ١٩٤٨، المطبعة الأميرية، القاهرة ١٩٤٩، ص١.

١٠- مصلحة الجمارك : تقرير عن تجارة مصر الخارجية سنة ١٩٤٨، المطبعة الأميرية، القاهرة ١٩٤٩، ص ص ٣، ٥.

١١- نفس المصدر : تقرير عن تجارة مصر الخارجية سنة ١٩٥٣، المطبعة الأميرية، القاهرة ١٩٥٤، ص ٤.

١٢- نفس المصدر : ص ٢٤٩، وتقرير عن تجارة مصر الخارجية عام ١٩٥٢، المطبعة الأميرية، القاهرة ١٩٥٣، ص ١٦٠.

١٣- مجلة غرفة القاهرة، السنة الرابعة ، عدد ٩ نوفمبر ١٩٣٩، ص ١٢٠٣، صحيفة التجارة والصناعة، سنة ٤، عدد ٤، يوليو ١٩٢٨، ص ١٩، نفس المصدر، سنة ٦، عدد مايو ١٩٣٠، ص ص ٦٢-٦٣، صحيفة الاقتصاد والتجارة : مجلد ٣، عدد ٢، مارس ١٩٢٧، ص١٤٣.

١٤- أحمد الشربيني : التنافس الياباني الإنجليزي في سوق المنسوجات القطنية المصرية ١٩١٤-١٩٣٩، ص ٦١.

15- Hiroshi, Shimizu : Anglo-Japanese Trade Raivalry, in The Middle East in the Iner-War period, st.Antony's Middle East Mongraphs (University of Oxford), London 1986, p.141-145

١٦- مجلة غرفة القاهرة السنة التاسعة، العدد الخامس، مايو سنة ١٩٤٢ "جون سم-بي : مستقبل التجارة بين مصر وإنجلترا".

١٧- أحمد الشربيني : التنافس الياباني الإنجليزي في سوق المنسوجات القطنية المصرية ١٩١٤-١٩٣٩، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، مجلد ٣٥، سنة ١٩٨٨، ص ص٦٧-٧٠.

١٨- مصلحة الجمارك : تقرير عن تجارة مصر الخارجية عام ١٩٤٧. المطبعة الأميرية ، القاهرة ١٩٤٩، ص ص ١٠٢، ١٠٣، ١٠٧.

١٩- نفس المصدر : تقرير عن تجارة مصر الخارجية عام ١٩٥٢، المطبعة الأميرية، القاهرة ١٩٥٣، ص ص ١١٤-١١٩.

٢٠- لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع ارجع إلى :

F.O 407/221, No81, From Lampson to Eden 18 june 1937, Cairo, pp.229.

الجريدة التجارية المصرية، عدد ٤٢٤٤، ٢٠ أغسطس ١٩٣٨ "تقرير مصلحة الجمارك عن تجارة مصر ١٩٣٧"؛ الأهرام، عدد ١٨٢٩٠، ١٠ نوفمبر ١٩٣٥ "العلاقات التجارية بين مصر وإيطاليا".

٢١- مصلحة الجمارك : تقرير عن تجارة مصر الخارجية لسنة ١٩٤٧، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٤٨.

٢٢- محمد رشدي : التطور الاقتصادي في مصر، جـ٢، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٢، ص ٨٧. صحيفة التجارة والصناعة، سنة ٩، عدد ٣، مارس ١٩٣٣، مذكرة مرفوعة إلى مجلس الوزراء، ص ٤٦٥.

٢٣- في سنة ١٩٢٧ بلغ عدد الجالية الإيطالية ٥٢,٤٦٢ في مقابل ٧٦,٢٦٤ للجالية اليونانية من إجمالي عدد الأجانب البالغ ٢٠٧,٥٤٢، وفي سنة ١٩٣٧ تراجع عددهم إلى ٤٧,٧٠٦ مقارنة بـ ٦٨,٥٥٩ يوناني من إجمالي عدد الأجانب البالغ في تلك السنة ١٧٩,٠٩٥، وفي سنة ١٩٤٧ بلغ عدد الإيطاليين ٢٧,٩٥٨ ، في حين بلغ عدد الإنجليز ٢٨,٢٤٦ واليونانيين ٥٧,٤٢٧ من إجمالي عدد الأجانب البالغ ١٣١,٥٢٠، لمزيد من التفاصيل : نبيل عبد الحميد : النشاط الاقتصادي للأجانب وأثره في المجتمع المصري ١٩٢٢-١٩٥٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٢، ص ص ٣٩-٤٢.

٢٤- علي الجريتلي : تطور النظام المصرفي في مصر، الجمعية المصرية للاقتصاد السياسي والإحصاء والتشريع، بحوث العيد الخمسيني ١٩٠٩-١٩٥٩، القاهرة ١٩٦٠، ص٢٣٤؛ علي السيد عبد الرسول : البنوك التجارية في مصر، رسالة دكتوراة، كلية الحقوق جامعة الإسكندرية، ص ٣٥-٣٦؛ حسين خلاف: التجديد في الاقتصاد المصري الحديث، الطبعة الأولى، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٩٦٢، ص٣١٦.

٢٥- علي الجريتلي : المرجع السابق، ص ص ٢٣٥، ٢٣٧؛ نبيل عبد الحميد : المرجع السابق ، ص٢٨٥.

٢٦- نبيل عبد الحميد : المرجع السابق، ص ٢٨٧.

٢٧- نفس المرجع ، ص ٢٣٨؛ علي الجريتلي : المرجع السابق، ص ص ٢٨٦-٢٨٧.

٢٨- مصطفى السقاف : الرقابة على النقد الأجنبي في مصر، ط١، النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥٤، ص ص ١٠٦، ١٠٩.

٢٩- الأهالي عدد ١٤١٥، ٢٢ يوليو ١٩١٥؛ عدد ١٤١٧، ٢٥ يوليو ١٩١٥.

٣٠- مضبطة الجلسة الحادية عشرة لمجلس النواب، ١٣ يوليه ١٩٣٦، ص ص ٣٠٠-٣٠١.

٣١- الأهرام ، عدد ١٨٢٨١، ١٩٣٥/١١/١ "مصر تقرر تطبيق العقوبات على إيطاليا"

٣٢- نفس المصدر عدد ١٨٢٨٣، ٣ نوفمبر ١٩٣٥ "اشتراك مصر فى تطبيق العقوبات"

33- f-o 407/219, No.169, From Lampson to Eden, 3 march 1936, Cairo, p.164.

٣٤- الأهرام، عدد ١٨٢٦١، ١٩٣٥/١٠/١٢ "فى الحالة السياسية، مصر والعقوبات التى تقررها عصبة الأمم"

٣٥- نفس المصدر، عدد ١٨٢٨٢، ٢ نوفمبر ١٩٣٥ "اشتراك مصر فى تطبيق العقوبات".

٣٦- الجريدة التجارية المصرية، عدد ٣٩٥٩، ٣١ يناير ١٩٣٦

٣٧- نفس المصدر : عدد ٣٩٦٠، ٣ فبراير ١٩٣٦.

٣٨- مضبطة الجلسة الثامنة لمجلس النواب، ٢٥ يناير ١٩٣٧، ص ١٣٠.

٣٩- F.O. 407/219, No.80, from Lampson to Eden, Cairo. 11 Dec. 1936, p.149. مضبطة الجلسة الحادية عشرة لمجلس النواب، ١٣ يوليه ١٩٣٦، ص ص ٣٠١-٣٠٢.

٤٠- نبيل عبد الحميد : المرجع السابق ، ص٤٣؛ عاصم الدسوقى · مصر فى الحرب العالمية الثانية، ص ص ٥٨، ١٨٩، ١٩٢.

الملحق

العلاقات التجارية المصرية الإيطالية

السنة	الصادرات			الواردات		
	القيمة	النسبة المئوية	المركز	القيمة	النسبة المئوية	القيمة
١٨٨٨-١٨٨٤	٦٧٠٠٠			٣٤,٠٠٠		
١٩١٣-١٩٠٩	٢٩٠٠٠			٥٠,٠٠٠		
١٩١٤	٤٠٠٠٠			٦٧,٠٠٠		
١٩١٥	٦٦٠٠٠			٨٤,٠٠٠		
١٩١٦	٤٨٠٠٠			٨٠,٠٠٠		
١٩١٧	٦٠٠٠٠			٦٩,٠٠٠		
١٩٢٠	٣,٣٩٣,٠٠٠	٣,٦٩		٥,٧٠٥,٠٠٠	٥,٥	
١٩٢٣				٤,٢٦٨,٠٠٠	١٠	٢
١٩٢٤	٤,٠٦٩,٠٠٠	٦	٤	٥,٢٣١,٠٠٠	١٠	٢
١٩٢٥	٣,٦١٤,٠٠٠	٦	٤	٦,١٣٠,٠٠٠	١١	٢
١٩٢٦	٢,٣٨١,٠٠٠	٦	٤	٤,٥٤٧,٠٠٠	٩	٣
١٩٢٧	٢,٧٠٢,٠٠٠	٥,٥	٥	٤,٢٣٨,٠٠٠	٩	٣
١٩٢٨	٣,٧٤٦,٠٠٠	٦,٧	٤	٤,٩٣٤,٠٠٠	٩,٥	٣
١٩٢٩	٣,٥١٢,٠٠٠	٦,٨	٤	٥,٤٩٨,٠٠٠	٩,٨	٣
١٩٣٠	١,٩٦٦,٠٠٠	٦,٢	٤	٢,٨٩٠,٠٠٠	٩,٢	٢
١٩٣١	١,٦٧٧,٠٠٠	٦,٠	٤	٢,٨٩٠,٠٠٠	٩,٢	٣
١٩٣٢	٢,١٧٦,٠٠٠	٨,٠	٤	٢,٤٣٩,٠٠٠	٩,٠	٢
١٩٣٣	٢,١٢٦,٠٠٠	٧,٣	٤	٢,٠٩٢,٠٠٠	٧,٨	٣
١٩٣٤	٢,٥٢٩,٠٠٠	٨,١	٥	٢,٠٣٩,٠٠٠	٧,٠	٤
١٩٣٥	٢,٢٥٦,٠٠٠	٦,٣	٤	١,٨٠١,٠٠	٥,٦	٤
١٩٣٦	٩٤٣,٠٠٠	٢,٩	٩	١,٠٩٣,٠٠٠	٣,٥	٧
١٩٣٧	٢,٣٩٢,٠٠٠	٦,٢	٥	٣,٢٨٣,٠٠٠	٦,٣	٣
١٩٣٨	١,٧٤٥,٠٠٠	٦,١	٥	٣,٠٠٤,٠٠٠	٨	٣
١٩٣٩	١,٤٥٦,٠٠٠			٢,٠٦٠,٠٠٠		
١٩٤٠	١,١٢٢,٠٠٠			١,٥٣٨,٠٠٠		
١٩٤١	-			٩٧,٠٠٠		
السنة	الصادرات			الواردات		
	القيمة	النسبة المئوية	المركز	القيمة	النسبة المئوية	القيمة
١٩٤٢	٢,٠٠٠			٣٦,٠٠٠		
١٩٤٣	١,٠٠٠			٨,٠٠٠		
١٩٤٤	١٨٢,٠٠٠			٤,٠٠٠		
١٩٤٥	٦٣٦,٠٠٠			٢٥,٠٠٠		
١٩٤٧	١١,٩٩١,٠٠٠	١٣,٩	٣	٩,١٨٩	٨,٨	٣
١٩٤٨	٥,٢٩٥,٠٠٠	٣,٧	٤	١٥,٠٠٩	٨,٦	٢
١٩٤٩	١٠,٤١٦,٠٠	٧,٦	٣	١٤,٩٢٩	٨,٣	٢
١٩٥٠	١٤,٨٦٤	٨,٦	٢	١٥,٤٦٨	٧,٣	٣
١٩٥١	١٦,١٦١,٠٠	٨,٠	٥	١٥,٦٦٥	٥,٦	٧
١٩٥٢	١٥,٥٤٦	١٠,٨	٣	١٢,٢٣٦	٥,٦	٥

المصدر : مصلحة الجمارك المصرية. تقرير عن تجارة مصر الخارجية عام ١٩٣١، المطبعة الاميرية، ص ص ٨١-٨٣. نفس المصدر : تقرير عن تجارة مصر الخارجية عام ١٩٣٦، ص ص ٦-٩، صحيفة مصلحة التجارة والصناعة، المجلد الأول، أغسطس ١٩٢٥ "تقرير عن تجارة مصر الخارجية ١٩٢٤" ص٣٩١، نفس المصدر، سنة ٤، عدد٤، يوليو ١٩٢٨، تقرير عن تجارة مصر الخارجية ١٩٢٧، ص ٢٨، نفس المصدر، عدد ١، اكتوبر سنة ١٩٢٧، ص ٣، نفس المصدر، سنة ٤، عدد ٤، يوليو ١٩٢٨، ص ص ١٨، ١٩. نفس المصدر : سنة ٦، عدد ٣ مايو ١٩٣٠، ص ص ٢٢، ٢٣، ٥٩-٦٢، ١٥٢، صحيفة الاقتصاد

والتجارة، مجلد ٣، عدد ٢ مارس ١٩٢٧، تقرير الجمارك عن تجارة مصر الخارجية عام ١٩٢٥، ص ١٤١-١٤٣، محمد فهمى لهيطة. تاريخ فؤاد الأول الاقتصادى، ص ص ٤٢٥-٤٢٦.

F.O., 407/218; No. 124, From Lampson to John Simon, Cairo Feb 15, 1935, p.202; Ibid, 407/219, From Lampson to Eden, 3 March 1936, Cairo, p. 175; Ibid, 407/221. No.76, From Lampson to Eden, 26 Feb. 1937, Cairo p.,223, Ibid, 407/223, No.47, From Lampson to Halifax 25 March 1939, Cairo, p.62. Cumberbatch, A.N. :Egypt Economic and Commercial Conditions in Egypt, Oct. 1951, p.32.



الجذور التاريخية للهيمنة الأمريكية

أحمد جــــلال

معيد بقسم التاريخ بكلية الآداب بدمنهور

لم يكن سقوط الاتحاد السوفيتي في مطلع تسعينات القرن المنصرم وانفراد الولايات المتحدة بقيادة العالم وليد مصادفة جلبتها الأقدار، وإنما كان هذا الحدث الجلل ثمرة موروثات عقائدية تضرب بجذورها في التاريخ، واستطاع أمريكيو القرن العشرين الاستفادة من كل هذه الموروثات من جهة، والتغيرات التي طرأت علي موازين القوي آنذاك من جهة أخري، ليصنعوا من أنفسهم وبلادهم حماة لما يزعمون أنها الديمقراطية والليبرالية التي تؤهلهم لبسط سيادتهم علي العالم كي يقوموا بمهمتهم التاريخية في نشرها .

ولذا تعتبر الثورة الدينية التي جاء بها مارتن لوثر Martin Luther (١٤٨٣ - ١٥٤٦) في أوروبا والتي انبثقت عنها العقيدة البروتستانتية هي البداية الواقعية لهذا الفكر، حيث قام دون أن يقصد بإيجاد الأرض الخصبة لانتشار المسيحية اليهودية حينما كتب لوثر كتاب(المسيح ولد يهوديا)عام١٥٢٣، والذي أدان فيه اضطهاد الكنيسة الكاثوليكية لليهود واتهامها لهم بأنهم قتلة المسيح، ولكن بدلا من أن ينضم اليهود إلى اللوثرية جمعوا هم الأنصار لتهويد المسيحية، فاختلطت المعايير عند البروتستانت، التي لا هي يهودية ولا مسيحية، وإنما مزيج بين الاثنين.

انقسم الإصلاح الديني إلى حركتين متميزتين: اللوثرية نسبة إلى مارتن لوثر الذي عاش في ألمانيا، والكلفينية نسبة إلى حنا كلفن Jean Calvin (١٥٠٩ – ١٥٦٤) وكانت الأولى حركة مثالية تميل إلى نقل ما للكنيسة من سلطة خارجية إلى الدولة، وهذا التمجيد للدولة هو ما أصبح العقيدة المميزة للألمان المحدثين.

أما الثانية فقد اتسمت بالحياة والنشاط وتأكيد قيمة الحياة، ولم تقتصر علي محاولة إنقاذ الفرد، بل سعت إلى إعادة بناء الكنيسة والدولة، وآمن بها الموسرون والصناع والصيارفة وغيرهم من رجالات الطبقة الوسطي، بعكس اللوثرية التي آمن بها الريفيون البسطاء.

وفي أوائل القرن السابع عشر كانت أفكار كلفن قد توغلت بصورة كبيرة في إنجلترا واسكتلندا، فكان أن ظهرت الحركة البيوريتانية في إنجلترا، وألقت بنفسها ضد الكنيسة في صراع طويل من أجل المبادئ التي جاءت بها الكلفينية، والتي تناسب روح العصر الذي انتشرت فيه العلوم والفنون والثقافة، فكلفن قد استطاع أن يبلور أفكاره وفق نظريات عملية توافق ذلك العصر الذي بدأت فيه الثروة والفنون تجد طريقها ومكتسباتها لدي الطبقات الوسطي علي وجه الخصوص.

وعلي سبيل المثال فحتى ذلك الوقت كانت بعض النظريات الدينية تري أن الثروة خطر عظيم وإغراءاتها لا تنتهي، والجري وراءها ليس فقط بلا معنى، وإنما مشبوه أخلاقيا أيضا، ولكن جاء كلفن ليؤكد أنه لا يري في الثروة مانعا يحول بين رجال الدين وأن يكونوا فاعلين في الحياة، بل هي بالأحرى مرغوب فيها من أجل خدمة هيبتهم ، طالما أن هذه الثروة لا ترمي بالإنسان للتمتع بها مع ما يتبعها من الكسل وإغراءات الجسد. وبهذا كانت الظاهرة البارزة في البيوريتانية هي عنايتها البالغة بشئون الاقتصاد، بل إن البيوريتانيين اعتقدوا أن العمل بأنواعه واجب روحي، وأن الرخاء الاقتصادي علامة النعمة الإلهية. ودفع هؤلاء البيوريتانيون الإصلاح الديني إلى أقصى مفاهيمه المنطقة حينما محوا الطبقة الاجتماعية والدينية وروابط الأسرة تاركين الفرد المعتمد علي نفسه وحيداً أمام خالقه يواجه الدنيا التي لا بد وأن يتغلب عليها وقهرها.

ومع إيمانهم بالفردية المطلقة، كانوا يؤمنون بالمدن الفاضلة وبتفوق الخير وكفاحه ضد الشر، وبسمو المجتمع بأخلاقه وسعيه لتحرير نفسه من التاريخ والتقاليد الجائرة، وعبودية الماضي. وبالطبع كان للاضطهاد الذي لاقاه هؤلاء

البيوريتان في إنجلترا من طغيان ملوك أسرة ستيوارت السياسي، ومن ما اعتبروه الردة الانجليكانية التي فرضها كبير الأساقفة(لود)أن دفعهم إلى الهجرة إلى العالم الجديد كي يعبدوا الله أحرارا فيه، وينشئوا هناك هذا المجتمع الطوبوي الذي يؤمنون به في أرض بكر. وكان هؤلاء من كونوا ما باتوا يعرفون باسم الآباء الحجاج الأمريكيين pilgrim fethers .

حينما وصل المهاجرون الأوائل من إنجلترا إلى العالم الجديد بهذا المزيج العجيب من المعتقدات الدينية، التي لا هي يهودية ولا مسيحية، و الفردية، والطموح الاقتصادي، والنفعية، والتي تتنافى جميعها مع طبيعة المجتمع الطوبوي المثالي. وهي كلها أمور ولدت بعد ذلك المبدأ البراجماتي النفعي في أمريكا، الذي أصبح يهتم فقط بالنتائج المادية، دون النظر إلى الجماليات والفنيات والذوقيات التي تميزت بها الثقافة الأوربية بوجه عام).اعتبروا أمريكا هي (أورشليم الجديدة) (أو كنعان الجديدة) وشبهوا أنفسهم بالعبرانيين القدماء حينما فروا من ظلم فرعون (الملك الإنجليزي جيمس الأول) وأنهم فروا بدينهم ومعتقداتهم من مصر(إنجلترا) بحثا عن أرض الميعاد . فكان أن أسسوا علي ساحل نيوانجلند ما ظنوا أنها ستكون أورشليم الجديدة، ووقع هؤلاء البيوريتانيين الذين جاءوا علي السفينة ماي فلاور في نوفمبر ١٦٢٠ اتفاقا بات يعرف باسم عهد ماي فلاور May Flower Compact والذي يعتبر بمثابة العقد الاجتماعي الأصيل الذي اصبح الأساس التاريخي للفلسفة السياسية الأمريكية ، أي أن الحكم يقوم فقط علي رضا المحكومين.

كان هؤلاء البيوريتان علي يقين من أنهم يسيرون علي الطريق الصحيح، ولكن استقامتهم في الدين كانت ذات طابع غريب، إذ كان اهتمامهم باللاهوت نفسه اقل من اهتمامهم بتطبيقه في الحياة العملية اليومية، وقد ساعدهم علي ذلك بعدهم عن مراكز العلم والمكتبات العظيمة في العالم القديم، مع وجودهم في بيئة بكر يريدون ترويضها، وأيضا مع تعرضهم يوميا للتهديد من جانب ألوف

المصاعب والأخطار، وكل ذلك جعلهم في وضع غير ملائم للتوسع في اللاهوت والدخول في جدال حول نقاطه الدقيقة، والانشغال في جدليات نظرية لا تفيد في الواقع العملي.

وكان توكيد البيوريتانيين علي طريقة الحياة قوياً لدرجة أنه جعل أي مفهوم عام(للكنيسة) يبدو غير حقيقي، بل وخطرا، وأصبحوا يحذرون من استعمال كلمة (كنيسة) بمعني أولئك الذين وافقوا علي مجموعة معينة من العقائد، أو حتى علي البناء الذي اجتمع فيه المصلون. وأطلق أهالي نيوانجلند علي مكان عبادتهم(دار الاجتماع) Meeting House. وأصبحوا يتحدثون عما عليهم أن يقدموه للعالم، ولا يشيرون إلى(عقيدتهم) ولا إلى (كنيستهم) بل إلي أسلوب نيوانجلند الذي لا بد أن يسود ليخرج العالم من ضلالته الفكرية. وعموما فإنه مع تطور الزمن وتسارع الأيام، ورغم البقاء الشكلي للدين فإن روحه أصبحت تتلاشي بسرعة، وأصبح البحث المكثف عن مملكة الرب يتجاوز إلى فضيلة اقتصادية واقعية متزنة، واختفت الجذور الدينية ببطء مفسحة الطريق للنفعية الدنيوية. وأصبح الناس منذ ذلك غالبا ما انتقلوا بارتياح بين الصحوة الكبرى والعقلانية، وأحيانا لم يدركوا أي فارق بينهما، فالعقلاني يستخدم عبارات الدين إذا ما كان الموقف يستدعي ذلك، والديني يستخدم العبارات العقلانية علي سبيل المجاز إذا ما كان الموقف يريد ذلك.

ظلت هذه الازدواجية في الفكر الأمريكي علي مدي التاريخ الأمريكي، ولكنها تلونت علي حسب طبيعة الحدث والفترة الزمنية، ففي القرن الثامن عشر كان المستعمرون البيوريتان يطاردون الهنود الحمر مثل مطاردة العبرانيين القدماء للكنعانيين في فلسطين، ويقتلونهم بدم بارد علي اعتبار انه كنعاني. ولا عجب في ذلك إذا ما عرفنا أن هؤلاء المهاجرين البروتستانت البيوريتان الأوائل في المستوطنات الأوائل في نيوانجلند يلهجون بالعبرية في صلواتهم ويطلقون علي أبنائهم أسماء يهودية مثل سارة والعازار وابراهام وديفيد، وكذلك علي

مدنهم مثل سالم، وهبرون، وكنعان . وكان أول كتاب طبع في أمريكا هو (مزامير داوود) ١٦٤٠وكانت العبرية تدرس مع بداية التعليم العالي في كل المستعمرات الأمريكية، وعندما تأسست جامعة هارفارد في ١٦٣٦ كانت العبرية هي اللغة الرسمية، وفي سنة ١٦٣٧ أصدر المجلس العمومي أمراً يحظر علي أي شخص الاستقرار داخل حدود المستعمرة دون أن يوافق القضاة بادئ ذي بدء علي قرار بصحة عقيدته.

ولكن مع مجيء القرن الثامن عشر، وما لاقاه البيوريتانيون من نجاح في حياتهم العملية أن تراجع التشدد الديني عندهم أمام المصالح المادية، وهو ما أضفي عليهم شعورا بالكبرياء الإنساني الدنيوي، ودعاهم إلى السعي لنشر ثقافتهم تلك، علي عكس طائفة الكويكرز (الأصدقاء) مثلا في بنسلفانيا، فاستغل البيوريتانيون الحراك السياسي في المجتمع داخليا، والشئون الدولية التي انغمست فيها إنجلترا خارجيا، ليقوموا باستغلالهما للثورة علي السيطرة الإنجليزية، والاستقلال بأنفسهم، وبعد الإعلان عن الاستقلال عام ١٧٧٦ قال جورج واشنطن George Washington ١٧٨٩الي ١٧٩٧أول رئيس للجمهورية: "إن قضيتنا هي قضية الإنسانية" واعتبر هؤلاء الآباء المؤسسونFounding Fathers أن الرب قد قدر لأمريكا أن تقود العالم إلي الحرية والمصير المبين.

ومع مطلع القرن التاسع عشر انغلقت أمريكا علي نفسها لتسوي مشاكلها الداخلية ، واتخذت من مبدأ مونرو ١٨٢٣ قانوناً لهذه السياسة التي بدأتها بشراء لويزيانا من فرنسا نابليون عام ١٨٠٣ حتى انتزاع كاليفورنيا وبعض القطع الصغيرة لاستكمال حدودها مع المكسيك في الفترة من ١٨٤٨ إلى ١٨٥٣. وطوال هذه الفترة توسع الأمريكيون تجاه الغرب مكتسحين الهنود الحمر أينما حلوا ليبنوا مستوطناتهم ومزارعهم علي حسابهم. وحينما فرغوا من السيطرة علي الهنود الحمر وترويض الأرض، قامت حرب أهلية ضروس ١٨٦١ – ١٨٦٥، اعتبرها الشماليون البيوريتان حربا صليبية مقدسة في مناهضة العبودية،

كما اعتبروا هزيمة الجنوبيين عقابا إلهيا. وفي الواقع كانت الحرب من اجل فرض القيم البوريتانية علي المجتمع الذي أصبحت معالمه واضحة كي يتجهوا إلى المرحلة التالية في برنامجهم وليس دفاعاً عن المبادئ (مناهضة الرق والمساواة بين البشر) التي لم تتحقق ربما حتى يومنا هذا (بدليل موقف حكومة بوش الابن من إعصار كاترينا سبتمبر ٢٠٠٥).

وبعد أن استتب الأمر لهم في القارة، بدأ الأمريكيون مرحلة جديدة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بعد الحرب الأهلية بشراء آلاسكا من روسيا، ثم التوسع علي طول الجزر الباسيفيكية إلى أن وصلت في خاتمة القرن والمطاف إلى الفلبين، التي انتزعت من أسبانيا في الحرب الأمريكية الأسبانية، وضمت إلى الولايات المتحدة في عام ١٨٩٩ ومع مطلع القرن العشرين استولت أمريكا علي بورتوريكو وكوبا التي منحتها استقلالها واحتفظت بقاعدة جوانتنامو في ١٩٠٣، ثم حصلت علي منطقة قناة بنما ١٩٠٣ وغير ذلك من الجزر والدويلات في أمريكا الجنوبية. وبدأت أمريكا تنفتح تدريجيا، ووجدت سياسة الباب المفتوح أرضاً صلبة ابتداء من عهد الرئيس ثيودر روزفلت Theodore Roosevelt (١٩٠١ – ١٩٠٩) وعن طريقها أطلت أمريكا برأسها خارجيا كي تشارك الدول الاستعمارية الكبرى بنصيب في كعكة خيرات منطقة آسيا علي وجه الخصوص دون الاستعمار فيها.

كان إيمان الأمريكيين بفلسفتهم في الحياة يفوق كل تصور فمنذ مطلع القرن التاسع عشر كانوا يعتقدون بأنهم الشعب المختار، وأنهم حملة رسالة لنشر الحضارة. وبالطبع كانت الحجج والتبريرات الأخلاقية من وجهة نظرهم موجودة مثل مكافحة المرض الأصفر(الملاريا) في كوبا وبنما والفلبين وبورتوريكو، أو بشق قناة بنما، أو بناء اقتصاديات تلك الدول وتحريرها من الاستعمار الأسباني، أو نشر المسيحية البروتستانتية (في اليابان وآسيا) وغير ذلك من المبررات.

فالإمبراطورية الأمريكية قد قامت علي أيدي الدعاة والمبشرين والريادة الثقافية قبل أن تقوم علي أيدي الساسة وفيالق الجيوش والجشع الرأسمالي.

وبمجيء القرن العشرين كانت الفرصة مواتية لتحقيق الحلم في قيادة العالم ونشر الثقافة والأفكار الأمريكية. فمع بدايات هذا القرن كان النسيج الأمريكي الداخلي قد اكتمل، وأصبحت الولايات المتحدة دولة ذات حدود واضحة، وأسطول كبير، وقوة صناعية، وهيبة سياسية لا ينكرها أحد، ولم تعد فقط مجرد تلك الأرض الشاسعة التي كانت منفي للمغضوب عليهم في إنجلترا من المناوئين دينياً وسياسياً وخلقياً، أو مجرد مطمح للمغامرين الراغبين في الثراء والتخلص من قيود العالم القديم. ولكن أمريكا أصبحت أيضا قبلة العلماء والنابغين، ولا أدل علي ذلك من وجود الاختراعات الكبرى علي أرضها التي جاء إليها أو نشأ فيها المخترعون أمثال جرهام بل مخترع التليفون، و إديسون مخترع المصباح، والأخوان رايت صاحبا أول تجربة ناجحة للطيران، وهنري فورد صاحب مؤسسة فورد للسيارات، وغيرهم الكثير .

بل إن المقاليد السياسية التي كان العالم يعيش في كنفها طوال قرن مضي قد تغيرت بسبب تغيرات كثيرة لعل من أهمها تقليص دور الأسطول البريطاني (سيد البحار) بدخول الطائرات والغواصات في ميادين تأكيد قوى الدول الكبري، أو بتغير النظام الاستعماري الدولي وبتغير قناعات الدول المستعمرة بالمستعمرات واعتبارها عبئاً علي مستعمريها، أو بدخول قوي جديدة بفكر جديد في مجال التنافس الدولي وعلي رأسها أمريكا وألمانيا واليابان، أو بانهيار النظام الاقتصادي الدولي، والتحول عن قاعدة الذهب إلى الصرف علي أساس الذهب، والذي أخل بالموازين الاقتصادية الدولية فكان لكل هذا أن انتهي قرن السلام النسبي الذي عاشت فيه أوروبا وعلي رأسها بريطانيا العظمي بقيام الحرب العالمية الأولى (١٩١٤- ١٩١٨)

كانت أمريكا حتى قيام الحرب العالمية الأولى تعيش في برج عاجي عال من العزلة التي سنتها لنفسها منذ مبدأ مونرو. ويجلس على سدة حكمها مجموعات من الرأسماليين المنتفعين بهذه العزلة، لا يرون إلا مصالحهم التي تزداد توحشا يوما بعد آخر، فما الذي يجعلهم ينخرطون في حروب في قارة عزفوا عن التدخل فيها منذ أمد بعيد؟، ولكن قابل هؤلاء مجموعة أخري تحمل الرسالة السامية لبلادهم من موروثات الآباء الحجاج والمؤسسين، ويرون أن الفرصة قد سنحت لبلادهم لتتولي دورها الريادي في قيادة العالم، وكان أن اشتركت أمريكا ولسون في الحرب العالمية الأولى ١٩١٧ وتكسر حاجز العزلة الذي دام لنحو قرن من الزمان.

كان الرئيس وودرو ولسن Woodrow Wilson (١٩١٣-١٩٢١)(أستاذ الجامعة) يري أن الظروف أصبحت في صف بلاده، وأن عليها أن ترمي بثقلها لبناء نظام عالمي جديد ليحل محل النظام الدولي الذي انهار بقيام هذه الحرب، وأن بلاده ستتمكن من خلال هذا النظام من بسط نفوذها وتقاليدها، ولكنه ووجه بمقاومتين الأولى داخل بلده حينما رفض الجمهوريون الرأسماليون التخلي عن عزلة بلادهم، ورفضوا مشروعات رئيسهم العالمية، والثانية خارج بلده حينما لم يحفظ له حلفاؤه جميل مساعدته إياهم في الحرب، ورفضوا دفع أصول ما قدمته أمريكا لهم من مساعدات طول سنين الحرب إلا بشق الأنفس.

ولم يكن ولسن بمثاليته الجارفة وثقافته الواسعة، وبرئاسته لدولة تطل برأسها لأول مرة في تاريخها علي مأدبة اللئام في الشئون الدولية، يدرك أنه ليس من السهل أن تحصل بلاده علي ما تريد طالما كانت القوي الكبرى هي التي تمسك بخيوط اللعبة، وأن تلك القوي لن تترك الساحة إلا بعد انهيار نظمها التي تستند إليها وتعتمد عليها للإمساك بتلك الخيوط، فكان لهذا أن فشل مشروعه (مؤقتا)، وانتصر الجمهوريون، وعادوا بأمريكا إلى عزلة(مؤقتة) غلبت خلالها

النفعية المادية علي عقيدة الاختيار الإلهي لقيادة العالم وذلك في الفترة من (١٩٢٠- ١٩٣٣).

وفي هذه الفترة حدثت واحدة من أكبر الكوارث التي عاشتها الولايات المتحدة، ألا وهي الكساد الاقتصادي العظيم The Great Depression ١٩٢٩ والذي استمر نحو عشر سنوات وقوض أركان الدولة، وهدد كيانها وما حققته من إنجازات في شتي الميادين. وفي نفس الوقت الذي أصبح منه الحراك السياسي في العالم الخارجي ينذر بفوضى عامة في الشئون الدولية لن تستطيع أمريك الوقوف بمعزل عنها. وهنا جاء إلى الحكم رجل يمكن أن نقول عنه انه يجسد تاريخ أمريكا في شخصه. فقد جاء جداه لأبيه وأمه إلى هذا البلد سنة ١٦٢٠ علي ظهر السفينة ماي فلاور وكسبت أسرته مكاسب هائلة من وراء بعثة بيري Perry إلى اليابان سنة ١٨٥٣ ،ومن ثم من التوسع في شرقي آسيا، وكان ابن عمه الرئيس ثيودور روزفلت هو من جاء لأمريكا بسياسة المشاركة غير المباشرة في الشئون الدولية في مطلع القرن العشرين، هذا الرجل هو الرئيس فرانكلين ديلانو روزفلت Franklin Delano Roosevelt (١٩٣٣-١٩٤٥).

كان فرانكلين روزفلت رجلاً ذا طاقة هائلة جمع في شخصيته كل المتناقضات التي اتسمت بها الشخصية الأمريكية وإن كان قد غلب عليه الإيمان التام بالرسالة العالمية السامية، ولاسيما أنه تعلم من تجربة أستاذه الأول الرئيس ولسون، وأن الظروف الدولية باتت في يده إذا ما أحسن الإمساك بها والتغلب علي معوقاتها. إذ استطاع بسياسات داخلية جبارة التعامل مع أزمة الكساد، أظهر خلالها سمو خلقه واحترامه لشعبه، وحبه لوطنه. ومن خلال ذلك بني وطناً جديداً، وإنجازات ضخمة جعلت البعض يعتبر فترة حكمه عصراً خاصاً واعتبروه ثالث ثلاثة عظماء في رأسوا أمريكا بعد واشنجتن ولنكولن.

أما خارجيا فقد خبر الدرس الذي تعلمه ولسون جيدا عقب الحرب العالمية الأولى، وأيقن أنه لا مجال لقيادة بلاده (وهي الأقوى والأغنى) إلا بالقضاء علي

سطوة قوي العالم الاستعماري، وجعل هذه القوي ومستعمراتها تدور في فلك أمريكا. واستغل الحرب العالمية الثانية لينفذ ذلك، وبالفعل انتهت هذه الحرب وأمريكا هي القائد لكل المعسكر الرأسمالي الغربي في العالم مشاركة للاتحاد السوفيتي الذي كان يقود المعسكر الشيوعي الشرقي. ولكن الجديد أن أمريكا لعبت هذا الدور بفكر جديد لا يقوم علي النظم الاستعمارية السابقة وإنما يقوم علي الهيمنة الثقافية والسياسية والاقتصادية والعسكرية. ومن ثم تصدير النظم والأساليب الأمريكية إلى العالم أجمع ليتحقق ما كان يحلم به الأجداد من عقيدة يريدون تصديرها إلى العالم الذي يريدون.

والخلاصة أن أمريكا لم تخرج إلى العالم فجأة أو مصادفة كما يعتقد البعض، وإنما كان ذلك ثمرة جهد وتخطيط كبيرين ساعدها عليهما طبيعة شعب عملي ذي عقيدة بسعي لتحقيقها عبر مبادئ متناقضة ،ولكنها تؤدي في النهاية إلى الوصول إلي الهدف. ولم تكن الحرب العالمية الثانية هي نهاية المطاف لهذا الهدف وإنما كانت مرحلة جديدة للترقي أكثر وأكثر عبر سياسات ميزت النصف الثاني من القرن العشرين مثل، الحرب الباردة، وحافة الهاوية، والوفاق ،ومحور الشر، وانتهاءً بانهيار الاتحاد السوفيتي في ٢٥ ديسمبر ١٩٩١، وما تبع ذلك من تطورات أفرزتها أحداث الحادي عشر من سبتمبر، جعلت الولايات المتحدة القوة الوحيدة المحتكرة للقوة في العالم، في تجربة فريدة لم يسبقها إليها إلا روما في العالم القديم.

المراجــــع

(١) أموري د. رينكور؛ **القياصرة القادمون**، ترجمة أحمد نجيب هاسم (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧٠).
(٢) بروستر. ك. ديني؛ **نظرة شاملة علي السياسة الخارجية الأمريكية**، ترجمة ودوره عبد الرحمن بدران، مراجعة شويكار محمد زكي (القاهرة: الدار الدولية للنشر والتوزيع، ١٩٩١).
(٣) جمال حمدان؛ **استراتيجية الاستعمار والتحرير** (القاهرة: مكتبة الأسرة، ١٩٩٩).
(٤) جمال محمود حجر؛ **دراسات في التاريخ الأمريكي** (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٤).
(٥) جون باول؛ **الفكر السياسي الغربي**، ترجمة محمد رشاد خميس، مراجعة راشد البراوي (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥).
(٦) جون ودز؛ **روزفلت وأمريكا الحديثة**، ترجمة أحمد شناوي (القاهرة: مكتبة القاهرة الحديثة، د.ت).
(٧) حسين فوزي النجار؛ **أمريكا والعالم، دراسة في السياسة الدولية** (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٨٦).
(٨) دافيد أ. شانون؛ **الولايات المتحدة الأمريكية في الأزمة الاقتصادية العظمى**، ترجمة صلاح أحمد سليمان عزب، مراجعة محمود فتحي عمر (القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، سلسلة من الشرق والغرب، العدد٤٣، د.ت).
(٩) دانيل جي.بورستن؛ **الأمريكيون التجربة الاستعمارية**، ترجمة فاروق منصور (الأردن: مركز الكتب الأردني، ١٩٩٣).
(١٠) رضا هلال؛ **الحرب الأمريكية العالمية، قيامة المحافظين الجدد واليمين الديني** (القاهرة: مكتبة الأسرة، ٢٠٠٣).
(١١) ماكس فيبر؛ **الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية**، في تيمونز روبرتس، ايمي هايت (محرران)؛ **من الحداثة إلى العولمة، رؤى ووجهات نظر في قضية التطور والتغير الاجتماعي** (جزآن) ترجمة سمر الشيشكي، مراجعة محمود ماجد عمر (الكويت: سلسلة عالم المعرفة، العدد٣٠٩، ط، نوفمبر ٢٠٠٤).
(١٢) مايكل كوربت، جوليا ميتشل كوربت؛ **الدين والسياسة في الولايات المتحدة** (جزآن) ترجمة عصام فايز، ناهد وصفي (القاهرة: مكتبة الشروق، ٢٠٠١).
(١٣) محمد إبراهيم الشربيني صقر؛ **الحركة المسيحية الأصولية الأمريكية وعلاقتها بالصهيونية** (القاهرة: دار التوزيع والنشر الإسلامية، ٢٠٠٣).
(١٤) محمد محمود السروجي؛ **سياسة الولايات المتحدة الخارجية منذ الاستقلال إلى منتصف القرن العشرين** (الإسكندرية: مطبعة المصري، ١٩٦٥).
(١٥) هاري ماجدوف؛ **الامبريالية من عصر الاستعمار حتى اليوم**، د.م (بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٨١).
(١٦) هنري كلود؛ **إلى أين يسير الاستعمار الأميركي**، ترجمة بدر الدين السباعي (دمشق: دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، د.ت).
(١٧) والتر. ا. مكدوجال؛ **أرض الميعاد والدولة الصليبية**، أمريكا في مواجهة العالم منذ ١٧٧٦، ترجمة رضا هلال (القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠١).
(١٨) دكستر بركنس؛ **فلسفة السياسة الخارجية الأمريكية دارسة وتحليل**، ترجمة حسين عمر (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، د.ت).

(19) Diane Ravitch; The American reader, Words that moved agnation (New York: Perennial An Imprint of harper Collins publishers, 2000).
(20) Donald E. Nuechkerlein; United States National Interests in a changing world (The University Press of Kentucky, 1937).
(21) Ernest W. Lefever; American's Imperial Burden, is the past Prologue? (Colorado: West view press, 1999).
(22) Philip Ienkins; A History of the United States (Hampshire: Macmillan press LTD, 1997).
(23) Ralph B. Levering; The Public and American Foreign Policy (1918-1978) (New York: William Morrow and company, inc, 1978).
(24) Robert A. Divine; Foreign Policy and U.S. Presidential Elections 1940-1948 (New York: New view points, 1974).
(25) Thomas A. Bailey, A diplomatic history of American People (New) ersy: prentice hall, Inc. Englewood Cliffs, 1970).

المحور الرابع

دراسات متنوعة



عــــرض لدراسة نفسية عن آثار حرب أكتوبر على الجندي الإسرائيلي وأسرته* بقلم أستاذ علم نفس إسرائيلي**

عرض وتعليق
أ.د.عــــلاء الدين كفافي
أستاذ الصحة النفسية والإرشاد النفسي
معهد الدراسات التربوية – جامعة القاهرة

مقدمة لابد منها :

عندما دعيت لأشارك بالكتابة في الكتاب التذكاري الذي سيصدر – أن شاء الله – تكريما للزميل العزيز والصديق الصدوق الأستاذ الدكتور/ عادل حسن غنيم أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر، قفز إلي ذهني نموذجان شهيران في التكريم عن طريق إصدار الكتب التذكارية . النموذج الأول والذي يمكن أن أطلق عليه نموذج كاتبنا العظيم "العقاد" ، والنموذج الثاني ويمكن أن أطلق عليه نموذج كاتبنا العظيم الآخر "طه حسين ".

أما النموذج الأول فهوأن يتولى الذين يكتبون الكتاب تحريرمقالات عن حياة المكرم وعن أعماله وعن سيرته الشخصية، وهو ما فعله مكرمو " العقاد " عندما كتبوا كتابهم التكريمي واهدوه إلي العقاد عندما بلغ السبعين من عمره، وعلي رأس هؤلاء المفكر الكبير الأستاذ الدكتور زكي نجيب محمود. وأما النموذج الثاني فهو أن يتولى الذين يكتبون الكتاب تحرير مقالات أو بحوث في موضوعات كان يهتم المكرم بها، أو يراها أولى بالكتابة من غيرها، أو أنها تتفق مع استعداداته واقرب إلي نفسه من الموضوعات الأخرى، أو أن يكون المكرم

من رواد الكتابة فيها، وهو ما فعله مكرمو "طه حسين" عندما أصدروا كتابهم واهدوه إلي طه حسين عند بلوغه سن السبعين . وتضمن الكتاب عددا من الدراسات التي كان الدكتور طه حسين يهتم بها ويدعو إلي العناية بدراستها وكان علي رأس الكاتبين في هذا الكتاب الأستاذ الدكتور شوقي ضيف مؤرخ الأدب ومن أوائل من تتلمذوا علي طه حسين.

وقد راق لي النموذج الثاني في التكريم لأنه أوسع وأرحب من النموذج الأول. وبالطبع فان النموذج الثاني لا يصادر أن يتضمن الكتاب أية مقالات حول شخصية المكرم أو إنتاجه العلمي والفكري. وهذا ما أحسب أن محرري الكتاب الحالي سوف يفعلونه. هذا علاوة علي أن حصر الكتاب حول شخصية المكرم وأعماله فقط قد ينتج عنه بعض التكرار الذي يصعب تجنبه.

ولذا فإنني- انحيازا مني للنموذج الثاني من التكريم- أسهم بجهدي المقل وأضمه إلي جهود الزملاء المشاركين في تحرير الكتاب بعرض موجز لهذه الدراسة التي تدور حول الآثار النفسية التي تعرض لها المجتمع الإسرائيلي إبان حرب أكتوبر المجيدة، من زاوية ما أصاب الجندي الإسرائيلي علي الجبهة وما أصاب أسرته داخل المجتمع أثناء العمليات الحربية وما بعدها. وهي دراسة كتبها احد أساتذة علم النفس الإسرائيليين ليعرض فيها بعضاً من فنون العلاجات النفسية التي استخدمت في مواجهة الاضطرابات النفسية التي تعرض لها أفراد الجيش الإسرائيلي وأسرهم من جراء الحرب.

وقد وجدت في هذه الدراسة ما يعكس مدى الهزة التي تعرض لها المجتمع الإسرائيلي بأسره وليس الجيش والقوات المحاربة فقط بسبب حرب أكتوبر. وفي ترجمتي للدراسة تقيدت بعبارات وصياغات المؤلف بدقة ولكنني حذفت فقرات كاملة كانت تتناول قضايا ومسائل مغرقة في التخصص لا تهم إلا الدارسين المتخصصين، إذن فالدراسة معروضة بعبارات المؤلف وبدون أي تدخل إلا التعليق الأخير الذي كتب تحت عنوان تعليق من المترجم .

وقد اخترت أن يكون إسهامي في هذا الكتاب التكريمي عن طريق عرض هذه الدارسة التي تتعلق بقضية فلسطين التي شغلت زميلنا المكرم الذي قضى معظم حياته العلمية باحثا ومدققا في مختلف جوانبها. وأصبح بذلك من المراجع الثقاة الذين يرجع إليهم في كل ما يتعلق بهذه القضية من الناحية التاريخية علي وجه الخصوص.

وعلي هذا فليعذرني قارئ هذا الكتاب إذا ما وجد في هذا المقال عرضا لدراسة تعتبر" غريبة ولو نوعا ما " عن بقية موضوعات الكتاب والتي أحسب أنها مصبوغة باللون التاريخي أو الاجتماعي أو السياسي أو حتى الشخصي وقد وجدت أن عرض مثل هذه الدراسة في هذا المقام قد يكون حافزا لنا معشر الباحثين سواء كنا باحثين في التاريخ أو في علم النفس أو في أي من العلوم الأخرى علي كتابة الدراسات والبحوث من المدخل البيني interdisciplinary approach الذي يهتم بدراسة الظواهر من مختلف الزوايا والاتجاهات والتي يهتم كل علم منها بزاوية واحدة فقط. ومما لاشك فيه أن المدخل البيني يفيد في فهم الظواهر علي نحو أفضل، وبالتالي يهيئ لنا قاعدة أكثر دقة وصلاحية للفهم والتنبؤ والتحكم في الظاهرة موضوع الدراسة. والله من وراء القصد.

الجندي الإسرائيلي وأسرته أثناء حرب أكتوبر

للدكتور سولي دريمان أستاذ علم النفس بجامعة بن جوريون

في السنوات الأولي من نشأة إسرائيل كانت الدولة مشغولة بقضايا البقاء والغذاء. ولم يكن هناك متسع لدراسة ما يترتب علي الحروب من أوضاع حرجة في حياة المجتمع.وفي حرب الأيام الستة[1] بذلت محاولات متواضعة لمعالجة الأوضاع المترتبة علي الحرب، ولكنها كانت محدودة، وتتعلق أساسا ببعض الأرامل اللاتي فقدن أزواجهن أثناء القتال. أما حرب يوم كيبور فإنها تمثل تحولا في اتجاهات هذا المجتمع. فقد كانت هذه الحرب قاسية وعنيفة علي المستويين النفسي والمادي. فعلي المستوى النفسي كانت الحرب صدمة نفسية عنيفة

للإسرائيليين، كما كانت علي المستوى المادي ضربة أليمة لهم، حيث فقدت إسرائيل حوالي ٢٥٠٠ (ألفان وخمسمائة جندي)،كما أصيب حوالي ١٠,٠٠٠ (عشرة الاف). وتحطمت أسطورة إسرائيل التي لا يستطيع احد مهاجمتها فضلا عن قهرها.

وتبين التقديرات أن الصدمات النفسية مثل عصاب "إعياء المعارك" وعصاب الصدمة[٢] تمثل حوالي من ٥% - إلي ١٠%. وبمقارنة الآثار الناجمة عن هذه الحرب بما نجم عن الحروب السابقة فان هذه الحرب الأخيرة عالية التكاليف وكبدت البلاد خسائر فادحة. والتفسير الأكثر قبولا لهذه الظاهرة هو أن الجيش الإسرائيلي والبلد ككل وضعت في حالة استنفار كامل بما يترتب علي إعلان هذه الحال. لقد انفجرت الحرب في ٦ أكتوبر ١٩٧٣ في يوم كيبور وهو يوم صوم الغفران، والعطلة اليهودية المقدسة. وكان معظم الناس في لحظة اندلاع الحرب في حال تعبد صائمين مصلين. وقد استدعى كثير من الجنود من دور العبادة للانضمام إلي وحداتهم العسكرية.

وفيما يتعلق بتقدير الآثار والعواقب السيكلوجية للحرب علي الجنود وعلي أسرهم، فان هناك ثلاثة ملامح رئيسة اعتقد أنها تميز هذه الحرب (حرب أكتوبر) عن بقية الحروب الأخرى التي خاضتها إسرائيل وهي :

١. جهاز الاتصالات الضعيف والمرتبك الذي ترتب علي فجائية الحرب أسهم في إثارة جو من القلق والعصبية سواء علي الجبهة أو في الداخل. وكان ما تذيعه وسائل الأعلام علي الناس موضع شكهم. فمثلا،في الصباح التالي لتفجر بركان العدوان[٣] أعلن راديو إسرائيل أن الجسور التي أقامها المصريون علي قناة السويس قد ضربت بالقنابل، وان الجيش المصري يمر الآن بفترة عصيبة ويتأهب للتقهقر. وبالمثل ففي جبهة القتال كانت الاتصالات غير واضحة ومحدودة بين مواقع القيادة والقوات المقاتلة.

وما ان بدأت أخبار ما حدث بالفعل في الأيام الأولي للحرب تتأكد حتى انهارت بعض معتقداتنا واتضح زيفها مثل أسطورة "إسرائيل التي لا تقهر" وأسطورة "الغباء العربي".

هذه العوامل أسهمت في خلق جو عام من الشك والتوتر سواء بين الجنود علي جبهة القتال أو بين جموع المواطنين في المدن والقرى. وقد أوضح عالما النفس "البورت"و"بوستمان"[٤] انه حينما يقع حدث علي جانب كبير من الأهمية ويكون محاطا بالغموض فان الإشاعات غالبا ما تنشا وتروج بين الناس، وهذا ما حدث بالفعل في الأيام الأولي للحرب، حينما انتشرت الإشاعات مثل تلك التي قالت بان عددا كبيرا من الجنود الإناث الإسرائيليات قد تعرضن للاغتصاب من جانب الجنود المصريين في موقع شرم الشيخ .

٢. الضغط المستمر الذي تسبب عن إطالة مدة بقاء الجنود (من أربعة إلي ثمانية شهور) وصدور التعليمات بضرورة توافر أقصى درجات اليقظة عقب وقف إطلاق النار الأول في أخر أكتوبر، والعمل تحت ظروف الضغط له تأثيرات سلبية. وقد أوضح بعض الباحثين أن الخطر المحتمل أو التهديد بالحرب يفت في عضد الجنود ويهبط بروحهم المعنوية أكثر مما تفعل الحرب ذاتها لو وقعت. وفي وقف إطلاق النار الذي تلي العمليات الحربية الأولي سجل الإخصائيون في تقاريرهم الطبية والنفسية وجود خواطر مثل : نوبات الغضب وتفجرات الحنق والاكتئابات وألوان القلق المختلفة- وحتى العجز الجنسي.

وعلى الجبهة الداخلية أو في البيوت فان ضغوطا نفسية رهيبة كانت تعصف بالأهالي بسبب جهلهم بما يجرى حقيقة على جبهة القتال، بعدما تبين عدم صدق البيانات الرسمية، وكانت هذه الضغوط نتيجة الخوف على حياة المقربين مع مشاعر قلة الحيلة إزاء ما يمكن عمله لهم وفقدان السيطرة على توجيه الأحداث والأمور.

٣. كانت حرب أكتوبر هي حرب السعي[٥] (commuter war) فبعد أن هدأت العمليات الحربية منح الجنود أجازات متكررة يقضونها بين ذويهم.ونظمت لهم سبل الذهاب والعودة بين الجبهة والأسرة. وهذا غير ما حدث في الحربين العالميتين الأولي والثانية بحيث كان الجندي بعيدا عن بيته وأسرته لمدة طويلة، وبالتالي فان لديه درجة قليلة من التضارب إزاء التزاماته وواجباته نحو جبهة القتال. لقد كان الجندي الإسرائيلي ممزقا بين جبهة القتال مع توقع تجدد الاشتباكات مرة أخرى واحتمال وفاته وبين واجباته والتزاماته نحو أسرته التي تتراكم مشاكلها يوما بعد يوم، وتزداد سوءا بغيابه عنها. وقد عانى الجندي الإسرائيلي من التوزع بين الالتزامين. فقد كان من الصعب عليه أن يحقق الالتزام من الناحية السيكلوجية نحو الجبهة والأسرة معا. فقد كان يوصف من جانب أسرته بأنه ناء وبعيد عنهم، كما كان دور الساعي الذي يقوم به يزيد من ألمه ومعاناته. وقد ظهرت هذه المعاناة على شكل أساليب سلوكية تتصف بالتبلد والفتور والقلق والاكتئاب.

العلاج والوقاية :

وفي مناقشة التأثير السيكلوجي للحرب لن نركز على علاج ضحايا عصاب الصدمة وعصاب "إعياء المعارك" لان هذه الفئات قد كتب عنها باستفاضة في الأعمال الكلاسية (القديمة) لعدد من الباحثين والعلماء. وقد اهتم المؤلف بمجال الوقاية الأولية وبذل فيه جهدا كبيرا أكثر مما فعل في مجال علاج الجنود المصابين فعلا. وفي المقابلات التمهيدية مع قادة الوحدات حدد الإخصائي النفسي الملحق بخدمة اللواء المقاتل عمله بأنه يعمل على زيادة تماسك الجماعة ورفع الروح المعنوية وكذلك مساعدة الجندي على التكيف مع أوضاع الجبهة. وقد دعى قادة الوحدات كي يشاركوا في المناقشات الجماعية التي كانت تعقد في جماعات يتراوح عدد أفراد كل منها بين ١٥-٣٠ جنديا. وقد ساعدت هذه

الخطوات على تسهيل عملية الاقتراب السيكلوجي من الجنود والاندماج معهم. حيث أن الإخصائي النفسي، في هذه الحال، وضع لنفسه أهدافا تتناسب مع أهداف الجماعة

وكانت المناقشات الجماعية والجهود الإرشادية كافية في معظم الحالات في التخفيف عن الجنود بعضا من قلقهم ومخاوفهم. ومن ثم سمحت لهم بان يسلكوا بقدر اكبر من الكفاية سواء في الجبهة أو في المجال الاجتماعي بين أفراد أسرته. أما مشكلة العجز الجنسي الذي أصيب به بعض الجنود فقد كانت تواجه بإخبار الجندي أن هذه الظاهرة هي رد فعل طبيعي وعادى للضغوط المستمرة، وأن هذه الحال غالبا ما ستختفي عندما تنتهي الظروف الضاغطة. وقد تحدث بعض الباحثين عن هذه الصور من الوقاية الأولية التي يستطيع الضابط الطبيب أن يرفع بها معنويات جنوده بالحديث- المعتمد على خطة - لهم عن القلق والمخاوف وعموميتها في كل البلدان، وحدوثها في كل الأحوال المماثلة.

وقد كشفت المناقشات الفردية والمناقشات الجماعية أن عديدا من المشكلات التي ظهرت في ميدان الأسرة ترجع إلي بعض العوامل في مقدمتها غياب الوالد أو الزوج والضغوط المستمرة والتي لا يعرف كيف ومتى تنتهي ودور الساعي الذي يقوم به الوالد أو الزوج.

وهذه بعضا من أهم المشكلات التي ظهرت بين اسر المقاتلين :

١. لم يكن الأطفال يعرفون الأماكن التي يوجد بها آباتهم ولا المهام العسكرية المنوطة بهم ولا الأعمال اليومية التي يقومون بها. وكانت الأمهات جميعهن يؤكدن للأطفال بان الآباء ليسوا في خطر، ولكن الأطفال كانوا معرضين إلي ألوان من القلق الهائم غير الواضح وغير المفهوم والذي كانت تعاني منه الأم والآخرين المحيطين بالطفل أيضا. وقد أسهم هذا القلق في خلق ألوان من السلوك النكوصي عند الأطفال مثل بلل الفراش ومخاوف الليل والنوم في سرير الأم. والنصيحة التي كانت تسدى في هذا الصدد هي انه

من المهم أن نتحاور مع الطفل بقدر ما تسعنا الحقيقة، وبأسلوب مناسب لمستوى نموه العقلي والوجداني كي نقلل من القلق الذي يعتريه ولكي نحسن سلوكه التكيفي.

٢. أكدت المناقشات الجماعية على أن الأطفال يجب أن يعطوا الفرصة لكي يعبروا عن مخاوفهم إما لفظيا أو عن طريق اللعب أو الرسم. كما أوضحت المناقشات اهمية التأكيد على أن الموت ليس من الموضوعات المحرمة، ويجب أن يخبر الأطفال عن الأقارب والمعارف الذين قتلوا في الحرب، ويجب أن يتحدث الآباء عن الذين ماتوا في الحرب وألا يتحرجوا من ذلك.

٣. يسهم غياب الوالد وتنقلاته المستمرة في ظهور أساليب سلوكية نكوصيه عند الأبناء كما يثير مشكلات تتعلق بالنظام في حياة الأسرة. فمثلا نجد أن الأمهات بسبب معاناتهن الشخصية للقلق – يشجعن بعض أساليب السلوك عند الطفل، كالسماح له بالنوم في سريرها، والهرولة إليه عندما ينزعج ليلا، وهذا ما يدعم السلوك النكوصي عند الأبناء.

وتنشا المشكلات المتعلقة بالنظام مرتبطة بدور الساعي الذي لعبه الوالد في الحرب. وقد شعر كثير من الجنود بمشاعر الذنب من جراء غيابهم كثيرا عن الأسرة، ولذا كانوا يلجأ ون عند خروجهم في أجازات إلي تعويض أطفالهم عن هذا الغياب. وفي معادلات دنياميات الأسرة نجد أن الأم التي حملت العبء الكامل في إدارة شئون الأسرة في غياب الوالد – والتي تكون عصبية المزاج وسريعة التهيج مع الأطفال – لديها السلطة ولكنها تضعف أمام محاولات الوالد لتعويض الأبناء. ويحدث هذا بوضوح عندما يعود الوالد إلي وحدته العسكرية ويميل الأبناء إلي الخروج عن طاعة الوالدة التي تقارن حينذاك – وبغير روح الإنصاف بالطبع – مع الوالد البطل والشفوق. ويقترح في هذا الصدد أن يسلك الوالد في أجازاته بصورة طبيعية كلما أمكنه

ذلك وعليه ألا يضعف سلطة زوجته وان يؤدى وظائفه الوالديه بصورة طبيعية وعادية

٤. وفي المناقشات التي عقدت مع الجنود وزوجاتهم وجدنا أن عند كل طرف توقعات من الطرف الآخر، وان هذه التوقعات متعارضة خاصة عند الأزواج الذين لم يتصارحوا معا. وإذا أردنا الدقة فان كلا الزوجين يشعر انه في حاجة إلي التعويض لمعاناته الناتجة عن الجدب العاطفي الذي يعيشه، الأزواج لحياتهم الخشنة والصعبة على الجبهة والزوجات لأنهن يتحملن كامل العبء في المسئوليات الأسرية في غياب الوالد.

٥. وفي زيارة لمختلف الجبهات بعد اتفاق وقف إطلاق النار (١٩٧٤) لوحظ أن الإحساس بالابتهاج قد تغير إلي قلق ومشاعر شك إزاء المستقبل. وقد كان هذا واضحا على الصعيد المهني والصعيد الأسري. وفي حالات كثيرة تعلمت الزوجات أن يأخذن على عاتقهن بعض وظائف أزواجهن السابقة.

الموت والحداد والأسرة :

الحرب تجربة شخصية عميقة لكل مواطن في إسرائيل بالنظر إلي حجم الدولة وظروفها.

فلكل فرد احد الأقارب أو الأصدقاء أو المعارف سقط في إحدى المعارك الخمس التي خاضتها إسرائيل. وقد قتل ما يربو على١٢,٠٠٠ (اثنا عشر ألفا) من الجنود الإسرائيليين منذ إنشاء الدولة في عام١٩٤٨ وفي مجتمع مضغوط بدرجة كبيرة مثل إسرائيل هناك حاجة إلي أن تعود الأمور إلي نصابها بأسرع وقت ممكن. ومن هنا فان موضوع الحداد يحتل وضعا خاصا في المجتمع الإسرائيلي. وفي المناقشات الجماعية على الجبهة أثير عدد كبير من المشكلات التي تتعلق بالموت والحداد والثكل ومنها :

وجد بعض الجنود أن من الصعب عليهم أن يزوروا الأسر الثكلى ممن فقدت احد أبنائها في الحرب فغالبا ما يجعل احساس الذنب الناتج عن البقاء

حيا بعد الحرب الجندي غير راغب أو غير قادر على القيام بالزيارة. وقد كانت الجلسات الجماعية فرصة نموذجية لكي يعبر الجندي عن مشاعر اللوم والذنب والاكتئاب في فترة ما بعد المعارك أن هذه المناقشات لا تهيئ له شبكه علاقات اجتماعية مدعمة فقط بل إنها أيضا تؤكد الجوانب العادية أو السوية في مثل هذه المشاعر.

٢. بعد سماع أخبار الوفيات في الحرب أرسلت وزارة الدفاع أفرادا من المتطوعين بعضهم من المهنيين المتخصصين في تقديم الخدمات النفسية والاجتماعية وبعضهم الآخر من غير المهنيين لمساعدة الأسر خلال تلك الفترة. وقد شعر بعض هؤلاء الناس منذ البداية بنوع من التعالي والتكبر، أوشك أن يصل إلي درجة العجرفة عند قيامهم بمواساة الأسر المنكوبة، وكان العمل يقتضي أن تشجع الأسر على مناقشة مسألة فقد الأزواج والآباء وعلى الحديث حو [illegible] عقيد، حي[illegible]ته وموته كجزء من عملية الحداد.

٣. ولأن إسرائيل مجتمع متعدد الثقافات فقد ظهرت (ردود فعل متباينة) فقد ظهرت ردود فعل متباينة استجابة لخبر موت الابن. وتتراوح هذه الاستجابات من الصبر والتجلد بين بعض أصحاب الثقافات الآتية من الغرب إلي ضرب الصدور ولطم الخدود وشد الشعور بين بعض أصحاب الثقافات الآتية من الشرق. وكان هناك فروق فردية في ردود الأفعال نحو الموت. فمثلا مال بعض الجنود إلي أن يصنعوا أنفسهم حكاما ومقيمين لكيفية استجابة الزوجات الأرامل لفقدان أزواجهن. وقد وصف احد الجنود زوجة صديق له بأنها فاجرة وزانية لأنها ارتبطت بموعد غرامي بعد شهر من وفاة زوجها. مثل هذه الفروق الثقافية والفردية في الحداد والتعبير عن الحزن وجدت مكانها في المناقشات الجماعية التي أكدت على وجوب أن يكون الفرد واعيا بهذه الفروق وألا يحاول أن يجعل من نفسه حكما ومقيما لها، وان يكون أكثر تفهما لكيف يسلك الأفراد الآخرون والثقافات الأخرى عند التعبير عن الحزن.

٤. وفي المدارس كان هناك اتجاه لان يمنح الأطفال الذين سقط آباؤهم في المعركة قدرا اكبر من الشفقة والاهتمام. وقد تم ذلك بصورة فجائية ومبالغ فيها، وأحيانا ما كانت الأية تنعكس من الضد للضد في بعض الحالات. ويجب أن نعود في معاملة هؤلاء الأطفال إلي الوضع الطبيعي وألا نغالي في معاملتهم، ولكن يجب أن نحذر من عزلتهم.

٥. وكانت مشكلة الوالدين والأسرة في فقدان الجندي أكثر حدة من مشكلة الأسرة التي مات عنها احد أفرادها، لأنه في الديانة اليهودية لا تعتبر الجندي متوفيا إلا إذا توافرت شواهد قاطعة على موته. ومن هنا فان الأسرة لا تستطيع ان تدفن الميت سواء على المستوى الفيزيقي (موارانه التراب)[٦] أو حتى على المستوى السيكلوجي (إظهار الحزن وتقبل العزاء)[٧] حتى تظهر الجثة. وقد سبب ذلك ضغوطا نفسية شديدة لهذه الأسر. لذا لجا بعضها إلي أساليب الصوفية Mysticism [٨] والي حضور جلسات تحضير الأرواح حتى يعرفوا مصير ابنهم المفقود ولذا تعتبر مشكلة مساعدة أطفال المفقودين الذين لم يعرف على وجه الدقة مصيرهم مشكلة صعبة. وفي المناقشات الجماعية نصحت الأم أن تكون أمينة وصادقة ما أمكن مع الطفل، ويجب أن تشرح له بأسلوب يناسبه ان الوالد مفقود الآن. وان هناك احتمال آخر أن يكون قد أصيب او قتل. ويجب ان يخبر الطفل ان هناك اتفاقيات دولية مثل اتفاقية جينف توجب معاملة الأسرى معاملة طيبة، وبفضلها تتوفر لهم رعاية طبية، كما يسمح لممثلي الصليب الأحمر الدولي بزيارتهم. ويجب ان يكون الطفل متأكدا ان أية معلومات عن الوالد وعن موضعه سوف يعرفها طالما تعرفها الأسرة. كما ان على الأم ان تسمح للطفل ان يعبر عن قلقه ومخاوفه نحو الأب المفقود.

تعليق من المترجم

يمكن ان نشير إلي بعض الملاحظات السريعة والموجزة التي يثيرها هذا التقرير الهام ونتخلص فيما يأتي :

١. مدى الهزة التي أحدثتها حرب أكتوبر في المجتمع الإسرائيلي على المستوى العسكري (جبهة القتال) وعلى المستوى الاجتماعي (الجبهة الداخلية). فمهما قيل عن الآثار التي ترتبت على هذه الحرب حتى وصفت في بعض الأحيان بالبركان الان هذا التقرير العلمي الذي يصدر عن أستاذ إسرائيلي يصف بموضوعية تقتضيها الأمانة والدقة العلمية مظاهر الخلخلة التي عانى منها المجتمع الإسرائيلي والجهود الكبيرة التي بذلت لعلاج هذه المظاهر.

٢. رغم نجاح إسرائيل في إحداث ثغرة في الجيش المصري ووصول قواتها إلي السويس إلا ان التقرير يظهر مدى خوف القيادة الإسرائيلية من هجوم مصري ضد قواتها سواء في غرب القناة او في شرقها، مما جعل القيادة تصدر أوامر مشددة بان يظلوا في حالة الاستعداد القصوى، ولم تخفض درجة الاستعداد إلا بعد اتفاق فض الاشتباك الأول في يناير ١٩٧٤. أي بعد حوالي ثلاثة اشهر من وقف إطلاق النار. وقد كان لهذه الفترة آثار نفسية سيئة على الجنود الذين لم يتعودوا هذه الفترة الطويلة من المعاناة، ولابد ان يثير هذا الموقف مقارنة بين سلوك الجندي الإسرائيلي الذي لم يتحمل معيشة الخطوط الأمامية مدة ثلاثة اشهر والجندي المصري الذي تحمل معيشة الخطوط الأمامية ست سنوات (بين حرب ١٩٦٧و١٩٧٣) وقد تخللتها التدريبات الشاقة، وما يحيط بها من ظروف نفسية تتعلق بضرورة الثأر واسترداد الكرامة.

٣. معاناة الجندي الإسرائيلي من التناقض والتعارض بين التزاماته العامة إزاء القتال على الجبهة والتزاماته الخاصة إزاء أسرته وعائلته. وهذا أمر مفهوم في إطار حداثة الدولة رغم الجهود التي تبذلها الدولة اليهودية وأجهزة الإعلام

والدعاية والتربية الصهيونية في تدعيم جذور الولاء للدولة الجديدة في نفوس الشباب اليهودي. ولكن قيام الايدولوجية الصهيونية والدولة اليهودية على أسس عدوانية يوقع الجندي في هذا التناقض. وقد يكون بعض هذه الأسس التي يقوم عليها التناقض شعورية يدركها الجندي، وبعضها الآخر لا شعوري غير واع بها هذا التناقض يصيب الجندي الإسرائيلي بالتمزق والصراع، لأنه إذا كان خائفا على أطفاله وأسرته فكيف يذهب ليقتل أطفال الآخرين خاصة في حروب ١٩٦٧ و١٩٧٣ وما بينهما مما اصطلح على تسميته بحرب الاستنزاف – مع تكرار نداءات السلام والتي توفر لإسرائيل أمنا وكيانا سياسيا – من جميع الأطراف القومية والدولية وصمم إسرائيل آذانها عن هذه النداءات، واستمرارها في موقفها العدواني.

٤. يثير التقرير قضية التماسك الاجتماعي في إسرائيل المرتبطة بتعدد الثقافات التي تكون المجتمع الإسرائيلي واختلاف الأساليب السلوكية لأفراد الشعب اليهودي إزاء الموقف الواحد نتيجة اختلاف خلفياتهم الثقافية، وتباين الأطر المرجعية التي يستندون إليها في تصرفاتهم وأحكامهم. وإذا قارنا هذا الوضع بما في مصر نجد أننا ننعم بدرجة كبيرة من التماسك الاجتماعي لطول التاريخ المصري وسهولة الاتصال بين كل أطراف البلاد وعدم وجود فواصل طبيعية وجغرافية مانعة بين سكان الوادي في مصر يسمح بوجود ثقافات فرعية متميزة. هذا التماسك الاجتماعي والانسجام البشرى الذي ننعم به في مصر – والذي قل ان نجد له نظيرا بين شعوب الأرض – يجب ان يكون محل صيانة المصريين له وحرصهم عليه، وألا يسمحوا لأية عوامل طائفية أوغيرها بان تؤثر في درجته لأنه مصدر قوة لهذا المجتمع وقاعدة صلبة للانطلاق والتقدم.

٥ يوضح التقرير عمق وكثافة الخدمات النفسية التي تقدم للجنود الإسرائيليين وأسرهم أثناء الحرب وفي أعقابها ومع إيماننا بصلابة المقاتل المصري وتفانيه في حب مصر ونسيانه كل شيء إلا مصر وهو في موقف الدفاع عن

الأم الرؤوم فان ذلك لا يمنع من ان نزيد من الخدمات النفسية والاجتماعية التي تقدم لمقاتلينا وأسرهم وان نخطط للاستفادة من الخدمات النفسية والاجتماعية المتطورة لنجعل "هذا المجتمع محلا للسعادة المشتركة بيننا" كما يعبر طليعة المثقفين المصريين في العصر الحديث رفاعة رافع الطهطاوي.

الحواشي

* العنوان الأصلي للدراسة هو "حرب يوم كيبور: الجندي على الجبهة وأسرته وتوثيقها كالآتي:
Solly B. Dreman, The Yom Kippur War: The Soldier on the Front and his family. The Amer. J. of family The rapy. Vol.9, No.3, Fall 1981.

** د. سولي دريمان أستاذ علم النفس بقسم العلوم السلوكية في جامعة بن جوريون- بيرسبع- إسرائيل. وقد استمد مادة هذه الدراسة عندما كان يخدم كإخصائي نفسي في أحدى الوحدات العسكرية في جيش الدفاع الإسرائيلي أثناء حرب يوم كيبور أو يوم الغفران كما يسميها الإسرائيليون أو حرب أكتوبر أو رمضان كما تعرف عند المصريين والعرب .

(١) يقصد حرب يونيو ١٩٦٧ (المترجم).

(٢) العصاب هو المرض النفسي، وقد تكون أعراضه فجائية تترتب علي تعرض الفرد لخبرة صادمة، مثلما يتعرض له الجندي في مواقف القتال الحرجة، أو تعرض الفرد لضغوط نفسية لفترة طويلة متصلة (المترجم).

(٣) هذا الوصف يعبر عن رأي الكاتب الإسرائيلي فيما قام به الجيش المصري في ٦ أكتوبر ١٩٧٣ (المترجم).

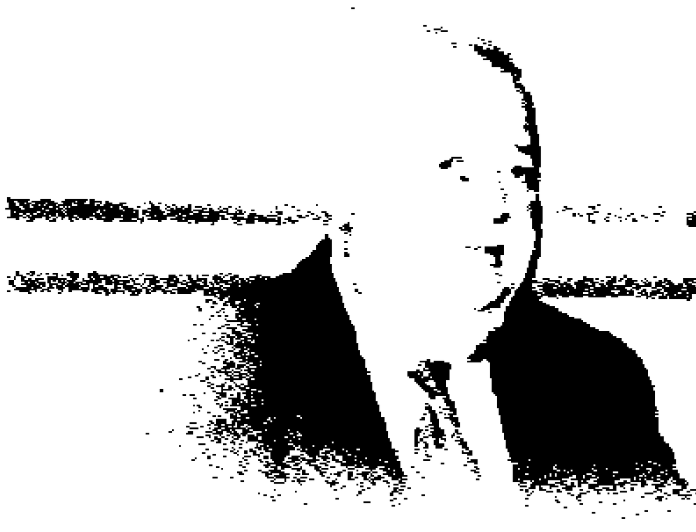
(٤) كتاب "سيكلوجية الإشاعة"تأليف البورت وبوستمان، نشر عام ١٩٤٦. وقد ترجمه إلي اللغة العربية الأستاذ الدكتور صلاح مخيمر والأستاذ عبده ميخائيل رزق، تحت نفس العنوان (الأنجلو ١٩٤٦) (المترجم).

(٥) ترجمنا كلمة (commuter) بالساعي، على أساس أن الجندي كان يتردد جيئة وذهابا بين جبهة القتال وبيته وأسرته وهو التعبير الذي استخدمه القران الكريم في مواطن عديدة لوصف السير في اتجاهات مختلفة، وهو أيضا التعبير المستخدم لوصف التردد بين جبلي الصفا والمروة في مواسم الحج (المترجم).

(٦) المترجم.

(٧) المترجم.

(٨) اعتقد انه يقصد أساليب التنجيم (Astrology) التي يشاع ان الفرد من خلالها يستطيع ان يعرف المخبأ والمجهول من الأمور. (المترجم).



العولمة والتراث العربي الإسلامي

أ.د. عبد الله عبد الرازق إبراهيم
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
معهد البحوث والدراسات الأفريقية – جامعة القاهرة

مقدمة

يعيش العالم اليوم في ظل نظام القطب الواحد، والهيمنة الأمريكية، وشيوع ظاهرة العولمة، تلك الظاهرة التي غيرت الكثير من المفاهيم، وحولت العالم إلي قرية صغيرة بعد التقدم التكنولوجي السريع، وظهور شبكة الإنترنت التي غيرت الكثير من سبل الاتصال، وقربت المسافات واخترقت الحواجز داخل الدولة الواحدة، بل وأصبحت تتحكم في الكثير من الاتصالات الحديثة، وأبرزت إعلاما جديداً وفكراً إنسانيا يؤمن بأن التغيير هو الثابت الوحيد، وأقامت علاقات اجتماعية جديدة ما بين المؤسسات الثقافية، وما بين الفئات الاجتماعية وصار الإنترنت ساحة للحوار الإنساني يسعى إلي تحقيق السلام في العالم، وخلق مناخ عالمي يسعى إلي إقامة الوفاق والإجماع من خلال قبول الاختلاف وكسر الحواجز اللغوية، وطرح المسلمات، والتخلص من الانحيازات الجنسية واللغوية والعقائدية، أي خلق بيئة إعلامية عامة تصبو نحو شفافية معرفية خالصة .

وأمام هذا التطور التكنولوجي والعولمة كان على أمتنا العربية أن تواكب هذا التطور، وأن تسعى بكل ما لديها من إمكانيات أن تطور نموذجا عربيا يحافظ على هويتها وثقافتها وتراثها وسط هذه الموجة من العداء للإسلام والمسلمين.

وهذا البحث يحاول إلقاء الضوء على النقاط التالية :

أولا : مقدمة تطور فكرة العولمة

ثانيا : التراث العربي وتطوره الفكري

ثالثا : التراث العربي وتحديات الاستعمار الأوربي

رابعا : طرق مجابهة التطور التكنولوجي

خامسا : الخاتمة

العولمة والتراث العربي والإسلامي

أولا : تطور فكرة العولمة :

إن مصطلح العولمة Globalization قد أصبح أكثر شيوعا في مؤسسات إدارة الأعمال، وفي المؤسسات الصحفية والاقتصادية الأمريكية، وكان يعنى بالحركة المعقدة لانتقال السلع وانفتاح الحدود الاقتصادية وليونة التشريعية المشجعة لنشاط الاقتصاد الرأسمالي ليشمل المعمورة بكاملها [١].

ورغم أن البعض يرجع أصول هذه الظاهرة إلي عصور ظهور الديانات السماوية وأهمها الإسلام الذي شكل ظاهرة عالمية من خلال تأكيده على إشاعة عالمية الدعوة التي لا تفرق بين جنس وأخر ولا بين لون وأخر مع رفض كل عناصر الفرقة والتمييز بين البشر وإنه من المهم إدراك هذه الحقيقة والتأكيد عليها ذلك أن التقدم التكنولوجي منذ دفع بالدول المتقدمة إلي التطلع والرغبة في غزو البلدان الأخرى، والسيطرة على تجارتها ومنافذها البرية، وكانت التجارة الشرقية هي الشغل الشاغل للكشوف البرتغالية التي تمكنت من الدوران حول القارة الأفريقية بعد كشف طريق رأس الرجاء الصالح واستيلاء هنرى الملاح على سبتة عام ١٤١٥. [٢]

بعد ذلك ظهرت أسبانيا وهولندا وبسطت سيطرتها على تجارة الشرق وموارده منذ القرن السابع عشر، وفي القرن التاسع عشر ظهرت القوى العظمى من انجلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا وبلجيكا، وبدأت عملية تقسيم العالم الخارجي في أسيا وأفريقيا، وطبقت هذه الدول نظم حكم استعمارية ما بين نظام الحكم المباشر وغير المباشر ونظام المحميات ومستعمرات التاج وغيرها من النظم التي سيطرت بها هذه الدول على مناطق مختلفة من القارة الأفريقية وكانت

البلدان العربية قد سقطت تحت سيطرة هذه القوي الذي تحكمت في ثروات عالمنا العربي حتى الحرب العالمية الأولي التي تركت أثارا خطيرة على مستقبل المنطقة العربية خاصة بعد هزيمة ألمانيا وخروجها من صلبة الصراع، وظهور الولايات المتحدة التي تقدمت إلي مصاف الدول العظمى، فضلا عن الثورة الروسية والانتكاسات التي حلت بالدولة العثمانية وبلغاريا والنمسا، وكل هذه كانت مقدمات للركود العالمي وتداعياته على العالم في عام ١٩٢٩. (٣)

وخلال العقدين الأخيرين من القرن العشرين طرأت أشياء جديدة على ظاهرة العولمة ومنها :

أولا : انهيار أسوار عالية كانت تحتمي بها أمم ومجتمعات من تيار العولمة ، ومن ثم اكتساح تيار العولمة مناطق كانت معزولة، وجاء انسحاب المعسكر الاشتراكي من المنافسة بعد تحطيم سور برلين، وانهيار الإتحاد السوفيتي، وصارت الولايات المتحدة تنهج سياسة رأسمالية هجومية ذات رؤيا إدراكية عليا في عالم يعاني من أزمة الهوية، ونظام دولي غير واضح المعالم. وقد بدأت ملامح هذا النظام العالمي الجديد باستعمال القوة العسكرية لردع كل من تخول له نفسه من الدول الكبيرة والصغيرة معارضة الهيمنة الأمريكية العسكرية والاقتصادية .

إن العالم العربي بدأ يتطلع إلي سرعة الأحداث التي عرفتها أوربا الشرقية وإنفراد الولايات المتحدة بسلطة القرار، والتي أدت إلي تهميش المنظمات الدبلوماسية الأوربية، وقد تجلى هذا في حرب الخليج الثانية التي أذهلت الجميع. (٤)

لقد ظهرت بعد ذلك مطالب الدول النامية ونشوء المجموعة الاقتصادية الأوربية إضافة إلي بروز ألمانيا واليابان، ثم بلدان أسيا الجنوبية والشرقية لتمنع الرؤيا والسيطرة الأمريكية أحادي الجانب، الأمر الذي جعل الحديث ينصب على استكشاف فرص بقاء أو زوال النظام العالمي الجديد بوصفة الإطار السياسي لدعوة العولمة. (٥)

ثانيا : الزيادة الكبيرة في تنوع السلع والخدمات التي يتم تبادلها على مستوى العالم، ولم تعد صادرات أي دولة أقل تحضرا ونموا تنحصر في مادة أولية واحدة كما كان الحال في الحقبة الاستعمارية، بل تعددت هذه الصادرات وتنوعت الواردات.

ثالثا : تبادل المعلومات والأفكار بحيث صارت هي العنصر الغالب مع استمرار تبادل السلع ورءوس الأموال كعنصر مسيطر على العلاقات الدولية، التي أصبحت فيها الشركات متعددة الجنسيات هي الوسيلة الأكثر فعالية ونشاطا في تحقيق هذا الانتقال للسلع والمعلومات والأفكار. وكما حلت الدولة محل الإقطاع منذ خمسه قرون، فقد حلت الشركات متعددة الجنسيات محل الدولة ولم تعد حدود الدولة القومية هي حدود السوق الجديدة، بل أصبح العالم كله مجالا للتسوق والتسويق، مع تسويق أفكار ومعلومات جديدة. ولقد أصبحت الشركات المنتجة تقفز فوق أسوار الدولة المنيعة والتي أصبحت من وقت إلي أخر أسواقا شكلية سواء تمثلت في حوافز جمركية أو حدود ممارسة السياسات النقدية والمالية.(٦)

لقد حاولت الاستراتيجية الأمريكية بعد انهيار الاتحاد السوفيتي أن تجعل من المنطقة العربية ساحة الاحتفال بتنصيب نفسها قائدة للنظام العالمي الجديد وعلى إنقاذ النظام العربي والاشتراكي بعد أن اختلقت مشكلة بين العراق والكويت وظلت تغذيها حتى انتهت اجتياح الجيش العراقي لدولة الكويت الذي أعطي مبررا لتدميره وتدمير البنية التحتية العراقية وأرجعت شعب العراق إلي العصور الوسطي وتنفست إسرائيل الصعداء بعد أن أزيح كابوس النظام العربي كله وحققت الولايات المتحدة الاستراتيجية من الحرب . لقد كانت السياسة الأمريكية تهدف إلي تحقيق عدة أهداف منها :

١- حماية المصالح الأمريكية والسيطرة على منابع النفط، وتصديره وممارسة الضغوط على الدول المستوردة له .

٢- أبراز جبروتها وقدراتها في قيادة النظام العالمي الجديد من خلال حشد

قوة أكثر من ثلاثين دولة ضمها التحالف الدولي ضد العراق

٣- أجراء التجارب على أسلحتها الحديثة التي لم يسبق ظهورها من قبل وفي معركة حية أرادت بها إرهاب الدول القوية المشاركة لها في التحالف قبل غيرها

٤- تدمير الجيش العراقي وإخراجه من حساب القوة العربية الشاملة تحقيقا للأهداف الصهيونية التي كانت ترى في وجوده القوة التي تشكل خطرا عليها قبل حرب الخليج الثانية .

٥- ضرب النظام العربي وتكريس شرعية الكيان الصهيوني في المنطقة من خلال النظام الإقليمي الشرق أوسطي الذي يعتبر نواة العولمة الأمريكية .

٦- إصدار شهادة الوفاة للنظام العربي من خلال دمجه ضمن دول معادية للعرب وموالية للولايات المتحدة حتى تضمن سيطرتها على المنطقة وإحكام قبضتها على ثروتها النفطية والنقدية والتي وصلت إلي ٨٠٠ مليار دولار في البنوك الأمريكية

٧- التحكم في الموقع الاستراتيجي الذي يتمتع به الوطن العربي والسيطرة على مداخل بحار ومحيطات العالم من خلال إحكام سيطرتها على مضيق باب المندب وقناة السويس .(٧)

إن الغرب ينظر إلي العرب على أنهم مسلمون وأن الإسلام نفسه وليس المتطرفون هم الذين يشكلون خطرا على الحضارة الغربية، وتاريخ الإسلام خلال أربعه عشر قرن يؤكد بأنه خطر على كل حضارة واجهها خاصة المسيحية، ويقول صمويل هينتجتون أنه مادام الإسلام سيبقي إسلاما وليس هناك أدنى شك في هذا ،ومادام الغرب سيبقي غربا، ولا يتوقع أحد أن يصبح الغرب شرقا سيظل الصراع قائما بينهما كما ظل لأربعة عشر قرنا.(٨)

إن هذا الكاتب الأمريكي يدعو إلي عدم الاكتفاء بمفهوم الصراع، بل لابد من تحول هذا الصراع إلي مواجهه وذلك للأسباب التالية:

١- الزيادة المستمرة والهائلة في عدد المسلمين في كل أقطار العالم .

٢- الصحوة الإسلامية والتمرد على السيطرة والثقافة القادمة من الغرب .

٣- زيادة النفوذ العسكرى والثقافي للدول الغربية .

٤- سقوط الاتحاد السوفيتي ونهاية الشيوعية .

لقد أصبحت الأمة العربية مكشوفة حضاريا مقتولة معنويا لا تكاد تجد ما يستر عيوبها ولا ما يرفع معنوياتها في سباق التقدم العلمي والتقني حتى أن مفهوم الإبداع عند الأمة يظل مقصورا في تفكيك الثوابت وتقليد الغرب. (٩)

إن الواقع خطير، في حالة استمرار التخلف العربي في الوقت الذي يركض فيه الآخرون بخطي هائلة على مدارج النمو والتقدم وامتلاك التكنولوجيا التي لا يملكها العرب.(١٠)

إن البلدان العربية عندما تدخل ملعب العولمة فإنها تلعب خلف المرمي وليس أمامه، أما الآخرون فإنهم يلعبون في وسط الملعب بل هناك من يتقدمون إلي الأمام، وأمتنا لا تزال تقلد وتحاكي الغرب، وبالطبع فإن هذا الوضع سوف يؤثر على ثرواتنا ومجتمعاتنا في الفترة القادمة.

والسؤال الآن: كيف تحافظ أمتنا العربية على تراثها وثقافتها العربية وخاصة اللغة العربية لغة القرآن الكريم والسنة النبوية.

ثانيا : التراث العربي وتطوره الفكري :

لقد حفظ الله هذه اللغة لأنها لغة القرآن الكريم نزل بها فأعزها وصارت لغة خالدة رغم حقد الحاقدين، وتآمر كل الذين لا يؤمنون بهذا الدين، ورغم أن المنطقة العربية قد تعرضت للحكم العثماني أكثر من أربعة قرون إلا أن هذا الحكم كان مسطحا، ولم يتدخل في حياة الشعوب الإسلامية والعربية، فحافظ هذا على هذه اللغة التي صارت ينبوع الثقافة والفكر، وزاد من قيمة هذه اللغة ودعمها ذلك الدور الكبير الذي يقوم به الأزهر الشريف، وجامع الزيتونة، ومسجد القرويين للحفاظ على هذه اللغة وتطورها، ولا تزال هذه اللغة مزدهرة

وتضارع كافة اللغات العالمية . [١١]

لقد لعب العرب دورا خاصا في تاريخ الإسلام وفي بنائه السياسي، وقام الرسول بنشر العقيدة الإسلامية عن طريق اللغة العربية وقام العرب بالفتوحات الإسلامية التي نظمت صفوف القبائل في مجهود واسع مشترك، ولقد توفرت لدى عرب الفتوحات قوة دفع إيجابية لأنهم كانوا يشعرون عن اعتقاد راسخ بأنهم أصحاب رسالة عالمية خصتهم العناية الإلهية بشرف تأديتها، وأنهم أصحاب دور تاريخي عليهم أن يقوموا به، وكان اعتقادهم بالقيام بهذا الدور التاريخي من العوامل الأساسية التي صبغت المنطقة التي عرفت فيما بعد باسم العالم العربي بالطابع الحضاري العربي على أثر الفتوحات العربية. [١٢]

لقد سادت اللغة العربية في الدواوين والإدارة، وانتشرت اللغة واضمحلت اللغات المحلية في كل المناطق غربي فارس، وتبلورت فكرة العروبة، واستند العرب إلي رابطة اللغة ووحدة الثقافة والدور التاريخي ولقد أوضح الثعالبي (المتوفى عام ١٠٣٨م) في كتابة فقه اللغة "ومن أحب الرسول أحب العرب، ومن أحب العرب أحب اللغة العربية التي نزل بها أفضل الكتب ومن هداه الله إلي الإسلام اعتقد أن محمدا رسول الله خير الرسل، والعرب خير الأمم، والعربية خير اللغات. [١٣]

وطوال عصور التخلف وغزو الدول المختلفة والمنطقة العربية فإن علماء المسلمين مارسوا أدوارهم وحافظوا على ثروات العرب من خلال إصدار الفتاوي والقيام بنشاط ثقافي كبير. [١٤]

ولا تنس الدور الذي قامت به الدعوة الوهابية التي طالبت بالعودة إلي الكتاب والسنة كمصدر للتشريع، فكانت حركة مباركة ساعدت على نشر اللغة العربية والحفاظ على التراث الإسلامي والعربي وتكاتف العلماء بحثا عن كتب السلف الصالح، فكانت ثورة فكرية حافظت على ثقافتنا القومية، وشاركت هذه الدعوة الإسلامية في إنشاء الزوايا الصوفية التي صارت ركائز للعلم والمعرفة ،

وحافظت على التراث الإسلامي والعربي (١٥)

لقد تعرضت المنطقة العربية إلي غزو أوربي تجسد في الحملةالفرنسية على مصر عام ١٧٩٨، وما تلاه من محاولات للقضاء على التراث العربي والإسلامي، ورغم أن عمر الحملة كان قصيرا إلا أنها نجحت في إطلاع مصر وانفتاحها على الغرب والذي تجسد في إدخال المطبعة إلي مصر، وكشف رموز حجر رشيد الذي صار بداية النهضة واللغة المصرية القديمة، واحتكاك مصر بالغرب الذي ارتبطت به المنطقة العربية بأسرها.(١٦)

لقد أثبتت اللغة العربية جدارتها على مر العصور وشهد تاريخ الفتح الإسلامي على سرعة انتشارها واندماجها في بيئات لغوية متباينة ولقد نجحت العربية في عصور الازدهار أن تكون إدارة فعاله لنقل المعرفة، حتى قال القائل "عجبت لمن يدعي العلم ويجهل العربية". (١٧)

ومن منظور فقه اللغة، تتسم اللغة العربية بالعديد من الخصائص الجوهرية التي تؤكد عالميتها، ومن أهمها التزامها بالقاعدة الذهبية فيما يخص التوسط والتوازن اللغوي، فالعربية تجمع بين كثير من خصائص اللغات الأخرى على مستوى جميع فروعها اللغوية كتابة وأصواتا وصرفا ونحوا.

وفي ظل العولمة وثورة المعلومات تتعرض اللغة العربية أساس التراث العربي لحركة تهميش نشطة، وتشارك العربية معظم لغات العالم، إلا أنها تواجه تحديات إضافية نتيجة للحملة الإعلامية التي تشنها العولمة ضد الإسلام، وبالتالي ضد العربية، نظرا إلي شدة الارتباط بها.(١٨)

تزداد أهمية تعريب العلوم مع تفهم المادة العلمية حيث تساعد اللغة الأم على زيادة معدل الاستيعاب ورسوخ المفاهيم في ذهن المتعلم هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن اكتساب المتخصصين لمعارفهم بلغات أجنبية دون روابط من اللغة الأم يجعل من الصعوبة بمكان إقامة حوار بينهم وهو الوضع الذي يتناقض في جوهره مع ما نلحظه من تزايد النزعة نحو تداخل مجالات المعرفة، وتبادل

النهج العلمي وتلاقحها .

ولا شك أن لغتنا العربية هي الدرع الواقي أمام جحافل الغزو الثقافي في عصر المعلومات، كما يعد الاحتكاك اللغوي من أهم جوانب الاحتكاك الثقافي، وهي بلا شك أكثرها مباشرة، يشمل الاحتكاك اللغوي أمورا عديدة من قبيل الترجمة والقواميس الثنائية والمتعددة اللغات واقتراض الألفاظ والرموز اللغوية الأخرى، وتعلم اللغات الأجنبية، ودراسة أثر الترجمة على اللغات المترجم إليها.

ثالثا : التراث العربي وتحديات الاستعمار الأوربي :

إن الحضارة الإسلامية كانت تقوم في بعض جوانبها على الاتصال الإعلامي منذ نزول القرآن الكريم على تفاعل المجتمع الإسلامي مع نفسه، وأوجدت توافقا وانسجاما بين حضارة الأمة الإسلامية ولغتها العربية التي تمكنت عن طريق الاتصال والتفاعل الاجتماعي من أن تكون مرنة التعبير واسعة الثروة في المفردات، سهلة اللغة عذبة الأصوات، سهلة النطق، خفيفة الوقع على السمع، قل في كلماتها الحروف غير المتحركة ولا يكاد يجتمع في مفرداتها ولا في تراكيبها مقاطع متنافرة، ولا يلتقي في ألفاظها ساكنان.(١٩)

وعندما نكبت الأمة العربية في أواخر القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين بتلك الموجة من الاستعمار الأوربي، والتقيد الاستعماري لم تسلم دولة واحدة من هذا التكالب الاستعماري الذي حاول فرض هيمنته وسطوته مستغلا هذا الاحتلال في محاولات محمومة لفرض الثقافات واللغات الأوربية، وشهدت المنطقة العربية أيضا محاولات فرنسا لفرض الثقافة الفرنسية، ومحو الثقافات المحلية فيما عرف باسم سياسة الاستعمار Assimilation ومشاركة النخبة elite وهي محاولات كان الهدف والمغزى الأساسي منها هو محو الثقافة العربية الإسلامية، وإدخال اللغة الفرنسية باعتبارها اللغة الأساسية، وإذا كانت هذه السياسة قد نجحت في دول أفريقيا جنوب الصحراء إلا أنها فشلت في هذا المجال في العالم العربي الذي تسلح باللغة العربية، وباءت كل محاولات فرض الثقافة

الفرنسية، ونجحت اللغة العربية في الوقوف بحزم أمام هذه المحاولات الاستعمارية. (٢٠)

حاولت انجلترا أيضا فرض ثقافتها ولغتها الإنجليزية في مناطق الاستعمار البريطاني، وطبقت سياسات الانتداب والمحمية ونظام الحكم البريطاني غير المباشر في محاولة لفرض سياستها، ومحو الثقافات المحلية، لكن بفضل صلابة اللغة العربية نجح العرب في الحفاظ على تراثهم العربي، وفشلت كل القوى الاستعمارية في فرض ثقافتها الأجنبية، وظلت الثقافة العربية والتراث العربي الإسلامي يحتفظ بكيانه في كل الأقطار العربية رغم هذه المحاولات المضنية من جانب القوى الاستعمارية لمحو هذه الثقافة العربية وهذا التراث العربي حتى نالت هذه الشعوب استقلالها، ورحل المستعمر الأوربي من المنطقة دون أن ينال من تراثها وحضارتها التي استمرت في الازدهار والنمو والسمو في فترة الحرب الباردة بل وحتى في عصر القطبية الأحادية بزعامة الولايات المتحدة .

ولقد رحبت اللغة العربية بالكثير من الألفاظ الحضارية، واستغلتها في المصطلحات العلمية، ولغة الكلام لأن اللغة العربية من أغنى اللغات الكبرى تراثا، وأطولها عمرا، وأبقاها على الزمان اتصالا. (٢١)

وتعمل وسائل الإعلام الحالي عن وعي على التقريب بين البلاد العربية والإسلامية وذلك بتقويم الألسنة الفصيحة، وجعلها مسايرة للحياة.

لقد حاول رجال الحركة القومية العربية الحفاظ على تراثنا العربي وسط هذه الموجات المتلاحقة حتى جاء القرن العشرون، وظهرت مجموعة من المفكرين الذين أثروا ثقافتنا العربية أمثال رفاعة الطهطاوي الذي أفاد كثيرا في مجالات التعليم والترجمة، وألف كثيراً من الكتب التي خصص فيها فصولا للحديث عن الوطن والمواطنة وحاول في كتابه، تخليص الإبريز في تلخيص باريز. بعض النظريات السياسية، ومهد الطريق للتخلص من الولاء لسلطان الدولة العثمانية. (٢٢)

لقد ظهر أيضا من أعلام هذه اليقظة الفكرية رجال حاولوا الحفاظ على تراثنا العربي وثقافتنا الإسلامية أمثال أحمد فارس الشدياق (١٨٠٤ – ١٨٨٧) والذي حاول إثبات تفوق اللغة العربية وكانت مجلة الجوانب "أول صحيفة عربية ذات شأن مما جعل باى تونس ثم السلطان يطلب الاستعانة بها للدفاع عن العرب والعروبة، وظهر أيضا بطرس البستاني (١٨١٩ – ١٨٨٣)الذي تلقي علوم اللغة العربية ولغات أخرى، كما ظهر أيضا نصيف اليازجي(١٨٠٠ – ١٨٧١) وهو من مشاهير البلاغة في لبنان، وقد حاول هؤلاء الرواد تزعم حركة اليقظة الفكرية ونشر العلوم باللغة العربية، وازدراء عدد العلماء والأدباء، بل هاجر الكثيرون منهم، واحتضنت مصر نخبة منهم مثل سليم تقلا(١٨٤٩ – ١٨٩٢) الذي أسس جريدة الأهرام التي كانت ولا تزال حتى اليوم كبرى الجرائد العربية هذا إلى جانب مجموعة من المفكرين العرب أمثال عبد الرحمن الكواكبى (١٨٤٩ – ١٩٠٣) وهو أحد قواد الحركة الفكرية العربية التي حاولت الحفاظ على تراثنا العربي، وحاول في كتابة أم القرى الذي نشرت عام ١٩٠٠ تحليل مفاسد الدولة العثمانية وتخلفها ورأى أن يكون العالم الإسلامي تحت لواء الخلافة بشرط أن يكون الخليفة عربيا قرشيا، وأن يكون مركزه مكة (أم القرى) ودعا إلي إقامة خلافة عربية .

لقد آمن الكواكبي بالعروبة وأيقن بخلود الذات العربية والتراث العربي الإسلامي، وكان يقول: إن العرب أقدم الأمم إتباعا لأصول تساوى الحقوق، وتقارب المراتب في الهيئة الاجتماعية والعرب أعرق الأمم في أصول الشورى في الشئون العمومية، والعرب أهدى الأمم لأصول المعيشة وهم أحرص الأمم على احترام العهود، واحترام الذمة، واحترام الجوار، وبذل المعروف. (٢٣)

لقد استمر هذا التراكم الفكري لعلماء ومؤلفين على كافة الأصعدة العربية، وظهرت كتابات عبد الحميد بن باديس وطه حسين، خير الدين التونسي، وعباس محمود العقاد، وتوفيق الحكيم، ونجيب محفوظ وغيرهم من المفكرين القرن الذين

أثروا الثقافة العربية بمؤلفاتهم التي حافظت على التراث العربي الإسلامي، وواصل رواد الفكر العربي دورهم الواضح لمواجهة التحديات التي تواجه أمتنا العربية بعد الحرب العالمية الثانية، والحرب الباردة ثم عصر العولمة والقطبية الأحادية من جانب الولايات المتحدة، وظهور ثورة المعلومات والتكنولوجيا وأخيرا ظهور شبكة الإنترنت الذي حملت معها ما يسمي بإرهاب عصر المعلومات بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ والتي حاولت الولايات المتحدة توسيع تعريف مصطلح الإرهاب ليشمل الإرهاب المعلوماتي على اختلاف صنوفه ودوافعه، وظهر الإرهاب ضد الفرد، وضد المؤسسات بل وضد الدول حيث يمكن من خلال هذه الشبكة الدولية النفاذ إلي شبكات التحكم في المرافق العامة مما يتسبب في الشلل التام للبنية التحتية الأساسية، بل واحتمال بتدميرها بالكامل، وصارت الدول معرضة لما نطلق عليه. أسلحة التدمير الشامل باستخدام الأسلحة البيولوجية المعلوماتية المتمثلة في جيوش الفيروسات التي تخترق حدود الدول لتشيع الخراب والفوضى في أرجاء البنية المعلوماتية. (٢٤)

لقد أنشأت الإنترنت فضاء جديدا، فضاء المعلومات الذي تسكنه الجماعات، وتقام فيه المؤسسات والمتاحف والمعارض، ومنافذ البيع، وتمارس فيه الصفقات، وتعقد التحالفات، وتحاك المؤتمرات وتنقل عبر طرق معلومات فائقة السرعة الثقافة من كتب وموسيقي وأفلام وصور ولوحات.

لقد تزامنت هذه النقلة التقنية النوعية مع نقله نوعية أخرى في مفهوم الثقافة ودورها، ولقد تضخم هذا المفهوم بعد أن أصبحت الثقافة هي محور عملية التنمية الاجتماعية، وبعد تحولها من نشاط هامش يؤازر التنمية أو يعوقها إلي نشاط رئيسي وقاسم مشترك ما بين جميع قطاعات المجتمع دون استثناء، ولقد ارتقت الثقافة من كونها وسيلة لتحقيق الغايات لتكون هي الغاية ذاتها حيث تحولت الثقافة إلي واحدة من أهم الصناعات الاستراتيجية التي تحكم موازين القوى عالميا. (٢٥)

إن الثقافة الجديدة التي أطلق عليها ثقافة الإنترنت قد أحدثت نقله نوعية حيث أضافت معرفة جديدة ومعايير أخلاقية جديدة، ومؤسسات ثقافية جديدة قادرة على أن تدير صناعة الثقافة بأسلوب يختلف عن إدارة المصانع والمتاجر وهذا فضلا عن إبداع ثقافي جديد يستوعب تقنيات المعلومات والاتصالات الحديثة، مع ظهور إعلام جديد، وفكر إنساني جديد يؤمن بأن التغيير هو الثابت الوحيد باستثناء ثوابت العقيدة، فكر لا يختزل الواقع حتى يدين لقدراته، بل يقبل الواقع كما هو بتعقيداته واحتمالاته.

إن الإنترنت تقدم لنا علاقات اجتماعية جديدة ما بين المؤسسات الثقافية، وما بين الفئات الاجتماعية، وما بين الأفراد بعضهم البعض، وبين ما يشكل بينتهم الاجتماعية على اتساعها أي علاقات يسودها طابع المرونة، وتضع أولويات تحقيق الأهداف فوق شكلية التنظيمات والبيروقراطيات، أي علاقات لا تصبو دوما نحو إجماع الآراء، تعضيد الأقلية ضد هيمنة الأغلبية، وتستأنس المعارضة وتعدد الآراء وتباينها.

إن ثقافة الإنترنت قد نشأت في رحم المؤسسة العسكرية الأمريكية في ظل الحرب الباردة للوقاية ضد هجوم ذرى مفاجئ يشنه عليها الاتحاد السوفيتي وها هي الآن تحولت إلي ساحة للحوار الإنساني يزعم البعض أنها ستؤدى إلي ثقافة السلام وإلي خلق مناخ عالمي يسعى إلي إقامة الوفاق والإجماع من خلال قبول الاختلاف وكسر الحواجز اللغوية، وطرح المسلمات، والتخلص من انحيازات الجنس واللون والعقيدة، وبعبارة أخرى خلق بيئة إعلامية عامة تصبو نحو شفافية معرفية خالصة يهتدي فيها الجميع إلي الأصدق والأفضل والأمثل والأعمق من خلال الترشيح المستمر والتهذيب المتنامي للأفكار والنظريات والتآلف بين وجهات النظر المتباينة وذلك من خلال توحيد المفاهيم ومعرفة الخلفيات ، وتبادل المواقع والأدوار .

رابعا : طرق مجابهة التطور التكنولوجي :

لقد تعقدت إشكالية الثقافة، وتعاظمت أهميتها إزاء كم المتغيرات الحادة التي تشهدها الساحة الثقافية والناجمة عن سلسلة التفاعلات النوعية التي أحدثتها وتحدثها ثقافة المعلومات. أما بالنسبة للثقافة العربية فالأمر أكثر صعوبة نتيجة للأوضاع الخاصة التي تمر بها معظم مجتمعاتنا العربية والتي حاصرتها الثقافة في حيز المناطق الملتهبة أو المناطق المحرمة

إن منظري الثقافة العربية يواجهون موقفا عسيرا للغاية علاوة على كونه مستجدا وغير مسبوق في معظم جوانبه، وهو الأمر الذي يوجب تجديد العدة المعرفية من أجل أن يصبح واقعنا الثقافي أكثر واقعية وشمولا وتأصيلا وتجاوبا مع الواقع الراهن، وأكثر قدرة على وصول ماضيه بحاضره فكرا ومنهجا لا فرضا وقسرا. (٢٦)

إن العرب مطالبون في هذه الأيام بالحفاظ على تراثهم وثقافتهم العربية، ومواجهة التحديات التي تحاول طمس الهوية العربية والإعلام العربي وذلك من خلال العديد من الإجراءات التي تكفل تضامننا، وتحافظ على هويتنا، وأن نبتعد عن الخلافات الأيديولوجية والتركيز على ما يخدم الإعلام والثقافة كرسالة مقدسة مع تحرير كل وسائل إعلامنا وثقافتنا وتراثنا من التبعية لإحدى الدول الكبرى ولن يتحقق ذلك إلا بعد القيام بما يلي :

أولا : الاعتماد على النفس، والحفاظ على الهوية العربية، والخصوصيات التراثية في كل الأقطار العربية، وأن تقدم مراكز تحقيق التراث بعقد الندوات والمؤتمرات العلمية العربية التي تناقش كل القضايا التي تواجه الحفاظ على هذا التراث العربي، وأن تجهز المعارض والمتاحف العربية التي تجسد التراث العربي في كل البلدان، وأن يتم التنسيق بين كافة الأجهزة من أجل الحفاظ على تراثنا العربي والإسلامي.

ثانيا : ضرورة مواجهة وسائل الاتصال الجماهرية كالتليفزيون باعتباره

أحدث وسيلة من وسائل الاتصال، وأنه لابد من البحث عن مستقبل لأمتنا العربية، وكيفية مواجهة الشر، وحماية ثقافتنا وتراثنا الفكرى، وتقاليدنا العريقة، وعلى العرب وضع استراتيجية لبرامج تكون أكثر حيوية وجاذبية للمستمع العربي دون الانحطاط بالمستوى الذي يريده الجمهور، ويؤثر على أخلاقياته أن إعلامنا العربي لا يمكن أن ينبع إلا من واقعنا فيأخذ مأخذ الاعتبار لقضيتنا الداخلية التي لا سبيل إلي إنكارها، ويتجه إلي آفاق عديدة لخدمة التضامن العربي، والتركيز على كل ما يقرب ويوحد، وينبذ ما يفرق ويباعد، والتمسك بالواقعية والعراقة في إبداء الرأي، والالتزام بما أجمعت عليه الكلمة، وكل هذا يتطلب استعداد نفسيا وسموا في السلوك واحتراما للمبادئ والقيم العربية. [٢٧]

ثالثا: إن التقدم التكنولوجي الضخم في مجال الأقمار الصناعية والذي تتحكم فيه الدول الكبرى سيقلب الموازين رأسا على عقب، ويهيئ الفرصة لأكثر من أي وقت مضى لتحكم الدول الكبرى في مصير الدول الصغيرة ومنها دولنا العربية، وأنه أمام هذه الثورة التكنولوجية السريعة أن يقوم العرب بثورة أخرى في إعداد ما نقدمه من برامج تستهدف الارتقاء بمستوى الإنتاج بحيث يواكب أعلى نوع من هذا الإنتاج في العالم، مع زيادة حجم المنتج وتنوعه بحيث يتوافق مع رغبات جميع شرائح المجتمع دون استثناء. [٢٨]

رابعا: إن القدرة والمواجهة الحقيقية للغزو الثقافي والفكرى والاجتماعي والسياسي يتمثل في قدرة أجهزة الإعلام والدعاية العربية على تقديم الأعمال الجيدة التي تبرز تراثنا العربي عبر العصور، وتثمن هذا التراث وتجسده في شكل أفلام ومسلسلات تطرح الأفكار الجديدة التي تناقش واقعنا التراثي وسلبياته، وطرق الحفاظ عليه وعرضه بشكل راق بين كافة الأجهزة الإعلامية وأن تكون برامجنا قادرة على استيعاب ثقافة العولمة والإنترنت مع استبعاد كل ما يخالف تقاليدنا وعاداتنا وتراثنا العربي الأصيل.

خامسا : رصد الاعتمادات الكافية للنهوض بكل وسائل الاتصال وأجهزتها حتى تكون قادرة على مواجهة ما يبث من خلال الفضاء لأغراض الإعلام الموجهة لإثارة الفتن والقلاقل بين الجماهير وعلى الدول العربية الدعوة لمنع أي بث إلي أي بلد أخر إذا لم توافق عليه الدولة المستقبلة وفي نفس الوقت تطالب الدول العربية لأن يكون لها فضاء لإطلاق أقمارها الصناعية حتى تستطيع مواكبة الدول الكبرى التي تحتكر الفضائيات الخارجية بما لديها من إمكانيات، وتطور تكنولوجي ضخم وكان لإطلاق القمر العربي الصناعي عرب سات، مردود فعل ايجابي على منطقتنا العربية لأنه يستطيع أن يبث البرامج التي تدعو للتعريف بتراثنا وحضارتنا إن هذه الأقمار الصناعية العربية هي السبيل الوحيد لتلافي تلقي المأخذ الأوربية جميعها غثها وسمينها مع تعظيم مكانه تراثنا وثقافتنا العربية .

سادسا : إن العالم العربي يواجه الكثير من المشكلات والتحديات، ويتطلب الأمر إعلاما قويا يسعى إلي تحقيق أهداف أمتنا وذلك من خلال بعض الوسائل ومنها :

أ- القضاء على الأمية، وغرس الشعور بالواجب، واحترام حقوق الإنسان في وطننا مع تعميق مفهوم الديمقراطية، واحترام ما نصت عليه المواثيق الدولية والمحلية في مجال التفكير والتعبير لكل أبناء الأمة دون تمييز مع تشجيع وسائل الاتصال الشخصي وذلك حرصا على تصحيح الاتجاهات الخاطئة السائدة، (٢٩) والأمر الذي يثير الدهشة أن بلغت نسبة الأمية في منتصف التسعينيات في الوطن العربي مايقدرنحو إلي٤٥– ٥٠% من بين البالغين، وتزايدهذا العددحتى أنه يقدرعدد الأميين في عام ٢٠٠٠ بحوالي سبعين مليون أمي أغلبهم من النساء. (٣٠)

ب- أن تقوم وسائل الإعلام بغرس صورة عن القيم والسلوكيات التي تتفق مع تطلعات الأمة العربية في حماية الحرية وصون العدالة، وتشجيع وسائل الاتصال الشخصي ، وذلك حرصا على تصحيح الاتجاهات الخاطئة ، وتعميق

مفهوم الحفاظ على التراث والقيم الاجتماعية العربية (٣١)

ج- بناء نموذج اتصالي يقوم على المشاركة وذلك بالعمل على تحقيق ديمقراطية الاتصال وتجنب النموذج الرأسي في الاتصال سواء على المستوى المحلي أو الدولي والتأكيد على السمو بالمبادئ العامة ، والقيم العربية والتي تترجم في برامج علمية هدفها التعريف بالحضارة العربية ، والتراث العربي عبر العصور .

سابعا : إن الإعلام العربي يجب أن يضع في اعتباره ضرورة تنمية الثقافة العربية في صورة جماعية والاعتماد على اللغة العربية التي هي لسان ثقافة الأمة وهويتها التاريخية وأساس مناعتها ومخزون تراثنا عبر العصور أنه لابد من خطة قومية متماسكة لخدمة اللغة العربية ، ولقد أثبتت الأبحاث والدراسات التي قامت بها المنظمة العربية للتربية الثقافة والعلوم على أن وحدتنا اللغوية لا تقوم إلا على ٧% تقريبا من مجموع الكلمات العربية التي نستعملها بيننا بينما نحن مختلفون بنسبة ٩٣% من المادة اللغوية إذ تشكل اللهجات الدارجة الجانب الأعظم من لغة الحوار في برامج الإذاعة والتليفزيون والمسرح (٣٢)

ثامنا : إن التحديات التي تواجه أمتنا العربية تتمثل كما ذكرنا في مظاهر أساسية لابد من معالجتها في أول ما نقوم به، إن السوق العربية تعد من أكبر الأسواق العالمية، المجال التقني، ولذا وجب السعي نحو استخدامها كعامل أساسي لخلق قدرات تقنيه عربيه في نطاق العلاقات العربية الاقتصادية والثقافية والتراثية، ويجب البحث عن حلول لمشاكلنا الخاصة، ومد جسور التعاون الاقتصادي بيننا ، وأنه لابد للمؤسسات التنموية العربية وضع استراتيجية إعلامية تهدف إلي توضيح أثر المساعدات المبذولة من الجانب العربي، وإبراز أهمية مساهمات الدولة النفطية للنهوض والمساعدة في الحفاظ على التراث العربي وأثار أمتنا والتي تحكي تاريخنا الطويل وتقاليدنا الأصلية، ونضالنا عبر قرون التخلص من التبعيةوالغزوالأجنبي سواء كان في جانبه العسكري أوالتقني.

لقد صدق الأستاذ إبراهيم نافع رئيس تحرير الأهرام في عموده "حقائق" حيث قال بأن العرب يتعرضون لمخاطر متعددة الأطراف، ولم تعد هناك دولة صغيرة أو كبيرة بعيدة عن دائرة هذا الخطر، نتيجة لانحراف المزاج السياسي لبعض القوى المهيمنة على مقدرات عالم اليوم. والعرب ليسوا في حاجة إلي ترك الخلاف في وجهات النظر إذا أخذنا في اعتبارنا أن الخلافات الصحيحة جزء من عملية الحوار السياسي. (٣٣)

الخاتمة

بعد هذا العرض السريع لطبيعة منطقتنا العربية وتراثها الثقافي والحضاري، وقيمها وتقاليدها التي ترسخت عبر قرون من الزمان، وبعد أن استعرضنا التحديات التي تواجهها منذ فجر التاريخ والقوى الأجنبية التي احتلت بلادنا، وحاولت طمس هويتنا وثقافتنا، وبعد أن تحدثنا عن لغتنا العربية التي هي مخزون تراثنا، ومحاولات النيل منها في عصور التاريخ المختلفة وخاصة في القرن العشرين والقرن الحالي، وبعد أن تحدثنا عن التحديات التي تواجهنا في ظل العولمة والسيادة القطبية للولايات المتحدة التي أعادت للمنطقة عصور الاستعمار العسكري بغزو الطرق، وتحطيم البنية الأساسية به وبعد تدمير جانب كبير من تراث العراق الإسلامي والعربي، وبعد أن أخذت تعربد في المنطقة وهي تؤيد دولة إسرائيل التي تفتك يوميا بأبناء هذه الأمة في فلسطين، وتدمر المقدسات، وتأتي على الأخضر واليابس، وتنتهك، حرمات إخوة مسلمين عرب في فلسطين وإذا كان العراق قد أصبح قضية جديدة بعد فلسطين فإننا الآن في حاجة إلي إدراك المخاطر قبل وقوعها لأن التهديد للعرب يحدث كل يوم، وهو الأمر الذي يدعو الرؤساء العرب إلي إدراك هذا الخطر وهم مقدمون على قمة عربية في تونس في شهر مارس ٢٠٠٤، ويلهمهم إدراك المسئولية وتحمل عبء هذه المرحلة التي يحاك لأمتنا خلالها كل ما يدمر حضارتها، ويقضي على تراثها العربي العريق

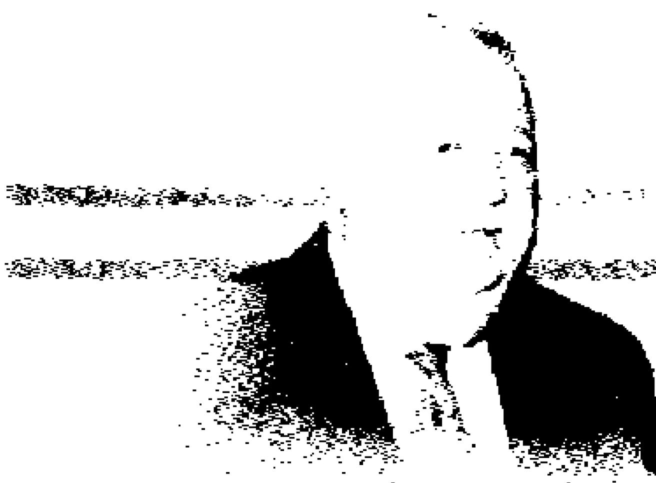
إن على العرب ألا يكونوا متفرجين في ظل الخضم المتسارع كما كان الحال في الماضي، فالأمر مختلف جدا، وإذا كانت مواقفنا قد انتهت إلي استعمارنا من قبل القوى الأجنبية التي نهبت خيراتنا، وسلبت ثرواتنا، ودمرت مقدساتنا، وسرقت كنوزنا التاريخية، ولم تتوقف عند هذا الحد بل زرعت كيانا وخلية سرطانية في قلب أرضنا نراها تعربد كل يوم، فتقتل الأبرياء، وتدمر مساكن المسلمين ، وتقضي على الزرع والضرع ، وتبيد أقواما من أمة العرب التي آمنت بربها .

إن عصر العولمة إذا بقينا على حالنا وسابق عهدنا سوف يقضي بنا إلي القضاء على وجودنا وكياننا القومي ، وهويتنا الثقافية في عالم مجنون تحكمه أشباح من الشركات المتعددة الجنسية إنه لا سبيل لنا في البقاء والحفاظ على قيمنا وتراثنا وهويتنا العربية إلا بالعلم وإصلاح منظومة التعليم العربي لتواكب كل التطورات وأن تكون لغتنا العربية هي سلاحنا في هذا المضمار قبل أن يفوت الآوان ، ونتباكى على ما قد كان ، ونضيع بأيدنيا ما بذله أجدادنا من الغالي والنفيس في سبيل وضع لبنات هذه الحضارة الإسلامية ، وهذا التراث الإنساني العربي الذي يظل شاهدا على مكانة أمتنا رغم كيد الأعداء ، ورغم تربص أصحاب الأهواء، ورغم هذه العولمة التي تريد أن تكون صاحبة القول الفصل في كل شيء .

مكتبــة البحث

١- غسان العربي : في جدور العولمة وإشكالياتها . مجلة منير الحوار، العدد ٣٧ عام ١٩٩٩ .
٢ - فاروق عثمان أباظة عدن والسياسة البرتغالية في البحر الأحمر القاهرة ١٩٨٧، ص ٥٣ .
٣ - محمد على حوات العرب والعولمة ، شجون الحاضر وغموض المستقبل ، القاهرة، ٢٠٠١ ، ص ٢٢
٤- اسعد عبد المجيد : في كتاب العرب ونظام عالمي جديد ، مركز ودراسات وبحوث الدول النامية ، القاهرة ١٩٩١ ، ص ٣١٥ .
٥ - عبد العظيم حماد · الاتجاهات المضادة للعولمة ، مجلة المصرفة العدد ٥٤٦ ، ابريل ، مايو ١٩٩٩ ، ص ٢٦ .
٦ - محمد على حوات . العربي والعولمة : ص ١٢٦ .
٧ – مرجع أجنبي
٨ – من حديث لصمويل جنتجتون أجراه في واشنطن محمد على صالح مجلة المجلة، العدد ٨٩٦ ص ص ١٣ – ١٩ ، ١٩٩٧ .
٩ – محمد على حوات : مرجع سابق ، ص ١٣٥ .
١٠- فوزي حماد : لكي نتجنب مصير الهنود الحمر ، مجلة المصور عدد ١٩٩٩/٢/١٩
١١- عمـر عبـد العزيـز عمـر : المشـرق العربـي ١٥١٦ – ١٩٢٢ بيـروت ١٩٨٤ ، ص ص ٤٠٦ – ٤٠٩ .
١٢- شوقي الجمل وعبد الله عبد الرازق : معالم تاريخ مصر الحديث القاهرة ١٩٩٨، ص ١٤٠ وما بعدها
١٣- عمر عبد العزيز عمر : مرجع سابق ، ص ٤١٠ .
١٤- عادل حسن غنيم وآخرون : تاريخ العرب الحديث ، الدوحة ١٩٨٧ ، ص ١٤٥ .
١٥- عبد الله عبد الرازق إبراهيم : الزاوية السنوسية مركز إشعاع ثقافي أفريقيا ، مجلة اتحاد المؤرخين العرب عدد نوفمبر ٢٠٠١ .
١٦- شوقي الجمل وعبد الله عبد الرازق : تاريخ مصر الحديث والمعاصر ، القاهرة ٢٠٠٣ ، ص ص ١١٨ – ١١٩ .
١٧- نبيل على : تحديات عصر العولمة ، مكتبة الأسرة القاهرة ٢٠٠٣ ، ص ٤٦ .
١٨- طارق البشرى : العرب في مواجهة العدوان ، مكتبة الأسرة ، القاهرة ٢٠٠٣ ، ص ١٨
١٩- عبد العزيز شرف : الإعلان الإسلامي وتكنولوجيا الإتصال القاهرة ، ١٩٩٨، ص ١٠١
٢٠- شوقي الجمل وعبد الله عبد الرازق : تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر ، القاهرة ١٩٩٩ ، الفصل الخامس بالاستعمار الفرنسي في إفريقيا . ص ص ٢٧٧ – ٣٠٧ .
٢١- عبد العزيز شرف · الإعلام الإسلامي ، ص ١٠٨
٢٢- عمر عبد العزيز : مرجع سابق ، ص ٤٢٠ .
٢٣- عبد الرحمن الكواكبي : أم القرى ، القاهرة ١٩٠٠
٢٤- نبيل على : مرجع سابق ، ص ٢٤٩ .
٢٥- نبيل على مرجع سابق ، ص ٢٥٦ .
٢٦- نبيل على : مرجع سابق ، ص ٢٦٣ .
٢٧- مصطفي المصمودى : النظام الإعلامي الجديد ، عالم المعرفة ، الكويت ، العدد ٩٤ أكتوبر ١٩٨٥ ، ص ٢٦٦ .
٢٨- محمود متولي ولطفي عبد القادر : الإعلام وحرية المجتمع في موكب التاريخ ، القاهرة ١٩٨٧، ص ١٦٨ .

٢٩- محمد على حوات : العرب والعولمة ، شجون الحاضر وغموض المستقبل ، القاهرة ٢٠٠٢ ، ص ١٤٤ .
٣٠- عواطف عبد الرحمن : قضايا التبعية الإعلامية والثقافية في العالم الثالث ، العدد ٧٨ لعام ١٩٨٤ ص ٢٦٤ .
٣١- عبد العزيز شرف : الإعلام الإسلامي وتكنولوجيا الاتصال ، ص ١٩٦ .
٣٢- مصطفي المصمودى : مرجع سابق ، ص ٢٧٠ .
٣٣- انظر جريدة الأهرام العدد ٤٢٨٠٤ في ٥ فبراير ٢٠٠٤ ، ص ٤٠ عمود : إبراهيم نافع : حقائق .



أم كلثوم وتطور فن الغناء العربى

أ.د. عبد المنعم إبراهيم الجميعى .
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
كلية التربية بالفيوم- جامعة القاهرة

قدم التخت الشرقى بعد سيد درويش عبقريات غنائية فذه لأمثال فاطمة البلتاجى[1](١٨٩٩-١٩٧٥) الشهيرة بأم كلثوم[2] صاحبةالموهبة الفذة، وابنة الشعب الكادح من الفلاحين الفقراء والتى استطاعت بموهبتها المقترنة بثقافتها التى كونتها بجهدها وإصرارها ومثابرتها مواجهة الصعوبات التى وقفت في طريقها[3]. وتمكنت بجمال صوتها ، وروعة أدائها، وبذكائها في إختيار كلمات وألحان أغانيها وبقوة شخصيتها من أن تستولى على قلوب معظم المتحدثين بالعربية. كما أسهم صوت أم كلثوم بمساحته الخصبة، ومقاماته المصقولة، وذبذباته السحرية ونبراته الوضيئه التى يتمثل فيها الجمال كله في تكوين أساليب جديدة في التلحين العربى أتاح للملحنين أن يجوبوا آفاقا جديدة ما كانت تتاح لهم لولا وجود هذا الصوت الذى غير وجه الغناء في مصر.

رحلة أم كلثوم مع الغناء :

أم كلثوم من الشخصيات التى يمكن من خلالها معرفة الكثير عن حياة الشعب المصرى ، خاصة وأنها تحمل في حياتها قصة هذا الشعب الذى خرجت منه، وقصة العصر الذى عاشت فيه فقد عاصرت عهد السلطان فؤاد وتحويل مصر إلى ملكية وعاصرت فترة حكم ابنه فاروق كما عاصرت قيام الثورة وتوقيع اتفاقية الجلاء وتأميم قناة السويس والسد العالى ، والصحوة السياسية المصرية على المستويين العربى والعالمى والذى عبرت عنها في أغانيها لذلك فإن قصة حياتها لا تعنى حياة فنانة مطربة موهوبة فحسب بل تذكرنا بجزء مهم

من حياة المصريين ، ومن تاريخ مصر الحديث ، وبفترة المخاض التى عاشتها خلال ظهور الرواد الذين نجحوا في العبور بمصر في تحقيق حلم النهضة خلال القرن العشرين[٤]، وتركيز الجهود والإمكانات من أجل الارتقاء ، والخروج من دائرة التخلف والسلبيات التى عاشتها مصر في فترة الاحتلال البريطانى ، والمحاولات المستمرة للتخلص منه ونفض غباره عنها. وكانت أم كلثوم من أولى الفنانات المصريات اللاتى فرضن احترامهن الفنى والاجتماعى على مختلف طبقات المجتمع المصرى.

وقد بدأت رحلة أم كلثوم مع الغناء بداية متواضعة طافت خلالها مع أبيها إبراهيم البلتاجى المنشد في الموالد وأفراح القرى ومع أخيها في قرى السنبلاوين، وبعض أنحاء الريف المصرى طوافا شاقا استغرق بضع سنوات من طفولتها وصباها المبكر الذى ارتدت خلاله الشال والعقال وملابس الصبيان ، وغنت شوامخ التراث الدينى الصوفى التى قام والدها بتحفيظها أياه ٠ وقد أتيح لأم كلثوم وهى في نحو السادسة عشرة من عمرها أن تغنى لأول مرة في مكان قريب من القاهرة، إذ دعيت مع والدها وشقيقها لإحياء ليلة المولد بإلقاء بعض التواشيح الدينية والإنشاد الدينى في دار أحد علية القوم في المجتمع القاهرى بضاحية حلوان، وكان من الممكن أن تستمر حياة أم كلثوم الفنية كذلك لولا أن القدر وضع في طريقها من أتاح لها رسم ملامح المنعطف الكبير في حياتها. فقد إلتقت الفنانة الناشئة أم كلثوم بالشيخ أبو العلا محمد[٥] الذى تصادف أن سمعها في القطار وهى تردد ألحانه دون أن تعرف أنه موجود في القطار، ومن يومها توثقت العلاقة بينهما ، وبتوجيه منه وصلت أم كلثوم إلى القاهرة في عام١٩٢٢م، وأخذت تغنى في "مقهى سانتى" بالأزبكية وفى "مسرح البوسفور" في ميدان باب الحديد بدون فرقة موسيقية كما غنت كذلك على مسرح حديقة الأزبكية، وخلال هذه الفترة كان الشيخ أبو العلا بمثابة الأب الروحى والمدرسة الحقيقية التى تلقت فيها أم كلثوم فن غناء القصائد من شيخها الفنان الذى اكتشف حقيقة

قدرتها وموهبتها، ونقل ذوقه الفنى إليها ودرب حنجرتها على الألحان العربية الصميمة، وبدأ بتحفيظها قصائد عبده الحامولي ، وتدريبها على ألحانه ولم يكن "أبو العلا محمد" مجرد موسيقار فحسب بل كان صاحب رسالة هدفها تخليص الغناء المصرى من رنة الغناء العثمانى والغجرى ، وتبنى المواهب الجديدة التى تستطيع أن تقدم فنا راقيا يبعث الغناء العربى الأصيل من مرقده وينطلق بالموسيقى العربية في آفاق جديدة تتخلص فيها من الاعتماد على الارتجال والتقليد، وتقوم على أسس علمية تستطيع من خلالها التعبير الصادق العميق عن روح الشعب المصرى وعن همومه وأفراحه(٦).

وقد وجد الشيخ أبو العلا في أم كلثوم ضالته المنشودة بعد أن أحس بقيمة موهبتها وبصوتها الجميل القوى الذى يمتلك مساحات واسعة يخاطب بها القلب والعقل معا فأخذ على عاتقه أن يتبنى هذه الموهبة، وأن يحيطها بكل الظروف المناسبة ليقدم من خلالها فنه الراقى المتميز فتولى صوت أم كلثوم بالتدريب واستطاع صقله إلى أعلى مستوى، وعلى يد هذا الشيخ الفنان بدأت أم كلثوم أولى مراحلها الفنية التى شربت خلالها كل قطرة فن وثقافة من أستاذها ، فظهرت أمام الجمهور لأول مرة فى خريف عام ١٩٢٣على مسرح "بيلوت باسك" فى شارع الألفى وهى مرتدية ملابسها الريفية تصاحبها مجموعة تنشد دون مصاحبة أى آله موسيقية اللحن الدينى المشهور.

"مولاى كتبت رحمة الناس عليك"

وكادت هذه المرة تضعف من معنوياتها وتثبط من همتها خاصة عندما لم يعجب أحد المستمعين منظر ملابسها ولا طريقتها فى الغناء فصاح قائلا (كتب علينا الغلب يا أختى) وضج الجمهور بالضحك وانفجرت المطربة الناشئة بالبكاء، ولكن الشيخ أبو العلا لم يتركها لليأس بل وقف بجانبها يساعدها على تثبيت أقدامها موضحا لها أن الجمهور مادة خام والفنان هو الذى يشكلها بيديه، وأنه على المطربة أن تتفهم الجمهور الذى تغنى له لتتمكن من السيطرة عليه

وتوجيهه. وظل هذا الشيخ الفنان بجانبها حتى وقفت على قدميها. فغنت أم كلثوم للشيخ أبو العلا عشرة ألحان[٧]. منها تحفته الغنائية "وحقك أنت المنى والطلب"[٨] (عام ١٩٢٦) التى غناها الشيخ أبو العلا من قبل ناسجا فيها على منوال طريقة عبده الحامولى فى تلحين القصائد، وهى من تأليف الشيخ عبد الله الشبراوى الذى كان شيخا للأزهر. وتشاء الظروف أن يبتسم الحظ لأم كلثوم فيستمع إلى غنائها أسرتان كانتا بمثابة مفتاح بزوغ نجمها وهما أسرة آل عبد الرازق[٩] وأسرة آل المهدى[١٠] ومن خلال هاتين الأسرتين استطاعت أم كلثوم أن تتعرف على النخبة المثقفة فى مصر، كما استمدت منهما زادا وطنيا ساعدها على تفهم مجريات ما حولها. وأثناء ذلك استمر الشيخ أبو العلا فى وضع بصماته الفنية لإبراز صوت أم كلثوم فبعد أن غنت قصيدة "وحقك أنت المنى والطلب" غنت له "أفديه إن حفظ الهوى أو ضيَّعا" (عام ١٩٢٨) من نظم شاعر العصر الأيوبى "ابن النبيه" بعد أن غناها الشيخ أبو العلا وسجلها على أسطوانة فكانت من أجمل الألحان التى تكامل فيها التوافق بين الشعر والغناء، حيث وضع الشيخ اللحن والكلام فى وعاء واحد وأتاح لصوت أم كلثوم أن يستعرض كل جماله واقتداره وعذوبته وجذالته فى هذه الأغنية.

وهكذا أكمل الشيخ أبو العلا من خلال صوت أم كلثوم مهمته فى تخليص الغناء العربى من العجمة العثمانية، والرطانة الفارسية، والألفاظ الغجرية التى عبثت بحناجر المطربين والمطربات لفترات طويلة[١١].

وبدأ الناس يستمعون من خلال صوت أم كلثوم إلى غناء يتوافق كلامه مع لحنه كما كان الشأن فى الغناء العربى أثناء ازدهاره وهكذا افتتحت أم كلثوم عهدا جديدا فى غناء القصيدة العربية، ونجحت فى أن تعود آذان الناس على أغنيات جديدة وعلى ألحان جديدة وعلى يد الشيخ أبو العلا توسعت أم كلثوم فى استخدام المقامات الغنائية التى لم يكن يعرفها رجال الموالد وحلقات الذكر والأناشيد الدينية، وبجهوده نضج صوت أم كلثوم وتمت رعايته فنيا بالتدريب والتثقيف[١٢]،

لدرجة أنها جعلت "القوم سكارى من الطرب" ودفعهم إلى طلب الإعادة وتصفيق الاستحسان[١٣] وإلى جانب ذلك فقد لحن الشيخ أبو العلا لأم كلثوم قصيدة "الصب تفضحه عيونه" التى ألفها أحمد رامى ونشرها فى جريدة السفور ومطلعها :

الصب تفضحه عيونه

وتنم عن وجد شئونه

إن تكتمنا الهوى

والداء أقتله دفينه

ونتيجة لذلك ظلت أم كلثوم متعلقة بأستاذها، ولم تنس أبدا فضله عليها بل ظلت تذكر دوره فى حياتها الفنية، وبأنه أفسح أمامها آفاقا موسيقية واسعة وغرس فى نفسها غرسا غنائيا طيبا، وطبعها بطبعه[١٤]. ويتمثل إخلاص أم كلثوم للشيخ أبو العلا ووفائها له أنها سارت فى جنازته وراء نعشه فى الخامس من يناير ١٩٢٧ فى الوقت الذى لم يكن مألوفا أن تسير إمرأة وسط الرجال فى جنازة تسير فى شوارع وأزقة المدينة، كما يتمثل إخلاصها له مسايرتها للتقاليد الموسيقية الشرقية التى عملها لها فقد استطاعت أن تحفظ عن طريق الشيخ أبو العلا أدوارا كثيرة لمحمد عثمان، وعبده الحامولى، ويوسف المنيلاوى وللشيخ أبو العلا نفسه الذى كان يلحن لها العديد من أغانيه فى البداية ، وأن تساير هذه الأدوار لفترة .

ونتيجة لذلك ارتبط ظهور أم كلثوم بثورة فنية قومية فى الموسيقى والطرب وكانت قدرات صوتها، وما فى أغانيها من ألحان من أبرز عوامل النجاح لهذه الثورة[١٥] يضاف إلى ذلك أنها جمعت فى داخلها أرشيفا يعتبر ثروة فنية وتاريخية رائعة خاصة وأنها كانت تحفظ من الألحان والأغانى القديمة ما كان قد اندثر من أسماع الناس وأفواههم[١٦]. وظلت أم كلثوم ساحرة فى بساطتها وعقالها ولباسها العربى ونضارتها التى لا تنفد، وجلس حولها والدها وإخوتها وأبناء

عمومتها يرددون وراءها ما يحفظ للسلم الموسيقى سلامته، والناس ينصتون إليها مشدوهين. ولما كان ينقص أم كلثوم لكى تنطلق إنطلاقتها الكبرى عنصرًا آخر مهما وهو الشاعر الذى يفهم صوتها ويكتب لها نصوص أغانيها فقد وجدت ضالتها فى الشاعر أحمد رامى(١٧) الذى عاد من بعثته فى فرنسا فى ٢١ يوليو ١٩٢٤ وبدأ يكتب لها بلغة جديدة تتسم بقدر أكبر من الوحدة اللغوية، وبمستوى أسمى فى التعبير، وقد ساعده على ذلك أن صوتها كان أحد المؤثرات التى استفزته لكتابة شعره، واستثارت إلهامه فنظم لها العديد من الأغانى التى يفهم معانيها كل الناس حتى يرددها الجاهل والمثقف والفلاح وابن المدينة وغيره، وقد بدأت أم كلثوم موسمها الغنائى الثانى فى عام ١٩٢٤ فى صالة "سانتى" واستهلته بمونولوج من تأليف رامى عنوانه (خايف يكون حبك ليَّه) من تلحين صبرى النحريرى وظلت علاقة أم كلثوم ورامى تزداد وثوقا ولم يفترقا منذ ذلك الوقت، فكتب لها أكثر من ٢٥٠ قصيدة غنائية اختارت منها ما راق لها . وكان لاتصال رامى بأم كلثوم أكبر الأثر فى النهوض بالأغنية المصرية، فبعد أن كانت تتميز بالإباحية فى التعبير بدأ رامى بشعره يحبب القصيدة الفصحى إلى قلوب العامة معتمدا فى ذلك على جمال صوت أم كلثوم وبديع نظمه وحلاوة عباراته . ونتيجة لذلك أخذت شخصية أم كلثوم الفنية فى التبلور، كما أخذ صوتها يجذب جمهور المستمعين، وعباقرة الملحنين الذين اكتشفوا قدراته واستطاعوا من خلاله أن يقدموا أجمل وأرقى ما عرفته الموسيقى العربية من ألحان هذا العصر(١٨) والذى كانت حنجرة أم كلثوم ناطقة بإبداعاتهم وكان من أبرز هؤلاء محمد القصبجى(١٩) الذى خلع عمامته وجبته ولبس البدلة وكان فى مقدمة المجددين فى فن الغناء وقد قدم لأم كلثوم فى أوائل العشرينيات أكثر من ثلاثين لحنا، كانت عبارة عن محاولات وتجارب استفاد فيها من أساليب الفنون الغربية والشرقية بما فيها الأساليب التركيه، ويعتبر مونولوج "إن كنت أسامح" الذى لحنه لأم كلثوم أعلى صيحة فى التجديد الغنائى، وقد سار على منواله كل

من رياض السنباطي[٢٠] وزكريا أحمد[٢١] وداود حسني[٢٢]، والدكتور أحمد صبري النحريري[٢٣] ومحمد عبد الوهاب ومحمد الموجي وكمال الطويل وسيد مكاوي وبليغ حمدي وغيره. وكانت ألحان كل منهم لأم كلثوم لا ينازعهم فيها أحد، خاصة وأنها كانت كالنحلة التي تأخذ من كل وردة رحيقها . وقد كانت علاقة أم كلثوم بملحنيها علاقة من نوع خاص فهي لا تغني اللحن فقط، بل تلهم الملحن وتنشر ألحانه في الآفاق. ولم تكن شريكة عادية في الأغنية بل كانت الطرف الأقوى نظرا لأنها قارئة ذكية تستطيع أن تستوعب معاني الكلمات على أعلى درجات الثقافة الفكرية لذلك، كانت تختار الكلمات وتعدلها أحيانا مهما كان الشاعر الذي يؤلف أغانيها، يضاف إلى ذلك أنه كان لها رؤيتها في اختيار الكلمات دون مجاملة لأحد على حساب فنها الأصيل ، فلم يعرف عن أم كلثوم أنه كان لها شلة من مؤلفي الأغاني الذين يحاصرونها بأعمالهم بل كانت تختار من دواوين الشعر التي كانت تقتنيها في مكتبتها الخاصة ما يتلاءم مع رغبتها سواء كانت على صلة بهذا الشاعر أو ذاك وأبرز الأمثلة على ذلك ما ذكره الشاعر السوداني " الهادي آدم" عن قصة اختيار أم كلثوم لإحدى قصائده وهي قصيدة "أغدا ألقاك . ياخوف فؤادي من غدي" أنه فوجئ بوصول خطاب من سيدة الغناء باسمه تدعوه فيه للحضور إلى القاهرة للاستماع إلى إحدى قصائده التي اختارتها من ديوانه الذي لم يرسله إليها بل كانت قد اشترته رغم أن أغلى أمنياته التي لم يكن قد تمكن من تحقيقها قبل ذلك هو الاستماع إلى أم كلثوم في أي من حفلاتها[٢٤] .

وإلى جانب ذلك فقد كانت أم كلثوم تختار لحن أغانيها وتتصرف فيه وتفرض صوتها عليه[٢٥] وليس أدل على ذلك من أنها كانت تتحكم في ألحان أغانيها، فكان يمكنها وهي تغني أن تطيل فيه لو تختصره إذا أرادت، وكانت الآلات الموسيقية غالبا تخفت أصواتها عندما يرتفع صوت أم كلثوم بالغناء . لقد كان دور أم كلثوم في الارتقاء بالغناء المصري إلى مستوى شاعري أكثر نبلا،

ويتضح ذلك فى أنها جعلت الجمهور ينتقل من مستوى الأغانى المبتذلة ذات الدلالات والإيحاءات الهابطة، والميوعة و التأوهات مثل :

"هات القزازه واقعد لاعبنى" و"رخى الستارة اللى فى ريحنا أحسن جيراتنا تجرحنا"

و"عصفورى يا أمه عصفورى   لا ألعب وأورى له أمورى"
و"يوم ما عضتنى العضة   وجابولى طاسة الخضة"
و"أبيع هدومى علشان بوسه   من خدك القشطة يا ملبن
يا حلوة زى البسبوسه   يا مهلبية كمان وأحسن "
و"اشبكها ولحبكها بدبوس   وانزل على صورتك واعض وأبوس

حنتك بنتك وتعاليلى يا بطه ، وتعال يا شاطر نروح القناطر ، وغير ذلك من الأغانى الرخيصة التى تعبر عن تفسخ المجتمع وتفشى روح الانحلال فيه والتى كانت تجد شهرة ورواجا لا قبل لأحد بمقاومتها إلى مستوى القصائد، والشعر الراقى ودنيا الطرب الأصيل مثل "إن حالى فى هواها عجب" أو رباعيات الخيام[٢٦].

وعلى الرغم من أن هذا الطريق لم يكن سهلا، خاصة وأن الاتجاه السائد لدى الفن فى ذلك الوقت كان يميل إلى أن يسود الذوق الرخيص، وانحدار القيم، فإن الحرب بدأت تشتعل ضد أم كلثوم من جهات عديدة ومع ذلك فقد حرصت على أن تبدأ عصرا جديدا من الغناء، وأن تتمسك بما تؤمن به وأن تبتعد عن الأغانى منخفضة المستوى والتى كانت شائعة فى الأربعينيات وعلى الرغم من مطالبة البعض لها أن تغنى أغانى من اللون الذى كان سائدا فى ذلك الوقت ومحاولتهم المستمرة للضغط عليها[٢٧] فقد استطاعت أم كلثوم أن تنتصر على تيار الأغانى المبتذلة، ورفضت تماما أن تستسلم لهذا النوع من الأغانى ، وظلت تبحث عن نصوص غنائية نقية رفيعة مهذبة، فغنت لأمير الشعراء أحمد شوقى[٢٨] الذى وجدت فى شعره معينا سلسبيلا ولشاعر النيل حافظ إبراهيم[٢٩]

ولأبي فراس الحمداني وغيرهم ونتيجة لبروز أم كلثوم في مسرح الغناء، ومنافستها لمعاصريها فقد تعرضت للعديد من الافتراءات والإتهامات في محاولة من بعض منافسيها للإساءة إليها في شخصها وإشغالها عن فنها ، فادعى رجل من ذوى الأملاك بقنا يدعى "عبد الستار الهلالى" زورا أنها زوجته ، ولم تعرف أم كلثوم بقصة هذا الزواج إلا عن طريق إعلان على يد محضر يطالبها فيه هذا الرجل أمام محكمة عابدين بالعودة إلى عصمته، ولما لم تتضح صحة دعواه نال نصيبه من العدالة، وإلى جانب ذلك فإنه نتيجة لنجاحها الكبير تعرضت للكثير من المضايقات التلفونية التى كانت ترهق أعصابها، كما حاولت منيرة المهدية سلطانه الطرب وقتذاك الإطاحة بأم كلثوم التى اعتبرتها المنافسة الأولى لها وكانت وسيلتها إلى ذلك محاولتها اصطناع نسخة أخرى من أم كلثوم فتنزل إحدى الفتيات مرتدية الكوفية والعقال على رأسها كما كانت تفعل أم كلثوم في بداية حياتها الفنية ويقف من خلفها التخت وتردد بعض الأغانى الدينية والطقاطيق متحدية بذلك أم كلثوم الحقيقية، وإزاء ذلك اضطرت أم كلثوم إلى توزيع إعلانات باليد، نشرتها الصحف بعد ذلك تحذر جمهورها من المقلدة لها، كما كانت تكتب في إعلانات حفلاتها أم كلثوم الأصلية، على أن هذه الحرب لم تستمر طويلا، فقد شقت أم كلثوم طريقها بخطى قوية دون أن تلتفت وراءها واختفت الفتاة الأخرى، حيث لا يصح إلا الصحيح خاصة وأن أم كلثوم استطاعت الصمود، ووقفت كالطود الشامخ تتكسر الأمواج عند قدميها، وصمدت أمام كل الدعاوى لتتساقط كأوراق الخريف، لا تهتم إلا بفنها حتى انقشعت كل سحابات الصيف تحت حرارة فنها وصوتها الجميل.

٢- أم كلثوم والسينما :

عندما بدأ العصر الذهبى للسينما المصرية بافتتاح ستوديو مصر ١٢ أكتوبر ١٩٣٥ بدأ استخدام الموسيقى والغناء كعنصر فنى في التأثير على المتفرجين، فاستهل إنتاجه الأول بفيلم تاريخى غنائى قامت أم كلثوم ببطولته وعنوانه "وداد"

الذى عرض فى ١٠ فبراير سنة ١٩٣٦ وكانت قصته من تأليف "أحمد رامى" وسيناريو أحمد بدرخان وقد مثلت فيه أم كلثوم دور الجارية "وداد" المغنية فى عصر المماليك. وكان هذا الفيلم بمثابة فرصة للتجارب المتحفظة فى التلحين الجديد، وفيه وقفت أم كلثوم لأول مرة ليشكل صوتها بداية الأغنية السينمائية الخفيفة، وأدت دورها بفطرتها السليمة بكل إبداع واقتناع، وغنت فيه خمس أغنيات تبارى فى تلحينها زكريا أحمد ومحمد القصبجي ورياض السنباطى وكانت كلها من نظم أحمد رامى ، وهى "يا طير يا عايش أسير","ياللى ودادى صفالك" من تلحين القصبجى و"يا بشير الأنس" و"يا ليل نجومك شهود" لزكريا أحمد و"البحر زاد يا فرحنا" و"حيوا الربيع عيد الزهور" لرياض السنباطى".

كما تضمن الفيلم مقطوعة موسيقية أطلق عليها فيما بعد "رقصة شانغهاى" وطقطوقة مشهورة لحنها رياض السنباطى بعنوان:"على بلد المحبوب وديني" [٣٠] وكان فيلمها الثانى "نشيد الأمل" الذى عرض فى ١١ يناير ١٩٣٧ وهو من إنتاج شركة "أفلام الشرق" ومثلت فيه أم كلثوم دور سيدة عصرية اسمها "آمال" كانت تتمتع بصوت جميل واتجهت للعمل بالسينما وغنت فيه سبع أغنيات كانت كلها من نظم أحمد رامى قام القصبجى بتلحين أربع أغنيات منها :

وهى "يا مجد ياما اشتهيتك" و"ياللى صنعت الجميل" و"منيت شبابى" "وأغنية الطفل" وقام السنباطى بتلحين الأغنيات الثلاث الباقية ، وهى مونولوج "قضيت حياتى حيرى عليك" و"نشيد الجامعة" وطقطوقه "إفرح يا قلبى" وقام الفنان عزيز صادق بالتوزيع الموسيقى للأغانى فكانت هذه هى أول مرة تغنى أم كلثوم ألحانا موزعة موسيقيا.

وكان الفيلم الثالث هو فيلم "دنانير" الذى عرض فى ٢٩ سبتمبر ١٩٤٠ وكان من إنتاج ستوديو مصر وهو عن قصة وحوار وأغانى أحمد رامى وإخراج أحمد بدرخان وقد مثلت فيه أم كلثوم دور "دنانير" الجارية العباسية" التى عاشت فى عصر الرشيد، واستطاعت تأديته بإبداع وغنت فيه عدة أغنيات ذات ألوان

متعددة كأغنية الشريف الرضى "قولى لطيفك ينثنى" التى غنتها فى مقامات مختلفة، متدرجة فيها من نغمة إلى أخرى بكل روعة واقتدار وكانت هذه الأغنية إحدى ثلاث أغنيات لزكريا أحمد، وكانت الثانية "القصر المهجور" والثالثة "بكره السفر" وتضمن الفيلم أغنيتى "ياليلة العيد" و"أنشودة بغداد" للسنباطى وثلاثة ألحان أخرى للقصبجى وهى "الزهر فى الروض تبسم" و"يا فؤادى غنى" و"أنشودة النبع".

وجاء بعد ذلك الفيلم الرابع "عايدة" الذى عرض فى ٢٨ ديسمبر ١٩٤٢ وكان من إنتاج "شركة أفلام الشرق" عن قصة لعبد الوارث عسر وإخراج أحمد بدرخان ، وفيه ظهرت محاولة جريئة وهى استغلال صوت أم كلثوم القوى الرنان فى الغناء الأوبرالى، لحن الفصل الأول منه محمد القصبجى ، وقام السنباطى بتلحين الفصل الثانى وقد مثلت أم كلثوم فى هذا الفيلم دور فتاه ريفية اسمها "عايدة" يقع فى غرامها ابن أحد الأغنياء، وتقف الفوارق الطبقية عقبة أمام إتمام الزواج. وقد غنت أم كلثوم في هذا الفيلم عدا ألحان الأوبرا مجموعة من ألحان السنباطى والقصبجى وزكريا أحمد منها "يا فرحة الأحباب" و"القطن".

وكان الفيلم الخامس "سلأمة" الذى عرض يوم ٩ إبريل ١٩٤٥ وهو من إنتاج وسيناريو "توجو مزراحى" عن قصة من تأليف "على أحمد باكثير" والحوار والأغانى لبيرم التونسى وقد قامت فيه أم كلثوم بدور الجارية الأموية "سلأمة" التى اشتهرت منذ حداثة سنها بجمال الصوت . وقد اشتمل الفيلم على تسع أغنيات كلها من نظم بيرم ما عدا قصيدتين هما "قالوا أحب القس " التى لحنها السنباطى وتنسب إلى الشعر القديم والثانية "يا بعيد الدار" لعباس بن الأحنف.أما باقى الأغنيات فهى"غنى لى شوى شوى" و"قوللى ولا تخبيش يا زين" و"سلام الله على الأغنام" و"عينى يا عينى" و"برضاك" و"لغة الزهور" و"نور محياك". وإذا كان بيرم التونسى قد استأثر بنظم معظم أغانى الفيلم فإن

زكريا أحمد كان له نصيب الأسد فى التلحين إذ قام بتلحين ثمانى أغنيات بينما لحن الأغنية التاسعة رياض السنباطى وهى قصيدة "قالوا أحب القس".

وفي هذا الفيلم ارتفعت أم كلثوم بفنها التمثيلى والغنائى إلى أرفع الدرجات فى الأداء والتعبير ولم تغن فيه تلك الأغنيات التسع فحسب ، بل قرأت أيضا ولأول مرة على الشاشة آية قرآنية من "سورة إبراهيم" اهتزت لها القلوب بالخشوع والإيمان.

أما الفيلم السادس والأخير فكان "فاطمة" الذى عرض فى ١٠ ديسمبر ١٩٤٧ ومثلته وهى فى سن الثالثة والأربعين وهو الفيلم الذى اعتزلت بعده السينما وكان من إنتاج ستوديو مصر ومن إخراج "أحمد بدرخان" وتأليف "مصطفى أمين" وقد مثلت فيه دور "فاطمة" الممرضة الفقيرة التى تزوجت بعقد عرفى من ابن أحد الأثرياء. وقد غنت أم كلثوم فى هذا الفيلم تسع أغنيات اتجهت فى ثلاث منها إلى الأغنية الجماعية التى اشترك معها فى غنائها أفراد "الكورال" وهى "نورك يا ست الكل" لبيرم التونسى والقصبجى و"نصرة قوية" لبيرم وزكريا أحمد و"ظلمونى الناس" لبيرم والسنباطى.

وتضمنت الأغنيات الأخرى ثلاث أغنيات تفيض بالبهجة والمرح وحب الحياة لبيرم أيضا وهى "يا صباح الخير" للقصبجى، و"لغة الزهور" و"جمال الدنيا" لزكريا أحمد بجانب أغنيتين حزينتين هما "أصون كرامتى" لرامى والسنباطى و"اليتيم" لرامى والقصبجى. أما الموسيقى التصويرية فى جميع أفلام أم كلثوم فقد وضعها "محمد حسن الشجاعى[٣١]"ما عدا موسيقى فيلم نشيد الأمـــل

التى كانت من وضع عزيز صادق[٣٢].

والجدير بالذكر أن إعجاب الناس بهذه الأفلام، واقتناع الجماهير بأدوار أم كلثوم، لا يرجع إلى قصة الفيلم أو الأداء التمثيلى أو بمدى التحام الغناء بقصة

الفيلم أو الأداء التمثيلى بمقدار ما يعود إلى سحر شخصية أم كلثوم والأغانى الرائعة التى قدمتها.

وقد ظل الفيلم الغنائى يحتل المقدمة طوال الأربعينيات والخمسينيات ، واستطاع أن يؤثر تأثيرا قويا فى الأغنية العربية سواء من ناحية الكلمات أو اللحن أو الأداء الغنائى أو الموسيقى. ومع ذلك فإن أم كلثوم لم تربط مستقبلها بفن السينما بل سخرت فن السينما لشخصيتها الفنية المستقلة(٣٣) واستطاعت أن تنسحب من الميدان فى الوقت المناسب لتعيش وتخلد على الستار الفضى فى أدوارها الخالدة(٣٤).

٣- حفلات أم كلثوم الشهرية :

فى الثلاثينيات من القرن الماضى وبعد أن أصبح الثمر يانعا فى بستان الغناء العربى كان صوت أم كلثوم هو أول صوت سجلته "الإذاعة اللاسلكية للحكومة المصرية(٣٥)" في حفل خارجي عام ١٩٣٤ بعد أن تعاقدت معها على مشروع الحفل الشهرى المذاع مباشرة على الهواء(٣٦) ومن خلاله عرف المستمعون أم كلثوم على نطاق مصر كلها، وانعقدت الألفة والمودة بين المستمع وأم كلثوم من خلال الراديو، وأصبحت أغانيها متاحة لجموع الشعب بعد أن كانت مقتصرة على طبقة معينة منه. وإلى جانب ذلك فإن حفلات أم كلثوم الشهرية كان لها أكبر الأثر فى تقديم فنها المتجدد فى كل حفلة من هذه الحفلات التى كانت تعد بمثابة حفلات قومية، فالجميع ينتظرون الخميس الأول من كل شهر(٣٧). حيث يلتف حول صوتها ملايين المستمعين ليس المصريين الذين يتجمعون فى المقاهى والبيوت لقضاء السهرة كلها معها فحسب بل والعرب أيضا الذين جمعتهم أم كلثوم على الحب والفن، ووضعت رؤوسهم على أيديهم ليقولوا فى نفس واحد"الله الله يا ست" فشوارع القاهرة المزدحمة دائما كان يهدأ فيها الضجيج فجأة وتخلو من المارة فى انتظار سماع أم كلثوم على موجات الأثير التى تتفرغ لها، وتذيع أغانيها بما فيها من ضوضاء وتصفيق. والناس فى العالم

العربي على مختلف أعمارهم ومستوياتهم يتوقفون عن أسمارهم وأعمالهم فيضطر الشيوخ إلى الكف عن لعب الطاولة في مقاهي الدار البيضاء وفي بغداد ودمشق وعمان وغيرها ويحولون موجات محطات إذاعة بلادهم إلى موجات إذاعة القاهرة للاستماع إلى نجمة وقيثارة الشرق أم كلثوم في برنامج مدته خمس ساعات أو يزيد[٣٨]، يضاف إلى ذلك أن حفلات أم كلثوم كانت الفرصة الأنيقة لكل سيدات المجتمع فيرتدين أشيك وأجمل ما عندهن ، حفلات تؤدي ليس فقط إلى رواج الكوافيرات والتاكسيات والترزية والمطاعم والفنادق ، بل كانت تؤدي أيضا إلى رواج شركات السياحة وشركات الطيران التي تحمل من كل العالم عشاقا لصوتها مرة كل شهر[٣٩] يحضرون إلى القاهرة لمشاهدة أم كلثوم وهي تتحرك فوق المسرح وتهتز بمنديلها الأبيض، وكل حركة منه ومن يدها عبارة عن إشارة بدء وتجويد لمن يجلس خلفها من أعضاء فرقتها الموسيقية الذين حفظوا هذه الإشارات وكأنها قائد لفرقة موسيقية من النوع النادر، ولكي ينسوا الدنيا كلها مع سحر غنائها الرائع، وصوتها الساحر وحنجرتها القديرة التي تفوق الوصف، والتي تنبض بالحب والأسى بحس عاطفي يجعل الكثير من مستمعيها يبكون في كثير من الأحيان، ويطالبونها بإعادة كوبليهات معينة. وبعد أن ظهر التلفزيون في مصر عام ١٩٦٠ نجحت حفلات أم كلثوم التي قدمها التلفزيون نجاحا باهرا، وظل صوتها قويا خفاقا فصيحا نقيا، وكان الإعجاب بصوتها ظاهرة شملت العالم العربي كله بمختلف بيئاته وظروفه الاجتماعية والتاريخية. كما أن أغانيها ساهمت بشكل كبير في تدعيم اللغة العربية الفصحى خاصة وأن أداءها للحروف والكلمات كان أداء سليما يتميز بالوضوح والصفاء الكامل حتى قال عبد الوهاب في حديث له عنها: إنها كانت فصيحة النطق بمعنى أنها حين تنطق جملة فإن الجملة تبلغ أذنك حرفا حرفا كل حرف قائم بذاته وله موسيقاه الخاصة كما أن أغانيها العامية كانت أقرب إلى العربية الفصحى، ومعنى ذلك أنها لم تكن مطربه المثقفين فحسب بل كانت مطربة كل الناطقين بلغة الضاد،

وإلى جانب ذلك فقد كان صوتها من الأصوات الخصبة الذكية التى تزغرد، ولا نظن أن أحدا خدم الفصحى من المطربين كما فعلت أم كلثوم سواء فى قصائد العشرينيات ذات الألحان العالية التى غنتها أو فى قصائد الستينيات ذات القراءة الموسيقية ولا أحدا كانت رقعة التسابيح الدينية واسعة عنده مثل أم كلثوم التى غنت "نهج البردة" و"سلو قلبى" و"إلى عرفات الله" و"ولد الهدى[٤٠] "، ولا أحد غنى للحركة الوطنية سواء فى مصر أو لعالم العربى مثل أم كلثوم التى غنت لوطنها سواء فى أفراحه أو أتراحه.

٤- أغانى أم كلثوم الوطنية :

لقد استطاعت أم كلثوم بشخصيتها وقوة إرادتها وصوتها الجميل ونشاطها أن ترتقى بفن الغناء العربى وفق تخطيط مدروس وثقافة عالية، وكان لها شخصية اجتماعية بارزة لها مكانتها، تختار اللحن والكلمة دون مجاملة لأحد على فنها الأصيل. كما كانت علما على أمة بأسرها من المحيط إلى الخليج ونغمة صافية للحب والسعادة بالنسبة للشعب العربى على مدى نصف قرن أو يزيد حتى لقبت بقيثارة السماء ، وبهدية السماء إلى العواطف والوجدان.

وقد ظهر معدن أم كلثوم الأصيل خلال الأزمات التى تعرضت لها مصر والأمة العربية ويظهر ذلك جليا فى أغانيها الوطنية، فقد واكبت أم كلثوم الحركة الوطنية وكان لها فيها نصيب كبير فغنت لذكرى سعد زغلول وأنشدت لفلسطين ولأبطال الفالوجا[٤١]، ولأعياد مصر الوطنية جميعا قبل وبعد الثورة وكان "نشيد الجامعة" الذى كتبه رامى ولحنه السنباطى وغنته أم كلثوم فى فيلم "نشيد الأمل" عام ١٩٣٦ من أوائل هذه الأناشيد وكان مطلعه يا شباب النيل، يا عماد الجيل، هذه مصر تناديكم فلبوا دعوة الداعى إلى القصد النبيل، ثم جاء فن صناعة السينما ليضيف بعدا هاما فى حياة أم كلثوم الفنية، ففى فيلم "دنانير" غنت أم كلثوم نشيدا عن بغداد ولم تقتصر أم كلثوم على غناء الأناشيد الحماسية فى أفلامها فغنت فى فيلم "عايدة" عن القطن المصرى أغنية مطلعها :

أبيض ومنور على عوده

يحيي الأملْ عند وجوده

وعند تأسيس الجامعة العربية فى عام ١٩٤٥ غنت أم كلثوم أغنية بهذه المناسبة كان من أبياتها أن العروبة فيما بيننا نسب. وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ومطالبة المصريين بجلاء الإنجليز الكامل عن مصر غنت أم كلثوم .

وما نيل المطالب بالتمنى ولكن تؤخذ الدنيا غلابـــــا

وعندما طالب المصريون بإلغاء معاهدة٣٦ وبرزت العمليات الفدائية فى منطقة القنال غنت أم كلثوم أبياتا من قصيدة حافظ إبراهيم، وتلحين السنباطى منها .

وقف الخلق ينظرون جميعًا كيف أبنى قواعد المجد وحدى

وبعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ غنت أم كلثوم قصيدة من شعر أحمد رامى وألحان رياض السنباطى مطلعها.

مصر التى فى خاطرى وفى فمى أحبها من كل روحى ودمى

ثم تدفقت أغانى أم كلثوم الوطنية ويظهر ذلك جليا مع تطورات الأحداث ، ففى حادث المنشية غنت أم كلثوم "يا جمال يا مثال الوطنية" وعند وقوع العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ غنت نشيد "والله زمان يا سلاحى" على أضواء الشموع وأثناء دوى صفارات الإنذار المنذرة بغارة جديدة على القاهرة ، وتمكنت من تسجيل هذا النشيد الذى أصبح النشيد الوطنى لمصر قبل تغييره بنشيد "بلادى بلادى" وإلى جانب ذلك غنت أم كلثوم محلاك يا مصرى، وثوار، وطوف وشوف، وعلى باب مصر، والحب الكبير(٤٢)، وأصبح عندى الآن بندقية، وكلها أغانى رصدت تاريخنا الوطنى وجعلت العديد من الشباب عندما يستمعون إلى مثل هذه الأغانى يستفسرون في كتب التاريخ عن حقيقة ما حدث وحينما وقعت نكسة ١٩٦٧ أعلنت أم كلثوم اعتزالها الغناء بحجة أنها فقدت شهيتها للغناء بعد الهزيمة ثم عدلت عن ذلك القرار تحت إلحاح الكثيرين وعادت من أجل أن تضع صوتها فى خدمة المعركة فظهر معدنها الأصيل عندما طلبت من عشاق فنها أن

يتبرعوا بالذهب.. بالدبل والأساور والأقراط من أجل المجهود الحربى وتبرع الناس بأغلى ما يملكون كما قامت أم كلثوم بجولات فنية متنوعه داخل مصر وخارجها لجمع الأموال والمعادن النفيسة من أجل دعم المجهود الحربى فغنت فى دمنهور وجمعت ٢٨٣ ألف جنيه، وغنت فى المنصورة وجمعت ١٢٠ ألف جنيه وغنت فى الإسكندرية وجمعت ١٠٠ ألف جنيه بخلاف السبائك الذهبية التى كان يتبرع بها الناس، كما جابت أم كلثوم العديد من البلدان العربية لهذا الغرض فزارت المغرب وتونس والكويت ولبنان والسودان وليبيا لجمع الملايين للمجهود الحربى، كما سافرت إلى باريس لتغنى من أجل إيقاظ النخوة العربية وأودعت كل ما جمعته للمجهود الحربى.

وخلال ذلك لاقت أم كلثوم استقبالا رائعا من شعوب هذه البلاد وحكوماتها، كما لقيت حُبًا وترحيبا وتكريما فاق الوصف والتصور. فأم كلثوم تحمل الفن الجميل الجاد الأصيل إلى الوجدان والثقافة فى مجتمعنا العربى. وإلى جانب ذلك قامت أم كلثوم بزيارة الجنود الجرحى فى المستشفيات أثناء وبعد الحملات العسكرية تبث فيهم الأمل وتوزع عليهم الهدايا. ولم تتوقف جهود أم كلثوم على ذلك فبعد انتصارات أكتوبر ١٩٧٣ وكانت الشيخوخة قد بدأت تزحف عليها حاولت حصر جهودها فى التبرع بالأموال لمشروع يحمل اسمها وهو "مشروع أم كلثوم للخير" لخدمة جرحى الحرب ولكنه لم ير النور لمنافسة "مشروع الوفاء والأمل" له والذى نجحت السيدة جيهان السادات فى إقامته ، وهكذا خدمت أم كلثوم وطنها، ووقفت بجانبه خلال المحن وقدمت له العون كل العون من خلال فنها ، وكان عطاؤها بلا حدود.

٥- أم كلثوم ملحنا :

لقد غنت أم كلثوم فى حياتها الفنية حوالى ٧٠٠ أغنية قدمت من خلالها لجمهورها قيما دينية ووطنية عبرت فيها عن صورة متكاملة من الحب الإلهى ، وحب الوطن وحب الحبيب وكان حبها فى كل الحالات شامخا قويا يبشر بأنبل

القيم وأغلاها، كما يبشر بالرغبة فى خلق بيئة ثقافية وفنية وأخلاقية راقية ، وفى ازدهار الآمال المتفتحة فى القلوب حتى أصبحت جزءا من وجدان هذا الشعب الذى أطلق عليها اسم "سومة" تدليلا لها وتحببا فيها، ولحنً لها كبار الملحنين. والسؤال المطروح هو هل فكرت أم كلثوم فى التلحين كما فعل عبد الوهاب وغيره؟ والواقع أن هذا السؤال سأله لها الصحفى المعروف فكرى أباظه بقونه ألم تفكرى مرة فى أن تضربى بأناملك الرقيقة على العود أو القانون أو تلحنى ؟ فكان جوابها "إننى من المعتنقين مبدأ "ما لقيصر لقيصر وما لله لله" فضلا عن أننى مهما تدربت على العود أو القانون فلن أطاول أفذاذ الملحنين ٠ فهل هذا يعنى أنها لم تفكر فى التلحين لقناعتها أن هناك من هو أقدر منها على ذلك(٤٣) ؟ الواقع أن لأم كلثوم محاولات فى التلحين كانت قد بدأتها مبكرة ففى عام ١٩٢٨ لحنت طقطوقه"على عينى الهجر" من كلمات أحمد رامى وفى عام ١٩٣٦ لحنت مونولوج" يا نسيم الفجر" وإلى جانب ذلك يذكر عبد الوهاب أن محمد القصبجى الملحن الكبير كان يدرب أم كلثوم على العود حتى فترة قريبة قبل وفاته(٤٤).

٦- أم كلثوم والمسرح الغنائى :

أخذ البعض على أم كلثوم ابتعادها عن المشاركة فى المسرح الغنائى، ومحاولة بناء أوبرا مصرية. وكان رد أم كلثوم هو أن المسرح الغنائى فى مصر لم يكن أوبرا ولا أوبريتا ولا غناء مسرحيا بالمعنى المفهوم بل كان مجرد أغانى فوق المسرح لا تنسجم مع القصه المسرحية ، فكانت الأغنية تسير فى جانب والموسيقى فى جانب والقصة نفسها فى جانب ثالث ولا يربط بين هذه العناصر الثلاثة أى صلة ، وأنها لا تقبل هذا الأسلوب فى الغناء. وقد حددت أم كلثوم النموذج الأوبرالى الواجب تقديمه فى مصر فقالت "نحن نستطيع بالموسيقى الشرقية والآلات الشرقية أن نقدم أوبرا صادرة عن تراثنا وحياتنا تبهر العالم كله" ولخصت ذلك فى النقاط التالية:

١. إستلهام روح التراث الموسيقى القديم وربطه بواقع الحياة المصرية.

٢. إعداد أصوات مختلفة لتشترك في الغناء وإعداد كورس غنائي مدرب.

٣. المحافظة على الآلات الشرقية والمقامات الموجودة في الموسيقى الشرقية ولا توجد في الغربية.

وإذا تحققت هذه الظروف كلها سيظهر مولد أوبرا مصرية كفن حقيقي(٤٥).

٧- أم كلثوم في ميزان النقد :

ترددت الأقوال عن منع أم كلثوم من الغناء، ومنع أغانيها من الإذاعة في بداية الثورة لأنها من العهد البائد كما ترددت أقوال أخرى حول اختيار أم كلثوم لكلمات أغانيها المليئة بالذل والهوان والاستسلام.

وحول ما تردد من منعها من الغناء بعد قيام الثورة نظرا لعلاقتها بالقصر الملكي ومنحها وسام الكمال لمشاركتها في الاحتفالات الخاصة بميلاد الملك وعيد الجلوس وإعدادها الأغاني الخاصة بمثل هذه المناسبات الملكية مثل (يا مليك النيل ١٩٣٧) و(عيد الدهر ١٩٣٧) و(يا ربوع النيل ١٩٣٨) و(يا بهجة الروح ١٩٤٠) و(يا مليكي ١٩٤٣) و(مولد الفاروق ١٩٤٦) الخ.

هذا إلى جانب قيام الملك فاروق بتكريمها في عام ١٩٤٥ بعد أن غنت له أغنية "في أوان الورد" والتي اختتمتها بكلمات :

أعيـــــــاد في كل مكـــان
بيـــــك يا فاروق تزدان
متجمعـــــــة فـــــي أوان
فيـــــه الوجود فرحـــان
فـــــي أوان الـــــورد(٤٦)

وأنه نتيجة لذلك وعلى الرغم من محاولات أم كلثوم إعلان تأييدها للثورة عند قيامها وذهابها إلى الإذاعة لتشرف بنفسها على حذف بعض الفقرات الخاصة بالعهد الملكي من أغانيها، ولا نتزاع كل ما يتصل بفاروق وعهده من كلمات، وقيامها بغناء قصيدة صوت الوطن في أكتوبر ١٩٥٢(٤٧) فإن كل ذلك لم يشفع لها، فقد تم بأمر من وزير الإرشاد في حكومة الثورة منع أغانيها من محطات

الإذاعة المصرية باعتبارها أحد رموز النظام الملكى السابق حتى تدخل جمال عبد الناصر فور علمه بالقرار، وأمر بإلغاء قرار المقاطعة فورا، وإعادة إذاعة أغنيات أم كلثوم وإعادة حقوقها المادية عن إذاعة بعض أغانيها التى صاحبت بيانات الثورة(٤٨) قائلا إذا كنتم تريدون منع أم كلثوم من الغناء اهدموا الهرم الأكبر(٤٩).

هذا حول ما تردد عن منع أم كلثوم من الغناء عند قيام الثورة . أما عن تعرض البعض لنقد أغانى أم كلثوم فقد قال البعض أنها كانت تختار الأغنيات المليئة بالذل والهوان والحزن والتى تدعو إلى الاستسلام الجماعى من نوع (حتى الجفا محروم منه) وغيرها من الأغانى التى تذرف الدمع حزنا على فراق الحبيب، وتذكر كمية ساعات الليل التى لم تر فيها العيون نوما شوقا إلى لقائه، وقال آخرون أن خيالاتها الغنائية الطويلة جعلت الناس يتعاطون المخدرات وأنها تدعو إلى التعصب الدينى عن طريق أغانيها الدينية وأنها حجبت المواهب الغنائية عن الظهور، والحقيقة غير ذلك فقد استطاعت أم كلثوم أن ترتقى بمستوى الفن الغنائى وحماية الذوق العام فى الوقت الذى كانت فيه مطربات القاهرة المشهورات مجرد عوالم أو أسطوات يسطعن فى الأفراح والليالى الملاح، ويخلطن غناءهن البدائى برش الملح والزغاريد والرقص، وأنه بالرغم من غياب أم كلثوم وانفتاح الأبواب أمام كل الأصوات، فقد ظل مكانها شاغرا لا يستطيع أحد أن يملأه، وظلت أم كلثوم سيدة الغناء العربى بلا منازع، فهى وإن كانت روحها قد ذهبت إلى دار البقاء، فإنها لم تمت فنيا بل سوف تبقى ما دام الجمال متعه وهدفا.

٨- قصة أم كلثوم مع زكريا أحمد :

يحتل زكريا أحمد فى التسلسل التاريخى لملحنى أم كلثوم المركز الرابع بعد الشيخ أبو العلا، والدكتور النحريرى، ومحمد القصبجى، ومع ذلك فإن دوره فى إبراز عبقريتها الغنائية كان أساسيا ويرجع أول لقاء بينهما إلى الثانى من

يونيو ١٩١٩ فى بلدة السنبلاوين دقهلية حيث غنت له مع أخيها خالد. وبعد ذلك بثمانية أيام قام بزيارتها فى قريتها "طماى الزهايرة" وأقنع والدها الشيخ إبراهيم بأهمية انتقالها إلى القاهرة ، واحتراف الغناء ، والانتقال من الإنشاد الدينى إلى الإنشاد الدنيوى.

وقد لحن زكريا أحمد لأم كلثوم ٦٠ أغنية من الصيغ والقوالب الغنائية المختلفة كان أولها طقطوقة "اللى حبك يا هناه" فى مطلع الثلاثينيات و"جمالك ربنا يزيده" ثم لحن لها "أهل الهوى ياليل" و"أنا فى انتظارك" و"كل الأحبة إثنين إثنين[٥٠] " كما تبارى فى تلحين معظم أفلامها مع القصبجي والسنباطى.

وعما أحدثته أم كلثوم من تأثير عليه كتب الشيخ زكريا يقول "أصبحت مفتونا بها، لأننى أحببتها حب الفنان للحن الخالد" وذلك الاعتراف بافتتانه بهـــا يفسر ما أودعه من روحه الحية فى الحانه لها[٥١].

لقد كان زكريا أحمد يقدر أم كلثوم تقديرا شخصيا كبيرا، ويتغزل فى عبقرية صوتها معتبرا إياه هبة استثنائية من السماء كما كان يشيد بشخصيتها الفنية المؤثرة، ويعتبرها خير من يؤدى ألحانه وبالرغم من ذلك فقد حدثت قطيعة بينهما استمرت عشر سنوات بسبب الأجر المادى وإصراره على الندية فى التعامل معها[٥٢] ولعب البعض دورا مقصودا فى إساءة العلاقة بينهما حتى توترت الأمور ووصلت إلى أبواب المحاكم مما أوقف ثمار التعاون بينهما حتى تدخل الرئيس عبد الناصر فى الأمر، وأبدى أسفه ذات يوم لأم كلثوم من حرمان عشاق فنها وفن زكريا من تعاونهما معا، فسعت لتصفية الخلاف إحتراما لرغبة عبد الناصر. وأمام المحكمة أبدى زكريا أحمد أمام القاضى إستعداده للتنازل عن القضية والتعاون مع أم كلثوم بلا شروط، وبلا مقابل أيضا. كما رحبت أم كلثوم بالتعاون مع الشيخ زكريا وبكل الشروط التى يطلبها. وبعد أسابيع قدم زكريا أحمد لحنه لأغنية "هوّ صحيح الهوى غلاب" لأم كلثوم التى استقبلته فى بيتها

بعد سنوات الفراق الطويلة، وجلس زكريا أمامها وأمسك بعوده، وراح يغني كلمات اللحن :

هو صحيح .. الهوى غلاب ما عرفش أنا

وانتهى من أداء الأغنية التى تدور معانيها حول ما وراء الحب من أشجان وألم وندم لا يفيد، وتحول نهار العشاق إلى ليل، ولما سألته أم كلثوم ألم تلحن شيئا آخر؟ وكان زكريا – الذى يعرف أم كلثوم جيدا – مستعدا للسؤال، فأجابها على الفور: بلى .. وقد فعلت ! ثم غناها نفس الأغنية بلحن آخر، مختلف تماما عن الأول وسمعته أم كلثوم فحارت بين اللحنين، أيهما أجمل. ولم يدعها زكريا لحيرتها طويلا، وإنما قال لها بلهجة معبرة. لن تغنى هذا اللحن ولا ذاك، ولكن ستغنين هذا اللحن ! ثم أسمعها نفس الأغنية بلحن ثالث مختلف تماما عن اللحنين السابقين، وهو اللحن الذى غنته للجماهير بعد ذلك. وكان قد استعد به لمواجهة طبيعة أم كلثوم الفنية التى يعرفها عن ظهر قلب. ويعرف عنها أنها لا تقنع أبدا بأول محاولة فنية، فاستعد لها بتلحين الأغنية بثلاثة ألحان مختلفة حتى لا تطلب أى تعديل. وشدت أم كلثوم بالنغم الأصيل بعد طول انقطاع. وطرب الناس له.. وتذكروا الأيام الجميلة التى كانت أم كلثوم لا تغني فيها إلا من ألحان زكريا أحمد. وتذكروا إفتتان زكريا أحمد بصوت أم كلثوم الذى لا يغيب عن باله ولكن العمر لم يهمل زكريا أحمد لكى يقدم لأم كلثوم مزيدا من هذا النغم الأصيل(٥٣). ففى ١٤ فبراير ١٩٦١ صعدت روح زكريا أحمد إلى بارئها بعد أن قدم العديد من الألحان الخالدة التى خلفها من عصارة قلبه واحساساته الفياضة التى لن تموت أبدا(٥٤).

٩- مقلدات أم كلثوم ومطربات عصرها

بعد رسوخ أسلوب أم كلثوم فى الغناء، وتمكنها من فتح مغاليق الحس والتذوق الغنائى للمستمعين، وانفرادها بين كافة معاصريها بالإعجاب، وفد إلى الساحة الغنائية مطربات جديدات فظهرت "آمال الأطرش" شقيقة الموسيقار

"فريد الأطرش" ذات الصوت الشجي الرائع الحساس المعبر والمسيطر على الوجدان لتغنى أغانى أم كلثوم التى كانت من أحب المطربات إلى قلبها ، والتى كانت من أكثر المعجبات بصوتها خاصة وأنها كانت أسبق من غيرها من المطربين والمطربات في تبيان ما فى صوت أم كلثوم من ألوان وطبقات لم يهبها الله لصوت مطربة سواها(٥٥) وبعد أن استمع الملحن "داود حسنى" إلى صوتها فى عام ١٩٣١ تعهدها بالرعاية وأسماها "أسمهان" وعندما استمع إليها الموسيقار "مدحت عاصم" دهش لصوتها الساحر المنطلق من الأسس المحافظة إلى آفاق الكلاسيكية العربية الحديثة بما يتجاوز الحدود التى أصرت أم كلثوم على التوقف عندها(٥٦) فأخذ يتعهدها بالرعاية وأتاح لها الغناء بالإذاعة حتى خرجت على المستمعين بلون جديد من الغناء واتسعت شهرتها ، وبدأت السينما تتجه إليها، وكان أول فيلم تغنى فيه هو مجنون ليلى ثم زاد من نجاحها وشهرتها فيلم "إنتصار الشباب" الذى عرض فى عام ١٩٤٠ وقامت ببطولته مع أخيها فريد الأطرش ونجح نجاحا باهرا(٥٧).أما عن أمتع أغانيها فكانت "ليالى الأنس فى فينا" ضحكتك حلوة يا حبيبى" إمتى حا تعرف إمتى" " يا بدع الورد يا جمال الورد" وعلى الرغم من قيام النقاد بترشيحها للمكان الثانى فى عالم الغناء بعد أم كلثوم ، فقد اختفت لفترة ثم عادت مرة أخرى فى عام ١٩٤٤ حيث شاركت فى فيلم "غرام وانتقام" الذى تقاسمت بطولته مع يوسف وهبى وانشغلت فى تسجيل أغانيه ثم إنتهت حياتها فى عمر الزهور عن اثنتين وثلاثين عاما حيث اختفت إلى الأبد بعد حادث مريب لقيت فيه مصرعها غرقا أثناء ركوبها سيارة إنقلبت بها فى ترعة الساحل بالقرب من المنصورة خلال سفرها إلى "رأس البر" للاصطياف فى ١٤ يوليو ١٩٤٤.

وعلى الرغم من أن أصابع الاتهام فى تدبير مصرع "أسمهان" تشير إلى أجهزة المخابرات البريطانية التى لعبت معها ولحسابها ثم إنقلبت عليها ولعبت

ضدها، فقد سرت شائعة فى معظم أنحاء مصر غداة مصرعها بأن أم كلثوم هى التى دبرت لها الحادث خشية منها على مكانتها(٥٨).

والحقيقة أن أم كلثوم كانت بعيدة تماما عن هذا الادعاء ، وأن المخابرات البريطانية كانت وراء هذه الشائعة لتخفى دورها فى اغتيالها بعد أن ثبت دورها المزدوج وعلاقتها بالمخابرات الألمانية والإنجليزية. وظهرت ليلى مراد(٥٩) تلك المطربة ذات الصوت العذب البديع الذى أعطى للغناء العربى مذاقا خاصا والتى استطاعت أن تربط بين الحب والجمال في أذهان مستمعيها. فقد نشأت على تقليد أم كلثوم ثم انفردت بطريقتها المستقلة خاصة بعد أن شعرت أن الغناء على المسرح أمام التخت ساعات طوالا كما كانت تفعل أم كلثوم من الصعب تكراره، فالتزمت حدودها كمطربة سينمائية الصوت والأداء، لقد برزت ليلى مراد فى عصر الأصوات الجميلة القوية المدربة، واستحقت لقب ملكة الأغنية السينمائية بجدارة حيث أتاحت لها السينما غناء العديد من أجمل الأغانى التى تألق فيها صوتها الجميل ذو البحة الخفيفة النادرة التى تنتاب نبراته بين الفينة والأخرى فى النغمات، فاشتركت فى مجموعة من الأغانى الفكاهية التى ما زال الناس يطربون لها مثل ديالوج "الشحات" مع المطرب محمد فوزى وديالوجات أخرى مع إسماعيل يسن وشكوكو ونجيب الريحانى وغيره ، وقد لحن لها عبد الوهاب العديد من أغانيها، واستخدم أعلى طبقات صوتها فى فيلم "يحيا الحب" كما لحن لها القصبجى لحنه المدهش (أنا قلبى دليلى عام ١٩٤٧) ولحنين جميلين فى فيلم شاطئ الغرام(٦٠).

وبعد أن أعطت ليلى مراد أجمل ما عندها، واقتربت من سن الشيخوخة انسحبت من مسرح الغناء فى هدوء ورأت أن تبقى حلما جميلا فى نفوس مستمعيها. كما ظهرت المطربة اللبنانية "ألكسندرا بدران" التى اسماها يوسف وهبى "نور الهدى" ولكن نجاحها لم يستمر طويلا



وظهرت نجاة على مقلدة لصوت أم كلثوم مستغلة فى ذلك معدن صوتها الجميل، وعاشت أسيرة هذا التقليد ثم تزوجت واعتزلت الغناء بعد ذلك ولم يثر اعتزالها تساؤلا أو دهشة، وكذلك فعلت رجاء عبده وفتحية أحمد، وسعاد محمد، ونادرة وفيروز، ومن المؤكد أن مطربات مثل لطيفة وعليا التونسية أو سميرة سعيد المغربية وغيرها توصلن إلى الشهرة عن طريق ترديدهن لأغانى أم كلثوم، ولكن قوة صوت أم كلثوم ومساحته الواسعة دفعهن إلى التحرك بتلقائية نحو مجالات أخرى من الغناء وهكذا فشلت الكثيرات ممن أردن تقليد أم كلثوم، والجلوس على عرشها خاصة وأن صوتها كان جزءا منها لا ينفصل عنها، صوت ليس ككل الأصوات، كانت تغنى للغناء وحين تشاء لا كما يشاء الآخرون(٦١)، لذلك فإن مقارنة صوتها بغيره من الأصوات يضره أكثر مما ينفعه. وعلى كل حال فالسؤال الذى يطرح نفسه هو. هل كان يجب على أم كلثوم أن تتوقف عن الغناء فى سنواتها الأخيرة كما توقفت عن التمثيل عندما اقترب سنها من الخمسين خاصة وأن ما قدمته للطرب العربى يكفيها عظمة وأبهة، وبعد أن ظهر فى آخر حفلاتها أن صوتها تقطع ، وأنها أخذت تعثر على السلم الموسيقى حتى تدحرجت الدموع من العيون ، يقول أنيس منصور أنه كتب مقالا وجهه بصورة غير مباشرة لأم كلثوم أملا أن تكف عن الغناء فى سنواتها الأخيرة وطلب إليها أن تقرأه وموضوع المقال ماذا يحدث لو أن أم كلثوم توقفت عن الغناء منذ سنوات؟ فالذى قدمته للغناء كثير، وهذا الكثير يجعلها تتفرد بالعظمة فى الأداء والغناء ولكن أم كلثوم لم تع هذا المعنى، ولم تكن تريد أن تتوقف(٦٢) بل أرادت أن يستمر عطاؤها طالما بقيت على قيد الحياة.

أم كلثوم يندر تكرارها :

وهكذا كانت أم كلثوم ذلك النبع الصافى من الفن الرقيق العذب الصادق الذى أسهم إسهاما جوهريا فى خلق الأساليب المتطورة للتلحين والعزف والإيقاع ، وذلك النغم الجميل الذى اخترق الآفاق والذى رفع قدر المطربة وفرض احترامها

على الناس فواجهها الناس بسلوك محترم حتى رحلت فى الخامس من فبراير ١٩٧٥(٦٣) بعد أن أعطت لمصر والعالم العربى فنا رفيعا راقيا، وكان حب الناس لها من حب الوطن وكانت حديث الناس فى العالم العربى كله، وفى العواصم العالمية التى يعيش بها الآلاف من العرب.

إنها ظاهرة ومعجزة فنية وثقافية من النادر تكرارها، فقد ظلت حوالى نصف قرن تبشر بأنبل القيم وأغلاها وهو الحب، وكلما انقضت الأيام ثبت أن صوتها خالد خلود الزمن، وأن أغانيها ما زالت قبلة الشباب والشيوخ معا.

لقد امتلكت كوكب الشرق القلوب وملكت نفوذا هائلا، وحصلت على أرفع الأوسمة من أغلب الحكومات العربية، وظلت مكانتها فى قلوب الملايين خالدة حتى رحلت أم كلثوم بجسدها وإن ظلت باقية بفنها الأصيل، وتراثها الغنائى الجميل الذى تزخر به مكتبات الإذاعة والتليفزيون فى كافة أنحاء الوطن العربى، ولا يزال صوتها العبقرى يملأ الأسماع بأحلى ما صاغته عقول شعرائنا من أغنيات تحمل أسمى المعانى وأجمل الأفكار لتصوغها لحنا من إبداعات عمالقة الملحنين(٦٤).

والسؤال الذى يتردد على ألسنة الناس غالبا هل تتكرر ظاهرة أم كلثوم ؟

الواقع أنه إذا تغير المناخ الذى يعيشه فن الموسيقى والطرب الحالى، وتناسى المطربون الجدد فكرة الكسب السريع ووقفت الدولة بالمرصاد لمفسدى الذوق المصرى، وتنافس الشعراء والملحنون فى إبداع أحلى ما تجود به قرائحهم كما كان يحدث أيام أم كلثوم يمكن أن يبرز على الساحة الغنائية أمثال أم كلثوم التى صبرت فى بداية حياتها كثيرا حتى وصلت إلى ما وصلت إليه ، فمصر دائما ولادة والأمل لا يزال قائما فى الأصوات الواعدة التى يمكن أن تتكرر منها مثل هذه الظاهرة الفريدة.

* * *

الهـوامش

(١) ولدت في ٣٠ ديسمبر ١٨٩٩ في قرية طماى "الزهايرة" التابعة لمركز السنبلاوين دقهلية، وارتوت علم النغم من نبع الشيخ أبو العلا محمد وارتفع صيتها عندما انتقلت إلى القاهرة في عام ١٩٢٢، وكان رحيلها في الثالث من فبراير ١٩٧٥ .

(٢) الكلثوم في بعض معانيه اللغوية الراية الحريرية التي يرفعها الجندي فوق رأسه .

(٣) لم تدخل أم كلثوم مدرسة ولا جامعة ، ولم تتعلم سوى فترة قليلة في الكتاب تعليما بسيطا لا يتجاوز معرفة القراءة والكتابة ، ولكنها بذلت جهودا ذاتية لتثقيف نفسها ثقافة عالية ، وتمكنت من ذلك حتى أصبحت سيدة مثقفة ، لغتها العربية ممتازة قراءة وكتابة ، واستطاعت أن تحفر لنفسها هرما شامخا بين العظماء .

(٤) عاشت أم كلثوم عصر طلعت حرب وسعد زغلول ومصطفى عبد الرازق وأحمد شوقي وطه حسين والعقاد وتوفيق الحكيم وغيرهم .

(٥) ولد في بلدة بني عدى بمديرية أسيوط في عام ١٨٧٨ ، وتعلم في الأزهر، وتحول إلى فن الغناء، وكان متأثرا بطريقة عبده الحامولي في الغناء وبأسلوبه في التلحين ، وظهر ذلك جليا خلال تلحينه لأم كلثوم . قام بتلحين عيون الشعر الرفيع ، كما لحن القصائد الصوفية ، وقد ارتبطت به أم كلثوم ارتباط التلميذ بالأستاذ . وظل الشيخ أبو العلا من أعمدة الغناء العربي حتى وافاه الأجل في الخامس من يناير ١٩٢٧ .

(٦) رجاء النقاش : لغز أم كلثوم ، القاهرة ، مكتبة الأسرة ٢٠٠٠ ص ١٠٧ .

(٧) سهير عبد الفتاح : حياة صوت أم كلثوم ، القاهرة ، مكتبة الأسرة ، ٢٠٠٢ ص ١٧-١٨ .

(٨) غنت أم كلثوم مقطوعات من هذه الأغاني في فرقة عكاشة خلال عرضها رواية "محمد علي وفتح السودان" بمسرح الأزبكية حيث كان يتخللها مقطوعات غنائية .
انظر البلاغ في ١٩٢٦/٣/١٧ والأهرام في ١٩٢٦/٥/٩ .

(٩) كان بيت آل عبد الرازق من بيوت العلم والاستنارة في ذلك الوقت فهو الذي خرج منه علي ومصطفى عبد الرازق .

(١٠) تبنى أمين المهدي رائد هذه الأسرة تعليم أم كلثوم أصول الموسيقى والعزف على العود .

(١١) كمال النجمي : تراث الغناء العربي ص ٧٢ .

(١٢) كمال النجمي : الغناء المصري ص ٥٥-٥٦ .

(١٣) الأهرام في ١٩٢٦/٥/٩ .

(١٤) سهير عبد الفتاح : مرجع سابق ص ١٩ .

(١٥) كمال النجمي : الغناء المصري ص ٥٥-٥٦ .

(١٦) رجاء النقاش : لغز أم كلثوم ، مرجع سابق ص ٢٤ .

(١٧) ولد في ١٩ أغسطس ١٨٩٢ بحي السيدة زينب بالقاهرة ، وتخرج في مدرسة المعلمين العليا ، والتحق بوظيفة في قسم الفهارس بدار الكتب ، وصدر له أول دواوينه في عام ١٩١٨ ، سافر في بعثه إلى باريس لدراسة الفارسية ، وفي عام ١٩٢٤ عين مستشارا فنيا بالإذاعة وعضوا بلجنتي الشعر والفنون الشعبية بالمجلس الأعلى للفنون والآداب .

(١٨) سهير عبد الفتاح : مرجع سابق ص ٢٢ .

(١٩) ولد مع سيد درويش في عام واحد (١٨٩٢) ودرس في كتاتيب الأزهر ثم درس أصول الموسيقى العربية والعزف على العود ، والتحق بمدرسة المعلمين الأولية ، وكان ظهور أم كلثوم بمثابة نقطة تحول في حياته الفنية ، كما كان تطعيمه للموسيقى العربية بالموسيقى الغربية أثرا في إبراز طبقات أم كلثوم الصوتية .

(٢٠) كان أول لقاء للسنباطي بأم كلثوم في عام ١٩٢٢ على رصيف محطة (درين) دقهلية خلال اشتراكها مع والدها في سهراته ولياليه بإنشاد المدائح النبوية والقصائد الدينية ، ولم يكن يدري أحد منهما أنه سيلتقي بالآخر مرة ثانية ، وستكون ثمار لقائهما تلك الروائع والبدائع اللحنية التي تزخر بها المكتبة الغنائية . انظر . بريزم للموسيقى . التاريخ الفني للموسيقار رياض السنباطي ص ١٠ .

(٢١) كان زكريا أحمد صاحب نصيب وافر في رسم الحنجرة الذهبية لأم كلثوم ، وفي تشجيع والدها على العمل بالقاهرة .
(٢٢) لحن داود حسني لأم كلثوم مجموعة من الأدوار والطقاطيق ذات القيمة الفنية العالية .
(٢٣) طبيب أسنان وملحن وتعاملت معه أم كلثوم في بداية حياتها الفنية وقبل احترافها الغناء .
(٢٤) مصطفى الضمراني : قضايا ثقافية معاصرة ص ٦٧ – ٦٨ .
(٢٥) سهير عبد الفتاح : مرجع سابق ص ٦٦ .
(٢٦) المصور : تصريح لأم كلثوم في ١٩٧٥/٢/٧ ص ٢ .
(٢٧) يؤكد ذلك أن أم كلثوم جاءت في المرتبة الثالثة في الاستفتاء الذي جرى في عام ١٩٢٦ عن أحب المطربات فكانت الأولى منيرة المهدية ، والثانية فتحية أحمد ، وكانت الثالثة أم كلثوم .
أحمد زكي عبد الحليم : نساء فوق القمة ، القاهرة ، دار الفيصل ١٩٨٧ ص ١١٨ .
(٢٨) بادر شوقي بكتابة قصيدته الوجدانية البارعة "سلو كئوس الطلا" فكانت أول قصيدة من شعره حفظتها أم كلثوم في عام ١٩٣١ ثم غنت له" الملك بين يديك في إقباله" وقصيدة "ريم على القاع بين البان والعلم" والتي سماها شوقي "نهج البردة" لأنه نسج فيها على منوال قصيدة البردة للبوصيري ، وإلى جانب ذلك فقد اختارت أم كلثوم من ديوان شوقي ما يطابق الأحداث التي مرت بها مصر لغنائها ومنها قصيدة النيل ، وقصيدة إلى عرفات الله . والاشتراكيون أنت إمامهم .
(٢٩) يروى أن أم كلثوم كانت على صلة بحافظ إبراهيم وعبد العزيز البشري وكان لها معهما ومع أصدقائهما جولات وحكايات ، وتعلمت منهما فنون الأدب وفنون النكتة أيضا .
للتفاصيل أنظر عبد العاطي كيوان : الفكاهة والسخرية عند حافظ إبراهيم القاهرة ، النهضة المصرية ١٩٩٧ ص ٦٣ .
(٣٠) بريزم للموسيقى : التاريخ الفني للموسيقار رياض السنباطي ص ١٢ .
(٣١) ولد في إحدى قرى كفر الزيات في عام ١٨٩٩ ، وعشق الموسيقى التصويرية ، وعين مستشارا فنيا للموسيقى والغناء في الإذاعة المصرية ، وبدأ في التأليف الموسيقي للموسيقى التصويرية للكثير من الأفلام السينمائية كما وزع بعض أوبريتات سيد درويش مثل شهر زاد والعشرة الطيبة ورحل عن دنيانا في العاشر من يونيو ١٩٦٣.
أنظر : التأليف الموسيقي المصري المعاصر جـ١ ص ١٣٤-١٣٨ .
(٣٢) محمد السيد شوشة : رواد ورائدات السينما المصرية ، القاهرة ، روز اليوسف ١٩٧٨ ص ٥٤-٦٠.
(٣٣) سهير عبد الفتاح : مرجع سابق ص ٥٤ .
(٣٤) شوشه : مرجع سابق ص ٦٠ .
(٣٥) في عام ١٩٣٤ حلت الإذاعة الحكومية محل الإذاعات الأهلية ، وكان الأستاذ سعيد لطفي أول مدير لها ، وكانت مدة الإذاعة اليومية ١٢ ساعة .
(٣٦) إلياس سحاب : أم كلثوم وملحنوها دراسة بوجهات نظر في مارس ٢٠٠١ ص ٥٥ .
(٣٧) كانت أم كلثوم تبدأ السنة الغنائية بحفلتها في الخميس الأول من أكتوبر وتتوقف في الصيف مع الراحة والاصطياف .
(٣٨) رجاء النقاش : لغز أم كلثوم ص ١١ – ١٢ .
(٣٩) أنيس منصور : عاشوا في حياتي ، القاهرة ، مكتبة الأسرة ٢٠٠٢ ص ٦٥٦ .
(٤٠) لحن السنباطي هذه الأغاني لأم كلثوم بدءا من عام ١٩٤٦ .
أنظر : التاريخ الفني للموسيقار رياض السنباطي ص ١٧ .
(٤١) أقامت أم كلثوم حفلة في منزلها لأبطال الفالوجا الذين حوصروا خلال حرب فلسطين ١٩٤٨ وكان عبد الناصر أحدهم .
(٤٢) حنفي المحلاوي : سيدتان من مصر ، خفايا الصراع بين أم كلثوم وجيهان السادات ، القاهرة ، دار الشباب العربي ١٩٩٤ ص ٢٨-٢٩ .
(٤٣) رجاء النقاش : مرجع سابق ص ٣٠-٣١ .
(٤٤) ضمن حوار سعد الدين وهبة مع محمد عبد الوهاب . أنظر النهر الخالد ، الكويت ، دار سعاد الصباح، ١٩٩٢، ص ٤١ .
(٤٥) خيري شلبي : مرجع سابق ص ٩٨-٩٩ .

(٤٦) نبيل حنفى : أم كلثوم بين عهدين • مقال بهلال فبراير ٢٠٠٢ ص ١٤٨-١٥١ •
(٤٧) مجلة الإذاعة المصرية • العدد ٩١٨ فى ١٩٥٢/١٠/١٨ •
(٤٨) حنفى المحلاوى : سيدتان من مصر ص ١٥٠-١٥١ •
(٤٩) وحول الروايات التى تناولت ذلك الموضوع أنظر سعيد عكاشة • عبد الناصر وأم كلثوم مقال فى هلال نوفمبر ٢٠٠١ ص ١٢٥-١٢٧ •
(٥٠) عبد الحميد زكى : مرجع سابق ص ٤٨ •
(٥١) هشام فاروق : شيخ الملحنين وهواه الغلاب ، مقال بهلال أكتوبر ٢٠٠٠ ص ١٦٤ •
(٥٢) الياس سحاب : مقال فى وجهات نظر سبق ذكره ص ٥٤ •
(٥٣) عبد الوهاب مطاوع : عاشوا فى خيالى ، القاهرة ، مكتبة الأسرة ١٩٩٩ ص ٩١ – ٩٢.
(٥٤) عبد الحميد زكى : مرجع سابق ص ٤٨-٥٠ •
(٥٥) سعيد أبو العينين: أسمهان لعبة الحب والمخابرات، القاهرة كتاب اليوم ، سبتمبر ١٩٩٦ ص ١٢-١٣
(٥٦) إلياس سحاب : أم كلثوم وملحنوها ، ص ٥٢ •
(٥٧) سمير فريد : فريد الأطرش لحن الخلود ، القاهرة ، أمادو للنشر ١٩٦٦ ص ٣٨ •
(٥٨) أبو العينين : مرجع سابق ص ٢٢٦ •
(٥٩) نشأت فى أسرة فنية فوالدها المطرب زكى مراد ، وشقيقها الملحن منير مراد وقد أحبت الغناء من أبيها الذى ورثت عنه جمال الصوت •
(٦٠) القاهرة ، العدد ١٥٨ فى يناير ١٩٩٦ مقال للأستاذ كمال النجمى تحت عنوان "ليلى مراد ملكة الأفلام الغنائية".
(٦١) لمعى المطيعى : نساء ورجال من مصر ، مرجع سابق ص ١١-١٢ •
(٦٢) أنيس منصور : عاشوا فى حياتى ، القاهرة ، مكتبة الأسرة ، ٢٠٠٠ ص ٣٩٠ •
(٦٣) في الساعة الحادية عشرة من اليوم المذكور بدأ سير الجنازة وكان من المقرر أن تنتهى عند جامع جركس ، ولكن المشيعين لم يأبهوا لذلك ، بل توجهوا إلى مسجد الإمام الحسين حيث صلوا على جثمانها هناك وسط حشد هائل من محبيها ، لمعى المطيعى : مرجع سابق ص ١٨ •
(٦٤) الضمرانى : مرجع سابق ص ٦٦ •

أزمــــة الحقــوق الاجتماعيــــة

د. السيد حسن عباس
المحامي والخبير الاستشاري في
الشئون العمالية والتأمينات

الحقوق الاجتماعية التي نعنيها في بحثنا هذا تتمثل في توفير فرصة العمل والرعاية الصحية عند المرض, وتأمين الدخل المناسب عند بلوغ سن الشيخوخة, أو عند العجز الكلي أو الجزئي سواء كان هذا العجز طبيعياً أو نتيجة إصابة عمل, وكذلك عند الوفاة بالنسبة لمن كان يعولهم من أفراد الأسرة.

لقد كانت رغبة الحصول على ضروريات الحياة الأساسية مطلب قديم واجهته الإنسانية على مدار التاريخ, وإن اختلفت هذه الضروريات من حيث نوعها وطبيعتها وطريقة الحصول عليها باختلاف الزمان والمكان .. فلم تكن هذه الضروريات من وجهة نظر الإنسان البدائي إلا مناعة كهفه قبل أي شيء آخر .. ذلك أن هذه المناعة هي التي كانت توحي إليه بالأمن والقدرة على التخلص من ضراوة الوحوش وطغوى البشر ...

وبتحضر الإنسان ازدادت هذه الضروريات كماً وكيفاً, فلم تعد مناعة الكهف هي المطلب الأساسي والضروري وإنما غدا تأمين المأكل والملبس والمسكن والعلاج .. إلا أنه صاحب هذا التحول تطور آخر في مجال العلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية جعل الحصول على مثل هذه الضروريات في بعض الأحيان أمراً صعباً وقد يكون في بعض الأحايين الأخرى أمراً مستحيلاً لأمر خارج عن إرادة الإنسان وغير راغب فيه , حيث لم تكن الدولة تلتزم بتأمين هذه الضروريات أو تسهر على علاج المشكلات المترتبة على عدم تأمينها كالفقر والمرض والجريمة ..

ولذلك فإن مشكلة عدم تأمين ضروريات الحياة الأساسية كانت من أخطر المشاكل التي واجهت الجماعة، وهددت كيانها ووجودها، ومهدت لظهور حركات فكرية وسياسية متعددة تتوخى جميعها علاج هذه المشكلة، أو تخفيف حدتها على الأقل عن طريق معالجة التفاوت الاقتصادي ومسح جراح الجماهير التي كانت تكتوي بجحيم الظلم الاجتماعي ونار الحرمان والمهانة والضياع .

وإذا لم يكتب لبعض هذه الحركات أن ينجح، إلا أنها في مجموعها استطاعت أن تؤثر تأثيراً فكرياً وعميقاً كانت له آثاره في تطور الفلسفة السياسية على المستوى المحلي والدولي، وتوج هذا الكفاح الشريف بجعل الحق في تأمين هذه الضروريات حقاً دستورياً من حقوق الإنسان ، ولم يعد مجرد منحة أو تفضل محسن .

ولقد كان تطور الوسائل والأساليب التي عالجت بها الجماعة هذه المشكلة على مر التاريخ ، تتجه دائماً نحو الأسلوب الجماعي وإناطة الدولة بدور إيجابي وفعال .. إلا أن هذا التطور كان تابعاً لتطور آخر برز في الفلسفة السياسية، سابقاً عليه ومؤذناً به، ومهيئاً المناخ السياسي والاجتماعي لقبول الفكرة كالتزام عام يقع على عاتق الجماعة في مواجهة أعضائها.

والحقيقة أن هذا التطور الأخير بدأ يظهر منذ القرن الثامن عشر تحت وطأة الاستغلال والظلم والعبودية التي عرفتها البشرية كثمار مبكرة للثورة الصناعية.. ولقد كانت الدعوة إلى الاشتراكية، وإلى مفهوم جديد للعدل الاجتماعي ما حمله هذا التطور الجديد في مواجهة هذا الاستغلال وذاك الظلم.

ولقد لعب الفكر الماركسي دوراً رئيسياً في هذا التطورحيث هاجم أنصار المذهب الشيوعي الديمقراطية التقليدية في الأنظمة الغربية هجوماً عنيفاً ووصفوها بأنها ديمقراطية شكلية وسطحية لأنها لا تقدم سوى حريات نظرية للأفراد ولا تهيئ لهم الظروف التي تمكنهم من التمتع بهذه الحريات فعلاً، إذ أنه لا يكفي منح الفرد حريات سياسية وشخصية دون أن يكون في مركز قانوني

يسمح له فعلاً بمزاولة هذه الحريات، وأن مفهوم الحرية السلبية لم يعد يصلح فلسفة سياسية للحكم، بل إن الحرية الإيجابية والعدالة الاجتماعية هي الطريق إلى الخلاص من العبودية والظلم والاستغلال والوسيلة الفعلية للتحرر من الخوف والتحرر من العوز.

ولم تستطع الديمقراطية التقليدية أمام هجوم الفكر الماركسي إلا أن تسلم بفكرة الحقوق الاجتماعية وبتدخل الدولة لمعاونة الفقراء وتأمين العمال أمام حوادث الحياة غير المرتقبة وأهمها المرض، والإصابة، والعجز والوفاة، بعد أن كانت فكرة تأمين الحاجات الأساسية يخرج عن نطاق وظيفة الدولة التقليدية كما لم يكن لأحد من أعضائها أن يطالب بهذا الحق، وذلك كضرورة حتمية لمقاومة الدعوات الاشتراكية .

ولا شك أن قائمة الحقوق الاجتماعية تختلف ضيقاً وسعة من دولة إلى أخرى بحسب فلسفتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية، إلا أنها جميعاً تجد أساسها في تحقيق العدالة الاجتماعية، وتخفيف حدة التفاوت بين الطبقات وإزالة عوامل الضغط والسيطرة الاقتصادية وتوفير الشروط الأساسية والضرورية للتمكين من التمتع بالحقوق والحريات التقليدية فعلاً .

إن تصوراً جديداً لفكرة الحقوق الاجتماعية كالتزام يقع على عاتق الدولة في مواجهة أعضائها قد عرف طريقه إلى التشريعات الوضعية وأرسيت قواعده وإطاره في الدساتير الحديثة والقوانين العادية إلا أن طبيعة النصوص الدستورية التي قررت هذه الحقوق قد اختلفت في تكييفها.. فالفكر الديمقراطي المعاصر وإن سلم بتقرير الحقوق الاجتماعية في اتجاه يقترب من النظرية الاشتراكية إلا أنه كان حبيس مبادئ المذهب الحر التي تدين به النظم الرأسمالية حيث ذهب فقهاء القانون الدستوري في الأنظمة الغربية إلى تقسيم النصوص الدستورية إلى نوعين من النصوص: نصوص تقريرية ونصوص توجيهية ويرتبون للنصوص الأولى دون الثانية الأثر المباشر والحماية القانونية ويعتبرون كافة النصوص المتعلقة

بالحريـات والحقـوق العامـة التقليديـة نصوصـا تقريريـة ومـا يتعلـق بـالحقوق الاجتماعيـة والاقتصـادية نصوصـا توجيهيـة وأقـاموا حجـتهم علـى أن نصـوص الحقـوق الاجتماعيـة تحتـاج إلـى الوصـف المحـدد لإمكـان نفاذهـا ولـم تلجـأ هـذه الأنظمة إلى صياغة الحقوق الاجتماعية بشكل غير محدد اللهم إلا إذا كـان وراء ذلك هدفاً تبتغيه، فالصياغة القانونية الصحيحة هي التي تجيد التعبيرعن جوهر القانون بغير تصور أوتجاوز ومن ناحية أخرى فإن جوهر القانون لا يكون لـه فاعليتـه الحقيقيـة إلا إذا أمكن التعبير عنـه تعبيراً فنياً صـادقاً وذلـك علـى عكس الأسلوب الاشتراكي في الصياغة حيث كان جاداً وحازماً ويمثل اتجاهاً فنياً فـي مجال الصياغات الدستورية وتميزت صياغته بخاصيتين فريدتين لم تتوافر بشكل عام في الصياغات التقليدية وهما:-

الأولى: لـم يكتف المشرع بتقرير الحق ومداه، وإنما عنـى فـي فقرة تاليـة، بتحديد الوسيلة المؤدية إلى تحقيق الوفاء الفعلي ..

الثانيـة: جعـل للحقـوق الاجتماعيـة أولويـة علـى الحريـات التقليديـة إذ أن الأولى– كما يرى المذهب الاشتراكي ويتفق معه المذاهب السياسية الأخرى وإن اختلفت فلسفتها السياسية– أن الحقوق الأولـى تعتبر الشرط الضروري لتحقيق الثانية بشكل فعلي وعلى ذلك فتبدأ بالنص على الأولى ثم تتبع بالثانية، دلالـة منهـا وتأكيداً على هذا الاتجاه ..

إن الحقوق الاجتماعية التي ترتب بطبيعتها عبئاً على الدولـة كـان مضمونها محدداً وإمكانية نفاذها الفعلي قائمـة مـا دامـت هنـاك عوامل ثابتـة ومستقرة تعمل على تحديدها ولا يستلزم تفصيل هذه الحقوق وبيان الشروط لتعذر ورود ذلك فـي صلب الدساتير وذلك للأسباب التالية:-

١- أن مثـل هـذه الحقـوق قـد سبق تحديـد إطارهابشـكل عـام فـي الأنظمـة الوضعية، بل قد يوجد بعضاً منها قبل بعض الحريات التقليدية كإعانات اجتماعية .. ويبقى الاختلاف في مستواها بحسب إمكانيات كل دولةومستوى المعيشة فيها..

٢- أن معايير هذه الإعانات يرتبط عادة بالدخل السابق على حدوث الواقعة الموجبة للاستحقاق وهو متمثل عادة في الدخل سواء كان متمثلاً في الأجر أو في أي مصدر آخر من مصادر الدخل

٣- أن هذه الأنظمة قائمة في معظم البلاد إن لم يكن جميعها، وفي حالات تعذر تحديد الدخل فإنه يمكن الأخذ بمعيار الحد الأدنى للأجور أو الحد الأدنى للمعاشات التي تأخذ به التشريعات الوطنية

٤- إن القضاء الذي سبق أن لعب دوراً ثورياً وتقدمياً في مجال حماية الطبقات الكادحة وقرر لهم التعويضات عن إصابات العمل على أساس نظريات الخطر المهني ومبدأ تحمل التبعة، ابتدعها وصاغها كمخرج لتحقيق الحماية والرعاية، أولى أن يقوم بهذه المهمة على مستوى أعظم وأخطر لضمان الحاجات الأساسية لكل مواطن بموجب النصوص الدستورية الصريحة ..

إن الحقوق الاجتماعية يتوافر لها عوامل التحديد بشكل دقيق يمكن من إمكانيات النفاذ الفعلي وإلزام الدولة بها.

فماهية هذه الحقوق تتحدد من حيث الموضوع بضمان مستوى المعيشة اللائق بالإنسان في حدود إمكانيات كل دولة ومستواها الاقتصادي، والذي يتضمن بشكل أساسي التغذية، والملبس والمسكن والعناية الطبية والخدمات الاجتماعية اللازمة بما يكفي المحافظة على الصحة والرفاهية له ولأسرته ويحرره من الفزع والفاقة ..

وتجد هذه الحاجات إشباعها من خلال توفير فرصة العمل المناسب وضمان الأجر العادل والذي يجب أن يكون حده الأدنى كافياً لتغطيته وإشباع هذه الحاجات، وينتهي التزام الدولة- على تفصيل في ذلك- في مواجهة الفرد القادر على العمل بتوفير فرصة العمل هذه، بل وقد ينقلب الحق في العمل إلى واجب العمل في حالة تقاعس الفرد عن إعالة نفسه بنفسه ويصبح للدولة أن تجبره على العمل ليتكسب معاشه ..

فإذا تعذر إشباع هذه الحاجات من خلال الأجر بسبب عدم توافر فرصة العمل، قامت الضمانة الاجتماعية بإشباع هذه الحاجات– والتي تمثل موضوع حق الضمان الاجتماعي بمعناه الضيق من خلال الرعاية الطبية في حالة المرض، والمعونة المالية في حالة البطالة اللاإرادية أوفي حالة العجز المؤقت عن أداء العمل بسبب المرض أو الإصابة أو الولادة، والمعاش في حالة الشيخوخة أو الوفاة أو العجز الدائم، والإعانات الاجتماعية– المرتبات العائلية– إعانة الإسكان وغيرها– وفي حالات انخفاض الأجر ..

وتؤدي هذه الخدمات جميعها عن طريق وسيلة عامة، قد تكون التأمين الاجتماعي أو المساعدة الاجتماعية أوهما معا– وبصرف النظر عن قيمة هذه الوسيلة فإنه يجب أن يكون الأداء بواسطة مرفق عام .

وحقاً كهذا يتحدد نطاقه بمنافع ومزايا مادية لا يختلف في طبيعتها اثنان وإن اختلف مداها بحسب مستوى الرفاهية والرخاء في كل بلد..

وحقاً كهذا يؤدى عن طريق مرفق عام وتجد أنظمته مصدرها إما في قوانين عادية أوفي نصوص دستورية أو إعلانات دولية ينتفي عنها الغموض أو الإبهام، ويكون تصور إمكانية تنفيذه لا محالة قائم ..

ومع هذا كله فإن الفقه والقضاء في الأنظمة الغربية يرون أنها حقوق غير قابلة للمطالبة القضائية وأنها ليست خاضعة للتقاضي– استثناءً– أمام المحاكم الدستورية .

لقد انتقد بيردو وصف بعض الحقوق بالصفة الاجتماعية والبعض الآخر بالصفة الفردية، وعنده أن الحقوق جميعا– التقليدية منها والاجتماعية– لا توجد إلا بوجود الجماعة وتحت حمايتها وتنظيمها، ومن ثم فهي كلها حقوق اجتماعية وبعبارة أخرى تكون جميع الحقوق فردية من حيث أصحابها ولأن الحق أيا كانت تسميته يفترض صاحبا فرداً يحتج به في مواجهة الجماعة، ومن ثم تكون الحقوق جميعاً فردية من حيث أصحابها واجتماعية من حيث ممارستها..

ويستدل من وحدة الصفة التي انتهى إليها "BERDEAU " في أنه لا يوجد اختلاف عضوي أو جوهري بين هذه الحقوق وأنها جميعاً حقوق دستورية وإن كان التسليم ببعضها جاء تاليا للبعض الأخر ، فنفس الحال مرت به الحريات التقليدية حيث لم يعترف بها كلها مرة واحدة وإنما كان ظهورها تدريجياً كذلك، ومن ثم فإن إضفاء القوة القانونية على إحداها دون الأخرى تمييز لا مبرر له ..

كما ذهب البعض إلى أنه إذا سلمنا بأن الدستور السياسي ما هو إلا وثيقة قانونية تعلو قيمتها القانون العادي، فإنه يجب أن يكون كذلك الدستور الاجتماعي والذي يتكون بشكل أساسي من الحقوق الاجتماعية حيث أن الدستور الثاني لم يكن أقل أهمية من الدستور الأول..

ونقطة أخيرة في هذا الصدد تتعلق بمبدأ العلو للنصوص الدستورية.. فهذا المبدأ لا يتصور له وجود إذا ما أصبحت بعض النصوص الدستورية مجرد لافتات لخداع الجماهير– على حد تعبير الماركسية– وأن هذه النصوص الدستورية لا بد أن تكون دائماً وأبداً حية تمارس دورها الخلاق، وفاءً لما قدمته جماهير الشعوب من دماء ثمناً لها.. والدولة أمامها الخيار.. إما أنها ترى في قدرتها– وإمكانيتها ما يمكنها من الوفاء بهذه الواجبات فتقررها في دستورها وتنظمها في تشريعاتها العادية وإما أنها ترى غير ذلك فلا حاجة بنصوص يراد بها خداع الجماهير وتضليلها...

ولقد كان الماركسيون على حق حينما أعلنوا أن في دساتير عدد كثير من الأقطار الرأسمالية توجد حقوق اجتماعية، ولكن هذه النصوص لا تقدم في الواقع غير بعض الارتياح المعنوي، وتتحول الحقوق الدستورية في الأقطار البرجوازية– كقاعدة– إلى عرض للديماغوغية الاجتماعية وللخداع المفضوح والاستهزاء بالطبقات الكادحة، وحتى في البلاد التي تتمتع بمستوى اقتصادي عال يكون لحق العمل والحقوق الاجتماعية والاقتصادية الأخرى طابع برنامجي.. في غالب الأحيان ..

وهذا ما لاحظه الأستاذANDRE HAEURIOU- بحق- وأن الحقوق الاجتماعية قد توجد في نصوص بعض الدساتير تحت الضغط السياسي لهيئة الانتخابات، ولهذا فمن الواضح أن الإمكانيات الحقيقية ما زالت في نواح كثيرة إمكانيات نظرية والأجدى تيسير وتنظيم الحقوق الاجتماعية لتسير في طريق المساواة الفعلية..

إلا أنه باستعراض وجهات نظر الفقه الغربي بصدد الحقوق الاجتماعية المختلفة نجد أن الرأي يتجه بوجه عام إلى أن مثل هذه الحقوق لا تعتبر حقوقاً دستورية أصلية، أو بتعبير آخر أن هذه النصوص الدستورية لا يترتب عليها حقوق عامة شخصية وإنما هي بمثابة قواعد توجيهية بالنسبة للمشرع وتفسيرية بالنسبة للإدارة والقضاء..

ومن هنا نرى أن الفقه يكاد يكون متفقاً على هذه النتيجة وإن اختلفت الحجج والتبريرات التي قيل بها في تأسيس وجهة النظر هذه..

والحقيقة التي بدت للباحث أن موقف الفقه الغربي في هذه القضية ينطلق من منطلق متحيز لمبدأ معين منذ البداية، ومن ثم كانت حججه وتبريراته لا تستند على اعتبارات الفن القانوني بقدر ما تستند على اعتبارات مذهبية، فلم يكن يهتم كثيراً بأصول القواعد في التفسير القانوني بقدر ما يراعي ضرورة الولاء لمبادئ المذهب الحر وتصوراته للحقوق والحريات..

ومن هنا فإن جوهر القضية يتبلور في أن الفلسفة السياسية الجديدة للأنظمة الديمقراطية المعاصرة وإن كانت تمثل تحولاًعن الفلسفة الحرة والتخلي نسبياً عن مبادئ المذهب الحر، إلا أنها لا تعتنق فلسفة جديدة ومستقلة بقدر ما تلائم بين مبادئ المذهب الحر والاتجاهات الاشتراكية، إذ أنه بالرغم من كل التعديلات التي أصابت النظرية التقليدية في دول المذهب الحر فإن هذه الدول لا تزال تختلف عن دول النظام الاشتراكي في الأساس الفلسفي وإن التقت معاً في كثير من الحلول التطبيقية..

ومرد ذلك أن دول المذهب الفردي تجعل النظرية الفردية كأصل فكري لبنائها السياسي والاقتصادي وتأخذ ببعض الاتجاهات الاشتراكية بقدر ما توجبه الضرورة لعلاج مساوئ النظام الرأسمالي وتخفيف حدة أخطاره وعلاج ما تسبب عنه من مظالم اجتماعية واقتصادية، فضلاً عن محاربة الدعوات الاشتراكية بتفريغها من محتواها.. والذي يتمثل بالدرجة الأولى في الحقوق الاجتماعية والاقتصادية، وهذا يفسر – من وجهة نظرنا – حقيقة التناقض الظاهري بين موقف الفقه من هذه الحقوق وإنكاره عليها أية حماية قانونية، وقيام الأنظمة السياسية بإنشاء أنظمة التأمينات والمساعدات الاجتماعية للوفاء بهذه الحقوق – في بعض البلدان الرأسمالية بصورة تقدمية وبشكل عام لا يقل عما تقدمه الدول الاشتراكية..

وتتعهد الدول الرأسمالية هذا التناقض وتعمل على إنكار الحماية القانونية إذا كان في ذلك مصلحة النظام الرأسمالي.. ودليل نسوقه من السياسة المعاصرة، تلك الإجراءات التي أعلنها الرئيس الأمريكي نيكسون في ٧١/٨/١٦ لحماية الدولار والتي كان من بينها فصل ٥% من الموظفين وتجميد الأجور والعلاوات التي كان مقرراً صرفها للموظفين ..

فما كان يستطيع رئيس دولة أن يعلن فصل ٥% من الموظفين في ظل نص دستوري يقرر حق العمل وتكفل له الحماية القانونية.. ولكن إذا كان ينظر إلى مثل هذه الحقوق كوسائل إصلاح قصد بها حماية النظام السياسي والاقتصادي، فإنه لا يمكن الاستعاضة عنها بغيرها إذا كان ذلك من مصلحة النظام كذلك. وهذا الفارق الجوهري بين الحق والتدبير الإصلاحي، فالحق لا تستطيع الدولة إنكاره أو الاعتداء عليه ولكن التدبير الإصلاحي قد تتراجع عنه إذا كانت ترى من وجه نظرها حماية النظام الاقتصادي والذي يمثل بطبيعة الحال حماية أصحاب رؤوس الأموال.

ومن هذا نرى أن التشريعات الغربية حينما قررت حق الضمان الاجتماعي،

فإنها كانت تستهدف كسباً سياسياً بالدرجة الأولى، دونما نظر إلى رفع مستوى معيشة الكادحين أو تخفيف أعبائهم بشكل جدي، وحتى المذاهب الماركسية حينما رفعت هذا الحق شعاراً فإنما كانت تجعله طعماً للطبقات الكادحة في جميع أنحاء العالم كمظهر من مظاهر الرفاهية التي يبشر بها النظام الماركسي في جنته على الأرض. وبالرغم من أنه لم تستطع تحقيق هذا الحلم لبعض عمالها أنفسهم كالعمال الزراعيين مثلاً فإن هذا الشعار ما لبث أن خطف أبصار العمال الذين هددتهم الأنظمة الاقتصادية الرأسمالية في وجودهم وأهلكتهم في أبدانهم وأصبحوا ضحايا الإنتاج الكبير يقبعون في أوكار من الفقر والبؤس والذل- جياع البطون عراة الأبدان حفاة الأقدام مرضى الأجسام قلوبهم محشوة بالحقد على المترفين الذين استعبدوهم وأذلوهم وعلى الدولة التي فقدت مبرر وجودها وأساس شرعيتها.

ولما خافت الأنظمة الديمقراطية على وجودها وكيانها حادت عن مبادئ مذهبها الحر والذي يقضي بعدم تدخل الدولة لحماية الضعفاء وتركهم للطبيعة تعمل فيهم قانونها بالموت جوعاً.. حادت هذه الأنظمة عن مبادئ المذهب الحر، لا إيماناً بحق الفرد في الحياة الكريمة وتمتعه بكل الوسائل التي خلقتها الحضارة وشارك بجهوده وعرقه في وجودها.. وإنما كان ذلك بهدف أن تفقدهم أساس مطالبهم الجماعية والتي تهدد نظامها السياسي والاقتصادي وأن تستميلهم إليها وتبعدهم عن الأفكار الماركسية التي بدأت تنتشر بين صفوف العمال كرد فعل للظلم الاجتماعي الذي يحيق بهم ومن يعولون.

وبعد هذا العرض يسهل علينا تحديد أزمة الحقوق الاجتماعية فلقد انهار النظام الشيوعي في روسيا وانهارت معه حجج الاشتراكيين والأنظمة الاقتصادية التي أقاموها وفقاً للتصور الاشتراكي والفلسفة السياسية التي يعتنقها. كما تفككت أوصال الاتحاد السوفيتي وتفرقت دوله وهرول الكثير منها إلى حظيرة النظام الرأسمالي يعيدون بناءهم من جديد وفقاً لمبادئ هذا النظام وفلسفته السياسية

وحيث سقط النظام الشيوعي وسقطت معه مبادئه وأصوله الاقتصادية لم يعد النظام الغربي في حاجة إلى الالتزام بمستوى الحقوق الاجتماعية التي وصلت إليه في فترة المواجهة وبدا أهمية التكييف القانوني الذي حرص عليه الفقه القانوني في الأنظمة الغربية من أن النصوص الدستورية التي تقرر الحقوق الاجتماعية ليست إلا نصوصاً توجيهية لا تلزم الدولة ولا يمكن للفرد المطالبة بها قضائياً وأنها لا تعدو أن تكون إطاراً لبرامج الدولة تنفذها وفقاً لتصوراتها وما تقتضيه مصلحة النظام السياسي والاقتصادي وعليه فلا غرابة أن نرى الأنظمة الرأسمالية وهي تحاول تقليص المزايا والمنافع التي تقررها الحقوق الاجتماعية بدعوى الإصلاح الاقتصادي بما يمثل ردة في مجال الحقوق الاجتماعية ويثير أزمة حادة بين مواطني معظم هذه البلاد الرأسمالية والتي لا يعرف أحد مداها وخير شاهد على ذلك ما تناقلته الصحف والفضائيات من المظاهرات العارمة في كل البلاد الأوربية وخاصة فرنسا وإنجلترا وأخيراً ألمانيا...

وهكذا نرى أنه إذا كانت الفلسفة السياسية التي كان يقوم عليها النظام الماركسي سبباً في ازدهار الحقوق الاجتماعية في البلاد الرأسمالية حتى غدت تفوق مزاياها الأنظمة الاشتراكية فإن سقوط النظام الشيوعي في روسيا كان السبب في أزمة الحقوق الاجتماعية وإقدام الدول الرأسمالية على تقليص مزايا ومنافع الحقوق الاجتماعية .

R.O. Lyne *The Latin Love Poets From Catullus To Horace* (Oxford 1980) 147 f., who argues that Propertius was not in any real sense a Callimachean poet but he was prepared to adopt Callimachus' mantle and invoke his authority for this purpose.

37- Although the hymn-genre was not the invention of Alexandria, the Homeric hymns are a best known example, but it was favoured and cultivated in Alexandria.

38- This sort of fusion of Alexandrian and Roman thought was not uncommon in Augustan literature. Cf. my "Alexandria Versus Rome In The Aristaeus Of Virgil", in: *L'Egitto In Italia* (Roma 1998) 111-120.

both treatments (Virgil's & Horace's) reflect and respond to the sentiments of the official version. But according to Propertius, instead of a virago, Octavian only defeated a weak, inebriated woman. Thus, by diminishing his enemy's stature, Propertius tacitly criticizes Augustus. M.Comber, "A Book Made New: Reading Propertius Reading Pound. A Study In Reception", *JRS* 88 (1998) 48, points out to an implied argument in Propertius (3.11). He shows how political correctness is wickedly undermined. For, he argues, if Cynthia (Propertius' girl-friend) is Cleopatra, then surely it follows that Propertius must be Antony. Cf. J. Griffin, "Propertius And Antony", *JRS* 67 (1977) 17-26. Sullivan (1976) 23, finds it hard to interpret Propertius (3.11) as a seriously intended eulogy of Augustus, if we look at the poem in the context of the previous poems.

31- Prop. 2 .1.17 ff ; 3.9.1ff.

32- See n. 29 above. Sullivan (1976) 147, comments on 4.6 by saying that it reads like a parody of court poetry.

33- Cf. Sullivan (1976) 44.

34- Pillinger (1969) 190 believes that in this hymn of praise to Augustus (i.e. poem 4.6) we have Propertius' most elaborate and enthusiastic endorsement of the imperial house and mission. L. Richardson, *Propertius. Elegies I-IV*, ed. with introd. & commentary (Oklahoma 1976) 446, reads poem (4 .6) as Propertius' attempt to satisfy the wish of Maecenas to try his hand at some important historical or epic theme.

35- For good analysis of this point see: W. Clausen, "Callimachus and Latin Poetry", in: *Approaches to Catullus*, ed. K. Quinn (Cambridge 1972).; G. Hutchinson, *Hellenistic Poetry* (Oxford 1997) chap. 6.

36- It is agreed by some scholars that Book 4 of Propertius is his most obviously Callimachean book. B. Arkins, "The Freedom of Influence: Callimachus and Latin Poetry", *Latomus* 47 (1988) 290 ff., argues that Propertius is not merely a follower in the footsteps of Callimachus, but "the actual Latin embodiment of Callimachus". Arkins believes that poem (4.6) about Actium is the most strikingly Callimachean poem: "Propertius has found a way to write political poetry in a Callimachean manner." p. 292. A similar view is held by Paul Veyne, *Roman Erotic Elegy: Love, Poetry, and the West*, trans. by D. Pellauer (Chicago 1988) 30. Veyne believes that Propertius had the strength to take hold of Callimachus' art as if it were his own. For an adverse view see:

23- There was a great emphasis on Apollo in the literature of the age. In the *Aeneid*, the greatest Roman epic, Virgil portrays Apollo as participating directly in the action of the ninth book. He also drove Aeneas, the Roman hero, towards his appointed destination. There was a belief that Apollo saved Rome at the battle of Actium. According to the *Aeneid*, the enemies fled back to the Nile, fearing Apollo's bow (*Aen.* 8.698 ff.). Long ago, Haight (1918) 347 ff., points out in the Augustan poetry to what he calls "an inspired message" (possibly coming directly from the emperor, perhaps through Maecenas) which thought to emphasize the Apollo cult, and often to identify Augustus with Apollo, and to interweave the exaltation of Apollo-worship with the imperial theme.

24- There is anachronism in using the title of Augustus during the events of the battle of Actium in 31 B.C. Octavian received this title in 27 B.C. Could it be some sort of anticipation?

25- In this poem, as in poem (3.11), the so-called Cleopatra elegy, Propertius avoids mentioning Cleopatra by name.

26- After the murder of Julius Caesar, a star appeard in the sky. A popular belief was circulated to the effect that this star was his deified spirit. Cf. Suetonius, *Div. Iul.* 88.

27- Jugurtha was the king of Numidia, in North Africa, who was conquered by Marius in 106 B.C.

28- As Francis Cairns, *Tibullus: A Hellenistic Poet At Rome* (Cambridge 1979) 17, aptly puts it: "the triumph is the most significant event in the politico-military life of the Roman state". For the importance of the triumph theme in the Augustan programme, see: F. Hickson, "Augustus *Triumphator*: Manipulation of the Triumphal Theme in the Political Program of Augustus", *Latomus* 50 (1991) 124-138.

29- In Ancient Greek and Roman thought the underworld was the hereafter.

30- In poem (3.11), the so-called Cleopatra elegy, Propertius cites several examples from mythology as parallels to the woman who rules his life. Then he cites the example of Cleopatra as a climax to all. This poem has been interpreted by scholars as a direct comment on Virgil's and Horace's treatments of the theme. In *Aeneid* (8.675-728), and in Horace's (*Od.*1.37), Cleopatra is portrayed as no ordinary woman, a worthy oponent for Octavian/Augustus. A. Tronson, "What the Poet Saw: Octavian's Triple Triumph, 29 B.C. Jeremiah Markland's Conjectures At Propertius 3.11.52-53", *Acta Classica* 42 (1999) 177, argues that

14- Cf. Callim. *Hymn To Apollo*, 1 ff. For details about Callimachus' *Hymn To Apollo*, See: P. Fraser, *Ptolemaic Alexandria* (Oxford 1972) 653 ff.

15- With very few exceptions, Greek and Roman poets appeal to the Muse (or one of them), at the beginning of their poems, for inspiration.

16- Philitas, the great Alexandrian elegiac poet, was born in Cos, c. 320 B.C.

17- Propertius, here, is referring to the Alexandrian poet Callimachus, who was born in Cyrene in North Africa. Cyrene was attached to the god Apollo who was one of its chief deities, and was considered its founder. The mention of water in this context is very suggestive, as it was a basic element in Callimachus' critical conception. Pure water for him was the main source of poetical inspiration.

18- It is worth mentioning that Callimachus was much interested in Apollo, both as the chief deity of his dear native city, Cyrene, and as a literary critic. In his capacity as the god of poetry, Apollo directs Callimachus' literary career towards light poetry of small scale, instead of the grand epic, as the poet states in his prologue to the *Aetia*, and in the conclusion to his *Hymn To Apollo*. For Callimachus' remarkable interest in Apollo, see: Fraser (1972) 784 ff., who puts much emphasis on this point.

19- Prop. 3.3.1 ff. Cf. 4.1.131 ff.

20- The Poems of the *Aetia* are written as interrogations by Callimachus answered by the Muses (Calliope and Clio). For more details about Callimachus' *Aetia*, see: Fraser (1972) 720 ff.

21- Prop. 3.3.37 ff.

22- For the identification of Augustus with Apollo, see: E. Haight, "An Inspired Message In The Augustan Poets", *AJP* 39 (1918) 345 ff.; F. Altheim, *A History Of Roman Religion*, trans. by H. Mattingly (London 1938) 365 ff. Augustus' relation to the cult of Apollo as an aspect of his religious activities has ever attracted the attention of scholars, see: H. Rowell, *Rome In The Augustan Age* (Oklahoma 1981 repr.) 188 ff. See also A. Momigliano, "Roman Religion Of The Imperial Period," in: *Religions Of Antiquity*, ed. R. Seltzer (Macmillan 1989) 219, who points out to a certain consequence of imperialism which was the emphasis on victory and on certain gods of Greek origin (such as Apollo) as gods of victory.

as we know from Dio Cassius 51.21.5-9, it contains no praise whatsoever of Octavian.

6- The technical term used by critics for this sort of poems is the *recusatio*. Cf. Prop. 2.1; 3.3; 3.9. W. Johnson, "Final Exit: Propertius 4.11", in: *Classical Closure: Reading The End In Greek And Latin Literature*, ed. D. Roberts et al. (Princeton 1997) 179, argues that the *recusatio* for Propertius "became a career, a fate. Like a fox terrier fastened on a trouser leg, the poet grabbed hold of recusatio and would not let go". For the Propertain *recusatio* see my "Catullus 68 And The Tradition Of The *Recusatio* Poems", in: *Alexandrian Studies II, Societe D'Archeologie D'Alexandrie*, Bulletin 46 (2001) 255 ff. with notes.

7- Cf. Prop. 2.7.13 ff. ; 2.15.41 ff. ; 2.9.7 ff. ; 2. 23.13 ff. ; 2 .31. 41 ff. It is apparent that Propertius' poetry was against Augustus' programme for moral reformations and marriage legislations.

8- The antiquarian tendencies are quite unlike Propertius' previous career, as shown in his first three books where he emphasizes over and again his role as a love-poet.

9- Umbria, in central Italy, was the birthplace of Propertius.

10- In these hints Propertius follows the literary principles which Callimachus announces in more than one place of his poetry, Cf. the prologue to the *Aetia* and *Hymn To Apollo*, 105 ff.

11- Some scholars draw attention to the fact that Horos plays the part earlier sustained by Apollo and the Muse Calliope to warn the poet to avoid epic and to return to love-elegy and the life that goes with it, see: H. Pillinger, "Some Callimachean Influences On Propertius, Book 4" *HSCP* 73 (1969) 173 f. ; Sullivan (1976) 141. G. Williams, *Figures of Thought in Roman Poetry* (Yale 1980) 123 , thinks that Horos' reply apologises for any shortcoming that the poet displays in the execution of his own ambitious programme. Cf. J. Debrohun, "Redressing Elegy's Puella: Propertius IV And The Rhetoric Of Fashion", *JRS* 84 (1994) 44 ; S. Kaufhold, "A Look Back at Propertius 4. 1. 150", *Eranos 94* (1996) 33.

12- See for example: F. Solmsen, "Propertius In His Literary Relations With Tibullus And Vergil", *Philologus* 105 (1961) 281 ; Debrohun (1994) 43 ; Johnson (1997) 164.

13- The Palatine is one of the seven hills of Rome, on which the imperial palace of Augustus was built.

manner of Alexandrian Callimachus, Propertius showed how elegic poetry could be used to contribute to more serious Roman themes. He took the lead and another Roman elegiac poet, Ovid, followed in his *Fasti.*

To conclude, let me say that Propertius, as a master of irony and incongruity, casts Rome versus Alexandria on the surface. Politically speaking, he seems to set Rome in direct conflict with Alexandria. Though he adopts a Roman tone, it is not without an implicit touch of irony. Then on the literary level, to give Alexandrian thought its proper force, Propertius resorts to metaphorical references to Alexandrian poetics which he adopts. There appears some sort of fusion of Alexandrian and Roman thought results in the ultimate triumph of the Alexandrian(38). Ostensibly Rome wins over, but intrinsically Alexandria has the last word.

Notes

1- The debt of the Roman poets to the Alexandrians is very considerable, but is not always directly and explicitly admitted. Propertius acknowledges his debt in a very explicit way, see for example : 2.1 ; 3.1 ; 3.3 ; 3.9 ; 4.1 ; 4.6.

2- Cf. 2.7.13 ff. ; 2.15.47f. Propertius' light treatment of peace comes against a background of the notion of the *Pax Augusta*, circulated in the Age of Augustus. Generally, such Augustan political notions are not seriously meant.

3- It may be taken as probable, depending on internal evidence in Propertius' poems, that book one was given to the world in 26 B.C. For approximate dates of the publication of Propertius' books, see: J.P. Sullivan, *Propertius: A critical Introduction* (Cambridge 1976) 3f.

4- Augustus wished the poets to handle certain themes, Actium was one of these. When Propertius treats this subject in his later books, it comes in a way that casts doubt on his sincerity, as we will see.

5- Although Propertius' first book was most likely composed after the triple triumph that Octavian/Augustus celebrated in Rome on three successive days, beginning August 13, 29 B.C., commemorating his victories in Dalmatia, Actium and Alexandria,

that he suddenly and truly converted to Augustan ideals in the last book of his elegies, as one school of thought believes(34).

Let us move on to the alternative reading of the poem, that is the literary perspective. Propertius chooses to adopt to his Roman political hymn an Alexandrian sub-genre of elegy, that is etiological elegy, which deals with the origins and causes of customs, festivals, rituals, topographical and religious nomenclatue. To stress his point, after describing the battle of Actium, Propertius explains that on this occasion, Apollo's temple on the Palatine was built:

Actius hinc traxit Phoebus monumenta, quod eius
una decem vicit missa sagitta rates.

(Prop. 4.6. 67 - 8)

"Hence, Actian Phoebus (Apollo) acquired the temple, because one arrow he sent conquered ten ships."

This is to say that the cause behind the establishemnt of the temple of Apollo was to represent the thanks for the help that the god had given at the battle of Actium which was fought near a shrine of the god.

The etiological sub-genre was connected with the Alexandrian poet Callimachus since he wrote his famous *Aetia*. Although all of the Roman poets of the Augustan Age were influenced in a way or another by the Alexandrian poet Callimachus(35), we could single Propertius out as the one who explicitly prides himself on being the "Roman Callimachus", as he states in the programmatic poem to book 4(36), mentioned above.

Poem(4.6) is the Roman adaptation of Alexandrian poetics. The enigma or paradox of the poem is that it celebrates the victory of Octavian/ Augustus over the Egyptian queen in a deliberate cultivation of Alexandrian manner. Propertius adopted for his poem on the official cult-policy and military victory an Alexandrian generic form, that is hymn(37), and Alexandrian sub-genre, that is the etiological. In the

be no cruel weapons or warships, nor would Roman bones be tossed over the sea around Actium, and Rome would not be tired of mourning. At the time Propertius condemns Actium, he highlights his life of love. He believes that the thing which posterity will be able to praise in him surely and deservedly is that his battles with his girl-friend have not offended any of the gods:

haec certe merito poterunt laudare minores:
laeserunt nullos proelia nostra deos.

(Prop. 2.15. 47 - 8)

We should not forget that Actium, from the Roman point of view, was a symbol of the victory of Roman culture and Roman spirit, a symbol of the revival of Roman patriotism. Octavian/Augusts wished the poets to glorify Actium as it was the decisive battle of his career. For this reason, Propertius' attitude towards the battle of Actium has been strongly debated(30).

At this point let us put the emphasis appropriately on the question: was there a real political consideration that motivated poem (4.6) to any significant degree? Politics was not a grinding motivation for Propertius, but he did not prefer to blind himself totally to political events, especially that Propertius was a member of Maecenas' literary circle that was representing the regime. In more than one place of his poetry, Propertius refers to some sort of pressure exercised upon him through his patron Maecenas(31), nevertheless, his tendencies and political views lie elsewhere. He was not the only Augustan poet to celebrate the victory at Actium, but there was significant alteration from the description he took from his elder fellow-poets, Virgil and Horace(32).

To read Propertius' text in (4.6), politically rather than poetically, my contention is that poem (4.6) is not his true patriotic concession to Augustan pressure, it is rather his subtle alternative respose to imperial demands(33). It is unlikely

First: In an implicit criticism of Augustus, in poem (3.5), Propertius says that conqueror and conquered meet as equals among the dead in the underworld(29):

victor cum victo pariter miscetur in umbris:

(Prop. 3. 5. 15)

Then he cites the example of captive Jugurtha, the enemy of Rome, who sits in the underworld with consul Marius, the great Roman leader who captured him:

consule cum Mario, capte Iugurtha, sedes.

(Prop. 3.5.16)

If we read this poem (3.5) between the lines of (4.6), this undermines and nullifies the Roman victory of Octavian/Augustus over the Egyptian queen, Cleopatra. Propertius imagines in (4. 6. 65 - 6) that Cleopatra would be led in the streets of Rome as Jugurtha was before, which is the ultimate humiliation! The reader is left to fill in the picture for himself. It is implicitly conceived that in the underworld, as conquered Jugurtha was on equal footing with his conqueror Marius, so in the same concept Cleopatra would be on equal footing with her conqueror Caesar Augustus, the emperor, why not?

Second: In poem (3.4), Propertius talks about the triumphal parade of the future expeditions of Caesar Augustus, offering a prayer for his success and imagining Augustus' chariot loaded with spoils and captured leaders. Propertius' only role, as he ironically confesses, would be to watch the triumphal procession of Caesar in Rome, while leaning on the bosom of his girl-friend:

inque sinu carae nixus spectare puellae
incipiam, ...

(Prop. 3.4. 15-16)

Third: Elsewhere in his poetry (2.15.41-6) Propertius' attitude towards Actium is subtly critical. He says that if all men wished to lead a life of wine and women like his, there would

et favet ex umeris hoc onus omne meis.
solve metu patriam, ...

(Prop. 4.6.39 -41)

"Conquer at sea: the land is already yours: my bow is serving in the field for you and all this load (of arrows) on my shoulders is protecting you. Free your country from fear, ..."
Once again the god concludes by saying:

ducam laurigera Iulia rostra manu.

(Prop. 4.6.54)

" I , with my laurelled hand , will guide the Julian ships".
Very briefly (55-58), Propertius relates the Roman victory over Cleopatra as a fulfillment of the god's promise:

vinict Roma fide Phoebi: dat femina poenas:
sceptra per Ionias fracta vehuntur aquas.

(Prop. 4.6.57-8)

"Rome conquers by the faith of Apollo: the woman[25] *pays the penalty: after her sceptre was shattered, she is borne along the Ionian waves".*
Julius Caesar, from the sky[26], and sea-gods hail this victory (59-62). In two lines only, Propertius describes the flight of the Egyptian queen. After that, the poet moves on to imagine the triumph-parade in Rome as follows:

di melius ! quantus mulier foret una triumphus,
ductus erat per quas ante Iugurtha vias !

(Prop. 4.6. 65 -6)

"Good heavens ! How great a triumph one woman would be, in the (same) streets through which Jugurtha[27] was led before".

For Roman mentality the triumph parade was highly thought of[28], and considered of extreme importance to leaders throughout their career. It was the most glorious event for a Roman, nevertheless, this did not fit in the thought of Propertius. More than one thing strikes the reader:

truly Roman hymn and a truly serious panegyric to the Roman emperor. It is a frankly Alexandrian production.

After performing the rites, and in lines (11-14), Propertius invokes the Muse, Calliope, to inspire him to sing of the two elevated themes, both worthy of her favour: **firstly** the temple of Apollo on the Palatine, **secondly** the glory of Caesar Augustus. Let us keep in mind that Calliope is the Muse who answers the queries of the Alexandrian poet Callimachus in his *Aetia*(20), and who also joins Apollo in Propertius' earlier poetry to advise him to make the Alexandrian poetical conception his own(21).

The battle of Actium established Apollo as Augustus' patron god. Propertius picked the two right figures to be put together: the god Apollo and the emperor Augustus, who was identified with that god(22) as illustrated in the literature of the age(23). Propertius was not the architect of this concept, it was already familiar to the poet and his contemporaries, since Octavian/Augustus encouraged the circulation of a legend that Actian Apollo was not only his patron god, but that he was identified with him.

Hereafter, the poet describes the site of Actium and the struggling forces (15-24). Then comes the epiphany of Apollo at the battle (25-36), taking the side of Octavian/Augustus:

Cum Phoebus linquens stantem se vindice Delon

....

astitit Augusti puppim super, ...

(Prop. 4.6.27& 29)

"When Phoebus (Apollo), leaving Delos which stands under his protection, ... stood over Augustus'(24) ship".

The god delivers a speech of encouragement to Octavian/Augustus (37-54), calling him "the saviour of the world" (*mundi servator ...37*) ,and assuring his victory through his aid:

vince mari: iam terra tua est: tibi militat arcus

is an etiological poem explaining the dedication of the temple of Apollo on the Palatine[13] in 28 B.C. So this poem is supposed to be a hymn of praise to both the emperor Augustus and the god Apollo.

The poem consists of 86 verses. In the introductory lines (1-10), Propertius presents himself as a poet-priest performing the rituals of the god Apollo *(sacra facit vates (4.6.1))*, and offering him sacrifice in a way that invites comparison with the famous *Hymn To Apollo*, written by the Alexandrian poet Callimachus[14]. Propertius starts with the religious scene, even before the conventional invocation of the Muse[15]. And while performing the rituals of the god, much to the surprise of the reader, the poet-priest Propertius says:

Serta Philiteis certet Romana corymbis,
et Cyrenaeas urna ministret aquas.

(Prop. 4.6.3 -4)

"Let the Roman garlands rival the ivy crown of (Alexandrian) Philitas[16], and let a Roman pitcher pour out Cyrenaean (Callimachean) waters[17]."

Thus, from the start Propertius brings into focus the two great Alexandrian poets: Philitas and Callimachus, to raise the awareness of the reader to the influence of both of them. By this hint, Propertius undercuts the religious Roman touch of the ritual. Also by presenting these two celebrated Alexandrian poets to the religious Roman scene, Propertius undercuts, in an unmistakable way, the patriotic political effect of the occasion on which he performs the rites of Apollo and offers him sacrifice for his help to the Romans at the battle of Actium. Taking also into consideration that Propertius is celebrating in (4.6) the same god whom he depicts as directing his literary talents towards Alexandria[18] all over his career, as he explicitly declares in the previous book[19], to my understanding poem (4.6) is far from being a

The lines just quoted reflect Callimachus' critical views in avoiding epic and grand themes(10).

2- Propertius imagines a Babylonian astrologer, Horos, who warns him against trying his hand in Roman grand themes (4.1 -71 ff.). Horos rebukes the poet for the topics he proposes for himself in the last book(11):

accersis lacrimas : aversus cantat Apollo:
poscis ab invita verba pigenda lyra.

(Prop. 4 .1 -73-4)

"You are bringing tears : Apollo sings unfavourably. You are asking a reluctant lyre for words that must cause sorrow".

Even Apollo is unfavourable to Propertius' attempt to write on more serious Roman themes. Horos advises him to stick to elegiac love-poetry:

at tu finge elegos, pellax opus (haec tua castra !),
scribat ut exemplo cetera turba tuo.

(Prop. 4.1.135 - 6)

"Yet you compose elegy, a deceitful task (this is your camp !), so that the rest of the crowd may write after your example".

Some scholars view Propertius' announcement of his new subject from a more positive Roman angel(12). Such an interpretation ought not to be dismissed entirely. Let us see to what extent he could be conceived as such.

In my present papaer I focus on poem (4.6), in which Propertius seems to serve Rome in an Alexandrian manner. This poem poses a difficulty and has provoked a number of attempts at interpretation, because it offers different and contradictory messages all at once. Two perspectives mainly appear in this poem: political and literary. My main thesis is to follow their suggestions.

In the form of a hymn to the god Apollo, the poet celebrates the victory of Octavian (the future emperor Augustus) over Antony and the Egyptian queen Cleopatra at the battle of Actium by the god's aid. At the same time, (4.6)

Alexandrian poet. Propertius even claims himself to be the Roman Callimachus:

Ennius hirsuta cingat sua dicta corona:
mi folia ex hedera porrige, Bacche, tua,
ut nostris tumefacta superbiat Umbria libris,
Umbria Romani patria Callimachi!

(Prop. 4 . 1. 61- 4)

"Let Ennius crown his verses with unpolished garland: Bacchus, offer me leaves of your ivy , that Umbria(9) may swell and be proud of my books, Umbria the home of Roman Callimachus".

Yet Roman Callimachus dedicates his work to Rome, and asks Rome for favour:

Roma , fave, tibi surgit opus: ...

(Prop. 4.1. 67)

"Rome , be favourable, my work rises for you..."

Then Propertius announces his new subject by saying:

Sacra deosque canam et cognomina prisca locorum:

(Prop. 4.1. 69)

"I shall sing of rites and gods and the ancient names of places".

Although Propertius proposes, in (4.1), to write Roman patriotic themes, this very poem is full of Callimachean (Alexandrian) hints in more than one point:

1- The poet's hesitation to attempt grand themes: his voice is "small", his flow of inspiration is also "small":

ei mihi, quod nostro est parvus in ore sonus !
sed tamen exiguo quodcumque e pectore rivi
fluxerit, hoc patriae serviet omne meae.

(Prop. 4. 1. 58-60)

"Ah me that a small voice is on my lips ! But yet whatever the small stream that has flown from my limited breast, the whole of it will serve my country."

himself from celebrating his exploits[6] or as criticising his policy in an ironic way[7].

Interestingly enough, in one of his poems, he draws an implicit comparison between Caesar Augustus, the emperor, and himself by saying:

'at magnus Caesar'. Sed magnus Caesar in armis:
devictae gentes nil in amore valent.

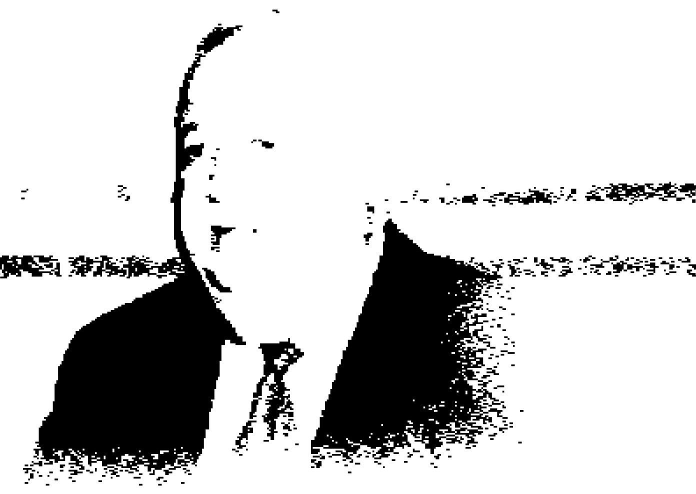
(Prop. 2.7.5 - 6)

" 'Yet Caesar is great'. But Caesear is great in warfare: Conquered nations count nothing in love".

In his fourth book, Propertius seems to transcend beyond the confines of love-elegy to a new area of patriotic and etiological poems. It has been traditionally believed that Book 4 was Propertius' concession to Augustan pressures. The tendency towards Roman antiquarianism, in a sense, means a search for the meaning of Rome to the world as it treats the antiquities of Rome, and the origins of Roman rites and customs. But this topic, which Propertius chose, was suggested by the *Aetia* of the Alexandrian poet Callimachus (305-240 B.C.), in which he explains religious customs , rituals, festivals, place-names and foundation of cities.

In the initial poem of Book 4, Propertius announces his new programme (4.1. 61-70). This poem is significant to my argument in my present paper, **firstly** because it is supposed to be a programmatic poem to Book 4, in the sense that Propertius proposes his future work, including poem (4.6). **Secondly** because in poem (4.1), Propertius presents his Callimachean (Alexandrian) intentions. He is moving on to a new turn in his career, to antiquarian tendencies, which seem ostensibly to revolutionize the way we take him[8].

At the beginning of (4.1), Propertius focuses on the greatness of Rome, nevertheless he turns his back on Ennius, the father of Roman poetry, in favour of Callimachus, the



The Fusion Of Alexandrian And Roman Thought In Propertius 4.6

Magda El-Nowieemy
University of Alexandria

It is wıuely agreed that without Alexandria Roman literature would have been completely different. This subject is so vast that I must here confine myself to consideration of one Roman poet only. My choice of Propertius (c.54-16 B.C.) is highly connotative as he evidently and continually acknowledged his debt to the Alexandrian tradition(1).

At the start what I try to draw attention to is that Propertius was essentially a love-poet, who expresses over and again in his poetry his reverence for peace(2). He says:

non ego sum laudi, non natus idoneus armis:

(Prop. 1.6. 29)

"I was born unfit for glory, unfit for arms:"

In another poem he says:

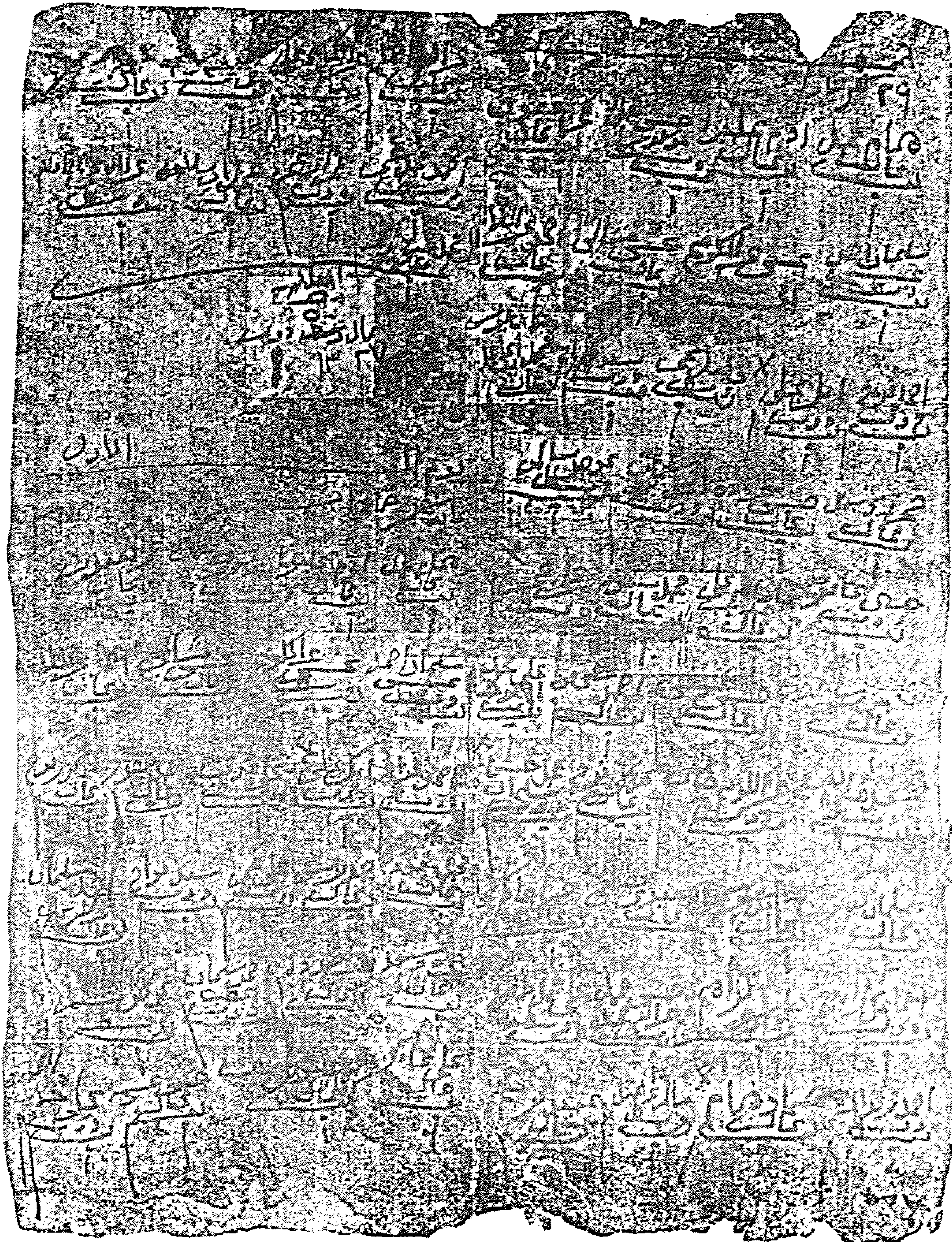
Pacis Amor deus est, pacem veneramur amantes:
Sat mihi cum domina proelia dura mea.

(Prop. 3.5. 1-2)

"Love is the god of peace, we lovers worship peace: It is enough for me to have stern battles with my mistress".

Although the first book of his elegies was published after the battle of Actium(3) in 31 B.C., he did not celebrate the Roman victory over the Egyptian queen Cleopatra(4), and he never mentioned the Roman emperor in that book(5). And although he mentioned him several times later on in the next three books, either explicitly or implicitly, Propertius was not one of those Roman poets who sympathized with his policy. He refers to the emperor either in a context of excusing

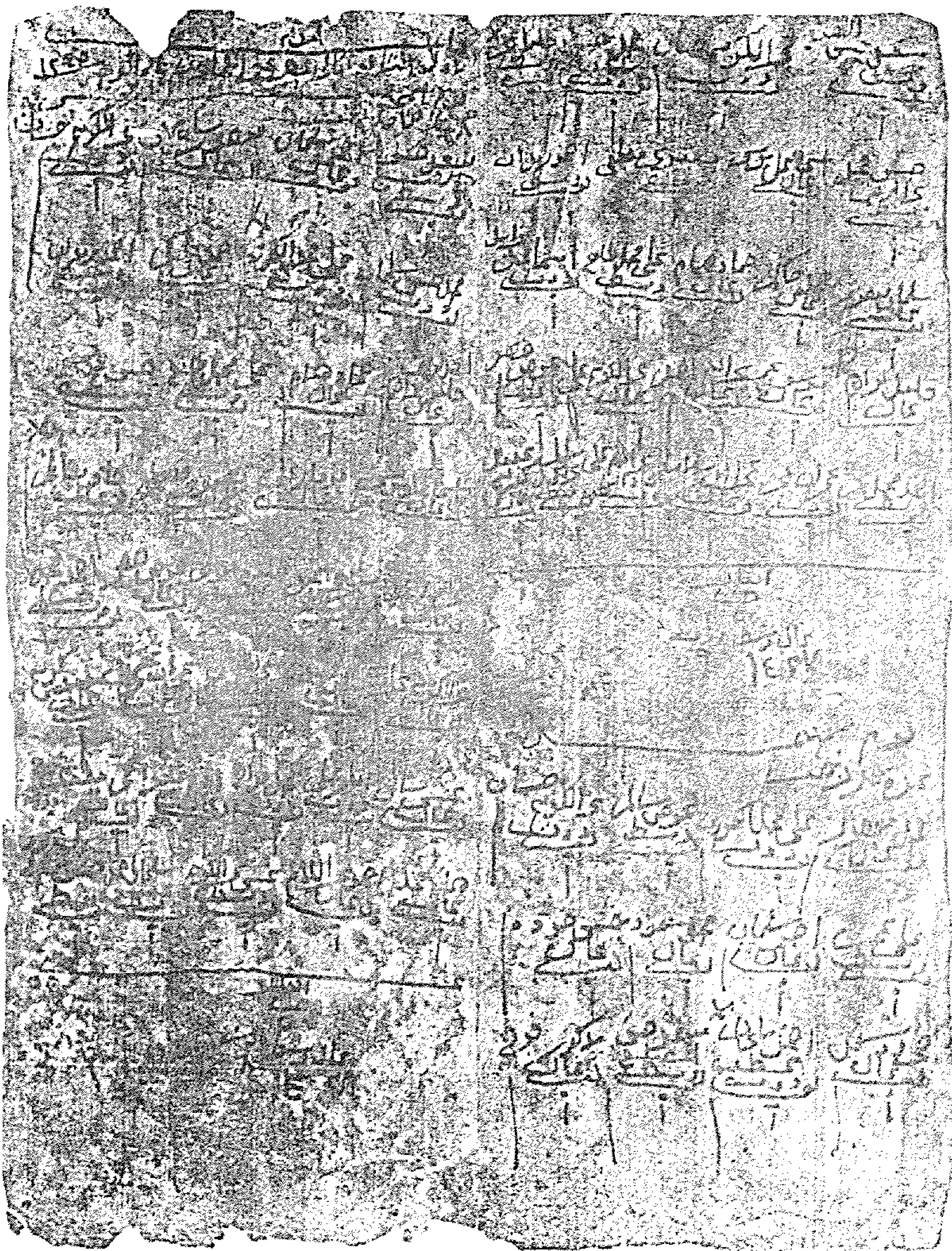
BACK





Anc b. 26

FRONT



Col. IV

Sunday, the first of the month of Ragab

Muhammad Mansour High W.	**Ali Muhammad al-Kamûry Low W.**	**'Awad salem Medium W.**	**Abdel-Karim Hassan Low W.**
Ali Omar Medium W.	**Ahmad Soliman High W.**	**Muhammad Mas'oud High W.**	**Hassan Gouda High W.**
Mahmoud Sa'd High W.	**ˣAhmad Soliman 'Ata Low W.**	**Sa'd Hassan Aldab' Medium W.**	**Makour Farag High W.**

TEXTUAL NOTES AND COMMENTS:

L. 1- The reading of the word عداد is not certain. The first letter looks like *mim* more than *'Ain*. Besides, the reading of the last letter is uncertain. One may read the word as إمـــداد although the last letter will still remain uncertain. أعداد could give good meaning with the word بأجر that has been written in 2nd line.

Line 3, col. I العمارين is a colloquial word. Its synonym is البنائين.

Line 4, col. I, and line 1, col. III bear a word could be read as الأول. It may mention that the first supervision had done. So, the supervisor decided to make the second supervision (cf. L.3)

Lines 7, 9, 10, col. I, 6, 8, 13 col. II, 5, 9, 12 col. III, and 5, col. IV bear the sign x above some names (see introd.).

Col. III

Saturday 'the first, the end of the month of Gumada al-Akhar (the second).

Hammam Muhammad High W.
Adam 'Eliwa High W.
Hassan Mohammad Madkour Medium W.
Omar Ya'ob High W.

Soliman Ahmad 'Esa Medium W.
'Esa Abdel-Karim Medium W.
'Esa Mashali High W.
Ahmad Abdel_Salam High W.

Ahmad Farrag Low W.
×Abkar Ali Low W.
Ali Gharib Medium W.
Muhammad Mansour High W.
Madkour Farrag High W.

Muhammad Mas'oud High W.
Hammad Youness High W.
Ali Omar Medium W.
Sa'd Farrag Low Wage
Ahmad Soliman Abdel-Rassoul High W.

Mahmoud Sa'd High W.
Hassan Gouda High W.
Ahmad Soliman 'Ata Low W.
'Awad salem Medium W.

Ali Amer High W.
Mansour Shahin High W.
Hassan 'Esa High W.
Ali Muhammad al-Kamûry Low W.

Sa'd Hassan Aldab' Medium W.
Abdel-Karim Hassa'n Low W.
Ali Hassan Soliman Low W.
×Khalil Omar Medium W.

Hassan Muhammad Abdel-Rahman Medium W.
Esma'il Mussa High W.
Ba'bady Mustafa High W.
Ahmad Zidan Medium W.

Soliman Mamsour High Wage
Hamad Hakem High W.
Hammad Hammam High W.
Ali Muhammad T?aha Medium W.
Esma'il Zayed Low W.

×Khalia Ibrahim High W.
Youssef Omar High W.
Abdallah Ahmad High W.
Abdel-Karim Ali High W.
'Awad Khedr High W.

Ahmad Muhammad Omar Medium W.
Omran Omar Low W.
Omran Salama High W.
Abdalla Ali Gadallah Medium W.
Salem Abdelhamid Medium W.
Obeid Karim High W.

N(umber)
P(ersons)
I(ndividual)
50

High	Medium	Low
27	14	9

Hussny 'Amer Low W.	**Gadallah Ali Gharib Low W.**	**Muhammad Mas'oud High W.**	**×Ali Omar Medium W.**
Mansur Shahin High W.	**Hassan 'Esa High W.**	**Ahamad Soliman High W.**	**Ali Muhammad al- Kamûry Low W.**
Sa'd Hassan Aldab' Medium W.	**Abdel-Karim Hassan Low W.**	**Madkur Farrag High W.**	**×Muhammad Hassan Soliman Low W.**
Soliman Mamsour High W.	**Esma'il Mussa High W.**	**Ba'bady Mustafa High W.**	**Muhammad Hakem High W.**
Esma'il Zayed Low W.	**Khalil Ibrahim High W.**	**Hassan Muhammad Abdallah Hammad Medium W.**	**Ali Muhammad T?aha Medium W.**
Ahmad Zidan Medium W.	**×Hammad Hammam High W.**	**Salem Abdel- Hamid Medium W.**	**Obeid Karim High W.**
Abdallah Ahmad High W.	**Abdel-Karim Ali High W.**	**Obeid Karim High W.**	**'Aboud Sa'd High W.**
Ahmad Muhammad 'Esa Medium W.	**'Omran 'Omar High W.**	**'Omran Salamma Medium W.**	**Abdalla Ali Gadallah Medium W.**
Muhammad Mansur High W.			

N(umber)
P(ersons)
I(ndividual)
50

High	Medium	Low
27	13	10

Abdullah Ahmad **High** **W.**	**Khalifa Mua'wad** **High** **W.**	**'Awad Khedr** **High** **W.**	**Ahmad Muhammad Omar** **Medium** **W.**

Abdel-Karim Ali **High** **W.**	**Osman Salama** **High** **W.**	**Abdallah Ali Gad-Allah** **Medium** **W.**	**Omran Omar** **Low** **W.**	**ˣObeid Karim** **High** **W.**
'Esa Mashali **High** **W.**	**Abkar Ali** **Low** **W.**	**Muhammad Farrag** **Low** **W.**	**Adam 'Eliwa** **High** **W.**	**Omar Ya'ob** **High** **W.**
Hammam Muhamma d **High** **W.**	**AhmadAb del-Salam** **High** **W.**	**'Esa Abdel-Karim** **Medium** **W.**	**Soliman Ahmad 'Esa** **Medium** **W.**	**Hassan Mohammad 'Madkour'** **Medium** **W.**

Number
Persons
Individual
50

High	Medium	Low
28	14	8

Col. II

] Wageworkers
Friday, 29th of the month of Gumada al-Akhar (the second).

Hammam Muhammad **High** **W.**	**Adam 'Eliwa** **High** **W.**	**Hassan Mohammad Madkour** **Medium** **W.**	**Omar Ya'ob** **High** **W.**
Soliman Ahmad 'Esa **Medium** **W.**	**'Esa Abdel-Karim** **Medium** **W.**	**'Esa Mashali** **High** **W.**	**Ahmad Adel-Salam** **High** **W.**

Ahmad Farrag **Low** **W.**	**ˣAbkar Ali** **Low** **W.**	**Khalil Omar** **Low** **W.**	**Sayed Farrag** **Low** **W.**	**Muhammad Youness Muhammadin Ismail** **High** **W.**

Mahmoud Sa'd **High** **W.**	**Hassan Guda** **High** **W.**	**Ahmad soliman 'Ata** **Low** **W.**	**'Awad salem** **Medium** **W.**

Col. IV

١- يوم الأحـــــــد
٢- غرة شهــــــر رجــــب

٣- محمد منصور عال يـــ أ — على محمد الكمورى دون يـــ أ — عوض سالم وسط يـــ أ — عبد الكريم حسان دون يـــ أ

٤- على عمر وسط يـــ أ — أحمد سليمان عال يـــ أ — محمد مسعود عال يـــ أ — حسن جودة عال يـــ أ

مدكور فرج عال يـــ أ — سعد حسن الضبع وسط يـــ أ — أحمد سليمان[×] عطى دون يـــ أ — محمود سعد عال يـــ أ — ٥-

TRANSLATION:

Col. I

Wageworkers

By His permission, if ALLAH wills, we will pass (to supervise) the masons for the second time to day, the year 1245, Thursday 28 th of the month of Gumada al-Akhar (the second).

Sa'd Hassan Al-Dab' Medium W.	**Ahmed Sliman ·Medium W.**	**Mansûr Shahin Medium W.**	**Abdel-Karim Hassa'n Medium W.**
Muhammad Hassan Soliman Low W.	**[×]Ali Muhammad al-Kamûry Low W.**	**Hamad Hakim High W.**	**Ahmed Zidan Low W.**
Ahmed Yossef Khalil Ibrahim High W.	**Hammed Hammam High W.**	**Ali Muhammad T?aha Low W.**	**Hassan Muhammad Abdalla Medium W.**
Isma'l Mussa High W.	**Mermar Ali High W.**	**Ba'bda Mustafa High W.**	**[×]Gad Salem High W.**

٦-
محمد مسعود عال يـــــ أ
حمد يونس عال يـــــ أ
على عمر وسط يـــــ أ
سعد فراج دون يـــــ أ
أحمد سليمان عبد الرسول عال يـــــ أ

٧-
محمود سعد عال يـــــ :
حسن جودة عال يـــــ أ
أحمد سليمان عطى دون يـــــ أ
عوض سالم وسط يـــــ أ

٨-
على عامر عال يـــــ أ
منصور شاهين عال يـــــ أ
حسن عيسى عال يـــــ أ
على محمد الكمورى دون يـــــ أ

٩-
سعد حسن الضبع وسط يـــــ أ
عبد الكريم حسان دون يـــــ أ
على حسن سليمان دون يـــــ أ
خليل عمر× وسط يـــــ

١٠-
حسن محمد عبد الرحمن وسط يـــــ أ
إسماعيل موسى عال يـــــ أ
بعيدى مصطفى عال يـــــ أ
أحمد زيدان وسط يـــــ أ

١١-
سليمان منصور عال يـــــ أجرة
حمد حاكم عال يـــــ أ
حماد همام وسط يـــــ أ
على محمد طه وسط يـــــ أ
إسماعيل زايد دون يـــــ أ

١٢-
خليل إبراهيم× عال يـــــ أ
يوسف عمر عال يـــــ أ
عبد الله أحمد عال يـــــ أ
عبد الكريم على عال يـــــ أ
عوض خضر عال يـــــ أ

١٣-
أحمد محمد عمر وسط يـــــ أ
عمران عمر دون يـــــ أ
عمران سلامة عال يـــــ أ
عبد الله على جاد الله وسط يـــــ أ
سالم عبد الحميد وسط يـــــ أ
عبيد كريم عال يـــــ أ

١٤- عـــــــــــــــــــــــــــ(ـــدد)
١٥- أنفار
١٦- فـــــ(ـــرد)
١٧- ٥٠
١٨- عال وسط دون
١٩- ٢٧ ١٤ ٩

-١٣	أحمد زيدان وسط يد___ أ	حماد همام× عال يد___ أ	سالم عبد الحميد وسط يد___ أ	عبيد كريم عال يد___ أ
-١٤	عبد الله أحمد عال يد___ أ	عبد الكريم على عال يد___ أ	عبيد كريم عال يد___ أ	عبود سعد عال يد___ أ
-١٥	أحمد محمد عيسى وسط يد___ أ	عمران عمر دون يد___ أ	عمران سلامه عال يد___ أ	عبد الله على جاد الله وسط يد___ أ
-١٦	محمد منصور عال يد___ أ			

-١٧ ع________(ـدد)

-١٨ أنفار

-١٩ فـــ(ــرد)

-٢٠ ٥٠

-٢١ عال وسط دون

-٢٢ ١٣ ١٠

Col. III

١- يوم السـ________بت "الأول"؟

٢- نهاية شهر جماد آخر

-٣	همام محمد عال يد___ أ	آدم عليوا عال يد___ أ	حسن محمد مذكور وسط يد___ أ	عمر يعقوب عال يد___ أ	
-٤	سليمان أحمد عيسى وسط يد___ أ	عيسى عبد الكريم وسط يد___ أ	عيسى مشالى عال يد___ أ	أحمد عبد السلام عال يد___ أ	
-٥	أحمد فراج دون يد___ أ	أبكر على× دون يد___ أ	على غريب وسط يد___ أ	محمد منصور عال يد___ أ	مذكور فرج عال يد___ أ

-٤	همام محمد عال يد أ	آدم عليوا عال يد أ	حسن محمد مدكور وسط يد أ	عمر يعقوب عال يد أ	
-٥	سليمان أحمد عيسى وسط يد أ	عيسى عبد الكريم وسط يد أ	عيسى مشالى عال يد أ	أحمد عبد السلام عال يد أ	
-٦	أحمد فراج دون يد أ	أبكر على× دون يد أ	خليل عمر دون يد أ	سيد فراج دون يد أ	حمد يونس محمدين إسماعيل عال يد أ
-٧	محمود سعد عال يد أ	حسن جودة عال يد أ	أحمد سليمان عطى دون يد أ	عوض سالم وسط يد أ	
-٨	حسنى عامر دون يد أ	جاد الله على عال يد أ	محمد مسعود عال يد أ	على عمر× وسط يد أ	
-٩	منصور شاهين عال يد أ	حسن عيسى عال يد أ	أحمد سليمان عال يد أ	على أحمد الكمورى دون يد أ	
-١٠	سعد حسن الضبع وسط يد أ	عبد الكريم حسان دون يد أ	مدكور فرج عال يد أ	محمد حسن× سليمان دون يد أ	
-١١	سليمان منصور عال يد أ	إسماعيل موسى عال يد أ	بعيدى مصطفى عال يد أ	حمد حاكم عال يد أ	
-١٢	إسماعيل زايد دون يد أ	خليل إبراهيم عال يد أ	حسن محمد عبد الله حمد وسط يد أ	على محمد طاه وسط يد أ	

٩-	إسماعيل موسى عال يد______ أ	مرمار على عال يد______ أ	بعيدى مصطفى عال يد______ أ	جاد سالم× عال يد______ أ	أحمد محمد وسط يد______ أ
١٠-	عبد الله أحمد عال يد______ أ	سالم عبد الحميد وسط يد______ أ	خليفة معوض عال يد______ أ	عوض خضر عال يد______ أ	عبيد كريم× عال يد______ أ
١١-	عبد الكريم على عال يد______ أ	عثمان سلامة عال يد______ أ	عبد الله على جاد الله وسط يد______ أ	عمران عمر دون يد______ أ	عمر يعقوب عال يد______ أ
١٢-	عيسى مشالى عال يد______ أ	أبكر على دون يد______ أ	محمد فراج دون يد______ أ	آدم عليوه عال يد______ أ	حسن محمد 'مذكور` وسط يد______ أ
١٣-	همام محمد عال يد______ أ	أحمد عبد السلام عال يد______ أ	عيسى عبد الكريم وسط يد______ أ		سليمان أحمد عيسى وسط يد______ أ

١٤- ع______________________(ـدد)

١٥- أنفار

١٦- فــــ(ــرد)

١٧- ٥٠

١٨- عال وسط دون

١٩- ٢٨ ١٤ ٨

Col. II

١-] أنفار عمل

٢- الجمعــــــــــــــــــــــــــــــــة

٣- ٢٩ شهر جماد آخــــــــــــــــــــر

metals). 2) السعدية (it was four and its weight is two karats. Two third of it is from gold and 1/3 is from the mixed metals). 3) القروش (Piasters) the silver coinage (they are either a piece of twenty or ten or five بارة). In addition there were coinage of less value made from many worthless metals. The current coinage was (الفضة)= القرش والبارة . If the sum is big الكيس was used. It equals 500 Piasters (see محمد فؤاد شكرى وآخرون *Ibid.* 548).

The abbreviations that have been used in this document are as follows.

أ = أجرة (= wage), عـ = عدد(= number), ف = فـرد (= individual). The sign **x** was used as a checked mark mostly for absent masons. They were 11 absent masons in these four dies. This sign raises question. Did the supervisor have kept the seals of the workmen signing for them at first and after that he mad a check? Or after they signed by themselves he made his supervision? The question, I think, will remain without answer. As well, he used another sign. It is a vertical strokeǀ. Perhaps he was using it when he was counting the workmen.

Col. I

١- أعـــــــــــــــداد؟
٢- بأجـــــــــــــــــــــــــــــــر
٣- بإذنه إنشاء الله تعالى نمر على العمارين تانى اليوم سنة ١٢٤٥
٤- يوم الخميـــــــــــــــــــــــس 'الأول`
٥- ٢٨ من شهر جماد آخـــــــــــــــر

٦-	سعد حسن لضبـــع وسط يـــــــ أ	أحمد سليمان عال يـــــــ أ	منصور شاهين عال يـــــــ أ	عبد الكريم حسان دون يـــــــ أ
٧-	محمد حسن سليمان دون يـــــــ أ	على محمد الكمورى^x دون يـــــــ أ	حمد حاكم عال يـــــــ أ	أحمد زيدان دون يـــــــ أ
٨-	أحمد يوسف خليل إبراهيم عال يـــــــ أ	حماد همام عال يـــــــ أ	على محمد طاه دون يـــــــ أ	حسن محمد عبد الله وسط يـــــــ أ

supervisor has counted, and in the last day, the list contains names of 12 masons only. Obviously, this list should be continued in another paper.

The number of the masons is 64 masons. Twenty-five of them has been registered once, fourteen of them twice, twenty-three of them three times, and six of them four times (note: Obeid Karim has sealed twice in the day of 29th of the *Gumada* the second).

The unite that was used in this document is the seal. It contains the name of the mason, the rate of his wage which either عال (higher) or وسط (medium) or دون (lower) and the word أجرة يد (the wage). Usually the rate of the wage of the mason is according to his skill in the work, therefore we have here three kinds of wages: higher, medium, and lower wage. Illiterate individuals to serve the same purpose as a signature use seals up to date.

It is known that the wages of the workmen were paid in money or in money and kind since the Byzantine period. Arabic papyri give us some information about the wages of the masons. It was about 1 ½ dirham daily plus lunch that costs about ½ dirham for the mason, while the wage of his assistant who called رقاص was ¾ dirham plus the lunch daily, and the boy who serves them was lunch only. In the reign of Mohammed Ali *Basha*, in a report written by the British Counselor R. Thurburn in 12 January 1838 that the real wages of the builder (البناء) is from 3 to 7 Piasters, and the laborer (الفاعل) from 1 1/2 to 2 1/2 Piasters daily. He explained that the high wage indicates to the wage of the mason in the large cities. He added also that these wages were high because the food was raised up in that time so match (see محمد فؤاد شكرى (وآخرون، بناء دولة مصر، محمد علـى، القاهرة، ١٩٤٨، ص. ٥٠٤). This means that in 1829 AD the wages might be was lower than the wages in 1838. The coinage that was used in Egypt in that day was 1)الخيرية (it was nine and its weigh is four karats and half, three of them are from gold and one karat and half was mixed

the 2nd) is complete but the list of the first of *Ragab* is incomplete.

The scribe has registered in cardinal numbers that the number of the masons who had worked in the 28th of *Gumada* the second is 50 masons. They are as follows:

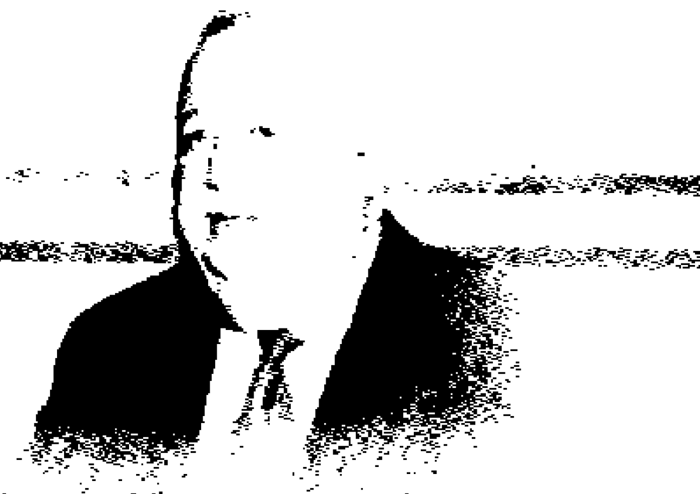
Higher wages	28	masons
Medium wages	14	masons
Lower wages	8	masons
Total	50	masons

By counting the number of masons, I found that the real number of masons is 36 masons. They are as follows:

Higher wages	20	masons
Medium wages	10	masons
Lower wages	6	masons
Total	36	masons

In addition to this in 29th of Gumada, the second the name of a mason called Obeid Karim (see Ll. 13, 14) who had a higher wage has been registered twice.

The first page has the date 28th of *Gumada,* the second above the list. Obviously, this is the beginning of the registration of the wages, because the head of the list is remaining. In that case, could we say that the supervisor had taken for himself wages of 14 masons, 8 of higher wages, 4 of medium wages, and 2 of lower wages? Or this page is a continuation of another page, in which the supervisor had registered names of 14 masons. Therefore, we have here only 23 names in this page. I prefer the second suggestion because 14 wages is so much to be taken by him. In addition, in the following two days, the number of the masons is 50 as the



THE EDITION OF AN UNPUBLISHED PAPER FROM DENMARK COLLECTION

Alia HANAFI
Ain Shams University

A LIST OF MASONS

Ms. Haun. Arab. 26
16.6 x 21.8 cm.

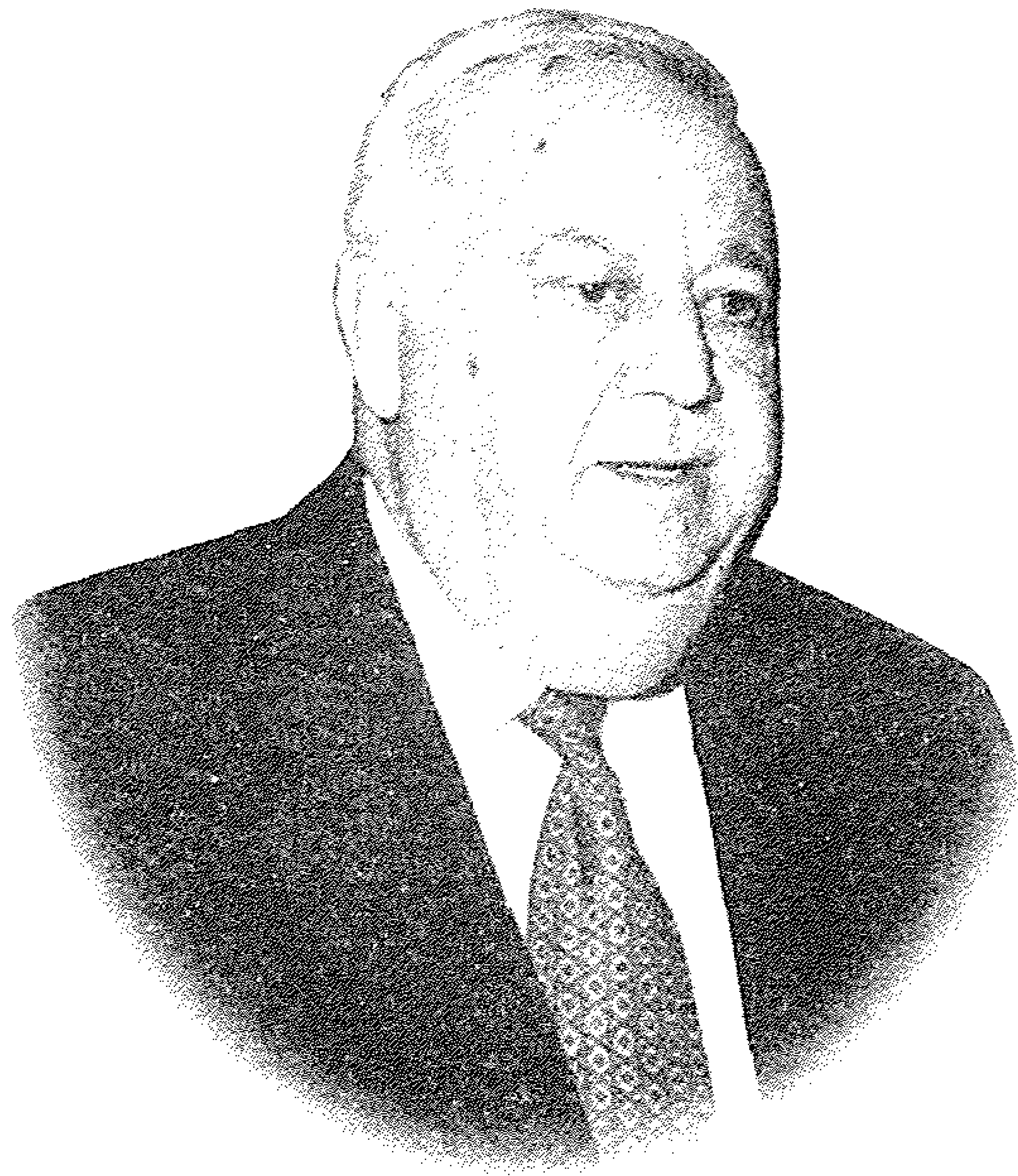
Provenance Unknown
28 Gumada, the 2nd 1245 A.H.
(=28 Nov. 1829 AD)

The paper is dingy brown strong paper, and in good preservation. The sheet was folded vertically down the middle. Then we have conjoint leaves. The order of surfaces is front face front and back face back. We able to say that front face front in the middle. It is obvious that the scribe started his writing on the outer page of the left-hand leaf. Then he continued on the inner page of the same leaf, moved to the inner page of the second leaf, and continued on the outer page of the same second leaf. It seems that there was another sheet, which perhaps was used by the same way because the list of the names in the first of *Ragab* is uncompleted. The document was dated in 28 *Gumada* the 2nd 1245 A.H / 28 Nov. 1829 AD (see Bertold Spuler, Wüsrenfeld-Mahler' Sche Vergleichungs-Tabellen, Wiesbaden, 1961, p. 26) in the reign of Mohammed Ali *Basha* (1220 – 1264 AH / 1805 – 1848 AD).

The document is a sheet of an account perhaps forming a part of a notebook. It estimates the wages of masons for four days. The scribe has recorded the names of the masons, describing the rate of their wages.

It is noticeable that the list of the first three days (i.e. Thursday 28th, Friday 29th, and Saturday 30th of *Gumada*

HISTORICAL STUDIES



In Honour of

Dr. ADEL H. GHONEIM

Edited by

Gamal M. Hagar

Dean of the Faculty of Arts- Alex. University

2005



المكرم والمحرر فى الدوحة ١٩٩٠

هـــذا الكـــتاب

حين يكرس باحث دؤوب جل حياته العلمية منذ مطلع الستينيات من القرن الماضي إلى الآن (٢٠٠٥) لخدمة تاريخ القضية الفلسطينية (قضية العرب الأولى)، وحين يصل إنتاجه الفكري حول هذه القضية خمسين عنواناً ما بين مقال وكتاب، فإن ذلك وحده سبب كاف لتكريم مسيرة الأستاذ الدكتور عادل حسن غنيم، رائد الدراسات الفلسطينية الحديثة.

والتكريم عملية إنسانية اجتماعية وثقافية معروفة لدي كافة الأوساط الاجتماعية والثقافية، ولكنها تتفاوت بين تلك الأوساط في المضمون والدلالة والرمز، كما أنها تتفاوت في موعد تقدير المكرم والاعتراف بفضله. وتكريم المرء في حياته، كلما لاحت الفرصة لذلك، يعتبر دافعاً لتجديد حياتنا، وتجديد واقعنا، وبعث الأمل في الاستمرار والتواصل بين الأجيال، وهو ما دفعني إلى تبني هذا الاتجاه البناء.

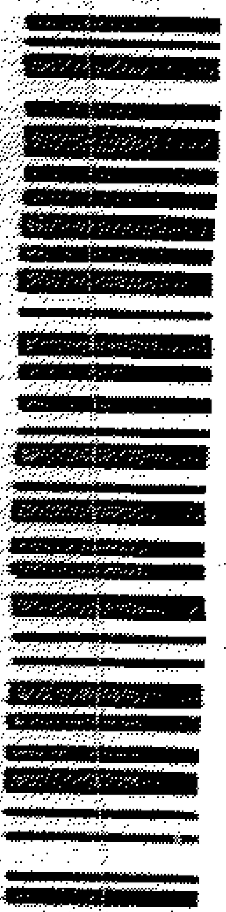
وتشكل مشاركات الزملاء الأفاضل في هذا الكتاب تنوعاً رائعاً من الكتابة التاريخية في فروع التاريخ المختلفة، مما يؤكد على اتساع دائرة العلاقات بين المكرم وزملائه وتلاميذه ومحبيه.

المحـــرر

HISTORICAL STUDIES

In Honour of

Dr. ADEL H. GHONEIM





Edited by

Gamal M. Hagar

Dean of the Faculty of Arts- Alex. University

2005